علي صوفان

من أهم عملاء الأف.بي.آي السابقين
أشرف وحقّق في أهم قضايا الإرهاب وأكثرها تعقيداً

بالاشتراك مع دانيال فريدمان

الرايات السود

ملاحقة القاعدة من الداخل

«مليء بالحقائق التي لم تقع
في أيدي وسائل الإعلام»
مجلس سياسة الشرق الأوسط



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الرايات السود

علي صوفان
بالاشتراك مع دانيال فريدمان

الرايات السود

ملاحقة القاعدة من الداخل

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان

مبنى مجموعة تحسين الخياط

ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان

تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٥

ISBN: 978-9953-88-796-8

Originally published as: **The Black Banners.**

صورة الغلاف: Asaf Eliason/shutterstock.com

ترجمة: سعيد محمد الحسنية

تصميم الغلاف: داني عوّاد

الإخراج الفني: فدوى قطيش

المحتويات

تنبيه

أريد أولاً أن أوضح للقارئ سبب وجود كلمات أو مقاطع محذوفة تتخلل هذا الكتاب.

طُلب إليّ، وبصفتي عميلاً سابقاً، تقديم مسوّدة كتابي هذا للمراجعة من أجل التأكد من عدم كشفه أيّ معلوماتٍ سرية، وكان ذلك في صُلب عقد توظيفي في مكتب التحقيقات الاتحادي FBI. لكنني كنت على استعدادٍ لتقديم مسوّدة الكتاب للمراجعة وإنْ لم يكن هناك ما يلزمني قانونياً بذلك.

راجع مكتب التحقيقات الاتحادي نصّ هذا الكتاب طوال ثلاثة أشهر. طلب إليّ المكتب خلال هذه المدة إجراء تغييراتٍ محددة، ثم أرسل إليّ رسالة بعدها تقول إنه «لا مانع من نشر ما يخص المعلومات المتعلقة بمكتب التحقيقات الاتحادي». أعلمتني FBI في الرسالة ذاتها أن النصّ أُرسل إلى وكالة الاستخبارات المركزية الـCIA للمراجعة. كان ذلك أمراً مستغرباً لأنني لم أكن مسؤولاً قط أمام CIA، كما أنني لم أوقّع أي عقدٍ معها. إنني أتفهّم تماماً شعور مكتب التحقيقات الاتحادي بالحاجة إلى التشاور مع الآخرين في مجتمع الاستخبارات حول بعض المواد المحددة الواردة في هذا الكتاب، لكن، وبالتأكيد، ليس حكماً بهدف تعريض

النص إلى جولةٍ ثانية وشاملة قبل نشره. انتظرتُ مع ذلك، ثم تسلّمت بعد سلسلة من التأخيرات ردّين منفصلين. لكن في ٢ آب/أغسطس، ٢٠١١، أرسلت وكالة الاستخبارات الأميركية قائمة تضم ما عدّته نقاطاً مقلقة إلى FBI بشأن الفصول من ١ إلى ١٥، كما أرسلت الوكالة في ٩ آب/أغسطس قائمة تضم عدة نقاط مثيرة للقلق تَرِدُ من الفصل ١٦ حتى نهاية الكتاب. علمتُ عند هذه النقطة بأن مسودة الكتاب ستدمغ بعبارة «مصادقٌ عليها للنشر» فور أخذ نقاط القلق بعين الاعتبار.

كنت كلما تسلّمت قائمة، أرسل بعد نصف يوم ردّاً حولها إلى مكتب التحقيقات الاتحادي. أظهرتُ في هذه الردود أن المواد التي أرادت الـCIA حذفها تقع ضمن أربع فئات: إما أنها ضمن المجال العام؛ أو أنها معلومات لمكتب التحقيقات الاتحادي؛ أو أنها معلومات لوكالة الاستخبارات المركزية مصنفة غير سرية؛ أو أنها لا تقع ضمن مواصفات المعلومات السرية. أما في هذه الحالة الرابعة فإن تلك المواصفات الصارمة تحجب عن الجمهور المعلومات عن قيام الوكالة، وبطريقة غير قانونية، بتصنيف معلومات على أنها سرية لدواعٍ غير ما تقتضيه ضرورات الأمن القومي، مثل محاولة حجب الإحراج، أو التغطيةً على الأخطاء.

أبلغني مكتب التحقيقات الاتحادي في ردّه أن الوكالة تعتزم «التراجع» عن الإصرار على حذف المواد، وأنها تخطط لإرسال مجموعة ثانية من الاعتراضات تكون أكثر شمولية، وهو الأمر الذي فعلته في ١٦ آب/أغسطس، ٢٠١١. لاحظت أن أسباب حذف هذه المواد تخرق، مثل سابقاتها، مواصفات المعلومات السرية كما أنها تراوح ما بين السخيفة وغير العقلانية. اشتملت الاعتراضات على جزء من حديث علني جرى بين أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي وبيني، وهو الحديث الذي بثّ حياً على شاشة محطّات التلفزيون القومية.

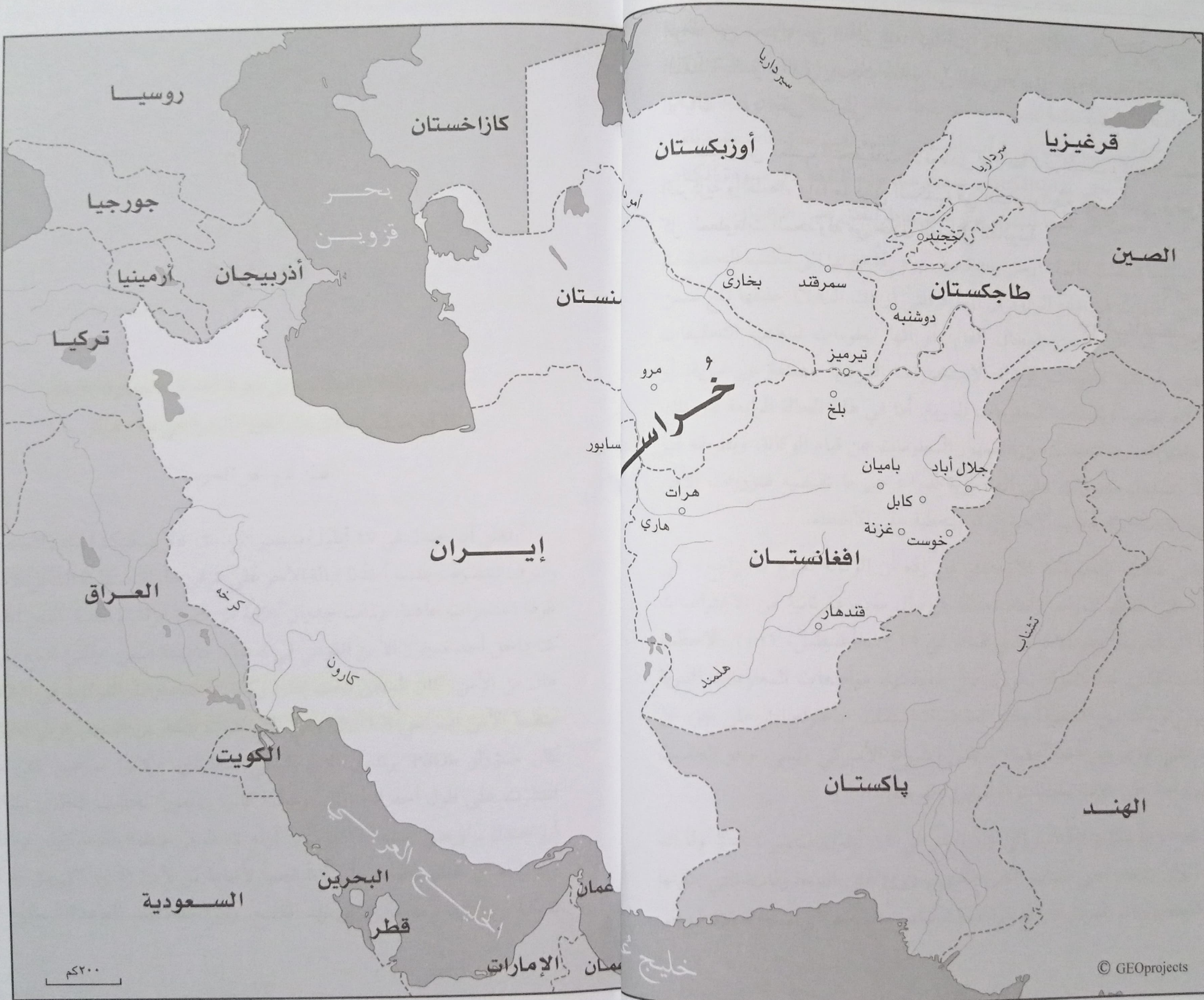
كنت ملتزماً تسليم الكتاب إلى دار النشر في ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠١١ ولذلك أقدمت، وإن بتردد، على تقديم النص الذي يحتوي على المحذوفات التي طلبتها وكالة الاستخبارات المركزية. تبلغ قوة هذا الكتاب حدّ عجز أي محاولة تهدف إلى

إفراغه من محتواه عن التأثير فيه، كما أنني واثقٌ تماماً من أنه بالرغم من الأسطر المغطّاة بالسواد الذي يحجب مقاطع من النص الأصلي فإن الرؤية الواضحة لكتاب الرايات السود تبقى كما هي.

طلبتُ من مكتب التحقيقات الاتحادي مراجعة اعتراضات وكالة الاستخبارات المركزية وإلغاءها، وإذا ما فشل المكتب في القيام بواجبه فإنني أنوي فرض إظهار كل المعلومات المحذوفة من خلال الوسائل القانونية.

علي صوفان

٢٣ آب/أغسطس ٢٠١١



روسيا
كازاخستان
جورجيا
بحر قزوين
أرمينيا
أذربيجان
تركيا
إيران
العراق
كرخه
كارون
الكويت
الخليج العربي
البحرين
السعودية
قطر
الإمارات
٢٠٠كم
أوزبكستان
سيرداريا
قرغيزيا
سرداريا
خجند
الصين
بخارى
سمرقند
طاجكستان
دوشنبه
تيرميز
مرو
بلخ
باميان
جلال آباد
هرات
كابل
هاري
غزنة
خوست
افغانستان
قندهار
هلمند
باكستان
الهند
© GEOprojects

تمهيد

«... وهكذا إن تمكنت من معرفة أعدائك، ومعرفة نفسك،

فإنك سوف تتمكن من الفوز مئة مرة في مئة معركة...»

صن تزو، *فن الحرب*

أبلغني أبو جندل في ١٧ أيلول/سبتمبر، ٢٠٠١: «لا يمكنكم إيقاف المجاهدين، وسوف ننتصر». جلسنا أحدُنا قبالة الآخر على طرَفي طاولة مستطيلة الشكل كانت في غرفة استجواب عادية، وذات جدران خالية من أي زخرفة، ومطلية باللون الأبيض. كنا داخل أحد سجون الأمن القومي في صنعاء، عاصمة اليمن، والتي تتمتع بمستوى عالٍ من الأمن. كان السجن تحت إدارة وكالة الاستخبارات المركزية في البلاد، أي منظمة الأمن السياسي الـPSO، وهي التي كانت تتخذ من السجن مركزاً لعملياتها. كان مسؤولو «PSO يرتدون الزي اليمني التقليدي، وكانوا موزّعين على مقاعد انتشرت على طول أحد الجدران، وهكذا كانوا يتابعون الحديث الجاري بيننا. كان أبو جندل ـ ويعني اسمه أبا الموت ـ أرفع ناشط في منظمة القاعدة يقع في الأسر، وسبق له أن خدم بوصفه حارساً شخصياً لأسامة بن لادن الذي كان يثق به كثيراً. تمكنا من الإيقاع به عن طريق فهد القصع، وهو أحد نشطاء القاعدة اليمنيين الذين

اشتركوا في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٠ في تفجير المدمرة الأميركية يو. أس. أس كول. تعرّف القصع عندما عرضنا عليه صورةً في مساء اليوم السابق إلى رجلٍ قال إنّه يدعى مروان الشّحي، وهو الذي كان على متن الرحلة ١٧٥ لشركة يونايتد آيرلاينز عندما صدمت البرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي. سبق للشّحي أن سكن في منزلٍ آمن في أفغانستان كان تحت إدارة أبي جندل.

تطلعت بحيرةٍ نحو شريكي، العميل الخاص في هيئة التحقيقات الجنائية البحرية NCIS، روبرت ماكفادين، الذي رفع حاجبيه وابتسم لأبي جندل. تمكنت أنا وبوب من الابتسام والاسترخاء نتيجة التدريب والخبرة فقط، وذلك لأننا كنا نغلي تحت سطح مظهرنا الهادئ. أجبتُ بالعربية: «ستكتشفون بأنكم أسأتم تقدير قوة أميركا، لكن قل لي ما هو السبب الذي يدفعكم إلى الاعتقاد بأنكم سوف تنتصرون؟»

أمضى أبو جندل أحد عشر شهراً في أحد سجون اليمن، وذلك في أعقاب الهجوم على المدمرة كول، ونتيجة علاقاته مع القاعدة. كان كبار المسؤولين الأمنيين الأميركيين ينتظرون، وبفارغ الصبر، المعلومات التي يمكننا انتزاعها منه، والتي يُمكن أن تساعدنا في فهم أولئك الذين دمروا مركز التجارة العالمي وقسماً من البنتاغون. ثارت لدينا شكوك في ذلك الوقت بأن منظمة القاعدة هي المسؤولة عن ذلك الهجوم، لكن لم يكن بحوزتنا في ذلك الحين أي دليلٍ قاطع. تلقيت أنا وبوب تعليمات بوجوب تحديد هوية المسؤولين عن الهجمات «بكلّ الوسائل الممكنة» - وهو الأمر الذي لم يسبق لنا أن تلقينا مثيلاً له من قبل. كان إرشاد القصع لنا إلى أبي جندل أول إشارة لدينا على أن القاعدة قد تكون مسؤولة عن الهجوم، لكن كان من الممكن أن يكون الربط بين الرجلين صدفةً محضاً.

كان من بين آلاف الأشخاص الذين اعتُبروا في عداد الأموات أو المفقودين نتيجة الهجوم على مركز التجارة العالمي عدة أشخاص نعرفهم أنا وبوب. ومنهم رئيسي السابق الذي شملني برعايته في مكتب التحقيقات الاتحادي، جون أونيل،

وأحد الزملاء من أصدقائي، العميل الخاص لدى FBI ليني هاتون. وجدنا في أبي جندل شخصاً يجد راحته في عذابات الأميركيين وآلامهم، لكننا إذا أظهرنا علامات الغضب، أو أظهرنا مدى الإلحاح الذي شعرنا به، فإن من شأن ذلك إعاقة جهودنا للحصول على معلوماتٍ منه. يُعتبر الاستجواب لعبة ذهنية، ولذلك يتعيّن على المرء استخدام ذكائه ومعرفته بالموقوف كي يقنعه أو يوجهه للتعاون معه، وهكذا فإن الظهور بمظهر الهدوء هو شرط أساسي في هذا المجال. أما إذا اعتقد المشتبه به أن الذي يستجوبه لا يعرف ما يتحدث عنه، أو إذا لاحظ أنه مرتبك، أو غاضب، أو يشعر بضغط الوقت، فإن ذلك يدفعه إلى الاعتقاد أنه الرابح في هذه اللعبة، وهكذا فهو لا يشعر بضرورة التعاون. أبقينا أنا وشريكي في التحقيق على ابتساماتنا الزائفة على وجهينا وسمحنا لأبي جندل بمتابعة الكلام.

سألني أبو جندل بفصاحته وحماسته المعروفتين عنه، وقد ارتسمت ابتسامته العريضة المميزة على وجهه: «أتريد أن تعرف لماذا؟» سبق لنا أن لمسنا أن الرجل يحب إلقاء ما يشبه المحاضرات علينا، وكانت تلك هي فرصتنا لجعله ينزلق بالكلام.

قلت له: «بكل تأكيد».

تابع الرجل كلامه: «سأقول لك لماذا». بدأ هنا بالاستشهاد: «في الحديث: إذا رأيتم الرايات السود خرجت من قبل خراسان فائتوها ولو حبواً على الثلج، وفي رواية: تخرج من خراسان راياتٌ سود فلا يردّها شيءٌ».

سكت أبو جندل لبرهة ليلتقط أنفاسه، لكنني أكملت الحديث عنه قبل أن يتمكن من إكماله: «...حتّى تنصب بإيليا [القدس]». اختفت ابتسامته العريضة عن وجهه مؤقتاً، لكنه سألني وعلامات المفاجأة ترتسم عليه: «هل تعرف الحديث؟ هل فعلاً تعمل لمصلحة مكتب التحقيقات الاتحادي؟».

قلت: «بالطبع أعرف هذا الحديث الذي رواه أبو هريرة، وذلك بالرغم من أنه من المشكوك فيه أن يكون النبي هو الذي قاله في الحقيقة. أعرف كذلك عدداً كبيراً من

الأحاديث، وكما قلت لك سابقاً فإن صورة أميركا وشعبها، بمن فيهم أنا، هي خاطئة في أذهانكم كلّيّاً».

الأحاديث الشريفة هي الأقوال والأفعال التي نُقلت عن النبي محمد، وقد سبق لي أن سمعت ذلك الحديث الشريف من عددٍ آخر من أعضاء القاعدة الذين استجوبتهم. بدا أن ذلك الحديث كان أحد الأحاديث المفضلة لدى أعضاء القاعدة.

خراسان هو الاسم الذي يُطلق على تلك المنطقة التاريخية التي تضم شمال شرق إيران وغربها وأجزاءً من تركمانستان، وأوزبكستان، وطاجكستان، وأفغانستان، وشمال غرب باكستان. يعتقد المجاهدون أن هذه هي المنطقة التي سيُنزلون انطلاقا منها الهزيمة الكبرى بأعدائهم – وهو ما يعادل النسخة الإسلامية من يوم الدينونة، أو المعركة الفاصلة ما بين الخير والشر. يُذيّلُ إعلان الحرب ضد الولايات المتحدة والذي أصدره بن لادن في العام ١٩٩٦ – وهو النهج الذي يتّبعه كل أعضاء القاعدة ـ بتاريخٍ ومكان محدّدين «الجمعة ٢٣ آب/أغسطس ١٩٩٦، وفي هندوكوش، وخراسانٍ، وأفغانستان». يُذكر كذلك أنه ليس من المصادفة أبداً أن يجعل بن لادن علَمَ القاعدة أسود اللون، وذلك لأنه كان يستشهد بالحديث النبوي على الدوام، وكان يشير إلى خراسان عندما يقوم بحملات التجنيد وجمع الأموال. كان كل نشطاء القاعدة الذين استجوبتهم مقتنعين بأنهم إذا ما التحقوا بالقاعدة فإنهم ينفذون بذلك كلمات النبي.

إن جهل معظم الناس في الغرب، وحتى أولئك الذين يُفترض بهم أن يكونوا خبراء بالقاعدة، مغزى صورة الرايات السود، هو مؤشر يدل على قلة معرفتنا بعدوّنا. يركّز الغربيون، بدلاً من ذلك، على استخدام القاعدة في حملاتها الإعلامية لضرباتها ضد الولايات المتحدة – تفجيرات السفارة في شرق أفريقيا في آب/أغسطس من العام ١٩٩٨، والهجوم على المدمرة يو. أس. أس كول في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٠، وهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بطبيعة الحال. يتضح لدينا مدى أهمية مثل هذه الإشارات بالنسبة إلى المنظمة، لكن استخدام القاعدة

للرايات السود هو أكثر أهمية من عدة نواحٍ، وذلك لأنه يضيف العامل الديني الحاسم. أما إذا تفحص المرء غرف الدردشة في شبكة الإنترنت حيث يتحادث المتعاطفون مع القاعدة والداعمون لها (بالعربية)، فسوف يكتشف أن الإشارات إلى الرايات السود ترد بانتظام.

لا تُعتبر الإشارة إلى الرايات السود جديدة في التاريخ الإسلامي، ومثال ذلك ما حدث خلال الثورة التي قامت لقلب الخلافة الأموية، وهي الخلافة الرئيسة الثانية بعد وفاة النبي. تمكّن العباسيون من الإطاحة بالأمويين في ثورة انطلقت في إيران، وهي التي كانت تُدعى خراسان في ذلك الحين، وكانت رايات الثوار سوداء. جرى الاستشهاد بالحديث النبوي كذلك خلال سقوط القسطنطينية، وخلال الفتح الإسلامي لإسبانيا.

يشكّك عدد من الباحثين الإسلاميين في صحة هذا الحديث بمن فيهم رجل الدّين النافذ الشيخ سلمان العودة الذي تعرّض للسجن بسبب معارضته قرار الحكومة السعودية السماح بدخول الجنود الأميركيين إلى البلاد بهدف شن هجوم مضاد لغزو صدّام حسين للكويت. اقتبس بن لادن خلال إعلانه الجهاد في العام ١٩٩٦ كلام العودة، ومدحه بوصفه الرفيق الذي يعارض وجود الجنود [الأميركيين] في المملكة. لكن الشيخ أعلن بعد ذلك معارضته الحازمة للقاعدة، وذلك بعد أن شاهد التدمير والموت الذي تسببه هذه المنظمة، كما أصبح صوتاً رئيساً معارضاً للقاعدة في العالم الإسلامي. تساءل الشيخ عن صحة ذلك الحديث فقال: «فالحديث لا يثبت لا من طريق ثوبان، ولا من طريق ابن مسعود ـ رضي اللّه عنه ـ [وهما الطريقان اللذان روي الحديث من خلالهما].. وبهذا يعلم أن التعلّق بمثل هذا من التعلّق بالأباطيل ولا ينبغي لمن يحرص على دينه وذمّته أن يندفع بغير بصيرة».

توجد روايات أخرى تشير إلى الرايات السود، وأحدها حديث مفضلٌ لدى القاعدة: «تقبل الرايات السود من المشرق، يقودهم كالبخت المجلّلة أصحاب شعور، أنسابهم القرى وأسماؤهم الكنى».

تلا أبو جندل ذلك الحديث أمامنا أنا وبوب، وسألته عمّا إذا كان ذلك الحديث هو الذي يجعل أعضاء القاعدة يطلقون شعرهم ولحاهم، كما يدفعهم إلى تغيير أسمائهم بحيث يعكس الاسم الأول كنيتهم [أو لقبهم]، بينما يعكس الاسم الثاني اسم بلدهم الذي نشأوا فيه. ابتسم الرجل وأخبرني بأنني على صواب، كما أخبرني بأن ذلك ينطبق عليه كذلك: إن اسمه الحقيقي هو ناصر أحمد ناصر البحري، لكنه يُطلق على نفسه اسم أبي جندل الجَدَويّ نسبةً إلى جدّة وهي المدينة التي نشأ فيها.

كان علي البهلول ـ وهو المسؤول عن علاقات القاعدة مع وسائل الإعلام، هو مسؤول الدعاية الشخصي عند بن لادن. سبق لي أن استجوبته في خليج غوانتانامو، كوبا في العام ٢٠٠٢، وكان متأكداً من أن مجيء الرايات السود يبشّر بقدوم الدمار الكامل، وهو الحدث الذي سوف يتبعه انتصار الإسلام. قال لي: «تدور الحرب الحالية بين الديانات الثلاث: المسيحية، واليهودية، والإسلام». وهي معركة هيرمجدون Armageddon التي تنبأ بها العهد القديم، وحديث النبي» (ﷺ). يعتقد البهلول أنه بسبب كون كل هذه الأحداث مقدّرة من اللّه والكتب المقدسة فإن كل الأعمالِ الوحشيّة بما في ذلك قتل الأشخاص الأبرياء على نحو ما تفعل القاعدة هي مبرّرة بالكامل، وهي جزء من «تقدير إلهي». أضاف باقتناعٍ كلي: «إننا نسير في طريقٍ صعبةٍ ومؤلمة، لكن الجهاد يخفف كل الآلام».

تطور المنظمات التي تختلف عن القاعدة ثقافاتها المضادة الخاصة بها، وتتزود بنصوصٍ، وتعاليم، وقوانين سلوكية، وهي التي عادة ما تكون خارج السلوكيات المقبولة لمجتمعاتها أو أديانها. ينطبق هذا بالنسبة إلى قيادة القاعدة وتمسكها بتلك الأحاديث المشكوك بصحتها، ورفع رتبتها إلى المرتبة الأكثر احتراماً والأكثر اقتباساً. يُضاف إلى ذلك تقديس بعض الأحداث التي أصبحت جزءاً من الوعي الجمْعي، وهو الأمر الذي يسمح للمؤمنين بها بتكوين دينهم الخاص ضمن الإسلام. تشتمل هذه الأحداث على إعلان بن لادن الحرب على الولايات المتحدة في العام ١٩٩٦، وفي الفتوى التي أصدرها في العام ١٩٩٨، وفي احتفاله بالعيد في العام

١٩٩٩، وذلك بالإضافة إلى الهجمات «الناجحة» التي شنّها مثل تفجير السفارات في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨، والهجوم على يو.أس. أس كول في العام ٢٠٠٠، وهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

تقود هذه الثقافة التي كوّنها أعضاء القاعدة بأنفسهم إلى أن يؤمنوا بأنهم جزءٌ من شيء أكبر مما هم في حقيقة الأمر. إن أهداف القاعدة معروفة للجميع: إلحاق الهزيمة «بالصليبيين»، وطردهم من شبه الجزيرة العربية، وإنشاء دولة إسلامية عالمية. لكن الأمر الذي يربط نشطاء القاعدة بعضهم ببعض هو تلك الرواية التي تقنعهم بأنهم جزء من خطة مقدسة.

لا تمتد هذه الثورة المضادة إلى النصوص والأحداث فقط، بل تتعداها إلى تبريرات الأفعال التي عادة ما لا يرضى عنها المسلمون. إن استخدام الهجمات الانتحارية، وقتل الأناس الأبرياء، هي أمثلة واضحة على ما نقوله، لكن المتطرفين برّروا عبر العصور قتل الأبرياء في «حرب» ضمن قضيةٍ أسمى، وهو أمرٌ ليس بالجديد بالنسبة إلى القاعدة. تستند القاعدة في واقع الأمر إلى شروحات رجل دين سوري من القرن الثالث عشر يُدعى تقي الدين ابن تيمية، وهو الذي شرّع قتل مَن هم خارج العقيدة.

لكنَّ الأكثر دلالةً من ذلك هو مدى الفساد الأخلاقي (بالمعايير الإسلامية) الذي ينغمس فيه بعض نشطاء القاعدة. صُدمت في البداية عندما علمت أن عدداً من كبار النشطاء لا يعيشون بحسب المبادئ الإسلامية. كان العقل المدبر لهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، خالد الشيخ محمد، ونسيبه رمزي يوسف الذي كان العقل المدبر لتفجير مركز التجارة العالمي في العام ١٩٩٣، معروفَين جداً في دور بغاء الفليبين. أما زياد الجراح، وهو أحد خاطفي الطائرات في ١١ أيلول/سبتمبر، فكان يحب الملاهي الليلية ويعيش مع صديقة له. أما عبد الرحيم حسين محمد عبد النشيري، وهو العقل المدبر للهجمات على يو. أس. أس. كول، والذي أصبح لاحقاً رئيس عمليات القاعدة في شبه الجزيرة العربية، فقد كان يعيش مع مومسٍ روسية.

يحظر الإسلام بصرامةٍ كذلك شرب الكحول، ومع ذلك فقد كان رئيس الخاطفين في عمليات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر مدمناً على الكحول، كما تناول عدة جرعات من الشراب في إحدى الحانات قبل تنفيذ هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، هذا بينما زار خاطفون آخرون نوادي للتعري.

أما المفارقة الكارثية هنا فتكمن في أن هؤلاء الإرهابيين ـ الذين يدّعون أنهم انضموا إلى القاعدة للدفاع عن دينهم، ولأنهم يؤمنون بالحديث [الشريف] الذي يورد بأن حرب يوم الدينونة هي ضدنا – يتجاهلون في هذا السياق أهم المبادئ الأساسية في دينهم. يعني ذلك أنهم يخرقون الشريعة الإسلاميّة ذاتها التي يحاربون من أجل فرضها.

اكتشفت عند بداية استجوابي أعضاء القاعدة بأنه في الوقت الذي يحفظون فيه أقوال بن لادن غيباً فإنني أعرف قدراً مما ورد في القرآن أكثر مما يعرفونه. اكتشفت كذلك أن بعضهم لا يكاد يعرف اللغة العربية الفصحى، وهي لغة الحديث والقرآن. إن فهمي أنا وزملائي لآلية تفكيرهم ساعدنا على استخدام تقواهم المزعومة ضدهم. كنت أدخل معهم في نقاشٍ ديني، وأقنعهم بالتعاون والاعتراف.

قلت لأبي جندل: «والآن، بعد أن امتحنتني في أحد الأحاديث، دعني أمتحنك بحديثٍ آخر».

أجابني بتلهف: «بالتأكيد».

«دعني أسألك أولاً عمّا إذا كان يُسمح للمسيحيين واليهود بدخول مكة والمدينة».

ردّ وهو يهز رأسه ويبتسم بلطف: «بالطبع لا. إنه سؤالٌ سخيف. يعرف الجميع بأنهم ممنوعون من دخولهما. لا يجرؤ حتى الحكم الملكي السعودي، وهو الذي سمح بدخول الكفار إلى شبه الجزيرة العربية، على السماح لهم بدخول مكة والمدينة»،

«ولماذا لا يُسمح لهم بدخول مكة والمدينة؟»

«لأنها أماكن مقدسة».

سألته: «أتعرف الحديث الذي يروي الحوار الذي دار بين النبي (ﷺ) وبين جاره اليهودي؟».

«بالطبع».

«أين جرى هذا الحوار؟».

«في المدينة».

«هل اقترف النبي (ﷺ) خطيئة لأنه سمح ليهودي بالسكن في جواره في المدينة؟».

تلعثم أبو جندل: «همم». أجابني بعد فترة صمت: «كلا، لم يقترف النبي (ﷺ) خطيئة. لم يقترف النبي (ﷺ) خطيئة قط بطبيعة الحال».

تابعت الضغط عليه: «إذاً، أخبرني. إذا لم يمنع النبي (ﷺ) يهودياً من السكن في جواره في المدينة، فكيف بإمكانك القول إنك تعرف أكثر من النبي (ﷺ)، وإن اليهود والمسيحيين لا يمكنهم العيش في المدينة في هذه الأيام؟».

لم يمتلك أبو جندل جواباً فورياً عن هذا السؤال، بل فكّر لهنيهاتٍ عدة قبل أن يقول: «لكن الأمر اختلف بعد موت النبي (ﷺ)، لأن الحديث يقول إنه أوصى وهو على فراش الموت: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»».

قلت له: «تمهّل قليلاً، فكلانا يعرف أن النبي (ﷺ) حرّم خلال حياته كتابة أي حديثٍ عنه، فلم يدوّن الحديث إلا بعد مرور نحو مئة عام على وفاته، وذلك لأنه أراد أن يكون التركيز على القرآن. يعني ذلك أنك تفضّل ما قيل عن الرسول على ما فعله بالفعل؟»

سكت أبو جندل في البداية، ثم بدا مرتبكاً وقال: «حسناً هناك علماء يفصلون في ذلك».

شجب رجال الدين من الوهابيين المحافظين الراديو عند بداية دخوله إلى المملكة العربية السعودية، واعتبروا أنه «شيطانٌ مختبئ في صندوق». يُعرف عن الوهابية أنها متشككة تقليدياً بالتقنية الجديدة، وهم ينظرون إلى الحداثة بوصفها شراً يُبعد الناس أكثر عن طريقة الحياة المثالية التي مارسها النبي (ﷺ). طالب رجال الدين بأن يقوم الملك عبد العزيز، وهو مؤسّس المملكة العربية السعودية وحاكمها بمنع الراديو وبقطع رؤوس الغربيين الذين جلبوه إلى البلاد.

كان الملك يعتمد على رجال الدين للحصول على الدعم الداخلي، لذلك لم يكن بوسعه رفض مطالبهم على الفور. قال الملك لهم: «إذا كان ما تقولونه صحيحاً يجب علينا، إذاً، منع عمل الشيطان، وسوف نقطع رأس من يقف وراءه».

ردّ رجال الدين بعد أن ابتهجوا لأنه وقف معهم: «إنك ملك عظيمٌ وحكيم».

قال الملك: «سنعقد في الغد إذاً محاكمة علنية لصندوق الشيطان ذاك الذي سيُقدّم أمامي». طلب الملك بعد ذلك من المهندسين العاملين في محطة الراديو، وسراً، التأكد من وضع آياتٍ قرآنية في وقت المحاكمة.

أمر الملك في اليوم التالي وبعد حضور رجال الدين بإحضار الراديو. قال الملك آمراً: «شغّلوا هذا الصندوق». ما إن شغّل الحاضرون الراديو حتى سُمعت منه آياتٌ قرآنية. تظاهر الملك بالارتباك والتفت إلى رجال الدين وسألهم: «هل يُعقل أن يرتّل الشيطان القرآن؟ أو لعل الصندوق ليس من عمل الشيطان؟» اعترف رجال الدين بأنهم أخطأوا، وهكذا لم يعد الراديو يوصف بأنه صندوق الشيطان.

يسألني الناس ما هو أهم سلاح نمتلكه ضد القاعدة فأجيب «المعرفة». إن ما أدركه الملك عبد العزيز هو أن أمضى سلاحٍ لقهر المتطرفين هو التفوق على ذكائهم. كتب صن تزو في فن الحرب أننا عندما نعرف نقاط ضعف عدونا ونقاط قوته، وعندما نعرف في الوقت ذاته قدراتنا، فإننا نصل عند ذلك إلى وضعٍ يمكّننا من إحراز النصر.

يصدق هذا على أي شيء من تحديد كيفية استجواب مشتبهٍ به ـ سواء بتعذيبه أو التفوق على ذكائه بهدف الحصول على معلومات ـ أو التعامل مع الدول «الشريرة»: هل نلجأ، ببساطة، إلى العنف، أم أنه يجب علينا في البداية محاولة فهم آليات تفكير مسؤوليها، وانقساماتها الداخلية، ومحاولة الاستفادة منها؟ يكمن الفرق هنا في التصرف بدافع الخوف أو التصرف بدافع المعرفة.

تمكنّا من تحقيق أعظم نجاحاتنا ضد القاعدة عندما فهمنا طريقة تجنيدها للعناصر، وطريقة غسل أدمغة أفرادها، وطريقة عملها، وعندما استخدمنا معرفتنا للتفوق على ذكائها وإلحاق الهزيمة بها. أما إخفاقاتنا فحدثت عندما سمحنا لأنفسنا بالانسياق وراء جهلنا، وخوفنا، وقسوتنا. تفسّر هذه الإخفاقات السبب الذي مكّن نحو أربعمئة إرهابي من الذين كانوا أعضاءً في القاعدة من الصمود في حربٍ ضد أعظم قوة على الأرض، ولمدةٍ أطول من فترتَي الحربين العالميتين الأولى والثانية مجتمعتين.

يروي هذا الكتاب قصة نجاحات أميركا وإخفاقاتها في الحرب ضد القاعدة، وذلك منذ بدايات تأسيس تلك المنظمة وصولاً حتى موت أسامة بن لادن في ٢ أيار/مايو، ٢٠١١ (١ أيار/مايو في الولايات المتحدة)، وذلك بهدف تعريف الناس بطبيعة عدوّنا وكيفية إلحاق الهزيمة به. أما أنا فكنت محظوظاً لأنني عملت إلى جانب عدة أبطال من مكتب التحقيقات الاتحادي الـFBI، ووكالة الاستخبارات المركزية الـCIA، (وكالة التحقيقات الجنائية البحرية NCIS) وعدة وكالات عسكرية أخرى، وكذلك لأنني عملت تحت إدارة قادة عظماء من الـFBI من أمثال المدراء روبرت مويلر، ولويس فرييه الذي أدرك التهديد الماثل وما يجب عمله. إن الفضل في تحقيق النجاحات التي تحدث عنها هذا الكتاب يعود إليهم.

يهدف هذا الكتاب إلى تعريف الناس بكيفيّة فهم منظمة القاعدة، وكيف يمكننا إلحاق الهزيمة بها في المستقبل، لكنني لم أقصد إهانة أي فردٍ بحد ذاته.

ملاحظة إلى القارئ

رويتُ هذه القصة بشكلٍ مباشر، أي من خلال ما رأيته وعلمته كما استخدمتُ الحوار ما أمكنني ذلك بهدف إتاحة الفرصة للقراء لمعايشة الأحداث كما كانت. كتبتُ هذه الأحاديث كما أتذكرها، أو كما رواها لي الزملاء أو الإرهابيون. أما الأحاديث الأخرى فقد أخذتها مباشرة من النصوص الرسمية، أو البرقيات، أو من وثائق المحاكم غير المنقحة. إنني مدين لزملائي السابقين الذين حرصوا على قراءة النص بتمعن والتأكد مما قرأوه. يصعب كثيراً، بطبيعة الحال، ونظراً إلى مرور الوقت، تذكّر الأحاديث بدقة، أي كلمة فكلمة، لكني واثق من أن القارئ سوف يقدّر الوضع عند قراءته للأحاديث، وأنه سوف يدرك أن أي خطأ ورد في النص هو من مسؤوليتي بطبيعة الحال.

أريد أن يعرف القارئ كذلك أن هذا الكتاب قد خضع لمراقبةٍ ذاتية تهدف إلى حماية المصادر، والطُرُق والمواد السرية. خضع الكتاب كذلك لعملية المصادقة الحكومية الرسمية. يُضاف إلى ذلك أنني بدّلت أسماء بعض موظفي وكالة الاستخبارات المركزية والحكومة بأسماء أخرى. سيعرف القارئ هذا الإجراء عندما يصادف شخصية لا تعرّف بغير اسمها الأول فقط.

الجزء الأول

البدايات

الفصل الأول

الفتوى والرهان

شتاء العام ١٩٩٨. «والآن يا علي، دعني أطرح عليك سؤالاً شخصياً». كنت أتناول طعام العشاء مع جون أونيل، وهو رئيسي والعميل الخاص لدى مكتب التحقيقات الاتحادي المسؤول عن قسم الأمن القومي في مكتب نيويورك في FBI. كنا في مطعم كينيدي الذي يقع غربي الشارع السابع في وسط مانهاتن، وكنا جالسَين إلى طاولة بالقرب من المدفأة. كان ذلك الموقع في المطعم بالضبط هو المفضّل لدى جون، وخاصة عندما يكون الطقس بارداً، أي كما كان في ذلك المساء بالذات.

أمضيت أنا وجون الساعات القليلة الماضية في مناقشة مذكرة سبق أن كتبتها حول شخصية لم تكن معروفة كثيراً خارج دوائر الحكومة، وهو أسامة بن لادن الذي كان أصدر لتوّه فتوى أعلن فيها الحرب على أميركا. كانت هذه المذكرة هي التي لفتت انتباه جون، وهو أحد كبار الموظفين في المكتب، وانتباهي أنا المجنّد الجديد في ذلك المكتب. كان يتعيّن على شخصٍ في مثل وضعي المرور عبر سلسلة من القيادات قبل وصوله إلى جون أونيل.

انتهينا لتوّنا من تناول الحلويات، فأمسك جون كوب شرابه المفضّل، أي شيفاس ريغال، مع الصودا. كان سؤاله هذا إشارة إلى أنه فرغ من التحدث عن الإرهاب،

وأنه يريد الآن أن يتعرّف إليّ كشخص. أخبرني أحد الزملاء بأنه كان يعمد إلى هذا الإجراء ذاته مع كل المنتسبين الجدد الذين تكفّل برعايتهم، وهكذا بدا السؤال بمثابة علامة جيدة بالنسبة إليّ.

شعرت في داخلي برغبة في الابتسام لمجرد معرفتي بأنه يفكّر في أن يشملني برعايته. كان جون أسطورة في مكتب التحقيقات الاتحادي، كما يُعرف عنه بأنه واحد من مجموعةٍ قليلة من كبار موظفي الولايات المتحدة الذين فهموا الحاجة إلى جعل مكافحة الإرهاب أولويّة قومية. اعتبر آخرون أن الحرب على المخدرات، ومكافحة تجسس الحكومات الأجنبية علينا، ومسائل أخرى لا علاقة لها بالإرهاب، هي مسائل ذات أهمية أكبر. لكن بالنسبة إلى أيّ شخصٍ كان يعتقد، مثلي أنا، أنه يجب إعطاء أولوية للرد على الأعمال الإرهابية التي تنفذها المجموعات الإسلامية المتطرفة، كان العمل إلى جانب جون هو الخيار الصحيح.

أجبته: «بالتأكيد أيها الرئيس. ما هو سؤالك؟»

قال لي بعد أن انحنى إلى الأمام وحدّق بي وهو يحرك كوب شرابه في راحة يده اليسرى: «إن ما أريد معرفته يا علي هو السبب الذي دفعك للالتحاق بمكتب التحقيقات الاتحادي. ما الذي دفعك إلى صفوفنا، وأنت الفتى الذي وُلد في بيروت في أسرة من المثقفين؟ إنني لا أعتبرك من فئة المجندين النموذجيين». كان إنهاء الرجل حديثه بعبارة، بدلاً من السؤال المباشر، أمراً معتاداً لدى جون. ابتسم بسرعة وهو يسترخي في مقعده، ثم تناول جرعة من شرابه.

تفحصت جون بينما كان يطرح عليّ سؤاله. كان متأنقاً في ملابسه كالعادة، ومرتدياً إحدى بذلاته ذات الصفين من الأزرار التي تميّز بها، وكذلك انتعل حذاءً متيناً غالياً بينما زيّنت معصمه ساعة رولكس. لا يرتدي جون الملابس التي يرتديها الموظفون الحكوميون في العادة. كان يفضّل الظهور بمظهرٍ حسن على تجميع قرشه الأبيض ليومه الأسود (لا تسمح معاشات الحكومة بالأمرين معاً).

لاحظت ذلك الانتفاخ في كاحله الأيسر عندما استرخى إلى الوراء ومدّ ساقيه. كان جون يحتلّ مرتبةً هي أرفع من أن يكون محقّقاً عادياً يجول في الشوارع ويقرع الأبواب ليطرح الأسئلة، إلا أنه مثل كل المحقّقين الحريصين كان يحتفظ بسلاحه على الدوام. كان جون يحمل مسدساً من عيار ٩ ملم. لا يكترث جون إذا ما لاحظ الناس وجود سلاحه، وذلك لأنه كان في إمكانه دفعه إلى جهة أعلى ساقه. كوّن جون لنفسه مظهر الرجل الصلب إلى جانب كونه متأنقاً، ولربما أراد بذلك أن يبرهن بأنه ليس مديراً رفيعاً تقليدياً، وأنه ما زال «أحد الرجال»، أو حتى لإخافة الناس إذا ما اقتضى الأمر.

يمتلك جون دافعاً للظهور، لكنه كان واحداً من أكثر كبار الموظفين الحكوميين فعالية من الذين يعملون بجد في مكتب التحقيقات الاتحادي. أتذكّر أنني أبلغت ذات مرة أحد زملائي الذين انتقدوا مظهر جون وحضوره: «عندما تكون بهذا المستوى من النجاح، فسوف تتمكن من أن تكون رجلاً صلباً، وترتدي بذلات غالية الثمن. يبدو أن ذلك ينجح على الدوام».

توترت قليلاً عند سماعي سؤال جون. ضحكت وجهدت لأن أبدو مرتاحاً. بذلت قصارى جهدي لأعطي انطباعاً جيداً، لكن جوابي لم يكن من النوع الذي يجري على الشكل التالي: «أردت دائماً الانضمام إلى المكتب منذ أن كنت صغيراً، لأنني أردت حماية بلدنا، ولأنني أعرف أن مكتب التحقيقات الاتحادي هو أفضل من يقوم بتلك المهمة». أعرف أن ذلك هو ما يريد سماعه معظم المشرفين، وأن ذلك هو الجواب الذي يعطيه معظم الناس الذين هم في موقفي.

لم يكن جون ذلك المشرف النموذجي. لم تتخلل حديثه معي أيّ عبارات تافهة أو صريحة عن النجاحات والإخفاقات، كما أنه لم يبتعد كثيراً عن العبارات البذيئة. دفعني حدسي إلى الاعتقاد أن جون لربما لا يحب الإجابات العاطفية على أيّ حال. كنت أقف قبالة شخصٍ أرفع مني رتبةً بكثير، كما أن جزءاً مني كان يدفعني إلى اتخاذ أقصى درجات الحذر.

خسر ذلك الجزء في داخلي النقاش الدائر داخل ذهني، فقلت في محاولة مني إيجاد مخرج: «أعتقد أنك لن تصدّقني».

ردّ جون: «جرّبني».

تناولت جرعة من شرابي، وقلت: «حسناً، كان ذلك رهاناً مني...».

ردّد جون وهو يرفع حاجبه الأيسر: «رهان؟».

أجبت مع ابتسامة من الشعور بالذنب: «أجل. راهن رفاقي في الأخوية معي، وفي ما بيننا، على المدى الذي يُمكن أن أصل إليه عبر عملية الاختيار التي يجريها المكتب. لم أتوقع الوصول إلى النهاية، لكنني نجحت في كل المستويات، وحتّى في اختبار جهاز كشف الكذب...» مرّت فترة صمتٍ قبل أن أتابع: «وعندما جاءني العرض من المكتب [FBI] كان مغرياً بحيث لم أتمكن من رفضه، وها أنا الآن هنا».

قال جون بعد أن بدأ بالضحك: «لا بد من أنك تمزح. حسناً، أعرف أنك صادق في ما تقوله – أنا أحب هذا، ها». هزّ رأسه واستمر بالابتسام. قال بعد ذلك رافعاً كوبه بيده: «نخبك». تجرعنا ما بقي من كوب شرابنا، ثم أضاف بعد أن ارتسمت على شفتيه ابتسامته المميزة: «ويقولون إن المراهنة لا تجدي».

بدأت مسيرتي مع مكتب التحقيقات الاتحادي كرهان. نلت درجتي الجامعية من جامعة مانسفيلد، وهي التي تقع في أرياف بنسلفانيا. قال لي هناك نائب رئيس الشؤون الطلابية جو ماريسكو، والذي تربطني به علاقة وثيقة لأنني كنت رئيس الهيئة الطلابية، وخلال محادثة جرت بيننا حول فرص عملي، إن الوظيفة المثالية لي قد تكون العمل لصالح مكتب التحقيقات الاتحادي.

اعتبرت أن كلامه نوع من السخف لأنني لم أعتقد أنني أتمتع بمواصفات المحقّق. إنني أميركي من أصل عربي، ومن مواليد لبنان. كنت كذلك عضواً في أخوية، كما أنني تمتعت بكل المرح الذي تتيحه تلك الأخوية. يُضاف إلى ذلك أنني لا أنتمي إلى فئة الموظفين المنضبطين الذين يعملون في المكاتب من الذين

تصورتهم في مخيّلتي - وهي الصورة التي كوّنتها من المسلسلات التلفزيونية، وكذلك لم يسبق لي أن فكرت في الماضي بممارسة مهنة في مجال تطبيق القانون أو الاستخبارات. بدا الأمر بالنسبة إليَّ كأن جو يقترح عليّ الانضمام إلى سيرك، أو أن أصبح سائق سباقات الفورمولا واحد. لم يسبق لي أن فكّرت في هذا مطلقاً. ما إن دخلت إلى مركز أخويتي بعد حديثي مع جو حتى رأيت بعض شركائي في السكن وهم يجلسون على الأرائك، ويشاهدون برامج التلفزيون. كرّرت أمامهم، مع شيء من الضحك، توصيته بشأن المهنة التي أصلح لها. بدأوا بالضحك بدورهم. قال أحد زملائي: «إذا ما أرسلتَ إليهم طلب التوظيف فلربما يردّونه إليك بواسطة البريد مع إشارة «يُعاد إلى المرسل». تدخل آخر بالقول: «لن تتمكن حتى من اجتياز الفحص البدني». أضاف ثالث: «يُحتمل أنهم سوف يعتبرون الطلب مجرد مزحة...».

ردّ زميلٌ آخر: «أعتقد أنه إذا كان في إمكانه إقناع الجميع في الجامعة بتأسيس مركزٍ طلابي جديد فإنه سيتمكن من إقناع بعض تجار المخدرات بالإقلاع عن مهنتهم». كان ذلك الزميل يشير إلى الحملة التي قدتها لإقناع الجميع، بدءاً من الطلاب ووصولاً إلى إدارة المدرسة، بالتبرع لمشروع البناء.

هكذا بدأ الجدال، لكن أحداً، بمن فيهم أنا، لم يأخذ نصيحة جو على محمل الجد.

بقيت، مع ذلك، وعلى مدى الأيام القليلة التالية أفكّر بما قاله جو، لكنني اكتشفت أنني واقعٌ في حيرة. مرت فترة تفكير اعتبرت بعدها أن وظيفتي في مكتب التحقيقات الاتحادي قد تكون مثيرة. يُضاف إلى ذلك أن طبيعتي كانت تفرض عليّ عدم تقبّل فكرة وجود شيء لا أستطيع القيام به، كما أنني لم أتقبل إصرار رفاقي في الأخوية على أن فرصي معدومة لكسب مثل هذا التحدّي. كنت من ذلك النوع من الأشخاص الذين يقبلون التحديات التي تصادفهم. اكتسبت هذه الصفة جزئياً من والدي الذي كان يحب المغامرات، وجزئياً من ظروف طفولتي التي عشتها: كان لبنان الذي عشته في أيام طفولتي منطقة حرب. لم تعد تخيفني بعد ذلك أمورٌ

مثل الظلمة، أو البقاء داخل خزانة مقفلة. كانت إحدى أولى ذكريات طفولتي هي الاحتماء بمنطقة أسفل الدرج في منزلنا عندما كانت القنابل تنهمر على حيّنا. (يُقال إن وسط المنزل، أي حيث يوجد الدرج هي المنطقة الأكثر أمناً). كنا نتجمّع ونصغي بصمت إلى الأصوات الناتجة عن تكسر النوافذ وتساقط أجزاءٍ من الأنقاض. كنا نسمع بعد فترات صمتٍ بدت كأنها الأبدية أصوات الصرخات التي تمزّق السكون السائد بعد أن يكتشف الناس أجساداً ميتة، وأخرى جريحة تعود إلى أحبائهم.

كان والدي يخبرني عما كانت عليه أحوال لبنان قبل الحرب الأهلية، أي عندما كانت بيروت باريس الشرق الأوسط، كما كان يقول الناس عنها. كانت البلاد مشهورة بثقافتها، ومفكّريها، وجمالها الطبيعي؛ لكنني لم أعرف أبداً تلك البلاد. نشأت في أرضٍ كانت بلادي بالاسم فقط. كان قسم من البلاد تحتله قوى إقليمية، أما الباقي فكان مقسّماً ما بين مختلف الجماعات العرقية والدينية اللبنانية، وهي التي كانت تحكم مناطقها وكأنها إقطاعات لها. كانت الحروب تنشب بانتظام ما بين الميليشيات، لكن الخاسرين كانوا من المدنيين العاديين على الدوام. أتذكّر أنني زحفت ذات مرة على أرض منزلنا عندما تقاتلت فرقتان من الميليشيات عند أطراف الشارع الذي نسكن فيه، ولم نكن نعرف متى يتوقف القتال، أو ما إذا كنا سوف ننجو من تلك المعركة. يعرف كل شخصٍ في لبنان شخصاً آخر قُتل في أعمال العنف، أما أنا ففقدتُ رفيقين لي من زملائي في فصلٍ واحد عندما كنت في الصف الخامس.

ما زلت أتذكّر إلى هذا اليوم، ومع كل التفاصيل الدقيقة منظر المسلحين الفلسطينيين وهم يجولون بسيارات الجيب بين منازل شوارع حيّنا. كانوا يلوّحون ببنادقهم الرشاشة ويصوبونها نحو السكان ويأمرونهم بتسليم مفاتيح سياراتهم. لم يكن لدى الناس أي خيارٍ غير الإذعان، وذلك لعدم وجود قوات شرطة فعالة يُمكن اللجوء إليها لمساعدتهم.

أقيم معرض للوظائف بعد مرور أشهرٍ قليلة على محادثتي مع جو، وكان لمكتب

التحقيقات الاتحادي مقصورة فيه، وهو الأمر الذي ذكّرني بالرهان. قررت بعد أيام قليلة إرسال طلب توظيف، وأنا فعلت ذلك بدافع الفضول أكثر من أي شيء آخر. كنت أجهل الكثير عن عمل المكتب، ما عدا تلك المعرفة التقليدية، وما «علمته» من صفوف العلوم الاجتماعية، والأفلام السينمائية، والأفلام التلفزيونية بطبيعة الحال. لكني أمضيت بعض الوقت في البحث عن معلومات تتعلق بالـFBI، وذلك بعد أن قدّمت ذلك الطلب.

كانت معظم المعلومات التي حصلت عليها جديدة بالنسبة إليّ. اكتشفت أنّ المكتب تأسّس في العام ١٩٠٨، لكنني كنت أعتقد أنه أقدم من ذلك بالنظر إلى النفوذ الذي يتمتع به في هذه الأيام. علمت كذلك أنه لم يصبح أداة فعالة لتنفيذ القانون، أي كما هو اليوم، إلا عندما أصبح تحت إدارة ج. إدغار هوفر، وهو الأمر الذي يجعل من نجاحات المكتب وسمعته أكثر إدهاشاً. تتضمن عملية تقديم الطلب اختبارات من كل الأنواع، بدءاً من البدنية، ومروراً باختبارات الاستعداد والأهليّة، ووصولاً إلى عددٍ كبير من المقابلات، وهي التي تُجرى بفارق أشهرٍ عدة. كنت عندما أجتاز كل عقبة يعمد رفاقي إلى المراهنة على طول مدة صمودي في المكتب.

سألني المشرف على تشغيل جهاز كشف الكذب عندما كنت موصولاً بتلك الآلة: «هل سبق لك أن فعلت شيئاً يُخجلك إذا ما عرفت به والدتك؟».

أجبته: «نعم». دُهش عندما سمع جوابي هذا لأنه لم يكن الجواب الذي توقعه. شرحت له ممازحاً أن ذلك الجهاز ربما لم يكن مبرمجاً للأخذ بالحسبان مدى الصرامة التي يُمكن أن تصل إليها الأم المسلمة.

أتممت تلك السلسلة الطويلة من المقابلات والاختبارات، لكن مضت قرابة سنةٍ من الزمن ولم أتلقَّ أي شيء من المكتب، وهكذا بدأت بالتفكير بأن طلبي قد رُفض في مكانٍ ما، وأنهم نسوا إبلاغي بالنتيجة. لم أكترث كثيراً بالأمر لأن تقديم طلب التوظيف للمكتب كان أقرب إلى أن يكون مصدر تسلية أكثر من أي شيء

آخر، كما أنني، وبالتأكيد، لم أركّز حياتي المهنية المستقبلية على مكتب التحقيقات الاتحادي. كنت أخطط في ذلك الوقت للحصول على وظيفة في الجامعة، وهكذا ما كدت أُنهي دراستي في مانسفيلد حتى قدمت طلباً للحصول على درجة ماجستير في الدراسات الدولية في جامعة فيلانوفا. نسيت، تقريباً، كل ما يتعلّق بالمكتب عندما وصلت إلى فيلانوفا، لكنني فوجئت عندما تسلّمت رسالة قبول طلب التوظيف بينما كنت أنهي دراستي وأحضّر للانتقال إلى إنجلترا للسعي وراء الحصول على درجة دكتوراه في الفلسفة. قلّبت الأمر في ذهني بشأن ما يمكنني فعله، بينما انقسمت آراء الأصدقاء والأسرة بشأن توصياتهم. أدركت أخيراً أن عرض المكتب كان مغرياً إلى درجة عجزي عن تجاهله. توافقت فكرة أن أصبح محقّقاً مع حبي للمغامرة، وذلك بالإضافة إلى الحصول على فرصة المساعدة على حماية أميركا، وهي البلاد التي أحببتها كثيراً. أحببت هذه البلاد بسبب الترحيب الذي قدّمته إليَّ وإلى عائلتي، وذلك بعد أن نشأت في بلادٍ مزّقتها الانقسامات الطائفية، وهكذا قدّرت عظمة الولايات المتحدة، وأُعجبت بمبادئها التي كوّنت تلك الأمة.

أُعجبت كثيراً بالحماية التي يقدمها دستور الولايات المتحدة الأميركية لمواطنيها. يُحتمل أن يعتبر عدد كبير من الأميركيين أن الدستور وقسمَ الولاء يحملان قيمة رمزية إلى حدّ كبير، لكن أولئك الذين عاشوا منا في ظل بدائل أخرى يعتبرون أنهما مليئان بالمعاني. إنني أعرف جيداً أن تلك الحماية المقدَّمة فيهما هي ضرورية جداً.

انتصرت في النهاية فكرة أن أكون جزءاً من شيء أكبر مني. قبلتُ العرض، وهكذا التحقت في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٩٧ بالـ FBI بصفتي عميلاً خاصاً، وعُيّنت في مكتب نيويورك، وذلك بعد أن أمضيت ستة عشر أسبوعاً من التدريبات في الأكاديمية التابعة لمكتب التحقيقات الاتحادي في كوانتيكو في فرجينيا.

يقع مكتب التحقيقات الاتحادي الميداني في نيويورك في وسط مانهاتن. يشبه المكتب الميداني المدينة التي تستضيفه، أي أنه مليء بالشخصيات المثيرة التي لا تخشى التعبير عن آرائها، والتي عادة ما لا يُعتبر التهذيب في مفرداتها تقليداً ضرورياً

إذا ما كان ذلك التهذيب يقف حجر عثرةٍ أمام التعبير عن فكرةٍ ما. إن الصراحة في التعبير، والمزاح، والروح الرفاقية التي تسود مكتب نيويورك، تبدو بالنسبة إليّ أكثر جاذبية بكثير من الجو البارد والرسمي الذي يسود مكاتب كثيرة.

إنني أمتلك ميزةً عن بقية الناس الذين هم من خارج المدينة، وهي تتمثّل في قدرتي على التكيّف. صحيحٌ أن مدينة نيويورك تختلف كلياً عن بنسلفانيا الريفية التي سكنت فيها في السنوات السابقة (والتي أحبها كثيراً)، إلا أنّ الشخصيات المفعمة بالحياة ذكّرتني بالفعل، وبطرقٍ مختلفة، ببعض الشخصيات المثيرة للاهتمام التي صادفتها في طفولتي عندما كنت في بيروت، وهو الأمر الذي ساعدني على الشعور بعدم الغربة. يقضي المجنّدون الجدد في المكتب فترة التناوب على الخدمة في أقسامه المختلفة. يبدأ المتدرب بالعمل مع فريقه (وينفذ تدقيقاً في أمور معينة)، وينتقل بعد ذلك إلى العمليات الخاصة (يقوم بأعمال المراقبة)، ثم ينتهي به الأمر في مركز القيادة. إنه الأمر الذي يضمن أن الموظفين الجدد يحصلون على فهم لكل أنواع الأعمال التي يقوم بها المكتب. تعزز هذه الطريقة الروح الرفاقية في الفرق، وكذلك كفاءة العمل بالنسبة إلى المكتب ككل، وهكذا يعرف الجميع القواعد السائدة في الفرق الأخرى. تهدف هذه الطريقة إلى مساعدة الموظفين الجدد على تحديد أي فرقةٍ يميلون إلى العمل معها، كما أنها تتيح للقيادة العليا فرصة رؤية المتدربين الجدد وهم يقومون بالأعمال قبل تقرير المكان الذي سوف يعيّنون فيه.

التقينا خلال فترة المداورة هذه مع كبار العملاء من مختلف الأقسام وزودونا بالنصائح وشرحوا لنا ماذا تفعل مجموعاتهم. أما أكثر قسم أثار اهتمامي فكان قسم مكافحة الإرهاب. كان من بين كبار المسؤولين في هذا القسم الذين التقيت بهم بات دامورو، مساعد المحقق الخاص المسؤول ASAC عن مكافحة الإرهاب، وجون أونيل الذي كان مديرها، وهو الذي يدير قسم الأمن القومي برمته.

كنت معجباً في الجامعة بتأثير الأشخاص غير الرسميين في الاستقرار العالمي، كما أن تجربتي في لبنان الممزق بالحروب أثّرت كثيراً في رأيي بجماعاتٍ مثل

الجيش الجمهوري الإيرلندي، وحزب الله، ومنظمة التحرير الفلسطينية، وحماس، وهي المنظمات التي قد تكتسب تأثيراً أكبر من الدول ذاتها بالنسبة إلى وضع البرامج السياسية والأمنية. ركّز بحث التخرّج الذي قدّمته على النهج الثقافي cultural في العلاقات الدولية. كان معظم أساتذتي من أتباع المدرسة الواقعية والتي تقول إن مصلحة بلدٍ ما القومية هي أمرٌ أساسي لطريقة تصرفه، لكن لطالما آمنتُ بأن الواقعية تأخذ شكلها وبطرقٍ متعددة، من المناظير الثقافية للشعوب المختلفة. تطور بحثي هذا إلى هواية، وهو الذي قادني تدريجاً إلى تتبع أنشطة المليونير السعودي أسامة بن لادن.

لكن ما كان يثيرني في هوايتي هذه هو قراءة الصحف الصادرة في الشرق الأوسط. تابعت قراءة هذه الصحف لأنني أردت المحافظة على لغتي العربية، ولأنني حافظت بطبيعة الحال على اهتمامي بشؤون المنطقة. كان اسم بن لادن يظهر بين الحين والآخر، وكان كثيرون من أبناء المنطقة مأخوذين به، وبآخرين في منطقة الشرق الأوسط، وذلك لأنه تخلّى عن حياة الرخاء ليحارب مع المجاهدين في أفغانستان ضد الاتحاد السوفياتي، وهكذا تابع بعد ذلك حياة المقاتلين.

لحظت مع الوقت بأن لهجة بن لادن تجاه الولايات المتحدة تزداد عدوانية، كما اتّضح لديّ بأن شخصاً في مثل نسَبه وثروته سيمثّل خطراً شديداً في يوم من الأيام. بدأت بعد ذلك بمتابعته بجدية أكبر، وحوّلته من هواية أكاديمية إلى جزءٍ من وظيفتي، فدأبت على البحث عن اسمه في وسائل الإعلام العربية، كما فتحت ملفاً يحتوي على المقالات الهامة التي تتحدث عنه.

بن لادن هو الابن السابع عشر (من أصل نحو أربعة وخمسين) لمحمد بن عوض بن لادن، وهو اسم عائلة معروفة في أنحاء الشرق الأوسط كافةً. وُلد محمد لأسرة فقيرة في جنوب اليمن، لكنه هاجر بعد ذلك إلى المملكة العربية السعودية، وعمل حمالاً قبل تأسيسه شركة مقاولات خاصة به. اكتسب الرجل سمعةً طيبة في صناعة البناء واجتذب اهتمام العائلة المالكة السعودية التي ما لبثت أن كلّفته بمشاريعها.

بدأت العمولات مع بناء الطرقات، وما لبث أن انتقل إلى بناء القصور، ثمّ مُنح الشرف الأكبر: تجديد المسجد الحرام في مكة.

اكتسب محمد سمعة طيبة نظراً لنزاهته في عمله، لكنه كان متساهلاً في حياته الشخصية. تزوج الرجل ما مجموعه اثنتان وعشرون امرأة، وكان كثيراً ما يتزوج ويطلّق في اليوم ذاته، وذلك لأن الإسلام كان يحرّم الإبقاء على أكثر من أربع زوجات في الوقت ذاته. كان أسامة ثمرة زواج محمد العاشر، وكانت والدته امرأة سورية تدعى حميدة العطاس، كما أنه وُلد في ١٠ آذار/مارس من العام ١٩٥٧.

حافظ محمد على تقليده فطلّق والدة أسامة بعد وقتٍ قصير من ولادته كي يتمكن من الزواج من امرأةٍ أخرى. قُتل محمد في ٣ أيلول/سبتمبر من العام ١٩٦٧، وذلك عندما تحطمت طائرته الخاصة عند هبوطها في جنوب غرب المملكة العربية السعودية. كان أسامة في العاشرة من عمره في ذلك الوقت، وكانت صورة والده في مخيلته مستندة إلى أسطورة تكوين والده شركة بناء من الصفر أكثر من استنادها إلى الاحتكاك الشخصي معه. تابعت الشركة ازدهارها بعد موت محمد، أما أسامة الصغير فقد نشأ مع رغبةٍ في تقليد والده في تكوين شيء عظيم.

تلقى أسامة بن لادن الصغير والمؤمن تنشئة دينية، وما لبث أن سافر إلى أفغانستان في العام ١٩٨٠ للمشاركة في القتال ضد الغزو السوفياتي. قيل إن بن لادن شارك في بعض المعارك بالفعل، لكنه كوّن لنفسه سمعة كممولٍ بمساعدة بعض النافذين من السعوديين، كما عمل مع رجل الدين النافذ عبد اللّه عزام في إدارة مكتب الخدمات، ذلك الاسم الذي يوحي بالبراءة، وهو المكتب الذي كان يحوّل الأموال، ويؤمن دخول المجندين إلى أفغانستان. تأسس مكتب الخدمات على يد عزام في أوائل سنوات الثمانينيات من القرن الماضي في بيشاور، باكستان، وأسس فروعاً دولية له بما في ذلك الولايات المتحدة، حيث كان مركز أنشطته مسجد الفاروق الذي يقع في جادة الأطلسي في جزء بوروم هيل من بروكلين.

كان أسامة بن لادن، ومن أوجهٍ عديدة، نتاج خليطٍ من طرفين في المملكة العربية السعودية في سنوات السبعينيات: كان نسخة متشددة من الوهابية ومن الثروة السعودية. تمكّن النفط من تحويل موازنة الحكومة السعودية من ٩,٢ مليار دولار (١٩٦٩- ١٩٧٤) إلى ١٤٢ مليار دولار (١٩٧٥- ١٩٧٩). كانت عدة عقود مغرية من نصيب مجموعة بن لادن السعودية، وهو اسم شركة العائلة، وهي المشاريع التي أمّنت لبن لادن وأقربائه الكُثُر سيلاً متواصلاً من الأموال.

استخدمت الدولة السعودية ثروتها المستجدة لنشر المذهب الوهابي من الإسلام في أنحاء العالم كافةً، فشيّدت المساجد والمدارس (الدينية) حيثما تمكنت من ذلك، كما سمحت للوهابية الصارمة تطبيق معظم قوانينها الداخلية. تسبب هذا الأمر في ظهور بعض المشاكل للعائلة المالكة المحبة للترف، وهي التي كان انغماسها في الملذات يناقض قوانينها الخاصة. تمكن أفراد العائلة من حلّ هذه المعضلة عن طريق شراء منازل ويخوت في الريفييرا الفرنسية، وفي بعض الأماكن الفخمة الأخرى والتمتع بملذاتهم هناك، هذا في الوقت الذي كانوا يتصرفون فيه مثل المسلمين الأتقياء في بلادهم. تمكن الأمراء من إشباع رغباتهم في الخارج، وهكذا وضعوا مسافة كافية تفصل ما بين ممارسة هذين الدافعين المتناقضين بحيث إن المواطنين السعوديين، ولا سيّما الأكثر أهمية، أي رجال الدين، لم يتمكنوا من ملاحظة بأنهم يتصرفون بشكلٍ يتناقض مع دينهم.

يمكننا القول إن الوهابية ذاتها هي نسخة مسالمة من الإسلام، وهو الأمر الذي يؤكده ملايين المسلمين في المملكة العربية السعودية وفي دول الخليج الذين يعتنقون الوهابية ولا علاقة لهم بالعنف أو بالتطرف. أما التطرف والإرهاب فيظهران عندما تمتزج الوهابية، وهي صيغة متزمتة من الإسلام وتتصف بعدم الثقة بالحداثة، وبتركيزٍ على الماضي، مع صيغة متشددة من السلفية (مذهب في الإسلام يركّز بقوةٍ على ما كان يفعله السلف الصالح). يظهر خليط أكثر قوة مع إدخال فكرة التكفير، حيث يُعتبر المسلمون الذين لا يمارسون شعائر الإسلام بالطريقة ذاتها مرتدّين ويستحقون الموت.

كانت نتيجة كل ذلك هي أشبه ما يكون بمزج الزيت مع النار. تقاطر المسلمون من مختلف بلدان العالم إلى أفغانستان خلال الجهاد الأول لمحاربة السوفيات، وهكذا تمازجت تلك المفاهيم. جاء الوهابيون من المملكة العربية السعودية ومن الخليج، وجاء معظم السلفيين من الأردن، وأتى معظم التكفيريين من شمال أفريقيا (الجزائر، والمغرب، وليبيا، ومصر). يشيع مذهب التكفير بين الجهاديين الآتين من شمال أفريقيا، كما أنهم يحاربون أنظمتهم (الإسلامية في الظاهر)، ولذلك يتعيّن عليهم تبرير إرهابهم، وقتل إخوانهم من المسلمين في سياق هذه العملية.

شجعت الحكومة السعودية الشبان، وساعدتهم على السفر إلى الخارج من أجل المساهمة بالجهاد في أفغانستان. كان الهدف مزدوجاً من وراء هذه الخطوة، وذلك عن طريق التأكد من تأثير الوهابية في المجاهدين، والسماح للبلاد بالتخلص من مثيري المتاعب الدينيين عن طريق إرسالهم إلى الخارج. ساعدت تلك الخطوة كذلك على صياغة مستقبل أفغانستان عن طريق الإسهام في ظهور طالبان.

وهكذا توجه أسامة ومئات آخرون إلى أفغانستان، وكانوا يحظون بمباركة الحكومة سواء مالياً أو عملياتياً.

عندما كنت أعمل في عملي الدوري الأول في شباط/فبراير من العام ١٩٩٨ - وكنت آنذاك أعمل مع فريق المبتدئين، وأعمل على تدقيق خلفيات الأشخاص - قرأت في صحيفة عربية تصدر في لندن عن فتوى صدرت بتوقيع أسامة بن لادن، ورجال دين متطرفين آخرين، وهي الفتوى التي تجيز قتل المواطنين الأميركيين في أي مكان من العالم. صدر ذلك البيان باسم الجبهة الإسلامية العالمية. ادعى البيان أنه بسبب إقدام أميركا على إعلان الحرب على اللّٰه فإنه من واجب كل مسلم أن يقوم بقتل أميركيين: «إن حكم قتل الأميركان وحلفائهم، مدنيين وعسكريين، فرض عين على كل مسلم أمكنه ذلك في كل بلد تيسّر فيه. وذلك حتى يتحرّر المسجد الأقصى والمسجد الحرام من قبضتهم، وحتى تخرج جيوشهم عن أرض الإسلام مثلولة الحدّ كسيرة الجناح عاجزة عن تهديد أي مسلم».

لم أكن على علم آنذاك بأي تركيز يقوم به المكتب على بن لادن، لكني لاحظت أن تصريحاته قد تطورت من أقوالٍ غامضة إلى تهديداتٍ مباشرة، لذلك كتبت مذكرة تشرح هوية الرجل ناصحاً بأن يركز مكتب التحقيقات الاتحادي على التهديد الذي يمثّله على الولايات المتحدة. أعطيت المذكرة إلى المشرفة على فرقتي، والتي قالت لي إنها سوف تقدمها إلى كيفن كروز. شرحت لي المشرفة أن كيفن كان رئيس فرقة I-49، وهي التي يقع بن لادن في مجال عملها. تسلم كيفن المذكرة فطلب مقابلتي. عرّفني كيفن بنفسه وشرح لي طبيعة عمل I-49، وقال إنّها تركز على الجماعات السنّية الإرهابية بما فيها الجماعة الإسلامية، والجهاد الإسلامي المصرية. غطى عمل الفرقة التفجير الأول لمركز التجارة العالمي، كما أبقى التركيز بعد ذلك على بن لادن، وذلك بالنظر إلى الرابط الموجود ما بين خطة التفجير والأشخاص الذين يدورون في فلك بن لادن.

عرضت على كيفن مقاطع من إعلان بن لادن الحرب على أميركا الذي أصدره في آب/أغسطس من العام ١٩٩٦، وذلك كردٍ على الوجود الأميركي في شبه الجزيرة العربية: «وإن إرهابنا لكم وأنتم تحملون السلاح على أرضنا هو أمر واجب شرعاً ومطلوب عقلاً، وهو حق مشروع في أعراف جميع البشر، بل والكائنات الحيّة، ومثلكم ومثلنا كمثل أفعى دخلت دار رجل فقتلها، وإن الجبان من يترككم تمشون على أرضه بسلاحكم آمنين مطمئنين». كان كيفن على علم تام بالمعلومات المتعلقة بخلفية الرجل، وقال لي إن مكتب التحقيقات الاتحادي يتّابع دعوى جرمية ضد بن لادن. كان دانيال كولمان هو خبير مكتب التحقيقات في قضية بن لادن، وهكذا عرّفني به كيفن في ما بعد. كلّف دان في ذلك الوقت بمحطة أليك التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية، وهي المحطة التي أقامها مركز مكافحة الإرهاب التابع للوكالة في العام ١٩٩٦ لمراقبة أنشطة بن لادن. (أطلق على هذا المركز في البداية اسم مركز مكافحة الإرهابيين). عرّفني كيفن كذلك إلى أعضاء آخرين في فرقة I-٤٩. ناقشنا الفتوى، واتفقنا على أنها تحذير جدّي وأن الحاجة تدعو إلى تركيزٍ متزايد على بن لادن. أبلغنا كيفن أن فروع الحكومة الأخرى على علمٍ بذلك.

كنت في أيار/مايو من العام ١٩٩٨ في مرحلة [قسم] المراقبة من مداورة العملاء الجدد، وكنت أعمل هناك على قضية شغب. سمعت هناك نداءً من المكتب. تلقيت مكالمة هاتفية ووُصِلْتُ بكيفن.

قال لي: «يا علي. أجرى بن لادن لتوه مقابلة مع محطة ABC. تحدث الرجل بصراحة عن مهاجمة الولايات المتحدة». توقفت في وقت لاحق من ذلك المساء لمشاهدة تلك المقابلة. جاءت المقابلة في أعقاب مؤتمرٍ صحفي دعا إليه بن لادن وأجراها معه جون ميلر (الذي عمل لاحقاً في مكتب التحقيقات الاتحادي). كان بن لادن في غاية الصراحة: إن معركتنا هذه الأيام هي أعظم بكثير مما كانت عليه معركتنا ضد الروس. ارتكب الأميركيون حماقةً غير مسبوقة عندما هاجموا الإسلام ورموزه الأكثر قدسية... إننا نتوقع مستقبلاً أسود لأميركا التي سوف تتفتت لولايات منفصلة بدلاً من أن تبقى الولايات المتحدة، وسوف يتعين عليها إعادة جثث أبنائها إلى أميركا.

سأل كيفن: «ما رأيك؟». هززت رأسي.

قلت له: «الأمر واضح. إنه الإنذار الثالث. جاء أولاً الإعلان عن الجهاد في العام ١٩٩٦، ثم جاءت الفتوى في شهر شباط/فبراير، وها هو يتوجه الآن علناً إلى الشعب الأميركي. أعتقد أنّ ذلك إنذار يدل على أن القاعدة على وشك أن تهاجم. يتعيّن علينا أن نكون جاهزين».

لم ندرك عند ذاك مقدار ما كنا على صواب. تعرضت السفارتان الأميركيتان في نيروبي، كينيا، ودار السلام، تنزانيا إلى التفجير بعد مرور شهرين.

انتهت فترة المداورة الأولية في عملي، وحان الوقت كي أختار فرقةً للعمل فيها. أنشأت علاقة صداقة مع بعض العملاء في I-40، وكانوا مكلفين بالتعامل مع المجموعات الإرهابية الفلسطينية مثل حماس، وذلك بالإضافة إلى التعامل مع الدول الداعمة للإرهاب، مثل العراق الذي كان تحت حكم صدّام حسين. أخذني المشرف

على الفرقة توم دونلون، وهو الذي كان المسؤول عن عدة قضايا هامة، بما فيها تفجير مركز التجارة العالمي في العام ١٩٩٣، لمقابلة بات دامورو.

رأيت على طاولة بات علبةً مليئة بأدوية آدفيل، وتيلينول، وعدة مسكناتٍ أخرى. قال لي ممازحاً: «إنها تناسب كل أوجاع الرأس التي تصيب فريق العمل. أمضيت وقتاً طويلاً معه في ذلك اليوم. تحدث بات عن تجربته في إدارة الفريق الذي تشكل في ذلك الوقت ممّا يزيد عن خمسٍ وثلاثين وكالة اتحادية، وأخرى تابعة لولاية، ومحلية بهدف التعامل مع كل مجموعة إرهابية وكل دولة داعمة للإرهاب في كل أنحاء العالم. تحدث بات كذلك عن أهمية أن يتذكر المحققون أنهم مقيّدون بالدستور. قال لي كذلك إنه يتعيّن علينا أن لا ننسى المرحلة النهائية، أي إحباط مخططات الإرهابيين وإبقاء كل الخيارات مفتوحة، بما في ذلك الملاحقات في المحاكم.

أبلغ توم دنلون بات بأنه يعتقد أنني مرشح مناسب لمكافحة الإرهاب، وذلك استناداً إلى خلفيتي التعليمية في الشؤون الدولية بالإضافة إلى خلفيتي الشخصية نظراً إلى أنني ولدت في لبنان، ومتمكن من اللغة العربية. سألني بات عمّا إذا كنت مهتماً بالانضمام إلى الفريق المشترك لقضايا الإرهاب JTTF. شرح لي أن JTTF هو أول مسعى في هذا السياق في البلاد، وأنه مؤلفٌ من فرقٍ عديدة تغطي كل الجماعات الإرهابية في العالم تقريباً، وكذلك الدول الداعمة لها. يضمّ ذلك الفريق المشترك عملاء، ومحققين، ولغويين، واختصاصيين آخرين، وهم لم يأتوا من المكتب فقط، لكن من وكالات تطبيق القانون والاستخبارات الأخرى. قبلت دعوته تلك بكل امتنان.

أخذني بات بعد ذلك لمقابلة جون أونيل، وهو الذي كان مكتبه يقع في الطبقة الخامسة والعشرين من مبنى مكتب التحقيقات الاتحادي. حدّقت للحظاتٍ من خلال النافذة. احتل جون مكتب الزاوية، وتميز المكتب بنوافذ كبيرة تشرف على أجزاء كبيرة من مانهاتن، وهكذا يُمكن للمرء أن يرى بناية إمباير ستايت. جلسنا

على أرائك قريبة من طاولة صغيرة تكدست عليها كتب تتحدث عن الفن الفرنسي وإيرلندا، وتحدثنا عن الإرهاب.

سبق لي في ذلك الوقت أن اطّلعت على سجل عمل توم دونلون من بعض الأشخاص الذين يعملون في فريقه. كان من المثير بالنسبة إليّ، وبصفتي موظفاً جديداً، أن أعمل تحت إشراف عميل يمتلك مثل هذه الخبرة. وافق توم كذلك على استمراري في مساعدته في فريق I-49، وهكذا عملت ميدانياً لمصلحة ذلك الفريق، وتتبعت المشتبه بهم واستجوبت بعض الناس، لكنني أمضيت ما تبقى من وقتٍ لي في تحليل المعلومات الاستخبارية، والعمل في قضايا تخص I-49.

استمعت إلى ملخصاتٍ تتعلق بالتحقيقات التي يجريها I-49، كما أمضيت الأسابيع الأولى في مراقبة الأنشطة المشتبه بها التي تقوم بها مؤسسات تخفي وراءها مجموعات إرهابية. عملت كذلك على قضايا تتعلق بمكافحة الإرهاب في الخارج والتي تستهدف الدول الداعمة للإرهاب، لكن لن أتمكن من سرد كل تلك القضايا لأن المعلومات المتعلقة بها ما تزال مصنفة على أنها سرية.

تابعت البحوث المتعلقة بمختلف المنظمات الإرهابية، لكن التركيز الخاص كان على الجماعات الدينية المتطرفة. شجّعني توم دنلون على كتابة مذكرة تتعلق بهذا الموضوع، وذلك من أجل «نشر المعرفة [المعلومات]» على حدّ ما قال لي. سررت جداً لهذا الطلب. كان جون أونيل من بين الأشخاص الذين مرّر توم المذكرة إليهم. علمت في وقتٍ لاحق بأن جون قام بتوزيع تلك المذكرة على كلّ أقسام إدارة شؤون الإرهاب.

سمعت صوتاً يقول من خلفي: «على أيّ قضية تعمل الآن يا علي؟» كان ذلك في وقتٍ متأخر من المساء، وكنت اعتقدت أنني وحدي الموجود في المكتب. كان ذلك صوت جون أونيل، لكنني لم أتوقع أن يبقى الرجل إلى هذا الوقت المتأخر، دعك من الحضور إلى مكتبي. ضحك جون بعد أن أدرك بأنه أجفلني.

«حسناً؟»

«آسف يا سيدي، لقد أخفتني». قلقت من أنني قد أبدو أحمق.

قال لي وكأنه يقرأ أفكاري: «لا تقلق. كانت تلك، بالمناسبة، مذكرة عظيمة. أقدّر كثيراً أنك أخذت المبادرة لكتابتها، كما أن التحليل كان دقيقاً. إنه عملٌ جيد».

«شكراً لك يا سيدي».

«أريد في المرة التالية التي تكتب فيها شيئاً أن ترسله إليّ مباشرة».

«أجل سيدي، سأفعل ذلك».

«تأخر الوقت ويُحتمل أنك جائع. دعنا نخرج لتناول طعام العشاء، لأنني أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة».

رحّب بنا موريس بابتسامة إيرلندية حارة، وهو الذي يعمل في مطعم كينيدي، ويعتبره كثير من العاملين في مجال تطبيق القانون، وفي مكتب التحقيقات الاتحادية، أنه أفضل نادلٍ في نيويورك. رافقتنا نادلة أخرى إلى طاولة جون المفضلة لديه، ثم بدأنا على الفور في مناقشة مذكرتي. لاحظت سريعاً أن جون هو ذلك النوع من الرؤساء الذين لا يخجلون من الاعتراف بأنهم لا يعرفون أمراً ما، كما أنه يرحب بسدّ الثغرات الموجودة في معلوماته.

سألني بعد مضي نحو عشرين دقيقة على بداية حديثنا: «ما هي إمكانيات ذلك الرجل؟» كان يشير بذلك إلى أسامة بن لادن الذي كنا نناقش أنشطته.

أجبته: «إذا أردنا أن نفهم تلك النقطة فسوف نحتاج إلى البدء بالسياق العالمي، والمناطقي، والمحلي، أي ما الذي أحاط به عندما دخل المسرح».

«أين تريد أن تبدأ؟»

«كان العام ١٩٧٩ هو اللحظة الحاسمة».

«ولماذا العام ١٩٧٩؟»

«كان أسامة بن لادن في الثالثة والعشرين من عمره في العام ١٩٨٠، أي عندما توجه إلى أفغانستان لمشاركة المجاهدين في حربهم مع الاتحاد السوفياتي. ترافقت أحداث السنة السابقة، أي العام ١٩٧٩ مع تأثير كبير في رؤيته، وفي رؤية عددٍ لا يحصى من الشبان المسلمين في أنحاء المنطقة، لبلادهم، ودينهم، ودورهم في العالم. كان ذلك التأثير هو الذي صاغ رؤيتهم للعالم، وأثّر في أنشطتهم التي قاموا بها في ما بعد».

«وماذا كانت تلك الأحداث؟»

«الثورة الإيرانية، وتوقيع معاهدة السلام ما بين إسرائيل ومصر، وأزمة الرهائن في إيران، واحتلال المسجد الحرام في مكة، والغزو السوفياتي لأفغانستان. وقعت كل تلك الأحداث في العام ١٩٧٩».

تأسست دولة إسلامية بقيادة آية الله روح الله الخميني، وذلك في أعقاب الثورة الإيرانية وخلع الشاه. كان ذلك هو النجاح الأول الذي تسجله حركة إسلامية سياسية في التاريخ الحديث، كما أن تأثيرها تردد في كامل أنحاء العالم الإسلامي: امتلكت الأقليات الشيعية في ذلك الوقت حامياً، بالإضافة إلى هدفٍ مشتركٍ تتطلع إليه. أما السنّة، وعلى الأخص الجماعات الأكثر تطرفاً في مصر والمملكة العربية السعودية، فقد حلَمت بتكرار الثورة داخل هيكلياتها. رأى سنّةٌ آخرون في الحكم الديني الشيعي تهديداً لسيطرة الإسلاميين السنّة في المنطقة، وهكذا شعروا بدافعٍ لمحاولة التصدي لذلك التهديد وتقوية نفوذهم.

كان إمساك الخميني بزمام السلطة بحد ذاته يعدّ ثورة في الفكر السياسي الشيعي. كانت النظرة التقليدية للأمور تقول بعدم إمكانية تأسيس نظام إسلامي حتى عودة الإمام الثاني عشر «الغائب». يُمكن في هذه الأثناء استخدام أفكار الإسلام من أجل إقامة مجتمعٍ عادل، لكن ليس دولةً إسلامية. كسر الخميني هذه النظرة التقليدية،

وبرّر أفعاله بالرغم من اعتراضات رجال الدين المنشقين، وذلك بالدعوة إلى ولاية الفقيه. جادل الخميني بأنه يُمكن للقادة الدينيين أن يكونوا وكلاء أو نواباً عن الإمام الثاني عشر، أي أنه يمكنهم تأسيس نظام إسلامي قبل عودته.

يُمكننا القول إن الإسلام السياسي الحديث لم يتأسّس على يد الخميني وحدَه. استمدّ الخميني عدداً كبيراً من أفكاره وشروحه الدينية من المفكرين الإسلاميين السنّة، وأبرزهم الكاتب والمفكر المصري سيّد قطب (١٩٠٦- ١٩٦٦).

كان قطب عضواً في تنظيم الإخوان المسلمين الذي تأسّس على يد حسن البنا في العام ١٩٢٨، أي عندما كان البنا أستاذاً للغة العربية في الثانية والعشرين من عمره. كان تنظيم الإخوان المسلمين يهدف في النهاية إلى تأسيس دولة ترتكز على الشريعة، أو القانون الإسلامي. كان هدف التنظيم هو تكوين هيكليته الاجتماعية الخاصة به عن طريق تقديم خدماتٍ اجتماعية للطبقات الفقيرة. قامت هذه الحركة، جزئياً، من أجل تحدي حكم الملك فاروق، والذي اعتبروه حاكماً فاسداً لا يتعاطف مع الفقراء. توزع التنظيم على خلايا تضم الواحدة منها خمسة أشخاص، وهو الأمر الذي صعّب مهمة الأجهزة الأمنية التابعة للملك في اختراقه. يعني ذلك أنه إذا تم القضاء على خلية واحدة فستظلّ الخلايا الأخرى سليمة. وعندما حاولت الحكومة رسمياً تفريق التنظيم بعد مرور عقدين على تأسيسه كان تعداد التنظيم قد وصل إلى أكثر من مليون شخص.

انضمّ قطب إلى الجماعة بعد وقتٍ قصير من موت البنّا، كما اجتمع من خلالها مع العقيد جمال عبد الناصر وقادة عسكريين آخرين من الذين خططوا لقلب الملك فاروق. كان القادة العسكريون يبحثون عن حلفاء، وهكذا بدا تنظيم الإخوان المسلمين، بما يتمتع به من دعمٍ قوي بين الطبقات الفقيرة، مثالياً. نفذ القادة العسكريون، وقادة الإخوان معاً انقلاب العام ١٩٥٢ الناجح.

أراد الفريقان خلافة الملك في الحكم، لكن آراءهما في ما يتعلق بما يجدر

عمله تالياً كانت مختلفة. كان عبد الناصر يخطّط لإنشاء حكومة علمانية (وتبني فكرة القومية العربية)، بينما كان الإخوان المسلمون يسعون إلى إنشاء حكومة إسلامية (وتعزيز الإسلام السياسي). تسلم عبد الناصر دفة الحكم بعد سقوط الملك، لكنه عرض على قطب تعيينه في منصب وزير التعليم. رفض قطب ذلك العرض وقال إن ذلك ليس بالمنصب الهام الذي يتناسب مع مقامه، وهكذا بدأ في تحدي النظام بصورة علنية، كما دعا إلى إنشاء دولةٍ إسلامية.

حاول أحد أعضاء الإخوان المسلمين، وهو محمد عبد اللطيف، اغتيال عبد الناصر في العام ١٩٥٤، وذلك بإطلاقه ثماني طلقات عليه من على بعد خمسة وعشرين قدماً. أخطأت جميع الطلقات هدفها. انتشر الذعر بين الحشود المجتمعة، لكن عبد الناصر بقي هادئاً وأعلن ببساطة: «إذا مات جمال عبد الناصر فأنا الآن أموت وأنا مطمئن، فكلكم جمال عبد الناصر.. لقد كنت منكم وأنا منكم... وإذا كان جمال عبد الناصر يُقتل أو يستشهد فأنا مستعد لذلك واللّٰه في سبيلكم وفي سبيل اللّٰه وفي سبيل مصر». ابتهجت الحشود عند سماعها ذلك التصريح، كما انتشر خبره في أنحاء البلاد، وهو الأمر الذي عزّز شعبية عبد الناصر. استغل عبد الناصر هذه المناسبة للانقضاض على الإخوان المسلمين، وألقى بعددٍ كبير منهم في غياهب السجون، وكان قطب من بينهم.

قيل إن قطب تعرّض للتعذيب الشديد، لكن تلك التجربة دفعته إلى كتابة أهم أعماله: معالم في الطريق. نجح قطب في جعل أصدقائه وأفراد عائلته يهرّبون كتابه إلى خارج السجن لتوزيعه. جادل قطب في ذلك الكتاب بأن السيادة لله وحده بحسب الإسلام، وأن قيام شخصٍ عادي مثل عبد الناصر بالحكم هو أمر يماثل عبادة الأصنام. كتب قطب أن مثل هذا النظام سوف ينتج الجاهلية، أي حالة الجهل التي سبقت حياة النبي محمد. يعتبر قطب أن الدولة الحديثة والإسلام لا يلتقيان، وأن أولئك الداعين للدولة الحديثة إنما يدفعون المسلمين في الاتجاه الخطأ.

اعتبرت عقيدة قطب أن أولئك الذين عذّبوه مع رفاقه من السجناء، وفي الواقع

أي مواطن في الدولة (أجاز التعذيب حكماً)، لا يمكن أن يكونوا مسلمين حقيقيين، وذلك لأن المسلم الحقيقي لا يعرّض مسلماً آخر للتعذيب. استنتج قطب أن الذين نفذوا عمليات التعذيب كانوا كفاراً، أو غير مؤمنين، وهم بذلك يستحقون الحكم بالردّة، أو التكفير.

تعود خلفية الحكم على شخصٍ ما بأنه كافر إلى منتصف القرن السابع، أي عندما قرّر الإمام علي (ك)، وبوصفه خليفة، إجراء تسوية مع أحد خصومه السياسيين بدلاً من الدخول في حربٍ معه. وكانت نتيجة هذا الإجراء قيام الخوارج بثورة أدت إلى مقتل الإمام علي (ك)، كما أعلنوا أنهم وحدَهم المسلمون الحقيقيون، أما الآخرون فليسوا إلا مشركين يجب التخلص منهم. أطلق الخوارج على أنفسهم اسم «الشراة»، وهو إشارة إلى أنهم اشتروا لأنفسهم مكاناً في العالم الآخر. كان الخوارج (أولئك الذين خرجوا) هو اسم أطلقه عليهم مسلمون آخرون بسبب آرائهم المتطرفة. تفتقد تُهم الردة والإجراءات الأخرى التي فرضها الخوارج إلى أساسٍ في النصوص: يقول القرآن إن أولئك الذين يعبدون الأصنام فقط، والذين اضطهدوا النبي (ﷺ) والمسلمين الأوائل يُمكن اعتبارهم مرتدين. يعني ذلك أن الخوارج عمدوا إلى استغلال مقاطع من القرآن والعقيدة الإسلامية لتبرير أفعالهم.

استفاد قطب كذلك من مفكرين متطرفين آخرين مثل الباكستاني سيّد أبو الأعلى المودودي الذي عاصره، ومن شخصياتٍ أخرى سابقة مثل ابن تيمية. كان الغزاة المغول، وهم الذين تحولوا إلى مسلمين سنّة واجتاحوا أراضي المسلمين العرب، أحد أهداف الفكر اللاهوتي لابن تيمية، وهو الذي لم يعترف بصحة إسلامهم وأعلن، إضافة إلى ذلك، أن أي شخصٍ يتعامل معهم، أو حتى يقف إلى جانبهم عندما يتعرضون للهجوم، يُمكن قتله حتى ولو كان ذلك الشخص من المسلمين الأتقياء. كان المنطق من وراء حكمه هذا هو أنه حتى لو كان الواقفون على الحياد من المسلمين الخطاة فإن ذلك يبرر قتلهم، أما إذا كان هؤلاء من المسلمين المؤمنين ولا يستحقون القتل فإنهم سيذهبون، ببساطة، إلى الجنة مباشرة، وهكذا فلا ضرر من

قتلهم. لا يقترف القَتَلة خطيئة، بحسب ذلك المنطق، إذا ما قتلوا أولئك الذين يقفون على الحياد.

لا يضطر المرء إلى البحث عميقاً جداً في العقيدة الدينية الإسلامية ليلاحظ مدى خطأ هذه الرؤية: ينصّ القرآن على أن أي شخص يقتل إنساناً بريئاً «فكأنما قتل الناس جميعاً». يشمل ذلك البشر جميعهم بغض النظر عن الدّين. ورد في القرآن كذلك «ومن يقتلْ مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنمُ خالداً فيها وغضبَ اللّهُ عليه ولعنَه وأعدَّ له عذاباً عظيماً». يواظب الإرهابيون التكفيريون، وحتى يومنا هذا، على استخدام حجج ابن تيمية في اتهام المسلمين الآخرين بأنهم مرتدون، وذلك بهدف تبرير قتل الأشخاص الأبرياء. إن بعض أتباع التكفيريين لا يمتلكون معرفة بالإسلام تكفي لجعلهم يرون مدى خطأ تفكيرهم، بينما يسيء آخرون استخدام تلك المعرفة عمداً لتبرير نهج العنف الذي يتبعونه. استخدم الجميع أفكار قطب بدءاً من الخميني ووصولاً إلى بن لادن. كان الخميني مغرماً باستخدام تشبيهات قطب وحججه التصويرية. قارن قطب، على سبيل المثال، ما بين عبد الناصر (الذي كان يعتبره مستبداً) وفرعون، أما الخميني فقد شبّه الشاه بالفرعون الذي يرد ذكره في التوراة، واستدلّ منطقياً بأن كل من يتحدى الفرعون يأخذ دور موسى. يمكننا القول إنه بالنظر إلى النفوذ العالمي الذي يتمتع به الخميني بصفته قائداً لإيران فإن استخدامه لأفكار قطب وحججه أعطاها انتشاراً أكبر في العالم الإسلامي.

وقّعت مصر وإسرائيل في آذار/مارس من العام ١٩٧٩، أي بعد مرور شهرٍ واحد على الثورة الإيرانية، معاهدة سلام أتمّت بشكلٍ رسمي اتفاقيات كامب دافيد التي توصّل إليها الطرفان في السنة السابقة. اعتُبرت هذه المعاهدة في الشرق الأوسط خيانة للفلسطينيين كما أنها كسرت تضامن العالم العربي ضد إسرائيل. واجهت مصر نتيجة لذلك العزلة في مختلف أنحاء العالمَين الإسلامي والعربي، كما جرى تعليق عضويتها في الجامعة العربية. غضب الإسلاميون المتطرفون في مصر كثيراً، كما أن السادات في الأعوام التي سبقت اغتياله على يد المتطرفين في العام ١٩٨١،

حاول الترويج لنفسه بوصفه رئيساً دينياً، وذلك على عكس عبد الناصر الذي خاصم الإسلاميين وسجنَ قطب.

هاجم الطلاب الإيرانيون في ٤ تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٧٩ السفارة الأميركية في طهران، وتمكنوا من احتجاز ٥٢ من الأميركيين كرهائن، وذلك رداً على سماح الولايات المتحدة للشاه بالدخول إليها لتلقي العلاج من مرض السرطان. أما المحاولة الأميركية الفاشلة لتخليص الرهائن فقد أعقبها توزيعهم في أنحاء إيران، ولم يُفرج عنهم حتى كانون الثاني/يناير من العام ١٩٨١، أي بعد مرور ٤٤١ يوماً على أسرهم. لم يحصل قادة الطلاب الذين اجتاحوا السفارة على موافقة الخميني قبل الإقدام على تنفيذ عمليتهم إلا أنه ساندهم بعد أن اتضح لديه أنهم إسلاميون مخلصون يسعون إلى إثبات ولائهم له. بدت الولايات المتحدة تحت إدارة كارتر وطوال ٤٤٤ يوماً عاجزة عن الرد. وهكذا بدا أن قوى الإسلام السياسي آخذة في الصعود.

جرت عملية استيلاء متطرفين على مكانٍ مقدس هو المسجد الحرام، وأخذهم للحجاج كرهائن، بعد ستة عشر يوماً من الهجوم على السفارة، أي في يوم ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر، وهو الأمر الذي هزّ العالم الإسلامي. يحيط المسجد بالكعبة الشريفة التي يُقال إنّ إبراهيم هو الذي بناها، كما أنه المكان الذي يتوجّه إليه المسلمون في صلاتهم خمس مراتٍ يومياً. يُعتبر المسجد الحرام كذلك أول مكانٍ للعبادة وأقدس مكان في الإسلام. أعلن المتطرفون أن المهدي المنتظر، قد خرج، وهو الذي كان أحد قادتهم، ثم دعوا المسلمين إلى إطاعته. استخدم المتطرفون مكبرات الصوت الموجودة في الجامع الكبير، وهي التي يُمكن سماعها في أنحاء مكة. وما لبثوا أن أعلنوا أن القيادة السعودية قد أفسدها الغرب، وطالبوا بخلع العائلة المالكة، وبقطع كل العلاقات مع الغرب، وبتطبيق نسخة أشد صرامة من الشريعة الإسلامية في البلاد.

استغرق أمر استعادة المسجد بالكامل أسبوعين من الزمن، قُتل خلالهما مئاتُ

من الحجاج، ومن الجنود السعوديين. قدّمت العائلة المالكة السعودية بعد ذلك تنازلات لِرجال الدّين المتشددين، وفرضت قوانين إسلامية أشد صرامة على السكان. يعني ذلك أن المتطرفين قد ربحوا بمعنى ما.

كان من المفارقة أن يلقي الخميني وقادة آخرون باللوم على الولايات المتحدة لما حدث، وقد وقعت أعمال شغبٍ معادية للأميركيين في بلدان مختلفة، بما فيها باكستان والفليبين، وليبيا، والإمارات العربية المتحدة. استولت حشود من الجماهير في هذا الوقت على السفارة الأميركية في إسلام أباد بالباكستان وأُحرقت حتى سوّيت بالأرض، وحدث الأمر ذاته في طرابلس، بليبيا.

كان غزو الاتحاد السوفياتي لأفغانستان آخر الأحداث المهمة في العام ١٩٧٩. كان السوفيات ناشطين في البلاد منذ إقامة جمهورية أفغانستان الديموقراطية ذات الميول الماركسية في ربيع العام ١٩٧٨. عجزت الحكومة الماركسية عن احتواء حركة المجاهدين الأفغان الذين أرادوا إقامة دولة دينية. وهكذا دخلت القوات السوفياتية إلى كابول لإنقاذ حلفائها.

تسابق المسلمون من كلّ أنحاء العالم لحماية البلد من الغزاة السوفيات «الملحدين». أفاد الغزو، وظهور عدو جديد للمسلمين المتطرفين، مصر والمملكة العربية السعودية على حدٍ سواء. رأى البلدان في ذلك فرصة للتخلُّص من المتطرفين المحليين عن طريق تسهيل سفرهم إلى أفغانستان للانضمام إلى الجهاد. صبّ البلدان معاً مليارات الدولارات في أفغانستان بهدف دعم المجاهدين. قدّمت الولايات المتحدة، وفي إطار سعيها لمحاربة الشيوعية، تمويلاً سرياً وتدريباً للمقاتلين.

كان عبد اللّه عزام، وهو رجل دينٍ من فلسطين، أحد أبرز النافذين في الجهاد الدائر في أفغانستان. كان عزام أحد طلاب قطب، كما حاضر في جامعة الملك عبد العزيز في جدة، وذلك قبل انتقاله إلى باكستان في العام ١٩٧٩ للتعليم في الجامعة الإسلامية الدولية في إسلام أباد، ولكي يبقى قريباً من أفغانستان. أما عندما

غزا السوفيات أفغانستان فقد أصدر عزام فتوى كان عنوانها: «الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان»، وهي الفتوى التي أعلن فيها أن ذلك هو فرض عين، أو واجب شخصي على المسلمين للدفاع عن أفغانستان ضد «المحتلين». شارك رجالُ دين نافذون آخرون في هذه الفتوى، وكان من بينهم المفتي الأكبر في المملكة العربية السعودية، عبد العزيز بن باز، وهو الأمر الذي أعطاها ثقلاً أكبر.

رفع عزام شعار «الجهاد والبندقية وحدَهما. لا مفاوضات ولا مؤتمرات ولا حوارات»، وهو الأمر الذي يعطي دليلاً على رؤيته للعالم. أثرت أحاديثه في بن لادن - وهو الذي كان تلميذاً في جامعة الملك عبد العزيز أثناء وجود عزام فيها - ودفعته إلى الانضمام إلى المجاهدين. أقنعت حجج عزام إرهابيين كباراً آخرين، بمن فيهم رمزي يوسف. أسّس عزام في هذه الأثناء مكتب الخدمات الذي يهدف إلى تسهيل حركة انتقال المجاهدين إلى أفغانستان. أسّس كذلك دور الضيافة [أماكن السكن] ومعسكرات التدريب من أجل تحضير المجندين الجدد للمعركة، كما فتح فروع حملات التبرعات والتجنيد في مختلف أنحاء العالم، بما في ذلك فرع بروكلين، كما أنه جنّد بنفسه آلاف الأشخاص للمساهمة في القتال.

قلت لجون ونحن ننهي مناقشة ما حدث في العام ١٩٧٩: «سافر آلاف الشبان العرب إلى أفغانستان، وكان عدد كبير منهم مدفوعاً بالعقيدة التي دعا إليها عزام ورجال دين آخرون مشابهون له في العقلية. كان آخرون محبطين بالأنظمة القمعية في بلادهم وانعدام الفرص فيها فبحثوا عن المغامرة. اكتفى معظم المسلمين الذين أتوا بتقديم جهودهم، أما ميزة بن لادن فكانت، بطبيعة الحال، أنه أحضر معه تمويله، وهو الأمر الذي جذب آخرين إليه وضمن له إخلاصهم».

كانت النادلة قد فرغت منذ وقتٍ طويل من رفع أطباق الحلوى، لكن جون حرص على إكمال الحديث، وليعرفني على مستوى شخصي. تطلّع كلٌّ منّا إلى ساعته عندما انتهت تلك المحادثة ولاحظنا أن العقارب تجاوزت الواحدة فجراً.

تبيّن لي بعد ذلك أن جون تعود على البقاء في المكتب لوقتٍ متأخر، وبدا لي في بعض الأحيان أنه لا ينام أبداً. كان الرجل يحضر إلى المكتب عادة قبل أي شخصٍ آخر، كما كان آخر شخصٍ يغادر طاولة مكتبه في الليل. أما المساءات التي يغادر فيها مكتبه فكانت لتكريم مسؤولي تطبيق القانون والاستخبارات الأجانب الذين كانوا يزورون المكتب، أو لاصطحاب زملائه إلى الخارج بهدف مناقشة أمور العمل.

وإذا لم يكن جون منشغلاً بالخروج لتناول طعام العشاء فكان يقوم بجولاتٍ في المكتب ليعرف كل من يوجد فيه. كان يتوقف في مكتبي في أحيان كثيرة ليدعوني للخروج. لكن بعد أن تأكد على مدى أسابيع قليلة من وجودي في مكتبي حتى وقتٍ متأخر صار يكتفي بالاتصال بي هاتفياً ليطلب مني أن نلتقي في الخارج لتناول العشاء. كنا نتابع مناقشاتنا من المكان الذي انتهينا فيه في المرة السابقة.

كان جون يفضّل الذهاب إلى مطاعم قليلة، لكن خياره كان يتحدد بنوع الطعام الذي كان يشتهيه، وكذلك بمدى تأخر الوقت في الليل. أما إذا تناول شرائح اللحم فإنه كان يختار مطعم سيتي الذي يقع غرب الشارع الحادي والخمسين. وإذا كان الوقت متأخراً جداً فإنه كان يقصد مطعم فيرست الذي يقع في الجادة الأولى. (كان يقول لي إن كل الطهاة الممتازين في المدينة يتجمعون في ذلك المطعم بعد انتهاء ساعات عملهم). وإذا كان يتطلع لتمضية أمسية اجتماعية فكان يختار مطعم إيلاين.

كان مطعم برونو هو المطعم المفضل لدى جون عندما يرغب في اصطحاب المسؤولين الزائرين من بلدانٍ أجنبية. قال لي جون إنه من المفارقة أن يكون مالك ذلك المطعم رجلاً ألبانياً. «تجد فيه أفضل المأكولات الإيطالية في المدينة، لكن مالكه رجلٌ ألباني». كان مدير المطعم يحتفظ بطاولة لجون في الطبقة الثانية عندما يعلم بأنه قادم. اعتاد عازف بيانو إسرائيلي الجنسية عزف أغاني فرانك سيناترا في ذلك المطعم، لكن عندما يكون بصحبة ضيوفه كان يعزف ما تطلبه مجموعتنا.

كنا نستضيف مسؤولين من تنزانيا أثناء التحقيقات التي أجريناها في تفجير سفارتينا في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨. طلب جون من عازف البيانو عزف «أغنية أفريقية». لم يتردد العازف في البدء بعزف لحن سولومون ليندا الذي شاع في عشرينيات القرن الماضي، والذي كان بعنوان «مبوبي» («الأسد ينام في الليل»). كان العزف أقرب ما يكون إلى صيغته في فيلم ديزني الذي حمل عنوان «الملك الأسد». وكانت الجوقة تغني فيه «في الغابة، الغابة القديرة». وعندما اصطحبنا مسؤولين سعوديين إلى ذلك المطعم فقد طلب جون أغنية شرق أوسطية فما كان من العازف إلا أن عزف لحن «وردة الصحراء».

يحاول جون على الدوام جعل المسؤولين الأجانب يشعرون وكأنهم في بلادهم، وهكذا كنا نصطحبهم إلى أي مطعم يقدم المأكولات الشائعة في بلادهم. كنا نبحث في العام ١٩٩٩ مع سعد خير ورفاقه من المسؤولين في الاستخبارات الأردنية في عملية الألفية، وهو العمل الذي أحبط خطة إرهابية لمهاجمة أهداف أميركية وإسرائيلية في الأردن في الأول من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠، وفي تواريخ قريبة منه. اصطحبنا الأردنيين إلى مكانٍ يدعى أرز لبنان. اعتادت الفرقة الموسيقية العاملة في المطعم عزف أغنيات عربية تقليدية، وهي أغنيات كان زائرونا يحبونها.

فهم جون أهمية العلاقات الشخصية، وأدرك أن ضباط تطبيق القوانين والاستخبارات الأجانب يُمكن لهم تصعيب حياتنا أو تسهيلها، وذلك يعتمد على مدى تعاونهم معنا. كان جون يحبّب أولئك المسؤولين بنفسه. وهكذا عندما كانت زوجة أحد الرسميين البريطانيين مريضة بالسرطان، أمضى جون بعض الوقت ليبحث عن أفضل مستشفيات نيويورك، كما ساعد الزوجين على التخطيط لرحلتهما. كان الرسميون بدورهم يعاملونه مع فريقه بشكلٍ حسن في كل مرة سافرنا فيها إلى إنجلترا.

أحب معظم نظرائنا جون، وكانت مكالمة هاتفية منه تجدي نفعاً أكثر من البرقيات الرسمية. لمست ذلك مباشرة عندما كنت في إنجلترا مساهماً في عملية التحدي، وهي حملة التحقيقات التي أحبطت أنشطة القاعدة وEIJ (حركة الجهاد

الإسلامي المصرية) هناك. تميّزت علاقاتنا بالصدق والصداقة، وليس بعبارات اللطف الدبلوماسية. رفع جون في أحد المساءات كوبه أثناء زيارة زملائنا في سكوتلاند يارد أثناء تناولنا طعامَ العشاء وقال لهم: «إذا لم تزيدوا من مساعدتكم، فسوف تضطر الملكة للعيش في إيرلندا الشمالية». لم ينزعج أحد من هذه الملاحظة لأنهم يعرفون أن جون يتكلم من أعماق قلبه، ومن حرصه الشديد علينا جميعاً، وهكذا حصلنا على المساعدة التي نريدها.

لا تفهم الدوائر البيروقراطية دائماً أهمية مآدب العشاء التي يقيمها جون، وهكذا كانت ترفض في بعض الأحيان إعطاء الموافقة على صرف نفقاتها. كان جون يعمد في هذه الحالات إلى استخدام بطاقة الائتمان الخاصة به. أما أنا فكنت أفعل مثله وأقول للآخرين، مثل ما علّمني جون، «إننا لسْنا في المكتب كي نوفّر الأموال، بل لإنقاذ الأرواح».

بدأ العمل في كشف فرقة أميركية ترتبط بعلاقة مع بن لادن والقاعدة، وذلك مع بدء المكتب بالتحقيق في مسألة بن لادن والقاعدة. لم يكن بن لادن وحده هو الذي رأى في عزّام مرشداً له، وذلك لأن عدداً من الأميركيين تأثروا بجاذبية عزّام عندما جال في أنحاء الولايات المتحدة في سنوات الثمانينيات من أجل جمع الأموال اللازمة للمجاهدين وتجنيد المؤمنين للذهاب إلى أفغانستان. كان من بين الأميركيين الذي تأثروا به وديع الحاج، وعصام الريدي، وإيهاب علي.

وُلد الحاج في لبنان في أسرة مسيحية، لكنه نشأ في الكويت حيث كان يعمل والده. بدأ بعد ذلك في مرافقة أصدقائه من المسلمين، وهم الذين عرّفوه بالقرآن وبالدّين، ونجحوا في نهاية الأمر في إقناعه بالتحوّل إلى الإسلام. غضبت عائلته كثيراً لهذا التحول وما لبث أن نبذته. أرسله الكويتيون الذين أشرفوا على تحوّله إلى الولايات المتحدة لإكمال تعليمه.

وعندما غزا السوفيات أفغانستان غادر الحاج الذي تأثر بعظات عزام، الولايات المتحدة إلى باكستان لمساعدة إخوانه المسلمين. اتخذ الحاج اسماً مستعاراً هو

عبد الصبور اللبناني، وعمل مساعداً لعزّام فترجم الكتب العسكرية للمقاتلين كي يستخدموها، كما قام بأعمالٍ إدارية. التقى الحاج أثناء عمله مع عزام بالشاب أسامة بن لادن، وهكذا نشأت علاقة بين الاثنين.

عاد الحاج في العام ١٩٨٥ إلى الولايات المتحدة وتخرّج بعد سنة من الزمن من جامعة جنوب غرب لويزيانا. تزوج بعد ذلك فتاة أميركية مسلمة في الثامنة عشرة من عمرها تدعى آبريل، وما لبث أن انتقل إلى أريزونا، كما اكتسب الجنسية الأميركية في العام ١٩٨٩. كان الحاج يسافر بشكلٍ منتظم إلى بيشاور للعمل لمصلحة بن لادن.

وُلد عصام الريدي في مصر في العام ١٩٥٨، لكنه أمضى طفولته في الكويت. درس عصام الهندسة في كراتشي، باكستان، لكن الاضطرابات المدنية هناك منعته من إكمال دراسته والحصول على درجته، وهكذا انتقل إلى تكساس حيث التحق بمدرسة إد بوردمان للطيران في فورت ورث، وهي التي أصبحت مقفلة الآن. عاد إلى الكويت، لكنه عجز عن إيجاد وظيفة. عاد ثانية إلى الولايات المتحدة وعمل بصفته مدرباً في مدرسة للطيران.

التقى الريدي مع عبد اللّه عزام أوَّل مرةٍ في باكستان، والتقاه ثانية في مؤتمر لاتحاد الشباب المسلم الأميركي في الولايات المتحدة. ساعد الريدي في تنظيم المؤتمر، وكان عزام أحد الضيوف الخطباء. بقي الاثنان على اتصال، وناقشا معاً كيف يمكن للريدي المساعدة في باكستان، ثم سافرا في النهاية معاً. أمضى الريدي ليلته الأولى في منزل عزام، لكنه التقى في وقتٍ ما قائد المجاهدين الأفغان عبد الرسول سيّاف.

تميّزت فترة إقامة الريدي في باكستان بالانزعاج المستمر وبالرغبة في العودة إلى الولايات المتحدة، وهو الأمر الذي تحدث تكراراً عنه مع عزام. لم يكن الريدي متأكداً من أن خدماته مطلوبة في باكستان، ولهذا سأل سيّاف: «هل مساعدتي مطلوبة هنا، أم يمكنني المساعدة من الولايات المتحدة؟» طلب منه سيّاف التحدث عن مهاراته، فأجاب: «أعرف قيادة الطيران والتجول حول العالم».

أجابه سيّاف: «لا حاجة بنا للطيران، لكننا نحتاج إلى شخص ليسافر ويشحن لنا السلع».

بقي الريدي مدة ثمانية عشر شهراً يجمع أجهزة مختلفة للمجاهدين مثل المناظير الليلية التي اشتراها من الولايات المتحدة، وأجهزة قياس المسافات من إنجلترا. كان يسافر كل خمسة عشر أو عشرين يوماً، ويزور بلداناً بدءاً من اليابان إلى الكويت. اشتكى الريدي مراراً إلى عزام وقال له إنه لم يعد بوسعه القيام بذلك العمل وحده، لكن عزام كان يخبره دائماً بأنه لا يمتلك أحداً يُمكن أن يساعده.

تبنى الريدي في العام ١٩٨٥ الاسم المستعار أبا طارق، لكنه بدأ في تمحيص البدائل المتاحة أمامه. كان جواز سفره المصري على وشك أن تنتهي مدة صلاحيته. كان يحتاج إلى ذلك الجواز ليتمكن من السفر، وهكذا كان من الضروري أن يجدده، كما أنه تابع البحث عن عذرٍ له لمغادرة باكستان. كان مستاءً من أشخاص مثل بن لادن، وهو مثال الغرباء الأثرياء الذين يتحكمون بعملية اتخاذ القرارات، لكنه عندما كان يثير هذه الاعتراضات لم يلقَ غير التجاهل. عاد في النهاية إلى الولايات المتحدة وعمل مدرّبَ طيران في تكساس.

أبلغ عزام عند مغادرته: «لم يعودوا بحاجة إليّ هنا، كما أنني لا أتفق تماماً مع العقيدة، ولذلك فإنه من الأفضل لي العودة إلى البلاد، لكنني سوف أستمر بتقديم المساعدة التي تحتاجونها». عاد الريدي للاستقرار في الولايات المتحدة، لكنه تابع شراء مختلف الأجهزة للمجاهدين، وكان يضعها في أمتعة وديع الحاج، وهو الذي تولى، جزئياً، الدور الذي تركه الريدي، وكان ينقلها إلى باكستان. كان الريدي يسافر في بعض المرات إلى أفغانستان، وإن كان يفعل ذلك بتردد، أي مثل ما فعل في العام ١٩٨٩ عندما وجد المجاهدون صعوبة في تعديل مدى بندقية القنص بعيدة المدى من عيار ٠,٥٠، وهي البنادق التي اشتراها في الولايات المتحدة وشحنها إليهم. بلغ جهل المقاتلين بالأسلحة حدّ اضطرار الريدي إلى القيام برحلة كان هدفها الوحيد أن يعرّفهم شخصياً بكيفية تحديد الرؤية.

دفع التحفظ الذي شعر به الريدي حول بن لادن إلى الحذر من العمل معه في البداية. كان يعتبر نفسه أصولياً، وظلّ على تشكّكه من ذلك الرجل السعودي الثري الذي لا يمتلك أي خبرة عسكرية، بل بضعة جيوب عميقة [مليئة بالمال]، والذي كان يعتبر نفسه في الوقت ذاته قائداً عسكرياً. بقي الريدي ملتزماً بوعده لعزام بالإبقاء على جاهزيّته، وهكذا عندما كان يريده بن لادن أو المجاهدون الآخرون أن يشتري لهم ما يحتاجونه – كان وديع الحاج عادة هو الذي يتصل هاتفياً ويزوده بالتعليمات – كان يلبي طلباتهم ويسافر في أنحاء العالم بحثاً عن المعدات اللازمة. يُقال كذلك إن القاعدة ما تزال تستخدم بعض تلك المعدات.

كان إيهاب علي، المعروف باسمه الحركي «النووي»، مصرياً آخر هاجر مع أسرته إلى الولايات المتحدة ثم التحق بمدرسة ثانوية في أورلاندو، فلوريدا. تأثر إيهاب بعزام فسافر إلى أفغانستان لمحاربة السوفيات. تدرّب علي في معهد آيرمان للطيران الواقع في نورمان، أوكلاهوما، وذلك قبل أن يسافر إلى السودان بهدف الانضمام إلى بن لادن، وهو الرجل الذي تعرف إليه بواسطة عزام في أفغانستان، أي كما حدث مع الريدي.

كانت حكومة الولايات المتحدة في ذلك الوقت على علم بأن أشخاصاً مثل هؤلاء الثلاثة كانوا يسافرون إلى أفغانستان، لكن بسبب الدعم الأميركي للمجاهدين، لم تُقدم على إيقافهم، وذلك لأنهم لم يرتكبوا أي جرم. لم يكن هؤلاء الأشخاص يعرفُ بعضُهم بعضاً بشكل متين في الولايات المتحدة، إلا أنهم التقوا في الخارج، وأرسوا علاقات في ما بينهم ومع المجاهدين العرب الآخرين مثل بن لادن.

أدّت حكومة الولايات المتحدة دوراً رئيساً في دعم الجهاد الأفغاني ضد السوفيات. اضطلع النائب عن الحزب الديمقراطي في تكساس، شارلي ولسون، بدور هام في هذا التدخل الأميركي، وهو ضغط على البنتاغون من أجل إرسال أموال كثيرة إلى أفغانستان. اعتقد عدد كبير من مسؤولي الاستخبارات الأميركيين والقادة السياسيين أن تسديد ضربة إلى السوفيات في أفغانستان يعني إهداء الولايات

المتحدة نصراً كبيراً في الحرب الباردة. اعتقد مدير وكالة الاستخبارات الأميركية وليام كايسي أنه من الضروري شنّ الحرب في العالم الثالث. فعلت الوكالة تحت إشرافه كل ما بوسعها لدعم المجاهدين، حتى أنها طبعت ترجماتٍ من القرآن على أمل تشجيع الناس في أوزبكستان وبلدان أخرى على التحرك ضد السوفيات.

استخدمت الولايات المتحدة باكستان ممراً للوصول إلى المجاهدين، كما وزعت الأسلحة والأموال. قدمت باكستان المساعدة عن طيب خاطر، وذلك لأن الرئيس محمد ضياء الحق، الذي استولى على السلطة بعد انقلاب عسكري قام به في العام ١٩٧٧، لم يرغب في رؤية السوفيات على حدود بلاده. كان من مصلحة باكستان أن تكون أفغانستان على علاقة طيبة مع بلاده.

نلاحظ، للمفارقة، أنه بينما كانت الولايات المتحدة تقدم الدعم لإحدى المجموعات الإسلامية المقاتلة، شهدت سنوات الثمانينيات تصاعداً في الهجمات الإرهابية ذات الدوافع الدينية ضد المواطنين الأميركيين والمصالح الأميركية. شنّ حزب الله في العام ١٩٨٣ هجماتٍ انتحارية ضد ثكنات مشاة البحرية الأميركية في لبنان، وهي الهجمات التي قتلت ما يزيد عن ٢٥٠ أميركياً. يُضاف إلى ذلك أن عمليات اختطاف الطائرات في أماكن أخرى من الشرق الأوسط حصدت بعض أرواح الأميركيين.

أراد رونالد ريغان مواجهة ذلك الخطر المتزايد في العام ١٩٨٤، لذلك وقّع على القرار التوجيهي للأمن القومي NSDD الرقم ١٣٨ الذي يقضي «بمحاربة الإرهاب». أسّس مدير الاستخبارات المركزية DCI مركز مكافحة الإرهاب في السنة التالية. ركّز المركز في البداية بشكلٍ كبير على حزب الله والمجموعات اليسارية العلمانية الإرهابية، وذلك بدلاً من التركيز على المجموعات المدعومة من الإخوان المسلمين. يُضاف إلى ذلك أن مجلس الأمن القومي شكل هيئة جديدة تضم عدة وكالات لمكافحة الإرهاب.

استمرت مع هذه التغييرات المساعدات الأميركية للمجاهدين بالتزايد. قدمت وكالة الاستخبارات المركزية الدعم إلى الهجمات الفدائية في طاجكستان وأوزبكستان، وكذلك دعمت مبادرة الاستخبارات الباكستانية لتجنيد المسلمين في كلّ أنحاء العالم للقتال إلى جانب المجاهدين.

لكن المشكلة الأكبر كانت أن واشنطن لم تمتلك استراتيجية واضحة لما سيحدث بعد الانسحاب السوفياتي في العام ١٩٨٨. ركزت واشنطن بدلاً من ذلك على الغزو العراقي للكويت وحرب الخليج الأولى، وكذلك على سقوط الاتحاد السوفياتي. كانت القاعدة منشغلة في هذا الوقت في إقامة خلية تهدف إلى تسليح وتدريب أمراء الحرب الصوماليين من أجل محاربة الجنود الأميركيين المنتشرين في ذلك البلد.

اجتمعت مراراً مع جون لمناقشة قضايا الإرهاب، كما أن تركيزه لم يتغير أبداً لأنه كان ملتزماً بعمله وبمكتب التحقيقات الاتحادي. كان بات دامورو ينزعج دائماً عندما كان جون يتصل به كل ساعة أثناء التحقيقات ليطرح أسئلة، ويستفسر عن أمورٍ دقيقة فيها. أراده بات أن يرتاح قليلاً، ويدعه يرتاح بدوره. لم يتغيّر جواب جون أبداً: «دع الأمر ينهكك، ولا وجود لفترة استراحة». كنت بعد سنوات، أي أثناء التحقيقات في الهجوم على المدمرة يو. أس. أس. كول على رأس التحقيقات الجارية في هذه القضية. قدّرت عندها مشاعر بات. كان جون يتصل بي كل ساعة، وأبلغني كما كان يُبلغ بات، بأنه يتعيّن أن أدع الأمر ينهكني.

كان الواقع بسيطاً بالنسبة إلى جون: «يعمل الأشرار من دون توقف، وهذا ما نفعله نحن». إذا أراد المرء أن يكون في الحلقة المقربة التي يثق بها جون يجب عليه أن يبذل قصارى جهده، أي كما يفعل هو، أو يبقى خارجها. كان الأشخاص الذين ينهكهم العمل مع جون يستاؤون منه لأجل ذلك. تفهمت طبيعة غضبهم، لأنه من الطبيعي أن يرغب المرء في تمضية الوقت مع عائلته، لكني تمكنت من النظر إلى الأمر من منظور جون كذلك: كنا في سباق مع الزمن.

لكن الأمر الذي كان يثير أشخاصاً آخرين هو أن جون يحب أن يكون محور الاهتمام. لاحظت أثناء تناولنا طعامَ العشاء في مطعم سيتي مع بات دامورو وعميلٍ آخر يدعى كيني ماكسويل، وهو الذي خلف بات في وقتٍ لاحق كرئيس لـ JTTF، أنه كرر الإشارة إلى نيويورك على أنها «مدينتي». وُلد جون في آتلانتيك سيتي، لكن معظم فترة عمله كانت قي شيكاغو وواشنطن العاصمة.

ردّ كيني على جون بالقول: «إنها مدينتي أنا، أما أنت فمن شيكاغو». استاء جون من ذلك التلميح، وما لبث الرجلان الإيرلنديان أن بدأ كلّ منهما يصرخ بالآخر بينما بدأ بات بمحاولة تهدئتهما. إن أي شخصٍ لا يعلم شيئاً عن حاجة جون لأن يكون محور الاهتمام، أو يحاول سرقة الأضواء منه، هو شخص يستحق التأنيب.

قُتل جون في ١١ أيلول/سبتمبر عندما كان في مركز التجارة العالمي. توالت بعد ذلك القصص التي تتحدث عن حياته الشخصية المرتبكة. كان شخصاً معقداً، لكن يمكنني القول إنه كمديرٍ لي فإنني لم أرَ منه إلا كل الأشياء الحسنة، كما أنني عملت معه على بعض القضايا ذات الأهمية البالغة. لم ألحظ أبداً أن حياته الشخصية قد أثّرت في عمله، أو في تمكّنه مِن الحكم على الأمور.

أعلن السوفيات في نيسان/أبريل من العام ١٩٨٨ أنهم سوف ينسحبون من أفغانستان في غضون تسعة أشهر. كانت المشكلة بالنسبة إلى المجاهدين بعد انتهائهم من الاحتفال بنصرهم هي في ما الذي سيفعلونه بعد ذلك. قرّر بعضهم البقاء في أفغانستان واستخدامها قاعدةً لعمليات الجهاد في أماكن أخرى. عاد آخرون إلى أوطانهم بعد أن لبّوا نداء واجبهم الديني وأرادوا متابعة حياتهم العادية. مضى آخرون للبحث عن نزاعاتٍ جديدة في أماكن مثل البوسنة، والشيشان، والفليبين، والجزائر.

تجمّع أولئك الذين قرّروا البقاء في بيشاور لاتخاذ قرارٍ بشأن خطواتهم المقبلة. اتفقوا في ما بينهم على عدم ترك الشبكة التي أسّسوها لمحاربة السوفيات تنهار، وأنه يجب الحفاظ على الزخم، وهكذا أقاموا مجموعةً جديدة أطلقوا عليها اسم القاعدة

من أجل تنسيق أنشطتهم. وقع الاختيار على بن لادن ليكون قائد هذه المجموعة الجديدة التي تمتلك هيكلية محددة، ومجلس شورى، بالإضافة إلى لجانٍ عسكرية، وسياسية، ومالية، وأمنية، ودينية، وإعلامية. كانت ثروة بن لادن هي السبب الغالب لبروزه، إضافةً إلى قدرته على تجميع الأموال، وهو الأمر الذي ضمن له الأصدقاء، والنفوذ، والسلطة بين صفوف المجاهدين.

ظهرت خلافات بين قادة المجاهدين حول التوجهات والأولويات. أراد عبد الله عزام وهو زعيم المجاهدين، والذي كان مرشد بن لادن، التركيز على إعادة بناء أفغانستان، والتوجه بعد ذلك لدعم الفلسطينيين ضد إسرائيل. أراد بن لادن، مع ذلك، التركيز على «رأس الأفعى»، أي الولايات المتحدة بالتحديد. لقي موقف بن لادن دعماً وتشجيعاً من أيمن الظواهري، وهو الذي حاز نفوذاً كبيراً بين صفوف الإسلاميين المصريين. كان الظواهري أحد قادة الجهاد الإسلامي المصرية، وهي منظمة سرية تهدف إلى إقامة دولة إسلامية في مصر ثم استخدام مصر بعد ذلك منصّةَ انطلاق للجهاد ضد الغرب. سافر الظواهري في العام ١٩٨٠ إلى باكستان للانضمام إلى المجاهدين الأفغان، وكان يعتقد أن جماعته ستتمكن من الحصول في أفغانستان على التدريب الذي تحتاجه لتحقيق النجاح في مصر.

ارتبط بن لادن والظواهري واستفاد كل منهما من الآخر: وجد الظواهري وجماعته في بن لادن الدعم المالي وشبكة متكاملة لا غنى عنهما، كما أن بن لادن بدوره انجذب إلى ذكاء الظواهري بسبب توجهاته وخبرته. حذّر الظواهري بن لادن بشأن الحاجة إلى تعزيز إجراءاته الأمنية، وعرض عليه رجاله ليقوموا بحمايته، وهكذا وجد زعيم القاعدة نفسه محاطاً بالمصريين، وهم الذين ساعدوه على تحديد وجهة تركيز المنظمة وزعيمها.

أما المصري علي أمين الرشيدي، وهو المعروف باسم أبو عبيدة البنشيري، فقد اكتسب اسم البنشيري في أفغانستان حيث حارب في منطقة تُدعى وادي بانشير. كان البنشيري في السابق ضابط شرطة، لكنه أصبح بعد ذلك قائداً عسكرياً للقاعدة.

أما نائبه، صبحي أبو ستة، وهو المعروف باسم محمد عاطف، أو باسمه الحركي في القاعدة أبو حفص المصري، فقد سبق له أن خدم بدوره ضابطاً في الشرطة. إن واقع أن شخصاً ما مثل أبي ستة يتمكن من العمل بأسماء متعددة يُظهر مدى تعقيد محاولة كشف هويات كل شخصٍ في المجموعة.

أما رئيس اللجنة الدينية في القاعدة فكان ممدوح محمود سليم، وهو الذي اتخذ لنفسه اسم أبو هاجر العراقي. كان الرجل كردياً من الذين حاربوا في جيش صدام حسين، وحارب كذلك إلى جانب بن لادن في أفغانستان، وهناك أصبح الرجلان صديقين حميمين. لم يكن أبو هاجر رجل دين بل كان مهندساً بالتدريب، لكنه حفظ القرآن، وهكذا اعتقد بن لادن أنه شخصية تقية، كما أحب أن يسمعه وهو يتلو مقاطع من القرآن. من المفكرين الإسلاميين الذين أحب أبو هاجر الاقتباس من كلامهم قطب وابن تيمية.

انتهى الخلاف ما بين عزّام وبن لادن في ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٨٩، وذلك عندما زُرعت قنبلة يدوية الصنع تحت سيارة عزام، وأدى انفجارها إلى مقتله مع اثنين من أبنائه. لم تحدد أبداً هوية المسؤولين عن الحادث، لكن يُشتبه بأن للظواهري علاقةً بالأمر. عبّر الظواهري عن شجبه للرجل قبل مقتله إلا أنه ادّعى بعد موته أنهما كانا صديقين حميمين.

لم يكن بن لادن، وبصفته زعيم القاعدة، هو الأبرز من بين كل المجاهدين. كانت القاعدة واحدة فقط من بين كل الجماعات السنّية المتنافسة على السيطرة. كان عمر عبد الرحمن يمتلك رؤيته الخاصة، وهو الملقّب «بالشيخ الأعمى»، وذلك لأن مرض السكري الذي أُصيب به في طفولته سلبه بصره. قاد عبد الرحمن الجماعة الإسلامية، وهي جماعة منافسة لجماعة الظواهري. كان رمزي يوسف وخاله خالد الشيخ محمد من بين الرجالات النافذة الأخرى في أفغانستان، وكانا يعملان بشكلٍ منفصل، ولم يرغبا أبداً في العمل تحت إمرة بن لادن.

عاد بن لادن إلى السعودية في العام ١٩٩٠، وهناك لقي ترحيب الأبطال بين الناس العاديين، لكن النظام السعودي كان شديد الحذر منه، وقلقاً من أعماله. كان يُنظر إليه على أنه مثير للمتاعب، وخاصة بعد أن عمل في العام ١٩٨٩، على سبيل المثال، على تنفيذ خطة لقلب النظام الماركسي في جنوب اليمن.

حدثت القطيعة النهائية ما بين بن لادن والعائلة المالكة عندما أقدم صدام حسين على اجتياح الكويت. أبلغ بن لادن الأمراء بأنه وجيشه من المجاهدين يستطيعون الدفاع عن المملكة، لكن عرضه هذا قوبل بالرفض، وذلك لأن السعوديين وجماعته من المحاربين لا يقفون على قدم المساواة مع جيش صدام. رحب النظام، بدلاً من ذلك، بالجنود الأميركيين لمحاربة صدّام.

غضب بن لادن كثيراً لهذا الرفض، وكذلك لقيام العائلة المالكة بالسماح للجنود «الكفرة» بالدخول إلى المملكة العربية السعودية. شجب بن لادن علناً العائلة المالكة التي سجبت منه جواز سفره عقاباً له. لكنه تمكن في العام ١٩٩١، وبمساعدة بعض المتعاطفين معه، من السفر إلى بيشاور. تمكن أحد المصريين، ويدعى علي محمد، بعد ذلك من نقله بأمان إلى السودان.

الفصل الثاني

رحلات أسامة الجوية

لم يكن انتقال بن لادن إلى السودان ذلك القرار المتسرّع، أو قراراً تم اتخاذه بالإكراه. أدرك الرجل قبل سنوات عدة من العام ١٩٩١ أن إحباط النظام السعودي تجاهه آخذٌ بالتزايد، ولذلك قرّر التفكير في أماكن أخرى. وعندما حانت اللحظة الحاسمة وحاول السعوديون إسكاته عن طريق مصادرة جواز سفره، كان الرجل قد انتهى من تجهيز قاعدةٍ جديدة له.

امتلك بن لادن على الدوام خيار العودة إلى أفغانستان، أي حيث نجح في الماضي، أما الخيار الآخر فكان إنشاء قاعدة جديدة له في السودان. تسلمت الجبهة الإسلامية القومية زمام الأمور في السودان عن طريق انقلاب، وأعلنت العزم على تحويل الخرطوم إلى مركزٍ لشبكة إسلامية دولية. أرسلت الجبهة الإسلامية القومية دعوةً إلى بن لادن لنقل منظمته إلى البلاد. بدأ الرجل عند ذلك التفكير بالسودان بصورةٍ جدية.

بعث بن لادن نشطاء بقيادة أبي هاجر بهدف الاجتماع مع قادة السودان الجدد، ولتقييم مدى ملاءمة البلاد لتكون قاعدة انطلاق للعمليات. عاد أبو هاجر بتقرير إيجابي، وأخبر بن لادن وأعضاء آخرين في القاعدة بأن قادة الجبهة الإسلامية

القومية هم من المسلمين المؤمنين، وأن القاعدة سوف تتمتع بالحرية اللازمة للعمل بحرية في البلاد. أحضر أبو هاجر معه كتباً من تأليف زعيم الجبهة الإسلامية القومية الديني الدكتور حسن الترابي، والذي اعتاد أفراد القاعدة على عدم الثقة به لأنه درس في جامعة السوربون. قال أبو هاجر: «إن تلقي العلم في أوروبا لا يجعل من شخصٍ ما سيئاً. إن الترابي هو عالمٌ بارز. حفظ الرجل القرآن وهو يعرف الكثير عن الشريعة، وهو خدم الدعوة لمدة أربعين عاماً في واقع الأمر».

عقد بن لادن اتفاقاً مع الترابي والسلطات السودانية بحيث حصلت بموجبه القاعدة على حرية العمل، وهي في المقابل سوف تستثمر في البلاد وتساعد النظام على محاربة الانفصاليين المسيحيين في الجنوب. أرسل بن لادن بعد إبرام الاتفاق جمال الفضل (الذي كان مساعده الخاص في ذلك الحين) وآخرين من أجل التحضير لوصوله. انتهت التحضيرات في العام ١٩٩١، وأصبحت جاهزة للتنفيذ.

كان كل أعضاء القاعدة في الخرطوم يتجمعون بعد صلاة الغروب من كل خميس في إحدى المزارع التي امتلكتها المنظمة لسماع محاضرة يلقيها بن لادن أو شخص آخر بموضوع الجهاد وعن أهداف المنظمة. أبلغ بن لادن أتباعه في أول اجتماعٍ كهذا بأن مهمتهم في السودان هي بناء القاعدة وتحويلها في نهاية الأمر إلى شبكة دولية ليس لدعم الآخرين الذين يمارسون الجهاد فقط، بل لتكون قادرة على شن هجماتها الخاصة بها. دأبت القاعدة ما بين العامين ١٩٩٢ و١٩٩٥ - ومع وقوع أحداثٍ مثل حرب الخليج الأولى والنزاع في الصومال، وهي الأحداث التي صاغت شكل الشبكة الإرهابية وخطابها - على شراء المعدات والتجهيزات على نطاقٍ واسع، وهي التحضيرات التي بدأت تدل على تطور القاعدة المؤسساتي والعملاني.

كان عصام الريدي في منزله في تكساس عندما رنّ جرس الهاتف في أحد أيام الخريف من العام ١٩٩٣.

«السلام عليكم يا أخي». عرف عصام صوت وديع الحاج.

أجاب الريدي: «وعليكم السلام يا أبا عبد اللَّه اللبناني». كان بذلك يرد التحية بمثلها وأضاف: «كيف حالك؟».

أجاب الحاج: «الحمد لله»، «وأنت؟».

«الحمد لله».

«لماذا تتصل بي يا صديقي؟ ماذا يمكنني أن أفعل لأجلك؟».

«لدي رسالة من الشيخ».

أجاب الريدي مع ضحكة نابعة من القلب: «ظننت ذلك». اعتاد الحاج، صديقه القديم، مكالمته هذه الأيام عندما يصله طلب من بن لادن.

تابع الريدي: «إذاً، ما الذي أستطيع أن أفعله لأبي عبد اللَّه». أشار إلى بن لادن بأحد ألقابه: والد عبد اللَّه، وعبد اللَّه هو اسم الابن الأكبر لبن لادن، ومناداته بهذا اللقب هو تعبير عن الاحترام، لأن الولد الذكر يُعتبر شرفاً كبيراً لوالده في العالم الإسلامي.

أجاب الحاج: «يريدك أن تشتري له طائرة». شرح له كذلك إنه يريد تسلّم الطائرة في مطار الخرطوم الدولي.

«طائرة؟» كان الريدي يعرف كيفية شراء الطائرات بصفته قبطانا خبيراً ومدرّباً لتعليم الطيران. «لكن أي نوعٍ من الطائرات يريد أبو عبد اللَّه شراءه، وما هو المبلغ الذي يريد دفعه؟».

أجاب الحاج: «إنه يريد طائرة يصل مداها إلى أكثر من ألفي ميل، لكنه لا يريد أن يزيد ثمنها عن ثلاثمئة وخمسين ألف دولار». شرح له كذلك أن بن لادن يريد نقل صواريخ ستينجر من بيشاور إلى الخرطوم.

قال الريدي: «يتعيّن على المرء أن يكون حريصاً عندما يتعلق الأمر بنقل

الأسلحة، كما تعلم. يحتاج الأمر إلى الحصول على إذنٍ من دولتين، وإلا سيقع في مشاكل».

«لا تقلق، لأننا حصلنا على إذن من السلطات في بيشاور والخرطوم، ولهذا نحتاج إلى طائرة يبلغ مداها ألفَي ميل. لا يمكننا المخاطرة بنفاد الوقود والاضطرار إلى الهبوط في منطقة أخرى، لأن الأمر سوف يتحول إلى فوضى».

عثر الريدي على طائرة مناسبة. وافق البائع على إعطائه عمولةً بنسبة ٩ في المئة لقاء ترتيبه عملية الشراء، وهو الأمر الذي أخفاه الريدي عن الحاج. لم يتمكن الريدي من تحصيل هذا الربح أبداً لأن الحاج، ولسبب غامض، خفض المبلغ المخصّص للطائرة إلى ٢٥٠,٠٠٠$. قال للريدي بعد ذلك: «هذا هو السعر الذي قرّره الشيخ، لذا إفعل ما بوسعك».

جادل الريدي بأن هذه الشروط مستحيلة. كان يعرف حقيقة الأمر، ويعرف أنهم لن يستطيعوا الحصول على ما يريدون لقاء مبلغ ٢٥٠,٠٠٠$. تمكّن في النهاية من العثور على طائرة عسكرية خارج الخدمة بسعر ٢١٠,٠٠٠$، لكن مداها يبلغ ١,٥٠٠ ميل. قال الريدي للحاج: «إنها في أحد مستودعات توكسون، أريزونا، كما أنها لم تُستخدم منذ مدة، لذا يجب عليّ أن أفحصها وأصلحها». ولمّا سأله الحاج عن طريقة إحضارها إلى المطار أجاب الريدي: «سأطير بها بنفسي».

قال الحاج إنه سينقل طلباً أخيراً: يريد بن لادن من الريدي أن يعمل عنده كطيار. اعترض الريدي، وقال إنهما سيناقشان الموضوع في الخرطوم. أشرف الريدي على تجديد الطائرة وإعادة طلائها، وتحديث معداتها، ثم أقلع بها من مطار دالاس فورت ورث. تسببت درجة حرارة ٦٥ تحت الصفر فهرنهايت بحدوث عطل في الطائرة أثناء الطيران، كما أن إحدى النوافذ تشققت في تلك الرحلة. استغرق الأمر أسبوعاً كاملاً للوصول إلى هناك.

التقاه الحاج في المطار، وتفحص الطائرة، ثم أثنى على الريدي: «تبدو في حالة جيدة، وحسناً فعلت».

هزّ الريدي كتفيه: «إنها جيدة بالنسبة إلى كلفتها». بدا أن الرحلة أنهكته.

اصطحبه الحاج إلى منزله الخاص، وما لبثا بعد ذلك أن تناولا طعام العشاء مع بن لادن الذي تسلّم مفاتيح الطائرة من الريدي. اتفق الثلاثة على اللقاء في المطار في صباح اليوم التالي بحيث يتمكن بن لادن من فحص الطائرة. نهض الريدي باكراً لتنظيفها لأن الطائرة كانت متسخة من الخارج نتيجة الطيران، لكن بن لادن لم يحضر في الوقت المتفق عليه، وهكذا أمضى الريدي ساعات راحة قبل الاتصال بالحاج الذي اعتذر، لكنه استدعاه إلى المكتب لعقد اجتماع.

وصل الريدي إلى بناية سكنية تقع في حي الرياض، وهو أحد أحياء الخرطوم. كان الحاج جالساً إلى الطاولة الأمامية، ورحّب بالريدي بحرارة. شغل الحاج، بالإضافة إلى القيام بالواجبات التي ورثها عن الريدي، مركز المساعد الشخصي لبن لادن بعد مغادرة جمال الفضل، أحد أوائل أعضاء القاعدة. كان الفضل سودانياً، وهو أمضى أسابيع عديدة في تدريب الحاج على إدارة المكتب. كان مكتب أبي جعفر (أبي خديجة العراقي) وراء مكتب الحاج، وكان مدير أعمال بن لادن، أما بن لادن فكان يحتل المكتب الداخلي. دخل الريدي بصحبة الحاج إلى مكتب بن لادن.

كان بن لادن مرتدياً ثوباً أبيض اللون، وهو اللباس العربي التقليدي، كما أطلق لحية سوداء. توجه بن لادن بالحديث إلى الريدي: «إنني آسف لعدم حضوري هذا الصباح. كان يتكلم بلهجة سعودية هادئة، وبدا أن صوته يوحي بشيء من الخجل. «لكن عندي طلباً جديداً لك. أريد أن تبقى هنا في السودان وتعمل عندي. سأدفع لك ألفاً ومئتي دولار شهرياً».

أجاب الريدي: «قبل مناقشة عرض التوظيف أريد أن أقول لك شيئاً على مستوى شخصي. يُحتمل أنك تعرف بأننا عندما كنا في أفغانستان شعرت باستياء من واقع كونك رجلاً ثرياً من دون خلفية عسكرية، أو حتى خبرة، وتريد أن تجعل من نفسك

قائداً عسكرياً. كان ذلك أحد الأسباب التي دفعتني لمغادرة أفغانستان. تغيّر رأيي الآن بعد أن تغيّر الوضع، وامتلكتَ الخبرة».

شكر بن لادن الريدي وشرح له دقائق الوظيفة. «سوف تقود الطائرة لي شخصياً، وسوف نستخدم هذه الطائرة كذلك لرش المحاصيل». تملّك بن لادن مزرعتين تنتجان المحاصيل التي يُستخرج منها الزيت النباتي. «كما ستنقل المحاصيل إلى بلدانٍ أخرى كي تُباع».

أجاب الريدي: «تحدثتَ عن ثلاث وظائف، لكن عن أي وظيفة سوف أتقاضى ألفاً ومئتي دولار؟».

«يشمل المعاش الوظائف الثلاث. أريد أن تعرف بأن هذا هو أعلى مرتب أدفعه إلى ضباطي».

ردّ الريدي: «يُحتمل أن يكون المعاش الأعلى، لكنني سمعت بوجود نسبة تضخم عالية في الخرطوم. سمعت كذلك بأن المدارس مكلفة جداً للغرباء. يصدق الأمر ذاته على الأثاث. يُضاف إلى ذلك أن البيئة ليست صحية. سيكلفني العيش هنا أكثر من ألف ومئتي دولار شهرياً. أما إذا كنت تدفع هذا المرتب لكبار ضباطك فإن ذلك لا يعني أنه يجب أن تدفع لي مرتباً مساوياً. إنني أقوم بوظيفة مختلفة، ولدي تكاليف مختلفة».

قال بن لادن: «هذا هو أعلى مرتب عندي. فكّر بالأمر. تعلم كذلك بأننا لا نتحدث هنا عن الجهاد إذا كان الأمر ما زال يقلقك، بل نتحدث عن أعمال بحتة».

أكد الريدي في ما بعد، وكذلك فعل الحاج، أن ذلك المرتّب المقترح كان واحداً من أعلى المرتبات التي يدفعها بن لادن. رفض ريدي العرض مع ذلك، لكنه طمأن بن لادن بأنه مستعد «للمساعدة كالمعتاد عندما تدعو الحاجة». تسلم الريدي قيمة التكاليف التي تكبدها، وهكذا سافر إلى بيشاور عن طريق الجو، وهناك أمضى بعض الوقت في الاجتماع مع أصدقائه القدامى الذين تعرف إليهم عندما كان في أفغانستان، ثم عاد إلى الولايات المتحدة.

صدق الريدي بوعوده واستمر بتنفيذ مهمات لمصلحة بن لادن عندما يُطلب منه ذلك. تضمنت تلك المهمات في بعض الأحيان قيادة الطائرة، وفي إحدى المرات نقل خمسة من العرب إلى نيروبي. كانت مهمة الرجال الربط بين الخلايا التي تجمعت في الصومال. ساعد الريدي في أوقات أخرى على شراء أسلحة ومعداتٍ عسكرية.

مرّت نحو سنة ونصف من دون أن يتسلّم الريدي أي طلبٍ لقيادة الطائرة، وهكذا تسلّم وظيفة في القاهرة للعمل مع شركة طيران، لكن الحاج استدعاه مجدداً بعد وقت قصير. «أيمكنك يا أخي أن تحضر إلى السودان لإصلاح الطائرة وجعلها صالحة للطيران بحيث يمكن استخدامها في أعمالنا؟» سأل الريدي عما حدث، فشرح الحاج أن الطائرة لم تُستخدم منذ مدة وهي تقبع مهملة في المطار. «لم نتمكن من تشغيلها منذ أن استخدمتها أنت في آخر مرة».

أشار الريدي إلى أن السفر مباشرة من مصر إلى السودان من أجل لقاء بن لادن قد يُثير شكوك الحكومة. كان بن لادن متورطاً في تهريب الأسلحة عبر مصر، كما أنه اعتاد على إرسال القوافل المحملة بالأسلحة لملاقاة الإرهابيين المصريين في الصحراء. كان عملاء الاستخبارات يراقبون أي شخصٍ يقيم علاقات مع بن لادن، وهكذا لم يرغب الريدي في لفت انتباههم إليه. اقترح الحاج: «حسناً، يمكنك ملاقاتي في نيروبي التي أصبحت قاعدتي هذه الأيام».

سأل الريدي الحاج: «في نيروبي لماذا أنت هنا الآن؟».

«إنني أعمل لمصلحة جمعية خيرية تدعى ساعدوا شعوب أفريقيا». أوحى هذا الاسم الغامض بحقيقة ما يجري.

«جمعية خيرية؟».

أجاب الحاج مبتسماً: «إنها غطاء في الواقع لأعمالنا في الصومال» وهنا.

ضحك الريدي: «خمّنتُ هذا».

تحول حديثهما إلى الطائرة. قال الريدي إنه يحتاج إلى مساعد قبطان لتكون صالحة للقيام بالأعمال.

«حسناً، سيساعدك علي النووي، وسيلاقيك في الخرطوم». سافر الريدي إلى الخرطوم، ونزل في فندق هيلتون الذي يقع قرب المطار، وما لبث أن التقى النووي في المطار. فحص الرجلان الطائرة واكتشفا أن أحد الإطارات يحتاج إلى تغيير، وأن أحد الإطارت الأخرى قد ذاب بتأثير الحرارة. كان المحرك مليئاً بالرمل، والبطاريات فارغة. كانت بعض قطع الطائرة صدئة نتيجة عدم الاستعمال، كما أن الطائرة كانت وسخة. لم يتمكن الرجلان من العثور على المفاتيح. قال بعض عملاء القاعدة الذين التقوا بهم في المطار إنهم لا يعرفون شيئاً عن مكان المفاتيح.

انصرف النووي للبحث عن المفاتيح، بينما بقي الريدي للعمل في الطائرة. عُثر على المفاتيح في النهاية، وأنهى الرجلان الإصلاحات اللازمة، وفحصا الأجهزة الهيدروليكية، كما أجريا سلسلة من الاختبارات، وقررا في النهاية أنهما يستطيعان اختبار أداء الطائرة. أقلعت الطائرة من دون حدوث مشاكل، لكن بعد عدة عمليات هبوط على المدرج والعودة إلى الجو من دون إبطاء سرعتها قرّر الريدي أن الطائرة صالحة للتشغيل وأن الوقت قد حان لتنفيذ عملية هبوط الطائرة بالشكل الصحيح. نجحت عمليات الهبوط، لكن عندما حاول الريدي تشغيل الفرامل لم تستجِب الطائرة.

قال الريدي للنووي: «فقدنا الجهاز الهيدروليكي الرئيس، أو جهاز الفرامل الرئيس. سأجرب نظام الفرامل البديلة». كان الريدي هو الذي يتحكم بالطائرة لأنه القبطان الأكثر خبرة. لم تعمل الفرامل البديلة، وهكذا جرّب نظام الفرامل اليدوي. لكن ذلك الجهاز لم يعمل بدوره فعمد إلى إطفاء المحرك، وهكذا تابعت الطائرة مسارها على طول المدرج.

كان الريدي متعرقاً، لكن يديه كانتا ثابتتين وكذلك صوته، كما استخدم كل معرفته المهنية. كانت الطائرة تمضي مسرعة ـ بسرعة تقرب من ستين عقدة ـ لكنه

انطلق يفسّر للنووي ما هو شديد الوضوح: ستتخطى الطائرة المدرج عما قريب. وجّه الريدي الطائرة نحو أحد الكثبان الرملية. قال للنووي: «إنزع حزام السلامة عندما نصطدم بالكثيب الرملي، واخرج من الطائرة، لأن الطائرة قد تنفجر».

خرجت الطائرة بعد ذلك بخمس ثوانٍ عن المدرج مصطدمة بالكثيب الرملي، وهو الأمر الذي أوقف الطائرة بشكلٍ فجائي. تسبب هذا الاصطدام بتحرك رأسيهما إلى الأمام، لكن أحزمة السلامة في مقعديهما منعت جسديهما من التحرك معهما. نزع الريدي حزامه، وقفز من مقعده، كما أطفأ الجهاز الهيدروليكي في محاولة منه لتجنب الانفجار، ثم فتح الباب. لكنه عندما كان على وشك القفز رأى أن النووي الذي كانت تسيطر عليه حالة الصدمة قد بقي في مقعده مع بقاء حزام السلامة على حاله. أسرع الريدي لنزع حزام السلامة من مقعد زميله وجرّه خارج الطائرة.

كان كل الموجودين في المطار يحدقون إليهما. قال الريدي للنووي الذي بدأ بالعودة إلى حالته الطبيعية: «يتعيّن عليّ الخروج من هنا بسرعة».

قال النووي: «لا يقع الحق علينا في ما حدث، وبن لادن لن يلومك».

«ليس ذلك ما يقلقني. تمتلئ الخرطوم برجال الاستخبارات المصريين الذين يلاحقون بن لادن والأشخاص الذين يعملون معه. يعرف الجميع أن هذه الطائرة هي ملك بن لادن. إنها الطائرة الخاصة الوحيدة في المطار. لا أريد لرجال الاستخبارات المصريين توريطي معه. سيسبب لي ذلك عدداً كبيراً من المشاكل».

تقدم الرجلان نحو أحد الحراس على المدرج. سأل الحارس الرجلين: «هل أنتما بخير؟».

«أنا بخير، لكن أطلب منك نقلي إلى مبنى المطار». وافق الحارس، وهكذا ترك الريدي النووي وحاله، وتوجه مباشرة من المطار إلى الهيلتون، ووضّب أمتعته، ثم عاد إلى المطار. حجز الريدي في أول رحلة مغادرة من مطار الخرطوم - وصدف أنها متوجهة إلى أديس أبابا - واستقل طائرة متوجهة من هناك إلى القاهرة.

كان ذلك الحادث هو نهاية ما أطلق عليه بعضهم اسم «خطوط أسامة الجوية».

بدا بن لادن في الظاهر منشغلاً في أعمالٍ شرعية في السودان. أسّس الرجل شركات له مثل بن لادن الدولية، وهي شركة استثمارية، وشركة وادي العقيق وهي شركة قابضة، وشركة الهجرة التي هي شركة إنشاءات، وشركة الثمار المباركة وهي شركة زراعية، وشركة استثمارات طابا، ومدابغ الخرطوم وهي شركة تُعنى بصناعة الجلود، وشركة قدرات للنقل. بدا أن جميع هذه الشركات تقوم بأعمال شرعية. قامت شركة الإنشاءات، على سبيل المثال، ببناء طريق سريعة من الخرطوم إلى بور سودان. استخدم العملاء هذه الشركات كوسائل للسفر إلى أنحاء العالم كافةً لشراء الأسلحة، والمعدات، ولمساعدة المقاتلين الأجانب. كانت الشركات غطاءً مثالياً لتجنب جذب انتباه وكالات الاستخبارات.

بدأ بن لادن بتكوين شبكة دولية لمساعدة المنظمات الجهادية المماثلة لمنظمته، وفي تأسيس جيش إسلامي ومجلس شورى لتنسيق الأعمال. ضمّ مجلس هذا الجيش ممثلين عن الجماعة الإسلامية المقاتلة بليبيا LIFG، والجهاد الإسلامي المصرية EIJ ممثلة بالظواهري، وممثلين عن منظمات أخرى. كان بن لادن يرسل الأموال، والأسلحة، والمدربين، والمقاتلين، إلى جبهة تحرير مورو الإسلامية MILF، وجماعة أبي سيّاف وكلتاهما في الفليبين، والجماعة الإسلامية التي تتخذ من إندونيسيا مقراً لها، لكنها تنتشر في مختلف أنحاء جنوب شرق آسيا. أُرسل مدربون إلى كشمير وطاجكستان كما افتُتح دار ضيافة في اليمن، وهي نقطة محورية في المنطقة بأكملها. كان أعضاء القاعدة يرسلون إلى هذه الجماعات واحدة بعد أخرى من أجل التعلّم من تجاربها واكتساب مهاراتها. توجّه أعضاء القاعدة حتى إلى وادي البقاع في لبنان حيث تلقوا تدريباً من جماعة حزب اللّه الشيعية. تُعتبر القاعدة جماعة سنية متطرفة وهي تنظر إلى الشيعة على أنهم هراطقة، لكن من أجل تعلّم تكتيكات الإرهاب كانت القاعدة على استعداد لتناسي الفروق الدينية.

ما إن انتهت عملية إقامة الشبكة الأساسية في العام ١٩٩٢ حتى خطط بن لادن وقادة القاعدة الآخرون الأهداف التي يمكنهم ضربها في الولايات المتحدة. استقر

هؤلاء القادة في القرن الأفريقي. جاء الجنود الأميركيون في ذلك الحين في إطار عملية استعادة الأمل، وهي كانت عملية دولية بقيادة الأمم المتحدة، وقد تم في إطارها تقديم المساعدات الإنسانية، ومكافحة المجاعة في جنوب البلاد، وهي العملية التي بدأت الولايات المتحدة في قيادتها في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٢. أُرسل أبو حفص المصري إلى الصومال بهدف التقييم الدقيق لما تقوم به الولايات المتحدة في الصومال. اعتبر المصري في تقريره النهائي أن الوجود الأميركي هو اجتياح أراضي المسلمين، لكنه اعترف مع ذلك بأنه بسبب الجماعات القبلية المختلفة في البلاد، فإنه سيكون من الصعب على القاعدة العمل هناك. أصدر قادة القاعدة، واستناداً إلى تقرير أبي حفص المصري، فتوى تطالب الولايات المتحدة بمغادرة الصومال.

انتشر مدربون من القاعدة على الأرض خلال معركة مقديشو (التي تُعرف كذلك باسم إسقاط الصقر الأسود)، والتي جرت يومَي ٣ و٤ تشرين الأول/أكتوبر من العام ١٩٩٣. أُسقطت حوامتا بلاك هوك أثناء قيامهما بمهمة. جرت عملية إنقاذ تميزت بالفوضى قُتل بنتيجتها ١٨ أميركياً وأكثر من ١,٠٠٠ مقاتل صومالي. شاهد العالم جثث الجنود الأميركيين الهامدة وهي تُسحب في الشوارع، وما لبث الرئيس كلينتون بعد ذلك أن أمر بسحب الجنود الأميركيين من الصومال. احتفل بن لادن بهذا الانسحاب واعتبره نصراً رئيساً، كما أبلغ أتباعه بأن هذه الحادثة تُظهر أن أميركا ضعيفة، وتُظهر قدرة القاعدة على إلحاق الهزيمة بقوة عظمى عن طريق إلحاق الألم بها.

قررت قيادة القاعدة بعد تمركزها في السودان أن الجماعة تحتاج إلى وجودٍ لها في الصومال. اعتُبرت نيروبي نقطة دخولٍ مثالية، وهكذا تمكن عملاء يزعمون أنهم من موظفي الإغاثة من السفر جواً إلى نيروبي قبل أن يستقلوا طائرة صغيرة إلى الحدود حيث كانوا يكملون رحلتهم من هناك بالسيارة. أرسل بن لادن صديقه الذي يثق به كثيراً، الملازم أول خالد الفواز ليكون على رأس خلية نيروبي. أسس

فواز عدة شركات، فعملت الأولى في الأحجار الكريمة [الثمينة]، كما أسّس منظمة غير حكومية تزعم أنها تساعد الأفارقة، لكنها في واقع الأمر كانت مجرد غطاء لعملاء القاعدة الذين يمرون من هناك إلى مقديشو. ما إن بدأت الخلية عملها حتى أرسل بن لادن فواز إلى لندن لتسيير عمليات القاعدة التي تركز على الأمور اللوجستية والعلاقات العامة. عمل فواز تحت غطاء هيئة النصيحة والإصلاح، وهي منظمة غير حكومية تأسست في ١١ تموز/يوليو من العام ١٩٩٤، وتنادي بالإصلاح في المملكة العربية السعودية. أما وديع الحاج فقد أرسله بن لادن كي يأخذ مكان فواز في كينيا.

كان فضل عبد اللّه محمد مساعد الحاج الشخصي في نيروبي، وكان هارون فضل أحد الألقاب التي اتخذها. وُلد هارون فضل في جزر القمر، وانتسب إلى مدرسة وهابية متشددة، وما لبث أن ذهب إلى أفغانستان حيث تورط مع القاعدة. (قُتل في النهاية في ١٠ حزيران/يونيو ٢٠١١). ساعدت خلية نيروبي في العمليات الجارية في الصومال، وكذلك بدأت في التخطيط لتنفيذ أول عملية منفردة للقاعدة والإعلان عن وجودها على المسرح العالمي: خطّط هؤلاء لتفجير السفارتين في نيروبي ودار السلام.

استدعى المسؤول المالي في القاعدة، مدني الطيب، والذي يُعرف في دوائر القاعدة باسم أبي فضل المكي، جمال الفضل، وذلك في أواخر العام ١٩٩٣، أو أوائل العام ١٩٩٤. «سمعنا أن شخصاً ما في الخرطوم يمتلك كمية من اليورانيوم، ونحن بحاجة إليك كي نعرف ما إذا كان هذا الأمر صحيحاً أم لا. إذا كان الأمر صحيحاً فإننا نريد شراء تلك الكمية». كانت القاعدة تبحث دوماً عن الأسلحة والمواد الكيميائية كي تستخدمها في عملياتها ضد الولايات المتحدة الأميركية.

سأل الفضل: «وكيف لي أن أعرف؟»

«إذهب إلى أبي دجانة. إنه يعرف أكثر عن الموضوع». كان أبو دجانة عميلاً بارزاً للقاعدة في اليمن.

التقاه الفضل وأُبلغ بأن مسؤولاً سودانياً يُدعى المقدّم صلاح عبد المبروك هو الذي يعرف كيفية شراء اليورانيوم وبيعه.

سأل أبو دجانة: «وهل تعرف كيف يمكنني أن أصل إليه؟»

«كلا، لكنك سوداني. يمكنك استخدام معارفك لتعرف ذلك».

بحث الفضل الذي تمكّن أخيراً من العثور على شخصٍ قال له إنه يعرف ذلك المسؤول. سأله الرجل: «ولماذا تريد أن تلتقيه؟»

«قالوا لي إنه يعرف كيفية الحصول على اليورانيوم، وإذا كان ذلك صحيحاً فإننا نود أن نشتريه».

تمكّن الرجل في غضون أسبوع من الزمن من ترتيب لقاء التعارف، وما لبث الفضل أن وجد نفسه وهو يجلس وجهاً لوجه مع صلاح عبد المبروك. انخرط الفضل بعد وقتٍ قصير في ذلك النوع من المفاوضات التي ميّزت تعاملات القاعدة في البداية: الفساد المعتاد، والمكالمات الهاتفية المنهكة والمملة، والوسطاء الودودون، وهي أمور تحجب كلها طبيعة المعاملات ومقدار العمل الذي أنجز.

قال المبروك للفضل: «إنني أعرف بالفعل أن اليورانيوم موجود. يوجد شخص يدعى البشير وهو سوف يساعدك».

رتّب مبروك اجتماعاً بين الفضل وبشير الذي أظهر الدهشة التي وصلت إلى حد الذهول إزاء طلب شراء اليورانيوم، لكن كان يصعب تحديد ما إذا كانت ردة فعله حقيقية أم مصطنعة. سأل بشير الفضل: «هل أنت جاد؟ أتريد أن تشتري يورانيوم؟»

«أجل، أريد شراء اليورانيوم».

«وهل يمتلك أصحابك المال؟»

«أجل، لكنهم يريدون أولاً الحصول على معلومات حول اليورانيوم، مثل نوعيته والبلد الذي صنعه. سيتحدثون عن السعر بعد ذلك».

أظهر بشير بعد ذلك حماسة مفاجئة، وقال: «سأعطيك المعلومات. أما السعر فسوف يكون مليوناً ونصف مليون من الدولارات، كما أننا نريد تسلّم المال خارج السودان. أريد كذلك الحصول على عمولة، وكذلك الحال مع صلاح عبد المبروك. لكني أريد أن أعرف كيف ستفحصون اليورانيوم؟»

«لا أعرف، لكني سأعود إلى الجهة التي كلّفتني وسأبلغهم بما أخبرتني به، وسوف أعود إليك بالجواب».

التقى الفضل أبا رضا السوري، وهو أحد ممولي القاعدة. كان أبو رضا، مثل جمال الفضل، أحد أوائل الذين انتسبوا إلى القاعدة. وُلد محمد لؤي بايزيد في سوريا، لكنه أمضى قسماً كبيراً من الوقت في الولايات المتحدة بما في ذلك عدة سنوات أمضاها في دراسة الهندسة في كنساس سيتي. قال أبو رضا للفضل: «يبدو لي أن هذا مناسب جداً. أضاف الرجل بعد قليل: «ما علينا إلا أن نفحص اليورانيوم».

«وكيف ستفحصه؟»

«يمكننا الاستفادة من جهاز، وهو آلة كهربائية تتمكن من فحصه. لكننا نحتاج أولاً إلى إلقاء نظرة على الأسطوانة التي تحتوي على اليورانيوم، وسوف نعرف منها كل شيء عن نوعيته والبلد الذي أنتجه». كتب أبو رضا للفضل لائحة بالأسئلة التي تريد القاعدة طرحها، وكل المعلومات التي ترغب في الحصول عليها، وطلب منه الحصول على الإجابات.

عاد الفضل إلى الوسيط وأبلغه بأنه بحاجة إلى لقاء البشير مجدداً لمناقشة موضوع اليورانيوم استناداً إلى الأسئلة التي وضعها أبو رضا. عيّن الوسيط نقطة اللقاء وطلب من الفضل أن يلتقيه هناك في غضون عدة أيام في العاشرة صباحاً. أضاف قائلاً: «يمكنك أن تصطحب أبا رضا السوري معك إذا أردت».

قاد الفضل وأبو رضا سيارتهما في اليوم المحدد إلى المكان الذي عيّنه البشير

للفضل، وما لبث البشير أن ظهر فجأة إلى جانبهم في سيارة جيب. قال لهما: «اتركا سيارتكما هنا. تعالا معي، وسوف نذهب إلى حيث يوجد اليورانيوم». صعد الرجلان إلى سيارة الجيب واتجه الجميع بها إلى خارج الخرطوم. غادرا في النهاية الطريق الرئيسة، وأوقفا سيارة الجيب خارج أحد المنازل. «قال لهما بشير: «هيا بنا». أدخل بشير الرجلين إلى المنزل وجلسا قبل أن يختفي بشير ويعود مع كيسٍ كبير. أخرج إحدى الأسطوانات من الكيس. بلغ طول الأسطوانة عدة أقدام، كما ظهرت عدة كلماتٍ نُقشت عليها. ناول بشير الأسطوانة إلى أبي رضا.

تفحص أبو رضا الكتابات المنقوشة وأمضى نحو خمس دقائق في تفحّص الأسطوانة بأكملها، وانشغل في هذا الوقت في كتابة المعلومات على دفتر ملاحظات. تشاور أبو رضا قليلاً مع بشير قبل أن يغادر الجميع. أنزل بشير الرجلين قرب سيارتهما المركونة في الخرطوم.

انتزع أبو رضا الورقة من الدفتر وأعطاها للفضل بعد أن أصبحا وحدهما، وقال له: «خذ هذه إلى أبي هاجر، وأنا سأنفذ كل ما سيقوله».

فعل الفضل ما طُلب منه. كان ذلك اجتماعاً قصيراً لم يتناول البحث خلاله أي شيء غير المهمة التي بين أيديهما. تفحص أبو هاجر الورقة وقال: «قل لهم إنّنا سنشتري اليورانيوم».

أما الاجتماع الثالث الذي عقده الفضل مع بشير فقال فيه لهذا الأخير: «تريد جماعتي شراء اليورانيوم». سأل بشير مجدداً عن كيفية فحص اليورانيوم، وهكذا شرح له الفضل: «إننا ننتظر وصول جهاز من خارج السودان كي نفحصه».

«كم سيستغرق هذا من الوقت؟»

«لا أعرف. لكنّ أبا رضا سيتولى كل شيء. إنه مموّل العملية».

عاد الفضل إلى أبي رضا وأبلغه كيفية الاتصال بالبشير. قال أبو رضا: «عظيم»، وما لبث أن ناوله عشرة آلاف دولار.

سأل الفضل: «ولماذا هذا المبلغ؟» لن تكونَ دهشته أقلّ إذا طلب منه أبو رضا العودة إلى بشير للمرة الرابعة لطرح مزيد من الأسئلة.

«هذا مقابل تعبك».

اكتشفت القاعدة ـ بعد شراء اليورانيوم مقابل مليونٍ ونصف المليون من الدولارات، بالإضافة إلى دفع العمولات لكل من شارك في إتمام هذه الصفقة ـ أنها تعرضت للخداع. لم تشترِ القاعدة مادة اليورانيوم، بل مادة الزئبق الأحمر، والذي لم يكن بذي فائدة لها.

كنت في لندن بعد سنوات عدة بهدف التحقيق في خلية للقاعدة هناك، وكان ذلك جزءاً من عملية التحدي، وكنا نتفحص الملفات العائدة إلى فواز وأعضاء الخلية الآخرين في لندن. قرأت هناك تقريراً لمختبر في النمسا يحدد تلك المادة على أنها أوزميوم.

وُلد الدكتور رشاد خليفة في مصر في العام ١٩٣٥، وتزوج من أميركية، وهو الذي كان إماماً متحرراً في توكسون، أريزونا. انتقل خليفة إلى الولايات المتحدة في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي. لعب ابنه سام خليفة مع فريق بيتسبورغ بيراتس لكرة القاعدة من أوائل الثمانينيات من القرن الماضي وحتى منتصف ذلك العقد. درس خليفة الكيمياء الحيوية، وكان ماهراً في ربط الخصائص بالأرقام ويعتقد أن الأرقام تحدد الأحداث في الحياة، وزعم أنه يُمكن كشف معجزات القرآن عن طريق المعادلات الرياضية. سمح خليفة للمؤمنين والمؤمنات بالصلاة معاً في مسجده، أي مسجد توكسون، كما أنه لم يطلب من النساء ارتداء الزي الإسلامي التقليدي، وحتى أثناء الصلاة. عارض خليفة علناً الأفكار التكفيرية المتطرفة التي يتبناها آخرون وخاصة بين المصريين المتطرفين، مثل اعتبار الرفاق من المسلمين الذين لا يتقبلون آراءهم على أنهم كفرة، أو غير مؤمنين.

كان المسلمون الأكثر تطرفاً في المنطقة يترددون إلى مسجد منافس في توكسون،

وهو المركز الإسلامي والذي يقع على بعد نحو عشرة أميال من مسجد توكسون، وكان وديع الحاج من بين هؤلاء المتطرفين. اعتاد المترددون على المركز الإسلامي على مناقشة آراء خليفة، والتعبير عن استيائهم من وعظه. وصل استياؤهم من الإمام بحلول أواخر الثمانينيات من القرن الماضي إلى الجاليات المتطرفة الأخرى في أنحاء الولايات المتحدة.

تلقى الحاج في يوم جمعة من أيّام كانون الثاني/يناير من العام ١٩٩٠ مكالمة من رجلٍ قال إنه زائر من نيويورك، وإنه ينتظر لقاءه في المركز الإسلامي. اجتمع الرجلان في المسجد. وصف الحاج ذلك الرجل في ما بعد بشيء من الغموض والتردد، وقال إنه رجل مصري طويل يضع نظارات ويطلق لحية طويلة. أبلغ الرجل الحاج بأنه يزور توكسون للتحقيق في مسألة رشاد خليفة. أبلغ الرجل الحاج: «سمعت أن تعاليمه تناقض ما يتفق عليه جميع المسلمين». تحدث الرجل كذلك عن استعداد خليفة للسماح للرجال والنساء بالصلاة معاً، وكذلك عن نظرياته بشأن الأعداد في القرآن. نشرت مجلة ساينتيفيك أميركان ترجمة خليفة المشروحة للقرآن، والتي لقيت ترحيباً كبيراً وصدرت بعنوان القرآن: العهد الأخير، وأطلقت عليها لقب «الدراسة العبقرية»، لكن ذلك لم يفِد بشيء في تخفيف اعتراضات ناقديه. دعا الحاج الزائر إلى منزله لتناول طعام الغداء.

عبّر الرجل أثناء تناول طعام الغداء عن غضبه الشديد إزاء خليفة، وقال للحاج إنه حاول الذهاب إلى مسجد توكسون للصلاة، لكنه مُنع من الدخول بسبب لحيته الطويلة. تطلع الرجل إلى داخل المسجد من خلال إحدى نوافذه ورأى رجالاً ونساءً يصلّون معاً، وهذا ما زاد من غضبه كثيراً. قال الحاج إن الرجل غادر بعد أن رأى ما يكفي من الأمور التي تثير الحزن.

وُجد الدكتور خليفة مقتولاً في مطبخ المسجد في وقت لاحقٍ من ذلك الشهر. قال وديع الحاج في ما بعد إنه شعر أن مقتل خليفة كان مبرراً. بقيت الجريمة غامضة منذ ذلك الوقت.

ألقى مائير كاهانا، وهو إسرائيلي يحمل الجنسية الأميركيّة، وكان عضواً في البرلمان الإسرائيلي لمرة واحدة، خطاباً في فندق ماريوت في نيويورك سيتي في ٥ تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٩٠. تجمّع بعض الحاضرين حوله لتهنئته عند انتهائه من إلقاء الخطاب. سُمع صوت إطلاق نار بعد ذلك وأصابت إحدى الرصاصات كاهانا في عنقه، وهو الأمر الذي أدى إلى مقتله. جُرح السيد نُصير، والذي سبق له أن هاجر إلى الولايات المتحدة في العام ١٩٨١، بعد إطلاق النار عليه ثم اعتُقل على الفور.

كشفت التحقيقات اللاحقة أن مصرياً يُدعى محمود أبو حليمة هو الذي زوّد نُصير بالمسدس وأسلحة إضافية تساعد على تنفيذ الهجوم. قيل حينها إن وديع الحاج هو الذي اشترى الأسلحة لصالح أبو حليمة، وهو الذي سبق له أن التقاه أثناء انعقاد مؤتمرٍ إسلامي عُقد في الولايات المتحدة في العام ١٩٨٩. كان نُصير عضواً في جماعةٍ من المتطرفين الإسلاميين في نيويورك وهي الجماعة التي كانت تحت قيادة الشيخ الأعمى، الشيخ عمر عبد الرحمن.

حفظ عبد الرحمن القرآن بواسطة طريقة بريل، كما ذهب للدراسة في جامعة الأزهر الشهيرة. ألقى النظام المصري القبض عليه نظراً لارتباطه باغتيال السادات، كما اتهم من بين أمورٍ أخرى بكتابة فتوى تحرّض على الجريمة، كما قيل إنّه تعرّض للتعذيب في السجن. أُطلق سراح الشيخ في النهاية لكنه طُرد من مصر. سافر الشيخ بعد ذلك إلى أفغانستان حيث التقى عبد اللّٰه عزام وهو الذي درس على يده ذات مرة.

انتقل عبد الرحمن إلى الولايات المتحدة للإشراف على موجودات منظمة عزّام في الولايات المتحدة، وذلك بالرغم من أن تلك المنظمة هي من ضمن القائمة الإرهابية التي تراقبها وزارة الخارجية. تلقى الشيخ تأشيرة الدخول في السودان بواسطة أحد مسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية. بدأ الشيخ الأعمى فور وصوله إلى الولايات المتحدة في تجنيد المزيد من الأتباع، كما جمع التبرعات، وشجب

الولايات المتحدة، واستخدم عدداً كبيراً من الحجج التي استخدمها قطب الذي كان معجباً به كثيراً.

تلقى الحاج في أوائل العام ١٩٩١ مكالمة هاتفية من مصطفى شلبي، وهو شاب مصري مهاجر يُشرف على مركز الكفاح الذي يقع في مسجد الفاروق في بروكلين. طلب شلبي من الحاج الحضور إلى نيويورك لمدة أسبوعين للإشراف على المركز طوال مدة غيابه في باكستان. كان ذلك المركز جزءاً من مكتب الخدمات، وكان شلبي ناجحاً في تجنيد الأتباع وتجميع التبرعات.

ثار لغط كبير في المركز بعد انسحاب الاتحاد السوفياتي من أفغانستان، وذلك بشأن كيفية التصرف بمبلغ ١٠٠,٠٠٠$ كانت قد بقيت في صندوق المركز. أراد شلبي الذي يدين بالولاء لعزام وحده، إرسال المال إلى أفغانستان لمساعدة الناس هناك على إعادة بناء بلدهم. أما الجناح الآخر الذي يقوده الشيخ الأعمى فأراد استخدام الأموال للجهاد في بلدان أخرى، وعلى الأخص في بلد عبد الرحمن، أي مصر. قرر شلبي السفر إلى باكستان لمقابلة عزام لمحاولة حل النزاع. كان من المفترض كذلك أن يدير الحاج أعمال المركز في غيابه.

وصل الحاج إلى بروكلين، وتوجّه لمقابلة شلبي في المكان المتفق عليه، لكن شلبي لم يظهر أبداً. لم يظهر في اليوم المحدد للاجتماع ولا في اليوم التالي كذلك. وُجدت جثة شلبي بعد مرور أسبوع في شقة كان يتشارك بها مع محمود أبو حليمة. توصلت التحقيقات التي أُجريت إلى أن شلبي قُتل في ١ آذار/مارس من العام ١٩٩١، أي في اليوم الذي وصل فيه الحاج إلى نيويورك. توجه الحاج في أثناء وجوده في نيويورك إلى سجن رايكرز آيلند لزيارة السيد نُصير.

سيطر أتباع الشيخ الأعمى على المركز بعد مقتل شلبي، كما أصبح المركز ميداناً لتدريب المتطرفين. كان أحد أكثر المدربين شعبية هو علي محمد، وهو الذي ساعد على نقل بن لادن إلى السودان. انضم علي محمد إلى جيش الولايات المتحدة في

أعوام الثمانينيات من القرن الماضي، وكان في الوقت ذاته عضواً في تنظيم الجهاد الإسلامي التابع للظواهري، وهكذا عمل بصفة عميل مزدوج. اعتاد علي محمد إحضار الكتب الإرشادية التابعة للجيش الأميركي لتدريب المقاتلين، ومن بينهم السيد نُصير.

انفجرت في يوم ٢٦ شباط/فبراير من العام ١٩٩٣ عربة كانت متوقفة في مرأب تحت الأرض تابع لمركز التجارة العالمي. تسبب الانفجار في إحداث حفرة في سبع طبقات، كما أدىً ذلك إلى مقتل ستة أشخاص وجرح أكثر من ألف شخص. كان الهدف من هذه العملية هو تفجير أحد البرجين وهو الأمر الذي يدفع به إلى السقوط على البرج الآخر مما يتسبب في سقوطهما معاً، لكن المتفجرات لم تكن قوية بما يكفي.

أخذ الفرع الميداني لمكتب التحقيقات الاتحادي في نيويورك على عاتقه الإشراف على التحقيقات. تعرف المحققون العدليون في موقع الانفجار على جزءٍ من عربة يعود إلى شاحنة مستأجرة، وكان محمود سلامة أبلغ عن سرقتها في نيوجيرسي، وسلامة هو فلسطيني مقيم بصورة غير شرعية في الولايات المتحدة. كان الرجل يتصل لاستعادة مبلغ ٤٠٠$ سبق له أن دفعه كتأمين.

ألقى رجال مكتب التحقيقات الاتحادي القبض على سلامة في ٤ آذار/مارس، وما لبث أن ألقى القبض على آخرين متورطين في هذه الخطة، ومن بينهم نضال عيّاد، وهو المهندس الذي اشترى المواد الكيميائية للقنبلة. كشفت التحقيقات كذلك أن رمزي يوسف، وهو كويتي من أصول باكستانية، هو الذي أوقف الشاحنة في مكانها. تلقى يوسف العلم في بريطانيا، ثمَّ دخل إلى الولايات المتحدة في العام ١٩٩٢ بوثائق مزورة، لكنه ما لبث أن طلب اللجوء السياسي وحصل عليه.

هرب يوسف إلى باكستان بعد الهجوم، وتبيّن لاحقاً أن الخطة قد أُعدّت إما في معسكرٍ للتدريب يقع في شرق أفغانستان قرب خوست، وهو المسمى معسكر

خالدان، أو في المنطقة المجاورة له. التقى يوسف والمتآمرون الآخرون هناك. أشارت التحقيقات التي أجراها FBI إلى مسجد الفاروق في بروكلين، وإلى مركز الكفاح، والشيخ الضرير. خضع كلٌّ من سلامة، وأبو حليمة، ونُصير، والشيخ الضرير إلى التحقيقات إثر الهجوم. كشفت التحقيقات كذلك أن الرجال كانوا يخططون لمؤامرة ثانية تقضي بمهاجمة معالم نيويورك البارزة، بما فيها الأمم المتحدة، ومكتب التحقيقات الاتحادي، ونفقَي لنكولن وهولاند، وجسر جورج واشنطن.

تسلّم عميل مكتب التحقيقات الاتحادي الخاص جون أنتيسيف التحقيق في قضية كاهانا. دلّت المعلومات التي تجمعت من تلك القضية مكتب التحقيقات إلى التعرّف على أعضاء خلية مركز التجارة العالمي. حصل أنتيسيف وشريكه لويس نابولي، المحقّق في دائرة شرطة نيويورك، على مصدر تمكّن من اختراق الخلية الإرهابية الثانية التي كانت تحضّر للهجوم على معالم مدينة نيويورك البارزة.

كان اسم المواطن الأميركي وديع الحاج يظهر على الدوام من خلال التحقيقات في عملية تفجير مركز التجارة العالمي، وكذلك كشفت التحقيقات مؤامرة الهجوم على معالم نيويورك التي أُحبطت، وهي العملية التي أطلق عليها مكتب التحقيقات اسم وقف الإرهاب. بدأ مكتب التحقيقات بالبحث عنه وتسلّم دان كولمان إدارة هذه العملية. تبيّن بعد ذلك أن الحاج كان يعيش في نيروبي حيث عمل مع أبي عبيدة البنشيري، وهو القائد العسكري والرجل الثاني في القاعدة، وكذلك مع هارون فضل، مساعد البنشيري.

هوجم أخيراً منزل الحاج في نيروبي يوم ٢١ آب/أغسطس من العام ١٩٩٧. أراد دان كولمان أن يحاول الحصول على دليل ما، وذلك لأن مكتب التحقيقات الاتحادي لم يمتلك أي قضية مباشرة ضد الحاج. عثر المهاجمون على دفتر العناوين العائد للحاج، وهو الدفتر الذي تضمن اسمَي النووي ـ الذي ساعَدَ القبطان الريدي عندما عرّضا طائرة بن لادن للتحطم ـ وعلي محمد، وهو عميل القاعدة المزدوج في الجيش الأميركي. وُجدت رسالة في حاسوب الحاج الشخصي من هارون

فضل، وهي الرسالة التي حذّر فيها هارون من أنه يعتقد أن خلية نيروبي تخضع للمراقبة: «تجمعت لدي عدة أسباب تجعلني أعتقد أن أفراد الخلية في شرق أفريقيا هم في خطرٍ عظيم، وهو الأمر الذي لا يترك لنا أي خيار غير التفكير والعمل الجاد من أجل إحباط مخططات العدو الذي يعمل ليل نهار كي يقبض على واحدٍ منا، أو في سبيل تجميع مزيدٍ من المعلومات عن أي واحدٍ منا». روى هارون كذلك أنه قرأ في صحيفة بريطانية عن شخصٍ مقربٍ جداً من بن لادن يُعتقد أنه يتعامل مع وكالة الاستخبارات السعودية. اعتقد هارون أن ذلك الشخص هو مدني الطيب، المسؤول المالي في القاعدة، وهو الذي عمل مع فضل في قضية شراء اليورانيوم. قال هارون إنه يحاول التأكد من حدسه هذا، وأن خيانة الطيب، إذا ما تم إثباتها، ستكون بمثابة «أخبار رهيبة». حثّ هارون في تلك الرسالة على اتخاذ احتياطات أمنية أكبر.

كان الطيب مقرباً من بن لادن وتزوج من ابنة أخته، لكنه خسر إحدى ساقيه أثناء الجهاد ضد السوفيات. سافر الطيب إلى أوروبا لتلقي العلاج وذلك بعد أن شعر بألم دائم إثر بتر ساقه ـ وسعى للحصول على مساعدة فواز، وهو رجل بن لادن في لندن، ثم استسلم في لندن إلى السعوديين على أمل أن يساعدوه في احتياجاته الطبية. أخبرهم كل ما يعرفه عن بن لادن والتمويل الذي تحصل عليه القاعدة، لكن السعوديين لم يمرّروا تلك المعلومات أبداً، كما لم يمكّنوا مكتب التحقيقات من وضع يده على الطيب، وزعموا لاحقاً أنهم أعطوا تلك المعلومات إلى وكالة الاستخبارات المركزية. انتشرت أخبار فرار الطيب من القاعدة إلى السعوديين في العام ١٩٩٧.

تلقيت بعد سنوات عدة، أي في العام ٢٠٠٢ وأثناء التحقيقات التي أجريتها مع المشتبه بهم في خليج غوانتانامو في كوبا، مكالمةً هاتفية من اللواء مايكل دونلافي، وهو المدير المسؤول عن فريق العمل المتخصص المشترك ١٧٠ (task force) التي شكّلها البنتاغون لتنسيق التحقيقات. طلب مني دونلافي الحضور لمقابلته. قال لي

بحماسة: «ألقينا القبض على مدني الطيب. إنه قيادي بارز في القاعدة، وهو يعرف كل شيء عن تمويلهم».

مشيت عبر المخيّم نحو مكتب دونلافي، وسألته: «هل أنت متأكد من إلقاء القبض عليه؟»

«أجل، كما أننا استجوبناه».

«لكني سمعت أن السعوديين سجنوه».

«حسناً. إنه هنا، لكنه لا يتعاون معنا حتى الآن. إنه...» أشار دونلافي هنا إلى أحد الضباط الذي كان واقفاً وراءه وأكمل: «هو الذي يستجوبه».

سألت الضابط: «هل رأيتَ مدني الطيّب شخصياً؟»

«أجل رأيته».

«كم ساقاً يمتلك الرجل؟»

«ماذا تعني؟»

أعني ساقيه. هل يمتلك الرجل ساقاً واحدة أم اثنتين؟»

«إنه يمتلك ساقين».

أتعني ساقين حقيقيتين؟»

«أجل».

قلت: «يعني ذلك أنه ليس مدني الطيّب لأن إحدى ساقيه مبتورة».

شعر دونلافي بارتياح لأن هذه القضية انتهت عند هذا الحد فالتفت إلى الضابط وقال مازحاً: «أتعرف، لا يُمكن للساقين أن تنبتا من جديد».

تصاعد الضغط الدولي على السودان في منتصف عقد التسعينيات من القرن الماضي بسبب استضافته بن لادن. نشر بن لادن، وأعضاء لجنة القاعدة للشؤون

الدينية، فتاوى بدءاً من العام ١٩٩٢ تأمر الناس بمهاجمة الجنود الأميركيين الموجودين في شبه الجزيرة العربية. نقل أفراد القاعدة ما بين العامين ١٩٩٢ و١٩٩٥ الأسلحة والمتفجرات من الخرطوم إلى بور سودان تمهيداً لنقلها إلى المملكة العربية السعودية، واستخدموا في ذلك العربات العائدة لشركات بن لادن. انفجرت في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٩٥ شاحنة مليئة بالمتفجرات في المملكة العربية السعودية، وذلك خارج منشأة تدريب يديرها الأميركيون والسعوديون بصورة مشتركة. كان المعتدون بقيادة خالد السعيد، وهو شخص مقرب من بن لادن. انفجرت كذلك في شهر حزيران/يونيو من العام ١٩٩٦ شاحنة أخرى وذلك في مجمع أبراج الخُبَر في الظهران في المملكة العربية السعودية، وكان جنود أميركيون يسكنون في هذه المجمعات. قُتل في ذلك الحادث تسعة عشر أميركياً وجُرح ٣٧٢. استنتجت التحقيقات التي أجراها FBI أن ذلك الهجوم هو من تنفيذ منظمة حزب الله في السعودية. لكن ذلك الاستنتاج لم يمنع القاعدة من إعلان مسؤوليتها. تفاخر بن لادن في العام ١٩٩٦ عند إعلانه الحرب، في قصيدة تستحضر ذكر القبلة، وهي المكان الذي يتوجه إليه المسلمون في صلواتهم، بأنه لم يُقدم على خيانة الملك السعودي، بل إن الملك هو الذي أقدم على خيانة المسجد الحرام عندما سمح بدخول الكفرة إلى المملكة:

جيشُ الصليبِ غدا هباءً

يومَ فجّرنا الخُبَرْ

بشبابِ إسلامٍ كُماةٍ

لا يهابون الخَطَرْ

إن قيلَ يقتلكَ الطُغاةُ

يقولُ في قتلي ظَفَرْ

أنا ما غدرتُ بذا المليكِ

إذ بقبلتِنا غَدَرْ

وأباحَ ذا البلد الحرامَ

لشرّ أنجاسِ البَشَرْ

أقسمتُ باللّهِ العظيمِ

بأن أقاتلَ من كَفَرْ

تعرّض السودان لضغوطٍ من ليبيا، وذلك بسبب قيام الجماعة الإسلامية المقاتلة، والمتحالفة مع القاعدة، بالإعلان عن عزمها على التخلص من الدكتاتور الذي طال حكمه كثيراً، وإقامة جمهورية إسلامية في البلاد. استندت هذه الجماعة في معارضتها للعقيد معمر القذافي إلى مبدأ التكفير: بالرغم من أن القذافي هو من المسلمين الملتزمين، إلا أنه لم يسمح لهم بتطبيق قانون الشريعة، بل إنه طبّق صيغته الخاصة به من النظام الاشتراكي. انحنى السودان في نهاية الأمر أمام الضغوط الليبية فأبلغ بن لادن بأنه يتعيّن على أعضاء المجموعات المتحالفة مع القاعدة من الليبيين مغادرة البلاد. احتل بعض هؤلاء مراكز في خلايا القاعدة في أماكن أخرى. سافر أنس الليبي، وهو أحد خبراء الكمبيوتر، على سبيل المثال، إلى لندن. ترك آخرون القاعدة وهم يشعرون بأن بن لادن قد تخلى عنهم ولم يقف إلى جانبهم.

تعرض حسني مبارك، الرئيس المصري، في حزيران/يونيو من العام ١٩٩٥، وأثناء زيارة قام بها إلى إثيوبيا، إلى محاولة اغتيال قامت بها منظمة الجهاد المصرية المتحالفة مع القاعدة. قمت بعد سنوات عدة باستجواب إبراهيم أحمد محمود القوصي، وهو سوداني ومن أعضاء القاعدة. أخبرني القوصي بأن أبا حفص المصري أعطاه مبلغ ٥,٠٠٠$ كي يسلمها إلى المتآمرين المحتملين. قال لي كذلك إنه بعد فشل الهجوم قام المهاجمون بالاختباء في السودان. فرض المجتمع الدولي عقوبات على السودان بسبب رفضه تسليم الرجال.

لم تُفلح كل هذه الأحداث في إنهاء مكوث بن لادن في السودان: كانت البلاد

مرتاحة لاستضافته طالما كان مستعداً لتوزيع ثروته على القيادة السودانية. لكن عندما قرر السعوديون مضايقة بن لادن مالياً، اضطرت مجموعة بن لادن السعودية إلى التوقف عن إرسال المال إليه، بدأ بمواجهة مشاكل حقيقية. واجه الرجل صعوبات متزايدة في دفع مرتبات أعضاء القاعدة. أما الأهم من ذلك كله فهو أن توزيعه السخي للأموال في السودان قد توقف. قرّر السودانيون أن حملهم عبءَ بن لادن لم يعد مجدياً، وهكذا أبلغوه بأن الوقت قد حان لمغادرته البلاد. غادر بن لادن البلاد على متن طائرة مستأجرة في يوم ١٩ أيار/مايو من العام ١٩٩٦، وسافر إلى أفغانستان برفقة أتباعه المخلصين والذين يثق بهم.

ركب أبو عبيدة البنشيري بعد مرور يومين، أي في ٢١ أيار/مايو، عبّارة تدعى إم. ڤي بوكوبا (MV Bukoba) كانت تمخر عباب بحيرة فيكتوريا، وكان يتنقل ما بين مرفأين في تنزانيا، أي من بوكوبا إلى موانزا، وكان عائداً من زيارة أقربائه في مسقط رأسه. كان الهدف الرئيس من زيارة القائد العسكري للقاعدة هو الإشراف على العمليات العسكرية في كينيا. كان شقيق زوجة البنشيري آصف محمد جمعة يرافقه في ذلك اليوم. كانت سعة العبّارة محددة بِـ ٤٨٠ راكباً، لكنها حملت في ذلك اليوم ١,٢٠٠ راكبٍ على الأقل.

اشترى أبوعبيدة وجمعة تذاكر في مقصورة الدرجة الثانية. كانت الحجرة بحجم ٧ أقدام عرضاً و١٠ أقدام طولاً، كما احتوت على أربع مجموعات من المقاعد الأسرّة. كانا في غرفة واحدة – احتل جمعة أحد الأسرّة العليا بينما مكث أبوعبيدة تحته – وتقاسماها مع خمسة أشخاص آخرين. بدأت العبّارة بالاهتزاز والترنح من جهةٍ إلى أخرى في إحدى نقاط مسارها، وكانت المياه عند ذاك بعمق ١١٠ أقدام، وذلك لأن دفّتها كانت معطلة.

كان جمعة يغط في نومه، لكنه استيقظ نتيجة تلك الارتجاجات الحادة. بدأ بالصراخ: «حدث شيء ما يا أبا عبيدة».

أجابه أبو عبيدة: «لا تقلق. إننا على ما يرام. عد إلى النوم. إن اللّه معنا». مالت

السفينة بعد نحو خمس ثوانٍ إلى جهةٍ واحدة وجنحت. بدأ الصراخ بالتصاعد من مقصورة الركاب بعد سقوطهم من أسرّتهم. كان باب الحجرة موجوداً فوق سريرَي أبي عبيدة وجمعة. استخدم جمعة بعض قطع الأثاث للصعود وإخراج نفسه. تبعه الآخرون بعد أن بدأت المياه بالتسرب. كان أبو عبيدة يتسلق مستخدماً الباب ليدفع نفسه، لكن الباب انخلع من مفصلاته، وهكذا سقط الرجل إلى أرضية الحجرة. ناداه جمعة صارخاً باسمه وحاول الإمساك به، لكن جداراً من المياه تدفق من خلال الممر وسحب جمعة بعيداً. حاول الرجل إبقاء رأسه فوق المياه، لكنه ما لبث أن بدأ بالاصطدام بالأجساد، ولم يتمكن من التمييز ما إذا كانت هذه الأجساد حيّة أم ميتة. تمكن جمعة من السباحة إلى خارج السفينة، وما لبث أن حاول السباحة نحو ما كان يعتقد أنه اليابسة.

لم يتأخر جمعة في إدراك أنه لن يصل إلى اليابسة أبداً، وهكذا بدأ بالسباحة عائداً إلى السفينة على أمل أن يعثر على شيء يتمسك به. كان مسافرون آخرون عائمين على قطع مختلفة، وهكذا تناول إحدى القطع، وبدأ بالصلاة لأن يكون أبو عبيدة قد تمكن من النجاة بمعجزة ما. وصلت سفينة إنقاذ بعد مرور ساعتين ونُقل الناجون إلى مرفأ موانزا. حاول جمعة عبثاً البحث عن أبي عبيدة، وهكذا بعث برسالة إلى زملاء أبي عبيدة في منظمة القاعدة تفيد بغرقه. وصلت هذه الأنباء إلى بن لادن بعد ذلك بيومين، أي في ٢٣ أيار/مايو. شعر بن لادن بالإحباط، لأن الأمر لا يقتصر فقط على أن الرجل هو نائبه الذي يثق به، وأكثر قادة القاعدة فعالية وشعبية، بل إنّ بن لادن كان يعتمد على نصائحه أثناء مساعيه لإعادة بناء تنظيم القاعدة في أفغانستان.

لم يصدّق بن لادن في البداية أن أبا عبيدة قد غرق، بل شكّ في أنه قُتل، وهكذا أمر وديع الحاج وهارون فضل (كان الرجلان في نيروبي حينها) بالتحقيق في الأمر. وصل هارون إلى موانزا أولاً وبدأ بالبحث عن جثة أبي عبيدة، وهكذا استأجر قوارب للبحث عن أدلة تدل على وجوده. وصل الحاج بعد ذلك بأسبوعين. مكث الرجل أسبوعين إضافيين قبل العودة إلى نيروبي حيث بعثا من هناك بتقريرٍ إلى بن

لادن عبّرا فيه عن اعتقادهما بأن أبا عبيدة قد غرق بالفعل. عثر مكتب التحقيقات الاتحادي بعد ذلك على شريطٍ تلفزيوني إخباري مصوّر في الميناء، ويُظهر هارون أثناء بحثه عن أبي عبيدة.

اضطر بن لادن إلى تعيين بديلٍ عن أبي عبيدة في القيادة العسكرية للقاعدة، وهكذا عيّن أبو حفص في ذلك المركز. أما المركز الثاني الشاغر فكان رئيس خلايا شرق أفريقيا، وهو المركز الذي احتله عبد اللّه أحمد عبد اللّه، وهو المعروف في دوائر القاعدة باسم أبي محمد المصري. عمل الرجل في شرق أفريقيا تحت لقب أبي صالح.

خطّط رمزي يوسف في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٤، وكان يعيش في مانيلا في ذلك الوقت، لاغتيال البابا يوحنا بولس الثاني، وذلك أثناء زيارة الحَبْر الأعظم للفليبين، وخطّط كذلك لزرع قنابل داخل لعبٍ موجودة على متن طائرات أميركية بعد إقلاعها من بانكوك. أُطلق على هذه الهجمات اسم خطة بوجينكا. كان شريك يوسف في هذه الخطة الأخيرة خاله خالد الشيخ محمد. وُلد خالد الشيخ محمد في الكويت من أبوين باكستانيين، وكان يسعى إلى مزيدٍ من المشاركة في الجهاد منذ أن حصل ابن أخته على الشهرة بسبب تفجير مركز التجارة العالمي قبل سنتين تقريباً. كان لخالد الشيخ محمد شقيق توأم يشبهه تماماً، وقيل حينذاك إنه قُتل في أفغانستان أثناء الجهاد الأول.

أجرى يوسف تجربة ناجحة على خطة بوجينكا، وترك قنبلة تحت مقعد في طائرة كانت متوجهة من مانيلا إلى طوكيو في يوم ١١ كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٥، وهو الحادث الذي تسبّب بمقتل أحد رجال الأعمال اليابانيين. تسببت القنبلة كذلك في تمزيق جزء من أرضية الطائرة، وهو الأمر الذي كشف قسم الشحن الموجود في الأسفل، لكن القبطان تمكّن من تنفيذ هبوطٍ اضطراري في أوكيناوا. نجح يوسف بهذه الطريقة في إثبات قدرته على زرع قنبلة في متن طائرة، وهكذا فإن كل ما يحتاجه لإسقاط طائرة كان المزيد من المتفجرات.

جلس يوسف في مانيلا مع خالد الشيخ محمد بعد نجاح تجربته، وبدآ في تجهيز قنابل تتمكن من إحداث أضرارٍ أكبر. اندلع حريق أثناء إحدى جلسات تحضير القنابل في شقة يوسف، وهكذا حضر رجال الشرطة إلى الشقة فوجدوا دليلاً على الخطة. تمكّن يوسف، بطريقة ما، من تجنّب إلقاء القبض عليه فتوجّه إلى باكستان لتنفيذ خطته. لكن ضباط الاستخبارات في باكستان قبضوا عليه في إسلام أباد في يوم ٧ شباط/فبراير من العام ١٩٩٥. أما خالد الشيخ أحمد ـ الذي أرسل إلى ابن شقيقته مبلغ ٦٠٠$ قبل تفجير مركز التجارة العالمي مباشرة، وهو التحويل الذي خشي أن يُكتشف فيؤدّي إلى إدانته – فقد كان في ذلك الوقت في قطر. لكنه ما إن علم بخبر إلقاء القبض على يوسف حتى بادر إلى الاختباء.

نُقل يوسف من باكستان إلى قاعدة ستيوارت للحرس الجوي الوطني في نيوبيرغ، نيويورك، وهي الواقعة ضمن اختصاص المقاطعة الجنوبية Southern District بالرغم من المسافة التي تفصلها عن وسط مانهاتن. نُقل يوسف بعد وصوله إلى القاعدة إلى طائرة حوامة تابعة لمكتب التحقيقات الاتحادي. ما إن مرّت الحوامة من فوق مركز التجارة العالمي حتى لكزه أحد حراسه وأشار له إلى البرجين. قال الحارس: «أرأيت، إن المركز ما يزال قائماً».

ردّ يوسف: «ما كان ليظل قائماً لو أننا امتلكنا أموالاً أكثر».

الفصل الثالث

المجموعة الشمالية

امتلك بن لادن أسباباً كثيرة للاستياء من مغادرته السودان: لم يقتصر الأمر على حجز موجوداته في البلاد، بل إنّ العائلة المالكة السعودية أجبرت عائلته على قطع الأموال عنه، وهو الأمر الذي أدى إلى مواجهته صعوباتٍ مالية. لكنه كان عائداً إلى أفغانستان، وهي البلاد التي أدّت دوراً هاماً في تطوره، وحوّلته من مليونير سعودي بلا هدف إلى قائد محترم للمجاهدين. دأب بن لادن على إسماع أتباعه أن أسفارهم هذه هي بمثابة الهجرة ـ إشارة إلى سنة ٦٢٢، أي عندما اضطر النبي (ﷺ) إلى مغادرة مكة والتوجه إلى المدينة. تحوّل ما بدا للوهلة الأولى أنه هزيمة للنبي إلى نقطة تفوقٍ عظيمة، وذلك لأنه اكتسب، وسط الأمان الذي وفرته المدينة، أتباعاً وطوّر ديناً، وما لبث أن نشره في أنحاء المعمورة كافة. اعتاد بن لادن على مقارنة نفسه بالنبي (ﷺ) الذي أراد توسيع أعماله. اعتاد كذلك على الاقتباس من كلام النبي (ﷺ) وحاول تطبيق طريقة عيشه على نفسه ـ بالصوم، وحتى تقليد طريقة ارتدائه لثيابه ـ والتأكد من ملاحظة الناس لذلك. استنتجتُ من خلال تحقيقاتي مع أفراد القاعدة وقياداتها أن بن لادن كان يعتقد بأن السجود المناسب، والذي يترافق مع الاهتمام الصارم والمثابر بصورته عند الرأي العام، هو الذي يفيد في تعزيز روحه المعنوية وكذلك يرفع من معنويات أتباعه: تزايد إيمانه بنفسه كما تعمّق تقدير أتباعه

له. تمكّن بن لادن من خلال هذا المزج بين دوافعه الداخلية وتملّق الناس له من متابعة العمل الذي بدأه النبي (ﷺ).

لم تبدأ القاعدة من الصفر في أفغانستان. حوّل بن لادن القاعدة في أفغانستان إلى شبكةٍ عالمية، واشتملت هذه العملية على إقامة معسكرات تدريب ودور سكن في أنحاء أفغانستان وباكستان. تمكن نشطاؤه كذلك من إقامة علاقات مع مسؤولي الاستخبارات الباكستانية، وهؤلاء هم الذين مهدوا الطريق أمام بن لادن ليلقى الترحيب بين صفوف طالبان.

كان بن لادن حريصاً على لقاء الملا عمر، مضيفه الجديد وزعيم طالبان. لم يكن يعرف شكل عمر لأنه كان أشبه ما يكون بشخص منعزل. حظرت طالبان التصوير، لذلك لم تُلتقط له أي صورة، أو على الأقل لم تُنشر له أي صورة علناً. لكنه كان يعرف أن عمر فقدَ إحدى عينيه، وهو فقدها أثناء قتاله مع المجاهدين ضد السوفيات وأنصارهم.

كان بن لادن متشوقاً كذلك للحصول على فهم أكبر لطالبان ذاتها. قفزت طالبان إلى مسرح الأحداث على نحوٍ مفاجئ تقريباً في العام ١٩٩٤ ولم تتأخر في فرض تفسيرها للإسلام على أجزاء البلاد التي سيطرت عليها، وهو التفسير الذي يستند إلى تقاليد البشتون القبلية أكثر من استناده إلى التقاليد الدينية. حظرت طالبان كل أنواع التسلية: التلفزيون، والرياضة، وحتى اللهو بالطائرات الورقية الذي كان رائجاً في البلاد. أُغلقت كذلك مدارس تعليم الفتيات، كما لم يُسمح للنساء بمغادرة منازلهن. أُلقي القبض كذلك على الرجال الذين لا يطلقون لحاهم. وصلت هذه الموانع إلى حد فرض صيغة دينية متطرفة غير مسبوقة في أفغانستان حيث كان التسامح الديني مألوفاً على مرّ التاريخ. تنتمي غالبية المسلمين في أفغانستان إلى المذهب السنّي الحنفي، وهو الذي يُعتبر الأكثر تحرراً من المدارس الأربع التي تشكل المذهب الإسلامي السني، أما معظم الباقين فهم من الشيعة.

أخذ المذهب الحنفي اسمه من مؤسسه الإمام أبي حنيفة وهو يُعرف باستخدامه الرأي والقياس في الآراء الشرعية، وكذلك بعدم المركزية في أخذ القرارات. ساعدت هاتان الميزتان في جعل الحنفيين الأكثر تساهلاً من بين المسلمين السنّة، وهو الأمر الذي يفسّر كذلك التعايش التاريخي والازدهار المتبادل ما بين السنّة والمسلمين الآخرين، وكذلك مع الهندوس والسيخ، واليهود.

ظهر التحوّل في أفغانستان مع الجهاد ضد السوفيات (١٩٧٩-١٩٨٩)، أي عندما بدأت الأموال السعودية بالتدفق على البلاد. بدأ عند ذاك رجال الدّين التابعون للمذهب الوهابي المتشدد للمسلمين السنّة بنشر نفوذهم. يُنظر إلى الوهابية، وهي الصيغة المسيطرة بين المسلمين السنّة في المملكة العربية السعودية، على أنها إما صيغة غير متمايزة من السلفية الإسلامية (يعني الاسم «الأجداد»، وتستند إلى المبادئ الصافية التي تعود إلى قرونٍ من الزمن) أو على أنها القسم الأكثر تشدداً من السلفية. اكتسب عدد متزايد من رجال الدّين الوهابيين نفوذاً متزايداً، فبدأت بالانتشار بين البشتون. كان غير المتعلمين والفقراء هم الأكثر تعرضاً لتأثيرات الوهابية، ومعظمهم كانوا يتبعون، ببساطة، ما يقوله لهم رجال الدين. وعندما امتزجت الوهابية بالعقيدة التكفيرية التي نشرها سيد قطب فقد وُلدت عند ذلك الحركة الجهادية السلفية.

استند إغراء التحالف ما بين طالبان والقاعدة إلى رابطٍ مشترك مع (أو على الأصح استغلال) الوهابية التقليدية. فرضت طالبان قانون البشتون القبلي، الباشتونوالي، على المناطق التي سيطرت عليها، وما لبثت أن أطلقت على تلك القوانين اسم قانون الشريعة. لكن الواقع يقول إن القوانين القبلية التي سبقت الإسلام والتي طُعّمت ببعض عناصر إسلامية عبر العصور لا تمثّل الشريعة الإسلامية. افتقدت طالبان كذلك إلى العلماء المسلمين والنظرية القانونية، وهكذا اعتمدت على العلماء الوهابيين في تبريراتها الدينية.

تزعم القاعدة أنها جماعة وهابية كما أنها تمزج ما بين الوهابية التقليدية والأفكار

السلفية والتكفيرية - وهي أفكار شائعة بين الجهاديين - وذلك بهدف تكوين نوع إرهابها الخاص بها. تدعي القاعدة وطالبان تبنّيهما تفسيرات متماثلة عن الإسلام، وهو تحالف كان، بطرقٍ متعددة، زواجاً عقائدياً طبيعياً. لكن الواقع يقول إن صيغ الممارسة لكلٍ من القاعدة وطالبان يختلف بعضها عن بعض. لا تمارس القاعدة درجة الاضطهاد نفسها التي تمارسها طالبان. يُذكر كذلك أن صيغتي الإسلام اللتين تتبناهما القاعدة تختلفان كثيراً عن الوهابية التقليدية كما تُمارس في المملكة العربية السعودية ودول الخليج. استغرق أمر قلب نظام الرئيس الدكتاتوري المدعوم من السوفيات ثلاث سنوات، وذلك بعد سحب الاتحاد السوفياتي قواته من أفغانستان في العام ١٩٨٩. سيطر قادة المجاهدين المنتصرين بعد ذلك على أجزاء مختلفة من البلاد، أما المحاربون العاديون فقد عادوا إلى بلدهم، بينما توجّه آخرون إلى المدارس لتعلّم الإسلام. لاحظ المقاتلون العائدون إلى البلاد في النهاية أن قادة المجاهدين كانوا بمثل الفساد الذي ترافق مع النظام الذي حلّوا مكانه، وأن الإسلام الحقيقي، كما فهموه من وجهة نظر مدارسهم الممولة من السعوديين، لا يُمارس بل يُفرض فرضاً. بدأ الملا عمر، وهو قائد مجموعة من المحاربين بالتفكير في السيطرة على البلاد بأكملها.

أطلقت هذه الجماعة على نفسها اسم طالبان وهو اسم مشتق من كلمة طالب أو تلميذ، وعلى الأخص دارس الإسلام. بدأت أحجام مجموعات طالبان بالتزايد بدعم من باكستان ومن حكومات المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة. بدأت هذه الجماعات كذلك في فرض صيغتها المغالية في التشدد من الإسلام. لم يكن من المصادفة كذلك أن يأتي قادة طالبان من أكثر قبائل البشتون جهلاً وأكثرها تخلفاً. لم تكُنْ في مدينة الملا عمر، على سبيل المثال، مدارس لتعليم الفتيات.

زادت سيطرة طالبان على أجزاء أكثر اتساعاً من البلاد، وهكذا بدأت في استضافة المجموعات الإسلامية المتطرفة من مختلف أنحاء العالم، كما دعتها

إلى استخدام أفغانستان قاعدة لها. كانت منظمة القاعدة إحدى تلك المجموعات. جاءت ردود الأفعال الدولية على سيطرة طالبان على أفغانستان متضاربة بالتأكيد. دعمت الولايات المتحدة طالبان في بداية الأمر ورأت فيها سداً بوجه التوسع الإيراني الشيعي في أفغانستان، حتى أن مسؤولين أميركيين رحّبوا كذلك بمعارضة طالبان لتجارة المخدرات. لم يكن واقع كون طالبان غير متسامحة دينياً بالمرة ـ وخاصة مع تدميرها (بالاشتراك مع القاعدة) تمثالين لبوذا منحوتين في القرن السادس في صخرة تقع وسط أفغانستان، وواقع اضطهاد هذه الجماعة للنساء – كافياً لتغيير سياسة الولايات المتحدة.

عندما سيطرت طالبان على قندهار في شهر نيسان/أبريل من العام ١٩٩٦ سارع الملا عمر إلى انتزاع عباءة النبي محمد، والتي نادراً ما تُعرض، من المسجد الذي كانت موجودة فيه، وعرضها على الجماهير المحتشدة كجزءٍ من مساعيه لإثبات أنه مكلّف من اللّه لقيادة أفغانستان. أطلق عليه أتباعه لقب أمير المؤمنين، وهكذا أصبح أمير البلاد.

سيطرت طالبان على كابول في ٢٦ أيلول/سبتمبر من العام ١٩٩٦، وكان أول عمل قامت به هو إلقاء القبض على محمد نجيب اللّه الذي أُزيح عن السلطة، وكان يعيش في معسكرٍ تابع للأمم المتحدة. قامت طالبان بتشويه الرئيس السابق، وجرّ جسده بسيارة جيب طافت به حول المدينة، وأطلقت النار عليه ثم شنقته مع شقيقه معلّقين على عمود. أسفر هذا الإجراء عن تدفق المجندين من المدارس الدينية، بما في ذلك تلك الموجودة في باكستان.

كان التحالف الشمالي أكبر تجمع معادٍ لطالبان، وهو الذي كان بقيادة زعيم المجاهدين النافذ أحمد شاه مسعود. لُقّب مسعود بأسد بانشير وهو اسم الوادي الذي ولد في أحضانه (تعني كلمة بانشير «وادي الأسود الخمسة»)، وهو مسلم ملتزم يتحدر من الطاجيك، وكان أحد أنجح القادة الذين حاربوا الروس وتمكن من إحراز عدد كبير من الانتصارات عليهم. حارب الرجل كذلك الشيوعيين في أفغانستان.

اعتبره السوفيات أستاذ حرب العصابات. لكن نقطة ضعف مسعود كانت في ضعف دبلوماسيته، وواقع أنه كان من الطاجيك في مجتمع قَبَلي وسط غالبية من البشتون، وهو الأمر الذي منعه من الوصول إلى السلطة قبل قيام طالبان بالسيطرة على البلاد، كما منع حلفاءه المحتملين من الانضمام إلى التحالف الشمالي. لكن كثيرين في الغرب اعتبروه أفضل أملٍ لهم في وقف زحف طالبان.

وقف مهنّد بن عطاش رافعاً يديه إلى السماء لتهدئة الشبان الذين كانوا يتحادثون في ما بينهم: «أصغوا إليّ أيها الأخوة، لديّ أمورٌ هامة أريد أن أقولها». سكت الجميع والتفتوا ليروه. كان ذلك في منتصف العام ١٩٩٦، وكانوا مجتمعين في دار ضيافة تموّلها القاعدة في شارع أكتوبر في صنعاء، وحيث كان الشبان في الحي يتجمعون تكراراً متعاطفين مع حركة الجهاد المتطرفة. ذكّر مهنّد مستمعيه بدايةً ببطولات الجيل السابق من المجاهدين الذين طردوا الروس من أفغانستان بعد أن أزعجوهم كثيراً، وأخبرهم بأن فرصتهم قد حانت أخيراً. قال لهم كذلك إنه يحمل لهم رسالة هامة من بن لادن.

بدأ الشبان في هذه اللحظة بالإصغاء باهتمام شديد. كان مهند خطيباً بليغاً، كما أن بن لادن كان معروفاً لدى الشبان الذين أُعجبوا بدوره في الجهاد الأول ضد السوفيات. لم يكن معظم المحاربين الشباب من القادمين الجدد إلى الجهاد، وذلك بعد أن قاتلوا في أفغانستان، والشيشان، والبوسنة. قال مهند إن العدو الآن هو الروس مجدداً. أرسلت روسيا محاربين، لكن إلى طاجكستان، وذلك بهدف السيطرة على تلك البلاد، والتمدد لاحقاً إلى أراضي المسلمين. سأل الشبان مهنداً عن طريقة مساعدتهم للشيخ بن لادن في صدّ الروس. أجاب مهند بأنه سوف يسافر في اليوم التالي إلى أفغانستان لرؤية بن لادن، وقال إنه سوف يبعث إليهم بالتعليمات.

عاد مهنّد إلى أفغانستان برفقة أحد أعضاء القاعدة، سعد المدني، وهو الذي أصبح في ما بعد الحارس الشخصي لبن لادن. ذهب الرجلان للقاء زعيم القاعدة في معسكر جلال أباد للتدريب. عرف مهند بن لادن معظم حياته. كان والداهما

صديقين منذ زمنٍ بعيد في اليمن، كما أن والد مهند أرسله للقتال إلى جانب بن لادن. لم يتأخر الوقت كثيراً قبل أن يصبح واحداً من أكثر المساعدين الذين يثق بهم.

أبلغ مهند بن لادن بأنه نجح في تجنيد المقاتلين الذين طلبهم زعيم القاعدة.

عندما عاد بن لادن من السودان إلى أفغانستان كانت منظمته الإرهابية في وضع سيئ. لم يقتصر الأمر على أن هذا الخروج من السودان الذي حدث كرهاً قد ألحقَ ضرراً في معنويات المقاتلين، لكن الأموال قد نقصت بشدة، كما أن الأهم من كل ذلك هو أن المجندين الجدد لم ينتظموا بعد في صفوفهم. يُضاف إلى ذلك أن مقتل أبي عبيدة في بحيرة فكتوريا قد ترك فراغاً كبيراً.

لم يكن هناك نقصٌ في الشبان المسلمين المستعدين للانضواء إلى لواء الجهاد. تأثر عدد كبير من هؤلاء الشبان بالجهاد ضد السوفيات في أفغانستان، وكذلك بالحجج الدينية التي قدّمها قادة من أمثال عزام لمقاتلة «الطغاة» في البوسنة والشيشان. ارتحل عدد كبير من الشبان إلى تلك الأماكن من خلال البنية التحتية ذاتها التي دعمت الجهاد في أفغانستان، أي قنوات التجنيد، والمنظمات غير الحكومية، وأولئك الذين يسهلون السفر، وهي كلها عناصر كانت ما زالت قائمة. تمثلت المشكلة الآن في أن الجهاد الذي تخوضه القاعدة هو جهاد غير تقليدي، وأن معظم المحاربين المسلمين لا يمتّون إليه بصلة. تركز تعريفهم لفرض الجهاد على التصحيح المادي للأخطاء وطرد المعتدين الذين كانوا يحتلون بلاد المسلمين أو الذين يضطهدون المسلمين. كانت الحرب الأفغانية الأولى مبررة بحسب هذا التعريف لأن الاتحاد السوفياتي قد غزا أراضي المسلمين. حارب الشبان كذلك في البوسنة والشيشان لأنه قيل لهم إن نساء المسلمين وأطفالهم يتعرضون للاغتصاب والقتل.

أما فكرة حرب الإرهاب السرية فلم تكن مألوفة لديهم. (كان المصريون هم الوحيدون الذين يعرفون شيئاً عن هذا النوع من الحروب وتبريراتها الدينية، وذلك

من خلال الظواهري وآخرين). لم يتفهم المقاتلون الشبان ذلك الهدف الواسع لمقاتلة الأميركيين. تساءلوا أيّ أراضي المسلمين كان الأميركيون يحتلونها؟ وما هي الجرائم التي كانت أميركا تنزلها بالمسلمين؟ كانت تلك هي الأسئلة التي طرحها الشبان على عناصر القاعدة الذين يتولون عملية التجنيد. كانت تجارب هؤلاء السابقة مع الأميركيين إيجابية، وذلك لأن الولايات المتحدة وقفت إلى جانب المسلمين في أفغانستان، والبوسنة، والشيشان.

أدرك بن لادن أنه إذا أراد النجاح في جذب هؤلاء الشبان فسوف يتعيّن عليه تكوين عدوٍ تقليدي لهم كي يحاربوه. أعلن المقاتلون الطاجيك الذين يحاربون الروس في ذلك الوقت أنهم يرحبون بالمقاتلين الجدد. إن تمهيد الطريق أمام المعارك التقليدية، وتوفير عدو، من شأنهما جذب المجاهدين القدامى والمخضرمين الذين قاتلوا في حروب البوسنة والشيشان إلى العودة إلى أفغانستان التي هي أرض الجهاد بحسب اللقب الذي أطلقه عليها بن لادن.

ناقش مهند كل هذه التفاصيل مع بن لادن، ثم بعث برسالة بالفاكس إلى دار الضيافة [مقر السكن] في صنعاء تحدث فيها عن الأسبوعين اللذين مرّا على عودته مع سعد المدني إلى أفغانستان، كما أمرَ الأمير في صنعاء بإبلاغ الذين سمعوا خطابه بأن جبهة الطاجيك «مفتوحة للجهاد». تحدث مهند كذلك عن التعليمات اللازمة لأولئك الراغبين في الانضمام إليه في الجبهة. كان أبو جندل من بين أولئك الشبان الذين لبوا النداء لحمل السلاح.

تجمع في وقتٍ لاحق أربعون مقاتلاً في العام ١٩٩٦ في طالقان، أفغانستان، وهي التي كانت بمثابة مخيّم الانطلاق للجهاد في طاجكستان. أتى معظم هؤلاء الشبان الأربعين من شبه الجزيرة العربية (اليمن والمملكة العربية السعودية) بينما أتى اثنان منهم من باكستان. أطلقت فرقة طاجكستان على نفسها اسم «كتيبة الشمال»، لكنها عُرفت باسم المجموعة الشمالية (يجب أن لا يختلط هذا الاسم مع التحالف الشمالي) وذلك بسبب موقع عملياتها، أي في شمال أفغانستان وقرب الحدود مع

طاجكستان. قدّم مهند المحاربين الجدد إلى قائد الجماعة، حمزة الغامدي، وكان واقفاً بشكل غير ملحوظ في وسطهم. وعندما تقدّم خيّم الصمت على الجماعة: كان حمزة أسطورة في أفغانستان منذ المعارك الأولى مع السوفيات. خاض الرجل معارك تاريخية ضد السوفيات، ومن بينها معركة جاجي، جلال أباد في العام ١٩٨٧. قيل وقتذاك إنه تمكّن هو وبن لادن مع خمسين من المقاتلين من صدّ مئتين من جنود سبيتسناز السوفيات. كان حمزة رجلاً متين العضلات وقوياً، كما أنه كان يحب المصارعة.

قام حمزة بتدريب المجندين الجدد بصرامة، كما أنهم كوّنوا احتراماً عميقاً لمهارته والتزامه. انتقلت المجموعة بعد وثوق مهنّد من جاهزيّة الرجال إلى باداخشان التي كانت بمثابة منطقة التحضيرات قبل دخول طاجكستان. مكثت المجموعة خارج مدينة فايز أباد. كان حمزة يعرف قائدها العسكري الأفغاني خيراد ماند، وذلك منذ الجهاد الأفغاني الأول. وافق ماند على حماية المجموعة الشمالية. تحركت المجموعة بعد مرور أسبوع من الزمن نحو طاجكستان. كان الثلج يهطل بغزارة عندما وصل الرجال إلى الحدود، وهو الأمر الذي جعل من الصعب عليهم التحرك إلى مسافةٍ أبعد، وهكذا نصبوا خيامهم هناك لقضاء الليل.

زارهم في صباح اليوم التالي عبد اللّه نوري، وهو قائد المجاهدين الطاجيك الذي ينتمي إلى حزب الوحدة الإسلامية وهو حزب طاجيكي إسلامي. خاطب عبد اللّه نوري المقاتلين بالقول: «شكراً لمجيئكم. إننا نتشرّف بمساعدتكم لنا. إنني أطلب منكم أن تبقوا هنا في الوقت الراهن، وذلك لأن رجال كشافتي من الطاجيك يجوبون المنطقة بحثاً عن الروس. إن رجالي يعرفون المنطقة أكثر منكم، وهم أقل عرضة منكم للاكتشاف والوقوع في الأسر».

وافق حمزة على هذه الخطة. عاد نوري بعد مرور ثماني ساعات ليعلن أن كشافته عثروا على الروس متمركزين عند الحدود، وأن دخولهم إلى طاجكستان سيكون خطراً جداً. كان يتعيّن على الرجال الانتظار حتى يتحرك الروس. سأل الرجال نوري

عن المدة التي سوف يستغرقها ذلك فاجاب: «لا نعرف، ربما يستغرق الأمر أياماً أو حتى أسابيع عدة». بقيت المجموعة الشمالية عندها في حالة من التشكك.

استدعى حمزة ذات مساء سليم حمدان، وهو مجنّد جديد يوحي بالثقة. أبلغ حمزة الشاب: «لا يمكننا المكوث هنا وقتاً أطول بكثير، وذلك لأن أفراد مجموعتنا يعانون مشاكل مع السكان المحليين من الأفغان. إنهم يطلبون المال، والأسلحة، والمؤن منا على الدوام. كنا نعطيهم أشياء كثيرة، وهم يداومون على طلب المزيد. إننا قلقون من أننا إذا لم نعطهم ما يريدونه فسوف يحاولون تسليمنا إلى الروس».

كان يُنظر إلى حمدان على أنه أهل للثقة وصادقٌ. قال له حمزة: «أريد أن تذهب إلى فايز أباد لتبلغ خيراد ماند بما يجري». لكن القائد العسكري الأفغاني الذي منح المجاهدين حمايته امتنع عن مرافقتهم.

نفذ حمدان ما طُلب منه وعاد بعد يومين. قال لحمزة: «يقول ماند: إنه ينبغي علينا مغادرة هذه المنطقة، وقال: إنه سيمنحنا الحماية إذا ما ذهبنا إلى فايز أباد». وافق حمزة على ضرورة مغادرة المكان. عادت الفرقة إلى طالقان وتوجهت بعد ذلك إلى قندوز، وهي مدينة تقع في شمال أفغانستان، ومكثت هناك في معسكر يعود للاجئين من الطاجيك، وهو واحد من عدة معسكرات أقيمت لمصلحة الذين هربوا من الحرب الأهلية. كان هدف الفرقة الوصول إلى جلال أباد أو كابول. كانت الطرق الرئيسة مقطوعة مع ذلك لأن طالبان والتحالف الشمالي كانا منهمكين في قتالٍ شديد.

اتصل حمزة بأحد قادة التحالف الشمالي وكان يعرفه منذ فترة الجهاد ضد السوفيات. ساعد القائد المحاربين الجدد على المغادرة، وهكذا وصلت المجموعة أخيراً إلى كابول. بقي حمزة، وحمدان، وناشط آخر يُعرف باسم قتيبة عند الحدود بهدف تأمين الحماية للمجموعة. صعد الثلاثة بعد ذلك إلى متن طائرة حوامة تابعة للتحالف الشمالي في طالقان، وطاروا بها إلى وادي بانشير.

مرّت فترة من الاستياء على محاربي المجموعة الشمالية وبدأوا بطرح الأسئلة على مهند حول هدف وجودهم في أفغانستان. امتلك أفراد المجموعة عدة نقاط قلقٍ مشروعة: قالوا إنّهم جاؤوا للقتال لكنهم يفرّون بدلاً من ذلك، وإنّهم جاؤوا لمقاتلة الطاجيك لكن يبدو أن النزاع قد انتهى، وأنّهم لا يرغبون في التورّط في حربٍ أهلية أفغانية.

أبلغ مهند الشبان: «إنني أفهم الإحباط الذي تشعرون به أيها الأخوة. لكن قبل أن تعودوا إلى بلادكم أريد أن تلتقوا الشيخ أسامة. طلب الشيخ مقابلة «الأخوة في المجموعة الشمالية» تحديدا. قطعتم شوطاً طويلاً لذلك أريدكم على الأقل أن تسمعوا ما سيقوله لكم هذا الجهادي العظيم».

استضافهم زعيم القاعدة في معسكر جهاد وال للتدريب، وهناك رحّب بهم مع كبار مساعديه، أبي حفص المصري، وسيف العدل، وصالح (الذي بدأ يستخدم في هذه الأثناء لقب أبي محمد المصري)، كما شرحوا لهم أهداف القاعدة. تحدث بن لادن عما يجري في المملكة العربية السعودية: «نهب الأميركيين للنفط، وخططهم الاستعمارية لاحتلال شبه الجزيرة العربية والأراضي المقدسة».

غادر ثلاثة وعشرون مقاتلاً من أصل أربعين المعسكر بهدف العودة إلى ديارهم. قال لي أبو جندل بعد سنوات، وكان واحداً من الذين بقوا: «إن الأخوة في المجموعة الشمالية هم محاربون يقاتلون العدو وجهاً لوجه. إنهم لا يفهمون قضية حرب بن لادن والجهاد الجديد، ولذلك فضلوا العودة إلى ديارهم».

استمع الأعضاء الباقون لمدة ثلاثة أيام إلى بن لادن وهو يعرض عليهم مقاطع من شرائط أخبار، ومن أفلام بي. بي. سي الوثائقية والهادفة إلى إقناعهم بأن وجود الجنود الأميركيين في المملكة العربية السعودية وشبه الجزيرة العربية كان احتلالاً». أبلغهم بن لادن: «لذلك يقع عليكم واجب طرد الكفرة من شبه الجزيرة، أي كما أمر النبي» (ﷺ). قال لهم إنّهم إذا كانوا يمتلكون أي أسئلة إضافية يجب عليهم

توجيهها إلى مهند. تمثلت المشكلة في أن حالة من الانزعاج بدأت في التسلل إلى أفراد المجموعة، كما أن بعض أفراد المجموعة بدأوا بالشك في مهند، وهم أدركوا أخيراً أن مهند كان أقرب إلى بن لادن مما كانوا يظنون في البداية. أبلغ مهند أولئك الذين استشاروه بأن جهاد بن لادن هو أمرٌ عادل، وأنه يجب عليهم ـ أي العرب الذين أتوا من منطقة الخليج ـ التأكد من أن المصريين الذين يحيطون ببن لادن لا يديرون القاعدة.

كان الجهاد يعني أموراً مختلفة لمختلف المقاتلين. كان المصريون يمارسون في بلادهم ما اعتبروه الجهاد: عمليات الاغتيال، وتفجير القنابل في محاولة منهم لقلب حكومتهم. أما آخرون، أي من الذين حاربوا في البوسنة، والصومال، والشيشان، فاعتبروا أن الصيغة المصرية من «الجهاد» هي نوع من الإرهاب، وذلك لأن الجهاد يعني بالنسبة إليهم القتال وجهاً لوجه.

وافق المحاربون الباقون في النهاية على تقديم البيعة، أو الولاء، لبن لادن. قدّم عدد قليل منهم بيعةً مشروطة، أي إنّهم وافقوا على الانضمام إلى القاعدة ومحاربة أميركا بشرط توافر مجهودٍ للجهاد مع تبريرات أوضح في جبهة أخرى، وعندئذ سيكونون أحراراً في الانضمام إلى القاعدة.

وبالإضافة إلى أبي جندل كان من بين أعضاء المجموعة الشمالية الذين انضموا إلى القاعدة في ذلك الوقت، وليد بن عطّاش (وهو الشقيق الأصغر لمهند) والذي كان خالد اسمه الحركي، وعبد الرحيم حسين محمد النشيري، وسليم حمدان، ومحمد راشد داوود العوهلي، وجعفر الحداء. لم يقدم بن لادن على اختيار أبي جندل فقط ليكون ناشطاً مستقبلياً أساسياً، بل اختار كذلك باقي أفراد هذه المجموعة الذين ترافقت أسماؤهم مع الهجمات التالية التي شنّتها القاعدة على السفارات الأميركية في أفريقيا، وتفجير يو. أس. أس. كول، والحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

اتصل مدني الطيب في منتصف العام ١٩٩٦، وقبل أسابيع قليلة من مغادرة بن لادن متجهاً إلى أفغانستان بجمال الفضل في مكتبه في الخرطوم. استمر الفضل، ومنذ مهمته في شراء اليورانيوم، بتسلّم مهمات لمصلحة القاعدة. مشى نحو مكتب الطيب ترافقه ابتسامته العريضة المعتادة. «السلام عليكم. كيف حالك يا أخي؟»

أجاب الطيب من دون أن يبتسم: «وعليكم السلام».

سأل الفضل: «ما المشكلة؟»

«أردت التحدث معك حول قضية خطيرة. أخبرني أحدهم بأنك تأخذ عمولة على السلع التي تبيعها». كانت إحدى مهمات الفضل في ذلك الوقت هي بيع السلع التي تنتجها القاعدة إلى الشركات المحلية».

«هذا غير صحيح».

«أخبرنا أحد الموثوق بهم كثيراً بأنك تفعل ذلك».

أجاب الفضل: «أنا لا أفعل ذلك. دعهم يبرزوا دليلاً. إنها كذبة!»

أُخذ الفضل إلى اجتماع مع مسؤولين آخرين من القاعدة. واجهه الطيّب مجدداً، ومجدداً أنكر الفضل.

«إسمع يا جمال، هناك شخص يدعى فضيل وأنت تتعامل معه. إنك تعرفه، أليس كذلك؟» أومأ الفضل موافقاً. «وهو أخبر شخصاً بأنك تتقاضى عمولة، وذلك الشخص قام بإخبارنا».

تراجع الفضل بعد مواجهته بأدلة أخرى، ثم قال وهو يهز رأسه: «حسناً. أنا آسف، لقد أخذت عمولة». كان الفضل يتقاضى عمولة من شركة محلية لقاء بيعها سلعاً من إنتاج القاعدة، وهو الأمر الذي ضمن له نحو ١١٠,٠٠٠$.

«أريد أن أقول إنّنا لا نصدّق بأنك فعلتَ ذلك. كنتَ من أوائل الذين انضموا للقاعدة. كيف أمكنك أن تسرق منا؟»

علا الاحمرار وجه الفضل، وحدّق بالأرض كي يتجنب نظرة الإدانة التي ظهرت في عيني الطيّب. قال الفضل: «سامحوني أرجوكم. سأبذل جهدي لإعادة المال».

«ماذا سنقول لِبِنْ لادن؟ إنه يعرف بأنك أقسمتَ على مبايعته. إننا نعرف بأنك رجل طيب في قرارة نفسك، وأنك قاتلت بشدة في أفغانستان. لماذا تحتاج إلى المال».

أجاب الفضل: «الواقع هو أننا نتعب كثيراً، لكن المصريين يجنون أموالاً أكثر مما نجنيه نحن». كان ردّه هذا انعكاساً للتوتر المستمر القائم في القاعدة مع المصريين الذين يهيمنون على المراكز القيادية، وهكذا يتسلمون مرتبات أكبر من بقية النشطاء، ومن أفراد القاعدة في أماكن أخرى. أتى عدد من المصريين مع خبرة أكثر، وهذا هو سبب وجودهم في المراكز العليا في المجموعة. ساد جوٌّ من الاستياء نتيجة لهذه الحالة من عدم المساواة.

«لا نعتبر ذلك عذراً للسرقة».

أرجع الفضل نحو ربع قيمة المبالغ التي هي بذمته إلى الطيّب. أما الباقي فأنفقه مقدماً، واشترى أرضاً لشقيقته ولنفسه. اشترى كذلك سيارة. أما عندما اعترف للطيب بأنه لا يستطيع إيفاء باقي المبلغ أبلغه الطيّب بأنه سوف يتحدث مع بن لادن.

تلقى قائد القاعدة ملخصاً عن القضية. قال له بن لادن: «لا أكترث بالمال. إنني أهتم بشأنك. كنتَ معنا في أفغانستان منذ البداية. أعطيناك مرتباً، وأعطيناك كل شيء. كنا نعطيك أموالاً إضافية عندما تسافر إلى الخارج، كما دفعنا فواتيرك الطبية. ما هو دافعك للسرقة إذاً؟»

«فعلت ذلك لأسباب تحدثنا عنها في ما مضى يا أبا عبد اللّه، لأن المصريين يحصلون على أموالٍ أكثر منا نحن، كما أنهم انضموا إلى القاعدة بعدنا. هذا ليس بعدل».

ردّ بن لادن: «ليس ذلك سبباً يدفعك إلى السرقة. إذا احتجت إلى المال يمكنك

اللجوء إلينا على الدوام. يمكنك أن تقول: «إنني بحاجة إلى منزل»، أو «أريد شراء سيارة»، وعندها سوف نعطيك المال. لكنك لم تفعل ذلك، بل سرقت المال».

«أنا آسف، ثم إنني أرجعت ما تبقى منه، لكني لم يتبقَ معي أي مبلغ إضافي. إنني أطلب منك أن تسامحني، وأرجو أن تمنحني عفوك، وأن تقبل اعتذاري. بذلت جهدي في الماضي، ولهذا أتمنى أن أبقى عضواً في القاعدة».

ردّ بن لادن: «لا مسامحة قبل أن تعيد المبلغ بأكمله». وصل الرجلان إلى مأزق: تابع الفضل إصراره على أن سلّم المرتبات كان منحازاً، كما أن بن لادن جادل بأنه إذا سامح الفضل فإن الأعضاء الآخرين في القاعدة سيعتقدون أنه من الصواب أن يسرقوا طالما يطلبون المسامحة بعد ذلك.

وجد الفضل نفسه أمام مأزق خطر، فما كان منه إلا أن سار إلى السفارة الأميركية في إحدى بلدان القرن الأفريقي. انتظر في الصف للحصول على طلب تأشيرة دخول. رحبت به إحدى الموظفات. قال لها: «لا أريد الحصول على تأشيرة دخول، لكنني أمتلك بعض المعلومات عن أشخاص هنا يريدون أن يفعلوا شيئاً ضد حكومتكم».

ترددت المرأة قليلاً، وحارت في ما تفعل. جرت مناقشة قصيرة بعد ذلك، لكن المرأة شرحت للفضل بأنه يتعيّن عليها رفع المسألة إلى أحد زملائها. غابت برهة في قسم آخر من السفارة. عادت بعد مرور عشرين دقيقة وطلبت من الفضل الدخول إلى مكتب داخلي لمتابعة المحادثة.

بدأ الفضل بالحديث: «كنت في أفغانستان، وعملت مع مجموعة تحاول شن الحرب ضد بلدكم. إنهم يبذلون أقصى جهودهم لفعل هذا. يُحتمل أنهم يخططون للقيام بحرب داخل الولايات المتحدة أو ضد الجيش الأميركي الذي يوجد خارج البلاد. إنهم يخططون كذلك لتفجير سفارة».

سألت الموظفة الفضل عن كيفية حصوله على تلك المعلومات. قال الفضل: «عملت معهم منذ ما يزيد عن تسع سنوات، لكني تركتهم الآن. إذا ساعدتِني فإنني

سوف أقول لك كل شيء تحتاجينه». سألت الموظفة عن مكان سكنه، فشرح لها أنه يعيش في فندق، ثم أعطاها العنوان».

قالت له الموظفة بلهجة الأمر: «لا تغادر الفندق، لكن ابتعد عن الأنظار». غادرت الغرفة كي تجلب بعض النقود. قالت له: «هاك بعض المال كي تنفق على نفسك».

عاد الفضل إلى السفارة بعد أيام قليلة واجتمع مع الموظفة ذاتها. طرحت عليه الموظفة بعض الأسئلة، لكن الفضل أحسّ بأنها تريد التأكد من أنه مصدر موثوق به. أجاب الفضل عن كل أسئلتها، فطلبت منه العودة في وقت لاحق من ذلك الأسبوع. فعل الفضل ذلك واجتمع مع مسؤولين آخرين. اجتمع الفضل في النهاية مع دان كولمان، ومحاميَين أميركيين من مقاطعة نيويورك الجنوبية، وهما باتريك فيتزجيرالد وكينيث كاراس. لم يخبرهما الفضل في البداية عن سبب تركه للقاعدة، لكنه أعطاهما ما يكفي من المعلومات لدفعهما إلى الاعتقاد بأنه بالإمكان تصديق كلامه. عاد الفضل إلى السفارة مراراً لإجراء مزيد من الاستجوابات. أبلغه محدثاه بأنهما يعرفان أنه ارتكب بعض المخالفات في السودان، وأنه إذا لم يستطع إخبارهما عن طبيعتها فلا يمكنهما الوثوق به. افترض الفضل أنهما علما بطريقةٍ ما بشأن العمولات التي تقاضاها لنفسه نتيجة التعامل مع الشركات المحلية، وهكذا اعترف بكل وداعة وقال كل ما عنده. أبلغ مستجوبيه، وبكل التفاصيل الممكنة، بمنظمة تسمّى القاعدة، وهيكليتها، وقادتها، وأعضائها، وعملياتها.

عادت مع رجوع بن لادن إلى أفغانستان «السلسلة الذهبية» المالية المتدفقة من المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، ومن أمكنة أخرى، وهي السلسلة التي موّلت ذات مرة المجاهدين، وبدأت في هذا الوقت في تمويل طالبان بالطريقة ذاتها. تدفق التمويل إلى القاعدة عن طريق أقنية طالبان، لكن بن لادن أعاد تنشيط روابطه الخاصة مع الشبكة. كان بن لادن، ومنذ العام ١٩٩٦، قادراً بهذه الطريقة على زيادة قواعده الأفغانية، كما اشترى معدات بناءٍ لمساعدته على بناء

الكهوف والمنشآت. تابع بن لادن كذلك تعزيز عملياته في كلّ أنحاء العالم. مكّنته الأموال التي تدفقت من سعوديين متعاطفين معه على وجه الخصوص من اختراق أكبرَ لبلدانٍ مثل ألبانيا واليمن، وكذلك لندن.

أما قسم الولاء الذي قدّمه بن لادن أمام الملا عمر، والذي أصبح معروفاً بحلول العام ١٩٩٧، فقد أعطى القاعدة حرية الحركة، وسمح لها باستخدام شركة الطيران الوطنية الأفغانية لنقل الأموال، والأسلحة، والعملاء، وأراحها من القلق بشأن عبور الحدود. قدّم بن لادن بدوره المال إلى طالبان، وكان من بين الهدايا التي أغدقها على الملا عمر منزل له ولعائلته.

وعد بن لادن طالبان بأنه سوف يبقى بعيداً عن الأنظار، لكنه ما لبث أن اجتذب الانتباه إليه، وعلى الأخص بعد مقابلته في شهر آذار/مارس من العام ١٩٩٧ مع بيتر آرنيت على شاشة س. أن. أن. طلب الملا عمر بعد وقت قصير من بن لادن الانتقال إلى قندهار، أي حيث يتخذ هو مقراً لقيادته، وذلك كي يكون تحت أنظاره.

أصدرت القاعدة في ٢٣ شباط/فبراير من العام ١٩٩٨، فتواها الثانية معلنةً الحرب على الولايات المتحدة:

«فمنذ أن دحى اللّٰه جزيرة العرب وخلق فيها صحراءها وحفّها ببحارها لم تدهمها غاشية كهذه الجحافل الصليبية التي انتشرت فيها كالجراد تزحم أرضها وتأكل ثرواتها وتبيد خضراءها... منذ ما يربو عن سبع سنين وأميركا تحتل أراضي الإسلام في أقدس بقاعها، جزيرة العرب، وتنهب خيراتها وتملي على حكامها وتذل أهلها وترعب جيرانها وتجعل من قواعدها في الجويرة رأس حربة تقاتل بها شعوب الإسلام المجاورة... إن حكم قتل الأميركان وحلفائهم، مدنيين وعسكريين، فرض عين على كل مسلم أمكنه ذلك في كل بلد تيسر فيه. وذلك حتى يتحرر المسجد الأقصى والمسجد الحرام من قبضتهم، وحتى نخرج جيوشهم عن كل أرض الإسلام مثلولة الحد كسيرة الجناح عاجزة عن تهديد أي مسلم امتثالاً بقوله تعالى: (وقاتلوا

لمشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وقوله تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله)...».

قال لي جمال الفضل ذات يوم أمضينا صباحه في التحدث عن بن لادن في منزل آمن تابع لمكتب التحقيقات الاتحادي: «كفانا حديثاً عن بن لادن. تعال نلعب كرة القدم». بدا كطفلٍ صغير لا تفارق الابتسامة شفتيه. نُقل فضل بعد وقتٍ قصير من موافقته على التعاون معنا إلى الولايات المتحدة، ووضع تحت إشراف برنامج حماية الشهود. عرفته أوساط الاستخبارات الأميركية بلقب «جونيور [الصغير]» وكان مصدر معلومات ثمينة لنا.

لم تكن لدينا قبل وصوله معرفة كبيرة بطبيعة القاعدة بالضبط وكيفية عملها. بقي مركز مكافحة الإرهاب يصف بن لادن بأنه «ممول متطرف». لكن المعلومات التي استقيناها من فضل هي التي مكّنت الولايات المتحدة من تجريمه بصورة موثوقة في العام ١٩٩٨. شرح لنا الفضل هيكلية المنظمة، وشركاتها التي تأسست لتغطية أعمالها، وشرح لنا الشبكة بأكملها منذ تأسيسها وحتى العام ١٩٩٦، أي ذلك اليوم الذي غادر فيه المنظمة وتوجه إلى سفارة الولايات المتحدة في القرن الأفريقي.

فوجئت عندما لم ألحظ على جونيور بأنه رجلٌ متديّن. ركزت أحاديثنا غير الرسمية على المال، والنساء، وكرة القدم. وُلد الفضل في العام ١٩٦٣ في روفا، السودان، وسبق له أن عاش في الولايات المتحدة. عمل الفضل في مسجد الفاروق، وساعد مصطفى الشلبي على جمع تبرعات لأفغانستان، كما شجّعه مصطفى على السفر إلى أفغانستان للقتال، واتخذ له لقب أبي بكر السوداني، ثم انضم إلى القاعدة، وزعم أنه أصبح العضو الثالث في المنظمة.

التقيت جونيور مرات قليلة فقط، وذلك لأن زملائي في الـFBI، مثل مايك أنتيشيف (شقيق جون أنتيشيف) ومايك دريسكول هم الذين حققوا معه. وجد

زملائي صعوبة في التعامل معه، وذلك لأنه يميل إلى الحياة السهلة، وهو الأمر الذي جعل من الصعب إبقاءه تحت السيطرة في بعض الأحيان. حاول في إحدى المراحل تدريب فريق كرة قدم مؤلف من الفتيات، وفي وقتٍ آخر، وبينما كان مطلوباً منه إخفاء هويته، وعندما أوقفه أحد رجال شرطة السير على إحدى الطرقات السريعة بسبب السرعة، أخبره بأنه يعرف أسامة بن لادن. اضطر دان كولمان كذلك إلى لعب دور الوالد من أجل إبقاء جونيور في الطريق القويم.

كانت كل هذه المصاعب في محلّها، لأن المعلومات التي أعطاها جونيور إلى مكتب التحقيقات الاتحادي تضمنت تفاصيل عن تأسيس المنظمة، وجداول مرتباتها، وشبكتها المصرفية. تضمنت تلك المعلومات كذلك تحذيرات في حال السفر، واشتملت على عدم ارتداء الزي الإسلامي (ارتداء الملابس الغربية وحلاقة الذقن)، وضرورة حمل العطورات والسجائر. كان جونيور كذلك هو الذي أوجز لنا قصة مساعي القاعدة لشراء اليورانيوم المزيف.

ظهر جونيور كشاهد في محكمة اتحادية في مانهاتن أثناء محاكمة بعض أعضاء من القاعدة بمن فيهم وديع الحاج الذي اتّهم بالتورط في تفجير السفارات الأميركية في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨، وذلك قبل ثمانية أشهر من ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. شرح جونيور للقاضي والمحلّفين ما أخبره سابقاً لدان كولمان والمدعين العامين قبل سنوات – أي كيفية عمل القاعدة، وما الذي فعله لأجلها، وما هي الشركات الواجهة التي تختبئ وراءها، وأفرادها الذين يعرفهم.

تجمعت الأدلة التي تدين بن لادن لدى الحكومة الأميركية قبل نحو ثلاث سنوات، واستندت بمعظمها على المعلومات التي قدّمها جونيور: وُجّهت إلى بن لادن في ١٠ حزيران/يونيو من العام ١٩٩٨ تهمة كونه زعيماً لمنظمة إرهابية، والتخطيط لأنشطة إرهابية والمشاركة فيها. وفي ٤ تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٩٨ فُتحت لائحة الاتهام من جديد وجرى تحديثها بأن أُضيفت إليها تفجيرات السفارة في شرق أفريقيا.

تحوّل بن لادن إلى مصدر قلق بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية في وقت كانت تلاحقه فيه الولايات المتحدة. استمر بن لادن في انتقاد الحكومة السعودية علناً، كما أنه ساند الأعمال الإرهابية ضد المملكة. وفي ربيع العام ١٩٩٨ طلب الأمير تركي وبالنيابة عن المملكة العربية السعودية من طالبان طرد بن لادن. قال الأمير تركي إن الملا عمر وافق على الطلب. لم يفِ الملا عمر بالوعد الذي قطعه.

الجزء الثاني

إعلان الحرب

الفصل الرابع

سنترال القاعدة

كانت خلية القاعدة في نيروبي، وهي المكلّفة، بالتخطيط لهجمات ضد الأهداف الأميركية في أفريقيا، جاهزة للعمل في أوائل العام ١٩٩٤. كانت هذه الخلية بقيادة الملازم أول خالد الفواز الذي يثق به بن لادن كثيراً. تمكنت هذه الخلية من تأسيس شركات واجهة لتكون غطاءً لوجودها في المدينة. عملت هذه الشركات على جلب الموظفين، والمعدات، والأموال إلى أفريقيا. كانت مؤسسة وديع الحاج الخيرية المسماة ساعِدوا الشعب الأفريقي من بين تلك المؤسسات.

كان علي محمد، العميل المزدوج، وأحد رجال أيمن الظواهري، وأحد رجال الجهاد الإسلامي المصرية، هو المسؤول عن تحديد الأهداف، وكان الأنشط من بين العملاء وأكثرهم نجاحاً. أتقن علي محمد لغاتٍ عدة، وكان ذا شخصية جذابة ويتمتع بلياقة بدنية عالية، كما أنه أمضى سبعة عشر عاماً في الجيش المصري، كما أن ضباطاً من وحدته قاموا بقتل الرئيس السادات. كان جميع الضباط، ومثل محمد تماماً، من أعضاء منظمة الجهاد الإسلامي المصرية. كان علي محمد في الولايات المتحدة يتابع دورة تدريبية عندما حدث ذلك الاغتيال.

عمل علي محمد بعد تركه الجيش المصري بصفته مستشاراً أمنياً لشركة مصر

للطيران ولوكالة الاستخبارات المركزية. انتقل علي محمد للعيش في الولايات المتحدة، وتزوج امرأة أميركية تدعى ليندا سانشيز (والتي التقاها أثناء رحلته الأولى)، وحصل بعدها على الجنسية الأميركية. انضم في العام ١٩٨٦ إلى الجيش الأميركي وأرسل إلى فورت براغ حيث ألقى محاضرات عن الثقافة والسياسة الإسلاميتين.

أخذ علي محمد إجازة من الجيش من أجل تدريب «الأخوة في أفغانستان»، وهو العذر الذي منحه الجيش الموافقة لأجله، وهكذا تمكن من أخذ إجازاتٍ منتظمة لمساعدة الجهاد الإسلامي والقاعدة. تراوحت هذه المهام ما بين تدريب حراس بن لادن الشخصيين، والمساعدة على وضع خطط العمليات. برهنت كتب الإرشادات والخرائط التي أخذها علي محمد من الجيش في البداية وصوّرها على أنها ذات فائدة كبيرة في تدريب القاعدة وأعضاء منظمة الجهاد الإسلامي بحيث إن محمد عمد في النهاية إلى تعديل تلك المواد ووضعها في كتّيبٍ خاص به. عُرف الرجل في أوساط القاعدة بلقب أبي محمد الأميركي، وكان ذلك بمثابة إشادة بنجاحه في تضليل وكالة الاستخبارات الأميركية والجيش الأميركي.

حاول محمد في العام ١٩٩٣ الانضمام إلى مكتب التحقيقات الاتحادي بصفته مترجماً، لكنه اعترف أمام العميل الذي أجرى مقابلة معه في سان خوسيه بأن لديه علاقات مع جماعة إرهابية في السودان. لم يفهم العميل كثيراً في حينها دلالة اسم القاعدة، لكنه أحال المسألة إلى وزارة الدفاع. مرّت سنوات عدة طلب مكتب التحقيقات بعدها نسخة عن الحديث الذي أجرته وزارة الدفاع مع محمد بعد ذلك، لكن وزارة الدفاع قالت إنها فُقدت.

كان أنَس الليبي من بين العملاء الذين عملوا مع محمد في نيروبي في العام ١٩٩٤. وُلد أنَس في طرابلس وكان يتميز بندبة في الجهة اليسرى من وجهه، وانضمّ إلى القاعدة في أفغانستان بعد أن قدّم عروضاً مميزة في مختلف معسكرات التدريب. تمكّن أنس من البروز كواحد من أبرز العملاء في تلك المجموعة الإرهابية، وذلك إلى جانب مهاراته في عالم الكمبيوتر، كما درّب أعضاءً آخرين. كان الحسين خرشتو

مع محمد والليبي في نيروبي، وإن كان معهما لهدفٍ مختلف. كان الحسين أحد أوائل المغاربة الذين انضموا للقاعدة، وكان يتدرب في مدرسة طيران في نيروبي ليصبح الطيّار الشخصي لدى بن لادن.

عرف الرجال الثلاثة بعضهم بعضاً بصورةٍ وثيقة، وذلك لأن خرشتو كان من بين مجموعة منتخبة من المتدربين الجدد في القاعدة والتي علّمها محمد أعمال المراقبة في أفغانستان قبل سنواتٍ قليلة. أما الليبي فقد درّب المجموعة بدوره على استخدام الحواسيب في العمليات العسكرية.

تظاهر محمد وفريقه بأنهم سياح، وهكذا قاموا في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٣ بالتجسّس على مواقع عدة في نيروبي بما فيها السفارة الأميركية، ووكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية USAID. راقب الرجال كذلك أهدافاً بريطانية، وفرنسية، وإسرائيلية محتملة. دفع خالد الفواز نفقات أفراد الفريق وأثمان المعدات أثناء أخذهم للصور، ومراقبتهم لحركة السير وحشود الناس، كما تعرفوا على مواقع كاميرات المراقبة والحراس الأمنيين. كانت شقة خرشتو في نيروبي تُستخدم في أحيان كثيرة كغرفة تظهير مؤقتة. كتب أعضاء الفريق تقريراً عندما أنهوا مهمة المراقبة التي أُنيطت بهم. تضمن التقرير توصيات عن الأهداف التي يُمكن ضربها. خلَص الفريق إلى رأي يقول إن أفضل خيار هو مهاجمة السفارة الأميركية في نيروبي.

سافر أعضاء الفريق إلى مقر القاعدة في الخرطوم، وأعطوا بن لادن ملخصاً عن نتائج مهمتهم. وافق بن لادن على تقييمهم. تفحّص بن لادن الخريطة التي رسموها للسفارة الأميركية، وما لبث أن أشار لهم إلى موقع في محيط مبنى السفارة وأبلغ جميع الحاضرين: «يمكنكم أن تركنوا شاحنةً هنا لتَنفيذ عملية انتحارية».

تضمن التنظيم الذي تتبعه القاعدة أن تكون خلايا مختلفة مسؤولة عن أقسام العمليات المختلفة. جرت العادة كذلك أن تقوم إحدى الخلايا بإقامة شركة تغطية في البلد المستهدف، بينما تقوم خلية أخرى بمراقبة الأهداف، ثم تعمد خلية ثالثة

إلى تنفيذ الهجوم، بينما تقوم خلية رابعة بتنظيف المكان بعد ذلك. يساعد هذا التقسيم على التأكد من أنه إذا تعرضت إحدى الخلايا للخطر فإن العملاء الآخرين يظلون بأمان.

انتهت مهمة علي محمد وخليّته بعد نجاحهم في القسم من العملية الملقى على عاتقهم، بينما سافرت الخلية التي ستنفذ العمليات إلى نيروبي. سافرت خلية أخرى في هذا الوقت إلى دار السلام حيث تم التخطيط لعملية مشابهة ضد السفارة الأميركية هناك. قرّرت القاعدة شنّ عمليات متزامنة بهدف كسب أكبر قدرٍ ممكن من الاهتمام. كانت حسابات بن لادن تقضي بأنه يُمكن التقليل من أهمية هجومٍ واحد، لكن قدرة منظمة إرهابية على تنفيذ هجمات متزامنة لا تُظهر قدرة الجماعة فقط بل الضعف الأميركي أيضاً، وهما أمران يساعدان على تجنيد نشطاء القاعدة في المستقبل، ويساعدان كذلك على تحقيق هدف المنظمة في إنزال الأذى بالولايات المتحدة.

كان المسؤول عن هذه العملية المزدوجة ناشطاً مصرياً يُعرف باسم أبي محمد المصري، وكذلك باسم صالح، وذلك بالرغم من أنه كان يستخدم جوازَ سفر يمنيّاً مزوّراً باسم عبد اللّه أحمد عبد اللّه. أما خبير المتفجرات فكان عميلاً مصرياً آخر يدعى أبا عبد الرحمن المهاجر (محسن موسى متولي عطوة)، وهو الذي سوف يصبح في ما بعد صانع القنابل الرئيس لدى القاعدة.

قام بن لادن شخصياً بانتقاء منفذي الهجوم وهم: سعوديان، هما محمد العوهلي وجهاد علي لتنفيذ عملية نيروبي؛ ومصري يُدعى حمدان خلف علال، المعروف باسم «أحمد الألماني» وذلك نظراً لشعره الأشقر، لتنفيذ عملية دار السلام. كان العوهلي يُعرف في أوساط القاعدة باسم معاث البلوشي أما الاسم الحقيقي لجهاد علي [عند ولادته] فكان جهاد محمد علي الحرازي، كما أن لقبه في منظمة القاعدة كان أبا عبيدة المكّي. لكنه أثناء عملية نيروبي استخدم اسماً مفرداً هو عزّام. أُعلم الرجال الثلاثة بمهمتهم، وهي المهمة التي قبلوها بتلهف شديد، وهكذا صوّروا شرائط الفيديو لتكون آخر صورٍ لهم قبل استشهادهم.

قررت القيادة أن تنفّذ الهجمات يوم الجمعة الواقع فيه ٧ آب/أغسطس من العام ١٩٩٨، عند الساعة ١٠:٣٠ صباحاً، وهو ذلك الوقت من اليوم الذي يُفترض أن يكون المسلمون فيه في المساجد لتأدية الصلاة. جادل علماء الدّين في القاعدة بأن أي شخصٍ يُقتل خلال هذه التفجيرات لا يُمكن أن يكون مسلماً حقيقياً، وذلك لأنه لم يكن يصلي، وهكذا فإن موته سوف يكون نتيجة مقبولة للهجوم.

تقدّم سيف العدل، والذي أصبح في ذلك الوقت المسؤول الأمني في القاعدة، من سليم حمدان الذي اتخذ لقب صقر الجدوي، وترقى إلى مركز السائق الشخصي لبن لادن، وذلك في أفغانستان وقبل أيام قليلة فقط من التفجيرات. قال سيف العدل وهو يشير إلى إحدى السيارات: «أريد يا صقر أن أُصلح تلك السيارة التابعة لسيارات المرافقة للشيخ».

ردّ حمدان: «إنني متأكد من سلامتها».

«أريد التأكد من سلامة محركها. يُحتمل أننا سنضطر إلى الرحيل قريباً.

كانت نوافذ سيارات المرافقة لبن لادن مظلّلة، كما أن الحراس الشخصيين الذين يرافقونه كانوا يحملون رشاشات كلاشينكوف، وكذلك قواذف صاروخية الدفع من نوع آر. بي. جي أما حمدان ذاته فكان يحمل مسدساً روسي الصنع من نوع ماكاروف، وذلك بالرغم من أن دوره الرئيس في حال التعرض للهجوم كان قيادة سيارة بن لادن إلى مكانٍ آمن. اعتاد الفريق تبديل السيارات بصورة منتظمة، وكان هذا الإجراء من مسؤولية حمدان، وذلك بهدف أن لا يكون التعرّف إلى الموكب أمراً سهلاً. فضّل الفريق كذلك عدم استخدام سيارات لاند كروزر التي تحمل أسلحة على متنها، أي مثل ما يفعل قادة طالبان، وذلك لأنها تستدعي قدراً كبيراً من الاهتمام.

اعتاد بن لادن على الجلوس في المقعد الخلفي والاستماع إلى تسجيلات من القرآن، والمحاضرات الدينية حول مواضيع إسلامية أخرى. كان يسترخي ويكتفي بإغماض عينيه. لم يكن يقطع عليه أَحَدٌ فترة استرخائه هذه إلا إذا كان الظواهري،

وأبو حفص، وسيف العدل، أو أي قائدٍ كبيرٍ آخر من القاعدة، راكباً معه في السيارة، وحينها كان البحث يدور حول مجموعة واسعة من المواضيع التي تحتاج إلى مناقشة، وحتى حول العمليات.

دعا أبو حفص في الليلة التي سبقت التفجيرات إلى عقد اجتماع في معسكر بن لادن في قندهار. قرأ أبو حفص أسماء الأشخاص الذين سيغادرون المعسكر على الفور للتوجه إلى كابول، وقال إنهم سوف ينتقلون إلى هناك بالطائرة. تقرر في هذا الوقت أن ينتقل بن لادن، والظواهري، وسيف العدل، والشيخ سعيد المصري، وهو عضو في مجلس شورى القاعدة، خَلَفَ مدني الطيب على رأس اللجنة المالية، إلى منشأةٍ أخرى في قندهار.

أراد بن لادن الانتقال مع أصغر موكبٍ ممكن تجنباً للفت الانتباه، وهكذا لم يأخذ معه حراسه الأمنيين الذين يرافقونه على الدوام. قال لي أبو جندل في وقتٍ لاحق: «فوجئت عندما رأيت أولئك الرجال يغادرون المخيّم ويقودون شاحناتهم الخاصة بهم بعد أن ركبت عائلاتهم خلفهم». عاد سيف العدل بعد ذلك ليطلب من أبي جندل حفر خنادق حول المخيّم، وعلى الأخص في جوار مواقع الحرس، وذلك لأن «الأميركيين سوف يقومون بقصفنا قريباً».

كان أبو جندل يعرف المهاجمين الانتحاريين جيداً: عاقب العوهلي ذات مرة لأنه كان يلهو بقنبلة بالرغم من نزع صِمَامَ الأمان منها. كان العوهلي وعبد العزيز الجنوبي ـ وهو اللقب الذي اتخذه أحمد محمد هزاع الدربي، وهو شقيق زوجة أحد الخاطفين في يوم ١١ أيلول/سبتمبر خالد المحضار (الملقب بسنان المكي) ـ يلهوان بالقنبلة ونزعا صِمَامَ الأمان عنها، ولم يعرفا كيفية إعادته إلى مكانه. أعاد أبو جندل الصمام إلى مكانه وأمر الرجلين بالزحف حول القاعدة التي كانا يتدربان فيها كنوعٍ من العقاب.

وقف العوهلي كحارسٍ شخصي خارج مكان المؤتمر الصحفي الذي عقده

بن لادن بعد لقائه مع جون ميلر مراسل ABC في شهر أيار/مايو من العام ١٩٩٨. عُقد المؤتمر الصحفي في معسكر تدريب جيهادول في خوست، أفغانستان. كان سيف العدل، والظواهري، وأبو عطا التونسي، وهو المسؤول عن التدريب العسكري الذي قُتل عندما كان يقاتل إلى جانب طالبان ضد التحالف الشمالي. كان أبو عطا التونسي، وهو صهر عبد الله تبارك الذي كان يُشرف على فريق الحرس الشخصي المكلف بحماية بن لادن.

كان جهاد علي حارساً شخصياً لبن لادن وابن خالة عبد الرحيم حسين محمد عبد النشيري، وكلاهما كانا ضمن المجموعة الشمالية. كان الاسم الحركي للنشيري في أوساط القاعدة هو الملا بلال، بينما أطلق عليه جهاد علي، المعروف بحبه للمزاح لقب البلبل. وعندما وقع الاختيار على جهاد علي ليكون مهاجماً انتحارياً بادر وخلاد إلى تحضيره، كما أن النشيري تكلم هاتفياً مع والدة جهاد علي – أي خالة النشيري – ليبلغها بأن ابنها قد استُشهد.

كان المهاجم الانتحاري الذي وقع عليه الاختيار لتنفيذ عملية تنزانيا، أي أحمد الألماني، مدرباً على استخدام المتفجرات، وهو الذي اتهمه العملاء الآخرون بالميل إلى «الأولاد الصغار». كان هذا الأمر يزعجه كثيراً، وشكا الأمر إلى أبي جندل الذي أكد له أنه لا بد أن تكون الاتهامات غير صحيحة.

وقعت تفجيرات نيروبي عند الساعة ١٠:٣٥. انفجرت شاحنة من نوع تويوتا داينا قرب المنطقة الخلفية للسفارة الأميركية، وهو الأمر الذي أسفر عن مقتل ١٢ أميركياً ومئتي شخصٍ وواحدٍ آخرين. جاء توقيت الانفجار في ساعة الذروة، كما أن السيارات، والحافلات، والعربات الأخرى كانت تسير وراء بعضها خارج السفارة، وكان من ضمنها حافلة تحمل طلاباً في داخلها. دمّر الانفجار كليةً لتعليم السكرتاريا، كما لحقت أضرار كبيرة بمبنى السفارة الأميركية، ومبنى المصرف التعاوني.

بعد ذلك بأربع دقائق، أي عند الساعة ١٠:٣٩ انفجرت شاحنة سوزوكي ساموراي

قرب السفارة الأميركية في دار السلام، وهو الأمر الذي أسفر عن مقتل ١١ شخصاً، كما جُرح المئات في هذين الهجومين.

غادر أبو جندل، وحمدان، وبقية مرافقي بن لادن إلى كابول للانضمام إليه. التزم جميعهم بالصمت، وقال حمدان في ما بعد: «كان ذلك هو الصدام الأول وجهاً لوجه بين بن لادن والأميركيين، ولهذا لم يكن متأكداً من طبيعة رد فعلهم».

أيقظني جهاز التنبيه من النوم عند نحو الساعة ٥:٣٠ من صباح يوم ٧ آب/ أغسطس. تقلبت في سريري وتناولت جهاز التنبيه الذي كان فوق طاولة صغيرة إلى جانب السرير. ألقيت نظرة على الرسالة التي كانت من رئيسي توم دونلون يبلغني فيها بوجوب الاتصال به في المكتب.

قفزت من السرير على الفور وتناولت جهاز هاتف المنزل، ثم طلبت رقم المكتب. سمعت صوت توم عبر الخط الهاتفي.

«هذا أنا يا تومي. تلقيت رسالتك عبر جهاز التنبيه. ماذا يجري؟»

«تعرضت السفارتان الأميركيتان في نيروبي ودار السلام للتفجير هذا الصباح. يبدو الأمر وكأن مهاجمين انتحاريين قادا شاحنتين إلى السفارتين وفجّرا نفسيهما. وقع عدد كبير من الإصابات، والتفاصيل ما تزال تردنا تباعاً». كان توم يتكلم بسرعة ويكاد لا يتوقف بين جملة وأخرى.

استجمعت أفكاري بصمت: «هل نعرف من هو المسؤول عن التفجيرين؟»

ردّ توم: «ما زال الأمر غامضاً بالنسبة إلينا. يُحتمل أن يكون صاحبك. أريدك أن تسرع وتأتي إلى المكتب مباشرة».

ارتديت ملابسي وهرعت إلى خارج الشقة. كان الجو كئيباً في المكتب. أومأت إلى زملائي، لكنني لم أتوقف لتبادل التحيات والأحاديث معهم. كان الجميع مثلي في حالة تركيزٍ شديد: كانت العيون مشدودة إلى شاشة التلفزيون لمشاهدة التقارير

الواردة، بينما بدأ آخرون بقراءة تقارير حول الهجمات، وانهمك بعضهم الآخر في أحاديث معمقة.

قمت بطباعة كل التقارير الواردة إلى مكتبنا عن التفجيرين، وكذلك البيانات التي تدعي المسؤولية عن الهجومين، والتي أُرسلت إلى وسائل الإعلام، ثم بدأت بتحليل تلك التقارير. كانت تفاصيل جديدة ترد كل بضع دقائق.

اقترب توم من طاولتي بعد نحو عشرين دقيقة من وصولي. سألني: «قل لي يا علي من تظن أنه يقف وراء الهجمات؟»

قلت له: «أظن أن القاعدة وأسامة بن لادن يقفان وراء الهجمات، وذلك بعد قراءتي لهذه التقارير وكل المصادر العلنية».

«ولماذا تعتقد ذلك؟»

«أقول بداية إن هذا ما كانت تشير إليه الفتاوى التي أصدرها حديثاً. أصدر فتوى في ٢٣ شباط/فبراير، ١٩٩٨، يُعلن فيها الجهاد ضد الغرب، وأعتقد أنها كانت تحذيراً من أن هجوم القاعدة لن يكون بعيداً». أومأ توم وقال إنه يتذكر تلك الفتوى والمذكرة التي كتبتها حولها والتي وزعتها على الزملاء.

ورد في تلك الفتوى التي أصدرها بن لادن: «إننا بإذن اللّه ندعو كل مسلم يؤمن باللّه ويرغب في ثوابه، إلى امتثال أمر اللّه بقتل الأميركان ونهب أموالهم في أي مكان وجدهم فيه، وفي كل وقت أمكنه ذلك، كما ندعو علماء المسلمين وقادتهم وشبابهم وجنودهم إلى شن الغارة على جنود الأميركان، ومن تحالف معهم من أعوان الشيطان وأن يشرّدوا بهم خلفهم لعلهم يذكّرون». وقّع الظواهري تلك الفتوى إلى جانب بن لادن، وهو الذي كان حينذاك على رأس منظمة الجهاد الإسلامي المصرية - لم تكن منظمته قد اندمجت بعد مع القاعدة، ولم يكن قد تسلّم آنذاك منصب نائب بن لادن - وذلك بالإضافة إلى إرهابيين إسلاميين بارزين.

سألني توم: «هل يوجد شيء آخر غير الفتوى يشير إلى احتمال وجود بن لادن وراء تلك الهجمات؟»

«أجل، هناك دليل آخر. يمكنك إلقاء نظرة على أقوال مَن زعموا أنهم المسؤولون عن الهجمات». قلت ذلك وعرضت على توم الأوراق التي طبعتها. «تحاكي لغة هذه البيانات تصاريح سابقة صدرت عن بن لادن».

سبق لي أن وضعت خطاً تحت بعض الأسطر الواردة في البيانين، وأحلت تلك الأسطر إلى انتباه توم، وكذلك فعلت مع أسطرٍ مشابهة لها وردت في تصريحات بن لادن السابقة، وهي التي احتفظت بها خلال بحثي الذي قمت به سابقاً. قال توم: «إنه صيدٌ موفق. دعنا نتوجه إلى مركز القيادة حيث يمكنك أن تخبر جون أونيل بنظريتك. تنهمك الإدارة الآن في تقرير ما إذا كانت هذه القضية من اختصاص مكتب نيويورك، أو من اختصاص مكتب واشنطن الميداني».

كان مكتب واشنطن الميداني WFO التابع لمكتب التحقيقات الاتحادي، هو المسؤول عن التحقيق في جميع الهجمات تقريباً التي تحدث في الخارج. كانت هجمات القاعدة هي الاستثناء، وهي التي كانت تُناط مسؤوليتها عادةً بمكتب نيويورك الميداني. يعود سبب ذلك إلى أن المكتب الأساس لقضية القاعدة كان مكتب نيويورك الميداني. يقضي نظام مكتب الأساس بأن أي مكتب يقوم بفتح قضية [دعوى] رسمية أولاً بحق موضوع أو مجموعة يقوم من ثَمَّ بالاهتمام بكل الأمور المتعلقة بهذه القضية، علماً بأنه يوجد ٥٦ مكتباً تابعاً لمكتب التحقيقات الاتحادي في أنحاء البلاد. يضمن ذلك الإجراء عدم ازدواجية العمل، والمحافظة على الخبرات العملية المتراكمة من التحقيقات السابقة بحيث يُبنى عليها، وذلك بدلاً من الاضطرار إلى إعادة تعلمها من قِبل المكتب الجديد في كل مرة يبرز فيها حادث جديد.

لكن بسبب كون مكتب واشنطن الميداني هو أول مرجع عند حدوث الهجمات الخارجية، وبسبب أن القاعدة لم تزعم المسؤولية رسمياً عن تفجيرات السفارتين (وهو ما يبرر عدم إناطة القضية بمكتب نيويورك بصورة آلية)، فإن فريق مكتب واشنطن الميداني تحرك فعلاً إلى نيروبي من أجل البدء بالتحقيق. لكن تعيّن علينا

قبل أن يتمكن مكتب نيويورك الميداني من البدء بالتحقيقات إقناع الإدارة بأن القاعدة متورطة في الهجمات.

عبرنا أنا وتوم الشارع من مكتبنا إلى مقرّ الفريق المشترك لمكافحة الإرهاب Joint Terrorism Task Force. كان المقر ملبئاً بممثلين عن كل مؤسسات الاستخبارات وتطبيق القوانين الأميركية، والتي تمتلك مكاتب في مدينة نيويورك، بما في ذلك وكالة الاستخبارات المركزية، ووكالة الأمن القومي الأميركي NSA، وقسم الشرطة. رأيت في منتصف الغرفة جون أونيل، وبات مورو، وكبار الموظفين الآخرين في مكتب التحقيقات الاتحادي، وهم فوق المنصة ممسكين بأجهزة الهواتف الأمنية، ويتحدثون مع الإدارة العامة لمكتب التحقيقات في واشنطن.

أبلغ توم جون وبات: «يعتقد علي أن القاعدة هي المسؤولة عن الهجمات، كما أنه يمتلك تفسيراً مقنعاً».

كررت على مسامعهما ما سبق أن قلته لتوم قبل دقائق قليلة.

قال جون عندما انتهيت من الكلام: «إنه تفكير منطقي. أريد أن تساعد في كتابة مذكرة إلى الإدارة العامة في واشنطن تشرح فيها سبب اعتقادنا أن الهجوم يحمل توقيع بن لادن. تعال معي».

تبعت جون من المنصة إلى غرفة جانبية. رأيت كيفن كروز التابع لفرقة I-49، مع أحد المحققين من دائرة شرطة نيويورك، ويدعى توم كوريغان، وهو ملحق بـ I-49، متحلقَين حول طاولة مستديرة ويراجعان الملفات. كان كيفن وتوم خبيرين بالقاعدة. أمرنا جون نحن الثلاثة بتحضير مذكرة للإدارة العامة نلخص فيها سبب اعتقادنا أن القاعدة مسؤولة عن الهجمات.

كتبتُ التحليل الذي أعطيته إلى جون وآخرين، كما أن كيفن وتوم أضافا بعض المعلومات التاريخية وبعض المعلومات السرية التي تدعم فرضيتنا. كان الرجلان على اطلاعٍ على تقارير الاستخبارات حول خلايا القاعدة في المنطقة، وعلى الأخص في

نيروبي، كما أضافا بعض التفاصيل إلى المذكرة. أنهينا كتابة المذكرة وعرضناها على جون الذي صادق عليها، ثم أُرسلت إلى الإدارة العامة.

جاء الجواب بعد ثلاثين دقيقة بموافقة الإدارة العامة على الحجج الواردة في مذكرتنا. تعيّن علينا تشكيل فريق من مكتب نيويورك: يتوجه نصف الفريق إلى نيروبي، أما النصف الآخر فسوف يتوجه إلى دار السلام. قرر كبار المسؤولين كذلك أن يتولى بات دامورو قيادة المجموعتين. أُجريت الترتيبات اللازمة لمغادرة جميع أفراد الفريق في غضون ساعات قليلة.

تقدم جون مني أثناء المشاورات التي جرت بشأن أسماء الفريق، وقال لي واضعاً ذراعه من حولي: «قمت بعملٍ جيد في المذكرة».

قلت له: «شكراً لك يا سيدي».

تابع جون كلامه: «اسمع. لا أريد أن تذهب إلى نيروبي. إنني أحتاجك معي هنا، كما أنه لدينا ما يكفي من العملاء على الأرض، لكن يمكنني الاستفادة من أفكارك هنا».

عمل فريق مكتب التحقيقات الاتحادي مع فرق تطبيق القانون المحلية ووكالات الاستخبارات على تجميع المعلومات عن الهجمات، وتجميع الأدلة، وإجراء التحليلات العدلية اللازمة، واستجواب الشهود، ومتابعة كل الخيوط التي قد تظهر. أصدرت وزارة الخارجية في هذا الوقت ملصقات تعلن عن مكافآت مقابل تحقيق العدالة ووزعتها في أنحاء العالم كافةً.

سافر في هذا الوقت ذاته المدّعون من وزارة العدل من المنطقة الجنوبية لنيويورك إلى نيروبي وعملوا مع المسؤولين الحكوميين من أجل وضع بروتوكول لإجراء التحقيقات. كان ذلك البروتوكول ضرورياً، وذلك لأن مصلحتنا لا تقتصر فقط على العثور على المسؤولين عن العملية، بل تقتضي التأكد من أننا سنكون

قادرين على تقديمهم أمام محكمة أميركية وإدانتهم، وكذلك تتضمن استخدام الدليل المتجمّع لدينا في ملاحقات قضائية أخرى تتعلق بالقاعدة.

كان علينا التأكد كذلك من أن أجزاءً معينة من التحقيقات – بدءاً من استخدام الدليل إلى إجراء مقابلات واستجوابات تلبي المعايير الاتحادية، وبحيث يكون الدليل، والشهادات، والاعترافات، مقبولة كلها لدى المحاكم الأميركية. إن مكافحة الإرهاب هي عملية مستمرة. يُحتمل أن تؤول نتائج أي عملية إلى المحاكم، لذلك فإنه من التعقّل إبقاء العملية القانونية في البال من أجل الإبقاء على كل الخيارات مفتوحة.

قام زملائي بالعمل الصعب على الأرض في نيروبي، بينما عملت أنا مع جون وآخرين في نيويورك على تقديم المساعدة إلى فريق نيروبي، وفي تتبع الشبكة الأوسع للقاعدة. كانت لندن إحدى المدن التي بدأنا بالتركيز عليها. كانت العاصمة البريطانية هي الموقع الذي وزعت منه القاعدة إعلان بن لادن الجهاد، وكذلك بيانات أخرى. كانت لندن كذلك المكان الذي رتبت فيه وسائل الإعلام، مثل سي. أن. أن و آي. بي. سي مقابلاتها مع بن لادن.

اتصل جون بكبار المسؤولين البريطانيين من أجل حثّهم على أخذ تهديدات القاعدة على محمل الجد، والمساعدة في التحقيق مع الذين يُشتبه بأنهم أعضاء في القاعدة في لندن، وفي مختلف أنحاء المملكة المتحدة. ترددوا في البداية في القيام بأي شيء يتعلق بوجود نشطاء الجهاد الإسلامي المصرية والقاعدة في لندن، وهم الذين لا يبدو أنهم يلحقون الأذى بالمصالح البريطانية.

أجريت بعد ذلك تحليلاً إضافياً لمزاعم إدعاء مسؤولية الهجمات. كان الهجومان متماثلين تقريباً، بينما كان الفرق الوحيد هو في مواقع وأسماء «فصائل» أو خلايا الظل التي نفذت التفجيرات. أعلن البيان الذي زعم المسؤولية عن هجوم نيروبي أن الهجوم كان من تخطيط فصيلة الشهيد خالد السعيد، ومن تنفيذ نشطاء من شبه

أبلغها المتصل بالمكان الذي رأى فيه الرجل وزوّدها بأوصافه. تم إرسال فريق متخفٍ على الفور. كان من بين أعضاء ذلك الفريق ستيفن غودين، ورجل تحرٍ من شرطة نيويورك يدعى واين بارولا. التحق ستيفن حديثاً بفريق SWAT في مكتب نيويورك، وكان من ضمن قوات العمليات الخاصة في الجيش الأميركي. كان الرجل مفتقداً في ذلك الوقت إلى المعرفة العميقة بالقاعدة، لكنه كان يمتلك موهبة مدهشة في التواصل مع المشتبه بهم، وهي نتيجة طبيعية لتعاطفه مع الآخرين ولتفهمه لمواهب الناس. عمد في ما بعد إلى وضع موهبته تلك في خدمة الاستجوابات الأساسية. غيّرت مهمة نيروبي مسار ستيفن المهني: أصبح في ما بعد عضواً محورياً من فريق مكتب التحقيقات الاتحادي المختص بالقاعدة. أما واين بارولا فكان عضواً في JTTF، وجلب معه قدراً كبيراً من الخبرة. كان الرجل إيطالياً، وسميناً ذا لحية سوداء. كان الرجل مستعداً للمخاطرة، ويعرف ما يجب أن يُقال، وكان يناسب دور رجل تحرٍ في شرطة نيويورك.

حدّد واين، وستيفن، وبقية أفراد الفريق الموقع، وسرعان ما ظهر رجل يطابق الأوصاف التي أُعطيت لديبي. راقبه العملاء جيداً، وانتظروا اللحظة المناسبة للقبض عليه. حانت اللحظة المناسبة فاعتقلوه وأخضعوه. أسفرت عملية التفتيش عن العثور على مبلغ ثمانمئة دولار. لم يمتلك الرجل أي أوراقٍ ثبوتية أو وثائق أخرى. لم يكن الفريق متأكداً من مدى إصابته، لكنهم نقلوه إلى مستشفى كي يقوم طبيب بتقييم حالته.

قاد جون أنتيشيف عملية الاستجواب في سرير الموقوف في المستشفى. أشرف جون على قضية وقف الإرهاب Terrorstop، وهي المتعلقة بخطط الهجوم على معالم مدينة نيويورك في العام ١٩٩٣، كما أنه كان مستجوِباً مجرباً، وعلى علم بالإرهاب المتطرف، وهي حقيقة سرعان ما تأثر بها ذلك المريض الموقوف.

سأله جون: «ما اسمك؟»

ردّ الرجل: «اسمي خالد سليم بن رشيد». أجاب الرجل عندما تلقى سؤالاً عن جنسيته وماذا يفعل في نيروبي، بأنه من اليمن ويبحث عن فرصة لعمل تجاري.

لم يشكّك جون بما سمعه من الرجل، لكنه سأله بدلاً من ذلك عن سبب إصابته. أجاب رشيد بأنه كان في المصرف التعاوني عند وقوع الانفجار وأنه بسببه سقط أرضاً. أضاف بأنه دخل إلى المستشفى حيث ضُمّدت جراحه وقُطّبت جبهته.

أومأ جون وكتب كل ما سمعه، بينما انصرف في هذا الوقت إلى تحليل كلماته ودراسة حركاته. سأل رشيد ما إذا كان مرتاحاً، وما إذا كان يجد فرصة للصلاة. قال رشيد بأنه يمتلك تلك الفرصة. مضى جون ليطرح عليه مجموعة من الأسئلة التي بدت روتينية حول معتقداته الدينية وآرائه بشأن الولايات المتحدة، وطالبان، وبعض الأمور المرتبطة بها.

استرخى رشيد في سريره وبادل جون الحديث. بدا الرجل وكأنه يستمتع بهذا الحديث، كما رحّب بالفرصة التي أُتيحت له «لتثقيف» جون في هذه المواضيع. وجّه جون المحادثة نحو عبد اللّه عزّام ولاحظ أن رشيد رسم ابتسامة صغيرة بدت عفوية عندما سمع الاسم. كان من الواضح أنه يعرف أشياء عن العقيدة الدينية المستخدمة كأساسٍ للتطرف الإسلامي، كما أنه أظهر تأثره بالمعلومات التي يمتلكها جون.

وصل رشيد إلى نقطة شعر معها بالارتياح التام. كان جون مسترخياً، وهادئاً، ومهذباً، كما أعطى رشيد الانطباع بأنه يحترمه، وكان من الواضح أن رشيد يقدّر ذلك كثيراً، فما كان منه إلا أن ابتسم بدوره، وهكذا أكمل الرجلان الحديث بكل سرور.

وصل رشيد إلى منتصف جملة كان يقولها فقاطعه جون، وبحركة سريعة منه وضع قلماً وورقة أمامه وأبلغه بصرامة: «أكتب الرقم الذي اتصلتَ به بعد التفجير».

جمَد رشيد في مكانه، واستغرب التغيير الذي حدث في أسلوب جون ولهجته. كرّر جون: «أكتب الرقم!» صدمت لهجة الثقة التي أبداها جون رشيد عندما أعطاه

الأمر، لكنه ما لبث أن كتب رقم الهاتف بصورة آلية تقريباً. وضع القلم بعد ذلك، وحدّق بجون متأملاً. كان يرتجف لأنه لم يعرف أبداً كيف علم جون أنه اتصل برقمٍ هاتفي.

لم يعلم جون بالأمر في الواقع، لكن حدسه أثمر، وهكذا أصبح لدى فريق مكتب التحقيقات شخصٌ موقوفٌ، وهو الذي لم يعترف فقط بأنه أدّى دوراً في عملية التفجير، بل أعطى المحققين خيطاً هاماً.

طرح جون سؤالاً مكملاً حول الرقم الهاتفي، لكن رشيد امتنع عن قول أي شيء آخر.

كان فريق آخر من العملاء يحقق بالقصة التي أعطاها رشيد، بينما كان الاستجواب جارياً. ذهب أعضاء الفريق إلى المستشفى الذي زعم رشيد أنه تلقى فيه العلاج بعد التفجير، وكذلك إلى المطار في محاولة منهم للعثور على بطاقة وصوله إلى المطار، أو الحصول على أي معلوماتٍ أخرى. حقق الفريق في المستشفى مع الموظفين والأطباء، وهناك اكتشف أن موظف التنظيفات في المستشفى عثر على الأغراض الشخصية العائدة إلى رشيد مرميةً في نافذة أحد المراحيض. كانت مفاتيح شاحنة وبضع رصاصات من ضمن تلك الأغراض. أُرسلت تلك الأغراض إلى الفريق العدلي التابع لمكتب التحقيقات الاتحادي الذي كان يقوم بمهمة تحليل بقايا الشاحنة التي استُخدمت في التفجير. تبيّن أن تلك المفاتيح تتوافق مع أقفال الشاحنة التي استُخدمت في ذلك الهجوم الانتحاري.

عثر العملاء الذين توجهوا إلى المطار على بطاقة وصول تحمل اسم خالد سليم بن رشيد. قادت المعلومات الإضافية المتعلقة ببطاقة الوصول الفريق إلى منزل في نيروبي بدا وكأن المهاجمين استخدموه، وهناك عثر الفريق على بقايا متفجرات في أنحاء المنزل.

تتبعنا في هذا الوقت الرقم الهاتفي الذي ذكره رشيد واكتشفنا أنه يعود إلى

رجلٍ في اليمن يدعى أحمد الحداء. عرفنا نتيجة مراقبة ذلك الخط أنه على ما يبدو يُستخدم كرقم اتصالٍ رئيس لمنظمة القاعدة في اليمن، وأن المكالمات التي تصدر عنه تمرر بانتظام إلى هاتف متصل بالأقمار الصناعية، وهو الهاتف الذي كانت تراقبه السلطات الأميركية مسبقاً لأنه يعود إلى أسامة بن لادن. جرت عدة مكالمات من خط أسامة بن لادن الموصول بالأقمار الصناعية إلى لوحة التحويل في منزل الحداء، ومكالمات أخرى من منزل الحداء إلى نيروبي. ظهرت بهذه الطريقة علاقة القاعدة بالتفجيرين.

ألقي القبض في مطار كراتشي في اليوم ذاته الذي حَدَثَ فيه تفجير السفارتين على عميل فلسطيني للقاعدة يُدعى محمد صديق عودة. وصل الرجل بالطائرة من كينيا، لكن السلطات الباكستانية لاحظت أن الصورة المثبتة في جواز سفره كانت مزيفة. خضع عودة للاستجواب على مدى أيامٍ عدة قبل تسليمه في يوم ١٤ آب/أغسطس إلى السلطات الكينية، ثم رحّل في طائرة رئيس الوزراء الباكستاني إلى نيروبي. واجه بات دامورو والفريق المعيّن لاستقبال عودة والذين رافقوه في مطار نيروبي مأزقاً غير متوقع: لم تمتلك طائرة رئيس الوزراء ما يكفي من الوقود لتطير عائدة إلى باكستان.

مُلئت خزانات الوقود في النهاية، لكن مسؤولاً كينياً سأل بشكلٍ واضح: «لكن مَن سوف يدفع؟»

أجاب بات بصوتٍ جامد وبعد أن شاهد طائرة تابعة لوكالة الاستخبارات الأميركية على المدرج: «إنهم مَن سيدفع الفاتورة».

تمكن جون أنتيشيف وفريقه في يوم ١٥ آب/أغسطس من مقابلة عودة. بدأوا بتلاوة قائمة حقوقه، وذلك بحسب توجيهات مكتب التحقيقات ووزارة العدل، كما أن عودة وقّع على تلك الورقة معترفاً بأنه فهِم محتوياتها. مضى الرجل إلى حد الاعتراف بتورطه في خطة التفجير، كما لخّص المسار الذي أوصله إلى القاعدة،

التحق عودة بمدرسة ثانوية في الفليبين واهتمّ بالجهاد بعد مشاهدته أشرطة فيديو والاستماع إلى تسجيلاتٍ صوتية لمحاضرات ألقاها عبد اللّه عزام. احتاج عودة إلى مبلغ ألف دولار عندما كان في السنة النهائية من دراسته الثانوية. وافق والده على إرسال المبلغ إليه. سأل عودة أحد رجال الدين بعد تسلمه المبلغ عما إذا كان الأجدر به استخدامه لإنهاء دراسته أم السفر إلى أفغانستان للانضمام إلى المجاهدين. أبلغه رجل الدين أنَّ من الأفضل له التوجه إلى أفغانستان. التحق عودة هناك بمعسكر الفاروق الذي يقع قرب خوست، وما لبث أن انضم لاحقاً إلى القاعدة. تدرب الرجل على عمليات الاغتيال وتعلّم مقدار المتفجرات اللازمة لتدمير مختلف أنواع الأبنية.

ما إن انتهت فترة تدريبات عودة مع القاعدة حتى أُرسل إلى الصومال، وإلى كينيا بعد ذلك. كانت مهمته الأولى في كينيا هي تأسيس شركة لصيد الأسماك والتي ستُستخدم إيراداتها في المساعدة على تمويل خلية نيروبي. أما مهمته التالية فكانت العمل في مجال المتفجرات. شرح عودة لمستجوبيه أنه في أواخر شهر تموز/يوليو من العام ١٩٩٨، اجتمع خلفان خميس محمد، ومصطفى محمد فضيل، وأعضاء آخرون في القاعدة في دار السلام بهدف طحن مادة تي. أن. تي من أجل استخدامها في التفجيرات. التقى الرجلان فهد محمد علي مسلّم، وأحمد الألماني في المنزل رقم ٢١٣ في منطقة إيلالا من المدينة من أجل إتمام التحضيرات النهائية. ملأ الرجال صناديق من مادة تي. أن. تي المتفجرة، وأسطوانات، وبطاريات، ووضعوها في صندوق الشاحنة التي اعتزموا استخدامها بمساعدة عميلٍ يدعى أحمد خلفان الغيلاني.

شرح عودة أنه في ١ آب/أغسطس من العام ١٩٩٨ أبلغه صالح بأنه يتعيّن على جميع أفراد القاعدة مغادرة كينيا في غضون خمسة أيام. حضر الغيلاني في ذلك اليوم ذاته إلى فندق هيل توب في نيروبي ونزل فيه، وفي اليوم التالي التقاه هناك عودة وهارون فضول مع أعضاء غيرهم في القاعدة. أما العضوان الآخران في القاعدة، وهما الشيخ أحمد سالم سويدان ومصطفى محمد فضيل، وبناء على تعليمات تلقّياها، فقد غادرا نيروبي على متن رحلة شركة الطيران الباكستانية الدولية

الرقم ٧٤٤ متجهين إلى كراتشي عن طريق دبي، كما أن فهد محمد علي مسلم اشترى في ٣ آب/أغسطس تذاكر له ولعودة على متن الرحلة رقم ٧٤٦ التابعة لشركة الطيران الباكستانية الدولية والتي كان من المقرر لها أن تغادر يوم ٦ آب/أغسطس.

انضم عودة إلى بقية أعضاء القاعدة في فندق هيل توب، حيث ظلّوا على اتصال بالفريق في دار السلام. وفي يوم ٥ آب/أغسطس حلق عودة لحيته واشترى ملابس جديدة تحضيراً للقاء بن لادن في أفغانستان بعد رحلة اليوم التالي إلى كراتشي. سار عودة في جادة مووي، ووصل إلى مكانٍ قريب من السفارة الأميركية، وذلك أثناء إتمامه عملية التسوّق. غادر صالح والغيلاني نيروبي إلى كراتشي على متن الرحلة ٣١٠ التابعة لشركة الطيران الكينية، بينما غادر عودة (مستخدماً اسماً مزيفاً) ومسلم على متن الرحلة رقم ٧٤٦.

كشف عودة أمام المحققين الدور الذي قام به هارون في منظمة القاعدة، وعلى الأخص دوره في كتابة التقارير إلى القيادة. كان يكتب تلك التقارير بالرموز، وذلك تحسباً لوقوع تلك التقارير بين أيدٍ معادية، ولكي تبقى خطط القاعدة آمنة. أعطى عودة مستجوبيه أمثلةً على ذلك: «العمل» يعني «الجهاد»، «البطاطا» تعني «القنابل اليدوية»، «الأوراق» تعني «الوثائق السيئة»، و«السلع» تعني «الوثائق المزورة».

سأل أنتيشيف: «أيمكنك أن تعطيني مثالاً عن كيفية استخدام تلك الكلمات؟»

ردّ عودة: «إذا قلنا، «كيف كانت السلع من اليمن»، فإننا نعني «إننا بحاجة إلى وثائق مزورة من اليمن». قال عودة إن تقارير هارون كانت تُرسل بالفاكس إلى باكستان، ومن هناك كان أحد السعاة ينقلها إلى قادة القاعدة.

سافر جون أنتيشيف جواً مع عودة من كينيا إلى قاعدة ستيوارت الجوية، حيث كان فريق مكتب التحقيقات الاتحادي ينتظرهما لمتابعة استجوابه. كنت أنا أحد أعضاء ذلك الفريق. دخلت إلى الطائرة وعانقته ثم قلت: «أهلاً بك في الوطن، يا

له من عملٍ عظيم». كان ذلك تصريحاً لا يفي العمل حقّه. قام جون وفرقه بعملٍ هائلٍ في كينيا. كان عودة يرتدي زياً مؤلفاً من قطعة واحدة داكنة اللون، كما أن فريق SWAT نقله إلى طائرة حوامة طارت به إلى أحد سجون نيويورك.

كنت في يوم ٢٠ آب/أغسطس، أي بعد مرور ١٣ يوماً على التفجيرات، منشغلاً بمحادثة مع جون أونيل حول عمليات القاعدة في لندن، وفجأة سمعنا مجموعة من الصرخات وعبارات الدهشة منطلقة من أفواه الذين تجمعوا أمام شاشة تلفزيونية بالقرب منا.

اقتربنا من الشاشة فشاهدنا مراسلاً يعلن أن الرئيس كلينتون أمر بإطلاق صواريخ من سفن البحرية الأميركية الموجودة في بحر العرب لقصف مواقع في السودان وأفغانستان، وهي مواقع يُعتقد أن بن لادن يديرها أو على علاقة بها. اشتملت تلك المواقع على مصنع أدوية في الخرطوم وقواعد لتدريب أفراد القاعدة قرب خوست. اتصل دافيد كوهين وتشارلي [redacted] من وكالة الاستخبارات المركزية بجون، وذلك قبل دقائق فقط لتحذيره بأن القصف سوف يبدأ عما قريب.

قال المراسل إن هذا العمل كان رداً من الولايات المتحدة على تفجير السيارتين. خرجت حشود المتظاهرين في السودان وأماكن أخرى في العالمين العربي والإسلامي للاحتجاج على تلك الضربات. اعتبر المتظاهرون أن الولايات المتحدة قد قصفت من دون سبب أو تحذير وقتلت بذلك أشخاصاً أبرياء.

صاح أحد الزملاء بدهشة معبراً عما شعرنا به جميعاً في تلك اللحظة: «ماذا فعل هؤلاء؟ ألا يدركون أن لدينا ضبّاطاً ومحقّقين على أرضٍ معادية؟»

سألتُ جون: «لماذا، بحق السماء، لم يخبرونا أولاً بأنهم سيفعلون هذا». هزّ كتفيه بينما تبعته إلى مكتب جانبي بعيداً عن مركز القيادة، ثم اتصلنا ببات دامورو للتأكد من سلامة الأمنيين الموجودين على الأرض في نيروبي ودار السلام، وخاصة بعد أن أصبحوا أهدافاً سهلة لأي شخصٍ يريد الانتقام من الضربات الأميركية. أما

لو علم مكتب التحقيقات الاتحادي مقدماً بشأن عملية القصف تلك لكان بادر إلى سحب منتسبينا، أو إخراجهم من الشوارع حتى تهدأ الأمور.

أمرَ مركز القيادة كل الأفراد العاملين على الأرض في شرق أفريقيا بالابتعاد عن الأنظار إلى أن يهدأ الغضب الناتج عن الهجمات. كان الانتشار في نيروبي، أو دار السلام خطِراً بما يكفي: كانت القاعدة قد ضربت هناك لتوها، كما أنها ما تزال تمتلك الوسائل لتضرب من جديد.

تلقى المكتب عدة اتصالات هاتفية في ذلك اليوم من مدينتين أفريقيتين، وكانت من منتسبي الـFBI يطمئنون أحباءهم في الوطن بأنهم بخير. سرت بعض الأحاديث التي أوحت بأن الرئيس كلينتون قد أمر بتنفيذ عمليات القصف هذه من أجل تحويل الأنظار عن فضيحته مع مونيكا لوينسكي، لكنني لم أصدّق، ولم أرغب أن أصدّق، بأن الأمن القومي قد يُستغَل بهذه الطريقة. لكن كائناً من كانت الجهة التي قررت إبقاء مكتب التحقيقات الاتحادي خارج تلك العملية فقد خاطرت بتهديد حياة الأميركيين.

كان أمير أحد المعسكرات التي تعرضت للقصف حسن الخامري. ترك القصف أثراً عميقاً فيه، وعمّق حقده على الولايات المتحدة، كما دفعه ذلك إلى الطلب من بن لادن السماح له بأن يستشهد في إحدى عمليات القاعدة التالية.

أُعيد رشيد من أجل استكمال استجوابه الذي أكمله ستيفن غودين وواين بارولا. لم يكن أي منهما يجيد التحدث بالعربية، وهكذا تولى مكتب واشنطن الميداني إحضار أحد المترجمين. كان المترجم رجلاً كبيراً في السن نوعاً ما، وهكذا رأى فيه رشيد شخصية الأب، ما كوّن رابطة بين الرجلين.

بدأ ستيفن وواين بطرح الأسئلة التي سبق أن طرحها جون أنتيشيف على رشيد في بداية الاستجواب: ماذا كان يفعل في نيروبي؟ وما هي علاقته بتفجير السفارتين؟ أعطى رشيد في البداية الإجابات ذاتها التي أعطاها سابقاً. واجهه ستيفن وواين

بالدليل. وأعطاه ستيفن إضافة إلى ذلك الوجبات الجاهزة للأكل (Meals Ready to Eat أو MRE) وهي الحصص الجاهزة التي تُعطى للجنود الأميركيين في الخارج. دُهش رشيد بفكرة الوجبات الجاهزة، ولاحظ أنها لذيذة، كما أحب بشكلٍ خاص الكعك المحلى الذي تشتمل عليه. بدأ الرفض الذي أبداه للتعاون يتلاشى تدريجاً، وتحول إلى نوع من التجاوب المترافق مع التردد. بدا رشيد مذهولاً بعمق الدليل، وما لبث أن أعلن: «هذا هو ما أريده. أريد أن أُحاكَم في أميركا وليس في كينيا، وذلك لأن أميركا هي عدوي. سأخبركم كل شيء إذا وعدتموني بهذا».

ناقش مكتب التحقيقات الاتحادي طلبه هذا مع وزارة العدل، وتمت الموافقة على الطلب، وذلك لأن محاكمته في الولايات المتحدة هي ما نريده على أي حال، وذلك لأنه هاجم السفارات الأميركية وقتل مدنيين أميركيين. أما نائب المدعي العام الأميركي بات فيتزجيرالد فقد حرّر وثيقة تعلن أن الولايات المتحدة لن تألو جهداً لكي يُسلم إليها وتحاكمه.

عُرضت تلك الوثيقة على رشيد، وكانت مرفقة بترجمة عربية لها. بدا سعيداً بها. وقال بعد أن وقّع عليها: «شكراً لكم، والآن لديّ ما أقوله لكما». سكت قليلاً قبل أن يتابع: «إن اسمي ليس خالد سليم بن رشيد، إنني محمد العوهلي، وأنا من المملكة العربية السعودية». قال العوهلي إنه بعد فراغه من تأدية دوره كمهاجم انتحاري من دون أن يموت بالفعل، وهو الانجاز الذي شرحه في ما بعد، هرب من موقع العملية، وبقي حياً ليروي قصته لمكتب التحقيقات الاتحادي.

قال إنه شقّ طريقه إلى القاعدة عن طريق معسكر خالدان للتدريب. لم تكن القاعدة تسيطر على المعسكر، لكنه اعتاد إعلام القيادة بالمجنّدين المحتملين. كان العوهلي واحداً من أولئك المجندّين. أبلغ مستجوبيه بكل فخر بأن مهاراته تميّزه عن زملائه من المجندين الآخرين، وأنه تلقى توصية للالتحاق بالقاعدة. التقى العوهلي بعد ذلك ببن لادن، وأبلغ مستجوبيه بأنه اكتشف بأنه يتوافق مع كل شيء قاله بن لادن.

أعطى العوهلي البيعة لبن لادن وانضم إلى القاعدة. طلب بعد ذلك بوقتٍ قصير تحديد مهمةٍ له. أبلغه بن لادن أن هناك شيئاً ما يحضّر له. استدعى بن لادن العوهلي في النهاية وأبلغه بأنه سوف يكون جزءاً من مسعى لإنزال ضربة قوية بالولايات المتحدة، وأنه سوف يساعد على تفجير السفارة الأميركية في نيروبي. وفي ٣١ تموز/ يوليو سافر جواً من باكستان إلى أفغانستان، ومن هناك سافر إلى دبي حيث تأخر عن رحلته المقررة إلى نيروبي، وهكذا لم يصل حتى ٢ آب/أغسطس.

أبلغ العوهلي فريق الاستجواب كل شيء يعرفه حول التفجير، وذلك بدءاً من صانع القنبلة، والذي عرّفه به بأنه رجل مصري يدعى صالح، ومروراً بالأعمال التي قام بها في يوم الهجوم. لم يكن الرجل كاذباً محترفاً، وهكذا عندما حاول إخفاء معلومات أو حجب هويات أصدقائه كان فريق التحقيق يحمله على الاعتراف.

قام هارون فضول في شهر أيار/مايو من العام ١٩٩٨، وهو الذي كان سيقوم بدور المرشد للعوهلي، وزميله المهاجم المعيّن جهاد علي أثناء وجودهما في نيروبي، باستئجار منزل يقع في ٤٣ مجمعات نيو روندا. أما في ٤ آب/أغسطس فقد تجسّس العوهلي، وهارون، وأعضاء آخرون من القاعدة على موقع السفارة الأميركية. وفي الخامس، والسادس، والسابع من ذلك الشهر اتصل العوهلي بسنترال الحداء في اليمن من هاتفٍ في ذلك المنزل. لكن في صباح اليوم المحدد للتفجير، وعند حوالى الساعة ٩:٣٠ رافق هارون المهاجمين الانتحاريين بشاحنته الخاصة، بينما قاد العوهلي وجهاد علي الشاحنة المحملة بالمتفجرات. كان العوهلي مجهزاً بأربع قنابل مسبّبة للصدمات، ومسدس بيريتا من عيار ٩ ملم، ومفاتيح لأقفال شاحنة التفجير.

ألقى هارون عند نحو الساعة ١٠:٣٠ قنبلة صدمية على حراس السفارة كي يشاغلهم ويحوّل انتباههم، بينما تابع العوهلي وجهاد علي المسير نحو السفارة. ابتعد هارون بعد أن انتهى دوره في هذه المهمة. اقترب العوهلي وجهاد علي من السفارة فوصلا إلى نقطةٍ تمركز عند بواباتها عددٌ من الحراس، وهكذا مُنعوا من التقدم أكثر.

قفز العوهلي، وكان من المتفق عليه أن دوره يقضي بتفجير نفسه عند هاتين البوابتين بالذات، وذلك لكي يتمكن جهاد علي من تفجير نفسه مع السيارة بمسافة تكون قريبة بشكلٍ يكفي لإلحاق الضرر بالسفارة. لوّح العوهلي بالقنابل الصدمية، وصاح بالحارس ليَفتح له البوابة. رفض الحارس، وهكذا رمى العوهلي القنبلة نحوه. بدأ جهاد علي بإطلاق الرصاص من مسدسه نحو السفارة بعد أن سمع الصخب وشاهد الانفجار، وهو الأمر الذي تسبَّب في تبعثر الناس.

لم يكن العوهلي متأكداً مما يجدر به فعله: كانت مهمته مساعدة جهاد علي على الوصول إلى أقرب نقطة ممكنة من السفارة. تفرّق الحراس بالرغم من أن البوابة كانت ما تزال مقفلة، كما أن جهاد أصبح الآن قريباً بما يكفي لتنفيذ مهمته. إن تفجير العوهلي لنفسه كان سيُعتبر انتحاراً بدلاً من أن يكون استشهاداً، والانتحار محظور في الإسلام. كان التمييز بين الحالتين في غاية الدقة، لكنه كان تمييزاً شديد الأهمية للعوهلي. فكّر العوهلي بالأمر بسرعة، وبدأ بالركض بعيداً، وهكذا وقع على الأرض، وجُرح عندما فجّر جهاد علي نفسه.

دخل العوهلي مستشفى قريباً بعد أن تخلص من كل الرصاصات الباقية في مسدسه في المرحاض حيث وُجدت لاحقاً، كما أنه وضع ممتلكاته الشخصية على حافة النافذة. أبلغ العوهلي الممرضات والأطباء الذين عالجوه بأنه كان ضحية الانفجار. غادر المستشفى بعد تضميد [تقطيب] جروحه، ثم اتصل بالقاعدة من خلال سنترال الحداء، وأبلغ بما حدث. طلب أن يرسل إليه أحدهم جواز سفر ومبلغاً من المال. تسلّم الرجل تحويلاً بمبلغ ألف دولار استخدمها العوهلي في شراء ملابس جديدة. كان يخطّط للهرب من نيروبي عندما أُلقي القبض عليه.

نُقل العوهلي جواً إلى الولايات المتحدة. طُرح عليه سؤال بعد سجنه عن أقربائه فأشار إلى ستيفن غودين. حوكم العوهلي في العام ٢٠٠١، وأصدرت محكمة اتحادية الحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات من دون أشغال شاقّة، وذلك بالإضافة إلى وديع الحاج وناشطَين آخرين تورطا في التفجيرات، وهما محمد عودة، وخلفان خميس محمد.

ألقيَ القبض على علي محمد في شهر أيلول/سبتمبر من العام ١٩٩٨، وذلك عند محاولته الفرار إلى مصر إثر استدعائه للتحقيق معه في قضية التفجيرين. اعترف محمد بأنه مذنب في شهر أيار/مايو من العام ١٩٩٩، لكنه لم يُحاكم أبداً، وما زال ينتظر محاكمته حتى اليوم كما أنه وُضع في موقع آمن. ضغط بات فيتزجيرالد منذ زمن طويل من أجل محاكمة محمد وإدانته. ذهبتُ ذات مرة أنا وبات لاستجوابه في السجن فوجدنا ذلك العميل المزدوج السابق وهو يرتجف.

تتبع المحققون كل الوقائع الجديدة التي كشفها العوهلي فوجدوها دقيقة. علمنا في ما بعد بأنه في الأيام التي تلت تفجيرات نيروبي أقدم هارون فضول على استئجار عمالٍ لتنظيف منزله الكائن في ٤٣ نيو روندا استايت، كما أنه غادر نيروبي متوجهاً نحو جزر القمر حوالى ١٤ آب/أغسطس. وفي دار السلام فإن خلفان خميس محمد نظّف ممتلكاته في هاوس ٢١٣ في إيلالا كما أجرى الترتيبات اللازمة للتخلص من المطحنة المستخدمة لتحضير مادة أل تي. أن. تي المتفجرة. غادر خميس دار السلام في ٨ آب/أغسطس متوجهاً إلى كايب تاون. ظهرت صورة كاملة عن كيفية تخطيط الهجمات وتنفيذها، كما أن فرق الادعاء بدأت بالتخطيط للوائح اتهام ومحاكمات بن لادن وقادة آخرين من القاعدة بسبب أدوارهم في العملية.

أثمرت عمليات التفتيش التي خضعت لها مختلف المنشآت، والمخابئ الآمنة، والمكاتب التي استخدمتها القاعدة، في العثور على وثائق قيّمة، وأرقام هواتف، وصور لعدد كبير من أعضاء القاعدة. عثر العاملون التابعون لـFBI في مكاتب «ساعِدوا أفريقيا» على صور بمقاس صور جوازات السفر وهي التي كانت تستخدم لإصدار بطاقات هوية مزورة. كانت تلك الصور عائدة لكامل قيادة القاعدة، بالإضافة إلى معظم أهم النشطاء منذ أن تمركز بن لادن في السودان. تحولت تلك الصور إلى أساس واحد من كتب [ألبومات] الصور عن القاعدة. تستخدم الوكالة هذه العبارة، أي كتاب الصور، للدلالة على صور المشبوهين وصور آخرين من المشتبه بهم، والذين يشكلون أهمية بالنسبة إلى التحقيق.

أخذ فضولنا للتحقيق في هذا الوقت ذاته اتجاهات جديدة. كانت البداية من اليمن حيث كان من الواضح أن أعضاء القاعدة يتمركزون هناك، وأنهم يستخدمون تلك البلاد لشن العمليات. أما جوازات السفر المزورة التي استخدمها العوهلي (تحت اسم رشيد) والإرهابيون الآخرون الذين اشتركوا في الهجمات فقد صدرت من اليمن، وكان رقم هاتف الحداء الوسيلة الأساس للاتصالات. جاءت بعد ذلك الخيوط التي تشير إلى القاعدة في لندن. بدأ مكتبنا تحقيقاته في لندن في العام ١٩٩٦ لأن المكتب الإعلامي لبن لادن كان متمركزاً هناك. ألقت السلطات البريطانية القبض على خالد الفواز واثنين من عملاء الظواهري بعد تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا. كشف العمل الذي قمنا به مع سكوتلاند يارد أن بيانات ادعاء المسؤولية عن تلك الهجمات أرسلها اثنان من الناشطين المصريين، وهما عادل عبد الباري وابراهيم عيداروس، من خلال جهاز الفاكس الموجود في غرايب فاين، وهو مركز تصوير مستندات يقع في الجهة المقابلة من الشارع لمنزل في شارع بيتهوفن، وهو المنزل الذي كان نشطاء المجموعة الإعلامية يستخدمونه. أطلقنا على هذا المنزل لقب مكتب بيتهوفن.

كان آيبي بيركنز وآرون زيبلي من بين عملاء المكتب الذين اشتركوا في التحقيقات التي جرت في دار السلام. قام الرجلان بدورٍ حاسم في إلقاء القبض على خلفان خميس محمد وانتزاع الاعترافات منه، وهي الاعترافات التي ساعدت على إدانته، والحكم عليه بالسجن مدى الحياة، نتيجة المحاكمة النهائية في قضية تفجير السفارة.

اجتمع بن لادن في النصف الثاني من العام ١٩٩٩ مع نحو ثلاثين متخرجاً من دورة تدريب خاصة على «قتال الاشتباك» والتي جرت في معسكر لوغار للتدريب. اعتُبر أعضاء هذه المجموعة التي جمعها خلاد من مجموعة النشطاء الخاصة. استدعى جلاد مدرباً باكستانياً لتعليم هؤلاء النشطاء فنون القتال بالأيدي وجهاً لوجه، وفنون التايكواندو وفنون القتال الأخرى.

أرسل الطلاب بعد انتهاء الدورة إلى قندهار لمقابلة بن لادن. هنأهم بن لادن على التخرج، ثم ألقى محاضرة على مسامعهم حول تفجير السفارتين في شرق أفريقيا، وكشف أمامهم بعض التفاصيل العملانية بما في ذلك السيارات والمتفجرات التي استُخدمت في تلك العملية، كما شرح لهم بكل دقة أسباب هجوم نيروبي: أولها، عملية استعادة الأمل في الصومال، والتي زعم أنها تسببت بمقتل ثلاثين ألف مسلم، وهي عملية تم توجيهها من السفارة في نيروبي؛ أما السبب الآخر فهو أن السفارة كانت قاعدة تقديم الدعم لزعيم المتمردين السياسي جون غارانغ دي مابيور؛ أما السبب الثالث فهو أنها أكبر مركزٍ للاستخبارات الأميركية في شرق أفريقيا.

كان من بين المجموعة التي عرض أمامها بن لادن هذا التبربر خالد المحضار ونواف الحازمي، وهما اثنان من خاطفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

الفصل الخامس

عملية التحدي ودليل مانشستر

تموز/يوليو ١٩٩٩. قال توم دونلون، وهو رئيس فريق I-40: «بقي أمامنا جزء هام من مهمتنا». كنا انتهينا من مراجعة بعض العمليات التي كنا نقوم بها. انتهينا من كل ما ورد في برنامج عملنا، ولهذا التفتّ نحو توم متلهفاً لما يُمكن أن يقوله.

نظر إليّ مع ابتسامة وتابع كلامه: «إنه عيد ميلاد علي». انطلق الفريق بترديد «عيد ميلاد سعيد». ظهرت بعد ذلك قطع الحلوى المثلجة من مخبئها تحت الطاولة.

كنا على وشك البدء بتناول الحلوى عندما سمعنا طرقاً على الباب. أدخل توم لانغ، وهو المشرف على فريق I-49، رأسه إلى الغرفة وقال بهدوء: «أريد التحدث معك يا علي». كنت أقسّم في ذلك الوقت وقتي ما بين الفريقين، وكان توم لانغ رئيسي في فريق I-49.

قال توم دونلون مع ابتسامة عريضة: «عيد ميلاد سعيد يا علي. يبدو أننا سنحتفل بعيدك من دونك».

تبعت توم لانغ إلى الممشى ثم سألته: «ماذا يجري؟»

«ظهرت أمامنا مشكلة كبيرة. علمنا أن البريطانيين على وشك إطلاق سراح

خالد الفواز، وعادل عبد الباري، وابراهيم عيداروس، وهم جميعاً من قادة القاعدة والجهاد الإسلامي في لندن».

«ماذا؟ لكن لماذا؟»

انتقل عبد الباري وعيداروس وهما من الإسلاميين المعروفين، وعضوان بارزان في مجلس شورى منظمة الجهاد الإسلامي إلى لندن في الفترة ما بين العامين ١٩٩٦ و١٩٩٧، وهو الأمر الذي يشير إلى الأهمية المتزايدة لهذه المدينة كقاعدة للحركة الإرهابية. كانت القاعدة والجهاد الإسلامي المصرية تسيران نحو الاندماج، كما أن الجماعتين كانتا تتشاركان بالأعضاء، والمكاتب، والمعدات. احتفظت الجماعتان مع ذلك بهيكليتي قيادة منفصلتين، كما أن مجلس شورى الجهاد الإسلامي المصرية لم يكن قد وافق حتى ذلك الحين على الاندماج، وهو الأمر الذي كان الظواهري يضغط كثيراً لإتمامه. عيّن الظواهري عبد الباري في شهر أيار/مايو من العام ١٩٩٦ لقيادة خلية لندن، إلا أن رتبته انخفضت إلى نائب القائد، وذلك بعد وصول عيداروس إلى لندن في شهر أيلول/سبتمبر من العام ١٩٩٧. شغل عيداروس في السابق منصب رئيس الجهاد الإسلامي المصرية في أوروبا، ومكث في باكو، أذربيجان، قبل انتقاله إلى لندن.

كان فواز يعيش في لندن بصفته منشقاً سعودياً، وذلك بعد أن طلب اللجوء السياسي في المملكة المتحدة.

قرر بن لادن أن لندن هي المكان المثالي للعمل الذي يقوده فواز، وذلك لأن كل مصادر الأخبار في العالم تقريباً ممثلة في تلك المدينة، كما أن السلطات البريطانية قررت إغماض عينيها عن أنشطة المتطرفين الإسلاميين طالما لا تشكل تهديداً واضحاً. أسفرت هذه السياسة غير الرسمية عن إطلاق مسؤولي الاستخبارات الفرنسية الذين شعروا بالإحباط لقب «لندنستان» على لندن، كما أن سلطات تطبيق القوانين ووكالات الاستخبارات الأخرى في العالم ألقت باللوم عليها. لم تحز هذه

السياسة رضا عدد كبير من الوكالات الأمنية في المملكة المتحدة، وعلى الأخص داخل دوائر سكوتلانديارد. كان فرع مكافحة الإرهاب التابع للشرطة، أي SO13، يراقب نشطاء القاعدة والجهاد الإسلامي المصرية ففهم التهديد الذي يمثلونه، لكن مخاوف سكوتلانديارد لم تؤخذ بعين الاعتبار.

لم يُقدم البريطانيون على إلقاء القبض على عبد الباري وعيداروس في العام ١٩٩٦ بالرغم من إلحاحنا الشديد عليهم في هذا الاتجاه. قيل لنا إنه بسبب أن الرجال لم يفعلوا شيئاً غير الاتصال بأشخاصٍ تعتبرهم الولايات المتحدة «يثيرون المتاعب»، ولأنهم غير مرتبطين مباشرة بهجماتٍ إرهابية، لذلك لم يكن هناك دليل يدعم إلقاء القبض عليهم في تلك المرحلة. ألقي القبض بعد ذلك عليهم بعد تفجير السفارات في شرق أفريقيا، وذلك استناداً إلى دليلٍ يشير إلى علاقتهم بالهجمات، وهو دليل قدّمه مكتب التحقيقات الاتحادي.

قال لي توم: «أبلَغَنا البريطانيون للتوّ بأن القاضي قال إنهم لا يمتلكون دليلاً يكفي لإبقائهم قيد الاعتقال بعد الآن».

«ماذا تعني؟ هناك أكوام من الأدلة ـ وهي كافية لإبقائهم مسجونين مدى الحياة. أمضيت الأشهر القليلة الماضية في فك رموز الوثائق، وإرسال الملفات إلى لندن مع الأدلة التي يستطيعون الاستفادة منها».

قال توم وهو يهز رأسه: «أعرف، أعرف. لا يكمن الخطأ من جهتنا، لكن الكرة أصبحت خارج ملعبنا، والآن يقول البريطانيون إن لدينا أربعاً وعشرين ساعة لإقامة دعوى [قضية] تبرر استمرار احتجازهم وإلا فإنهم سيطلقون سراحهم». شرح لي توم أن نائبَي المدعي العام الأميركي، كين كاراس وبات فيتزجيرالد يريدان الاجتماع بجاك كلونان، وهو عميل في مكتب التحقيقات الاتحادية، ومعي في مكاتب المنطقة الجنوبية Southern District من أجل التعاون في تحضير الشكوى التي ستقدم في المملكة المتحدة والتي تطلب استرداد الرجال الثلاثة.

«فهمت. إذاً يتوجب علينا التأكد من إلقاء القبض عليهم مجدداً استناداً إلى دليلٍ جديد، واستخدام ذلك الدليل في دعوى الاسترداد».

«لا أكترث كيف تعالج الأمر طالما ظلّوا في السجن، لكنهم رجال خطيرون ولا يُمكن إطلاق سراحهم».

كان واقع أن أيّ شخصٍ يريد مقابلة بن لادن يتمكن من ذلك عن طريق فواز، يُعتبر من الأسرار الشائعة. يُذكر أنه عندما تمكن بيتر بيرغن وبيتر بارنيت، وهما من محطة سي. أن. أن من مقابلة بن لادن فإنهما فعلا ذلك عن طريق فواز. وصفت الوثائق التي عثرنا عليها في وقتٍ لاحق في مكتب فواز، عملية إحضار الصحافيين من أجل مقابلة بن لادن. نُقل الرجلان إلى أفغانستان برفقة أبي مصعب السوري، وهو أحد مساعدي فواز، وهو رجلٌ سوري معروفٌ بين الجهاديين بأنه كاتب غزير الإنتاج ومخطط استراتيجي. يُذكر أن اسمه الحقيقي هو مصطفى ست مريم. سلّم أبو مصعب الرجلين في أفغانستان إلى سيف العدل، وهو عضو في اللجنة العسكرية للقاعدة. أجرى سيف العدل سلسلة من إجراءات التفتيش بواسطة جهازٍ يدوي كاشفٍ للمعادن للتأكد من عدم حملهما للأسلحة، أو أي نوع من أنواع أجهزة التتبع. كشفت مذكرات أبي مصعب عن أن الجهاز الكاشف كانَ معطلاً، لكن سيف العدل اعتبر أنه من المهمّ جعل فريق سي. إن. إن يعتقد بأنه يعمل بالفعل. تبادل سيف العدل، وبن لادن، وأعضاء آخرون من القاعدة النكات لأنهم تمكنوا من خداع بيرغين وآرنيت.

سجلّت المذكرات أن أبا مصعب طلب من بن لادن تفاصيل عمليات محددة، وأن بن لادن لم يتجاوب مع هذا الطلب. قال بن لادن: «لا يمكنني إطلاعك على التفاصيل لأنك في عمق العدو». غادر أبو مصعب أوروبا في وقتٍ لاحق وقفل عائداً إلى أفغانستان.

قام جون بالسفر إلى لندن للقاء فواز بدوره عندما أراد مقابلة بن لادن في

العام ١٩٩٨، وكان ذلك قبل شهرين تقريباً من تفجير السفارتين في شرق أفريقيا. ساعد فواز وأحد مساعديه فريق آي. بي. سي على السفر إلى إسلام أباد ومنها إلى أفغانستان حيث كان بن لادن في انتظارهم. يُذكر كذلك أن بن لادن اعتاد على إرسال الخطابات الشاجبة للعائلة السعودية المالكة من مكتب فواز في لندن، وهي الخطابات التي أدان فيها العائلة المالكة لأنها سمحت للجنود الأميركيين بدخول شبه الجزيرة العربية. استهدفت هذه التصريحات اللاذعة الشيخ بن باز (عبد العزيز بن باز)، وهو الرئيس الرسمي لكل رجال الدين السعوديين. شجب بن لادن على وجه الخصوص الفتوى التي أصدرها بن باز في العام ١٩٩٠، والتي حددت بأنه يجب السماح للجنود الأجانب بدخول المملكة.

نشرت صحيفة الحياة اليومية، وهي صحيفة عربية تملكها السعودية، وتوزّع في مختلف أنحاء العالم رسالة من الجهاد الإسلامي المصرية والظواهري بتاريخ ٦ آب/ أغسطس من العام ١٩٩٨. جاء في هذه الرسالة: «يهمنا أن نبلغ الأميركان باختصار أن رسالتهم وصلت وإعداد الرد الذي نرجو أن يقرأوه بعناية جارٍ لأننا سنكتبه بعون اللَّه باللغة التي يفهمونها». وقع الهجوم على السفارتين في شرق أفريقيا في اليوم التالي.

أشار الظواهري في رسالته إلى غارة حدثت في ألبانيا قبل شهرٍ من الزمن، والتي تعاونت فيها السلطات الألبانية مع الولايات المتحدة في إلقاء القبض على أفراد إحدى خلايا الجهاد الإسلامي المصرية. حدثت الغارة في أعقاب تقارير استخباراتية قالت إن تلك الخلية كانت تخطط لهجوم على المصالح الأميركية في ألبانيا. سُلّم أعضاء الخلية إلى السلطات المصرية، وذلك لأنهم كانوا مطلوبين في مصر بسبب تورطهم في سلسلة من الهجمات الإرهابية، كما حوكموا مع آخرين ألقي القبض عليهم في أمكنة أخرى. (لكن آخرين – مثل عيداروس وعبد الباري – حوكموا غيابياً). أطلق على هذه القضية اسم العائدين من ألبانيا، وذلك لأن تلك البلاد هي التي عاد منها عدد كبير من الموقوفين.

تحولت ألبانيا إلى موقعٍ مفضّل لمنظمة الجهاد الإسلامي والإرهابيين الإسلاميين الآخرين، وذلك لأن الفوضى التي تلت سقوط النظام الشيوعي – والحرب البلقانية التي تلت ذلك السقوط في العام ١٩٩١ – أدت إلى ظهور ظروفٍ مثالية لتلك العمليات. استغلت بعض المنظمات الإسلامية الشرعية وبعض المنظمات غير الحكومية الفوضى التي عمّت البلاد لفتح مكاتب لها لمساعدة السكان المحليين، كما تمكن نشطاء الجهاد الإسلامية من التظاهر بأنهم جزء من تلك العملية.

كشفت التحقيقات التي أجريناها حول تفجيرات السفارتين قي شرق أفريقيا أدلة كثيرة تربط فواز وعبد الباري، وعيداروس مع تلك الهجمات. كان فواز هو الذي اشترى الهاتف الموصول بالأقمار الصناعية لبن لادن والذي استخدمه هذا الأخير للاتصال بالشبكة المسؤولة عن الهجوم، وكذلك للاتصال بأعضاء القاعدة الآخرين المنتشرين في مختلف أنحاء العالم، كما تبيّن أن فواز كان أول رئيس لخلية كينيا قبل نقله إلى لندن.

أُرسل عملاء مكتب التحقيقات الاتحادي إلى لندن لمناوبة عمل تبلغ مدتها ثلاثين يوماً للعمل مع البريطانيين في هذه القضية التي أطلق عليها سكوتلاند يارد اسم عملية التحدي. طلب جون أونيل أن يُرسل الدليل إلى نيويورك كي أطّلع عليه أنا وباقي العملاء في I-49 ومن أجل تحليله. طلب من بات دامورو وجون تحمّل مسؤولية الإشراف على تقييم الدليل وإرسال التقارير إلى لندن، وذلك لأن معرفتي بالقاعدة والتي ترافقت مع إتقاني اللغة العربية، كانا يعنيان توفير انتظار أسابيع عديدة لإكمال ترجمة تلك الوثائق وتحليلها.

عثرنا في الحاسوب الذي وجدناه في منزل فواز على ملفٍ بعنوان «الرسالة»، وهو ملفّ أُنشئ في ٣١ تموز/يوليو من العام ١٩٩٦. كان ذلك نسخة مبكرة لإعلان الجهاد الذي أصدره بن لادن في العام ١٩٩٦، وهو التصريح الذي أرسله فواز إلى وسائل الإعلام في ٢٣ آب/أغسطس من العام ١٩٩٦. أرسل فواز كذلك مذكرة إلى وسائل الإعلام تجزم بأصالة تحرير الفتوى.

أما تسجيلاته الهاتفية فقد كشفت أنه تلقى في ٢٢ شباط/فبراير من العام ١٩٩٨ مكالمات هاتفية من هاتف بن لادن الموصول مع الأقمار الصناعية، وأنه اتصل بمكاتب صحيفة القدس العربي التي تتخذ من لندن مقراً لها. نشرت القدس في اليوم التالي فتوى باسم «الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين» وتدعو المسلمين إلى قتل الأميركيين، وكانت هذه الفتوى بتوقيع بن لادن والظواهري.

أما الرسالة المؤرخة ٧ أيار/مايو ١٩٩٨، فإن أبا حفص وهو ثاني قائدٍ عسكري في القاعدة، أبلغ فيها فواز بفتوى تدعم بن لادن وأصدرها اتحاد العلماء في أفغانستان. أعلن العلماء في هذه الفتوى الجهاد ضد الولايات المتحدة. تحدث أبو حفص في رسالته عن توصيات إلى فواز بشأن الموقع المناسب لنشر الفتوى. نشر فواز الفتوى في صحيفة القدس في عددها الصادر في يوم ١٤ أيار/مايو.

تمكن فريقنا كذلك من كشف الدليل الذي يبرز الدور الذي أدّاهُ عبد الباري في الشبكة الإرهابية، والذي تضمن نسخة عن التهديد الذي أصدره الظواهري في ٦ آب/أغسطس من العام ١٩٩٨ بالانتقام للذين أُلقي القبض عليهم في ألبانيا، وهو التهديد الذي تسلّمه عبد الباري قبل نشره. جرت مراسلات كذلك ما بين عيداروس والظواهري تربط كلا الرجلين بالقاعدة. وفي ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر من العام ١٩٩٧، على سبيل المثال، طلب عيداروس من الظواهري الاتصال بهاتف عبد الباري الخلوي. أُجريت في اليوم التالي مكالمات عدة بالرقم ذاته من هاتف بن لادن الموصول مع الأقمار الصناعية.

عُثر كذلك على رسالة بتاريخ حزيران/يونيو من العام ١٩٩٨ ذكر فيها الظواهري أن عيداروس كان قائد منظمة الجهاد الإسلامي المصرية في لندن، وكذلك على رسالة مؤرخة في تموز/يوليو من العام ١٩٩٨ يؤكد فيها عبد الباري التزامه بالجهاد الإسلامي المصرية كما قَبِل بتنفيذ الأوامر. فهمنا كذلك أنه عبّر في البداية عن عدم ارتياحه لمجيء عيداروس إلى لندن ليحل مكانه على رأس خلية لندن.

أما نحن في نيويورك فقد ركّزنا على تصنيف الأدلة ومتابعة الخيوط التي ترشدنا إلى أمكنةٍ أخرى، أي إلى ألبانيا، والسودان، وأذربيجان، وأماكن أخرى. لم يبلغنا الجانب البريطاني بأي مهلٍ أخيرة، ولذا تكوّن لدينا انطباع بأن البريطانيين سوف يستمرون في احتجاز الرجلين، وذلك لأن الدليل دامغ جداً، إلى أن نصبح جاهزين لتكوين دعوى جرمية.

شعرت بالصدمة عندما أبلغني توم بأن أفراد خلية لندن على وشك أن يُطلق سراحهم. لم يفلح برنامج المناوبة لثلاثين يوماً في تغيير الوضع في لندن. أمضى العملاء معظم أوقاتهم في الإسراع بالتحقيقات بدلاً من دفع القضية قُدُماً.

أدركنا عندما وصلتنا رسالة تفيد بأن الرجال سوف يُطلق سراحهم بأنه ليس بوسعنا السماح بحدوث ذلك: إذا أُطلق سراح الرجال فسوف يسافرون على متن أول طائرة إلى باكستان وسوف يتابعون السفر من هناك إلى أفغانستان، كما سوف يمضي وقت طويل قبل أن نراهم مجدداً، ويُحتمل أننا لن نراهم على الإطلاق.

أما نحن الخمسة في نيويورك: أنا وبات، وكين، ودان، وجاك، فقد أمضينا الليلة، أي ليلة عيد ميلادي في مكتب بات ونحن نتفحص الأدلة. إن استخدام العملاء أسماءً وهمية متعددة زاد من تعقيد عملية تحضير الدعوى، كما تعيّن علينا إثبات هويتهم في كل مرة. وجدنا كذلك في صندوق سيارة عيداروس، والذي بدا أنه يُستخدم كنوع من أنواع خزانة الملفات للوثائق العائدة للجهاد الإسلامي المصرية، وثائق تساعد على الإدانة بأسماء عباس وداود، وهي الأسماء العائدة إلى عبد الباري وعيداروس على التوالي. أردنا إثبات هذه المعلومات فتفحصنا الدفاتر التي تحتوي على أرقام هواتف الجماعة وقمنا بمقابلة الأسماء والألقاب، والأرقام. إن إحدى أبرز المزايا التي يتمتع بها بات هي ذاكرته المذهلة والتي تكاد تلتقط كل ما تراه. افتقدنا في إحدى المراحل جزءاً محدداً من أحد الأدلة، فتذكر بات أن هذا الجزء قد ورد في محاكمة الشيخ الضرير. توجه بعد ذلك إلى منطقة التخزين في المنطقة الجنوبية Southern District، وحدد مكان الشريط الذي يحتوي على الشهادة التي نريدها، وهكذا تمكنا من إقامة الرابط المطلوب.

انتهينا مع نهاية الليل من تجميع أجزاء الشكوى وأرسلناها إلى لندن. قُبلت الدعوى ووافق البريطانيون على توقيف فواز، وعبد الباري، وعيداروس. عيّنني بات دامورو مسؤولاً عن قضية عملية التحدي وطلب مني التوجه إلى لندن برفقة كين كاراس، وذلك من أجل التأكد من عدم وجود أخطاء أخرى وأننا سوف نكسب المعركة القانونية الآتية من أجل استرداد الرجال الثلاثة إلى الولايات المتحدة تمهيداً لمحاكمتهم.

تحولت الفترة التي قضيناها في لندن إلى نسخة مطولة من تلك الليلة التي أمضيناها بطولها في المنطقة الجنوبية: عملت أنا وكين مع سكوتلاند يارد وتفحصنا آلاف الوثائق، وربطنا ما بين الأسماء، والألقاب، والأنشطة الإرهابية، وذلك بهدف تجميع أجزاء الدعوى ضد الرجال الثلاثة. جهِد كين في البداية للعثور على محامٍ يمثلنا في إحدى محاكم إنجلترا. جاءتنا توصية بتوكيل إحدى المحاميات وكانت أول مرشحة قابلها كين. قالت له: «لا أريد إحراج نفسي بالالتزام بقضية خاسرة سلفاً». كان ذلك موقفاً سائداً، وهكذا تلقى ردوداً سلبية مراتٍ أخرى قبل أن نتمكن من تأمين محامٍ.

كان المحامي الذي اتفقنا معه في النهاية ماهراً في الوقوف أمام المحاكم، لكنه كان يفتقد إلى الخبرة اللازمة للتعامل مع قضايا الإرهاب، أو مع قضايا القاعدة. تعيّن علينا إطلاعه على كل ما يتعلق بالقاعدة والإرهاب انطلاقا من الصفر، حتى أننا درّبناه على لفظ أسماء النشطاء. تطلع إلينا في أول يومٍ لنا في المحكمة وابتسم ابتسامة عريضة بعد نجاحه في لفظ كلمة «ظواهري».

وقفت ضدنا في تلك المحاكمة إحدى المحاميات التي تخصّصت في تمثيل إرهابيي الجيش الجمهوري الإيرلندي، والتي كانت معروفة بعدائها للسلطات البريطانية، وهكذا كسبت لنفسها لقب «الساحرة الشريرة». قررت هذه المحامية الدفاع عن أعضاء القاعدة ومنظمة الجهاد الإسلامي المصرية. سرت مع كين في أحد أيام المحاكمة من خلال أحد أبواب قاعة المحكمة، وكان أحد رجال سكوتلاند

يارد معنا. صودف في ذلك الوقت دخول محامية الدفاع، فما كان من كين، وهو الرجل المحترم، إلا أن تنحى جانباً وأمسك الباب مفتوحاً كي تتمكن من الدخول. سألته وهي تحملق فيه: «ألم تُلحق ما يكفي من الضرر؟» وما لبثت أن دخلت مسرعة إلى قاعة المحكمة. تبادلنا النظرات أنا وكين مصدومَين، لكن رجل التحري التابع لسكوتلاند، هزّ كتفيه وقال: «هل عرفتما مَن ستتعامل معه؟»

كسبنا الدعوى على مستوى محكمة الابتداء. استأنفت محامية الدفاع الحكم في محكمة العدل الملكية، وكسبنا الدعوى مجدداً. استأنفت المحامية الحكم بعد ذلك في مجلس اللوردات – وهو أعلى محكمة في بريطانيا – لكننا هزمناها هناك كذلك. اعتبر كثيرون في الحكومة البريطانية، والصحافة، والدوائر الجامعية أن الحكم كان مفاجأة كبيرة بالنسبة إليهم. يبدو أن جميع هؤلاء قد قللوا من أهمية الأدلة التي تمكنا من جمعها.

أردنا الاحتفال بالنصر الذي أحرزناه في مجلس اللوردات، لذلك توجهت أنا وكين وجو هاميل لتناول طعام العشاء مع مجموعة من SO13، وكان من بين هذه المجموعة رئيس الفرع ونائبه آلان فراي، وجون بان، وعدد قليل من زملائهما. كان جو هاميل صديقاً من I-40 يُطلَق عليه في أوساط المكتب «جووي حماس»، وذلك بسبب العمل الذي قام به في الإطباق على مجموعة إرهابية فلسطينية.

استثمر آلان وجون الوقت والموارد ومهارتهما في دعمنا في تحقيقاتنا التي أجريناها وخلال المحاكمة، وفي سبيل إقناع عناصر معينة في الحكومة البريطانية الداعمة لسياسة لندنستان كي يتحولوا إلى دعمنا. تلقى مسؤولو سكوتلاند يارد النقد في دوائر عدة بسبب هدر أوقاتهم من أجل «قضية خاسرة»، وهكذا جاء فوزنا بالحكم بمثابة انتقام كبير لهم، وشهادة على المواهب التي يتمتعون بها. لم نكن لنتمكن من إحراز ذلك النصر لولا خبرة شركائنا في بريطانيا وجهودهم ودعمهم لنا.

بدأت الليلة في مطعم شفردس [الراعي] وهو مطعم يرتاده أعضاء البرلمان، ويمتلكه مايكل كاين، وهو الذي فاز لتوه بجائزة أوسكار كأفضل ممثل مساند. تابعنا احتفالنا في مكتب جون بان. شعرنا بأننا نستأهل هذا الاحتفال بعد أشهرٍ عدة من العمل الشاق من دون أن ننال قسطاً كافياً من النوم، وهكذا بقينا في المطعم حتى ساعات الصباح الأولى.

قال لي جون أونيل بعد أيام قليلة: «حمداً لله على سلامتك يا علي»، وذلك بعد أن جلسنا لتونا لتناول العشاء فيٍ مطعم سيتي.

«شكراً سيدي. كان الأمر صعباً، لكنه يستأهل كل الجهود التي بذلناها، وذلك بعد فوزنا في هذه القضية، لكن كذلك بسبب ما كسبته من معلومات عن القاعدة وشبكتها العالمية».

قال جون: «جيد جداً. تمثّل القاعدة واحداً من أعظم التهديدات التي سوف نواجهها في المستقبل، وذلك بالرغم من واقع أن معظم المسؤولين في الحكومة الأميركية لا يرون هذا التهديد أو لا يريدون الاعتراف به. إنني مسرور جداً لأنك تراكم مهاراتك التي سوف نحتاجها في معركتنا الطويلة المقبلة».

أعطتني آلاف الوثائق، والرسائل، ومقاطع المكالمات الهاتفية التي قمنا بتحليلها لتكوين القضية ضد خلية لندن إدراكاً عميقاً لكيفية عمل القاعدة، ومنظمة الجهاد الإسلامي المصرية، ولحركياتها الداخلية. تبيّن لي لاحقاً أن هذا الإدراك قد قدّم لنا مساعدةً لا تقدّر بثمن في تحقيقاتنا التي أجريناها حول هذه الجماعة، وكذلك عندما أجرينا مقابلاتنا مع أعضائها، وخلال استجواباتنا لهم.

علمنا في هذا السياق أنه توجد معارضة من أعضاء مجلس الشورى لمطلب الظواهري بالاندماج مع القاعدة. أراد أولئك الأعضاء إبقاء منظمة الجهاد المصرية على هدفها الأساسي المتمثل في قلبِ النظام المصري، وعدم تبني قضية بن لادن للجهاد في العالم. كتب أحد أعضاء المجلس، وهو هاني السباعي، على سبيل المثال،

رسالةً إلى الظواهري يحذره فيها من أنه إذا ما انضمت الجهاد الإسلامي المصرية إلى القاعدة، وتسلمت تمويلها من بن لادن، فإنه سوف يسيطر عليها في النهاية. كتب السباعي في نهايتها ما مفاده أن من بيده القوت بيده القرار.

كشفت تحقيقاتنا كذلك عن خيوطٍ تشير إلى عمليات منظمة الجهاد الإسلامي والقاعدة في بلدانٍ أخرى. علمنا كذلك أن رئيس مجلس الشورى في منظمة الجهاد الإسلامي المصرية يتخذ من اليمن مقراً له، وأنه توجد ثلاث خلايا للمنظمة في إيطاليا، وألبانيا، وأذربيجان. (فصّلت إحدى الرسائل التي كشفناها محاولة قام بها عيداروس لشراء مزرعة في أذربيجان، وهي مزرعة تحتوي على مختبرٍ جيدٍ للأسلحة). سافرت إلى لندن وأنا أعتقد أنه توجد أمامنا قضية واحدة لحلها، لكنني عدت إلى نيويورك محملاً بخيوطٍ جديدة يتعيّن عليّ ملاحقتها.

ناقشت أنا وجون خلال العشاء طبيعة العمل مع سكوتلاند يارد. كان جون على علم بترتيبات قوى تطبيق القانون البريطانية منذ الوقت الذي أمضاه في لندن. عدت من لندن بانطباع جيد، أي مثل ما حدث مع جون. تكونت لديّ علاقة وثيقة برجال SO13 كما أنني استمتعت كثيراً بالعمل إلى جانبهم.

كان أحد التحديات التي تواجهنا حين نعمل في بلدان أجنبية يتمثل في التعامل مع مسؤولين محليين تختلف طرقهم في تجميع الأدلة واجراء الاستجوابات عن الطرق التي نعتمدها، وهو الأمر الذي يهدد بعدم قبول الأدلة والاعترافات في المحاكم الأميركية. تحتاج الأدلة إلى تسجيلها كما هي فور الكشف عنها، والإبقاء على حمايتها. يعني ذلك أنه يجب إثبات أن الدليل كان بعهدة شخصٍ موثوقٍ به، ومعروف منذ وقت الكشف عنه، وذلك مع وجود أحد أفراد وكالات تطبيق القانون. يتعيّن تحضير هؤلاء الأفراد لتقديم شهاداتهم في المحكمة – يعني ذلك أنه لا يمكنهم أن يكونوا عملاء سريين – كما يجب إثبات بأنه لم يكن هناك فرصة لإفساد الدليل. كانت هذه المتطلبات تماثل تلك الموجودة في المملكة المتحدة، وهكذا لم تواجهنا أيّ مشاكل.

لاحظت عندما كنا في لندن بأن سكوتلاند يارد، وبالرغم من تركيزها على تتبع الإرهابيين وإلقاء القبض عليهم وإدانتهم، تعاني من مشاكل مع MI5، وهي الاستخبارات الداخلية البريطانية. رتّب لنا جو هاميل في أحد الأيام، وبعد انتهائنا بنجاح من إغلاق ملف عملية التحدي، لقاءً أنا وكين مع MI5. أبلغنا جو بأن MI5 تهتم بشكل خاص بشبكة القاعدة والجهاد الإسلامي المصرية في المملكة المتحدة وكيفية ارتباطها بخلايا أخرى في أنحاء العالم. رافقنا ضباطٌ من مقر إدارة SO13. إلى مقر إدارة MI5، وهكذا أعطيناهم ملخصاً وافياً. أخبرني أحد مسؤولي MI5 خلال جلسة الأسئلة والإجابات التي تبعت ذلك: «إن ما تحدثتما عنه حول ما يجري في المملكة المتحدة مفصل جداً، ومعظمه جديد علينا. كيف علمتما بكل هذا؟» أوحى سؤاله، وكذلك نبرته بأنه يعتقد أننا نجري عملياتنا الخاصة بنا في عقر دارهم، ومن دون التعاون مع السلطات البريطانية.

قلت له: «جاءت معظم هذه المعلومات من العمل العظيم الذي تقوم به SO13».

لم يتمكن ضباط SO13 في الغرفة من إخفاء ابتساماتهم. أبلغَنا هؤلاء الضباط بعد مغادرتنا للمكان بأن كل المعلومات الاستخباراتية التي طلعت بها عملية التحدي قد أُعطيت إلى MI5، لكنهم لم يكترثوا حتى بالتطلع إليها. افترضت MI5 أن مصدر المعلومات هو إحدى وكالات تطبيق القانون، ولهذا فإنها لا تستأهل التحليل.

قال جون بعد أن فصّلت له ما دار من حديث: «هناك مشكلة ما بين وكالات تطبيق القانون وبين وكالات الاستخبارات في العالم، وإلى درجات متفاوتة، كما أنني أخشى أنها مشكلة متزايدة هنا في الولايات المتحدة. سبق لي أن حذرت من الأمر، لكنني لست متأكداً من أنهم يكترثون».

قلت: «إنه موقف ينذر بالخطر. ألا يدركون أننا في الجهة ذاتها من الخطر؟»

هز جون رأسه وقال: «لا يفهم بعض الأشخاص هذه النقطة».

مررت بتجربة مماثلة بعد أشهرٍ قليلة مع وكالة الاستخبارات المركزية، وذلك

بعد أن تسلمت شكوى منها تفيد بأننا لم نسلمهم المعلومات الاستخبارية المتعلقة ببرنامج أسلحة الدمار الشامل للقاعدة. كان ردنا أن كل هذه المعلومات كانت من ضمن ملفات جمال الفضل وعملية التحدي المتعلقة بمسألة [مهزلة] اليورانيوم، وأن تلك الملفات هي بحوزتهم. لم يكن هناك أي برنامج حقيقي لأسلحة الدمار الشامل.

كنت أتناول طعام الغداء على طاولتي ، وذلك بعد أسابيع قليلة من عودتي من لندن في العام ١٩٩٩، وما لبث توم لانغ الذي يشرف على I-49 أن جاء وجلس بالقرب مني. قال لي توم: «أريدك يا علي أن تذهب إلى ألبانيا. تقوم وكالة الاستخبارات المركزية ببعض العمليات هناك، وهم يحتاجون إلى مساعدتك، وذلك نظراً لخبرتك في مجال شبكات القاعدة والجهاد الإسلامي الأوروبية».

«ومتى يتعين علي المغادرة؟»

ستغادر في غضون ساعات قليلة».

«حمداً لله لأنني رجلٌ عازب. سأنصرف لتوضيب أغراضي».

زادت تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا من تركيز الولايات المتحدة على ألبانيا. استنتجنا في البداية من التحذير الذي ورد في رسالة جماعة الظواهري والتي ظهرت في صحيفة الحياة، أن هذه التفجيرات قد يكون لها ما يربطها بألبانيا. وردت كذلك تقارير منفصلة تفيد باحتمال وجود خطط تستهدف المصالح الأميركية في ألبانيا، وهكذا حافظنا على تركيزنا المتجدد على هذه البلاد. وُضع أعضاء الجهاد الإسلامي المصرية المشتبه بهم في ألبانيا تحت المراقبة. شوهد أشرف، وهو رئيس خلية الجهاد الإسلامي المصرية في ألبانيا، ذات يوم وهو يحمل رسالة. اعتقدت الأجهزة الأمنية الألبانية أن هذه الرسالة تحتوي على معلومات استخبارية فحاولت اعتقاله. حاول أشرف الفرار ورمى رسالته بين الأعشاب. أوقف أشرف بعد ذلك واستعيدت الرسالة التي كانت موجهة إلى عيداروس بصفته رئيس منظمة الجهاد الإسلامي المصرية في لندن، وهنأه فيها بـ«أعراس» الجماعة. كانت هذه العبارة

مستخدمة في أوساط القاعدة ومنظمة الجهاد الإسلامي المصرية لوصف المهاجمين الانتحاريين – والذين يُعتقد بأنهم في الجنة ويتزوجون من الحور العين. مضت الرسالة تقول إن التحضيرات جارية لـ «عرسنا» هنا. تعززت الإجراءات الأمنية إثر ذلك حول كل المؤسسات الأميركية في ألبانيا.

لم أعثر على رحلة مباشرة من نيويورك إلى ألبانيا، وهكذا كان الخيار الأفضل أمامي: السفر بطائرة تابعة لشركة الخطوط النمساوية من نيويورك إلى فيينا، ومن هناك إلى تيرانا، العاصمة الألبانية. كان المطار في ألبانيا بدائياً، ويتألف فقط من منزلٍ ومدرجٍ بدائي يصلح فقط للهبوط في ظروف الطقس الجيّد. حذّرنا قبطان الطائرة فور إقلاعنا من فيينا بالقول: «لن نتمكن من الهبوط في تيرانا إذا كان الطقس سيئاً، لكن الأخبار الطيبة هي أن الطقس جيد... حتى الآن».

أبلغني توم لانغ قبل وقتٍ قصير من مغادرتي نيويورك: «أريدك أن تبقى قرب الطائرة فور هبوطها في تيرانا. لا تغادر مكانك مهما فعلت، ولا تسلّم جواز سفرك إلى أي شخص. انتظر قرب الطائرة. سيأتي رجال وكالة الاستخبارات المركزية كي يقلوك من المطار».

سار المسافرون الآخرون نحو المنزل المجاور للمدرج، وكان المنزل بمثابة قاعة الجمارك والأمتعة. لكني بقيت قرب الطائرة. أبلغتني إحدى المضيفات: «اعذرني أيها السيّد، لكن يتعين عليك التوجه إلى قاعة الجمارك». قلت لها: «لا عليكِ. إنني أنتظر شخصاً ما هنا». هزّت كتفيها وابتعدت عني. اقترب مني بعض موظفي الأمن الألبانيين. كانوا يرتدون ملابس مدنية، لكنهم كانوا يحملون أسلحة وأجهزة تخابر لاسلكية.

قال لي أحد الموظفين: «توجّه إلى قاعة الجمارك من فضلك. لا يمكنك الوقوف هنا».

«أنا آسف، لكن قيل لي أن أنتظر هنا».

«مَن أنت؟»

«إنني أنتظر شخصاً ليقلّني من طرف [redacted]». (لكني لم أحدد أي [redacted]). تشاور رجال الأمن في ما بينهم باللغة الألبانية، وتفحصوني ثانية، ثم ابتعدوا عني. بقيت واقفاً طوال الدقائق العشر التالية، وقبعت منتظراً، وكان رفيقي الوحيد كلب شارد راح يجول من حولي محدقاً بي.

لمحت، فجأة، عربتين رباعيتي الدفع تسرعان من المدرج وتتوجهان نحوي. توقفت العربتان بقربي على نحوٍ مفاجئ، وما لبث الباب أن انفتح. رأيت عدة رجال داخل كل عربة منهما. صاح بي صوت أميركي من داخل العربة الأكثر قرباً مني قائلاً: «إقفز إلى داخل العربة».

لم أكن على استعداد للدخول إلى أي عربةٍ كان في ألبانيا، ولهذا تطلعت إلى داخل العربة وسألت: «من أنت؟»

لاحظت أن العربتين أميركيّتا الصنع، وكانتا من النوع الذي تستخدمه الحكومة الأميركية، كما بدا لي أن الرجال داخل العربتين كانوا أميركيين. أجاب أحد الرجال: «إننا الأشخاص الذين تنتظرهم، وإذا كنتَ علي صوفان فإننا هنا كي نقلّك من المطار».

قلت وأنا أصعد إلى العربة: «هذا يكفيني».

سألت عندما بدأت العربة بالتحرك: «هل يُفترض بي أن أفعل شيئاً في الجمارك؟»

أجاب الرجل بابتسامة عريضة: «ليس هنا. أهلاً بك في ألبانيا».

أخبرني أحد الزملاء من وكالة الاستخبارات المركزية، وبينما كان يسير بي بالسيارة في ذلك الجزء من تيرانا حيث كانت توجد البعثات الدبلوماسية: «تبدو المنطقة بأكملها وكأنها مدينة أشباح. تمّ إخلاء مجمعاتٍ بأكملها، ولا يرغب أحد

في الوجود هنا في هذه الأيام... لكنها ليست المكان الذي يرغب الناس بالمجيء إليه على أي حال».

سألته: «إذاً ما هو مدى سوء الأحوال هنا؟»

قال لي مشيراً إلى الحرب البلقانية في أوائل سنوات التسعينيات من القرن الماضي: «ليست سيئة كما كانت في الماضي، لكن ما تزال بقايا الجماعات التي لا تريد الخير أبداً موجودة، كما أن الإيرانيين يفعلون ما بوسعهم لإبقاء هذه المنطقة غير مستقرة. يمكنك، وبسهولة، شراء MK-47 (*) مستعملة مقابل عشرة دولارات».

«سمعت أنه توجد مشاكل مع عصابات روسية وإجرامية».

«تمتلك المافيا الروسية نفوذاً كبيراً هنا، كما أن العصابات الإجرامية الأخرى تستغل حالة الفوضى الموجودة هنا».

كانت السفارة الأميركية في ألبانيا مقفلة بعد الكشف عن خطة أعدتها الجهاد الإسلامي المصرية لتفجير المبنى، كما أُعيد إلى الولايات المتحدة كل الموظفين غير الضروريين. إن السفارة الآن مهجورة ما عدا السفير الأميركي، والرجال الأمنيين، وبعض الموظفين الآخرين. نقلت وكالة الاستخبارات المركزية [redacted] مقرها إلى موقع سري وبعيد. أتممنا إجراءات الوصول معهم، كما أخبرني الرئيس [redacted] عن العمليات التي تقوم بها المؤسسة والمهمات التي يحتاجون إلى مساعدتي فيها.

سألت: «من يوجد هنا غيرك للعمل على هذا؟»

«يوجد عدد قليل منا هنا [redacted]، وهكذا فإننا ننتشر بعيدين بعضنا عن بعض. يأتي آخرون لمساعدتنا، لكنهم يمكثون لفتراتٍ قصيرة جداً، وهكذا فإننا نفتقد إلى الاستمرارية التي أريدها».

دخلنا جميعاً إلى فندقٍ محلي، واخترنا غرفا في الطبقة ذاتها. صعدت إلى غرفتي حوالى منتصف الليل، وكنت منهكاً من السفر. استسلمت للنوم ما إن ألقيت

(*) رشاش كلاشنكوف. (المترجم)

رأسي على الوسادة. أيقظني صوت إطلاق الرصاص حوالى الساعة ٣:٠٠ فجراً. ميّزت صوت نيران AK-47، وهكذا نزلت عن سريري وتناولت مسدسي الذي كان على الطاولة بقربي. زحفت على الأرض، وحاولت تمييز الجهة التي تنطلق منها النيران.

فتحت باب غرفتي وتوجهت نحو الممشى. رأيت موظفين أميركيين آخرين متجمعين. قلت من دون أن أتوجه بالسؤال إلى شخصٍ بعينه: «ماذا يجري؟»

قال لي أحد الموظفين: «لا تقلق». استنتجت من نبرته أنه أمضى في هذه البلاد مدة من الزمن. «القصر الرئاسي قريب من هنا، والكلاب الشاردة تجول في مجموعات على الأرض هناك. يقوم الحراس بإطلاق النار من رشاشاتهم لإخافة الكلاب وإبعادها. يمكنك أن تعود إلى النوم».

أمضيت الأسابيع القليلة التالية وأنا أعمل مع موظفين في وكالة الاستخبارات المركزية [redacted] على التعرف إلى الإرهابيين. وتجميع المعلومات الاستخبارية وتعطيل التهديدات. عاملني [redacted] ورجاله وكأنني أحد أفراد فريقهم، ونشأت بيننا علاقة متينة. ارتحت لكوننا مجموعة صغيرة، وهو الأمر الذي يوثق العلاقة في ما بيننا. يُضاف إلى ذلك أن العمل تحت تهديد خطرٍ ما يقرّب ما بين الناس. كنا نعرف أن عملاء إيرانيين يراقبوننا، وكذلك أعضاء من القاعدة ومنظمة الجهاد الإسلامي المصرية ـ وتمتلك كل جهة من تلك الجهات سبباً لإخراجنا من البلاد. تعيّن علينا كذلك أن نكون يقظين والاعتماد على بعضنا للمساندة.

بدت أفضل الاحتياطات محبطة في بعض الأحيان، وذلك بسبب كوننا في ألبانيا، وهي التي كانت متخلفة جداً في تلك السنوات. خرجت ذات مساء لتناول الطعام مع موظفين اثنين من وكالة الاستخبارات المركزية، وكان كلاهما معيّنين مؤقتاً [redacted]. لكننا اكتشفنا عند عودتنا إلى سيارتنا أنها لا تعمل لأن البطارية نفذت من الشحن.

كان الوقت متأخراً، والتيار الكهربائي مقطوعاً، أما الحي فكان مهجوراً. كنا الزبائن الوحيدين في المطعم. لم يكنْ أمامنا أي خيار غير دفع السيارة بأيدينا في محاولة منا لتشغيلها من جديد. جلس أحدنا وراء عجلة القيادة، بينما قمت أن والشخص الآخر بدفع السيارة.

صاح بي الرجل الذي يدفع معي: «آه»، ثم اختفى عن ناظري. صحت منادياً اسمه، فسمعت رداً مخنوقاً: «إنني هنا على الأرض». سقط الرجل في حفرة غير مغطاة في الطريق. اندفعنا بالضحك بعد أن أدركنا أنه لم يحدث أي شيء يثير القلق، وساعدته مع رفيقي للخروج من الحفرة. تمكنا أخيراً من تشغيل السيارة، وعدنا بعد ذلك بعدة ساعات إلى الفندق، وكنا متعبين. غطانا التراب لكنا كنا سعداء لوصولنا بالسلامة.

[redacted]

رفض المدّعون نتيجة ذلك إقامة قضايا ضد عدد قليل من نشطاء منظمة الجهاد الإسلامي المصرية، وكان هاني السباعي من بينهم. يتابع السباعي حتى كتابة هذه الأسطر العيش حراً طليقاً بوصفه لاجئاً سياسياً في لندن. يدير السباعي هناك مؤسسة

إسلامية. لكن المصريين استخدموا الأدلة التي جمعناها ضده وحكموا عليه غيابياً بأنه عضو في مجلس شورى الجهاد الإسلامي المصرية، وأدانوه كذلك بالتورط في أعمالٍ إرهابية.

تمكّن عدد آخر من أعضاء منظمة الجهاد الإسلامي المصرية من الفرار من البلاد، ومن الخضوع للتحقيقات التي جرت في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا. اكتشفنا، على سبيل المثال، أن أحد النشطاء، والذي استخدم لقب عبد الرحمن المصري، والذي تربطه علاقات مع اليمن، قد تمكن من الفرار إلى إيطاليا حيث سكن مع شقيق زوجة السباعي في تورينو. ظننا في البداية، وبسبب لقبه، أنه قد يكون هو صانع القنابل أبا عبد الرحمن المهاجر، وأنه قد يكون ساعد في تجهيز القنابل التي انفجرت في العام ١٩٩٨. كنا على علم بأن المهاجر استخدم جواز سفرٍ يمنياً مزوّراً، وأنه مصري.

سافرت إلى إيطاليا برفقة عملاء آخرين من مكتب التحقيقات الاتحادي، ونائب المدعي العام الأميركي بات فيزجيرالد، وذلك من أجل التحقق ممّا إذا كان المهاجر وعبد الرحمن المصري هما بالفعل الشخص ذاته. لقينا في تورينو مساعدة من القسم الإيطالي للتحقيقات العامة والعمليات الخاصة DIGOS. كان ذلك الفريق برئاسة جيوسيب بترونزي وهو يعمل في قسم مكافحة الإرهاب. ألقت الشرطة الإيطالية القبض على أحد الأشخاص، لكن تبيّن بعد التحقيق معه أنه ليس المهاجر، لكنه ناشط ألباني آخر في منظمة الجهاد الإسلامي المصرية (لكنه يحمل اللقب ذاته). عثرنا في منزل ذلك الشخص على أسلحة ومجموعات من الشعر المستعار، وذلك بالإضافة إلى مراسلات بينه وبين هاني السباعي الذي يعمل في لندن، وحاول تجهيز جوازات سفرٍ مزورة. لم نعثر على المهاجر، لكننا نجحنا في إحباط خطة للجهاد الإسلامي المصرية في إيطاليا.

يكمن أحد التحديات التي يفرضها العمل مع الإيطاليين في اللغة. تمكنا أخيراً وبعد مضي فترة طويلة من الوقت من العمل مع ماسيمو دي بينيديتس، وهو أحد

موظفي DIGOS، والذي يُتقن التكلم بالإنجليزية بطلاقة (كان يُطلق عليه لقب «قيصر» ـ يتخذ جميع الموظفين الإيطاليين في القسم ما يسمونه «أسماء حربية»). أما عند وصولنا فلم يكن أحد من الموظفين يتكلم بالإنجليزية بطلاقة، كما أن أحداً منا لم يكن يتكلم بالإيطالية. أما ممثل مكتب التحقيقات الاتحادي الذي كان يجيد الإيطالية، وهو الذي كان يُفترض فيه الإشراف على هذه المهمة فقد كان خارج البلاد لدواعٍ شخصية. كنا نتواصل بواسطة مترجمة تتحدث بالإيطالية والعربية. كانت تترجم من الإيطالية إلى العربية، وبعد ذلك كنت أتولى أنا الترجمة لزملائي من العربية إلى الإنجليزية.

لاحظت أن بيترونزي كان يداوم على الإشارة بإنجليزية ركيكة إلى «لويس» خلال أحد أحاديثنا.

سألته: «ماذا تعني؟»

قال وهو يشير إلى أحد المشتبه بهم: «لويس، لويس». لم يكن اسم المشتبه لويس ولذلك اعتقدت أنه لربما يشير إلى شخص آخر لا نعرف أمره. أما إذا لم يكن الأمر كذلك فقد تساءلت مازحاً عما إذا كان يتحدث عن لويس فري Louis Free، وهو مدير مكتب التحقيقات الاتحادي.

اكتشفت في النهاية، وعبر المترجم أنه لم يكن يتلفظ باسم لويس، لكن لوي، أي «هو». تحولت هذه الحادثة إلى نكتة مستمرة بين بيترونزي وبيني، وهو كان يرى، لحسن الحظ، الجانب المضحك من كل شيء. توطدت أواصر الصداقة بيني وبين بيترونزي وقيصر وأفراد فريقهم، وهكذا أسفرت مساعدتهم وضيافتهم عن إنشاء رابطة دائمة بيننا.

انهمكنا في ملاحقة الخيوط التي توصلنا إلى الإرهابيين، وسعينا إلى إحباط التهديدات المحتملة للقاعدة، وفي الوقت ذاته قام عملاء ومحلّلون آخرون من I-49 بتتبع الإرهابيين المتورطين في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا. كشفت الجهود

التي قام بها نزيه عبد الحميد الرقيعي - وهو الاسم الحقيقي لأبي أنس الليبي، وهو عضو القاعدة الليبي الذي استكشف السفارة في نيروبي مع علي محمد، كشفت التحقيقات أنه يسكن في مانشستر، إنجلترا.

جمع جون أونيل فريقاً لمرافقته إلى المملكة المتحدة. اجتمعنا في لندن بعد ذلك مع رجال تحرٍ من SO13، وصعدنا جميعاً إلى قطارٍ متوجهٍ إلى مانشستر. لقينا هناك رجال تحرٍ من الشرطة المحلية كانوا عُيّنوا لمساعدتنا. طلب مني جون إعطاء الفريق فكرة عن الليبي. قلت لهم: «إن أبا أنس الليبي هو عميل بارز في القاعدة. إنه خبير في شؤون الكمبيوتر، كما كان جزءاً من الفريق الذي راقب السفارة في نيروبي. إن ذلك هو كسب كبير لنا».

سأل أحد رجال التحري: «إذاً عَمَّ سنبحث؟».

«إننا نبحث عن أي مذكرات، أو صورٍ، أو وثائق، أو أي شيء آخر يرتبط بالقاعدة، وتفجيرات السفارتين، أو جماعة القتال الإسلامية الليبية والتي هو عضو فيها كذلك بالإضافة إلى كونه عضواً في القاعدة. إننا نحتاج إلى العثور بين أغراضه على دليل يربطه بالتفجيرات، وإلا فلن نستطيع احتجازه».

تمت الإغارة على مسكن الليبي وأُلقي القبض عليه قبل أن يتمكن من الفرار. أُحضر الرجل إلى مركز الشرطة لبدء التحقيقات الأولية معه، فُتشت كل أغراضه في هذا الوقت، وأُحضرت كل الأدلة المحتملة إلى المركز. لم يتعاون الرجل مع الشرطة البريطانية وأنكر كل علاقة له بالإرهاب.

فتّش رجال التحري في ملفات الحاسوب العائد له، وفتشوا أغراضه الشخصية، وسرعان ما تبيّن أنه لم يظهر في هذه القضية، وعلى عكس ما حصل في الغارات الأخرى، أي برهان أكيد يربط الليبي بالهجمات بشكلٍ يسمح لنا بالإمساك به. كان الرجل واحداً من أذكى نشطاء القاعدة، ولا بد من أنه لاحظ كيفية إمساكنا بالنشطاء الآخرين، وبدلاً من الاختباء عمد إلى تدمير ما أمكنه من الأدلة. كان القرص الصلب في حاسوبه نظيفاً، ولم نتمكن من العثور على ملفاتٍ تدينه.

أخبَرنا أحد رجال التحري في شرطة مانشستر: «إننا مضطرون إلى إطلاق سراحه مع الأسف. لا يسمح لنا القانون البريطاني بالاستمرار في احتجازه بسبب الشك فقط. إننا بحاجة إلى دليلٍ صلب. أنكر الرجل كل شيء في هذه المقابلة».

قال جون: «لكنني متأكد من أنكم إذا أطلقتم سراحه فسوف يتمكن من الفرار من المدينة قبل أن نمتلك الوقت الكافي لتمحيص كل الأدلة والعثور على شيء ما – وأنا متأكد من وجود هذا الشيء».

«آسف، إنه القانون البريطاني».

أُطلق سراح الليبي، وهكذا تمكّن من الإفلات من قبضة الفريق الذي أرسل للقبض عليه. لم نعلم المكان الذي اختفى فيه، لكننا كنا متأكدين جداً من أنه في طريقه إلى أفغانستان. أعطانا شركاؤنا البريطانيون أثناء هروبه فرصة الوصول إلى كل الأدلة التي عُثر عليها في منزله. بحثنا في الملفات الموجودة على حاسوبه، وفي ممتلكاته الأخرى، وعزّينا أنفسنا بفكرة أنه بالرغم من فقداننا الرجُلَ إلا أننا كنا على وشك العثور على شيء ما يمكننا استخدامه ضد القاعدة.

لاحظت أثناء بحثي في كومة من الملفات، والوثائق، والكتب العربية، ما يشبه السجل أو اليوميات. سحبت هذا الملف من الكومة، وبدأت بتقليب صفحاته. كان الملف مليئاً بصفحات مصورة عن أوراق مكتوبة بخط اليد. فتحت الصفحة الأولى فشاهدت ملاحظة جاء فيها: «يُمنع إخراج هذا من المضافة»، وهي الدروس التي تغطي كل شيء بدءاً من «المؤهلات الضرورية» إلى تقنيات التجسس وصولاً إلى «طرق التعذيب». كانت هذه الصفحات مكتوبة بيد أحد المدربين التابعين لمنظمة الجهاد الإسلامي المصرية، وذلك استناداً إلى تجاربه في مصر في محاربة نظام مبارك.

ما إن انتهيت من قراءة معظم ما جاء في الملف حتى أبلغت الفريق بأنه يبدو لي وكأنه ذو أهمية كبيرة.

سأل جاك كلونان، وهو كبير العملاء في الفريق: «ما هذا؟»

«إنه دليل التدريب الذي يستخدمه نشطاء القاعدة بحسب ظني. إنه يورد كل شيء بدءاً من كيفية اختفائهم عن الأنظار إلى أهمية تنفيذ العمليات الخاصة».

سأل أحد الموظفين: «لكن أيوصلنا هذا إلى أي إرهابي؟»

«سيوصلنا بالتأكيد، لكن ليس بشكلٍ مباشر. إنه يعرفنا بالضبط إلى كيفية تعليم الإرهابيين التفكير وتحضير أنفسهم للعمليات والاستجوابات. إنه يوصلنا إلى عقلياتهم وأنماط سلوكياتهم التي ينبغي علينا مراقبتها. يُفترض بهذا الملف مساعدتنا على الإمساك بهم، وعندما نمسكهم سوف نفهم كيفية استجوابهم بطريقة ناجحة».

سأل جون: «أيمكنك إعطاؤنا مثالاً عما يقوله الكتاب؟»

«بالتأكيد. يحتوي هذا الفصل، على سبيل المثال، على تعليمات حول كيفية تصرف المجندين الجدد. يُطلب منهم عدم الكشف عن أسمائهم الحقيقية، حتى إلى الأعضاء الآخرين. يُطلب منهم كذلك إزالة أي شيء يدل على أنهم إسلاميون، مثل اللحى، والقمصان الطويلة، ونسخ من القرآن، أو تجنب إلقاء تحيات تماثل «آجركم اللّه».

«يُطلب منهم كذلك تجنب زيارة الأماكن العامة مثل المكتبات والمساجد، كما يتوجب عليهم تجنب جذب الانتباه إلى ذواتهم. يقول الكتاب كذلك إنه يتوجب عليهم أن يحرصوا في اختيار أماكن إيقاف سياراتهم، كما يُمنع عليهم التحدث إلى زوجاتهم عن الأعمال التي يقومون بها.

قلت مع استمراري بالقراءة: «هناك فصل آخر هنا يتحدث عن نموذج الخلية الذي يستخدمونه، والذي هو على شكل عنقود، أي حيث لا يعرف أعضاء الخلية أعضاء الخلايا الأخرى».

سأل جون: «وما هو سبب ذلك؟»

«يقولون إنه إذا أُلقي القبض على جزء من الخلية فلا تتهدد سلامة الأعضاء الآخرين. إنهم يجهلون حتى أنماط الاتصالات التي يستخدمها أعضاء الخلايا الأخرى. يُطلب كذلك من أعضاء الخلية عدم تعرّف بعضهم إلى بعضهم الآخر في العلن».

أعلن أحد الزملاء من مكتب التحقيقات الاتحادي: «هذا مدهش».

«إنه كذلك. أنظروا إلى هذا القسم هنا الذي يتحدث عن منازل الاختباء. يقول الدليل إن المساكن التي هي على مستوى الأرض هي المفضلة، وذلك لأنها توفر خيارات هروب أكثر. يتوجب كذلك أن يتضمن كل مسكن اختباء تحضير خطط طوارئ استعداداً للإخلاء السريع، وكذلك يتعيّن أن تحتوي تلك المنازل على مناطق آمنة لإخفاء الوثائق. يتوجب كذلك على أي شخص يتوجه إلى تلك المنازل أن يحصل على تغطية كافية، وذلك من أجل تجنب لفت الانتباه. يتوجب كذلك عدم استئجار منزلَي اختباء من المكتب ذاته، أو في المنطقة ذاتها – إنهم حريصون جداً».

سأل جون: «لكن، ماذا ينصحهم القسم المختص بالاستجوابات بفعله في حال إلقاء القبض عليهم؟»

قلت وأنا أفتش عن ذلك القسم في صفحات الدليل: «تمهلوا قليلاً. إن المثير للاهتمام هنا هو تحذيره النشطاء من أنهم سيتعرضون للتعذيب إذا ما أُلقي القبض عليهم. قيل لهم أن لا يقولوا شيئاً ما أمكنهم ذلك، وعلى الأخص في الساعات الثماني والأربعين الأولى».

سأل زميل آخر: «ولماذا تحديد الثماني والأربعين ساعة؟»

«يورد الدليل أنَّ ذلك يعود إلى رفاقهم في الخلايا الأخرى الذين سيمتلكون الوقت لإعادة تنظيم أنفسهم، وهو الأمر الذي يجعل المعلومات أقل قيمة».

«أيبلغهم الدليل أن يتوقعوا التعرض للتعذيب؟»

«أجل. يتحدث الدليل في الواقع لتحذيرهم مما سيحدث إذا ألقى النظام المصري، أو أي نظام آخر في الشرق الأوسط القبض عليهم. يقول الدليل كذلك إنّ شقيقاتهم وأمهاتهم سيتعرضن للاغتصاب أمام أعينهم، كما ستعتدي عليهم الكلاب».

«وهل يتعيّن عليهم تحمّل كل ذلك؟»

«قيل لهم إن مكافأتهم سوف تكون في الجنة، لكن بإمكانهم التظاهر بالتعاون مع المحققين لخداعهم».

سأل جون: «وماذا يعني ذلك؟»

«يورد الدليل أنه يتوجب عليهم إعطاء المعلومات إلى المحقق بحيث يظن أن الإرهابي يتعاون معه، لكن المعلومات التي يعطيها بلا أي قيمة».

تُرجم دليل مانشستر، كما عُرف بعد ذلك، إلى الإنجليزية، كما استخدمه المتعاقدون مع وكالة الاستخبارات المركزية لتبرير ما أطلقوا عليه عبارة تقنيات الاستجواب المحسّنة، والتي أجازتها إدارة الرئيس جورج دبليو بوش. تبرز مفارقة أمام كل من فهم مغزى ذلك الدليل، وذلك لأن الدليل يعلم الإرهابيين توقع ما هو أسوأ وتحمله. لا يعود من المفاجئ والحالة هذه أن تفشل هذه التقنيات القاسية.

أبلغني جون أونيل بعد مرور أسابيع قليلة: «علي، أريدك أن تتوجه إلى باكستان. حصلنا على مصدر يُمكن أن يكون هاماً جداً والذي انضم إلينا. أريدك أن تقيّمه». كان ذلك في أوائل العام ٢٠٠٠.

«بالتأكيد يا سيدي، لكن ما القصة؟»

«إنه رجل [redacted] الذي تقدم من أحد العملاء من [redacted] في [redacted] وقال إنه كان يعمل مع [redacted] في [redacted] لكنه سئم منهم، ولهذا أراد العمل مع الولايات المتحدة ضدهم».

قلت: «إن ذلك مناسب جداً بالنسبة إلينا».

«يحق لك أن تقول ذلك، لكن [redacted] لم يمتلك المصدر شيئاً عن تهريب المخدرات، ولذلك اعتبروه خارج دائرة اهتمامهم. لكن عندما اجتمع المصدر بالوكالة أُبلغ بأنهم غير مهتمين بما قاله وصرفوه».

«لماذا؟»

«يبدو أنهم اعتقدوا أنه يكذب عليهم، لكن ممثل مكتب التحقيقات الاتحادي هناك، كريس راينمان، يعتقد أن الرجل صادق. توجّه إلى [redacted]... واجتمعْ به وقيّمه. أما إذا كان موثوقاً به فإنني أريدك أن تحصل منه على المعلومات وأن ترتّب طريقة دائمة للاتصال معه».

«نعم يا سيدي».

«بقي أمر واحد. تأكد من تقديم الشكر له، ودعه يعلم بأننا نقدّر جهوده».

شرح لي مايك دوريس، وهو الرجل المعيّن في إسلام أباد و[redacted] من قِبل مكتب التحقيقات الاتحادي، الوضع لي مع تفاصيل أكثر. «طرحت وكالة الاستخبارات المركزية على المصدر سلسلة من الأسئلة حول بن لادن. قال إنه لا يعرف الكثير عن الهدف الرئيس [بن لادن]، وذلك لأنه تعامل مع نشطاء القاعدة من المستوى المتوسط، وليس مع القيادة. [redacted]».

قلت وأنا أهزّ رأسي: «هذا سيئ جداً».

«هناك ما هو أسوأ. عاد المصدر إلى [redacted]، وقال مجدداً إنه يريد إعطاء المعلومات التي يمتلكها. مرّره [redacted] في المرة الأولى إلى مسؤول [redacted] لكنه قام بصرفه مجدداً. لكن عميل [redacted]، ولحسن الحظ، أعلمني في المرة الثانية. أدركت أن هذا المصدر قد يفيدنا، وهكذا أرسلت إليكم رسالة بهذا المعنى عن طريق كريس راينمان».

رتب عميل DEA(*) لنا لقاءً مع الرجل في باكستان، ولعميل آخر من مكتب التحقيقات الاتحادي، وجينيفر كينان من I-49. لكن عندما سمعت وكالة الاستخبارات المركزية بالاجتماع، سارع موظف آخر في الوكالة للقدوم. ظن الموظف أنه بسبب سفرنا من نيويورك للقاء المصدر، فإن المصدر قد يكون أكثر قيمة مما اعتقده زميله.

لم يكن الرجل يعلم الكثير، وبعكس جونيور، عن نشطاء القاعدة من المستويات العليا، [redacted] والإرهابيين المتطرفين الآخرين الذين لم يسبق له أن سمع بهم. [redacted]. كان من الواضح أنه يكره القاعدة، سواء على الصعيد الشخصي أو من الناحية العقائدية، [redacted]. قمنا بتحوير الأسئلة نحو ما اعتبرناه وجهة مفيدة، و [redacted].

أخبرني الرجل خلال أحد أحاديثنا: «لا أعرف بن لادن، [redacted]، أنتم تعرفون الكثير عن بن لادن».

[redacted]

لم أقل له إنني سمعت باسم [redacted] من قبل. مرّ ذلك الاسم معنا أثناء استجواب العوهلي، وهو المهاجم الانتحاري الذي لم يمت أثناء تفجير السفارتين في شرق أفريقيا. قال العوهلي إنه عندما حضّر أشرطة الاستشهاد مع جهاد علي، [redacted]

(١) وكالة مكافحة المخدرات. (المترجم)

[redacted] وأنه كان شخصاً هاماً يجدر بنا البحث عنه.

سألت المصدر في وقتٍ لاحق: «من كان

[redacted] الذي كان هاماً جداً بالنسبة إلى بن لادن. [redacted]

«ومَن يكونون؟»

[redacted]

أنهينا كتابة كل المعلومات التي أعطانا إياها المصدر واعتُبرت ذات مصداقية، وهامة، من قِبل محلّلي مكتب التحقيقات الاتحادي في الولايات المتحدة. شكرنا الرجل وأجرينا ترتيبات لطريقة التواصل معه في المستقبل. أعطينا [redacted] وكالة الاستخبارات المركزية [redacted] ملخصاً عن تقييمنا للمعلومات المستقاة من المصدر.

لاحظت بعد عودتي إلى الولايات المتحدة أن وكالة الاستخبارات المركزية أصبحت مهتمة برجلنا. توجهت مع رئيسي [المشرف] في ذلك الوقت جون ليغيوري، ومع شريكي ستيف بونغاردت، إلى لانغلي (مقر وكالة الاستخبارات المركزية) من أجل وضع الوكالة في صورة عملنا. اكتشفنا هناك وجود خلاف في الرأي داخل الوكالة ما بين مركز مكافحة الإرهاب (CTC) وقسم الشرق الأدنى. دار النزاع حول من سيتعامل من جهتهم مع الرجل. [redacted]

[redacted]

لا يمانع مكتبنا أبداً في التشارك بالمعلومات مع وكالة الاستخبارات المركزية، وهكذا يمكن أن يقدم المصدر فائدة لكلينا. تمتلك الوكالة خبرة كبيرة في التعامل مع مصادر المعلومات بأمان. حدثت حالات في الماضي، مثل ما جرى في التحقيقات المتعلقة بتفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا، وفي ألبانيا، وفي قضايا أخرى، وهي أن الدليل يتعرض للإفساد بحيث لا يعود صالحاً للادعاء، وذلك بسبب سوء تعامل الوكالة مع التوثيق الزمني لحيازة الوثائق، وكذلك ظهرت فروقات في المعلومات التي سرت عبر أقنية وكالة الاستخبارات الأميركية وتلك المستقاة من تقارير مكتب التحقيقات الاتحادي. يُمكن لهذا الأمر أن يتسبب بمشاكل أثناء مرحلة الادعاء، وذلك لأن المرء يحار بمن يثق. أراد جون ليغيوري توضيح الأمور هذه المرة فأعلن شروطه. أبلغ وكالة الاستخبارات المركزية: «ليكن هذا الأمر واضحاً: المصدر هو مصدرنا نحن. إنه مصدر جرمي يقدم لنا معلومات حول الفارين من تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا. يُحتمل أن تستخدم المعلومات الاستخبارية التي نحصل عليها في التحقيقات والمحاكمات القانونية. إننا نرحب باستخدامكم هذه المعلومات، لكن يتعيّن على الاجتماعات أن تكون مشتركة كما نريد الحصول على نسخة من كل التقارير. يتعيّن كذلك تنسيق كل المعلومات لأنها سوف تُستخدم ذات يوم في المحاكم».

أبلغنا أحد كبار المسؤولين في الوكالة: «بكل تأكيد. إننا سننفذ ذلك».

قال جون: «حسناً. تذكّر أن أي معلوماتٍ استخبارية نحصل عليها يجب أن تكون متطابقة بالتمام مع تقارير ٣٠٢ التي نصدرها، وبحيث عندما يصل الأمر إلى المحكمة لا تظهر أي تناقضات». إن ٣٠٢ هي صيغة تُستخدم لكتابة تقارير عن المعلومات المرشحة لأن تصبح بمثابة شهادات في المحكمة. تحتوي هذه الصيغة على ملخصٍ للمقابلة التي أجريت.

وافق الحاضرون على شروطنا فوراً.

سافرت مرات قليلة برفقة ستيف بونغاردت إلى باكستان بهدف اللقاء مع المصدر. بذلنا جهوداً من أجل حمايته. لم نرغب أن يعلم عملاء الاستخبارات الباكستانية أو غيرها بأمر اجتماعاتنا معه. حاول العملاء الباكستانيون ملاحقتنا في كل مرة كنّا فيها في البلاد. لم يكونوا فعّالين في هذا المجال، وهو الأمر الذي سهّل علينا أمر تضييعهم.

كنا نستمتع في بعض الأحيان بالتسلية معهم، وذلك كي نبرهن لهم مدى عقم محاولاتهم. أنهينا مهمتنا في إحدى المرات، وكنا على وشك الذهاب إلى الوطن في اليوم التالي. خرجنا أنا وستيف من غرفتينا وتوجهنا إلى المصعد. شاهدنا رجلاً استمر في ملاحقتنا منذ بضعة أيام. ادّعى الرجل أنه موظف استقبالٍ في طبقتنا من الفندق. كان يظهر أمامنا تكراراً في أي مكانٍ نكون فيه، لكنه لم يكن يرتدي الزي الرسمي للفندق، كما لم يظهر عليه بأنه يقوم بأي عملٍ إداري فيه. ما إن انفتحت أبواب المصعد حتى دخلنا إليه وما لبث أن تبعنا.

قلت بصوتٍ عالٍ: «آه أعذروني، لقد نسيت شيئاً». خرجت أنا وستيف من المصعد، وما لبث موظف الاستقبال المزعوم أن خرج بدوره.

قال ستيف بعد أن شارك في اللعبة، وبدأنا بالدخول إلى المصعد مجدداً: «إنه معي في واقع الأمر». تبعنا الرجل إلى المصعد.

خرجنا من المصعد، وما لبث الرجل أن لحق بنا. قلت له مع ابتسامة عريضة:

«لقد انكشفت. قل لهم إنه يتعين عليهم إرسال شخصٍ آخر ليتتبعنا». لاحظت أن لون وجهه تحول إلى الأحمر، وما لبث أن سار مبتعداً عنا.

الفصل السادس

«ستغرد مثل الكنار»

عاد الحسين خرشتو، وهو الرجل الذي اختاره قادة القاعدة كي يعمل بصفته طيار بن لادن الخاص، إلى السودان عائداً من مدرسة لتعليم الطيران في نيروبي، وكان ذلك في العام ١٩٩٥. وجد خرشتو زوجته الحامل تتسول في شوارع الخرطوم من أجل الحصول على المال اللازم لإجراء عملية قيصرية. كانت القواعد الأمنية لتنظيم القاعدة تمنعه من الاتصال بها، ولذلك لم يعلم بأنها تحولت إلى التسول. أبلغها والدموع تتساقط من عينيه بأنه سوف يؤمن لها المال، ثم أدخلها إلى المستشفى الرئيس في الخرطوم.

توجه خرشتو لرؤية الشيخ سعيد المصري، وهو المسؤول المالي في منظمة القاعدة، وكان هذا الأخير يتقاسم مكتبه مع بن لادن وقادة آخرين. قال لسعيد المصري: «إنني بحاجة إلى المال لتسديد فاتورة المستشفى الذي ستجري فيه زوجتي جراحةً قيصرية. إنني بحاجة إلى خمسمئة دولار». قال سعيد المصري معتذراً: «إنني آسف، لا مال لدينا. لا نستطيع أن نعطيك أي شيء». سكت لفترة قبل أن يضيف: «لماذا لا تأخذ زوجتك إلى المستشفى الإسلامي؟»».

يقدم المستشفى الإسلامي عناية مجانية للفقراء، لكن أوضاعه سيئة. لم يكن

خرشتو مستعداً لنقل زوجته إلى هناك. علم أن القاعدة كانت تمر بصعوبات مالية منذ خسارة بن لادن ميراث العائلة، وذلك بعد طرده من المملكة العربية السعودية. طُلب من خرشتو كذلك عدم تجديد رخصة قيادته للطائرات والتي تكلف خمسمئة دولار كذلك. كان يعرف كذلك أن القاعدة ما تزال تمتلك مالاً. سبق له أن رأى زملاءه من النشطاء وهم يشترون جوازات سفرٍ مزورة وأغراضاً أخرى يحتاجونها في تنفيذ عملياتهم. أدرك خرشتو أن صحة زوجته وطفلهما المستقبلي يجب أن يكونا من ضمن الأولويات، لكنه لم يفهم السبب الذي منعه من إعطائه المال، وعلى الأخص إلى شخصٍ مخلصٍ أمضى في خدمتهم مدة طويلة. كان خرشتو واحداً من أوائل نشطاء القاعدة، ولهذا شعر بمرارة الرفض بعد أن تذكر خدماته للمنظمة في أفغانستان، ونيروبي، وفي أمكنة أخرى.

سأل خرشتو سعيداً المصري: «إذا احتاجت زوجتك أو ابنتك إلى جراحة قيصرية، هل ستأخذها إلى هناك؟»

أجاب سعيد المصري وقد فاجأه السؤال: «حسناً...» جاء السؤال بمثابة تحدٍ من خرشتو، وهو يعرف في أعماق نفسه أن خرشتو كان على حق.

استغل خرشتو فترة الصمت التي التزم بها سعيد المصري ليمضي قدماً: «لماذا لا تستقرض لي المال بحيث أتمكن من دفع نفقات العملية الجراحية، وأنا سأعيد لك المبلغ في ما بعد؟»

هزّ سعيد المصري رأسه وقال: «أنا آسف. لا أستطيع أن أفعل شيئاً حتى عودة بن لادن».

كان بن لادن خارج المكتب، لكن خرشتو علم أن ذلك كان قراراً من سعيد المصري. «التحقت بالقاعدة منذ العام ١٩٩١. هل هذا جزاؤكم للولاء؟ فكّر في صحة زوجتي». خرج من المكتب وهو يغلي غضباً، وبالإضافة إلى رفض إعطائه المال كان مستاءً من طريقة إدارة المصريين من أمثال سعيد المصري للقاعدة. أبلغ

خرشتو أصدقاءه الذين روى الحادثة على مسامعهم: «كنت مستعداً لإطلاق الرصاص عليه لو كان معي مسدسٌ. تذهب كل الأموال إلى المصريين، أما نحن فإنهم يعاملوننا مثل مواطنين من الدرجة الثانية».

بقي خرشتو على جدول مرتبات القاعدة بعد ذلك الحادث، واستمر في القيام بمهمات ما بين الخرطوم ونيروبي لصالح بن لادن، إلا أنه بدأ يفكّر في الانشقاق عن المنظمة. وعندما أعلن بن لادن في العام ١٩٩٦ أن القاعدة سوف تنتقل إلى أفغانستان فإن خرشتو لم يلحق به. أرسل عائلته إلى موطنه في المغرب، وأبلغ قادة القاعدة بأنه يرغب في أن يتلقى أطفاله تعليماً محترماً، وأنه لا وجود لمدارس مناسبة لهم في أفغانستان. تابع الرجل العمل في نيروبي، لكنه توقف عن رؤية قيادات القاعدة بصورة منتظمة، كما أنه ابتعد عنهم عاطفياً.

قالت لي ديبي دوران: «حصلنا يا علي على خيطٍ قد يكون هاماً في عملية فهمنا للقاعدة». كان ذلك بعد أسابيع قليلة على تفجير السفارتين في شرق أفريقيا، وكانت كل جهودنا مركزة على تتبع أولئك المسؤولين عن التفجير، وعلى تعميق فهمنا للمنظمة.

سألتها: «عن أي خيطٍ تتحدثين».

أبلغتني ديبي بأن فريقها قد عثر على رسالة مؤرخة قبل أيام قليلة من التفجير وحملت توقيع مزونغو، وهو لقب يستخدمه خرشتو. اكتشف فريقها كذلك أن السلطات الكينية قد ألقت القبض على خرشتو، وبعض أعضاء القاعدة الآخرين، لكنها ما لبثت أن أطلقت سراحه بناء على طلبٍ من وكالة استخبارات غربية، وأن وكالة الاستخبارات تلك قد أخرجته من البلاد.

سألت ديبي: «هل كان متورطاً في التفجيرات؟»

«إننا لا نعلم بالضبط. كان الرجل في نيروبي في وقت التفجير، وهو الأمر الذي يثير الاهتمام. كما أنه تعامل مع أعضاء الخلية». تدخلت وكالات الاستخبارات

الغربية بعد أن ألقى الكينيون القبض عليه، وهي التي كانت تأمل في استخدامه كمصدرٍ للمعلومات، وهكذا أقنعت الكينيين بإطلاق سراحه. أطلق عليه مكتب التحقيقات الاتحادي لقب جو المراكشي، وهو اسم يشير إلى أحد ألقابه [أسمائه الحركية]، أي يوسف المغربي.

تابعت ديبي كلامها: «عقدت الوكالة اتفاقاً مع جو وأعلموه بأنهم عملوا على إطلاق سراحه كي يتمكن من العودة إلى الخرطوم. وافق الرجل في المقابل على الالتقاء بعملاء الاستخبارات هناك وعلى إرسال تقارير عن أنشطة القاعدة. وافق الرجل على هذا الاتفاق وعاد إلى الخرطوم، ثم أبلغ أعضاء القاعدة بأن الكينيين أطلقوا سراحه لأنه أقنعهم بأنه رجل أعمال ولا علاقة له بأي خطة إرهابية. فشل الرجل بعد عودته إلى الخرطوم في الاتصال بوكالة الاستخبارات الغربية.

أنهت ديبي حديثها بالقول: «وهنا يأتي دورنا. يتعيّن علينا الذهاب كي نعرف أحواله، ولكي نحاول أن ننجح في ما أخفق به غيرنا ونقنعه بالتعامل معنا. أما إذا كان يعيش مع أعضاء خلية نيروبي، وكان مع القاعدة منذ البداية فقد يكون مصدر معلومات في غاية الأهمية بالنسبة إلينا».

سافرت مع ديبي إلى البلد الذي تعمل وكالته الاستخبارية فيه مع خرشتو. أنكرت الوكالة في البداية أنها تعرف أي شيء عنه. لكن، وبعد تقديمنا الدليل الذي نمتلكه عن التعامل معه، وبعد أن شرحنا لهم أنه قد يكون مصدر معلومات في غاية الأهمية بالنسبة إلينا في تتبع أولئك المسؤولين عن تفجيرات السفارة في شرق أفريقيا ومحاكمتهم قضائياً، اعترفت الوكالة بأنها حاولت التعامل معه. وافقت الوكالة على تسليمنا ملفاتهم المتعلقة به.

علمنا من خلال تلك الملفات أنهم كانوا على اتصالٍ معه بعد تفجير السفارتين مباشرة، وأنهم علموا بارتباطه بخلية القاعدة في نيروبي. احتوت الملفات على قدرٍ كبير من المعلومات المتعلقة بخرشتو، وعن خلفيته وبعض أعماله التي قام بها مع

القاعدة. يُضاف إلى ذلك أن الملفات تضمنت معلومات شخصية قيّمة، وهي التي لاحظتُ ذهنياً أنها قد تكون مفيدة لي عند إجراء مقابلة معه، مثل رفض القاعدة إعطاءه المال للجراحة القيصرية التي احتاجتها زوجته.

كان التحدي التالي أمامنا هو العثور على طريقة تمكننا من الوصول إليه، وذلك لأنه كان من المستبعد جداً أن يوافق السودان على طلب الاسترداد، كما أن أي طلبٍ قد نقدمه سيكون من شأنه تنبيه الخرطوم بأننا نبحث عنه. ناقشنا محاولة اختطافه، لكننا استبعدنا هذا الخيار لأنه يحمل معه عدة مخاطرات أمنية، أما الأهم من ذلك فإن هذه العملية تقلّص احتمال موافقته على التعاون معنا علماً أن هذا التعاون هو أملنا الرئيس. اتصلنا بدلاً من ذلك بمديرية مراقبة الأنشطة الإرهابية DST، وهي وكالة الاستخبارات المغربية فوافقت على مساعدتنا. أرسل موظفو دائرة المغتربين المغربية رسالة إلى خرشتو في الخرطوم يعلمونه فيها بوجود مشكلة بالنسبة إلى سجلات أولاده في وزارة المغتربين، وأنه يتوجب عليه العودة إلى البلاد لتسوية هذه المشكلة. ظن خرشتو أن الأمر يتعلق بمسألة إدارية روتينية فسافر جواً إلى المغرب. ما إن حطت به الطائرة في المغرب حتى اصطحبه عملاء وكالة الاستخبارات، وأخذوه إلى مكانٍ آمنٍ في الرباط، العاصمة المغربية، حيث كنا بانتظاره.

سألته بالعربية: «مرحباً بالحسين. كيف حالك؟ هل أنت مرتاح؟»

أجابني مع تعابير تنمّ عن الدهشة: «أجل». خمنت أنه يحاول معرفة من أكون، وأين نوجد، وماذا يجري من حوله.

سألته: «يمكنك التحدث بالإنجليزية، أليس كذلك؟»

أجابني بالإنجليزية: «قليلاً».

تحولت إلى الإنجليزية وسألته: «حسناً. دعنا نتحدث بالإنجليزية، لكن يمكننا التحدث بالعربية إذا كان ذلك أسهل بالنسبة إليك».

«حسناً».

تابعت كلامي: «إذاً، دعني أعرفك بنفسي. اسمي علي صوفان، وأعمل مع مكتب التحقيقات الاتحادي. ومعي هنا زملائي من الحكومة الأميركية، وعلى رأسهم جون أونيل مديرنا. أما الآخران فهما جاك كلونان وبات فيتزجيرالد».

نظر نحوي مندهشاً. كان آخر شيء يفكر فيه هو أن يكون هنا في المغرب بين أيدي الولايات المتحدة. كان هذا المنزل الآمن في منطقة ريفية تبعد نحو نصف ساعة بالسيارة عن الرباط. كانت المناظر رائعة، وكذلك كان المنزل ذاته. كان الطعام طازجاً ومن أفضل نوعية، كما توافرت كمية كبيرة من الشراب، وهو الأمر الذي كوّن جواً من الاسترخاء، لكنه لم يأبه لكل ذلك.

اكتفينا في البداية بالدردشة مع خرشتو عن أحواله، وعن أسرته، وعدد آخر من المواضيع البريئة التي شعر بالارتياح عند التحدث عنها. أجابني الرجل بكل تهذيب، لكن اتضح لي أنه كان متوتراً لوجوده مع أميركيين، وبسبب تشكّكه بنا. مرّت فترة نصف ساعة من الأحاديث العادية، ثم التفتّ نحوه وقلت: «إسمع الآن يا حسين. إننا نعرف كل شيء عنك، وعن ماضيك مع القاعدة. أعتقد أنه من مصلحتك أن تتعاون معنا. إذا تعاونت معنا فإننا بدورنا سوف نعاملك بشكلٍ جيد». لم يقل أي شيء فتابعت حديثي: «إننا نعرف الآن أن القاعدة لم تعاملك كما تستحق أن تعامل». انتصب خرشتو واقفاً ونظر نحوي مباشرة. سألته: «أنت تعرف ما أشير إليه، أليس كذلك؟» هزّ رأسه ببطء.

«أتذكر الوقت الذي احتاجت فيه زوجتك إلى عملية قيصرية، وكيف أنها اضطرت إلى التسوّل في شوارع الخرطوم طلباً للمال؟ أتذكر كيف غضبتَ عندما رفضت القاعدة إعطاءك مبلغ خمسمئة دولار التي تحتاجها لإجراء العملية الجراحية؟» هزّ رأسه مجدداً، وظهرت تعابير حزينة على وجهه.

تابعت كلامي: «إنها ليست الطريقة التي يُعامل بها أي شخص يحتاج إلى مساعدة. يعرف كلانا أنها ليست الطريقة التي يعامل بها المسلم الصالح جاره، دعك

من زميله المخلص. اتضح لي أن القاعدة لا تحترمك، وهي لا تهتم بشأنك أو بصحة زوجتك، كما أنك لا تدين لهم بشيء».

تساقطت دموع قليلة على وجه خرشتو. قال وهو يمسح دموعه: «أنت على حق. لمحت بعض الغضب في عينيه كذلك. «لا عذر لهم في ذلك». قال لي هذا وبدأ بالتحدث عن الغضب الذي شعر به في ذلك الوقت. «لم يتمكنوا من الاستغناء عن خمسمئة دولار لزوجتي بعد كل ما فعلته لهم!».

قلت له: «لقد نقضوا عهدهم معك، وهكذا أظهروا لك طبيعتهم الحقيقية».

توقفت عن الكلام لأنني أردته أن يستوعب ما قلته له. بقينا صامتين جميعاً نحو دقيقة من الزمن. سألته بعد ذلك: «أتحب أن تشرب الشاي؟» أومأ بالموافقة. سكبت له بعض الشاي. ارتشف جرعةً ثم أعاد الكوب إلى الطاولة.

قلت له: «والآن يا حسين، هنا يكمن خيارك. يمكنك أن تتعاون معنا، وسوف نعاملك بشكلٍ حسن. لاحظتَ كيف أننا عاملناك بشكلٍ جيد حتى الآن. هذه هي طبيعتنا. يمكنك كذلك أن ترفض التعاون، وفي هذه الحالة سوف تقضي بقية حياتك في السجن. إنني أعرف ما الذي ستختاره. أعتقد أنك سوف تغرد مثل الكنار عندما ننتهي».

جرت تلك المحادثة بالعربية، لكنني لاحظت أن عملاء الاستخبارات المغاربة الموجودين في الغرفة، والذين انتبهوا لكل كلمة قلتها، عجزوا عن تصديق ما قلته. أخبروني في وقتٍ لاحق بأنهم صُدموا عندما تحدثت إليه بكل صراحة، وعندما سمعوا ذلك التوقع الصريح الذي قدمته له. عمل أحد زملائي في مكتب التحقيقات، وهو أندريه خوري، في الرباط بعد مرور سنوات على تلك الحادثة، مع الملحق القانوني لمكتب التحقيقات الاتحادي (مكتب الملحق القانوني من ضمن سفارة الولايات المتحدة). سأله عملاء الاستخبارات المحليون: «أتعرف علي صوفان؟ هل سمعت عنه عندما أبلغ الحسين خرشتو بأنه سوف ينتهي إلى التغريد مثل الكنار؟».

ضحك أندريه عندما أخبرني القصة بعد مرور عدة سنوات.

أمضى جون وقتاً طويلاً في تمتين العلاقات مع المسؤولين المغاربة، وذلك من أجل تأكيد استمرار التعاون. توجهنا في إحدى الأمسيات لتناول طعام العشاء مع رؤساء DST. رفع جون كوبه [نخبه] وأعلن: «منذ زمن طويل طلب ملك المغرب من بلادي المساعدة ضد القراصنة. وافقت الولايات المتحدة، وهكذا كانت المغرب إحدى أولى الدول التي توقع معاهدة مع الولايات المتحدة على الإطلاق، ونحن نفتخر كثيراً بصداقتنا منذ ذلك الحين. واليوم فإن الولايات المتحدة تطلب المساعدة من المغرب. إنني مسرورٌ جداً لأنكم رددتم الجميل بهذه الحماسة».

رفع المغاربة أنخابهم، وبدا أنهم تأثروا بتذكيرهم بالصداقة. كنت جالساً قرب ديبي وقلت: «لا أحد يعرف مثل جون كيفية رفع الأنخاب وكسب الأصدقاء».

بدأ خرشتو بعد هذا الحديث الأول التكلم بصراحة أكبر. أردنا أن يستمر الرجل بشعوره بالراحة، ولذلك تجنبنا طرح أسئلة حول معلومات حساسة تتعلق بالقاعدة، وركزنا بدلاً من ذلك على حياته، وأسرته، وأسفاره، وتطلعاته، كما أردنا بناء علاقة صداقة معه. كان الرجل بطبيعته محباً للكلام، كما تحدث بطلاقة في الأمور غير الحساسة. أما بات فيزجيرالد فقد تمكن من جانبه من نشر جوٍ من الوئام معه وتمكن من دفعه للكلام.

أمضينا ساعات عدة في ذلك الحديث، لكننا اصطحبنا خرشتو بعد ذلك إلى مطعم بيتزا في الرباط لأننا أردنا تغيير المكان. أظهر الرجل اهتماماً كبيراً بالولايات المتحدة كما أخبرناه عن طبيعة الحياة هناك. فتحنا، لكن بحذر، موضوع وضعه في برنامج حماية الشهود إذا ما تعاون معنا وشرحنا له الفوائد التي سيجنيها. اهتم الرجل بشكلٍ خاص بسماع المعلومات عن خيارات القنوات التلفزيونية الفضائية المتاحة أمامه في أميركا، وذلك بعد أن أخبرته عن وجود أقنية عربية.

بدا الرجل منشغلاً بتفكير عميق، وبدت تعابير وجهه مشوشة. سألته: «هل أن

كل شيء على ما يرام؟» هزّ رأسه. لاحظت من نظرات عينيه أنه كان متوتراً وقلت له: «إنني متوتر بدوري».

اتسعت عيناه وسألني: «لماذا؟».

«حسناً. يصعب عليّ أن أصدّق أنني جالس هنا وأتناول البيتزا مع رجلٍ ينتمي إلى القاعدة».

استغرق بالضحك، وقال: «لم أعد مع القاعدة. توقفت عن كوني عضواً في القاعدة».

أبلغته مع ابتسامة عريضة: «هذا يريحني أكثر، وهذا يعني أنك سوف تكون سعيداً بالعمل معنا». وضعت ذراعي حول كتفيه واستغرقنا بالضحك.

عدنا إلى المنزل الآمن، وما لبث خرشتو أن بدأ بمناقشة شروط التعاون معنا. سألنا: «هل سأُسجن؟».

قال بات: «لا يمكننا إعطاء أي وعود، لكن يتعيّن عليك أن تقوم بالآتي. ستسافر إلى الولايات المتحدة وتعترف بأنك مذنب لكونك عضواً في منظمة التزمت بقتل الأميركيين، لكنك سوف تصبح شاهداً متعاوناً، ويمكن للقاضي أن يقرر معاقبتك أم لا. سأطلب من القاضي إظهار التساهل تجاهنا لأنك تساعدنا».

طرح بات بعض الأسئلة للتأكد من كون خرشتو سيكون شاهداً متعاوناً. أصغيت بانتباهٍ عميق وتعلمت تقنياتٍ كثيرة، مثل كيفية تمكن المرء من احتفاظه بأوراقه، ووضع الشخص الآخر وسط جو زائف من الأمان وجرّه بعد ذلك إلى مصيدة التفاصيل الصغيرة. تعلّم أكاديمية مكتب التحقيقات الاتحادي تقنيات الاستجواب، لكن الحضور في غرفة الصف يختلف كثيراً عنه في غرفة الاستجواب، ورؤية مستجوبٍ خبير وهو يزاول عمله. لاحظت مع بات، وبصورة مباشرة، كيفية استخدام المرء لما يعرفه لمصلحته. أبلغنا خرشتو بأنه تحت برنامج حماية الشهود سوف يحوز هوية جديدة، وذلك للتأكد من عدم تمكّن عملاء القاعدة، أو المتعاطفين معها من العثور

عليه. يسمح ذلك البرنامج للشاهد بأن يعيش حياة جديدة، وأن يستمتع بكل الأشياء الجميلة التي تقدمها أميركا.

أجاب ببساطة: «حسناً». بدأ عند هذه النقطة بإخبارنا كل شيء عن القاعدة، وكيفية عملها، وكيفية تجنيدها لنشطائها، ومعسكرات التدريب التي يستخدمونها، وماذا يفعل بن لادن يومياً، وغير ذلك. بدأنا باستجوابه وطلبنا منه إخبارنا عن طريقه نحو القاعدة، وهو الأمر الذي يعرفنا بطريقة تجنيدها للأعضاء، وكذلك طريقة تدريبهم. أخبرنا خرشتو أنه بعد إنهائه لدراسته الثانوية التحق بمعهد فندقي، وعمل في فرنسا وإيطاليا. وفي ميلانو انتسب إلى مركزٍ إسلامي، وهناك تلقى التشجيع للسفر إلى أفغانستان. تدرب بعد ذلك على القتال، والتقى بن لادن ثم انضمّ إلى المنظمة.

سألته: «ماذا يحدث في مراكز الضيافة التابعة للقاعدة؟».

«يسلم المرء كل الأشياء الثمينة التي يحملها فور دخوله إلى دار الضيافة ـ أمواله، وجواز سفره، وكل أنواع الوثائق الثبوتية ـ ويعطونك لقباً جديداً في المقابل، وعادة ما يرتبط بالبلد الذي جاء منه المجند. يقولون للمجند إنه يتخلى عن كل أشيائه الثمينة وهوياته، وذلك كي لا تعرف الجهة التي أسرته هويته الحقيقية إذا ما أُسر أو قُتل». قال إن لقبه كان أبا زيد المغربي، وأنه اختار كنية أبي طلال.

«في أي معسكرٍ تلقيت تدريباتك؟»

«الفاروق». خرّج ذلك المعسكر عدداً كبيراً من مقاتلي القاعدة البارزين.

«وماذا تعلمت هناك؟»

«تعلمت كيفية استخدام الأسلحة النارية، والأسلحة المضادة للطائرات، وبعض مهارات حرب العصابات الأساسية».

سألته: «ومن كان مدربوك؟» مضى الاستجواب على هذه الشاكلة. انتسب

خرشتو بعد تخرجه من معسكر الفاروق إلى معسكر أبي بكر الصدّيق، والذي يقع قرب خوست كذلك. كان خالد الفواز هو الذي يدير ذلك المعسكر، وهو شخص ورد اسمه معنا في عملية التحدي. كان عودة مع خرشتو في معسكر أبي بكر الصديق، ويعمل تحت لقب مروان.

مضى خرشتو بالقول ليبلغنا أن علي محمد، وهو رجل الظواهري في الجيش الأميركي، قد درّبه في إحدى المراحل. أبلغه أبو حفص مقدماً بأن «أبا محمد الأميركي هو رجل صارم جداً، ويتعيّن عليك أن تكون صبوراً معه. يُكثر الرجل من استخدام كلمات بذيئة، وهو ليس بالمسلم الملتزم، لكنه ماهر جداً».

أُرسل خرشتو في وقتٍ لاحقٍ إلى كينيا ليتعلّم الطيران، وذلك حتى يتمكن ذات يوم من أن يكون الطيار الشخصي عند بن لادن. ساعد خرشتو ، وبينما كان في نيروبي ملتحقاً بمعهد الطيران، العملاء الذين كانوا يمرون عبر كينيا في طريقهم إلى الصومال وأماكن أخرى. كان يتسلم الأموال خلال جولاته ما بين نيروبي والخرطوم وذلك لتسليمها إلى العملاء في كينيا، وكان أكبر مبلغ تسلّمه هو عشرة آلاف دولار.

أخبرنا خرشتو النقطة التي غادر فيها جونيور. كنا حينها في العام ١٩٩٩، بينما غادر جونيور في العام ١٩٩٦. كانت تلك هي سنوات هامة بالنسبة إلى القاعدة، وهكذا فإن المعلومات التي زوّدنا بها خرشتو كانت لا تقدّر بثمن.

سافرنا جواً في ٢١ أيلول/سبتمبر من العام ١٩٩٩ إلى الولايات المتحدة برفقة خرشتو، وكان عملاء آخرون بانتظارنا في المطار. أخذنا خرشتو إلى مكان غير معلن، بينما توجهت أنا إلى منزلي منهكاً. ما إن وصلت إلى المنزل حتى رنّ جرس الهاتف. كان أحد عملاء مكتب التحقيقات الاتحادي يتصل بي من ذلك الموقع. «علي، يريد جو التحادث معك. إنه يصرّ على ذلك».

«حسناً. دعني أتكلم معه».

سمعت صوت خرشتو يقول: «مرحباً يا علي».

«مرحباً، كيف حالك؟»

«أنا بخير، لكن أين أنت؟»

«إنني أرتاح في منزلي».

«لكن هؤلاء الأشخاص يطرحون عليّ أسئلة، ويتحدثون عن مخططات لي وأريدك أن تكون معي كي أستشيرك».

«أحتاج يا صديقي إلى بعض الراحة، وإلى رؤية أسرتي هذه الليلة. مكثت بعيداً عنهم لمدة طويلة. سآتي غداً وأراك».

قدت سيارتي في اليوم التالي إلى المكان الآمن. قفز خرشتو وحيّاني بمعانقة حارة فور دخولي الغرفة. بدا لي أنه متوتر نظراً لوجوده في الولايات المتحدة، ولذلك لم يكن واثقاً من كيفية إدارة الأمور. كنت أنا صاحب ذلك الوجه الودود الذي يثق به.

تحدثنا قليلاً وناقشنا مسألة المحاكمات المتعلقة بتفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا والتي كان من المقرر أن يقف شاهداً فيها. أعطيته كذلك نسخة عن كتابات الشاعر والكاتب الأميركي من أصل لبناني جبران خليل جبران، وهو الذي ناقشنا كتاباته قبل أيام قليلة. انفرجت أسارير وجهه وقال: «شكراً لك يا علي، شكراً جزيلاً لك».

مضى خرشتو إلى جانب جونيور ليكون شاهداً رئيساً في محاكمات تفجير سفارتي شرق أفريقيا، وهو الأمر الذي ضمن إدانة أربعة من إرهابيي القاعدة، وهم رجال سبق له أن عمل معهم. لم يخضع خرشتو للمحاكمة بسبب تعاونه، كما أنه وُضع بالفعل من ضمن برنامج حماية الشهود كما سبق لنا أن وعدناه.

كانت آخر مرة شاهدته فيها هي بعد الهجوم الذي تعرضت له يو أس أس كول الذي حدث في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٠. استجوبناه قبل توجهنا إلى

اليمن كي نتأكد مما إذا كان يعرف أي شخص متورط في هذه الهجمات. أبلغني عندما افترقنا: «أتمنى لو آتي معكم كي أساعد في التحقيقات».

قلت له: «أعرف ذلك، لكن يمكنك أن تساعدنا من هنا. يمكنك أن تواصل إبلاغنا بأي شيء تفكر فيه».

الفصل السابع

مؤامرة الألفية

ركّز بن لادن بعد عودته إلى أفغانستان في العام ١٩٩٦ على إعادة هيكلة القاعدة. أما السودان فإن العمل الرئيس فيه للجماعة كان دعم الإرهاب عن طريق شركات بن لادن. أراد بن لادن في ذلك الوقت تطوير القاعدة لتصبح منظمة إرهابية دولية تحديداً وبالتفصيل، بحيث تتمكن من شن هجمات باسمها الخاص. أنشأ بن لادن شبكة من المنازل الآمنة [المخابئ] ومعسكرات التدريب في أنحاء باكستان وأفغانستان، كما أن المنظمة اكتسبت هيكلية أكثر تعقيداً وأصبحت أكثر تنظيماً.

استمر بن لادن في الوقت ذاته في محاولة استخدام الجماعات غير التابعة للقاعدة لتوسيع مجال أهدافه. أدرك الرجل أن هدف القاعدة المعلن والمتمثل في طرد «الكفار» من شبه الجزيرة العربية يمتلك قدراً قليلاً من الإغراء بالنسبة إلى الإرهابيين المحتملين الذين يتوافدون إلى أفغانستان لتلقي التدريب. يُذكر أن عدداً من الجماعات الإسلامية التي أرسلت مقاتليها إلى البلاد ـ مثل الجماعات الآتية من ليبيا، والمغرب، والجزائر ـ لم تكترث كثيراً بأميركا. كان تركيز تلك الجماعات على عدوّها المباشر، أي حكومات بلادها التي اتهمتها بأنها ليست إسلامية بما يكفي. استغلت هذه الجماعات معسكرات التدريب غير التابعة للقاعدة مثل خالدان، وركّزت جهودها على قلبِ حكومات بلادها. رأى التكفيريون على وجه الخصوص

أن بن لادن يستخدم النشطاء غير التابعين للقاعدة، وعبّروا عن استيائهم من استخدام عملائهم لتحقيق أهدافه.

تأسّس معسكر خالدان قبل إنشاء منظمة القاعدة، أي خلال أيام الجهاد الأفغاني ضد السوفيات. يُذكر كذلك أنه لا أمير المعسكر الظاهر، أي أبو زبيدة، ولا أميره الداخلي، أي ابن الشيخ الليبي، كانا عضوين في القاعدة، وذلك لأن هذين الأميرين كانا يحرصان على الاستقلالية. عُرف عن خالدان بأنه معسكر مستقل. تسلّم ابن الشيخ الليبي مسؤولية إدارة ذلك المعسكر، بينما أبو زبيدة، والذي كوّن لنفسه شهرة بصفته الداعم الأكبر للإرهاب في أفغانستان، فكان يساعد المجندين والمتخرجين من المعسكر بوثائق السفر، والأموال، والمنازل.

فهِم بن لادن السبب الذي جعل من الجماعات الأخرى، المستاءة من استحواذ القاعدة على أعضائها، تبتعد عنه، لكنه أراد بالرغم من ذلك إنشاء روابط معها.

اعتقد بن لادن أنه لربما تتمكن تلك الجماعات من العمل معاً في المستقبل، والأهم من ذلك هو إمكانية دمج أهداف الجماعات في ضرب حكوماتها في الداخل مع أهدافه، وخاصة إذا كانت تلك البلدان تضم أهدافاً أميركية أو غربية. تجنب بن لادن التورط مباشرة مع أعضاء الجماعات الأخرى، إلا أنه قرر دعم أولئك العملاء والمعسكرات التي يأوون إليها، وإن كان ذلك بطريقة غير مباشرة. وجّه بن لادن الأموال نحو المعسكرات غير التابعة للقاعدة، بما فيها خالدان، كما أوفد أشخاصاً مقربين منه لبناء علاقات مع عملاء سبق لهم أن تدربوا في خالدان. كان أحد أولئك العملاء هو خليل سعيد الديك.

حصل الديك ـ وهو أميركي من أصل فلسطيني أردني، والذي وُلد في جنين في الضفة الغربية، على شهادة في المعلوماتية [علوم الكمبيوتر] من الولايات المتحدة، وعمل تحت اسمه الحركي أبي إياد الفلسطيني. كانت علاقات الديك جيدة مع الشيخ الضرير عمر عبد الرحمن، كما شارك في مجموعة خططت في العام ١٩٩٢

لضرب أهدافٍ في لوس آنجلوس، لكن المؤامرة فشلت لأن الديك ترك المجموعة ليحارب في البوسنة. حارب الديك في أفغانستان بعد ذلك حيث انضم إلى بن لادن وكبار أعضاء القاعدة.

تمكن الديك، وبسبب جنسيته الأميركية من السفر بكل حرية في الغرب ومعظم بلاد العالم. أنشأ الرجل روابط مع خلايا القاعدة والجماعات الإسلامية في غزة، وتركيا، وباكستان، والمملكة المتحدة، وفي مناطق أخرى. أما بريطانيا فقد تعاون فيها مع خلية للقاعدة بقيادة خالد الفواز، كما عمل مع عميل بريطاني من أصلٍ باكستاني هو معظّم بيج من أجل جمع الأموال لصالح أفغانستان.

استخدم الديك مهاراته في المعلوماتية وتمكّن من جمع نسخة إلكترونية من موسوعة الجهاد ـ والتي هي عبارة عن دليل يتألف من عدة مجلدات أنشأه المجاهدون المتمركزون في أفغانستان في سنوات الثمانينيات ـ كما أعطى نسخة من ذلك القرص المدمج إلى عملاء كانوا يخططون لشن هجمات. وفي أفغانستان ناور بين المجموعات الأخرى والمعسكرات المستقلة وذلك لمعرفة أي منها يُمكن أن تستغلها القاعدة لفائدتها. أنشأ الديك علاقة متينة مع أبي زبيدة. كانت تلك صداقةً طبيعية: يمتلك الرجلان خلفية متشابهة (كلاهما فلسطيني أردني) بالإضافة إلى أفكار متشابهة حول التطرف الإسلامي. تمكنت أموال القاعدة وأفكارها، وعبر تلك العلاقة، من التدفق بسهولة إلى معسكر خالدان.

كان من بين الروابط الوثيقة الأخرى هي تلك التي أنشأها الديك مع المحارب المخضرم خضر أبو هوشر. انضم أبو هوشر إلى المجاهدين في أفغانستان في أواخر أعوام الثمانينيات من القرن الماضي وحارب ضد الاتحاد السوفياتي. تورط بعد عودته إلى الأردن مع جماعة إرهابية هي جيش محمد. خططت هذه الجماعة لشن عمليات تهدف إلى قلب النظام الأردني، والذي اتهمته الجماعة بأنه ليس إسلامياً بما يكفي.

أمضى أبو هوشر فترة زمنية في السجن بسبب تخطيطه لمؤامرة ضد النظام، وهو تنقل بعدها ما بين اليمن وسوريا وأسّس خلية مع التكفيريين الذين يشاطرونه آراءه ذاتها. اعتنقت هذه الخلية تعاليم أبي محمد المقدسي، وهو رجل دين متطرف يتخذ من الأردن قاعدة له وينادي، من بين مبادئ التكفيريين الأخرى، بأن يكون قانون الشريعة القانون المعتمد الوحيد، وبأن الأشخاص الذين لا يطبقونه هم من الكفار. كان الشريك الرئيس لأبو هوشر في هذه الخلية مواطنه الفلسطيني الأردني الذي يدعى رائد حجازي، والذي سبق أن التقاه في شهر أيار/مايو من العام ١٩٩٦، وذلك في معسكر اليرموك للاجئين الفلسطينيين في سوريا.

وُلد حجازي في كاليفورنيا من أبوين فلسطينيين أردنيين، لكنه نشأ في المملكة العربية السعودية والأردن، وانغمس في الإسلام، ثم أصبح متطرفاً بمساعدة من مسجدٍ محلي في كاليفورنيا. ساعده المسجد على السفر إلى أفغانستان وحيازة الإذن بدخول خالدان، وهناك خضع لدروس في الأسلحة والمتفجرات. تعلم حجازي بسرعة وأصبح عميلاً ماهراً، واكتسب أسماءً حركية مثل أبي أحمد الأميركي (بسبب البلد الذي وُلد فيه) وأبي أحمد الهاون - بسبب مهارته في تشغيل مدافع الهاون. طوّر حجازي كذلك علاقاته بالديك وأبي زبيدة، وهكذا بدأ الرجال الأربعة يحوكون معاً خطط هجمات داخل الأردن.

تمثلت الفكرة في مهاجمة أهدافٍ مسيحية، وإسرائيلية، وأميركية في الأردن خلال العام ٢٠٠٠. اتفق الرجال على مهاجمة المواقع المسيحية المقدسة في جبل نيبو، وذلك الموقع الذي يحاذي نهر الأردن حيث تعمّد يسوع؛ وكذلك المعبر الحدودي مع إسرائيل؛ وفندق راديسون ساس في عمان. اعتبر المخططون أن كل هذه المواقع ستكون مكتظة بالسياح الزائرين بمناسبة حلول الألفية الجديدة. عزم المخططون على شن موجة جديدة من الهجمات في حال نجاح الدفعة الأولى.

جرت معظم أعمال تنسيق هذه الهجمات في باكستان، وكانت تحت إشراف الديك وأبي زبيدة. التقى المتآمرون في مركز الإيمان الإعلامي في بيشاور، وهو

المركز الذي يديره الديك. كان مساعد الديك في إدارة ذلك المركز هو أحد المتحولين إلى الإسلام من كاليفورنيا ويدعى آدم يحيى غادان، والذي كان يعمل تحت الاسم الحركي عزام الأميركي، وهو الذي أصبح في ما بعد متحدثاً باسم القاعدة.

تمكن أبو هوشر وحجازي من تجنيد أعضاء في خليتهم في الأردن، وتركيا، وسوريا. جاء نشطاء آخرون من المركز الذي يديره الديك، وكان بعضهم أعضاء في القاعدة وآخرون لم يكونوا كذلك. كان معظم المجندين الجدد أردنيين أو فلسطينيين أردنيين، وكانت تجمعهم فكرة تنفيذ عملية في الأردن. أرسلت القاعدة عملاءها للمساعدة على مهاجمة الأهداف الغربية، كما كان الديك يحوّل الأموال بطريقة غير مباشرة من بن لادن إلى تلك المجموعة. لم يعرف الأعضاء غير المنتمين إلى القاعدة في هذه المجموعة أن أموال القاعدة هي التي تدعم عملياتهم، بل اعتقدوا بدلاً من ذلك أن الأموال التي يحوّلها الديك تأتي من متبرعين مستقلين.

تأخرت خطة أبو هوشر وحجازي عندما أُلقي القبض على أبو هوشر فور عودته إلى الأردن من سوريا، ووُضِع في السجن لمدة ثمانية عشر شهراً بتهمة التآمر ضد النظام. عاد حجازي إلى الولايات المتحدة أثناء فترة سجن أبو هوشر، وعمل كسائق سيارة أجرة بهدف جمع أموالٍ إضافية للخطة على ما يبدو.

أُطلق سراح أبو هوشر في العام ١٩٩٨ فبدأ الرجلان بتجميع المعدات وتدريب العملاء. جمعت هذه المجموعة الأموال كذلك عن طريق السرقات وبيع وثائق مزورة في الأردن. تنقّل حجازي مرات عدة ما بين الأردن ولندن وبوسطن من أجل المساعدة على تجميع المعدات وجلب الأموال. تلقى حجازي دعماً في لندن من متطرف فلسطيني آخر يدعى أبا قتادة، وهو شخص يدّعي بأنه رجل دين، وهو الذي أدت فتاواه التكفيرية إلى ذبح وقتل عددٍ كبير من المسلمين في العالم، وخاصة خلال الحرب الأهلية الجزائرية التي حدثت في تسعينيات القرن الماضي.

استخدم حجازي جواز سفره الأميركي للسفر إلى المملكة المتحدة، وهناك

التقى عملاء من القاعدة، كما اشترى أجهزة تخابر لاسلكية وهي التي ستُستخدم كصواعق تعمل عن بُعد للقنابل، واشترى كذلك موادَّ أخرى لتنفيذ الخطة. توجه حجازي عندما كان في لندن إلى السفارة الأميركية لتجديد جواز سفره الأميركي.

حصل حجازي على كل ما أراده من لندن فغادر إنجلترا متوجهاً إلى إسرائيل، وسافر من هناك بالحافلة إلى الأردن، ودخل إلى البلاد من خلال المعبر الشمالي الذي كانت المجموعة تخطط لمهاجمته، وذلك بهدف مراقبة الطريق وتدوين ملاحظاتٍ على خريطة المنطقة.

أراد حجازي تجميع المتفجرات من دون إثارة الانتباه فحصل على رخصة للعمل في صياغة المجوهرات. فعل ذلك كي يتمكن من شراء حامض النيتريك والمواد الكيميائية الأخرى اللازمة لصنع القنابل. (تعيّن أن تكون القنابل مشابهة من حيث التركيب لتلك التي صنعها رمزي يوسف في العام ١٩٩٣). أعطى حجازي نسخة عن القرص المدمج الذي يحتوي على موسوعة الجهاد، وهي الموسوعة التي تقدّم تعليمات في صنع القنابل.

استأجرت المجموعة منزلاً في ماركا بعمّان، وهو عبارة عن حي فقير، كما حفرت حفرة لتخبئة المواد الكيميائية التي كانت تجمعها. استغرق أمر إكمال هذه الحفرة مدة شهرين لتصل إلى العمق الكافي، كما أبلغا الجيران بأنهما يبنيان غرفة حمام إضافية. جمع الرجلان الأسلحة والصواعق بالإضافة إلى الوثائق المزورة كي تُستخدم في الهجمات. امتلك حجازي كذلك مزرعة كانت المجموعة تستخدمها لإجراء الاختبارات على المتفجرات من دون أن يسمع الناس ما يجري أو تساورهم الشكوك. مضى عام على الحصول على المتفجرات وتخزينها ـ كانوا يشترون كميات صغيرة في اليوم الواحد بهدف عدم جذب الانتباه ـ وهكذا تمكنوا في النهاية من تجميع المواد التي يحتاجونها.

أرسل العملاء الذين كانوا سينفذون العملية إلى معسكر خالدان لتلقي مزيد من

التدريب، وهو المعسكر الذي يديره أبو زبيدة. أما العملاء الذين لم يتمكنوا من السفر إلى أفغانستان فنُقلوا إلى سوريا، وبعد ذلك إلى لبنان. نُقل العملاء من هناك إلى ميادين التدريب تحت إشراف أحد أعضاء منظمة الجهاد الإسلامي الفلسطيني، واستخدموا في ذلك أوراق هوية عائدة للحرس الثوري الإيراني.

وفي شهر حزيران/يونيو من العام ١٩٩٩ أرسل أبو هوشر حجازي وثلاثة آخرون إلى أبي زبيدة لتلقي التدريب المتقدم على المتفجرات. سافر حجازي بعد انتهاء التدريب إلى سوريا، وخطط للبقاء هناك حتى ٦ كانون الأول/ديسمبر، وهو التاريخ الذي سيدخل فيه إلى الأردن. كانت العملية ستنفذ خلال شهر رمضان، وذلك لأن المسلمين الذين يستشهدون خلال ذلك الشهر سيمتلكون مكانة خاصة في الجنة، وذلك بحسب التعاليم الإسلامية المتطرفة.

تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩. انتهى النادل لتوه من وضع شريحة اللحم أمامي عندما رنّ جهاز المناداة الذي أستخدمه. جاء النداء من العميل الخاص في مكتب التحقيقات الاتحادي والخبير المخضرم في شؤون القاعدة دان كولمان، وهو الذي يعمل في JTTF. قلت لصديقتي هيثر (التي أصبحت زوجتي في ما بعد)، إنني سوف أعود على الفور، وكنا حينها نتناول طعام العشاء في يونيون سكواير الواقعة في وسط مدينة مانهاتن. توجهت إلى أحد أكشاك الهاتف خلف المطعم للاتصال بدان.

قال لي بسرعة وبطريقته الصريحة والمعهودة، والتي لا مكان فيها للكلام العادي: «علي، هناك شيء ما يجري في الأردن. يتعيّن عليك أن تسافر إلى هناك في الغد». تمنى لي حظاً موفقاً بعد ذلك. لم يتمكن من إعطائي التفاصيل حول العملية، وذلك لأن خط المطعم لم يكن آمناً. عدت إلى هيثر وأبلغتها بضرورة إنهاء العشاء بسرعة لأنه يتعيّن عليّ السفر إلى الخارج في غضون أقل من اثنتي عشرة ساعة.

التقيت بات دامورو صباح اليوم التالي في مطار جون. أف. كينيدي، وكان هو الذي سوف يرأس هذه المهمة في أيامها القليلة الأولى. سافرنا إلى عمان لنجد في

انتظارنا سكوت جيسي، وهو ممثل مكتب التحقيقات الاتحادي في تل أبيب. (لم يكن للـFBI حينها ممثل في الأردن، وهكذا كان مكتب تل أبيب يغطي عملانياً كل المسائل الناشئة في الأردن). إنني أعرف سكوت جيداً منذ الفترة التي أمضيتها في باكستان حيث تلاقينا مراتٍ عدة، ولهذا كنت سعيداً لأنه من ضمن فريقنا. إنه موظف على درجة عالية من الكفاءة.

زرنا السفارة وتلقينا هناك ملخصاً [redacted]، ثم توجهنا جميعاً إلى مركز وكالة الاستخبارات الأردنية، أو مديرية المخابرات العامة GID. يتميز مقر المخابرات العامة بعلَم أسود اللون كُتب عليه بالعربية شعار «وقل جاء الحق». لم يكن ذلك اجتماعنا الأوّل مع سعد خير، وهو رئيس GID المعروف (كان عند ذاك نائب الرئيس) وفريقه. سبق لنا أن عملنا معهم من قبل ودُهشنا بمعرفتهم ومهاراتهم العملانية. شعرنا عندئذٍ بثقةٍ كبيرة بأن تحقيقاتنا سوف تكون ناجحة.

عُرف عن سعد أنه موظف شديد الذكاء وصريح، وأنه الرجل الذي يتمنى أن يكون المرء معه في الجهة ذاتها. كان مجرد ذكر اسمه يثير الهلع في قلوب المهاجمين المحتملين والآخرين الذين يتجرأون على خداعه. كان الرجل طويلاً، وأنيق الملبس على الدوام، ومضيافاً ورجلاً محترماً من الدرجة الأولى، كما كان يُمسك بسيجاره بيده على الدوام تقريباً. ذكّرني سعد بموظف الاستخبارات الطيّب الذي يراه المرء في الأفلام وهو يساعد جيمس بوند. كان حاد الذكاء ويتمكن من فهم الأشخاص جيداً، لكن قلبه لا يتسع لأولئك الذين يتلاعبون معه أو يكذبون عليه. أما ابتسامته المميزة فبدت وكأنها تقول: لا يمكنك خداعي.

فهِم سعد العقل الإنساني والطبيعة الإنسانية، كما أنه استخدم ذكاءه للتفوق على أعدائه. أخبرني كيف أنه كان يتخفى شخصياً لإحباط التهديدات، وإلقاء القبض على القتلة وإنزال حكم العدالة بأولئك الذين يهددون وطنه الحبيب الأردن. مات سعد في شهر كانون الأول/ديسمبر بعد إصابته بنوبة قلبية، لكن أصداء قصصه ما تزال تتردد في الأجواء. سيظل الرجل عزيزاً على قلبي دائماً. تُظهر إحدى القصص

التي جعلها الصحافي والروائي دافيد أغناطيوس شهيرة، والتي تظهر في «فيلم جهاز من الأكاذيب»، سعد وهو يناول الهاتف إلى أحد الجهاديين من الذين كان يحاول إقناعهم بالتعاون معه. كانت والدة ذلك الجهادي على الخط. بدأت الوالدة لدى سماعها صوت ابنها بشكره والثناء عليه وهو الأمر الذي أربكه قليلاً. قالت له أخيراً: «شكراً جزيلاً لك على التلفزيون والمال الذي أرسلته لي. إنك ولد طيّب». فهم الرجل على الفور أن سعداً هو الذي أرسل الهدايا إلى الوالدة بعد أن أبلغها بأنها من ابنه، فبدأ بالبكاء. أدرك أن بإمكانه التعاون مع سعد وكشف هوية شركائه، بحيث تتابع والدته الظن بأنه يساعدها، كما أنه يستطيع الرفض وتحطيم قلبها إذا ما علمت أنه ليس الشخص الذي أرسل لها المال وجهاز التلفزيون في الواقع. قرر الرجل التعاون على الفور.

زوّدنا سعد والأردنيون بملخص عن المؤامرة التي يوشكون على كشفها: تخطط خلية أردنية لمهاجمة أهدافٍ غربية في عمّان، وذلك عند بداية الألفية الجديدة تماماً. كان خضر أبو هوشر واحداً من المشبوهين الرئيسيين. أُحضر فريق مكتب التحقيقات الاتحادي لأنه من بين الأهداف كانت المصالح الأميركية، ولأن مواطنين أميركيين كانا متورطيْن في العملية: خليل الديك ورائد حجازي.

عملنا من دون توقف مع الأردنيين على كشف تلك الخطة، وهكذا دُهشنا كثيراً لمقدرة عملائهم. كانوا خبراء جداً في مراقبة المشبوهين في الأردن، كما إنهم اكتشفوا خيوطاً تؤدي إلى تتبع الناشطين المتورطين بدءاً من أفغانستان وعبر الشرق الأوسط. أبلغناهم بأننا عرفنا أشياء كثيرة عن القاعدة نتيجة العمليات في المملكة المتحدة، وألبانيا، وأماكن أخرى، كما أخبرونا بدورهم الكثير عن عمليات القاعدة في مختلف أنحاء العالم. لم يُبق الأردنيون على أي شيء من دون تقليبه على كلّ الوجوه في سبيل حماية بلدهم من هجمات تدميرية محتملة.

كنت عميل مكتب التحقيقات الاتحادي الوحيد الذي يعمل باستمرار في عمان على التهديد الذي تمثله خطة الألفية، هذا بينما كان عملاء آخرون يتناوبون في

الدخول إلى البلاد والخروج منها ـ وعادة ما تكون فترة عملهم لمدة أسبوعين. عملنا انطلاقا من السفارة الأميركية، كما تشاطرنا المكان ذاته مع [redacted] . تلقيت تحذيراً قبل وصولي حول [redacted] ، وهو الذي سوف أطلق عليه اسم فِرد. كان الرجل مترجماً يعمل في مكتب FBI نيويورك، كما سبق له أن قدم طلباً ليكون عميلاً لكن طلبه رُفض، وما لبث بعدها أن انضم إلى وكالة الاستخبارات المركزية. قيل بعد ذلك إنه يحمل منذ ذلك الحين ضغينة تجاه جميع عملاء مكتب التحقيقات الاتحادي.

بدأت مشاكلي معه في غضون الأيام القليلة الأولى، وذلك بعد أن تلقى بات دامورو اتصالاً هاتفياً من مقر FBI جاء فيه أن تقاريري الاستخبارية لا تتوافق مع تقارير فِرد حول الأحداث ذاتها. يعني ذلك أن واشنطن لم تعلم أي معلومات يمكنها الوثوق فيها. أما المشكلة الأخرى فهي تورط مواطنين أميركيين ، وهذا يعني أنه إذا لم تتوافق التقارير فإننا سنجد صعوبة في متابعة القضية قضائياً.

جرى تحقيق في هذه المسألة وتمت استشارة الأردنيين، كما أُبلغ كل المعنيين بأن تقاريري هي الصحيحة وأن تقارير فِرد هي الخاطئة. كان خطأ فِرد الأساسي هو ميله للقفز إلى الاستنتاجات من دون اعتبارٍ للوقائع. قال في إحدى المذكرات، على سبيل المثال، إن الجماعة التي حُدّدت داخل الأردن كانت تتدرب مع جماعة إرهابية لبنانية هي حزب اللّه، وهكذا استنتج أن هذه المجموعة الأردنية ترتبط بإيران كذلك، وذلك لأن إيران هي الراعي الأساسي لحزب اللّه. أما أنا فلم أذكر في تقريري حزب اللّه، وقلت فقط إن الأردنيين كانوا على علاقة بمجموعاتٍ إرهابية فلسطينية. حدد فِرد استنتاجه الخاطئ لأن المجموعة الأردنية تلقت تدريباتها في وادي البقاع، وهو كان يعرف أن حزب اللّه ينشط في وادي البقاع، وهذا كان كل «برهانه» على تورط حزب اللّه في الخطة. وصل الأمر إلى سحب ما مجموعه اثنا عشر [redacted] تقريراً استخباراتياً بسبب هذا التحليل الخاطئ. يُذكر كذلك أنه إذا تبيّن أن جزءاً من البرقية كان خاطئاً فإن البرقية بأكملها كانت تُعتبر غير موثوقة ومشبوهة. كانت الفرضية عند ذاك هي أن المرء لا يستطيع الوثوق بالشخص الذي يكتبها، ولذلك

كانت تُعتبر غير مفيدة. لكن المشاكل مع [redacted]، ولحسن الحظ لم تؤثر في علاقتنا العملانية بالـGID، وهي العلاقة التي وصلت إلى المستوى الشخصي. كان شركاؤنا يصطحبوننا إلى العشاء بانتظام وحتى إلى مناسباتهم العائلية. استمتعنا كثيراً برفقة بعضنا وسررنا بإمكانية تبادل المهارات وتبادل مختلف الأفكار.

جاء سعد وفريقه لزيارتي في نيويورك بعد مضي أشهر على مغادرتي الأردن. أما جون أونيل وبات دامورو فقد بسطا أمامهم السجاد الأحمر، كما شرّفني العملاء الذين عملوا معنا ميدانياً بأن تناولوا طعام العشاء معي في منزلي الصغير الذي يحتوي على غرفة نوم واحدة. كان ذلك في المساء الذي جرت فيه مباراة نهائي دوري كرة القدم الأميركية NFL Super Bowl، وكان الثلج يهطل في الخارج. كان شريكي ستيف بونغاردت، ومارك روسيني، وهو عميل مكتب التحقيقات المنتدب لمركز مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات المركزية؛ وفرِد؛ ونائب المدعي العام الأميركي بات فيتزجيرالد، حاضرين جميعاً. تناولنا الطعام وتبادلنا المزاح لساعات عديدة، وكانت تلك ليلة لا تُنسى.

أعطت GID أثناء التحقيقات في الأردن [redacted] رئيس العمليات آلفين - الذي أصبح لاحقاً رئيس قسم المتطرفين السنّة في مركز مكافحة الإرهاب CTC - صندوقاً يحتوي على أدلة. أخذ آلفين الصندوق إلى مكتبه ورماه في الزاوية، ولم ينظر فيه قط. لم يخبرني، أو يخبر زملائي في مكتب التحقيقات بهذا الصندوق. قضى تقسيم العمل في هذه الحالة أن يوكل سعد هذه المهمة إلى آلفين، وأن يعهد إليه بالتدقيق في محتوياته بعناية.

كنت أتحادث بعد أيام قليلة مع آلفين في مكتبه، ولاحظت وجود الصندوق في الزاوية. سألته: «ما هذا هناك؟»

قال لي: «آه، لا شيء. أعطانا الأردنيون هذه القمامة للتدقيق فيها». اعتبر صاحبي أنه لو كان هذا الصندوق مُهمّاً لما أعطانا الأردنيون إياه.

قلت له بعد أن بدأت بالبحث فيه: «دعنا نُلقِ نظرة. كانت محتويات هذا الصندوق أبعد ما تكون عن أن تكون تافهة. قلت له وأنا أتناول إحدى الأوراق كمثال: «آلفين. إنها أشياء مهمةٌ هنا». كانت تلك خارطة ظهرت عليها مواقع قليلة على طول الطريق ما بين إسرائيل إلى الأردن.

أعدت أنا وآلفين صندوق الأدلة إلى سعد كي يستطيع موظفوه البدء في عملية ملاحقة الخيوط. كان الفصل شتاءً في عمان، وعندما دخلنا إلى مكتب سعد رأيناه جالساً وراء طاولته في مقر الاستخبارات العامة، ويدخن المعسّل من نارجيلة، وهو منظر يذكّر بالباشاوات العثمانيين. قلت له: «تبدو مثل باشا بالفعل».

قال آمراً: «علي، تعال إلى هنا. اقترِبْ وعانقني».

لم تكن وكالة الاستخبارات المركزية مرتاحة للعلاقة التي أرسيناها مع الأردنيين. اصطحب سعد في أحد الأيام بات داموررو إلى مناسبة عائلية. أعرب [redacted] عن استيائه في اليوم التالي. تبيّن أنه غضب لأن سعداً دعا بات من دونه. دعانا ضابطان من المخابرات العامة في مساءٍ آخر إلى حضور إفطار في أحد أيام رمضان؛ [redacted]. بدا أن فرد اشتكى لآلفين الذي قام، ومن دون أن يستوضح الأمر منا أولاً بعد أن صدّق كل ما قاله فرِد، برفع شكوى إلى أحد نواب سعد: «قام رجالك» ـ سمى له ضابطَي المخابرات – بالتعامل مع FBI من دون أخذ إذنٍ بذلك». قام نائب سعد بإيصال الشكوى إليه.

استدعى سعد الضابطين وسألهما: «ما الأمر؟»

أجاب الضابط الأعلى رتبة: «قمنا بدعوة علي، وعميل FBI الآخر إلى الإفطار معنا، لكن يبدو أن [redacted] يعتقد أنه كان يجب علينا أخذ إذنه أولاً».

ضحك سعد، وقال: «يا لهؤلاء الرجال». لوّح بيده علامةً على عدم الاكتراث، وسأل: «متى سيكبرون؟»

اعترضت [redacted] في يوم ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٩٩ مكالمةً هاتفية

جرت ما بين أبي هوشر وأبي زبيدة. قال أبو زبيدة خلال هذه المكالمة: «انتهى وقت التدريب». لم تكن هناك فرصة لوضع هذه الجملة في سياقها. لم يرغب الأردنيون في المجازفة، وهم معذورون في ذلك، لذلك ألقوا القبض على كل الأفراد الذين كانوا قيد المراقبة. احتُجز ستة عشر شخصاً بمن فيهم أبو هوشر. أما الديك وأبو زبيدة فكانا في باكستان، لكن حجازي كان في سوريا، وهكذا لم يكونوا من ضمن المحتجزين.

استجوب الأردنيون العملاء، وبسرعةٍ انتزعوا منهم اعترافات وبعض التفاصيل الإضافية عن المؤامرة. أما الشقيق الأصغر لحجازي، وكان شريكاً مساعداً في هذه المناورة فقد كشف شعار هجمات الألفية: «حان الحصاد، وسوف تتكدس الأجساد في الأكياس». تضمنت المعلومات التي أدلى بها العملاء مواقع الاختباء. أغارت [redacted] على مواقع عدة، وصادرت صواعق (بما فيها أجهزة التخابر التي اشتراها حجازي من لندن)، وأسلحةً، وجوازات سفرٍ مزورة، ونسخة القرص المدمج لموسوعة الجهاد التي جهزها الديك.

فشلنا في البداية في العثور على المواد الكيميائية. تم استجواب العملاء مجدداً فشرح أحدهم الموقع الذي يوجد فيه باب المخبأ للمستودع المؤقت. دلّت التعليمات التي أعطاها أحد الرجال إلى ذلك الموقع. ما إن فُتح باب المخبأ حتى تسربت رائحة كريهة ومريعة. رأينا سلماً هناك، وهكذا نزل أحد أصدقائي من [redacted] إلى المستودع. عاد مسرعاً بعد لحظاتٍ قليلة وقال إن المستودع مليء بقوارير تحتوي على مواد كيميائية. كانت الحوامض تتسرب بحيث غطت الأرض. بدأ مسؤول [redacted] بالسعال، وصاح قائلاً: «أعتقد أنني تسممت. لا أستطيع التنفس».

تنشق الرجل بالفعل موادّ كيميائية خطرة. أسرع أحدهم وجلب له بعض الحليب وأمره بشربه، وقال له إن الحليب سوف يُخرج السم من جسمه. شرب ذلك المسؤول الحليب، ودُهش الحاضرون عندما قال إنه في حالٍ أفضل.

وافقت السلطات الباكستانية على اعتقال الديك، وذلك بعد إلقاء القبض على العملاء في الأردن، وبعد أن قدّم أحد الموقوفين شرحاً مفصلاً لدور الديك في المؤامرة. أغارت السلطات على مركزه واعتقلته. عُصبت عينا الرجل - بواسطة نظارات داكنة حول عينيه - وهو الأمر الذي منعه من الرؤية. لم يُبلغه الباكستانيون ماذا يريدون أن يفعلوا به، لكنهم اتصلوا ب [redacted] التي أرسلت طائرة عسكرية إلى باكستان لنقله. ما إن وصل الديك إلى الأردن حتى وُضع في سجن [redacted] وهو ما زال معصوب العينين، ومن دون أن توجه إليه أي كلمة. أُجلس الديك أمام صورة للملك عبد اللّه الذي تسلّم الحكم قبل عشرة أشهر، وذلك بعد وفاة والده الملك حسين.

رُفعت النظارات الداكنة عن عينيه عند ذاك. استغرقتْ عينا الديك عدة ثوانٍ للتكيّف مع الضوء. ركّز الرجل على الصورة الموضوعة أمامه. أحنى رأسه لأنه عرف أن اللعبة انتهت بالنسبة إليه، وأن المؤامرة فشلت.

كان أحمد رسام أحد الخريجين الآخرين من معسكر خالدان التابع لأبي زبيدة، وهو شاب جزائري ماكر سبق له أن ادّعى طلب اللجوء السياسي في كندا في العام ١٩٩٤، وذلك بعد أن استخدم جواز سفر مزوّراً واختلق قصة عن ملاحقته. اعتاش أحمد في كندا عن طريق الجريمة والتعامل بجوازات السفر المزورة. التقى بينما كان هناك رجلاً مخضرماً من خريجي خالدان، وهو الذي نصحه بالتوجه إلى هناك لتلقي التدريب.

حاز رسام لنفسه قبل مغادرته إلى هناك جواز سفر كندياً شرعياً في العام ١٩٩٨، وذلك عن طريق أحد الوسطاء الذي سرق شهادة ميلاد خالية من إحدى الكنائس. تمكّن رسام بواسطة ذلك الجواز الشرعي من السفر بسهولة إلى باكستان، وذهب من هناك إلى أفغانستان حيث توجه إلى خالدان. تلقى أحمد هناك تدريباته الإرهابية الأساسية، وتعلم كيفية صنع المتفجرات. تعرّف كذلك على أبي زبيدة الذي دُهش بمقدرة رسام على حيازة جواز سفر، وما لبث أن جعله يبدأ بالعمل. عاد رسام

في النهاية إلى كندا ووهو ينوي مهاجمة أهداف في الولايات المتحدة بمشاركة جزائريين آخرين كان قد التقاهم في خالدان. أمضت هذه المجموعة أوقاتها في مناقشة الهجمات والتخطيط لها، وذلك بعد أن نصحهم أبو زبيدة بشنّها. عاد رسام إلى كندا متوقعاً أن يتبعه رفاقه الجزائريون الآخرون. لم يتمكن الرجال من الحصول على الوثائق اللازمة لدخول البلاد، لذلك قرر أن يضرب من دونهم. استأجر رسام سيارة كرايزلر كبيرة، وخبأ المتفجرات داخل العجلة الاحتياطية، ثم قاد السيارة حتى وصل إلى عبّارة سيارات في فكتوريا، كندا، والتي كان من المقرر أن تبحر إلى بورت آنجلوس في واشنطن. أراد أحمد أن يكون مقصده النهائي مطار لوس آنجلوس الدولي الذي اعتزم تفجيره عند بداية الألفية الجديدة.

دعيت في ١٤ كانون الأول/ديسمبر إلى غرفة آمنة داخل السفارة الأميركية في عمان كي أردّ على مكالمة وردتني من مقر مكتب التحقيقات الاتحادي. أُبلغت في هذه المكالمة بأن جزائرياً يدعى أحمد رسام قد أُلقي القبض عليه وهو يحاول إدخال متفجرات من كندا إلى الولايات المتحدة. لم تُعرف حتى تلك الساعة نيّات الرجل، لكنهم شكوا بوجود خطة لشن هجوم بمناسبة الألفية.

تمكن رسام من عبور دائرة الهجرة والتجنيس، وهي العملية التي تسبق مرحلة التفتيش في محطة فكتوريا – كان جوازه كندياً وشرعياً، ولهذا لم يكن هناك من داعٍ للتشكيك به – لكن حركاته المشبوهة في الطرف الثاني هي التي أثارت انتباه رجل جمارك فطن. لكن بدلاً من الخروج من العبارة بسيارته الكرايزلر عندما حان دوره، قام رسام بانتظار كل السائقين الآخرين كي ينزلوا بسياراتهم أولاً.

بدا أنه اعتقد أن آخر سيارة تقوم بالنزول سوف تتلقى أقل قدرٍ من الانتباه. لم يلحظ موظف الجمارك هذا الأمر فقط، لكنه لاحظ أن رسام كان متوتراً في الواقع، ولذلك أحاله إلى أحد المسؤولين لإجراء عملية تفتيشٍ ثانية.

حاول الموظف في التفتيش الثاني وضع يديه عليه لتفتيشه – وهو إجراء روتيني أصيب أحمد بالهلع وحاول الفرار، لكنه أوقف على الفور وأُخضعت سيارته تفتيش. اعتقد موظفو الجمارك في البداية أنه متورط بتهريب المخدرات، لكن إن عُثر على أجهزة التوقيت حتى أدركوا أن الأمر يتعدى ذلك، وهكذا استُدعي كتب التحقيقات الاتحادي لتسلم القضية.

أبلغت الأردنيين بهذه المعلومات. بدا من تحقيقاتنا أن رسام قد يكون مرتبطاً مهاجمين آخرين بمناسبة الألفية الجديدة، وبدا كذلك أنهم قد تدربوا جميعاً، أو معظمهم، في خالدان. أظهرت عملية اعتقال رسام أهمية المعسكر الذي يديره أبو بيدة، كما وفرت تحذيراً من أن الإرهابيين لم يخططوا لضرب الاردن فقط، بل ضرب أمكنةٍ أخرى.

بعد أن علمنا أن الديك وأبا زبيدة عملا معاً مع الناشط معظّم بيج الذي يعمل نطلاقا من لندن لجمع الأموال، قمنا بتمرير هذه المعلومات إلى أصدقائنا في SO13 MI5. كانت السلطات البريطانية على علم بأنشطة بيج وارتباطاته بالإرهابيين لمشتبه بهم في باكستان وأفغانستان.

عملت في تلك الفترة ما بين الأردن والمملكة المتحدة. كنت ذات صباح في لعام ٢٠٠٠ في إنجلترا أعمل مع SO13 على تحقيقات أخرى. أبلغني آلان فراي، جون بون، والدهشة تعلو وجهيهما بأن MI5 وSO12 (نظيرة SO13 للاستخبارات) د أغارتا على الأنصار، وهو متجر لبيع الكتب بإدارة بيج، وعلى منزل بيج في برمنغهام. أُلقي القبض عليه، لكن أُطلق سراحه بعد إجراء مقابلة أولية معه، وذلك أن SO13 لم تكترث بإقامة دعوى ضده. تمكن الرجل بعد ذلك من مغادرة البلاد، ي مثل ما فعل الليبي في مانشستر. لم نتمكن من القبض على بيج إلا بعد مرور سنوات عدة، وذلك في باكستان وبعد هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

وُلد بسام كنج في لبنان في العام ١٩٦٥، وانتقل إلى الولايات المتحدة في العام ١٩٨٤، وما لبث أن تزوج امرأة أميركية. وهكذا أصبح مواطناً أميركياً. سار بعد ذلك في الطريق الذي أصبح مألوفاً لدينا: محاربة السوفيات في أفغانستان، والعودة إلى الولايات المتحدة عند انتهاء الحرب، والسفر بانتظام إلى أفغانستان للتدرب في معسكر خالدان.

اختار له اسماً حركياً وهو أبو عائشة، وذلك تحت إشراف أبي زبيدة، وما لبث أن التقى رائد حجازي، وخليل الديك، وآخرين من الذين يحملون الجنسية الأميركية، والذين كانوا يترددون على ذلك المعسكر الإرهابي. وفي العام ١٩٩٥ انتقل كنج إلى بوسطن، وبدأ بقيادة سيارة أجرة عائدة للشركة ذاتها التي يعمل لها حجازي. كان الرجلان صديقين حميمين، وسكنا في شقة واحدة قبل أن يتزوج كنج، وبقيا يتشاركان السكن عندما تغيب زوجة كنج عن المنزل. غادر كنج في العام ١٩٩٨ الولايات المتحدة متوجهاً إلى لبنان حيث انضم إلى جماعة متطرفة تسمي نفسها التكفير والهجرة.

قاد كنج عشية عيد رأس السنة الجديدة في العام ١٩٩٩ مجموعة من نحو ١٥٠ إرهابياً سنّياً إلى جبل [جرود] الضنية في شمال لبنان. كان معظم أفراد هذه المجموعة من الفلسطينيين والسوريين. وكان كنج قد التقى عدداً كبيراً منهم في معسكرات التدريب في أفغانستان. كان هدفهم المعلن هو فرض الشريعة في لبنان.

قامت المجموعة في البداية بنصب كمين لوحدة من الجيش في بلدة عاصون، وهو الأمر الذي تسبب بمقتل عددٍ من الجنود وخطف أحد الضباط. وعندما أرسل الجيش مزيداً من الجنود لجأ الإرهابيون إلى قتال الجنود لأربعة أيام، وكانوا يقتلون أي شخص يظهر أمامهم. لم تساعد هذه المعركة على تعزيز إيمان الإرهابيين المتزمت بهدفهم في فرض الشريعة. وهكذا أُحبطت خطة أخرى من ضمن مؤامرات الألفية.

تمكنا من إفشال المؤامرة في الأردن بنجاح، وذلك بعد اعتقال أبي هوشر، والديك وآخرين في عمان، بالإضافة إلى مصادرة المواد المتفجرة. قدّم لنا أولئك الذين سُجنوا معلومات هامة عن الشبكة الإرهابية. أما أولئك الذين أفلتوا من الاعتقال مثل حجازي، الذي ما زال طليقاً ـ عاد الرجل في الوقت الذي جمعنا فيه المشتبهين من باكستان إلى مكانٍ ما في سوريا، وهكذا لم يعد إلى الأردن – وأبي زبيدة الذي كان في مكانٍ ما من أفغانستان أو باكستان.

لم نكن متأكدين، حتى حلول الألفية، من أننا اعتقلنا جميع المتورطين في المؤامرة. مكثت في الأردن، كما أنني توجهت ليلة رأس السنة الجديدة مع ستيفن غودين (الذي كان يناوب في البلاد) إلى دوّار عبدون، وهي الباحة الرئيسة في عمان، والتي تُعتبر المماثل الأردني لمربّع تايمز. أبلغنا مكتب التحقيقات في نيويورك بأننا سوف نرسل إليهم أحدث المعلومات بما سيحدث أو لا يحدث.

أشارت عقارب الساعة إلى منتصف الليل وسمعنا انفجارات صغيرة ثم رأينا الناس يركضون في كل الاتجاهات. هرعنا نحو سيارة متوقفة للاحتماء خلفها. تساءلنا عما فاتنا.

سألت بعض الناس بالعربية عما يحدث. تبيّن أن المسرح الذي يحمل الألعاب النارية قد انهار، مما جعلها تنطلق باتجاه الجمهور. تبادلنا النظرات أنا وستيف وقد بدا علينا الارتياح وبدأنا نضحك.

اتصلت هاتفياً بمكتب التحقيقات في نيويورك، وتحدثت مع جون أونيل في مركز قيادة JTTF. قلت له: «الأردن بخير، وكل شيء على ما يرام».

قال لي: «كل عام وأنتم بخير. قمتم أيها الرجال بعملٍ عظيم».

وضعت هاتفي الخلوي في جيب سترتي والتفت كي أتكلم مع ستيفن، وهو الذي كان واقفاً إلى جانبي، لكنني لم أجده. رأيته بعد ذلك واقفاً أمام جهاز النقد الآلي ATM. سبق له أن قرأ قصصاً، كما فعل الجميع، عن الحسابات التي سوف تقع

في فوضى كبيرة عند الألفية ـ أي عندما يتم التحول من ١٩٩٩ إلى ٢٠٠٠، وهو الأمر الذي قيل إنه صعب على حواسيب المصارف - ولذلك أراد التأكد من سلامة رصيده.

سحب ستيفن مبلغاً من المال، وتأكد من أن حسابه لم يمس، ثم سار عائداً نحوي مبتسماً وملوحاً بأوارقه المالية الأردنية.

الجزء الثالث

يو. أس. أس كول

الفصل الثامن

مدمرة بحرية في اليمن؟

أومأ الإرهابيون الجالسون في بيت هبرة، وهو أحد المخابئ الآمنة في صنعاء، بالموافقة. لم يطلبوا موافقة بن لادن على عمليتهم. كان ذلك قراراً صعباً بالنسبة إليهم، لكنهم شعروا بأنه القرار الصائب. كانوا يقدّرون أميرهم، لكنهم أدركوا أن زعيم القاعدة كان يشعر برابطٍ وثيق يربطه باليمن: وُلد والده هناك، وكانت إحدى زوجاته يمنية. كان هؤلاء النشطاء يشكّون في أنه سوف يبارك عملية موجهة ضد الحكومة اليمنية. لكن كان عليهم أن يتحركوا لأن صديقهم أبا الحسن المحضار كان على وشك أن يُعدم. حكمت محكمة يمنية على المحضار في يوم ٥ أيار/مايو بإعدامه. خطط هؤلاء النشطاء لسلسلة من عمليات سرقة السيارات من أجل تمويل العملية. التاريخ: أيار/مايو من العام ١٩٩٩.

أقدمت جماعة المحضار، والتي تسمى جيش عدن أبيَن الإسلامي، على اختطاف ست عشرة رهينة غربية (اثني عشر من البريطانيين، واثنين من الأميركيين، واثنين من الأستراليين) وهم الذين كانوا في جولة سياحة في اليمن. أعلنت المجموعة أنها سوف تطلق الرهائن فقط إذا أطلقت الحكومة اليمنية تسعة إسلاميين مسجونين، وكذلك إذا رُفعت العقوبات الدولية عن العراق. رفضت الحكومة اليمنية قبول مطالب الجماعة ونفذت سلسلة من عمليات الإنقاذ في اليوم التالي.

عندما رأى الخاطفون الجنود اليمنيين وهم يتقدمون اتخذوا من الرهائن ستاراً يحجبهم عن نيران الجنود، وبدأوا يطلقون النار عليهم. قُتل خلال عملية إطلاق النيران الغزيرة هذه اثنان من الخاطفين وأربعة من الرهائن، ثلاثة بريطانيين وأسترالي واحد. تمكّن اليمنيون من إلقاء القبض على بقية الخاطفين كما طوقوا جميع أعضاء المجموعة الذين أمكنهم العثور عليهم. أُلقي القبض على المحضار ذاته، ومثُل أمام أحد القضاة الذي حكم عليه بالإعدام. صمّم رفاق المحضار وزملاؤه من الإرهابيين في اليمن، ومن بينهم أعضاء في القاعدة، على إنقاذه، لكنهم عزموا على عدم إبلاغ بن لادن.

لجأ أنصار المحضار إلى عمليات سرقة السيارات من أجل تمويل عملية الإنقاذ. صمّم هؤلاء على سرقة السيارات من شركة أميركية لتأجير السيارات تعمل في اليمن ثم بيعها بعد ذلك. ستتمكن المجموعة بهذه الطريقة من شراء الأسلحة والعربات اللازمة لها. علمت السلطات اليمنية بهذه الخطة قبل أن تتمكن الجماعة من تنفيذها وهكذا نفذت سلسلة من عمليات الاعتقال. أغارت دائرة التحقيقات الجنائية اليمنية CID على أحد مخابئ القاعدة في صنعاء، وذلك بعد أن علمت بتورط بعض أعضاء القاعدة في هذه العملية.

كان أبو جندل أحد إرهابيي القاعدة الذي قيل إنه كان موجوداً في المخبأ في وقت الإغارة عليه. عاد الرجل إلى اليمن قبل وقتٍ قصير لكي يتزوج، وعلى الأقل هذا ما قاله لبن لادن، لكنه أسرّ إلى أصدقائه بأن العثور على عروس لم يكن السبب الوحيد الذي دفعه لمغادرة أفغانستان. لم يكن أبو جندل راضياً عن تقديم بن لادن البيعة للملا عمر، وهو زعيم طالبان، يُضاف إلى ذلك موافقة بن لادن على ذلك الشرف الكبير الذي ناله الملا عمر في العام ١٩٩٦ بعد مشهد عباءة النبي، أي تسميته بأمير المؤمنين. شعر أبو جندل بأن تحالف القاعدة مع طالبان من شأنه أن يحرف المنظمة عن أهدافها الأوسع. لم يكن ذلك ما التزم به أبو جندل منذ البداية.

شعر أبو جندل كذلك بالسخط، مثله مثل بقية النشطاء، لأن المصريين كانوا يسيطرون على القاعدة. اعتاد عرب الخليج الفارسي على جعل المصريين يعملون في خدمتهم. أما القاعدة فقد سيطر المصريون فيها على عدد من المراكز العليا: ترأسوا معظم معسكرات التدريب، ووضعوا أيديهم على مراكز القرار كذلك، كما مالوا إلى إصدار الأوامر إلى عرب الخليج. كان سبعة أعضاء، من أصل تسعة من الذين يشكلون مجلس الشورى، من المصريين. كان رؤساء اللجان المختلفة في القاعدة من المصريين ما عدا بن لادن ذاته، وأبا حفص الموريتاني. امتد الانقسام إلى التسلية: عندما يلعب أعضاء القاعدة كرة القدم في أيام الجمعة، كان المصريون يلعبون في جانب ضد السعوديين واليمنيين (وكل الجنسيات الأخرى).

فهِم بن لادن طبيعة ذلك الاستياء، لكنه لم يتمكن من فعل الكثير. كان جزء من المشكلة أن المصريين انضموا إلى القاعدة بشكلٍ دائم، بينما أولئك الذين انضموا إليها من دول الخليج، ولا سيّما السعوديين، كانوا يحاربون لأشهرٍ قليلة ثم يعودون إلى ديارهم. كان بن لادن يُطلق على هذا النوع من المشاركة «جهاد الإجازات»، كما أن المخطِّط الاستراتيجي للجهاد أبا مصعب السوري كان يتندر أحياناً بأن عرب الخليج يأتون لعدة أشهرٍ فقط من أجل «تطهير أنفسهم بعد أسبوعٍ يمضونه مع مومسات بانكوك».

عندما أبلغ أبو جندل بن لادن بأنه عائد إلى اليمن للعثور على زوجة أبلغه كذلك بأنه يريد أن يستقر، وذلك يعني أنه لن يتمكن من خدمته بعد الآن. بدا زعيم القاعدة غير مكترث بذلك فأعطى أبا جندل مبلغ ٢,٥٠٠ دولار نقداً كهدية عرس، وقال له: «إذهب وفكّر بالأمر بعد أن تتزوج». بدا بن لادن مطمئناً إلى أن غياب أبي جندل لن يكون دائماً.

شرح بن لادن خطة لسائقه سليم حمدان، وذلك بعد مرور بعض الوقت على مغادرة أبي جندل متوجهاً إلى اليمن، وقال له: يتعيّن عليه وعلى أبي جندل أن يتزوجا بشقيقتين، وذلك لأنهما اثنان من أكثر الأتباع موثوقية، ولذلك أراد أن يجمع بينهما

بهذه الطريقة. فعل حمدان ما طُلب منه بالضبط. أدت هذه العملية إلى وضع شكوك أبي جندل جانباً بعد أن تزوج الرجلان من شقيقتين.

استجوبت السلطات اليمنية التي داهمت بيت هبرة أبا جندل لمدة ساعة ونصف، واستنتجت أنه ليس طرفاً في تلك المؤامرة، ثم أطلقت سراحه. التقى أبو جندل بعد مرور أربع ساعات بأحد الناشطين التابعين للقاعدة وهو إبراهيم الثور، واسمه الحركي نبراس (أصبح في ما بعد أحد المهاجمين الانتحاريين الذين هاجموا المدمرة كول)، وهو الذي أنذره بأن الشرطة اليمنية تبحث عنه مجدداً كي تطرح عليه مزيداً من الأسئلة. لم يرغب أبو جندل في البقاء، ومعرفة ما الذي تريده الشرطة. قال لنفسه، «لم يبق من سندٍ لك غير الشيخ» أي بن لادن، ولذلك فرّ إلى أفغانستان. أما بقية أعضاء القاعدة الذين نجوا من الاعتقال فقد غادروا البلاد بدورهم.

شعر بن لادن بالسرور لعودة حارسه الشخصي، ورحّب كثيراً بعودته. لكن عندما أبلغ أبو جندل بن لادن بشأن الغارة سأله بقلق: «هل كانت الغارة ضدنا بالتحديد، أم إن آخرين قاموا بارتكاب أمرٍ خاطئ؟» لخّص أبو جندل تسلسل الأحداث بالكامل، وأبلغ زعيم القاعدة بأنه يبدو أن الاعتقالات قد أتت رداً على سرقة السيارات، وليس لأن اليمنيين أرادوا الإطباق على القاعدة. قال بن لادن: «جميل أن أسمع ذلك». ظهرت أمارات الارتياح على وجهه وهو يذكر اسم الرئيس اليمني: «إن سفينة علي عبد الله صالح هي السفينة الوحيدة التي نمتلكها».

أُعدِم المحضار أمام رسميين من مكتب المدعي العام اليمني، ووزارة الداخلية في ٧ تشرين الأول/أكتوبر من العام ١٩٩٩. أما أعضاء القاعدة الذين ألقي القبض عليهم وأُثبت أنهم جزء من المؤامرة فقد حُكم عليهم بالسجن. مرّت أسابيع على وجودهم في السجن، وتغيّر معها موقفهم من الدولة اليمنية. تغيّر كذلك موقف زملائهم في القاعدة الذين يعيشون في اليمن، والذين كانوا يزورونهم باستمرار. كان أعضاء القاعدة ينظرون إلى اليمن حتى ذلك الحين على أنه دولة صديقة يُمكن لها أن تخطئ في بعض الأحيان. تجنبت القاعدة شن عمليات في البلاد. لكن الاعتقال

غيّر ذلك الموقف، فبدأ أعضاء القاعدة يرون في الدولة اليمنية دولة متواطئة مع الغرب. ساعدت أعمال بعض اليمنيين في هذا الوقت على تسميم تلك العلاقة، ومن بينها إلقاء القبض على خلاد (وليد بن عطاش) وسجنه فيما بدا أنها حالة من الخطأ في تحديد الهوية.

كان حسان الخامري واحداً من أكثر الرجال الذين تأثروا بفترة سجنهم، وهو الذي أمضى تسعة أشهر وراء القضبان. كان الخامري أكبر سناً من معظم أعضاء القاعدة الآخرين، كما أن «الإخوان كانوا يعتبرونه أباً لهم» كما وصفه أبو جندل. عاد الخامري إلى أفغانستان فور إطلاق سراحه، وما لبث إخوانه في القاعدة أن وجدوا فيه رجلاً آخر. برزت المرارة في لهجته كما طوّر كراهية عميقة تجاه الحكومة اليمنية. كره الرجل الولايات المتحدة في السابق: خسر أمير معسكر تدريب القاعدة في أفغانستان رجالاً عديدين عندما أقدم الأميركيون على قصف المعسكر انتقاماً لتفجير السفارتين في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨.

حاول الخامري وأعضاء القاعدة الآخرون الضغط على بن لادن كي يشن عملية عسكرية مفتوحة في اليمن كعقابٍ لتلك الدولة على اعتقال رفاقهم. حذّر الخامري بن لادن: «يشعر الأخوة في اليمن بالإحباط وبالحاجة إلى فعل شيء ما. أما إذا لم تصادق على ذلك فإنهم سيقومون بذلك وحدَهم».

أجاب بن لادن: «دع الإخوة يصبروا قليلاً، لأن العملية في اليمن آتية، وسوف تشاركون فيها. يتعيّن عليكم أن تكونوا صبورين وهادئين».

عاد الخامري إلى اليمن للمساعدة في التخطيط للعملية، كما اعتاد زيارة النشطاء الذين كانوا في السجن بانتظام. أمضى الرجل قدراً كبيراً من الوقت متحدثاً مع خلاد، وكذلك إلى خلاد والشقيق الأصغر لمهند بن عطاش، عبد العزيز بن عطاش (البراء). تابع اليمنيون احتجاز البراء بالرغم من انتهاء مدة محكوميته، وذلك بسبب علاقات عائلته الوثيقة ببن لادن متذرعة بأسباب أمنية قومية. اعتقد اليمنيون أنه قد

يتحول إلى ورقة ضغط في المواجهة مع بن لادن. أبلغ البراء: «لا تقلق. يتفهم الشيخ أسباب قلقنا. يمكنك أن تنتظر عملاً ما».

بعث الخامري برسالة إلى البراء في صيف العام ٢٠٠٠ يبلغه فيها بأن بن لادن وسيف العدل طلبا منه عدم زيارته وإخوانه في القاعدة الموجودين في السجن بعد الآن، وأن عليه إبعاد نفسه. ختم الخامري بالحديث عن «الأنشطة المشبوهة»، وأضاف: «ستسمع قريباً أخباراً طيبة». كانت تلك رسالة واضحة بأنه سيكون جزءاً من عمليةٍ ما.

ابتسم البراء وأحرق الرسالة بينما كان جالساً في زنزانة سجنه.

١٢ تشرين الأول/أكتوبر، ٢٠٠٠. بدأت ظلمة الليل بالتراجع بينما كنت أقود سيارتي من شقتي في بروكلين متجهاً بها إلى مكاتب FBI في مانهاتن. كانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة صباحاً، ولم يكن من غير المعتاد بالنسبة إليَّ أن أستيقظ في تلك الساعة المبكرة كي أتوجه إلى العمل. إنني أعتبر أن ساعات الفجر الأولى من اليوم هي المفضلة عندي. تكون نيويورك ساكنة وهادئة في هذا الوقت، كما أن حركة السير وأصوات أبواق السيارات تكاد تكون معدومة. لا يقتصر الأمر على أن ذلك الهدوء ذكّرني بالسنوات التي أمضيتها في أرياف بنسلفانيا، لكنه يعطيني الوقت للتفكير بصفاء ومن دون مقاطعة قبل أن تبدأ مشاغل اليوم بالتزايد.

وصلت إلى منتصف الطريق، وكنت أفكر بعمق في إحدى القضايا التي كنت أعمل عليها، وتحديداً كنت في وسط جسر بروكلين، وفجأة رنّ هاتفي الخلوي. أجفلني صوت الهاتف، وذلك لأن المكالمة في ذلك الوقت تعني إما أن شيئاً ليس على ما يرام، أو أن أحد الأصدقاء في الشرق الأوسط لم ينتبه إلى فرق التوقيت. لم يكن قد مضى وقت طويل على إحباطنا هجمات الألفية في الأردن، ولذلك كنت أتوقع مكالمات هاتفية من الشرق الأوسط. لم تكن المكالمة من شخص ما من الأردن، بل كان كيفن كروز، وهو المشرف على فرقة I-45 وهي الفرقة المكلّفة بالتحقيق في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا.

أغفل كيفن كل التحيات المعتادة وسأل: «هل سمعتَ بما حدث؟»

بدأت الحديث بحذر: «سمعت قبل حين على NPR أن إسرائيل قصفت مقر عرفات. يُحتمل أنه يتعيّن علينا أخذ بعض الاحتياطات...» كنت أعرف أن شيئاً قد حدث، لأن ذلك لا يبرر وحده تلك المكالمة عند الساعة السادسة صباحاً.

قاطعني من دون أن يدعني أكمل جملتي: «إنني لا أتحدث عن هذا القصف، لكن سفينة تابعة للبحرية قد تعرضت للهجوم في اليمن. يوجد عدد كبير من الإصابات، كما أن عدداً من البحارة هم في عداد المفقودين».

سألته: «اليمن. ولماذا بحق السماء نرسل سفينة للبحرية إلى اليمن؟»

تُعرف اليمن جيداً في مجتمع الاستخبارات بأنها مليئة بالمتطرفين الإسلاميين، بمن فيهم أعضاء القاعدة. أنشأ الإسلاميون المتطرفون علاقة وثيقة بالسلطات اليمنية خلال الحرب الأهلية التي عصفت بالبلاد، أي عندما قيل إن الرئيس علي عبد اللّه صالح استخدم قدامى المحاربين العرب الآتين من الحرب الأفغانية – السوفياتية لمساعدة الشمال على تحقيق النصر على الجنوب الاشتراكي. أغمضت الحكومة اليمنية أعينها بدورها عن أنشطة الإسلاميين المتطرفين في البلاد طالما لا توجّه تلك الأنشطة ضد الحكومة ولا تؤذي مصالح البلاد.

كانت نتيجة ذلك أن تمكن المتعاطفون مع القاعدة من شق طريقهم إلى كل المؤسسات اليمنية، بما في ذلك الوكالات الاستخبارية. ساعد بعضهم الإرهابيين على الحصول على تأشيرات دخول ووثائق مزيفة، أو تحذيرهم عندما تقوم الحكومات الغربية بالبحث عنهم. تورط عدد من غير اليمنيين في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا، وهم استخدموا في ذلك جوازات سفرٍ يمنية بهدف إخفاء هوياتهم الحقيقية.

يُعتبر اليمن مكاناً ملائماً ليكون قاعدة إرهابية، وذلك بسبب ضعف الحكومة المركزية، وبسبب القبائل التي تتصرف وكأنها حكومات مصغرة ومستقلة. تتعاطف بعض القبائل مع المتطرفين، كما أن بعضها الآخر يُعرب عن استعدادها لمساعدة

الإرهابيين لأسبابٍ مِنْ بينِها المكافآت المالية التي تساعدها في صراعها مع القبائل المنافسة. يُضاف إلى ذلك أن الحكومة المركزية الضعيفة تعني بقاء حدود البلاد غير آمنة، وهو الأمر الذي يسمح للإرهابيين بالدخول إلى البلاد والخروج منها بسهولة. أما ما يزيد الأمور سوءاً فهو أن البلاد تمتلك سوق أسلحة مزدهرة، وهو ما يعطي الإرهابيين حرية الحصول على الأسلحة والمتفجرات التي يحتاجونها.

ردّ كيفن على سؤالي: «إننا نبحث في الأمر، لكن تعالَ إلى هنا بأسرع ما يمكنك ذلك». أعرف أن كيفن يكون مقتضباً وفي غاية الوضوح في كلامه في حالاتٍ كهذه. يُعتبر الرجل في غاية الكفاءة في حالة الطوارئ، وهو العسكري السابق. كان كيفن كاثوليكياً مخلصاً، وصاحب أسرة، وهو الملتزم بالحقيقة. أتذكره حين أخبرني في أعقاب أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وفي وقت تلقى فيه مكتب التحقيقات اللوم، ومن دون أن يستحقه، لأنه لم يمنع الهجمات (وذلك قبل أن توضح لجنة التحقيق في هجمات ١١ أيلول/سبتمبر القصة الحقيقية)، كما أنه شعر بأن الحاضرين في الكنيسة ينظرون نحوه بطريقة مختلفة. أحزنه كثيراً أن يتعرّض الشعب الأميركي للتضليل، ولأن سمعة مكتب التحقيقات الاتحادي قد تعرضت للتشويه.

قلت لكيفن: «إنني في طريقي». تساءلت بيني وبين نفسي عما يُمكن لإحدى سفننا البحرية أن تفعل في اليمن؟ حدثت نفسي بهذا بصوتٍ عالٍ بعد انتهاء المكالمة. بقي السؤال يتردد في ذهني وأنا أسرع نحو مكتبي.

وصلت بعد مرور عشر دقائق إلى خارج مكتب نيويورك. ركنت سيارتي في الجهة المقابلة من الشارع، وفي منطقة يُمنع الوقوف فيها، وذلك لأنني لم أرغب في إضاعة الوقت بحثاً عن مكانٍ لإيقاف سيارتي، وهكذا لم أكترث هذه المرة إذا ما تعرضت لدفع غرامة.

كانت تفاصيل الهجوم ما تزال ترد إلى المكتب: عند الساعة ١١:٢٢ بتوقيت

اليمن، كانت يو. أس. أس. كول، وهي مدمرة تابعة للبحرية تزن ٨,٣٠٠ طن وتحمل نحو ٣٠٠ بحّار، راسية للتزود بالوقود في مرفأ عدن. اقترب مهاجمون انتحاريون من المدمرة في قاربٍ صغير وفجروا أنفسهم. كان من المؤكد عند تلك النقطة أن ١٢ بحاراً قد لقوا حتفهم بينما جُرح عدد كبير آخر منهم. كانت أخبار الوفيات والإصابات ما تزال تتوالى، كما كان من المتوقع أن تتزايد أعداد المصابين.

وردت التفاصيل الأولى لهذا الهجوم من العقيد روبرت نيومان، وهو الملحق العسكري الأميركي في صنعاء. رأى نيومان الانفجار مباشرة، فأخطر السفارة بذلك. قال لي نيومان في ما بعد إن الانفجار كان من القوة بحيث سُمع على بُعد ميلين. كانت السفينة الأولى التي قدمت المساعدة للمدمرة كول هي سفينة مارلبورو [سفينة جلالة الملكة] التابعة للبحرية الملكية البريطانية والتي كانت قريبة من موقع الانفجار. نُقل البحارة الذين يعانون من أخطر الإصابات جواً إلى مستشفى عسكري فرنسي في جيبوتي، وذلك قبل نقلهم إلى مستشفى أميركي في ألمانيا. ركّز رجال الإنقاذ وطاقم السفينة على محاولة منع كول من الغرق، وهو الأمر الذي يمثّل خطراً حقيقياً.

وصل مشاة بحرية تابعون لقوات مشاة البحرية الأمنية المؤقتة، والذين يتمركزون في البحرين، بعد وقتٍ قصير لتأمين المنطقة المحيطة بالسفينة. لم يكونوا على علم بما إذا كان هجوم ثانٍ مخططاً، ولم يرغبوا في المجازفة. تبعهم فصيل تابع لمشاة البحرية الأميركية، وهو الذي ساعد على تأمين كول ذاتها. أمّن رجال البحرية كذلك فندقاً مجاوراً، وهو فندق موفنبيك، حيث كان من المقرر أن ينزل فيه الجنود الأميركيون، والمحققون، والدبلوماسيون، ورجال الصحافة، عند وصولهم.

عثرت في المكتب على إجابة لسؤالي الذي طرحته على نفسي عندما كنت في طريقي: احتاجت كول للتزود بالوقود في عدن بعد أن أبحرت لمسافة ٣,٣٠٠ ميلٍ من البحر المتوسط حيث تزودت بالوقود لآخر مرة.

كانت جيبوتي الواقعة في القرن الأفريقي هي التي استُخدمت لسنوات طويلة

كمرفأ تزودٍ بالوقود للسفن الأميركية، لكن في شهر كانون الثاني/يناير من العام ١٩٩٩ استُبعدت لصالح عدن. أدت الحرب التي نشبت ما بين إرتريا وإثيوبيا (١٩٩٨-٢٠٠٠) إلى جعل جيبوتي أقل إغراءً للولايات المتحدة، وذلك بالرغم من أن تقارير الاستخبارات لم تصنِّفها أبداً على أنها بمثل الخطورة التي تمثلها عدن. كان السبب الرئيس لذلك التحول هو أنه بالرغم من وقوف اليمن إلى جانب صدّام حسين أثناء حرب الخليج الأولى، إلا أن إدارة كلينتون أطلقت مبادرة دبلوماسية ضخمة تهدف إلى إرجاع اليمن إلى الفلك الأميركي. كان الوثوق باستضافة اليمن السفن الأميركية، إضافة إلى الفوائد الاقتصادية التي توفرها هذه الاستضافة، جزءاً من تلك المبادرة. توافقت وزارة الخارجية وفريقها في اليمن على أن الحالة الأمنية في عدن مقبولة.

دعم الموظفون الدبلوماسيون هذه الخطوة، لكن الوكالات الأمنية حذّرت من خطورتها. جاء في تقريرٍ استخباري قدّمه مركز التحذير من التهديدات المتعددة التابع لهيئة التحقيقات في الجرائم البحرية MTAC، تحذير من أن الوضع الأمني في عدن هو في غاية الدقة، وأن الحكومة المركزية تمتلك قدراً قليلاً من السيطرة هذا إذا امتلكت أي سيطرة على الإطلاق. يُضاف إلى ذلك أن ذلك الهجوم لم يكن المرة الأولى التي يكون فيها الجهاديون المتطرفون من الإرهابيين مسؤولين عن التخطيط لهجوم ضد هدفٍ أميركي. كان علي عبد اللّٰه صالح يستخدم المتشددين الإسلاميين في كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٢ أي أثناء الحرب الأهلية اليمنية، وذلك من أجل المساعدة على تأمين النصر للشمال على الجنوب. قام إرهابيون في ذلك الحين بمهاجمة فندق غولد موهور، واستهدفوا بهذه العملية ضرب جنود مشاة البحرية الأميركيين الذين يتوقفون فيه قبل متابعة طريقهم إلى الصومال للمساهمة في عملية استعادة الأمل. أخطأت القنابل أهدافها بسبب مغادرة الجنود قبل بدء الهجوم الذي أسفر عن قتل مواطنٍ يمني وسائح أسترالي.

يُطلب من كل السفن الأميركية إيداع ملفٍ بخطة حماية الجنود، وذلك قبل زيارتها أي مرفأ أجنبي. أما الخطة التي قدّمتها كول، والتي صادقت عليها سلطات

عسكرية أميركية أعلى، فذكرت بأنها سوف تعمل بمقتضى الخطة «برافو» [أو ب]، وهي حالة معزّزة من الجاهزيّة ضد هجوم محتمل. (أما الخطة الأقل جاهزيّة منها فهي «ألفا» [أو أ]، وتأتي بعد برافو «تشارلي [أو ج]؛ أما دلتا، أو [د] فتمثل الوضع الأخطر). تقضي الخطة برافو أن تكون الفرق الأمنية على متن السفينة مجهزة ببنادق وأسلحة صغيرة أخرى بحيث تترصد أي تهديداتٍ محتملة.

بيّنت لي المراجعات التي أجريتها لاحقاً أن البحارة وقبطان يو. أس. أس. كول فعلوا ما بوسعهم ضمن الظروف السائدة. أما حقيقة أن كول كانت راسية، وتم التعرّف عليها في هذه الوضعية، فقد كانت خطأ أولئك المسؤولين عن تصنيف عدن على أنه مرفأ آمن. كان يستحيل على بحارة المدمرة وهم بهذه المسافة القريبة أن يؤكدوا في خلال دقيقة أو اثنتين ما إذا كان قارب صغير يتقدم نحوهم صديقاً أم عدواً.

أخبرني بوب ماكفادين، وهو عميل خاص في NCIS، والذي اشتركت معه في ما بعد في تحقيقات كول، وذلك عندما التقيته لأول مرة: «واظبت على المجيء إلى هنا منذ العام ١٩٩٧، وكوّنت إحساساً طيباً عن الجو المحيط بعدن وميناءها. تجري أنشطة كثيرة عندما ترسو سفينة. تقترب القوارب من السفينة التي تقدم خدماتها لها بصورة روتينية. لا أعتقد أنه من المنطقي أن يتمكن بحارٌ يبلغ التاسعة عشرة من عمره، والذي يحمل بندقية من عيار ١٢، من تمييز الصديق من العدو تحت هذه الظروف».

تجمع المشرفون في JTTF [الفريق المشترك لمكافحة الإرهاب] في مكتب بات دامورو في نيويورك لمناقشة قضية الهجوم على المدمرة، وذلك بالرغم من غياب بات ذاته عن المكتب بسبب دورة تدريبية على الأسلحة النارية. (كان مكتبه هو الأوسع لعقد اجتماع من هذا النوع). شارك مسؤولون كبار من مقر FBI في واشنطن العاصمة عن طريق الهاتف، كما طلب مني مشرفون في JTTF المشاركة في ذلك الاجتماع.

سبق لي قبل ذلك بأسبوع واحدٍ أن كتبت مذكرة توحي بأن القاعدة على وشك أن تشن هجوماً ما. استندتُ في هذه المذكرة إلى شريط فيديو كان بن لادن قد أطلقه حديثاً. ظهر زعيم القاعدة في هذا الشريط حاملاً «الجنبية» (خنجر يمني تقليدي) وكان واقفاً أمام خارطة للشرقين الأدنى والأوسط، وكان يُصدر التهديدات ضد أميركا. وزّع جون أونيل تلك المذكرة بين العاملين كافةً في مجتمع الاستخبارات. دفعت هذه المذكرة - وبسبب عملي في قضايا سابقة تتعلق بالقاعدة، ومنظمة الجهاد الإسلامي المصرية (مثل قضية تفجير السفارتين في شرق أفريقيا، وعملية التحدي في المملكة المتحدة، ومؤامرة الألفية في الأردن، والعمليات الأخرى في ألبانيا) - بالمشرفين في JTTF لأن يطلبوا مني تقديم ملخصٍ إلى كل الحاضرين عن تاريخ اليمن، والإرهاب في اليمن، والجهة التي يُحتمل أنها المسؤولة. كانت هذه النقطة الأخيرة في غاية الأهمية على وجه الخصوص. لأنها تحدد المكتب ذا الصلاحية للعمل في هذه القضية، وذلك بحسب النظام المعمول به: إذا كانت القاعدة هي التي تقف وراء تفجير المدمرة كول، فإن ذلك يعني أن مكتب نيويورك هو الذي سيتولى التحقيق.

قال ممثلو مكتب واشنطن الميداني إن هذه القضية لم تكن من تخطيط القاعدة. اعتبر هؤلاء أن جيش عدن أبيَن الإسلامي، أي جماعة المحضار، والتي استمرت في العمل بعد موته، هي التي تقف وراء الهجوم. جادلتُ بأن الأكثر احتمالاً هو أن تكون القاعدة هي وراء الهجوم، وذلك لأن هجوماً بذلك الحجم يتطلب التخطيط، والأموال، وقدرات عملانية هي أكبر بكثير من تلك التي تمتلكها مجموعة إرهابية محلية. أسهم شريط الفيديو الذي أطلقه بن لادن في تعزيز هذه الرؤية.

قرّر مدير مكتب التحقيقات الاتحادي لويس فرييه، وبعد سماع هذين الرأيين، أن يقوم عملاء من المكتبين بالتوجه إلى اليمن إلى أن نكتشف الجهة التي تقف وراء الهجوم. إن تبديل فريق مكتب واشنطن الميداني بفريق من مكتب نيويورك، أو العكس، هو أمر من شأنه تضييع الأسابيع الأولى الثمينة بعد الهجوم، أي عندما تكون كل الأدلة ما تزال ماثلةً على الأرض، وتكون ذاكرة الشهود ما تزال نشطة.

كان القرار التالي الذي يتوجب اتخاذه هو من سيمثّل مكتب نيويورك. تمت استشارة بات فيتزجيرالد، ودايفيد كيلي، وهو نائب آخر للمدعي العام الأميركي من منطقة نيويورك الجنوبية، وهما اللذان كانا سيتوليان الملاحقة القضائية عن التفجير. استقر رأيهما على اختياري. سبق لي أن عملت عن قرب مع الرجلين في قضية تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا ، وهجمات الألفية في الأردن، وفي قضايا أخرى. شعرت بالسرور لأنني سوف أعمل معهما مجدداً.

تتطلب الملاحقات القضائية في قضايا الإرهاب وكيلاً يكون خبيراً في المنظمات المعنية، وبحيث يكون مطلعاً على ما هو مطلوب قانونياً لملاحقة المذنبين. تتمثّل نصف المعركة في تحديد من هي الجهة المسؤولة؛ أما نصفها الآخر فيتمثّل في القبض عليهم، والتأكد من ملاحقتهم قانونياً. يشتهر فيتزجيرالد بذاكرته والتي تترافق مع التزام يضع العمل فوق أي شيء آخر. يمتلك فيتزجيرالد موقداً في شقته في نيويورك، لكنه لم يُستخدم منذ عشر سنوات. أرادت صديقتي هيثر مداعبته بشأن ذلك الموقد فردّ عليها: «لا أريد استعجال الأمور». كان الرجل ابن بوابٍ وتلقى تعليمه مستفيداً من منحٍ دراسية.

يُعتبر كيلي رجلاً متعدد المواهب: إنه محامٍ ومدعٍ قضائي عظيم، وهو مثقف حاد الذكاء، وأستاذٌ متطوع في مدرسة قانون، كما أنه يعمل حكَماً في الاتحاد الوطني لكرة القدم، وهو رياضي يُبقي نفسه في أعلى درجة من اللياقة البدنية. أتذكر ذات مرة أنني كنت أتفحص الإجراءات الأمنية مع جون أونيل على سطح فندقنا في عدن. رأينا كيلي وهو يسبح منفرداً. كان الجميع قلقين بشأن السلامة الشخصية عند استخدام حوض السباحة. لم يكن دافيد مستعداً للسماح للإرهابيين بتخريب نظامه، لذلك فضّل عملية صعود ونزول درج الفندق بدلاً من الذهاب إلى نادٍ رياضي. كان يحرص على أن يقوم بأي عمل يلتزم به على أكمل وجه. إنه رجل مضحكٌ جداً، وهو عندما التقى هيثر للمرة الأولى سألها عما تفعله فأخبرته. قال دافيد: «العمل الاجتماعي! إنني أعمل مع أولاد معاقين. عرفت الآن كيف التقيتِ به».

جرت العادة على إرسال فرقٍ كبيرة للتحقيق في تفجير بمثل ضخامة تفجير يو. أس. أس. كول، لكن قيل لي هذه المرة إنني أستطيع بدايةً انتقاء ثلاثة أشخاصٍ فقط من مكتب نيويورك لمرافقتي. كانت السفيرة الأميركية إلى اليمن، باربرا كاي بودين تقوم بتحديد إجازات السفر التي توافق عليها. (تستطيع وزارة الخارجية تحديد عدد الموظفين الأميركيين في الخارج الذين يُسمح لهم بالدخول إلى بلدٍ أجنبي، إلا إذا كانت الولايات المتحدة في حالة حرب). أكّد لي رؤسائي أن مزيداً من الرجال سوف يُسمح لهم بالسفر سريعاً، لكن يتعيّن علينا في هذا الوقت المضي قدماً والبدء بالتحقيقات.

انتقيت ثلاثة زملاء من فريق I-49: ستيف بونغاردت، جورج كروتش، وأحد رجال التحري في دائرة شرطة نيويورك الذي أُلحق ب JTTF، وهو توم وارد. كان من الطبيعي أن أختار ستيف، وذلك لأنه كان شريكي في معظم القضايا التي عملت عليها حتى ذلك الوقت، وكان عملنا معاً أمراً ممتعاً. كنا كذلك صديقين مقربين، وكنّا نمضي قدراً كبيراً من أوقات فراغنا معاً، حتى أننا كنا نخرج معاً مع صديقتينا. لا يُعتبر من المستغرب أن يمضي العملاء أوقات فراغهم مع العملاء الآخرين. يشعر المرء بأنه برفقة أقرباء له، وذلك لأنه يكون قد أمضى معهم تجارب خطرة قد تكون مسائل موت وحياة، لكن في ما يتجاوز ذلك، وبسبب طبيعة المهمة السرية، كانا هما الشخصين الوحيدين اللذين أستطيع معهما مناقشة العمل خارج المكتب.

كان ستيف طياراً سابقاً في سلاح البحرية، وكنا نعمل مع هذا السلاح في تحقيقاتنا، وهكذا استفدنا من تجاربه السابقة في البحرية. امتلك الرجل ذلك التفوق النادر الذي يتمتع به طيارو البحرية، وهو الأمر الذي يسمح له بالتفكير خارج المألوف، والعمل على قضايا قد يكون آخرون أجبن من أن يُقدموا على مواجهتها. سمح موقف ستيف هذا بوضعه في واجهة معركة مكتب التحقيقات الاتحادي في فترة ما قبل هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وهي المعركة التي نشبت لردم ثغرة افتقاد تبادل المعلومات الاستخبارية ما بين FBI وCIA. كان ستيف يرفض

التقيّد بالقيود التي تهدّد الأمن القومي. كانت المواجهة من صلب طبيعته. كانت تبرز هذه الميزة على كل المستويات: فبالرغم من أنه أصيب بشدّ عضلي في ظهره قبل أسبوع واحدٍ من مغادرته إلى اليمن، وهو الأمر الذي جعل من مشيه وجلوسه أمراً صعباًً، إلا أنه رفض البقاء في المنزل.

أما جورج كروتش فهو محقق من الدرجة الأولى ويمتلك قدراً كبيراً من روح الدعابة. لكن عندما يعمل المرء في مهمات داخل بلدانٍ معادية فإنه يعمل ويأكل، وينام قريباً من زملائه، كما يمضي معهم أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، ولمدة أشهرٍ في بعض الأحيان. إن اختيار الرفاق في المهمات الخارجية هو أمرٌ يستدعي قدراً كبيراً من التفكير. إن عدم توافر الوئام بين الزملاء هو أمر قد يلحق بالتحقيق أضراراً كبيرة. كان جورج في السابق ضابطاً في مشاة البحرية (كان يعمل في الدائرة القانونية في السلك المشاور العدلي العام لجيش الولايات المتحدة Judge Advocate General's Corps)، وهو لذلك يعرف كيفية العمل مع سلاح البحرية. إن أهم الأمور في حياة جورج هي زوجته لورا، وأسرته، ولذلك فإنني أكنّ له قدراً كبيراً من الاحترام، كما أنه أصبح مع لورا صديقين مقربين منا أنا وهيثر.

أما توم فقد عيّنته دائرة شرطة مدينة نيويورك ليكون ممثلها في JTTF [الفريق المشترك لمكافحة الإرهاب]، وهو يمتلك قدرة هائلة على العمل في المدينة، ويمتلك قدراً هائلاً من مهارات التحقيق، كما أنه يولي التفاصيل اهتماماً كبيراً. لم يسبق لي أن رأيت أعضاء في JTTF من خارج مكتب التحقيقات الاتحادي – وأنا أتحدث عن الجميع بدءاً من دائرة شرطة نيويورك إلى مسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية – وهكذا لم أتردد في اصطحابه معي.

أمضينا الساعات القليلة التي سبقت مغادرتنا إلى اليمن في المكتب في التخطيط والتحضير لتحقيقاتنا. لم يتوافر لنا وقت للرجوع إلى المنزل وتوضيب أغراضنا للرحلة، وهكذا اضطررت للسفر بما كنت أرتديه من ملابس، وتناول أي شيء أحتاجه من المتاجر القريبة من مكتب التحقيقات الاتحادي، أو تلك الموجودة

في اليمن. كان مركز القيادة في وضعية أزمة تامة: المحلّلون يجمعون المعطيات، والعملاء [الموظفون] ينقبون في الملفات القديمة المتعلقة باليمن؛ كما كانت وكالات الاستخبارات الحليفة في العالم تتبادل المعلومات في ما بينها؛ كما تجمّع كبار المسؤولين في القاعة لمناقشة القضية. تذكرت بعد انتهائي من التحضير للسفر الموعد المضروب مع هيثر في ذلك المساء. حاولت الاتصال بها لإبلاغها بتغيير مواعيدي، لكنني لم أتمكن من الوصول إليها. كانت في المدرسة تعطي أحد دروسها. كلفت إحدى مساعدات ASAC بإبلاغها ليس فقط باضطراري إلى إلغاء الموعد، بل بعدم معرفتي بموعد رجوعي.

قام أحد رجال التحري العاملين في دائرة شرطة مدينة نيويورك والملحق بـ JTTF بإيصالنا أنا وستيف، وجورج، وتوم إلى قاعدة آندروز الجوية، وهناك التقينا فريق مكتب واشنطن الميداني. قدم معنا كذلك فريق إنقاذ الرهائن – الذي يتألف من نخبة فريق المهام الخاصة SWAT التابع لمكتب التحقيقات – من أجل توفير الحماية لنا. لم نتمكن، مع ذلك، من المغادرة على الفور، وهكذا تحتم علينا انتظار بضع ساعات أخرى لإنهاء معاملات المصادقة على مغادرتنا البلاد من قِبل السفيرة بودين، وذلك قبل إقلاع طائرتنا. علمنا أثناء انتظارنا بحدوث هجوم إرهابي آخر في اليمن: أُلقيت قنبلة يدوية على السفارة البريطانية في صنعاء، وهو الأمر الذي أدى إلى تدمير أحد مولداتها الكهربائية.

ما إن انتهت تصاريح الخروج حتى صعدنا إلى إحدى طائرات الشحن العسكرية التي كانت محملة بالعربات، والأسلحة، والمعدات. لم تكن هناك مقاعد في الطائرة ما عدا شبكة تمكّنا من الاستراحة عليها. ساد الرحلة جو من القلق، وذلك لأن مكتب التحقيقات الاتحادي لا يمتلك أي علاقات عملانية مع اليمنيين، كما أننا لم نكن نعلم ما إذا كان اليمنيون سوف يرحبون بنا أم سيقومون بمهاجمتنا. كان من المحتمل كذلك أن تكون القاعدة أقوى في اليمن مما كنا نعتقد، وأن مهاجمة المدمرة يو. أس. أس. كول لم تكن سوى خدعة لإيقاع المزيد من العملاء في مصيدة اليمن تمهيداً

لقتل الواصلين الجدد، أي نحن. علمنا أثناء تحقيقاتنا في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا، وبعد استجواب أحد أعضاء القاعدة أن هذا الأمر لا يُعتبر مناورة غير اعتيادية.

كنا على علم كذلك بوجود مشاكل ما بين مسؤولين يمنيين وبين الولايات المتحدة. قال الرئيس اليمني علي عبد اللّه صالح قبل وقتٍ قصير من الهجوم إنه لو كانت لبلاده حدودٌ مع إسرائيل فإنه سوف ينضم إلى الجهاد ضد تلك البلاد بسبب الصراع العربي – الإسرائيلي المستمر. مضى الرئيس لينتقد الولايات المتحدة بسبب دعمها لإسرائيل – وهكذا لم يبدُ الأمر وكأننا متجهون إلى منطقة صديقة. هذا هو السبب الذي دفعنا لاصطحاب فريق إنقاذ الرهائن معنا: سيوفر ذلك الفريق قوة نارية إضافية إذا سارت الأمور على غير ما يرام. إننا لم ننسَ الصومال – أي تلك الصورة من العام ١٩٩٣، والتي تُظهر جنوداً أميركيين غلبهم مقاتلون معادون في مقديشو، ثم سُحبوا في الشوارع، وقُتلوا – صممنا أن لا نسقط من دون قتال إذا حدث شيء ما.

لم يكن أحدٌ منا ذا مزاج للكلام داخل الطائرة. حاولت أن أنام لكن أفكاراً كثيرة بقيت تجول في رأسي، وهكذا فضلت مراجعة المعلومات التي نمتلكها حول اليمن.

هبطت طائرتنا في اليمن بعد أكثر من عشرين ساعة، وبعد توقفنا للتزود بالوقود في ألمانيا. ألقيت نظرة على البلاد للمرة الأولى من خلال نافذة الطائرة فلاحظت أنها مبعثرة سكنياً أكثر مما تصورت. تهادت الطائرة فوق المدرج وتباطأت قبل وقوفها، ولاحظنا أننا محاطون بما بدا وكأنه القوات الخاصة اليمنية. ارتدى الجنود أزياءً عسكرية مموهة، وما لبثوا أن صوّبوا علينا بنادقهم التي هي من نوع AK-47. رأينا إلى جانبهم عرباتٍ عسكرية وسيارت جيب وبنادقها الرشاشة مصوبة علينا.

لم يتحرك أحد في البداية. لم تكن لدينا أي فكرة عما يحدث، ولم نرغب في إثارة أي رد فعل. مضت خمس عشرة دقيقة ثقيلة من الزمن، وما لبث العقيد نيومان، الملحق الدفاعي الأميركي في البلاد أن صعد إلى الطائرة. صاح أحدنا: «ماذا يجري هنا بحق السماء؟» أجابنا بأنه لا يعرف بالضبط، لكنه يعمل على إيضاح الموقف.

بدا أن هذه الخطوة خففت من التوتر القائم. لاحظت أن بعض الجنود يبتسمون، حتى أن بعضهم قال لي «شكراً» بالإنجليزية.

سألت المسؤول اليمني: «ماذا يحدث؟ لماذا حاصرتم طائرتنا؟»

«لا تقلقوا. فعلنا ذلك لحمايتكم».

قلت له: «إننا نقدّر ذلك، لكن إذا أراد أحد مهاجمتنا فإنه سوف يهاجم من الخارج ، ولذلك يجب أن تكون أسلحتكم مصوبة إلى الخارج وليس نحونا».

أجابني: «كلا. كلا. إنها الطريقة الأفضل، لأننا إذا لم نفعل ذلك فإن حادثاً سوف يحدث، ولا أحد منا يريد ذلك». أمر المسؤول جنوده بخفض أسلحتهم المصوبة نحونا.

كان مطار عدن مطاراً قديماً ولا يحتوي إلا على المنشآت الأساسية، ومن دون وجود سوى مدرج واحد، وقاعتين (إحداها للمسافرين العاديين، وأخرى مزودة بمقاعد وأرائك للمسافرين ذوي الأهمية البالغة VIP)، كما خُصِّصَتْ مكاتب قليلة للموظفين الإداريين والمسؤولين الأمنيين. أنزلنا معداتنا، وأغراضنا، وعرباتنا التي أردنا إنزالها من الطائرة. أما اليمنيون فقد أرادوا في الوقت ذاته تفتيش كل شيء ينزل من الطائرة والموافقة عليه. دوّن اليمنيون كل التفاصيل، وحتى الأرقام التسلسلية لأسلحتنا. كنا مرهقين من عناء السفر الطويل في تلك الرحلة المنهكة، ونكاد لا نمتلك ما يكفي من الصبر إزاء كل هذه القيود.

كان المطار يعجُّ بالمسؤولين اليمنيين: كانوا يمثلون جميع أقسام وقوات فرض القانون المحلية والوطنية، والاستخبارات، والأقسام العسكرية. جاء كذلك الأفراد المولجون بالحفاظ على أمن المطار، وبعض أفراد الجيش، وقوات الأمن التابعة لوزارة الداخلية، وكذلك وكالة الاستخبارات التي تُدعى مؤسسة الأمن السياسي، والشرطة العادية، والوكالات الأمنية في عدن. بدا أنه ما من واحدة من تلك الوكالات تتمتع بالتفويض القانوني الحاسم، وأن الجميع يرغبون في مراقبتنا.

تتعمد بعض البلدان إبقاء التداخل بالصلاحيات من دون وجود حدود واضحة تفصل ما بين المؤسسات الأمنية. إن وجود مؤسسة [أو وكالة واحدة] يعني وجود قاعدة سلطة محتملة قد تسيطر على البلاد. لكن التضارب بالصلاحيات يترافق عادةً مع مشاكل ضمنية: تمضي المؤسسات وقتها في خوض صراعات على دوائر النفوذ بعضها مع بعض، بينما يقوم رئيس البلاد بدور الوسيط أو الحكم. يمنع هذا الوضع مجموعة معينة من تنفيذ انقلاب، لكنه لا يساعد الأجانب الذين يحاولون العمل مع الوكالات المختلفة. كنا مضطرين في كل مرة نرغب فيها في القيام بعملٍ ما في المطار إلى تنسيق هذا العمل مع كل مؤسسة على حدة.

قمتُ بدور الوسيط ما بين جماعتنا واليمنيين كي أنشئ نوعاً من الوئام معهم. أبلغتهم بأننا سوف نعطيهم أي معلومات يريدونها وأننا لا نريد إخفاء أي شيء عنهم. كنا نحاول، ببساطة، التحقيق بما حدث لسفينتنا، كما أردنا أن نعمل معهم في هذه التحقيقات. رحّب اليمنيون بصراحتنا، وبحقيقة أننا نريد العمل معهم. سررت كثيراً لأنني أتكلم بلغتهم.

قيل لي إن اسم عائلتي، صوفان، هو اسم «سادة» في اليمن، كما أن كلمة سادة هي جمع كلمة سيّد، التي تعني «رفيع المستوى» التي تدل على الوضع الاجتماعي. قال لي اليمنيون إن صوفان هو اسم لعائلة تحدرت من سلالة النبي. يبدو كذلك أن بعض الوزراء في الحكومة يحملون الاسم ذاته، كما أن اليمنيين في المطار سألوني بكل اهتمام عمّا إذا كانت عائلتي من أصلٍ يمني. أجبت من دون أن يكون لدي رغبة بالكذب، أو بالتخلي عن ميزة مفيدة: «لربما أتت العائلة من اليمن منذ وقتٍ طويل». يرغب الناس في المواقف الصعبة، عادة، في العثور على شخصٍ يمتّون إليه بصلة القرابة، أما انا فسررتُ لأن أكون ذلك الشخص بالنسبة إلى اليمنيين.

أظهرت لليمنيين كذلك أنني أتفهم وجهة نظرهم وأبلغتهم بأنني أدرك ضرورة تصحيحهم لصورة المسؤولين الأميركيين الذين «يجتاحون» بلادهم بسيارات الجيب والأسلحة ويسيرون بها بين شعبهم، علماً أن عدداً كبيراً منهم معادون جداً

للأميركيين. أبلغني اليمنيون بأن جنود البحرية قاموا في وقتٍ سابقٍ من اليوم بنصب معسكرٍ لهم، ورفعوا فيه العلم الأميركي (جرياً على عادتهم)، وهو الأمر الذي أثار السكان المحليين.

علمت لاحقاً من صديقٍ يمني بأن المعاملة الخشنة التي تلقيناها عند هبوطنا بالطائرة كانت ترجع، جزئياً، إلى المهانة التي عانى منها اليمنيون في اليوم السابق. قال الأميركيون بأنه عندما هبطت طائرة مشاة البحرية التي تحمل فرقة مكافحة الإرهاب الأمنية التابعة للأسطول FAST، وذلك بعد مرور عدة ساعات على الهجوم، قام اليمنيون بمحاصرتها، أي كما حدث معنا. خرج مشاة البحرية بسيارات الهامفي، وقاموا بحركة سريعة لنشر القوات، وحاصروا اليمنيين وسيطروا على المطار، لكن من دون إطلاق رصاصةٍ واحدة. مثّل ذلك إهانة كبيرة لليمنيين بعد أن تعرّض مطارهم للسيطرة بهذه السرعة.

تعاطف عدد كبير من اليمنيين مع ما أصابنا، وخاصة مَن هم في فرق تطبيق القانون ومجتمع الاستخبارات، وكان من بينهم كذلك أولئك الذين شاركونا السعي وراء العدالة للبحارة المغدورين. بقي عدد كبير من المسؤولين والضباط من الذين التقيتهم في المطار – والذين كانوا من وزارة الداخلية، وبعضهم من أمن الدولة – على صداقة معي أثناء فترة مكوثي في عدن. كنت أتوجه إلى المطار برفقة الملحق العسكري، أو ممثل وزارة الخارجية، كلما تسنى لي الوقت، وذلك عند علمي بهبوط طائرة أميركية في عدن ومن أجل تسهيل أمر دخول الجنود. إنني ما زلت حتى اليوم على صداقة وثيقة مع عدد كبير من الأصدقاء الذين كسبتهم في اليمن.

بقيت فرقة إنقاذ الرهائن قرب الطائرة بينما كنت أواجه الإجراءات الروتينية، كما راقبت معداتنا للتأكد من عدم العبث بها أو أخذها. أما الباقون فجلسوا في قاعة المطار الرئيسة بانتظار الانتهاء من ترتيبات دخولنا. استغرق الأمر عدة ساعات من المفاوضات المتوترة لتقرير ما إذا كان سوف يُسمح لنا بمغادرة الطائرة أم لا. أصرّ اليمنيون على أننا لا نستطيع أخذ بعض العربات والأسلحة. لم يكن عندنا أي خيارٍ

غير الإذعان لطلبهم: كانت تلك هي بلادهم، كما أن ممثلي وزارة الخارجية في المطار قالوا لنا إنه يتعيّن علينا قبول القيود التي يفرضها اليمنيون.

أبلغنا ممثلو وزارة الخارجية بأنه علينا ترك بنادقنا الطويلة في الطائرة. لم تكن رشاشات M-4 والبنادق الأخرى هي الأسلحة التي نصطحبها بصورة روتينية - كنا نستخدم المسدسات لذلك الغرض - لكننا خططنا لإبقائها في العربة تحسباً لإمكانية احتياجنا لها. حاولنا التفاوض معهم، لكن أُبلغنا بأن السفيرة بودين أصرّت على عدم حاجتنا إليها. أبلغني أحد ممثلي وزارة الخارجية من دون أن يقنعني: «قالت السفيرة إن اليمنيين سوف يؤمّنون لكم الحماية». لم نكن مرتاحين، ولم يكن لدينا أي خيار آخر. بقي بعض أفراد فرقة إنقاذ الرهائن في الطائرة لحراستها وحراسة الأغراض الكثيرة التي تركناها فيها، وذلك إلى حين عودتنا إلى الولايات المتحدة.

حان وقت مغادرتنا المطار أخيراً فأمنت لنا وزارة الخارجية شاحنات لنقل أمتعتنا ومعداتنا، وكذلك أمّنت لنا حافلة. انتهينا من تحميل الأمتعة، وما لبث الجنود اليمنيون أن صعدوا إلى الشاحنات لحراستها. رافقتنا كذلك قافلة مؤلفة من القوات اليمنية الخاصة على متن سيارات جيب رباعية الدفع ومزودة برشاشات الدوشكا، وهي رشاشات من عيار ١٢,٧ ملم. طلب منا اليمنيون الصعود إلى الحافلة، وهكذا اتجهت القافلة بنا إلى فندق موفنبيك.

شعرت عند هذه النقطة بالإرهاق الشديد. كان الطقس حاراً، وهكذا كانت الحافلة المكيّفة الهواء مغرية جداً. لم أرغب في هذا الوقت ذاته الصعود إليها تحسباً لأي مشكلة قد تطرأ، كما أردتُ أن أكون جاهزاً للعمل مع اليمنيين. افترضت أنهم سوف يقدّرون مبادرتي هذه بالركوب إلى جانبهم بدلاً من ركوب الحافلة. بدأ الآخرون بالدخول إلى الحافلة بينما بدأت أنا بتسلق إحدى الشاحنات الصغيرة. كان الجنود منشغلين بأحاديثهم عندما برز رأسي من جانب الشاحنة. قال لي أحدهم بحزم: «يُفترض بك أن تكون في الحافلة».

أجبته: «كلا. سأركب معكم في صندوق الشاحنة». قلت ذلك بكل ثقة، وهو الأمر الذي أقنعهم على ما يبدو بعدم المناقشة. هزّ الجنود أكتافهم وتابعوا أحاديثهم.

سمعت بعد مرور عدةِ ثوانٍ أحدهم وهو يصعد إلى صندوق الشاحنة الصغيرة. كان ذلك هو جورج. قال إنه رآني، ولم يرغب في أن يتركني وحدي. حدّق اليمنيون به ثم نظروا إليّ، وما لبثوا أن حوّلوا أنظارهم للتحادث بين بعضهم.

انطلقت القافلة بعد أن صعد الجميع إلى الحافلات وبعد تحميل معداتنا في الشاحنات. كرهتُ على الدوام التنقل بقوافل رسمية في البلدان الأجنبية. كان شعوري يماثل في تلك اللحظة شعوري فيما لو أُعطيتُ سيارة مضادة للرصاص، ومرافقة من قوى الشرطة، أو مرافقة عسكرية. يُحتمل أن يستمتع بعضهم بالترف والإحساس بالأهمية الذي توفره المواكب الأمنية، إلا أن ذلك النوع من الاهتمام يجعلني أشعر بعدم الأمان، وذلك لأنه يسمح للمهاجمين المحتملين بمعرفة مكاني بالضبط. اعتدت في زياراتي إلى البلدان الأجنبية أن أطلب من السلطات المحلية إعطائي شاحنة صغيرة متواضعة بدلاً من سيارة تلتمع فيها الأضواء وصفارات الإنذار.

ركّزت مع بداية انطلاق القافلة على السيارات الأخرى في الطريق. تمر الطريق التي تنقلنا إلى خارج المطار بمحاذاة موقع إنشاءات كبير حيث يشيّد مطارٌ جديد. دُهشت أنا وجورج عندما شاهدنا لوحةً إعلانية ضخمة مقامة إلى جانب الموقع. كُتبت في هذه اللوحة كلمات «بن لادن».

أدركنا بعد ذلك أن اللوحة تشير إلى الشركة التي تقوم ببناء المطار الجديد، أي مجموعة بن لادن السعودية، وهي إحدى أكبر شركات الإنشاءات في الشرق الأوسط. لكن بدا الأمر لنا، أنا وجورج، وكأن أحداً أخبرنا من هو المسؤول عن الهجوم، وعن الجهة التي نبحث عنها.

كنا نتحرك بسرعة السيارات الأخرى، وذلك كإجراء احترازي أمني، كما أن اليمنيين حاولوا جاهدين التأكد من عدم توقفنا. تمكنت سيارات الجيب التي تسير

أمامنا من فتح طريقنا. نجحت هذه الطريقة في معظم رحلتنا، كما أننا مررنا من خلال تقاطعات وحول مستديرات من دون الاضطرار إلى التخفيف من سرعتنا. لكن ما إن اقتربنا من فندق موفينبيك حتى اصطدمنا بزحمة سيرٍ خانقة عند إحدى المستديرات، ولم تتمكن سيارات الجيب من فتح الطريق أمامنا في الوقت المناسب. ما إن أبطأنا تقدمنا حتى بدأ أحد الجنود في شاحنتنا الصغيرة بالتأشير بأصابعه نحو السيارات. لاحظت أمارات الصدمة على وجه جورج. قال لي: «لا أصدّق أنه يفعل ذلك». لم أتفهم في البداية سبب تذمّر جورج. فهمت الموقف بعد مرور ثوانٍ قليلة. تتضمن الإشارة التي تدعو إلى الإبطاء في الشرق الأوسط ضمّ أطراف الأصابع. كنت أعرف الأمر من فترة طفولتي التي قضيتها في لبنان. لكن تلك الإشارة في الولايات المتحدة قد تُفهم خطأً على أنها إشارة بذيئة.

كان فندق موفينبيك محاطاً بالمسؤولين الأمنيين اليمنيين الذين دققوا بالأوراق الثبوتية لجميع الداخلين إلى الفندق. شاهدت مشاة البحرية الأميركية فوق سطح الفندق وداخله. ارتحت كثيراً عند ملاحظتي أن الفندق يتمتع بالحماية، لكن المنظر ذكّرني كذلك بأننا داخلون إلى منطقة معادية، وأن حياتنا في خطر.

الفصل التاسع

قاعة الموت

توجهنا بعد ساعات قليلة من وصولنا إلى اليمن لزيارة كول، لكن ما إن اقتربنا من المدمرة حتى تعلّقت أنظارنا بالثغرة الكبيرة في جانبها الأيسر. ذكّرني المنظر بأسدٍ جريح سبق لي أن رأيته على قناة «ناشيونال جيوغرافيك»: احتفظ الأسد بمهابته التي بقيت ظاهرة للعيان، لكن الجرح والألم كانا عميقين. كان من المستحيل على المرء أن لا يشعر بأنه غارق في الحزن. التزمنا جميعاً بالصمت أثناء اقترابنا منها.

ساء ذلك الشعور أكثر ما إن تسلقنا متنها. كانت رائحة الموت تنبعث من أرجاء السفينة. رأينا الجثث الملفوفة بالأعلام الأميركية مسجّاةً على ظهر السفينة. رأينا البحارة وهم يسيرون وقد ظهرت علامات الأسى والشرود على وجوههم المتجهمة، وبانت التغضنات تحت أعينهم. كانوا يعملون ليلَ نهار لإنقاذ السفينة من الغرق. ظهرت آثار الجروح والكدمات على أجسادهم، كما أن أعينهم كانت تفيض بالأسى الذي يبدو بلا نهاية. بدا أن بعض البحارة عاجزون عن تقبّل ما حدث. أعرف أن بعضهم لن يتقبّل ذلك أبداً. كان الأمر يقطّع نياط القلوب.

مشينا نحو مكان الانفجار. رأينا بقع الدم متناثرة فوق سطح السفينة، وجثثاً ملقاة وملوية وقد تشابكت بالحديد. كان تقنيّو NCIS ومكتب التحقيقات الاتحادي

يحاولون بكل عناية وحذر تخليص البحارة، وحرصوا في الوقت ذاته على البحث عن كل ما يشكّل أجزاءً من الدليل. أدركنا على الفور أن هذه مهمة شاقة بشكل استثنائي بالنسبة إلى أفراد الطاقم، لكن بما أن FBI وNCIS يمتلكان المعدات اللازمة لذلك فعلنا كل ما بوسعنا. قام العملاء بجمع أشلاء الضحايا من سطح السفينة.

قام الخبراء العدليون بتفحّص الحطام والأدلة. راقبت أحدهم بينما كان يحاول تحديد ما إذا كان ذلك الشيء الذي يحمله جزءاً من شخص، أو من السفينة، أو بقايا أشلاء المهاجمين الانتحاريين وقاربهم. قام الغطّاسون بتفتيش مياه الميناء المحيطة بالسفينة. أُطلِق على القاعة خارج منطقة الانفجار، أي حيث وُضعت الجثث في البداية، وبشكلٍ غير رسمي، اسم «قاعة الموت». شعرت بالغثيان.

بدأنا بإجراء المقابلات مع الطاقم تحت إشراف جورج. أما الفريق الذي كان عالقاً في ألمانيا بانتظار الموافقة على دخول البلاد فقد بدأ بعد ذلك بمقابلة الناجين الجرحى الذين نُقلوا عن طريق الجو إلى مركز لاندشتول الطبي الإقليمي، وهو أكبر مستشفى أميركي خارج الولايات المتحدة. تمكّنا من جمع معلومات عن آخر الدقائق القليلة قبل الانفجار، وذلك نتيجة المقابلات التي أُجريت معهم، ومع بعض من الذين بقوا على متن كول.

دخلت كول مرفأ تاواهي نحو الساعة ٨:٣٠. وما لبث الطاقم أن أمّن جهة الميمنة المواجهة «للدولفين» – أي محطة التزوُّد بالوقود. بدأت عملية التزود بالوقود. كان مألوفاً أثناء عملية التزود بالوقود أن تعجّ المياه المحيطة بالسفينة كول بالقوارب الصغيرة حاملةً معها المؤن لتعود بالنفايات، وتنفيذ أعمال الصيانة. اقترب أحد القوارب الصغيرة حاملاً معه رجلين. يبلغ طول القارب نحو ٣٥ قدماً وعرضه ٦ أقدام. يستخدم القارب محركاً خارجياً، كما ظهرت سجادة حمراء على سطحه. اقترب ببطء إلى جانب الجهة اليسرى من كول. لوّح راكباه بأيديهما، واستجاب الطاقم للتلويح بالأيدي. لم يكن ذلك القارب مختلفاً عن القوارب الأخرى التي كانت تقترب من كول وتبتعد عنها. لم يكن هناك أي شيء يدل على المتفجرات، أو أي شيء آخر يثير

الشكوك. أطفأ الرجلان محرّك القارب. انفجر القارب بعد مرور ثوانٍ قليلة، أي عند الساعة ١١:٢٢. ظهرت فجوة بقطر ٤٠ قدماً في جانب السفينة. أدت كتلة النار إلى جرح وقتل البحارة الذين كانوا ينتظرون تناول طعام الغداء على ظهر السفينة، بينما ارتفعت سُحُبُ الدخان الأسود في السماء.

كانت الأيام الأولى من التحقيقات أكثرها أهمية، وذلك لأن ذاكرة الشهود كانت ما تزال يقظة، كما أن مسرح الجريمة بقي كما هو، وهكذا كان من المثير لإحباطنا أن لا يُسمح لا لجون أونيل، وهو العميل الخاص المسؤول عن التحقيق، والمشرف المباشر علينا، ولا للآخرين من مكتب نيويورك، بدخول اليمن. رفضت السفيرة بودين تأمين الموافقة على دخول البلاد، وهي التي ظلّت تكرّر أن لدينا ما يكفي من المسؤولين على الأرض. حاولت إدارة مكتب التحقيقات الاتحادي أن تشرح لها أن إجراء تحقيق يتطلب موظفين أمنيين وتقنيين، وغواصين، وخبراء عدليين، ورجال استجواب، ورجال تحرٍ وآخرين، كما يتطلب الأمر وجود عددٍ كبيرٍ من كل هؤلاء. لم تجدِ هذه المحاولات نفعاً، وشعرت بأنها تعرف أكثر من غيرها.

حاولنا تدبّر أمورنا بالتي هي أحسن ووزّعنا الأدوار بيننا. أوكلنا إلى فريق إنقاذ الرهائن، والذي كان تحت إشراف بوب هيكي Bob Hickey، مسؤولية الأمن في الفندق وفي المواكبة. أما ستيف بونغاردت، وبالرغم من أنه تابع العمل بصفته مساعد وكيل القضية، فقد بقي في مركز القيادة بسبب الآلام التي يعانيها في ظهره، وتولى القضايا الإدارية وتنسيق تبادل المعلومات مع وكالة الاستخبارات المركزية. كانت مهمتنا تتبع أولئك المسؤولين عن الهجوم وتقديمهم إلى العدالة، لكن كان من المحتمل أن نقع على معلوماتٍ استخبارية، وهي المعلومات التي كنا نعطيها إلى وكالة الاستخبارات المركزية. كان تركيز وكالة الاستخبارات المركزية على مساعي الاستخبارات، لكن كان من المحتمل كثيراً أن تقوم بالكشف عن معلوماتٍ مفيدة لنا. قال لي أحد زملائي السابقين في مكتب التحقيقات، وهو دون بوريلي: «نحن من يقوم بالتقاط الطيور، بينما وكالة الاستخبارات المركزية تقوم بمراقبتها».

كان جورج كروتش مسؤولاً عن كل الموظفين في مسرح الجريمة ذاته، أي يو. أس. أس كول. خطّطنا كذلك لإرسال مجموعةٍ كبيرة إلى السفينة من أجل التدقيق بالأدلة، وإجراء مقابلة مع كل بحار. كان يوجَدُ ما يزيد عن ثلاثمئة بحار على سطح كول، لكننا ارتأينا أنه من المهم أن نتحدث مع كل واحدٍ منهم على حدة. كان من المحتمل أن يرى أحدهم شيئاً لم يلاحظه أي شخصٍ آخر، لكننا شعرنا كذلك بأن التحدث معهم جميعاً هو أمرٌ يحمل معه فوائد نفسية: عجز عددٌ من البحارة عن النوم منذ حدوث الانفجار، كما أمضوا كل دقيقة من أوقاتهم في محاولة إنقاذ زملائهم والسفينة، وهكذا أردنا أن يشعروا وكأنهم جزءٌ من التحقيق الجاري.

كان توم وارد مسؤولاً عن تفحّص مختلف المواقع. أما أنا، وبصفتي وكيل القضية، فكنت أقود التحقيقات، وأجول بين مختلف المجموعات بهدف التأكد من أن كل شيء على ما يرام. كنت كذلك أتسلّم مسؤولية تنسيق تحقيقاتنا مع السلطات اليمنية. اتفقنا في ما بيننا على أن يعقد فريقنا بأكمله اجتماعاً عند الساعة ٧:٠٠ صباحاً من أجل متابعة التقدم الذي نحرزه.

كان فندق موفنبيك مليئاً بالعسكريين ورجال الاستخبارات، كما أن عدداً كبيراً منهم قد وصل لتوه جواً من أماكن أخرى في الشرق الأوسط حيث كانوا يتمركزون. امتلأ الفندق أكثر في الأيام القليلة التالية بموظفين من مكتب التحقيقات الاتحادي، ووكالة الاستخبارات المركزية، ومن الاستخبارات العسكرية، ومن القيادة العسكرية الأميركية الوسطى في الشرق الأوسط CENTCOM، ومشاة البحرية، ومسؤولي وزارة الخارجية – أي كل الآتين من الولايات المتحدة إلى عدن لأي مهمة رسمية، وطُلب من الجميع البقاء في الفندق. أرادت وزارة الخارجية، ولأسبابٍ أمنية أن يكون كل الأميركيين في مكانٍ واحد، وحتى رجال الصحافة حصلوا على غرفٍ في ذلك الفندق.

أدى العيش معاً في المكان ذاته إلى نشوء روابط وثيقة بين مختلف هيئات الولايات المتحدة التي اعتادت على العمل بشكلٍ منفصل. لم تكن هناك حاجة في أوقات الأزمة ليكترث أحد بهوية الوكالة الحكومية التي يعمل فيها. كنا جميعاً

نمثّل الولايات المتحدة، وكان تركيزنا ينصبّ على أمرٍ واحد: العثور على الجهة التي تقف وراء جريمة قتل البحارة وتقديمهم إلى العدالة. كان ذلك تعبيراً مرحباً به عن الصراعات الداخلية في واشنطن.

كانت الطبقة التاسعة من الفندق مخصصة لمركز القيادة، وقام مشاة البحرية المسلحون الذين يرتدون كامل لباسهم القتالي، والذين يحملون أسلحتهم معهم بحراسة كل مدخل فيها. امتلكت كل الوكالات ومجموعات الاستخبارات مكاتب وخطوط اتصالٍ آمنة في تلك الطبقة، كما لم يسمح بدخول موظفي الفندق أو الأشخاص غير المرخص لهم. كانت تلك الطبقة من الفندق تحت إشراف مايك دورسي، وهو مساعد العميل الخاص NCIS المسؤول عن مكتب الشرق الأوسط الميداني. كان مايك من بين أول الواصلين بعد الهجوم إلى مسرح الحدث في عدن من بين أفراد هيئات تطبيق القانون الأميركيين، وذلك بعد وصوله جواً مباشرة من البحرين القريبة حيث مركز عمله. كانت إحدى مزايا مايك هي أنه لاعب في فريق، وكان أهم شيء بالنسبة إليه هو المهمة الموكولة إليه، وليس من هو المسؤول عنها، وهكذا كان مثالياً في تنسيق أعمال أذرع الحكومة كافّةً، والتأكد من أن الجميع يعملون معاً. تمتلك NCIS أصولاً على الأرض في اليمن – ساعدت هذه الأصول على إزالة الألغام المتروكة من أيام الحرب الأهلية التي عصفت في البلاد – وضع مايك كل ما في يديه من معدات تحت تصرفنا، وأبلغنا بأنه على استعداد لتقديم كل مساعدة يقدر عليها.

كان من المفترض أن يكون موفنبيك أحد فندقين من فئة خمس نجوم في عدن، لكنه كان مزدحماً جداً. حُشر ما بين ثلاثة إلى أربعة أشخاص في غرفٍ لا تحتوي إلا على سريرين، وهكذا تناوب النزلاء على النوم على الأرض. أما أنا فمكثت في الغرفة ذاتها مع جورج وستيف. كنا محظوظين مع ذلك لأن بعض الأشخاص لم يتمكنوا من العثور على غرف. أما أفراد فريق إنقاذ الرهائن فكانوا ينامون على أرض قاعة الرقص. تساءلنا عما إذا كانت توجد فنادق أخرى فقيل لنا إن باربرا كاي. بودين لا تسمح لأي شخصٍ بالمكوث في أي مكانٍ آخر.

كانت بودين إمرأة نحيلة وصارمة في الأربعينيات من عمرها، كما سبق لها أن عملت كسفيرة مفوضة بشؤون الإرهاب في وزارة الخارجية. كانت بودين دبلوماسية محنكة، لكنها كانت تنظر بغرابة إلى الأشخاص الذين يتحدثون معها، فتبدو وكأنها تحاول اكتشاف خداعهم. أخبرنا بعض الذين أجرينا مقابلات معهم من بحارة يو. أس. أس كول بأن بودين عاملتهم وكأنهم مسؤولون عن حادث التفجير، أو كأنهم سبّبوا لها جواً من الانزعاج الذي لا لزوم له. صعُب علينا أن نصدّق بأن سفيرة أميركية تعامل بحارة أميركيين وقعوا لتوهم ضحية هجوم إرهابي بهذه الطريقة.

حضّرت وزارة الخارجية، كما جرت العادة بعد كل هجوم على مواطنين أميركيين في بلدٍ أجنبي، ملصقات مكافأة مقابل العدالة، وهي التي تطلب من خلالها من المواطنين المحليين المساعدة على التحقيق. تؤدي ملصقات كهذه إلى خيوطٍ مفيدة في العادة، أي كما جرى في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا. عمل فريق بودين، ومن دون التنسيق معنا على الأرض، على ترجمة ملصق نموذجي بهدف توزيعه على الصحف اليمنية. تصفحت الصحيفة في اليوم التالي كي أرى الإعلان، وهو المكتوب بالعربية بطبيعة الحال، لاحظت أنه يحذر المواطنين من التعامل معنا بدل أن يطلب منهم التعاون. بدا أن أحداً في السفارة لم يلحظ هذا الخطأ الجسيم.

كانت بودين تميل لأن تفرط في الحساسية بشأن رد فعل اليمنيين على ما نقوم به. ذكّرني موقفها بقصة يرددها زميلي وشريكي في تأليف هذا الكتاب، دانيال فريدمان. تدور القصة حول جورج شولتز الذي عندما كان وزيراً للخارجية كان يستدعي السفير الذي كان على وشك المغادرة إلى البلد الذي سيعمل فيه، ويقول له: «أريد إخضاعك إلى اختبار إضافي قبل مغادرتك. توجّه إلى تلك الكرة». كان يشير إلى كرة كبيرة موضوعة في زاوية مكتبه، ويُكمل: «دعني أرى إذا ما كنتَ تتمكن من التعرّف إلى بلدك». كان كل سفير يقوم بدفع تلك الكرة للدوران، ويشير (أو تشير) إلى البلد الذي سوف يعمل فيه. كان شولتز يقوم عند ذلك، وبلطفٍ بالغٍ، بالإشارة إلى الولايات المتحدة ويقول: «كلا، هذا هو بلدك».

شاهدنا على شاشات التلفزيون في ١٨ تشرين الأول/أكتوبر، وبعد وصولنا إلى اليمن بنحو أسبوع من الزمن، صلاة تذكارية أُقيمت لراحة أنفس ضحايا كول، وذلك في محطة نورفولك البحرية في فرجينيا. ترأس الرئيس كلينتون هذه الصلاة. حضر الصلاة كذلك عددٌ من البحارة المصابين وكانوا إما جالسين على مقاعد مدولبة أو مستندين إلى عكازات. كانت السماء فوق فرجينيا رمادية وداكنة، أي أنها كانت تصلح كخلفية للاحتفال بهذه المناسبة. قال الرئيس كلينتون كل ما هو مناسب، وحذّر أولئك المسؤولين عن الهجوم بالقول: «إنكم لن تجدوا ملاذاً آمناً، وسوف نعثر عليكم، وسوف تنتصر العدالة». رفع ذلك الكلام من معنوياتنا. اعتقدنا أن دعماً كبيراً لتحقيقاتنا هو في الطريق إلينا، وذلك مع الإعلان الذي قدّمه الرئيس.

بدا الأمر جيداً في البداية. تعرّض قرار السفيرة بودين للنقض على يد رؤسائها في وزارة الخارجية، وهكذا سُمح للفريق الذي كان بقيادة جون أونيل بدخول البلاد أخيراً. توجهت إلى المطار بهدف التحضير لوصول جون. لم نرغب أن تلاقي مجموعته المشاكل ذاتها التي واجهناها عند هبوطنا من الطائرة. سبق لي أن عقدت صداقة مع المسؤول اليمني عن المطار، وذلك منذ يومنا الأول في عدن. أبلغته بأن جون هو «رجلٌ في غاية الأهمية في مكتب التحقيقات الاتحادي». أدركت أن معرفة رتبة الشخص وطبقته تؤدّي دوراً مهماً في وعي المجتمع اليمني، وهو الأمر الذي يسهّل على جون دخول البلاد.

سألني المسؤول: «ما هي مدى أهميته؟ عرفت أنه لا يمكن ترجمة «العميل الخاص المسؤول» إلى العربية بصورة دقيقة، ولهذا قلت له إن جون هو «رئيس رئيسي، ورتبته تساوي رتبة جنرال» [لواء]. تأثر المسؤول اليمني، وأبلغني بأنه سوف يرحب بجون شخصياً على المدرج. بدا له أنه من اللائق، بصفته أهم مسؤولٍ في المطار، أن يرحّب باللواء، أما أنا فأومأت بكل جدية. اقترحت عليه كذلك أن يفتح صالون الشخصيات المهمّة أمام الضيوف الجدد، فوافق معي على أن ذلك سوف يكون ملائماً جداً.

رتّب ذلك المسؤول ثلةً من الجنود على المدرج للترحيب بجون. دخلت إلى الطائرة فور هبوطها للترحيب بجون. لم أتمكن من رؤيته في البداية لأن الطائرة كانت مليئة بالركاب. سمعت بعد ذلك صوتاً يصيح بي، «علي». رآني جون فلوّحت له بيدي من باب الطائرة، وما لبث أن شقّ طريقه من بين الركاب وتعانقنا. كان كيفن دونوفون، الذي أصبح في ما بعد مساعد مدير مكتب نيويورك، أحد المسؤولين الذين رافقوه. شرحت له ما ينتظره على المدرج. شعر الركاب بارتياحٍ كبير حتى أنهم ضحكوا، لأن ذلك كان على عكس ما توقعوه.

كان جون على علم بمعظم المشاكل التي واجهناها مع اليمنيين والسفيرة بودين. وضع ذراعه فوق كتفيَ عندما سرنا عبر المطار، وقال لي: «لا تقلق، سنعالج كل هذه المشاكل مع وصول عمدة جديد إلى هذه المدينة». كان جون يوحي بالثقة على الدوام، وكان لحضوره تأثيرٌ يبعث على الطمأنينة، كما أن الأشخاص الذين يعملون معه يعرفون أنه على استعدادٍ ليفعل ما بوسعه لمساندة الذين يعملون تحت إمرته. بقيت متشككاً على الرغم من كل التطمينات التي قدّمها جون. توقعت حدوث تصادمٍ بين السفيرة بودين وبين جون لأنني أعرف شخصية كل منهما.

تمكنت أنا وجون من المرور بسهولة من خلال الترتيبات الأمنية في المطار، والوصول إلى المواكبة التي كانت تنتظرنا، وذلك نظراً للود الذي نشأ بيني وبين اليمنيين في المطار، وبسبب مركز جون بوصفه «لواءً». قمت بلفت انتباه جون إلى اللافتة الموضوعة قرب موقع بناء المطار الجديد والتي تحمل اسم بن لادن، وذلك أثناء مرورنا بمحاذاتها.

كان أول ما فعله جون عند وصولنا إلى فندق موفنبيك هو التحدث مع فريقنا. قال لهم ما قاله لي من أنه سوف يعالج كل المشاكل التي نعانيها. رفع حضور جون من معنويات الفريق. اصطحبته في ما بعد لرؤية كول. كان منظر الفجوة الضخمة في جانب المدمرة، والمظهر المتجهم لوجوه البحارة، يبعث على القشعريرة في كل مرة كنت أتوجه فيها إلى السفينة.

تحدثنا مع قبطان كول، وهو القائد كيرك ليبولد. سأله جون: «كيف حالك؟» ردَ ليبولد بالتحدث عن بحارته. أبلَغَنا القبطان بأسماء الذين قُتلوا، وأسماء الذين جُرحوا، وحدّثنا عن الجهود التي تُبذل لإنقاذ السفينة. تحدث القبطان ببطء، وكان من الواضح أنه ما زال يحاول استيعاب جسامة ما حدث. كان رجلاً شجاعاً ولطيفاً. بدا الأمر وكأن كل واحدٍ من الجنود الذين قُتلوا هو واحد من أبنائه. وضع جون يده حول كتف القبطان وسأله مجدداً: «كيف حالك؟»

ردَ القائد ليبولد: «لست قلقاً على حالي». صمت قليلاً قبل أن يضيف: «البحرية تأكل أبناءها».

كان من المحزن سماع أن القبطان يشعر وكأن حياته المهنية قد انتهت، وما كان يجدر بالأمر أن يكون كذلك. كان القائد [كوماندور] كيرك ليبولد نجم البحرية الأميركية الصاعد. تخرّج ليبولد من أنابوليس كما أنه يحوز كل المواهب والمؤهلات التي تؤهله ليصبح قائداً أعلى في المستقبل في قسم البحرية. لم يكن كيرك مسؤولاً عن خيار السفينة بالرسو في الميناء، كما أنه لم يكن باستطاعته أن يفعل أي شيء لمنع حدوث التفجير. أعتقد أن سلاح البحرية يجب أن يتمسك بالقائد الذي يهتم برجاله بهذا العمق. أبلغنا القبطان هذا الموقف. قال لنا: «لا أهمية لذلك». عاد للتركيز على ما يجب فعله: كان اهتمامه الوحيد هو إنقاذ السفينة. كانت شجاعته وتصميمه يثيران الدهشة. كانت المزايا ذاتها ظاهرة عند كل بحارٍ آخر في السفينة.

سرت أنا وجون حول سطح كول وذلك بعد أن تحدثنا مع البحارة وتفقدنا موقع الانفجار. تمكنا من أَحدِ جانبيها من رؤية تلال عدن وهي تحاذي الأفق. لم يتحدث أحدٌ منا لدقائق عديدة، بل استندنا إلى القضبان، واستغرق كل واحدٍ منا بأفكاره الخاصة به.

كسرتُ ستار الصمت بعد ذلك: «إذا كنا محقّين في فرضيتنا بأن القاعدة مسؤولة

عن ذلك الهجوم، وهو ما أظنه، فإنني متأكد من أنهم كلّفوا شخصاً في تلك التلال لتسجيل هذه العملية من أجل استخدامها لأغراضٍ دعائية. يعني ذلك أنه يوجد شخص إضافي متورط في هذه العملية، وهو ما زال هناك».

أومأ جون وقال: «إذاً، دعونا نعثر عليه».

التقيت لأول مرة في الفندق بعض أعضاء مركز مكافحة الإرهاب التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، والذين كانوا تحت إشراف هانك كرمبتون. سبق أن ذكر زميلي في مكتب التحقيقات الاتحادي، وخبير شؤون القاعدة دان كولمان، شيئاً عن أحد ضباط مركز مكافحة الإرهاب يُدعى إد، وهو الذي كان يعمل معه في باكستان. أبدى دان ثناءً كبيراً على الرجل. وعندما قدّم إد نفسه أبلغته بتقدير دان الرفيع له. كان إد ودياً للغاية، وقال إنه بدوره سمع عني بعض الأمور الطيبة، وذلك من زملائه في وكالة الاستخبارات المركزية. (التقيت إد بعد ذلك في خليج غوانتانامو بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، والتقيته بعدها خلال استجواب أبي زبيدة).

امتلكنا كل الوسائل البشرية للبدء بالتحقيقات الفعلية بعد انضمام جون وبقية الفريق إلينا. بدأنا بعقد اجتماعات في الصباح الباكر كان يحضرها الجميع بدءاً من وكيل القضية وصولاً إلى الموظفين التقنيين الذين يمكثون معنا في الفندق. يمتلك الجميع أهمية بغض النظر عن دور الشخص في التحقيقات، سواء حراسة باب، أو تفتيش موقع، أو استجواب مشتبهٍ بهم. كان من المتعذر على فريقنا العمل بشكلٍ سليم من دون أي واحدٍ منهم. يُضاف إلى ذلك أن كل شخصٍ كان يخاطر بحياته كل يوم لمجرد وجوده في اليمن. يتعيّن علينا أن نعترف بذلك، وهذا هو سبب اشتراك الجميع في الاجتماع الصباحي.

واجهتنا بعض العقبات مع ذلك، وأولها مع اليمنيين. حاولت كل الوكالات الأمنية اليمنية أن تراقبنا، أي كما فعلت في المطار، كما طالبوا أن نطلب الموافقة

على كل شيء. استتبع ذلك تمضية قسم كبير من يومنا بالتفاوض على الشروط ذاتها مرةً بعد أخرى. وصل الأمر إلى عدم اكتفائهم بطلب إعلام PSO إذا أردنا مواكبة لزيارة المدمرة كول، بل كان علينا طلب الموافقة من الاستخبارات العسكرية، ومن الشرطة المحلية، وكذلك من هيئاتٍ أخرى.

برزت أمامنا مشكلة أخرى، وهي الخلاف ما بين أعلى مستويات الحكومة اليمنية حول ما إذا كان الهجوم على كول هجوماً إرهابياً أم لا. ادّعى الرئيس صالح بعد الهجوم مباشرة أنه ليس هجوماً إرهابياً بل مجرد حادث. حاول بعض المسؤولين في الحكومة اليمنية ترديد هذه المقولة، وإقناع الولايات المتحدة بأن سبب التفجير هو عطل طرأ على أنظمة كول التشغيلية، كما طلب صالح من الحكومة الأميركية إعطاءه المال لإصلاح الأضرار التي تسببت بها الحكومة الأميركية في الميناء. وعندما اتضح بشكلٍ قاطع أن الانفجار كان نتيجة لهجوم، حاول صالح إلقاء اللوم على الموساد، وهي وكالة الاستخبارات القومية الإسرائيلية.

واجهنا حالة عدائية من جهاتٍ أخرى: شجب رجال دينٍ في المساجد وجودنا، وحذّروا الناس من التعامل معنا، كما أن بعض أعضاء البرلمان اليمني زعموا أننا نجتاح بلادهم. يُضاف إلى ذلك أننا كنا تحت التهديد الدائم للإرهابيين باحتمال مهاجمتنا. أُضيف مصدر قلقٍ آخر لنا تمثّل في أن عدداً من المسؤولين اليمنيين الذين التقيناهم كانوا متعاطفين، وبكل صراحة، مع القاعدة. دفعتنا تلك العلاقة إلى التساؤل عما إذا كان هؤلاء المسؤولون لهم علاقة ما بالهجوم. بدا أن عدداً منهم منغمسون في لعبة ما مع المتطرفين: يسمحون لهم بالعمل طالما لا يلحقون أضراراً بالمصالح اليمنية. أما الجانب الحسن في هذه المسألة فكان أن عدداً من المسؤولين اليمنيين اعتبروا أن المتطرفين تجاوزوا الخط الأحمر مع تفجير المدمرة كول.

حصلنا أخيراً على سببٍ يدعونا، وبكل صراحة، إلى عدم الثقة ببعض اليمنيين. دخل أحد أعضاء فرقة إنقاذ الرهائن ذات صباح وخلال اجتماعنا عند الساعة ٧:٠٠ وهمس بشيء ما في أذن قائده ثم أشار إلى السقف. نظرنا جميعاً إلى السقف

فرأينا سلكاً مع ميكروفون صغير يتدليان منه. كانت جهة ما تحاول الاستماع إلى ما نقوله. كان السلك ملصقاً بالسقف، لأن الفندق مشيد بالإسمنت وهكذا كان من السهل ملاحظته، ولا بد من أنه وُضع في الليلة السابقة. تتبعنا مسار السلك من قاعة الحفلات (حيث كنا نعقد اجتماعاتنا)، وعبر الفندق صعوداً نحو طبقة متوسطة حيث انتهى وراء جدارٍ فاصل.

كانت إحدى فتيات مشاة البحرية الأميركية تقف إلى جانب كلب متشمّم. كنت أعرف أن اليمنيين عموماً يخافون من الكلاب فطلبت منها أن تأتي معنا. استدرنا حول الجدار الفاصل فرأينا رجلاً يمنياً يجلس وراء طاولة بدت فوقها كاميرات المراقبة، وكان مصغياً لسماعةٍ في أذنه. رأى اليمني الكلب الذي ساعدنا بزمجرته، وما لبث الرجل أن قفز من مكانه وهو يرتجف ثم هرب من نقطة مراقبته.

نظرنا إلى الكاميرات وتفحصنا الأسلاك فاكتشفنا أن اليمنيين قد ركّبوا أجهزة مراقبة داخل عددٍ قليلٍ من غرفنا. هرع بعض المسؤولين اليمنيين إلى المكان بينما كنا نتطلع إلى تلك الأجهزة. سألتُ بلهجة غاضبة قبل أن يتمكنوا من الكلام: «ماذا يجري هنا؟ هل تقومون بمراقبتنا؟ ستنشأ مشاكل بسبب هذا العمل».

رد أحد المسؤولين: «كلا، كلا. فعلنا ذلك لحمايتكم أنتم».

قلتُ وأنا أشير إلى الأسلاك والكاميرات التي تراقبنا داخل الفندق: «إن هذه لا تحمينا. إذا فعلتم ذلك خارج الفندق فلا بأس من ذلك. لكنها لا تحمينا داخل هذا الفندق. أريدكم أن تزيلوها».

كان إقناع اليمنيين بأن الهجوم على كول كان عملاً إرهابياً في حقيقته، وليس عطلاً طرأ على أجهزة السفينة، نوعاً من المنافسة. لم نعتقد أنهم صدّقوا قصتهم الرسمية – لأن ما من إنسانٍ ذكي يمكنه تصديقها – لكنها كانت بلادهم وقواعدهم، وهكذا اضطررنا إلى أن نجاريهم في اللعبة.

اصطحبنا إلى المدمرة كول كبار المسؤولين اليمنيين الذين يمثّلون وكالاتهم

الاستخبارية والأمنية. ضم الوفد رئيس PSO في عدن حسين عنسي؛ ومدير الفرقة الأمنية الخاصة بالرئيس صالح حمود ناجي؛ ورئيس أركان الجيش اليمني؛ وحاكم عدن. أظهر مهندسو البحرية أن الأضرار التي لحقت بالسفينة – كان اتجاه الفجوة الناتجة عن الانفجار من الخارج إلى الداخل، وليس من الداخل إلى الخارج – تعني أن الانفجار لا بد وأنه كان نتيجة هجوم خارجي. روى البحارة بعد ذلك ما رأوه في اللحظات القليلة قبل الانفجار: القارب والرجلَين على متنه. لم يكن هناك من مجال للجدال في ذلك، وهكذا عندما رأى اليمنيون الدماء، والجثث، والآلام التي ظهرت على وجوه البحارة، بدا أنهم تأثروا بالفعل وما لبثوا أن عبّروا لنا عن تعاطفهم معنا.

توجهنا مباشرة من السفينة إلى فندقنا لعقد اجتماع مع اليمنيين، وكنا نتوقع مناقشات إيجابية بشأن كيفية المضي قدماً في تحقيقاتنا. تجمعنا كلنا في قاعة اجتماعات كبيرة، وجلسنا متقابلين، أي الأميركيون في جهة واليمنيون في جهة أخرى. جلس جون قبالة ناجي، وجلست أنا قبالة عنسي، وقمت بالترجمة من جانبنا. كان عنسي أول من تكلم، وكان رجلاً قصيراً ذا شارب، وشعره الأبيض يختلط بالشعر الأسود، كما كان ميالاً للظهور بمظهر الرجل التقي. كانت تظهر ابتسامة متكلفة على وجهه عندما يتكلم. أعطى كل ذلك الانطباع بأنه أذكى الرجال الموجودين في الغرفة، وأنه يضحك في سرّه على كل الآخرين.

بدأ عنسي بالحديث: «نعتقد، بعد التدقيق في الأدلة أن الهجوم على كول كان في حقيقته هجوماً إرهابياً». ترجمتُ ما قاله، فأومأ الجميع. بدأ بالكلام ثانية: «وعلى أي حال...» توقف بعد ذلك، فظهرت تلك الابتسامة المتكلفة لثوانٍ قليلة. «إن الأشخاص المسؤولين عن الهجوم قد ماتوا بعد أن فجروا أنفسهم، لذلك لم يبقَ أي شيء نحقّق فيه، والقضية تنتهي عند هذا الحد». ذُهلت لما سمعته إلى درجةٍ عجزت معها عن الترجمة في البداية. كان من الصعب عليّ تصديق ما تسمعه أذناي. هل هذا الرجل جادٌّ في ما يقوله؟ بدأت بمجادلته من دون التوقف عن الترجمة للآخرين. كان من الصعب جداً عليّ إخفاء الغضب الذي شعرت به.

«أنت تعلم أنه عند حدوث هجوم إرهابي فلا بد من أنه لا يوجد فقط الأشخاص الذين نفّذوا الهجوم. يوجد كذلك ألأشخاص الذين سهّلوا الهجوم. يوجدُ كذلك أولئك الذين صنعوا القنابل، ومن قدّموا المخابئ لهم، والأشخاص الذين ساعدوهم في شراء القارب والمتفجرات. بقي أمامنا عدد كبير من الناس يتعيّن علينا التحقيق معهم. إن هذه القضية هي أبعد ما تكون عن المنتهية».

لم يعرف جون والآخرون شيئاً عما يحدث. كنت الوحيد من بينهم الذي يتكلم العربية في الغرفة. لكن زملائي الذين يعرفونني جيداً أدركوا من لهجتي وتعابير وجهي أن كل ما يُقال لا يوحي بالخير.

ترجمت هذه المحادثة للآخرين بعد أن انتهيت من الرد على عنسي. ظهرت مشاعر الغضب من جهتنا، وكان جون غاضباً على وجه الخصوص. قال جون: إسمعوني جيداً الآن. إننا هنا للعمل كفريق معكم. لكن يجب عليكم أن تعلموا أننا نعمل بكل جدية على هذا الأمر. إننا لا نلعب هنا، ونريد الوصول بالقضية حتى نهايتها. إننا لن نبرح هذا المكان إلا بعد أن نعرف ما جرى. إننا، على أي حال، نود أن نعمل معكم». ترجمت ما قاله جون. أومأ عنسي لكنه لم يقل شيئاً. تأجل الاجتماع بعد ذلك.

اقترب ناجي مني بينما كنت أغادر الغرفة. قال لي: «أيمكنني أن أتكلم معك؟». انتحينا جانباً فقال لي وهو يلمس ذراعي وكأنه يريد تهدئتي وطمأنتي: «لا تقلق. ستقومون بكل ما يلزم ، لكن إصبروا». شعرت ببعض الراحة لأنه بصفته رئيس الفريق الأمني لصالح، كان موفد الرئيس الشخصي إلى الاجتماع. يعني ذلك أنه إذا قال إننا سنتمكن من فعل شيء فإن ذلك سوف يحدث.

تبيّن أن ناجي بقي على وعده. حضر في تلك الليلة اللواء غالب القمش، وهو رئيس PSO، ورئيس عنسي، من صنعاء إلى عدن. توجهت أنا وجون على الفور لمقابلته. كان القمش رجلاً قصير القامة ونحيلاً، وأصلعَ وهو بذلك يبدو وكأنه النسخة اليمنية من غاندي.

توجه القمش بالكلام إلينا على الفور: «يمكننا أن نعمل معاً». قال لنا بعد ذلك: «إنني أفهم سبب حضوركم إلى اليمن وأهمية تحقيقاتكم. لكن يتعيّن عليكم في الوقت عينه أن تتفهموا حساسية اليمنيين». شرح لنا أن بعضهم يعتبر وجودنا بمثابة اجتياح، وهناك قدرٌ كبير من الغضب تجاه الولايات المتحدة بسبب دعمها لإسرائيل ضد الفلسطينيين. أوضح لنا كذلك أنه لا يتوافق مع الشعور بالعدائية ضدنا لكنه أراد أن يشرح الوضع.

كان القمش يعرف الكثير عن القاعدة. كان كذلك أحد اللاعبين الأساسيين عندما كانت PSO مسؤولة عن تجنيد الإسلاميين ضد الجنوب خلال الحرب الأهلية. كانت اليمن من بين البلاد التي لا يُمكن الحكم عليها بمقتضى الأبيض والأسود، لكن بظلال من اللون الرمادي. كان القمش أحد الرجال الإيجابيين معنا أثناء التحقيقات بشأن تفجير كول، وذلك بغض النظر عن الدور الذي أدّاه في السابق في التعامل مع الإسلاميين، لذلك كنا مسرورين لأنه في مركز القيادة. اتفقنا جميعاً على أن يكون تعاملنا الأساسي معه بدلاً من عنسي.

كان التفاوض مع اليمنيين بهدف الحصول على الأدلة والوصول إلى الشهود مسألة تتطلب الإصرار. مرّت معنا في السابق مشاكل مماثلة عندما كنا نعمل في أمكنة أخرى خارج البلاد، وهكذا كنا نعرف كيفية معالجة تلك المشاكل، أي أنه تعيّن علينا الحفاظ على تهذيبنا وحزمنا. تعيّن علينا كذلك الإيضاح بأننا لن نتراجع.

كان من بين أوائل الأمور التي قمنا بها عند وصولنا إلى اليمن هو الطلب من اليمنيين تسليمنا شرائط الفيديو الخاصة بالميناء منذ وقت الهجوم على المدمرة. اتضح لنا لدى مشاهدتنا تلك الأشرطة أن اليمنيين قد عبثوا بها، وهكذا غاب ختم التوقيت بالإضافة إلى بعض المقاطع. أبلغتُ القمش بأننا تسلمنا شريطاً تعرّض للتلاعب ولذلك نود الاطلاع على الشريط الأصلي. حصلنا على تلك النسخة الأصلية من الشريط. لم يُظهر لنا الشريط الكامل أشياء أكثر بقليل، ولذلك لم نفهم سبب

تلاعب اليمنيين بالشريط. استنتجنا أنهم كانوا إما يريدون تضييع وقتنا، أو أنهم يريدون اختبارنا بطريقةٍ ما.

كان مدير مكتب التحقيقات الاتحادي لويس فرييه على علمٍ بالمشاكل التي تواجهنا في اليمن، ولهذا قرّر السفر إلى البلاد للمساعدة على تحريك التحقيقات. لخّصنا له ولكبار المسؤولين الذين رافقوه الوضع في المطار، وكذلك في فندق موفنبيك. اصطحبنا مديرنا بعد ذلك لزيارة الرئيس صالح.

يقومُ القصر الرئاسي، ولدواعٍ أمنية، في أعالي التلال المشرفة على عدن، وهو لذلك بعيدٌ عن السكان. وفي طريقنا صعوداً نحو القصر شاهدنا الشواطئ والخلجان العذراء الجميلة. فكّرت بأنها أنسب ما يكون للغطس.

رحّب بنا الرئيس صالح في القصر. كان أقصر قامةً مما توقعت وشديد التحفظ. كانت الزيارة بروتوكولية بمعظمها: حضر المدير فرييه ليؤكد للرئيس صالح أن الولايات المتحدة جادة بشأن التحقيقات، كما أن صالح بدوره أراد أن يلتقي به لإظهار أن اليمن مستعدّ للتعاون. بدأ الاجتماع بكلمة للرئيس صالح قال فيها إنه لم تتحدد بعد الجهة المسؤولة عن الهجوم الإرهابي. أضاف الرئيس أن الأسلحة المستخدمة في الهجوم كانت من صنع الولايات المتحدة أو إسرائيل. (حرص اليمنيون في تلك المرحلة على إلقاء اللوم على الموساد). أضاف صالح، وسط استغرابنا، الزعيم الليبي معمر القذافي إلى ذلك الخليط، وزعم أنه يتدخل في الشؤون اليمنية. استبعد فرييه، وبكل تهذيب، تعليقات صالح، وقال إنه ما زال من المبكر جداً تحديد الجهة التي أتت منها الأسلحة. وأن الولايات المتحدة متلهفة للعمل إلى جانب اليمنيين للتحقيق في ذلك الهجوم. أضاف كذلك أن الولايات المتحدة ستكون «الشريك الأصغر»، وأن اليمنيين هم الذين سيتولون زمام الأمور. سُرّ الرئيس صالح لدى سماعه ذلك الكلام لأنه يعترف بكفاءة اليمن. ردّ الرئيس صالح بالقول إن اليمنيين سيتعاونون معنا بالكامل، وأكّد أنه يتعيّن على جون أونيل أن يتعامل مباشرة مع القمش.

توجه فريبه بعد ذلك لزيارة كول. تحدث المدير مع البحارة، واستمع إلى ما قالوه، ثم وعد بتتبع أولئك المسؤولين عن الهجوم. عدنا جميعاً إلى فندق موفنبيك لمناقشة التحقيقات، واجتمعنا في غرفة جون. جلس المدير فريبه على مقعد، بينما جلست أنا وجون على السرير، وجلس بعض مسؤولي مكتب التحقيقات على الطاولة، بينما استند الباقون إلى الجدران. كانت أولى المسائل المطروحة هي ما إذا كان من الأفضل أن يعقد مؤتمراً صحفياً. قلق بعض الأشخاص من احتمال أن يؤدي ذلك إلى إثارة القلق لدى اليمنيين لأن المؤتمر يوحي بأن الولايات المتحدة هي التي تتولى قيادة التحقيق. التفت نحوي المدير بعد أن فرغ الجميع من الإدلاء بآرائهم، وقال: «علي، ماذا تقول؟»

فوجئت لأن المدير سألني أنا، وذلك لأنّ في الغرفة مسؤولين في مكتب التحقيقات أرفع مني رتبة يمكنه أن يسألهم. قلت له إنه لا ضرر من عقد المؤتمر الصحفي لإعلان أن بعض التقدم قد تحقق، وذلك بسبب اجتماعه الناجح مع الرئيس صالح. سيُسهم ذلك المؤتمر في تعزيز النظرة الإيجابية تجاه اليمنيين. وافق المدير على طرحي هذا.

التقينا القمش مجدداً بعد زيارة المدير فريبه مباشرة لمناقشة المسائل العملية. اتفقنا على تأليف لجنة مشتركة ما بين مسؤولي الولايات المتحدة والمسؤولين اليمنيين بهدف متابعة التحقيقات. اتفقنا على وضع قواعد يلتزم بها فريقَا الولايات المتحدة واليمن. كان ذلك أمراً في غاية الأهمية: إننا نحتاج إلى أن تكون قواعد الاشتباك ملزمة بحسب قانون الولايات المتحدة وذلك في حال رغبتنا في الملاحقة القضائية لأي شخص يستخدم الأدلة والتصاريح المجمعة في اليمن. جرت معظم المفاوضات المتعلقة بهذه القواعد ما بين دافيد كيلي وقاضٍ يمني. مثّل ناجي مؤسسات الاستخبارات اليمنية والرئيس صالح؛ بينما مثّلت بودين وزارة الخارجية؛ في حين مثّل جون أونيل مكتب التحقيقات الاتحادي. سبق لكيلي أن أجرى في السابق اتفاقية مماثلة مع حكومات دول شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨.

لم يكن القاضي ودياً معنا في البداية. كان ينظر إلى الأمور من منظارٍ سياسي تحجبه آراؤه السلبية عن الولايات المتحدة، وذلك بدلاً من المنظور القانوني. اضطررنا تكراراً إلى أن نشرح له أننا نمتلك متطلبات قانونية يجب الالتزام بها. كانت فكرة ضرورة قراءة تحذير ميراندا على الأشخاص الذين يُخضعون للاستجواب مفهوماً غريباً عن اليمنيين.

فوجئ كيلي ببعض الأمور التي قالها القاضي، وهو الذي توقع معايير أعلى من شخصٍ يمثل الجسم القضائي اليمني. سدّد كيلي نحوي نظرات الدهشة بينما كنت أترجم ما يقوله القاضي. وقع عليّ العبء الأكبر لهذه المفاوضات. اضطررت بصفتي وكيل القضية والمترجم في الوقت عينه إلى التوسط بين الطرفين.

انزعج القاضي مني في بعض الأحيان، واعتقدَ أنني أضع الصعوبات أمامه. لم يظهر أنه يدرك أن المطالب التي قدّمها كيلي إنما كانت متطلبات الجسم القضائي الأميركي. قال لي في إحدى المراحل غاضباً: «إنك تعمل معهم». قالها وكأنني لست أميركياً، وكأنني أختلق المشاكل لليمن. حاول في أوقاتٍ أخرى أن يهينني، وأحسست أنه يتمنى أن أغضب بحيث تنشأ مشاكل جديدة، وهكذا تتحوّل الأنظار عن المسائل الرئيسة قيد المناقشة. لكني رفضت الاشتباك معه.

أما نجاحنا الرئيس في المفاوضات فكان الموافقة على أن يُقرأ تحذير ميراندا على كل المشتبه بهم الذين يخضعون للاستجواب جماعياً. يعني ذلك أن أي شهادة نحصل عليها سوف تكون مقبولة في المحاكم الأميركية. وضعنا كذلك قواعد الحصول على أي خيوط في القضية قد يعثر عليها اليمنيون. برزت نقطة كانت تمثل معضلة بالنسبة إلينا، وهي التي رفض اليمنيون التراجع عنها، وكان مطلبهم أن لا يتم ترحيل أي يمني إلى الولايات المتحدة. أصرّوا كذلك على أن تجري المحاكمات أو المقاضاة في اليمن، وادّعوا أن دستورهم اليمني ينص على ذلك. أما المشبوهون الذين يُلقى القبض عليهم خارج الولايات المتحدة فيُمكن نقلهم إلى الولايات المتحدة.

لم نمتلك ثقة بأن يقوم النظام القضائي اليمني، أو الحكومة اليمنية باحتجاز إرهابيي القاعدة، لكننا تمسكنا بضرورة نقل أولئك الذين تلطخت أيديهم بدماء الأميركيين للمثول أمام القضاء الأميركي، لكن تحتّم علينا سياسياً أن نقبل تلك القواعد. تحققت مخاوفنا بشأن قبول تلك القواعد بعد سنوات، وذلك بعد إلقاء القبض على إرهابيين ومحاكمتهم، ثم فرارهم من السجون اليمنية، وذلك قبل أن يمنحهم الرئيس صالح العفو في النهاية.

برزت نقطة شائكة أخرى تمثلت في كيفية سير استجوابات المشتبه بهم. قال اليمنيون إن مسؤوليهم فقط يمكنهم التحدث مع المشتبه بهم، كما أنه لن يُسمح لنا باستجواب أي شخص مباشرة. لم نمتلك ثقة في أنواع الأسئلة التي سوف تُطرح على الموقوفين إذا ما كان مسؤول محلي من استخبارات بلادهم هو الذي يقوم بالاستجواب. اضطررنا مجدداً إلى القبول بالشروط اليمنية بسبب الضغوط السياسية من وزارة خارجيتنا. أتممنا الشروط المبدئية للتعامل مع نهاية يوم واحد. أما قواعد إجراء الاستجوابات المشتركة فقد استغرقت أسابيع إضافية أخرىً لإتمامها.

قررنا كذلك أن تمر كل طلباتنا عبر القمش، وهكذا وضعنا جانباً مشكلة التعامل مع الوكالات المتنافسة. لا يعني ذلك أننا فعلنا ذلك بسهولة. كان القمش مفاوضاً صلباً، لكنه بخلاف عنسي كان رجلاً عملياً وودوداً. كان من الواضح أنه يتفهم وجهة نظرنا، وكان ذلك أمراً مساعداً. يُعتبر الليل أنسب الأوقات لعقد الصفقات في اليمن. كنا نمضي كل الليالي عندما يكونُ القمش في عدن بالتحدث والمزاح معه، وكنا نتملقه كي يسمح لنا بالوصول إلى المواقع، والشهود، والأدلة.

سمعت باسم بوب ماكفادين لأول مرة عند الساعة ٣:٠٠ من صباح أحد الأيام، وذلك في اليوم التالي لوصول جون أونيل إلى عدن. كنت في غرفتي، لكن من دون استعداد للنوم إلا بعد إنهاء تتبع بعض الخيوط وكتابة التقارير. دخل جون إلى الغرفة ورآني في الزاوية، ثم أشار إلي وقال إنه يريد أن يتحدث معي على انفراد. تبعته بعد ذلك إلى غرفة أخرى.

بدأ حديثه معي: «علي». سمعت نبرة صوته التي كان يحتفظ بها عادة للمهمات غير السارة، ولمحت بعض الإجهاد في ملامحه. «نضطر أحياناً إلى العمل مع آخرين من خارج مكتب التحقيقات. يوجد رجل هنا يدعى روبرت ماكفادين وهو وكيل قضية NICS. يُقال إنه من أفضل الأشخاص العاملين في المنطقة، ويجيد اللغة العربية بدوره». عمد جون إلى المزاح بواسطة النقد الذاتي عن نوعية اللغة العربية التي يُمكن لرجلٍ إيرلندي أن يتكلم بها. أضاف: «ستضطر إلى محاولة العمل معه».

شعرت ببعض الارتباك، وقلت: «هناك شيء لا أفهمه يا سيدي. لماذا تعمل سلطات الهجرة معنا في هذه القضية؟» أدت قلة النوم عندي إلى لفظ NCIS وكأنها INS، أي دائرة الهجرة والتجنيس.

ضحك جون: «كلا، ليس NCIS. إنها سلاح البحرية».

قلت وأنا أضحك: «آسف، الوقت متأخر. هذا أفضل، ولا مشكلة في ذلك. سنقوم بدورنا، وإذا أراد أن يساهم فسوف نكون شاكرين لأي مساعدة قد نحصل عليها».

يعتبر كثيرون أن طلب العمل إلى جانب مسؤولين من وكالاتٍ أخرى هو نوعٌ من الإهانة، كما أن هذا الشعور بالاستياء يُعتبر مشكلةً متكررة. لكنني لا أوافق على هذا الرأي. كان أول شريك لي عندما انضممت إلى الفريق المشترك لمكافحة الإرهاب JTTF من وكالة الاستخبارات المركزية. وعندما أصبحت مسؤولاً عن فرقة حرصت على أن يشترك كل عميل من مكتب التحقيقات مع مسؤول من خارج المكتب. أعتقد أن ذلك كان عملية بناءة ساعدت على تحسين العلاقات، ومستوى التعاون.

قال جون: «أما الآن فإنني أريدك أن تنام، ويمكنك أن تعتبر ذلك أمراً مني». لاحظت أنه كان يتفحص وجهي. لم يكن أحد منا ينال القسط الكافي من النوم. لم

نشعر بأننا نمتلك الحق في النوم مع وجود دماء البحارة على أرض السفينة. كان جون على حقٍ في القلق على صحة فريقه، ومع ذلك كان لدي عمل أقوم به».

قلت له: «دعني لأُنْهي هذا التقرير فقط، ثم أنصرف إلى النوم».

عاد جون إلى مركز القيادة بعد مرور ساعة من الزمن، ووجدني أعمل. كان يكره أن لا يُطاع، وعلى الأخص إذا اعتقد أن المرء يؤذي نفسه. أغلق لي حاسوبي المحمول. قال لي: «انتهينا من العمل. غادِر المكان». وقف ووضع يده على حاسوبي المحمول أثناء خروجي من الغرفة.

عرّفني روبرت ماكفادين بنفسه في اليوم التالي. قال إنه عملَ في استخبارات سلاح الطيران الأميركي قبل الانضمام إلى NCIS حيث تعلّم العربية وعمل في المكاتب في أنحاء العالم العربي. كان من المفترض أن نصبح شريكين في التحقيقات، وأن نسافر معاً في معظم الأحيان، وأن نقوم بالاستجوابات والمقابلات معاً. يتميز بوب بالتهذيب واللطف، وهو صاحب تعليقات لاذعة. يمتلك بوب ذهناً متوقداً كما أنه من الصعب أن يقوم أحدٌ بخداعه. كنا نعمل معاً اثنتين وعشرين ساعة في اليوم تقريباً، وكنا في تنسيقٍ دائم في الأمور كافةً، بدءاً من أي الأدلة تأتي على رأس الأولويات ورسم استراتيجيات التحقيق وصولاً إلى كيفية استجواب المشتبه بهم. توثقت علاقتنا كثيراً في ذلك الحين كما أننا ما زلنا إلى اليوم من أعزّ الأصدقاء.

الفصل العاشر

«إننا عنيدون، لكننا لسنا مجانين»

لم توصلنا الخيوط الأولى التي تتبعناها مع اليمنيين إلى أي شيء، وهكذا تراكم الشعور بالإحباط من جانبنا مع مرور الأيام. خرجت السفيرة بودين في أحد الأيام من اجتماعٍ مع الرئيس صالح وأحضرت معها بعض الأدلة. تبيّن لنا أنه قبل أيام قليلة أحضرَ اليمنيون معهم صبياً يبلغ الثانية عشرة من العمر يُدعى هاني كي يخضعَ للاستجواب. قال أشقاؤه الأكبر منه سناً إن هاني رأى الرجلين اللذين يُعتقد أنهما المهاجمان يحضران بشاحنة صغيرة من نوع نيسان/أبريل، وقارب موضوعٍ فوق مقطورة. رآهما هاني الذي كان واقفاً تحت جسرٍ قريب وهما يركنان الشاحنة في مكان قريب من المياه قبل أن يُحضرا رافعة لإنزال القارب إلى المياه.

دفع الفضول بهاني إلى الاقتراب كي يشاهدهما. لاحظ الرجلان أنه يراقبهما. أشارا إليه بالاقتراب وقدّما له مبلغ ١٠٠ ريالٍ يمني مقابل قيامه بحراسة الشاحنة. لم يكن ذلك المبلغ يساوي الدولار الواحد لكن هاني اعتبره مبلغاً مهماً، ولذلك وافق على العرض. انتظر هاني رجوع الرجلين بعد التفجير الذي تعرضت له كول. شعر بالتوتر مع مرور الوقت وعدم مجيئهما. غادر بعد برهة لأنه خاف من بقائه في مكانه. توجه بعد ذلك إلى أشقائه الأكبر منه سناً وأخبرهم بما حدث، فقرر الأشقاء أنه من الأفضل لهم إبلاغ الشرطة.

قاد هاني رجال الشرطة إلى مكان الشاحنة. كانت شاحنة نيسان رباعية الدفع ذات لون بني شاحب ومزودة بمقطورة خشبية. كان هناك أغراض قليلة في الشاحنة بما في ذلك أوراق ملكية القارب الذي كان باسم عبد اللّٰه أحمد خليل سعيد موساوا مع صورة جواز سفر باللونين الأبيض والأسود، ونظارات شمسية من ماركة راي ـ بان، وبضع حبوب لالتهاب الكبد.

انتهى اليمنيون من تفحّص الأدلة فما كان من الرئيس صالح إلا أن قدّمها إلى السفيرة بودين التي قبلتها وأحضرتها لنا إلى الفندق. دُهشنا لرؤية السفيرة مع الأدلة لأن قبولها تسلّم الأدلة يناقض البروتوكول. كان معظم السفراء سيرفضون تسلّم الدليل الذي يجب أن يسلّم مباشرة إلى مكتب التحقيقات الاتحادي، أو للضابط الأمني الإقليمي RSO، أو إلى ضابط قسم تطبيق قانون الولاية Department of State law enforcement في السفارة.

ينص قانون سلسلة حيازة الأدلة على أن تسلّم السفيرة بودين للدليل يوجب استدعاءها كشاهدة في المحكمة، ويُحتمل أن تتعرض للاستجواب بشأن تسلّمها للدليل، وما إذا كانت قد تلاعبت به. يُعتبر قيام السفيرة بتسلم الدليل، أو الظهور في المحكمة كشاهد عملاً غير اعتيادي. اضطررت أثناء وجودي في ٣٠٢ إلى شرح كيفية حصولنا على الدليل بهذه الطريقة غير المعتادة.

تفحصنا الدليل، ثم طلبنا من اليمنيين أخذنا إلى المكان الذي عُثر فيه على الشاحنة. وصلنا إلى الموقع لنكتشف أن الشاحنة والمقطورة قد اختفتا. أبلَغنا اليمنيون أنهما محجوزتان في مقر الشرطة. لم ترَ الشرطة سبباً لتركهما حيث وُجدتا. لم تدرك الشرطة أهمية ترك مسرح الجريمة دون أن يُلمس حتى ينتهي المحققون من الكشف عليه. يبدو أن العلوم العدلية غريبة عنهم.

أما لو وقعت الحادثة في الولايات المتحدة لكانت السلطات أسرعت إلى إغلاق المنطقة. كان سيُمنع تحريك أي شيء قبل انتهاء المحققين من تمشيط المنطقة.

جال اليمنيون في المكان وأزالوا الشاحنة. شرحنا البروتوكول الذي نتبعه لليمنيين وطلبنا منهم أن يكونوا أكثر حذراً مع الأدلة التي قد تظهر في المستقبل. عمل خبراؤنا العدليون في هذا الوقت على تحليل ما تبقى من مسرح الجريمة.

سألنا اليمنيين عمّا إذا كان بإمكاننا استجواب هاني. دلّتنا فطرتنا على أننا سوف نتمكن من استخلاص مزيدٍ من المعلومات منه. لم نكن على علم بما إذا كان اليمنيون يمتلكون معلومات لم يمرروها لنا، أو ما إذا كانوا حصلوا على شيء آخر. أردنا التحدث مع الصبي على أي حال. رفضوا في البداية، ولهذا اضطررنا إلى طلب تدخل قيادات أعلى، وقدّمنا الطلب إلى القمش. وافق في النهاية، وهكذا توجه بوب للتحدث مع هاني.

كان هاني قيد الاعتقال في السجن، وهو أمرٌ أدهَشنا كثيراً. قال بوب لي في وقتٍ لاحق: «إذا كانت هذه طريقة معاملتهم لأولادٍ أبرياء هم شهودٌ يساعدون التحقيق، فلا عجب أن يرفض الناس التعاون معهم». لم يرغب هاني في البداية أن يقول أي شيء، وذلك لأنه أدرك أن الكلام هو الذي أوصله إلى السجن. لم تساعد في شيء بشرة بوب البيضاء في إيضاح أنه ليس برجلٍ يمني، أو شخص ناطق بلغته العربية الأم. يُحتمل أن يكون بوب أول رجلٍ غربي يقوم الولد بمقابلته. لم ييأس بوب أبداً، وهو تكلم بلطفٍ مع هاني وأبلغه بأنه صديق له. أعطاه بوب بعض الحلوى، ودردش معه حول لعبة كرة القدم وصيد السمك، وكان والد هاني قد قال إن صيد السمك هو شغفه الأكبر.

أعطى هاني بوب بعض التفاصيل حول الرجلين، وحول ما حدث، وقال له إن عائلته تعيش في عدن الصغرى، وهو حي صغير وفقير. كان هاني يمضي أوقات فراغه في مراقبة السفن، وفي اللعب حول الخليج. كان يقوم بصيد السمك في صباح يوم ١٢ تشرين الأول/أكتوبر عندما رأى المشهد الذي وصفه سابقاً للمحققين اليمنيين. تمكّن بوب من استخراج بعض التفاصيل الإضافية حول القارب، كما أن هاني أكّد أن سطح القارب كان مغطى بسجادة حمراء. كان معظم ما قاله هاني لبوب

حول الرافعة، وعرض مبلغ ١٠٠ ريال، يتوافقان مع ما قاله لنا اليمنيون. قال هاني كذلك إن أحد الرجلَين كان يرتدي سترة نجاة. يُحتمل أنه يبدو من المستغرب أن يقوم شخصٌ على وشك تفجير نفسه بالقلق حول احتمال غرقه. كان المنطق وراء سبب ذلك مشابهاً، وإن بطريقة غير مباشرة، للمنطق الذي أنقذ حياة العوهلي خلال تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا: إن الانتحار محرمٌ قطعياً في الإسلام.

كان الإرهابيون ينظرون إلى الشهادة كاستثناء لتلك القاعدة. يعني ذلك أنه إذا كان موتهم نتيجة للشهادة فهو أمرٌ مسموح، وإلا فإنهم يبقون أحياء. وفي حال فشل العملية فإن الإرهابي لن يسمح لنفسه بالغرق، وهو أمرٌ يشبه عدم تمكن العوهلي من تفجير نفسه، وذلك بعد أن قام بدوره المرسوم له في الهجوم على السفارة.

كان بوب خبيراً متمرساً، لذلك أدرك أن هاني يعرف أكثر بكثير عن الرجلين مما قاله عنهم. تبع بوب ذكاءه الفطري فسأل الولد: «متى رأيت هذين الرجلين من قبل». فوجئ هاني بمعرفة بوب لذلك أومأ في البداية. أبلغ الولد بوب بعد ذلك بأنهما رجلان بصحبة رجلٍ ثالث، وذلك قبل عدة أشهر، وفي آب/أغسطس بالتحديد. فشل هاني في تذكّر التاريخ بالضبط. نقل الرجال قاربهم إلى المياه، لكنهم بدلاً من استخدام الرافعة اكتفوا بدفعه. وجّه الرجال بعد ذلك دعوة لهاني وأسرته إلى القيام بجولة بالقارب حول الخليج، وقالوا إنهم اشتروا لتوّهم قارباً جديداً، وإنهم يريدون تجربته.

خمّنت في البداية أن الهدف من اصطحاب عائلة الولد في جولة كان اختبار كم من الوزن يستطيع القارب نقله، وهو الأمر الذي يمكّن الإرهابيين من حساب مقدار المتفجرات التي يمكنهم استخدامها من دون التسبب بغرقه. افترضتُ كذلك أن القارب كان فارغاً في المرة الأولى، وهكذا تمكنوا من دفعه إلى المياه، بينما في المرة الثانية ـ أي عند القيام بعملية التفجير ـ احتاجوا إلى رافعة لأنه كان ثقيلاً بسبب المتفجرات.

لم يكن نسيان التواريخ مشكلة يعاني منها هاني وحدَه. لاحظنا أن هذه هي مشكلة يعاني منها عدد كبير من اليمنيين. يُعتبر التفكير الطولي أقل أهمية عندهم مما هو عند المجتمعات الأخرى. لا يكترث اليمنيون على الأخص بالأعمار، والتواريخ (وعلى الأخص أعياد الميلاد)، والأزمنة. أدى عدد من أسئلتنا إلى إرباك اليمنيين، كما أن إجاباتهم أصابتنا بالإحباط. وعندما سأل بوب والد هاني عن عمر ابنه أجاب: «إنه ما بين العاشرة والثانية عشرة، لكنه أقرب إلى عمر العاشرة». تحدث أحد شهود العيان الذين تكلمت معهم عن أحد المشتبه بهم بالقول: «ولد منذ ما يقرب عشرين عاماً».

سألته: «وكم يبلغ من العمر؟»

«أوه، إنه في الخامسة والعشرين من عمره».

قال لنا عددٌ كبير من المشتبه بهم الذين استجوبناهم بأنهم وُلدوا في الأول من كانون الثاني/يناير. اعتقدنا في البداية أن ذلك لربما يكون مجرد مزاح معنا، لكننا علمنا في ما بعد أن الأول من كانون الثاني/يناير يُذكر كتاريخ الولادة، لكي لا يجد الناس صعوبة في تذكّر تواريخ ولادتهم إذا ما سُئلوا عنها.

رأى شهود محتملون غير هاني من الذين يعيشون قرب الميناء رجلاً ثالثاً يعرفه السكان المحليون باسم عبده. قالوا إنه شارك في ما واصلْنا اعتبارها تجربة. يعرف الناس بعضهم بعضاً في ذلك الحي بسبب صغره، أي أن الغرباء يميّزون بسهولة. يُضاف إلى ذلك أن اثنين من الرجال الثلاثة، وهما عبد اللّٰه وخالد قد رآهما عددٌ كبير من الناس في يوم تفجير كول. افترضنا بأنهما المهاجمان الانتحاريان. تطابقت أوصاف عبد اللّٰه التي زوّدنا بها هؤلاء الشهود مع صورة الرجل الذي يُفترض أنه يدعى عبد اللّٰه أحمد خالد سعيد موساوا، وهو الرجل الذي عثرنا على أوراق ملكيته ونظارته مع حبوب التهاب الكبد في الشاحنة الصغيرة المتروكة. أشار السكان إلى خالد على أنه «الرجل الوسيم». أفاد الشهود كذلك بأنه يظهر بأن عبده هو قائد

الرجلين الآخرين. عثرنا كذلك على عمال الرافعة. أكّد هؤلاء أنهم قاموا بتأجير الرافعة للرجلين مقابل ١٠,٠٠٠ ريال.

عمل أحد الفنانين الذين يعملون مع مكتب التحقيقات الاتحادي على رسم الرجال. كان هو الفنان ذاته الذي رسم صورة «مطلوب» لتيموثي ماكفيه، وهو المسؤول عن هجوم تفجير أوكلاهوما سيتي. كانت تلك عملية مضنية، وذلك لأنه لا يتكلم بالعربية وتعيّن عليه العمل من خلال مترجم. قال الشهود إن الرسوم النهائية كانت شبيهة جداً بالأصل.

أسرّ لي أحد أصدقائي اليمنيين بعد أيام قليلة من وصولنا إلى اليمن بأن بعض أجزاء يو. أس. أس كول، بما فيها أجزاء من غطاء الحماية المصنوع من الألياف الزجاجية الذي كان على سطح الرادار قد طافت إلى الشاطئ. قال لي كذلك إن المسؤولين اليمنيين من وزارة الداخلية قد أخذوا تلك القطع. كان صديقي واحداً من أولئك اليمنيين الذين تعاطفوا مع الولايات المتحدة، وكان ملتزماً بتطبيق العدالة. لم يقل لنا اليمنيون شيئاً عن أجزاء السفينة تلك.

لكن اتفاقيتنا معهم تلزمهم بإعلامنا بكل دليلٍ جديد يُعثر عليه. إن أي جزء، وكل أجزاء كول، هي ملك الولايات المتحدة. سألتُ عنسي حول ذلك الحطام، لكنه أنكر معرفة أي شيء عن أجزاء طافت نحو الشاطئ. أكد لي بعض الأصدقاء اليمنيين الآخرين قصة العثور على الأجزاء، كما أعلموني بكيفية العثور على المختبر الذي يحتفظ بالحطام.

كانت قافلتنا ذات مساء تتحرك من موقع إلى آخر، فطلبت من سائقينا الانعطاف والاتجاه نحو ذلك المختبر. لم أشأ إعطاءً اليمنيين إشارة مسبقة عن قدومنا. كان ذلك المختبر عبارة عن منزلٍ مسيّجٍ مع باحة وبوابة. يحتوي ذلك المنزل على غرفٍ قليلة. فوجئ اليمنيون هناك بنا، وهم الذين كانوا يتناولون طعام الغداء، لكنهم دعونا للدخول وإن بحذر.

سأل المسؤول عن المختبر: «ماذا يمكننا أن نفعل لأجلكم؟»

«تعلمون أننا نعمل سويّاً في التحقيقات الجارية بشأن تفجير المدمرة كول».

أومأ المسؤول فتابعت كلامي: «ولذلك جئنا كي نعرف ما إذا كان لديكم شيء هنا لنعمل عليه سويّاً».

ردّ المسؤول: «إننا لا نمتلك شيئاً هنا».

«ألا تمتلكون شيئاً هنا من كول؟»

«كلا».

سرتُ متجاوزاً إياه نحو الغرفة التالية: «حسناً إذاً».

سألني، وعلامات الارتباك بادية على وجهه: «ماذا تفعل؟»

قلت: «إننا نمتلك موافقة على البحث هنا، ونريد أن نرى ماذا عندكم». أعطيت إشارة لزملائي كي يبدأوا بالبحث في المنزل. اعترض المسؤول، لكنه بدا غير متأكد مما يجدر به عمله. أعطيته هاتفي الخلوي وقلت له: «أترغب في أن تتصل بأحد للتأكد مما كان يجب عليك أن تعرفه مسبقاً؟» بدا الرجل متردداً بعض الشيء. تجاوز الوقت موعد الغداء بقليل، أي أن معظم كبار المسؤولين كانوا مستغرقين في قيلولة ما بعد الظهر، كما أنه لم يرغب في إيقاظهم من دون ضرورة لذلك. مضينا في بحثنا بينما استمر في تتبعنا مع قليلٍ من التوتر.

عثرنا بعد دقائق قليلة من البحث في الغرف على أجزاء من غطاء رادار كول مع قطع أخرى من حطام المدمرة. طلبت من فريقي تحميل هذه الأجزاء في شاحناتنا. سألني المسؤول بعد أن ركض نحوي: «ماذا تفعل؟ توقف! لا يمكنك أخذها!»

قلت له: «إسمعني الآن جيداً. قلتَ لي عندما أتينا إنكم لا تمتلكون أي شيء من يو. أس. أس كول هنا. لكن هذه هي قطع من كول، وهي ملك الولايات المتحدة، وأنا سآخذها معي».

قال لي: «انتظر لحظة؟ دعني أتحدث مع أحد الأشخاص أولاً». بدأ بطلب رقمٍ ما في هاتفه الخاص.

قلت لفريقي: «دعونا ننطلق!» لم أرغب في المكوث مدة أطول. قفزنا إلى السيارات وانطلقنا بها.

صاح جورج: «أخفضوا رؤوسكم». لم نكن متأكدين مما إذا كانوا سيطلقون النار علينا. تمكنا من المغادرة بأمان والعودة إلى فندقنا. لم يذكر أي مسؤولٍ يمني ذلك الحادث أمامي بعد ذلك.

علمنا من أسرة هاني وصيادي المنطقة أن الرجال أتوا مع القارب من مدينة الشعب، وهي منطقة فقيرة أخرى من عدن. تحدثنا مع عاقل الحارة، وهي العبارة اليمنية عن العمدة غير الرسمي للحي - وهو الذي قال لنا إن عدداً من السعوديين شوهدوا وهم يدخلون ويخرجون من منزلٍ معين، كما شوهد معهم أحد القوارب. دلّت لهجة الرجال على أنهم من السعوديين. اصطحبنا عنسي، وبعض اليمنيين الآخرين إلى المنزل. لاحظنا عند اقترابنا من المنزل أنه مؤلف من طبقة واحدة ومحاط بجدار، كما يشتمل المنزل على باحة خلفية. كان أحد جدران السور جداراً للمنزل كذلك، كما أن أحد الجدران الخارجية يشتمل على بوابة واسعة بما يكفي للسماح بدخول شاحنة وخروجها.

أخبرنا عنسي ويمنيون آخرون بأنه ينبغي علينا الانتظار في الخارج، وما لبثوا أن دخلوا أولاً. خرجوا بعد دقائق قليلة وقالوا لنا: «لا يوجد شيء في المنزل. يمكننا متابعة طريقنا».

«أيمكننا إلقاء نظرة؟»

قالوا لنا: «ستضيعون وقتكم، لكن إذا أصررتم يمكنكم ذلك».

اعتبر اليمنيون الذين يفتقدون إلى الخبرة في الشؤون العدلية أن منزلاً لا يحتوي على أدلة حسّية (بطاقات هوية، أوراق، وأسلحة) هو منزل لا يحتوي على شيء.

لكن المحقّقين العدليين في مكتب التحقيقات الاتحادي وجدوا في المنزل كنزاً: عثرنا على شعر، وعلى ما تبيّن لاحقاً أنها بقايا مادة RDX وتي. أن. تي، وبعض أدلة أخرى. (RDX، أو سيكلوتري ميثيلين تري نيترامين، هو النيترامين الذي يشكّل أساساً لعددٍ من المتفجرات). لم نعمد إلى إخفاء حقيقة أن ما وجدناه كان في غاية الأهمية. حاول عنسي، وبعد أن أدرك أنه وفريقه قد أخطأوا، إبلاغنا بأنه يتعيّن علينا مغادرة المنزل والعودة لاحقاً. لم نكن مستعدين للمخاطرة بفقدان كل تلك الأدلة. وهكذا أصررنا على البقاء.

لم يمتلك عنسي سبباً كافياً لحملنا على المغادرة. وهكذا اكتفى مع اليمنيين الآخرين بمراقبتنا مدهوشين عندما بدأنا بتجميع الأجزاء التي كنا نأمل بأنها ستشكّل دليلاً. بدأ بعضهم بالقهقهة عندما رأونا نجمع التراب من الأرض لعلنا نعثر على أثر من الحمض النووي DNA وأدلة أخرى، لكنهم بدأوا في ما بعد بتقدير وسائلنا. استُخدمت تقارير المختبرات التي أعددناها في محاكمات الإرهابيين التي جرت أخيراً في المحاكم اليمنية. عمدت إلى تقديم ملخصٍ للمدعي العام اليمني حول تقارير المختبرات بشكلٍ مسبق، وبحيث يتمكن من شرح أهميتها أمام القاضي في المحكمة.

عمدنا في ما بعد إلى تتبع مالك المنزل. قال لنا إنه قام بتأجير المنزل إلى رجلٍ قُدّم إليه على أنه عبده في العام ١٩٩٩. تطابقت الأوصاف التي أعطاها عن ذلك الرجل مع الأوصاف التي حصلنا عليها في الميناء. أنكر المالك عدا ذلك معرفة أي شيء عن الرجال وقال إنه أراد تأجير المنزل، وكسب بعض المال. كان اسم المالك في عقد الإيجار عبده حسين محمد. لم يسبق لنا أن سمعنا بذلك الاسم من قبل. قال اليمنيون إنه لا يعني شيئاً بالنسبة إليهم، وهكذا بدا لنا أننا فقدنا الأثر عند هذا الحد.

تابعت التفكير باسم عبده حسين محمد. بدا لي الاسم مألوفاً لديّ بعد التمعّن فيه، لكنني لم أعرف سبب ذلك في البداية. عدت إلى مقر قيادتنا وتوجهت إلى غرفة التخزين، ثم تناولت ألبوم صور يعود إلى تفجيرات السفارتين التي حدثت في

شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨، والذي كان ألبوم صور القاعدة الأساسي لدى مكتب التحقيقات الاتحادي. اشتملت الصفحتان الأولى والثانية على قائمة بأسماء كل شخص ظهرت صورته في الألبوم. خطرت لي فجأة فكرة أثناء تصفّحي الألبوم: يُمكن لعبد الرحيم حسين محمد عبده النشيري أن يكون هو ذاته عبده حسين محمد. يقتصر الأمر على تبديل مواقع الأسماء الوسطى.

أبلغنا العوهلي، ذلك الانتحاري الفاشل أثناء التحقيقات في تفجيرات نيروبي، عن سماعه إرهابياً آخر، وهو عبد الرحيم حسين محمد عبده النشيري وهو يناقش خطة لمهاجمة سفنٍ أميركية في عدن باستخدام الصواريخ. برز اسم النشيري كذلك لأنه قريبٌ لأحد مفجّري نيروبي، وهو جهاد علي. كنا نعلم أن النشيري هو الذي ساعد على تحضير جهاد علي لتلك العملية، كما أن تلك المكالمة الهاتفية مع خالته، أي والدة جهاد علي، والتي أعلمتها باستشهاد ابنها، كان مصدرها النشيري، وذلك قبل يوم واحد من عملية التفجير: أراد الرجل بذلك تجنب ربط قريبه بحادثة تفجير السفارتَين في شرق أفريقيا بشكلٍ مباشر، ولهذا أعلن عن موته مسبقاً. كنا كذلك على علم بأن النشيري أدّى دوراً في محاولة تهريب صواريخ ساغر المضادة للدبابات إلى داخل المملكة العربية السعودية.

دلّني حدسي على أن الرجل هو ذاته، وأشرت إلى آخرين عن مسألة تبديل الأسماء. كانوا متشككين مع ذلك لأنه لم يُعرف عن النشيري أنه شخصية هامة في القاعدة، كما أن عدداً قليلاً من الأشخاص سمع به. أصررت على رأيي لأنني كنت مقتنعاً بالتطابق بين الاسمين. شرحت نظريتي أمام جون أونيل. قال لي: «يُحتمل أن يكون هو، لكن شكوكك ليست كافية، ولهذا تحتاج إلى برهانٍ إضافي».

توجهنا إلى اللواء القمش، وتحدثت معه عن نظريتي: «أعتقد أنك قد تكون على حق». عثر اليمنيون على أوراق تسجيل سيارة باسم عبد الرحيم حسين محمد عبده النشيري، وذلك داخل شاحنة نيسان، وذلك بالإضافة إلى الأوراق التي تخص القارب. تحتوي أوراق تسجيل السيارات في اليمن على صورة المالك، وصورة

عن رخصة القيادة العائدة للسائق. قال القمش وهو يبسط أمامنا هوية الرجل: «إنه الاسم ذاته لكن بعد أن يُلفظ النشيري». لكن الصورة لم تتطابق مع صورة النشيري الموجودة في ألبوم الصور. إما أن نظريتي كانت خاطئة أو أن شخصاً ما كان يحاول تضليلنا في ما يتعلق بظهور النشيري. افترضنا أن النشيري لربما ترك عمداً صورة هوية زائفة في الشاحنة الصغيرة بحيث نظن أنه مات. كان من المستغرب كذلك أن لا يذكر اليمنيون إلا الآن أنهم عثروا على هوية الرجل. تساءلت عن السبب الذي دفعهم لعدم إعطائنا الهوية مع كل الأشياء الأخرى التي عثروا عليها في الشاحنة، أو على الاقل، لماذا لم يذكروا أمامنا أي شيء عنها؟ لم تكن لدينا إجابات فورية عن هذه التساؤلات.

عرضنا صورة النشيري في العام ١٩٩٨ على صيادي الأسماك وعلى هاني. أكّد الجميع أن الصورة هي صورة عبده. يعني ذلك أن عبده حسين محمد الذي استأجر المنزل كان النشيري في واقع الأمر. عدنا إلى مالك المنزل، وسألناه عن كيفية تعرّفه على النشيري فشرح لنا أن رجلاً يدعى جمال البدوي هو الذي عرّفهما على بعضهما بعضاً. أفاد الشهود الذين سألناهم بأن بدوي قد شوهد في الحي، وحدث الشيء ذاته بالنسبة إلى موساوا. أخبرنا اليمنيون بأن بدوي كان ناشطاً محلياً معروفاً في القاعدة، وأنهم سوف يحاولون اقتفاء أثره. أضاف مالك المنزل أنه وجد المنزل مهجوراً في أوائل شهر كانون الثاني/يناير. لم يُعلمه النشيري بأنه سوف يترك المنزل مع المستأجرين الآخرين. أضاف أنهم حتى لم يتركوا له المفاتيح، ولم يرهم مجدداً على الإطلاق.

اعتقدنا أنه لربما تكون صورة الشخص المثبتة في بطاقة هوية النشر تعود إلى المهاجم الانتحاري الثاني، وأن الصورة الأخرى تعود إلى موساوا. تتناسب هذه الفرضية مع نظريتنا بشأن التضليل المتعمّد. لم يتعرف هاني والصيّادون على صورة النشر، ولهذا أرسلناها إلى كل مجتمع الاستخبارات والسفارات كي نعرف ما إذا كان أي شخص يعرف أي شيء عنه.

دخل صاحب الصورة المثبتة في هوية النشر إلى السفارة الأميركية في صنعاء، وذلك بعد مرور أسابيع قليلة، أي في شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠١. انتظر الرجل في الصف، وعندما وصل إلى أوله أبلغ الموظف بأنه يريد تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة. تطلع الموظف إليه واتسعت عيناه. تطابق وجه الرجل مع صورة المطلوب التي كانت موزعة في أنحاء السفارة. أعلمَ الموظف جهاز الأمن في السفارة، كما مُرّرت الرسالة إلينا.

كانت تلك أنباءً سارة إلى درجةٍ يصعب تصديقها. لم يتم إلقاء القبض على مشتبهٍ به بهذه السهولة. اتخذت السفيرة قرار عدم إلقاء القبض عليه. قالت إن الرجل جاء كي يطلب خدمة، وهكذا شعرت السفيرة أن إلقاء القبض عليه سيكون أشبه ما يكون بالخطف، وهو الأمر الذي يشكّل مشكلة دبلوماسية، وهو قلقٌ يمكن للمرء أن يتفهمه. عمدت السفيرة، وبدلاً من إلقاء القبض على الرجل، إلى إعلام اليمنيين، كما أننا طلبنا من موظفي السفارة إبلاغ الرجل بضرورة العودة عصراً لتلقي الرد. ما إن خرج الرجل حتى ألقى اليمنيون القبض عليه. خضع الرجل للاستجواب على مدى ساعاتٍ عدة، لكنه أنكر معرفته بأي شيء يتعلّق بالمدمرة كول. قال كذلك إنه لا يعرف سبب وجود صورته على هوية الرجل الذي يدعى النشر. بدا الرجل مرتبكاً ومصدوماً بتلك الاتهامات، وكانت ردة فعله صادقة بشكلٍ واضح بحيث قررنا في نهاية الأمر بأنه صادقٌ في أقواله. افترضنا كذلك بأنه توجّه إلى استديو تصوير لأخذ صور جواز سفرٍ له، وأن أحداً ما سرق نسخة منها كي يستخدمها في بطاقة هوية مزورة. كانت تلك مصادفة بائسة بالنسبة إليه، لكنه لم يحصل على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة على أي حال. (كان الشخص الوحيد الذي سمح لنا اليمنيون باستجوابه كلما أردنا ذلك).

قررنا، وبعد تجميع كل الدلائل التي عثرنا عليها، بما في ذلك الدور الذي لعبه النشيري، أنه من الواضح أن القاعدة هي التي تقف وراء التفجير. بدأ فريق واشنطن الميداني التحضير لمغادرة عدن، وتسليم القضية بأكملها إلى مكتب نيويورك.

تسلمت كل الجهات المعنية بما فيها البيت الأبيض، والجيش، ووكالة الاستخبارات المركزية، والقيادة الوسطى، مذكرةً ملخصة توضح حقيقة أن تفجير المدمرة كول كان عملية للقاعدة. انتظرنا رداً أميركياً ضد القاعدة، وتابعنا الانتظار.

ذكر الشهود اسم بدوي ثم عثر عليه اليمنيون في صنعاء، واستدعوه للاستجواب في غضون عدةِ أيام. لم يُسمح لنا باستجوابه مع ذلك. كانت الولايات المتحدة واليمن في ذلك الحيّن في المراحل النهائية للتوصّل إلى اتفاقية حول الاستجوابات، وهي الاتفاقية التي أصبحت تُعرف باسم لجنة التحقيقات اليمنية الأميركية المشتركة، كما تابع كيلي والقاضي التفاوض بشأن الشروط. تابعنا الضغط في هذا الوقت على القمش من أجل الحصول على معلوماتٍ إضافية عن النشيري. قال لي في إحدى المرات وبعد شعوره بالإحباط بسبب طلباتي المتكررة: «إسمع، النشيري ليس مهماً. أخبرنا بدوي بأن إرهابياً يدعى خلاد هو الذي عرّفه على النشيري. خلاد هو الرجل المهمّ على أي حال». وطوى القمش يديه.

«خلاد؟» تذكرت الاسم من محادثة أجريتها قبل أشهرٍ مع أحد المصادر في أفغانستان، وكان تحدث عن إرهابي في القاعدة ذي رجلٍ واحدة، وتذكرته كذلك من التقارير التي تحدثت عن إلقاء القبض عليه عن طريق الخطأ خلال الوقت الذي حدثت فيه عمليات سرقة سيارات بيت هبرة والتي هدفت لتمويل عملية هروب المحضار. سرت شائعات أنه بعد إلقاء القبض على خلاد كتب بن لادن بذاته رسالة إلى اليمنيين ووجهها «إلى كل من يهمه الأمر من الإخوان في اليمن». طالب بن لادن في هذه الرسالة «إطلاق سراح ابن عطاش». لم يُذكر خلاد بالاسم لكن موضوع الرسالة كان واضحاً بما فيه الكفاية. مضت الرسالة إلى تهديد اليمنيين بأوخم العواقب إذا لم يُطلقوا سراح مبعوث بن لادن.

لم يُعثر أبداً على تلك الرسالة، كما لم يؤكد اليمنيون وجودها على الإطلاق. لكن لم يكن من المستغرب أن يقوم بن لادن بكتابة هذه الرسالة، وذلك لأنه كان يُنظر إلى زعيم القاعدة في تلك المرحلة ليس كرجلٍ إرهابي دولي، بل على أنه مجاهد محترم

من الجهاد الأفغاني الأول، وهو لذلك كان معروفاً، ومهاباً، ومحترماً. كان البراء على أي حال في أحد السجون اليمنية بزعم تورطه في مؤامرة سرقات سيارات بيت هبرة. أخبرني مصدري في أفغانستان بأن البراء وخلاد متشابهان، وهي حقيقة أكّدها نشطاء آخرون في القاعدة سبق لي أن استجوبتهم: عندما عرضت عليهم صور البراء تمكّن شخصٌ واحد على الأقل من التعرّف على الرجل في الصورة على أنه «خلاد عندما كان أصغر سناً»، لكنهم اتفقوا جميعاً بشأن أوجه الشبه.

كانت كل هذه المعلومات التي استقيتها من مصدري سرية، ولم يُسمح لي بإبلاغ القمش بأننا نعرف كل شيء عن خلاد والبراء. انتحيت وجون جانباً وأخبرته بما قاله القمش وطلبت منه الإذن بكشف ما أعرفه. لم يطل الأمر بجون قبل أن يتسلم الموافقة من واشنطن.

عدنا إلى القمش، وقال له جون: «يا صديقي، سبق لك أن قلتَ إن النشيري غير مهم، وأن خلاد هو الشخص الأهم، ولذلك نود أن نطلب منك صور خلاد والبراء. أعتقد أن البراء ما زال في سجونكم، أليس كذلك؟».

فوجئ القمش بهذا الطلب. ردّ علينا بهدوء: «أجل، البراء ما زال في السجن».

تابع جون كلامه: «علمنا أنكم قبضتم عليه منذ حادثة بيت هبرة. ألقيتم القبض كذلك على خلاد في الوقت ذاته تقريباً. أود الحصول على صورهما وملفاتهما».

بدا القمش متردداً في جوابه. لم يسبق له أن ذكر اسم البراء أمامنا، ولم يتوقع أننا نعرف هذا القدر من المعلومات عنه، دعك من معلومة أن اليمنيين يحتجزونه. طلب مني جون إعطاء بعض المعلومات عن خلاد والبراء، وهو ما فعلته. أبلغَنا القمش بأنهم يعرفون ما يكفي عن الرجلين، كما أعطانا معلومات جديدة.

كان من الصعب بطبيعة الحال الحصول على معلومات منه بهذه الطريقة، لكن طريقة تبادل الأحاديث هكذا لم تكن بالأمر غير الاعتيادي. لا تقوم أي وكالة استخبارات (حتى ولو كانت وكالة حليفة) بإعطاء المعلومات إلا إذا علم مسؤولوها

بأن الطرف الآخر يعلم معظمها، أو يعرف شيئاً عنها على الأقل، أو إذا اعتقد المسؤولون بأن من مصلحتهم إعطاء المعلومات. يُضاف إلى ذلك أن المسؤولين لا يرغبون في أن يظهروا بمظهر غير المتعاونين. أما إذا كانت الوكالة تعتقد أننا لا نعرف الكثير عن مشتبهٍ به، أو موضوعٍ ما، فإن احتمالات إعطاء المعلومات التي بحوزتهم تكون أقل بكثير.

أعطاني القمش عندما التقيته في المرة التالية في ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر مظروفاً. قال لي إن المظروف يحتوي على صورة كان خلاد قد أعطاها عندما قدّم طلباً للحصول على رخصة تجارية لفتح متجر في صعدة. (كان متجره هذا مجرد غطاء، لأن خلاد خطط لاستخدامه كمكانٍ لتخزين المتفجرات). كان الاسم الذي حملته الرخصة توفيق محمد صالح بن راشد. قال القمش مع ابتسامة: «هذا المظروف بعهدتك».

بدا خلاد في هذه الصورة في أوائل الثلاثينيات من عمره مع وجهٍ يميل إلى الاستطالة، وذا شارب وشعرٍ أسود اللون. تعكس عيناه السوداوان نظرة حالمة. يعمد المرء عندما يتتبع شخصاً ما إلى تكوين صورة ذهنية عنه، وذلك قبل أن يعرف كيف يبدو. يبدو الأمر مفاجئاً عندما يرى المرء الصورة الحقيقية. لم يكن خلاد على مثال ما تخيلته.

عندما عدت إلى الفندق في ذلك المساء عمدت إلى توزيع صورة خلاد داخل المؤسسات الاستخباراتية الأميركية. عمد أحد زملائي الذي يعمل في مكتب التحقيقات الاتحادي في إسلام أباد إلى عرض تلك الصورة على مصدري في أفغانستان وذلك بعد بضعة أيام من رؤيته، فأكّد المصدر أن الصورة تعود إلى خلاد ذاته. تلقت كل وكالات الاستخبارات الأميركية هذا التأكيد بعد ذلك.

وبالنسبة إلى إلقاء القبض الزائف على خلاد فقد علمنا لاحقاً أن سيارة أقلّته تعود ملكيتها إلى تاجر سلاحٍ ومتفجرات يمني معروف يدعى هادي محمد صالح

الورش (والمعروف باسم هادي دلقم)، وهو التاجر الذي كان يشتري منه المواد. حدثت هذه العملية في وقت يكاد يتزامن مع حادثة بيت هبرة. توقف خلاد أمام حجرة هاتف بعد أخذ السيارة في وقت متأخر من الليل، وأراد إجراء مكالمة هاتفية، لكنه عندما عاد إلى السيارة وجد نفسه محاطاً بضباط الاستخبارات اليمنية المحلية.

رفض المسؤولون اليمنيون في البداية الاعتراف بوجود هادي دلقم عندما سألتهم عنه، وقالوا إنه لا يوجد أحد بهذا الاسم كي نستجوبه. كانت إحدى المعلومات القليلة التي تمكّنا من معرفتها عن هادي دلقم هي أنه كان على علاقة وثيقة ببعض اليمنيين النافذين. افترضت في ذلك الوقت أن تلك العلاقة هي التي أنقذته من السجن. علمنا لاحقاً أن السلطات استخدمته (مع عدد آخر من أمثاله) بهدف تزويد المجاهدين بالأسلحة المستخدمة ضد اليمن الجنوبية خلال الحرب الأهلية. وبعد النصر الذي حققه الشمال في الحرب سُمح له، وإن بصورة غير رسمية، بالعمل بحريةٍ في البلاد مادامت أعماله لا تؤذي المصالح اليمنية.

لم تتوضح أبداً ظروف اعتقال خلاد وإطلاق سراحه بعد ذلك. كان اليمنيون متكتمين جداً بشأن تلك الحادثة، أما أنا فأعتقد أنهم كانوا محرجين كذلك. علمنا من مصادر أخرى أن عند اعتقال خلاد اتهمه المسؤولون اليمنيون بأنه هادي دلقم. افترض بعض أعضاء فريقنا، وبناءً على ذلك، أن اليمنيين عند إلقاء القبض على خلاد كانوا يريدون في الواقع إلقاء القبض على دلقم. كان من سوء حظ خلاد أنه كان يستعير سيارة دلقم في ذلك الوقت. تطابق ذلك التفسير مع الرواية القائلة إن خلاد أخذ المتفجرات معه عند إطلاق سراحه. كانت المتفجرات في صندوق سيارته التي يبدو أن مسؤولي الاستخبارات اليمنيين لم يفتشوها على الإطلاق.

ظهر تفسير بديل يقول إن هادي دلقم هو الذي أخبرهم بأن خلاد يبدو أنه ينوي سوءاً. يُحتمل أن يكون هادي دلقم قد قلق من أن يتم التحضير لعملية في اليمن تُستخدم فيها متفجراته، وهو الأمر الذي سيوقعه بمشاكل مع السلطات مما دفعه للوشاية به. فكّرنا بأن ذلك يفسّر السبب الذي يدفع باليمنيين إلى عدم السماح لنا باستجواب هادي دلقم.

عندما عرضنا صورة النشيري التي أخذناها من ألبوم صور قضية السفارتين في شرق أفريقيا على الصيادين، أخبرونا، وبعد تأكيدهم أنه عبده، بحادثة وقعت قبل عشرة أشهر: نزلت مجموعة من شباب الحي في يوم ٤ كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٠ إلى الخليج قبل انبلاج الفجر، وذلك بحسب عادتهم. قال الشباب إنهم من الصيادين وإن روتينهم اليومي يقضي بالبقاء قرب المياه وداخل كوخ صيادين. كانوا خمسة من الشبان الذين تتراوح أعمارهم ما بين السابعة عشرة وأوائل العشرينيات، وهكذا أطلقنا عليهم اسم فتيان الشاطئ الخمسة.

رأوا قارباً عندما نزلوا في ذلك الصباح قرب خط المياه مزوداً بمحرك ياماها حديث الصنع. انتظر الشبان ليعرفوا ما إذا كان صاحب المحرك سيعود لاستعادته. لم يأتِ أحد، لذلك توجهوا إلى القارب. رأوا سجادة حمراء اللون على سطح القارب. تقدم الشبان ورفعوا السجادة ولوح الخشب الذي تحتها، فرأوا عدداً من الحجرات. ارتبك الشبان عندما رأوا ما اعتبروا أنه بطاريات إضافية وأسلاك متدلية أخرى. عثروا تحت هذه البطاريات على ما اعتبروه «أحجاراً» تحمل كتاباتٍ روسية عليها. ظهر ثقب اخترق جميع الأحجار، كما رأوا سلكاً يمر داخل الثقب. ظنوا في البداية أن هذه الأحجار قد تكون من الحشيشة، وأن القارب يمتلكه المهربون الذين كانوا ينشطون في المنطقة. حاولوا قطع جزءٍ من الأحجار ليعرفوا ما إذا كانت بمذاق الحشيشة. لم يفعلوا ذلك ، ولكنهم افترضوا أنهم وجدوا شيئاً ذا قيمة.

كان أول ما أرادوا أخذه هو المحرك، وهو الذي عرفوا أن قيمته كبيرة. قدّروا أن ثمنه يبلغ خمسة آلاف دولار. لم يكن الشبان الخمسة من ذوي الأجسام الكبيرة أو القوية ـ واليمنيون عموماً صغار البنية بالمقاييس الغربية ـ ولذلك عندما أزالوا المحرك انتهوا بإلقائه في المياه. تمكّن الشبان في نهاية الأمر من نقل المحرك إلى كوخهم. شكّل الشبان بعد ذلك سلسلة بشرية لإزالة «الأحجار» من القارب وكانوا يناولونها بعضهم إلى بعض ويكدسونها في الكوخ. لم يعرف الشبان أبداً أن هذه الأحجار هي متفجرات، وأن السلك هو سلك التفجير، وأن البطاريات كانت أجهزة تفجير لكنها كانت مفصولة.

كان الشبان عند طلوع الفجر ما زالوا منهمكين في تكديس الأحجار، وما لبثت شاحنة أن اقتربت منهم ونزل منها ثلاثة رجال. تعرّف الشبان في ما بعد على أحدهم وقالوا إنه عبده، أما الآخر فقالوا إنه موساوا؛ لكن الرجل الثالث ذهب ولم يعد أبداً، ولم يعرفوا اسمه. تقدم عبده وكان من الواضح أنه قائد المجموعة بعد أن بانت على وجهه أمارات الهلع عندما رأى الفتيان يرمون بالمتفجرات في حالة من السرور. طلب منهم وضع الأحجار على الأرض قائلاً لهم إنه صاحب القارب. أجابوا بأنهم وجدوا القارب متروكاً، ولهذا فإن القارب أصبح ملكهم. قال عبده لهم إن القارب علق في المياه وعاد الآن لأخذه، وطلب أن يعيدوا إليه المحرك والمتفجرات.

رفض الشبان الإذعان، لكنهم بدأوا بالتفاوض مع عبده الذي اعتبروه رجل أعمال يتمتع بالذكاء. تجمّع الشبان الخمسة وعرضوا مزيداً من المطالب. ردّ عبده غاضباً: «أنا زعيم، لا تلعبوا معي». شعر الشبان بالخوف وتشاوروا مجدداً وما لبثوا أن توصلوا إلى تسوية مع عبده.

بدأ عبده وموساوا بالعمل على رفع القارب من المياه، بينما اكتفى الشبان بالمراقبة. جلب الرجلان في البداية غسالة من ذوات الفتحة الأمامية. حاولا مراتٍ قليلة تحريك القارب بواسطتها لكنهم فشلوا. شعر الرجلان بالإحباط وهكذا توقفا عن المحاولة، لكنهما عمدا قبل مغادرتهما إلى إزالة عجلة القيادة والصمام الخانق للقارب، وكذلك نزعا الأسلاك التي كانت ستُستخدم مع المتفجرات. حمّل الرجلان كل هذه الأغراض، وكذلك المحرك والمتفجرات، وأعادا الغسالة إلى مكانها. أبلغا الشبان بعد ذلك بأنهما سوف يعودان لأخذ القارب.

عادا في اليوم التالي، واصطحب موساوا معه رافعة. لكن ما إن بدآ باستخدامها حتى علقت في الرمال على بُعد عشرة أمتار من القارب. أشار عبده إلى شاحنة عسكرية كانت تمر بالمكان بالتوقف، وقال للسائق إنه سوف يدفع له إذا ما ساعدهما على سحب الرافعة. وافق السائق، لكنه بعد أن تفحص الرافعة قال إن شاحنته لا تستطيع

جرّ كل ذلك الوزن. وافق بالرغم من كل ذلك على البقاء في المكان للمساعدة. قرّر الرجال استخدام جرّافة أخرى من أجل سحب الرافعة من الرمال. نجح الرجال في ذلك أخيراً، ورُفع القارب من المياه، ثم وُضع في الشاحنة العسكرية. انطلق الموكب بعد ذلك، وهو الذي كان مؤلفاً من الجرّافة، والرافعة، والشاحنة العسكرية التي تحمل القارب.

أبلغنا الشبان الخمسة أنهم اعتبروا ذلك القارب هدية من السماء، لأنهم صاموا شهر رمضان بأكمله. احتفل الناس في ٣ كانون الثاني/يناير من تلك السنة بليلة القدر، وهي الليلة التي تلقّى فيها النبي محمد أوائل الوحي وآخره، اعتقد الشبان أن حظّهم الحسن هذا كان في ما يبدو هدية من السماء لتقواهم. لم يتمالك رجال الاستخبارات اليمنيّون أنفسهم وهم في الغرفة أثناء الاستجواب من كتم ضحكاتهم. حدث كل ذلك قبل تسعة أشهر من الهجوم على المدمرة كول. كان من الواضح أن رجال القاعدة كانوا يخططون لأمرٍ آخر. رحنا نتساءل عن طبيعة ما عثرنا عليه.

تتبع فريقنا أثناء ملاحقة النشيري وخلاد الخيوط التي توصلنا إلى الشهود الذين رأوا قارباً يطابق مواصفات القارب الذي استخدمه المهاجمون، والذي تم جرّه من حي البريقة. نشرنا تحذيراً نسأل فيه عما إذا كان أي فرد من أفراد هيئات تطبيق القانون في تلك المنطقة قد رأى شيئاً يثير الشبهات، فتقدم أحد رجال الشرطة الذي كان ينظم حركة السير ما بين البريقة وحيٍ آخر ويُدعى كود النمر.

لاحظ الرجل شاحنة ومقطورة آتية من جهة البريقة تطابق الأوصاف المطلوبة. كان القارب المسحوب أكبر من القوارب اليمنية النموذجية – وكان بحجم سيارة ليموزين. قلّص هذا الحجم عدد الأماكن المتوفرة للمهاجمين لشرائه داخل البلاد؛ علماً أنه يُمكن لعملية الشراء أن تتم خارج اليمن. استند فريق من مكتب التحقيقات الاتحادي ومحققين يمنيين إلى معلومات تم تجميعها في الميناء، وتوجهوا إلى البريقة. يُعرف ذلك الحي بلقب «قندهار الصغرى»، وذلك لأنه مركز تجنيد لعناصر القاعدة (عرفنا لاحقاً أن المنظمة كانت تحتفظ بمخبأ في ذلك الحي)، وكان الحي

يرسل مجموعات من الشبان إلى عاصمة طالبان للاشتراك بالقتال. عرضنا صور المشتبه بهم، وتابع المحققون على مدى أيام قليلة النقر على الأبواب، وتوقفوا عند المتاجر والمطاعم، وسألوا المشاة إن سبق لهم ورأوا الشاحنة أو الرجال.

كانت وتيرة اشتراكنا في هذه التحقيقات متقطعة، وذلك لأن عنسي كان يطلع علينا تكراراً بأسبابٍ تمنعنا من العمل في أي يوم معيّن. قال لنا عدد متزايد من السكان المحليين إنهم رأوا القارب، كما شدّد كل واحدٍ منهم على حجمه. تذكر عددٌ من عمال الإنشاءات أنهم رأوا شاحنة تمر فوق مطبٍ مخصص للسرعة لتتوقف بعد ذلك. نزل أحد ركاب الشاحنة ليتأكد من عدم انفصال المقطورة. قال الشهود إن كل الرجال كانوا يرتدون ملابس بيضاء. دلّنا الشهود على منزلٍ كانوا يترددون عليه دخولاً وخروجاً. صُعقت عندما رأيت مظهر ذلك المنزل: كان مشابهاً بشكلٍ غريب للمنازل التي استخدمها المهاجمون في تفجيرات السفارتين في كينيا وتنزانيا. كان ذلك منزلاً منعزلاً مؤلفاً من طبقة واحدة ومبنياً بأحجار من الطوب الأبيض. كان المنزل محاطاً جزئياً بجدار، وجزئياً بسياج. رأينا بوابة تنظم الدخول إلى المنزل. شاهدنا في الباحة أجزاءً من المحرك، والأدوات، وموادَّ تُستخدم في صنع القنابل.

عثرنا في غرفة النوم الرئيسة على سجادة صلاة تواجه جهة الشمال، وحوض استحمام مع شعر أحدهم عليه، وهو الأمر الذي يشير بأن المهاجمين قد أجروا شعائر ما قبل الهجمات الانتحارية، أي أنهم طهّروا أنفسهم. جمعنا نماذج عن الشعر والشفرة المتروكة في المكان، وأعطينا كل هذه الأدلة إلى فريقنا العدلي لإجراء الاختبارات عليها.

لاحق اليمنيون مالك المنزل الذي ادعى أنه لم يعرف أن أولئك الرجال هم من الإرهابيين. أورد عقد الإيجار أن الإيجار بدأ في الصيف، وكان العقد باسم عبد الله موساوا. عرضنا على مالك المنزل صورة موساوا التي بحوزتنا، فأكد أنها تعود للرجل ذاته الذي استأجر المنزل. تعرّف الرجل كذلك على الرجلَين الآخرَين

اللذين شوهدا في الميناء في يوم التفجير، أي عبده وخالد، وقال إنّهما كانا في المنزل.

علمنا بعد إجراء مزيد من الاستجوابات أن الرجال زاروا كذلك ميكانيكياً تمكّنا من ملاحقته. اعترف الرجل بأنه عمل على صيانة القارب، وذلك بالرغم من أنه ادّعى أنه لم يعرف جهة استخدامه. حضر الرجال وتحدثوا عن مشكلة في المحرك، وقال إنه تمكن من إصلاحها. طلب منه الرجال أن يصنع أرضية للقارب من الألياف الزجاجية، وتكوين مساحة من الفراغ ما بين الأرضية الحقيقية للقارب وبين لوح الألياف الزجاجية. شرحوا له أنهم يحتاجونها للتخزين، وربما كانوا يقصدون تخزين المتفجرات.

سُحبت المدمرة يو. أس. أس كول إلى خارج عدن في يوم ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر من العام ٢٠٠٠، وذلك بواسطة سفينة إنقاذ نروجية تدعى بلو مارلين، على أنغام النشيد الوطني الأميركي وأغنية «الأميركي المذهل» للمغني «كيد روك»، عبر مكبرات الصوت. كانت لدينا في ذلك الوقت ما يُعرف بأنه «قضية استخباراتية» توحي بأن القاعدة تقف وراء الهجوم. يعني ذلك، وبكلماتٍ أخرى، ما يكفي من الأدلة لإزالة أي شك بين كبار مسؤولي الحكومة الأميركية، لكن تلك الأدلة لن تكون كافية لإدانة أولئك المسؤولين عن الهجوم في محكمة أميركية. كانت خطوتنا التالية هي توسيع البحث والحصول على مزيد من الأدلة. افترضنا أن من المحتمل أن الإرهابيين قد شوهدوا في أمكنة أخرى من المدينة. أرسلنا محققين إلى أحياء أخرى مع صورٍ ورسومات عن المشتبه بهم.

شوهد الرجال كذلك في حي التواهي. استخدمنا الطرق البوليسية المعتادة – الطرق على الأبواب، وتوقيف المشاة، والتفتيش في مكاتب التأجير – تمكنا في النهاية من التوصّل إلى شقة استخدمها الرجال، وتعرفنا على اسم مالك الشقة التي استأجروها. استأجر عبد الله موساوا الشقة لفترة أربعة أشهر بعد أن دفع قيمة الإيجار مسبقاً. قال الجيران إن أشخاصاً آخرين كانوا في المنزل، وهم الذين ادعوا أنهم صيادون، لكنهم لم يختلطوا بالآخرين.

كانت الشقة تطل على الميناء، وكانت موقعاً ممتازاً للإرهابيين لمراقبة القوارب الآتية والمغادِرة، وكانت مكاناً مثالياً لتسجيل أي هجوم بحيث تتمكن القاعدة من محاولة استغلاله في تسجيلاتِ الفيديو. تعرّف الجيران كذلك إلى عضوٍ محلي في القاعدة يُدعى فهد القصع في الشقة، وقال اليمنيون إنهم سوف يحاولون الإمساك به.

كان عنسي يراقبنا عن كثب في هذا القسم من التحقيقات، أي في الأحياء الثلاثة والميناء. بدا لنا في بعض الأحيان أنه يشجّع الشهود على عدم التحدث إلينا؛ وكان يحملق بهم عندما يزودوننا بالمعلومات. كان يبتسم بتكلّفٍ عندما لا نحصل على المعلومات التي نحتاجها. كان الرجل يختلق الأعذار على الدوام لإزعاجنا. اعتدنا عندما كنا ننتقل من موقع إلى موقع تزويد أجهزة تحديد الموقع بإحداثيات مكاننا كي يتمكن باقي أعضاء الفريق من التقاطها (لا تستخدم البلاد عموماً نظاماً رسمياً للعناوين). اعترض عنسي على ذلك، وقال بكل ثقة إن الأجهزة قد تُستخدم للتأشير على الأهداف التي نخطط لقصفها، وما كان منه إلا أن أبلغ المسؤولين اليمنيين الآخرين بشكوكه.

شرحنا له كيفية عمل أجهزة تحديد المواقع GPS وسبب كونها مفيدة. سألنا بفضول ما إذا كان بإمكانه الحصول على جهازٍ كهذا. قمنا إثر ذلك بطلب صندوق من أحدث أجهزة GPS في العالم من دبي كهدية منا إليه وإلى فريقه. اشتكى لاحقاً من أن الأجهزة لا تعمل: لم يدرك أن هذه الأجهزة تحتاج إلى برمجة. لاحظت عندما غادرنا عدن أن هذه الأجهزة قد أعيدت إلى عُلبها. لم يفهم عنسي عندما جرفنا قاع البحر تحت كول بحثاً عن الأدلة أهمية ذلك الجرف، وادّعى أننا نحاول تخريب مينائهم. كان كل شيء نقوم به هو مؤامرة بالنسبة إليه.

كان موقف عنسي وعدم تعاونه معنا أمراً مزعجاً ومضيّعاً للوقت، وكان إحباطنا يصل في بعض الأوقات إلى أعلى الدرجات. كنت مع جون ذات مرة في قاعة اجتماعات في مقر PSO في عدن، وكنا نتحدث مع ناجي وعنسي حول بعض

الخيوط التي أردنا ملاحقتها، وكان عنسي متصلباً كعادته. حدّق جون بصلابة في عينيه، وقال: «يبدو الأمر معك مثل نزع الأسنان». تراجع عنسي مصدوماً خطوة إلى الوراء. كانت لغته الإنجليزية ضعيفة، فاعتقد أن جون يهدده بنزع أسنانه. سارعت إلى تفسير ذلك القول. كان جون يعمد إلى الإشارة كثيراً إلى الأسنان، بالرغم من أنني لم أعلم السبب أبداً. وعندما كانت تقع مشاكل مع المسؤولين اليمنيين الآخرين كان يسألهم في بعض الأحيان، وتعابير الجدية تظهر على وجهه: «هل أنت طبيب أسنان؟» كان المسؤولون يشعرون بالدهشة ويجيبون: «كلا، لكن لماذا تسأل؟»

كان يقول لهم: «لأن الأمر يبدو معك كنزع الأسنان».

كانت الصداقة التي أنشأناها مع القمش تعوّض كل المشاكل التي كانت تنشأ بيننا وبين عنسي. كان القمش يعرف أن عنسي ليس جاداً في مساعدتنا، لذلك كان يمكث في عدن قدر إمكانه لمساعدتنا بنفسه. كنا نلتقي معه كل ليلة تقريباً، وهكذا تعززت أواصر الود في ما بيننا، وكثيراً ما كان يُطلق على جون لقب «أخي جون»، ويناديني أنا «أخي علي». كنت أترجم كلمات القمش لجون، وكثيراً ما كان يقوم بصفع فخذي، وهذه حركة تدل على الصداقة في اليمن.

لاحظت ذات مرة أن حرّاس القمش الشخصيين كانوا يستخدمون بنادق AK-74 الصغيرة التي يستخدمها السبيتزناز السوفيات، وهكذا مازحته بالقول إنهم يستخدمون بنادق تشبه التي يستخدمها بن لادن. (يسمي اليمنيون البنادق jeffreys). يُعرف عن زعيم القاعدة أنه يحمل بندقية AK-74 صغيرة كان يزعم أنها كانت لجندي سوفياتي قتله في أفغانستان خلال أيار/مايو من العام ١٩٨٧، في معركة جاجي. أبلغني القمش بعد مرور أيام قليلة بأنه أحضر لي هدية يحتفظ بها في مكتبه في صنعاء. كانت بندقية Jeffrey. تأثرت كثيراً ببادرته هذه، لكنني وجدت أنه من المفارقة أن لا تسمح لنا السفيرة بودين بحمل الأسلحة، وزعمت أن اليمنيين يعارضون ذلك، هذا بينما رئيس الاستخبارات اليمنية يريد إهدائي بندقية. لم أتمكن أبداً من أخذها معي

إلى الولايات المتحدة، وذلك لأن المعاملات المطلوبة كانت معقدة جداً. سافرت ذات يوم من عدن إلى صنعاء للاجتماع مع مسؤولي حرس رئاسة الجمهورية PSO. كانت السفارة قد أعطتني في وقتٍ سابقٍ حقيبة دبلوماسية لأحملها معي. أوردت اتفاقية جنيف للعام ١٩٦١ حول العلاقات الدبلوماسية، أن الحقائب الدبلوماسية التي تحتوي على أغراض بهدف الاستخدام الحكومي الرسمي تحظى بحصانة ضد التفتيش والمصادرة، وينطبق الأمر ذاته على حامليها. حدثت مشاكل في الماضي بسبب تفتيش هذه الحقائب. أردت تقليل فرص حدوث المشاكل، ولهذا أبلغت اليمنيين مقدماً بأنني أحمل حقيبة كهذه. افترضت بالرغم من ذلك أن وكالةً ما سوف تصرّ على تفتيش تلك الحقيبة.

أوصلني الزملاء إلى المطار، وما لبثت أن رأيت أحد مسؤولي الحرس الجمهوري بثيابٍ مدنية - وكان سبق لي أن رأيته في مناسبات عديدة في المطار من قبل - وهو يقترب نحوي راكضاً وصارخاً بي، «علي صوفان، علي صوفان، تعال معي». فكّرت في نفسي، يا إلهي ماذا حدث؟ طلب مني أن أتبعه إلى صالون الشرف فحضّرت نفسي لصدامٍ ما. رأيت القمش جالساً هناك للترحيب بي بعد أن ارتسمت ابتسامة عريضة على محيّاه. سألني مع بعض الجدية: «لم تتوقع وجودي هنا، أليس كذلك؟» هززت رأسي نفياً. «سأسافر معك للتأكد من عدم حدوث مشاكل». كانت تلك الرحلة من أسهل الرحلات التي قمت بها خلال وجودي في اليمن. أمضينا الوقت أثناء الرحلة بالتحدث عن حياة كل واحد منا. حدّثني عن الوقت الذي أمضاه في الأكاديمية العسكرية، وكذلك حدّثني عن عائلته.

إن كسب صداقة القمش لم ينتج عنه توقعه لأي شيء قد نرغب فيه. كان يعطينا ما نطلبه فقط، وعادة ما كنا نضطر للضغط كثيراً من أجل الحصول عليه. لكنه بخلاف عنسي عندما نعمل على الحصول على معلومات، لم يحاول عرقلة تحقيقاتنا. كان الرجل ودياً معنا على الدوام، حتى عندما يقول لا.

كنت ذات مساء مع جون وناجي في سيارة، وكنا نناقش المشاكل التي كانت

تعترضنا ومدى صعوبة الحصول على المعلومات من بعض اليمنيين. كان ناجي يجيد التكلم بالإنجليزية، وهكذا لم أكن مضطراً لترجمة ما يقوله جون إلى العربية. قال لنا ناجي: «عليكم أن تتذكروا أننا نحن العرب شعب عنيد، وهذا هو السبب الذي يجعلنا نصطدم بالصخر. يتعيّن عليكم أن تتراجعوا قليلاً، لأن الأمور سوف تسير على ما يرام في النهاية».

أردت تذكيره بفترة طفولتي التي أمضيتها في لبنان، فأجبته مع ابتسامة: «أنتم تتعاملون مع عربي آخر، وأنا عنيدٌ بدوري».

تدخل جون هنا بالقول: «لكن الإيرلنديين هم أكثر عناداً من العرب». مضى جون ليخبرنا قصة عن عشيرته في إيرلندا. عُرف آل أونيل بقوتهم وشجاعتهم. «كان يُعقد في قريتهم سباق قوارب نحو صخرة كبيرة تقع وسط بحيرةٍ محلية، وكانت عشيرة أونيل تربح السباق في كل عام. تقدمت إحدى العشائر الأخرى في أحد الأعوام وبدت أنها على طريق الفوز. تناول والد جدي سيفه وقطع يده، ثم رماها إلى الصخرة بحيث يلمسها أولاً. ألديكما أنتما الاثنين أي شيء يضارع تلك الحادثة؟"

قلت مع ابتسامة: «إننا عنيدون، لكننا لسنا مجانين».

مضت الأسابيع وتحسنت معها اجتماعاتنا الصباحية. تحول التركيز في هذه الاجتماعات من الحديث عن المشاكل مع اليمنيين، أو مع السفيرة بودين إلى التقدم الذي نحرزه على مختلف الجبهات. ساد بيننا إحساس بأننا نتجه أكثر فأكثر إلى تحديد الجهة المسؤولة عن الهجمات. لكن برزت أمامنا مشكلة جديدة.

ساد بعض اللغط قبل وصولنا إلى اليمن حول طبيعة المعلومات التي يُمكن تبادلها ما بين محققي الاستخبارات والمحققين الجنائيين. وضعت المدعية العامة جانيت رينو في العام ١٩٩٥ قواعد جديدة للفصل ما بين التحقيقات الاستخبارية والتحقيقات الجنائية. يعود ذلك جزئياً إلى مشاكل مزعومة في استخدام قانون المراقبة الاستخبارية الخارجية FISA في التحقيقات السابقة. يضبط قانون FISA

سلوك واستخدام المراقبة والتفتيش الحسّي للسلطات الأجنبية وعملائها داخل الولايات المتحدة.

توجد بعض الفروقات ما بين التحقيقات الاستخبارية وبين التحقيقات الجنائية: ففي التحقيقات الجنائية يتعيّن على المرء إذا أراد الاستماع إلى محادثة شخصٍ آخر أن يمتلك سبباً محتملاً وموافقة من القاضي. يحتاج المرء إذا أراد تجميع المعلومات الاستخبارية إلى شكٍ معقول، وإلى محاكم ابتدائية. كان القصد من الإرشادات التي وضعتها المدعية العامة رينو هو ضمان عدم استغلال المحققين والمدعين الجنائيين للقواعد المتساهلة المتعلقة بالاستخبارات بهدف الحصول على معلومات تتعلق بقضاياهم. لكن لم يُقصد أبداً من تلك القواعد منع عملاء مكتب التحقيقات الاتحادي من التعاون عندما يعملون على جهتَي الجنايات والاستخبارات – وقطعاً ليس عندما تكون الجهود جزءاً من القضية ذاتها. لكن الإرشادات فُهمت على ذلك الشكل، وذلك بالرغم من الاعتراضات التي قدّمها العملاء الميدانيون.

عندما طلب ستيف بونغاردت، وهو الملحق الميداني مع وكالة الاستخبارات المركزية، معلومات من تلك الوكالة قيل له، بشكل مستغرَب، إنهم سوف يزوّدونه بتلك المعلومات شرط أن لا يتقاسمها مع بقية أعضاء فريقنا. قال فريق وكالة الاستخبارات المركزية إنهم لا يستطيعون إعطاء المعلومات الاستخبارية إلى عملاء جنائيين. رفض ستيف عدم تمرير المعلومات لنا. سألهم: «وما فائدة الحصول على هذه المعلومات وعدم تمريرها إلى العملاء على الأرض، وهم الذين يحتاجون هذه المعلومات من أجل اعتقال الإرهابيين؟» قالت وكالة الاستخبارات المركزية إنه إذا كان ينوي تمرير المعلومات الاستخبارية، فإنه لن يحصل عليها.

إذا ما أُريد للتحقيقات أن تتقدم بفعالية، وإذا ما أرادت الولايات المتحدة تحقيق أهدافها الأمنية القومية والوصول إلى نتيجة ناجحة، فسوف يتعيّن على الجهتين أن تعملا بالتنسيق مع بعضهما بعضاً. أعطينا جون أونيل بعد وصوله إلى ميدان العمل ملخصاً عن هذه «المشكلة الجديدة ما بين التحقيقات الجنائية والتحقيقات

الاستخبارية»، وهي المشكلة التي يواجهها ستيف وفريقنا. عقد جون اتفاقية مع مسؤولٍ رفيع في وكالة الاستخبارات المركزية هو هانك كرمبتون. تسمح هذه الاتفاقية بحضور وكالة الاستخبارات المركزية جميع اجتماعاتنا، والعكس صحيح. نجحت الاتفاقية تماماً في البداية. كنا نجتمع في المساءات مع ضباط من وكالة الاستخبارات المركزية ومحلّليها من أجل إعطائهم آخر المعلومات التي حصلنا عليها خلال اليوم، وقاموا هم بدورهم بإعطائنا المعلومات الاستخبارية المتعلقة بقضيتنا.

عندما كنا نعمل مع هانك ومسؤولي CTC في عدن، نُقل ستيف بونغاردت إلى صنعاء للعمل كملحقٍ في السفارة والوكالات الأمنية اليمنية المعنية. لم يتأخر ستيف عن إرسال التقارير عن المشاكل التي برزت مع [redacted]، وهي المشاكل التي حجزت المواد المتعلقة بالاستخبارات. تضمن ذلك موادَّ سبق لنا أن أعطيناها لهم في عدن، وتوقعنا منهم حينها أن يمرّروها إلى ستيف في صنعاء. بدأنا عند ذلك بالشك بحدوث شيء ما.

تمثّل جزء من المشكلة في أن ستيف كان يتعامل مع [redacted] صنعاء، وهو الذي كانت رتبته داخل الوكالة أقل من هانك، وأقلّ أيضاً من أعضاء فريق CTC الذي كان يتعامل معهم في عدن. كان [redacted] صنعاء أقل رتبة بكثير في سلسلة قيادة وكالة الاستخبارات المركزية، ولذلك عمد فريق CTC إلى تجاوز زميلهم، وذلك بدلاً من أن يقوموا بإرسال المعلومات إلى مقر وكالة الاستخبارات المركزية مباشرة. لكن ما زاد الأمور تعقيداً هو أن [redacted] كانت من ضمن قسم الشرق الأدنى بدلاً من أن تكون من ضمن صلاحيات CTC. أدى هذا الوضع، وبشكلٍ مفهوم، إلى انزعاج [redacted]، وهكذا رفع الأمر إلى ستيف ومكتب التحقيقات الاتحادي زاعماً أننا لم نعطِه المعلومات. وعندما انتقلنا في وقتٍ لاحق إلى صنعاء توقفنا عن التعامل مع هانك وCTC وذلك بسبب مغادرتهم البلاد، واقتصر تعاوننا على [redacted]، وهو الذي حصلنا منه على أدنى قدرٍ ممكن من المعلومات، ولربما كان يثأر لنفسه. بدأ التشارك بالمعلومات يبدو وكأنه شارع باتجاهٍ واحد. لم نلجأ إلى

الردّ بالمثل من جانبنا، لأن ذلك سوف يبدو عملاً أخرق بشكلٍ مزدوج، أي أننا لن نعاقب وكالة الاستخبارات المركزية، لكننا سوف نعاقب بلادنا عن طريق جعلها أقل أمناً. كانت فكرة عدم إعطائنا المعلومات لأننا نعمل من الجهة الجنائية فكرة سخيفة. إن مكتب التحقيقات الاتحادي هو وكالة استخباراتية بدورها، وهي تتعامل مع معلومات استخبارية بشكلٍ يومي. يحترم مكتب التحقيقات، كما يعترف، بوجود فروقات ما بين الاستخبارات وبين تطبيق القانون. اعتدنا كثيراً على إقامة دعاوى قضائية ضد شبكاتٍ إرهابية، وشبكاتٍ استخباراتية أجنبية، ودولٍ راعيةٍ للإرهاب ومن دون أن نقترف أي خروقات. عملت وكالة الاستخبارات المركزية معنا على عدة قضايا ومن دون نشوب أي نزاعٍ معها.

أما الزعم بأن العملاء الجنائيين لا يمكنهم الحصول على تقارير استخبارية فيُعتبر تفسيراً خاطئاً لقواعد FISA، وعلى الأخص إذا كانت قواعد FISA لا تنطبق بالضرورة على المعلومات الاستخبارية التي يتم الحصول عليها في خارج البلاد. لاحظت لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بأن هذه الإرشادات تعرضت إلى سوء تفسير، وهذا لم يحدث فقط من جانب وكالة الاستخبارات المركزية، بل إنَّ عدداً من أعضاء مركز قيادة مكتب التحقيقات الاتحادي قد أساءوا تفسيرها كذلك، وهو الأمر الذي ولّد شعوراً من خيبة الأمل من جانبنا. اعترفت لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بأن هذا الخطأ هو أحد عوامل الفشل في منع الهجمات على نيويورك وواشنطن. اكتشفت اللجنة كذلك أن الإجراءات التي تنظم التشارك بالمعلومات ما بين الجهتين الاستخبارية والجنائية قد «أسيء فهمها وتطبيقها على الفور تقريباً». وجدت اللجنة كذلك أن مكتب سياسة الاستخبارات والمراجعة، وإدارة مكتب التحقيقات، والمحكمة الأميركية لمراقبة الاستخبارات الأجنبية FICA قد أنشأت جميعها الحواجز، ولم تشجع على عملية تبادل المعلومات. حاولنا في ذلك الوقت شرح أن القواعد قد تعرضت لسوء الفهم، لكن من دون نتيجة.

اصطدم ستيف بونغاردت «بالجدار» كما كان يُعرف، بشدة حتى بعد مغادرته

اليمن، واستمر ذلك حتى الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. اعتاد أن يقول للأشخاص الذين كانوا يرفضون إعطاء المعلومات الاستخبارية: «دعوني أَرَ أين كُتب أنه ليس باستطاعتنا الحصول على المعلومات الاستخبارية». عجزوا عن ذلك، لكنهم كانوا يصرون على القول بأنه القانون. كان ذلك مفهوماً خاطئاً وشائعاً لم يعمد أحد في مراكز القيادة إلى تفنيده. بدأت تلك المشاكل - أي تلك التي حددتها لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر - في اليمن. حصلت في إحدى المراحل على قرص مدمج يضم أغنية الجدار لبينك فلويد. كنا نستمع إلى تلك الأغنية في كل مرة تبرز فيها مشكلة، ويقولون لنا إنه لا يمكننا الحصول على المعلومات لأننا نعمل في الجهة الجنائية.

التقيت عندما عدت من اليمن وفداً من وزارة العدل. كان الوفد برئاسة فران تاونسند، وناقشنا خلاله المشاكل المتعلقة بالتشارك بالمعلومات. عُقد الاجتماع في غرفة الاجتماعات العائدة لرئيسي بات دامورو. قلت لأعضاء الوفد: «أيمكنكم أن تتخيّلوا مناسبة حيث يحصل أحد العملاء على معلوماتٍ استخبارية، بينما يعمل عميل آخر على تحقيقاتٍ جنائية. يُحتمل أن يحصل أحدهما على نصف مخطط مؤامرة، بينما يحصل العميل الآخر على نصفها الآخر. يُمنع العميلان مع ذلك من جمع النصفين معاً. تصوروا لو أن أحداً أراد تفجير مركز التجارة العالمي، لكن عملاءنا يعجزون عن وصل النقاط مع بعضها بعضاً، لأنه يُمنع على الذي يمتلك نصف المعلومات إبلاغ العميل الآخر الذي يمتلك النصف الآخر بما يعلمه.

لم أقل ذلك لأنني اعتقدت أن هجوماً ما على وشك الحدوث، بل لأنه حتى تاريخ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كان تفجير مركز التجارة العالمي الذي حدث في العام ١٩٩٣ هو الهجوم الإرهابي الرئيس في الولايات المتحدة. تعاطف أعضاء الوفد مع ما قلته وفهموا مشكلتنا، لكن يصعب تغيير أي شيء في الحكومة، وهكذا لم يحدث أي شيء.

الفصل الحادي عشر

جهاز كشف الكذب البشري

أفادنا الشهود الذين رأوا النشيري وعملاء آخرين من القاعدة حول شقة التواهي بأنهم لاحظوا أن بعض المشتبه بهم يزورون ميكانيكياً في المنطقة. لاحقنا ذلك الميكانيكي فأكّد لنا حصول الزيارات. أخبرنا كذلك أن المشتبه بهم كانوا يحملون بنادق AK-47، كما أحضروا معهم شاحنة داينا صغيرة وطلبوا إضافة صفيحة فولاذية إلى أحد جوانبها.

يضيف الإرهابيون الصفائح الفولاذية إلى الشاحنات الصغيرة كي تُستخدم بمثابة ناقل للقنابل. تساعد الصفائح على توجيه الانفجار نحو الهدف. أما الشاحنات الصغيرة التي استُخدمت في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا، على سبيل المثال، فقد خضعت للتعديل بهذه الطريقة (كانت من نوع داينا بدورها). بدأنا بالتحقيق حول تلك الشاحنة المعنية في هذه القضية فعثرنا على الوكالة التي باعتها. كان جمال البدوي هو الذي اشترى الشاحنة، وهي المرة الثانية التي يظهر فيها اسم بدوي.

بحث اليمنيون عن الشاحنة لكنهم عجزوا عن العثور عليها. يعني ذلك، في أغلب الاحتمالات، أنها ما زالت موجودة ومجهزة لهجوم انتحاري محتمل، أبلغَنا بعض المصادر بأن المتطرفين اليمنيين أصبحوا أكثر شعوراً بالغضب بسبب وجود

الولايات المتحدة في البلاد، كما أن وكالة الأمن القومي الأميركي قد التقطت كلاماً، بواسطة وسائل تنصتٍ تقنية تمكنت من اعتراض البريد الإلكتروني، يتحدث عن هجوم وشيك. كان جميع الأميركيين في عدن في فندق واحد، لذلك كان من الواضح مركز الضربة الأكثر إيلاماً وفعالية. شددنا من إجراءاتنا الأمنية، وعززنا دائرة الحماية المفروضة حول الفندق، كما أن اليمنيين أقفلوا إحدى جهتي أحد الشوارع بكتلٍ إسمنتية.

عقدتُ اجتماعاً ذات مساء من شهر تشرين الأول/أكتوبر مع جون، وكيفن دونوفان، وكان ذلك في مركز القيادة. لم يطل الأمر قبل أن نسمع أصوات إطلاق رصاص في الخارج. علمنا أننا لسنا مستهدفين بهذه النيران، فاقتربنا من النوافذ لعلنا نستطيع معرفة ماذا يجري. هُرع إلى غرفتنا بوب هيكي وهو قائد فرقة إنقاذ الرهائن في مكتب التحقيقات، والذي كان مسؤولاً عن حمايتنا، وقال إنه سوف يرسل بعض أعضاء فرقته إلى الخارج كي يتحقق مما يجري.

قلت له: «إنتظِر قليلاً. إذا كانت هناك من مشكلة في الخارج فمن غير المحتمل أن يتمكن رجال فرقة إنقاذ الرهائن من المساعدة وهم قد يُصبحون أهدافاً جداً. دعني أخرج. إنني أمتلك فرصاً أفضل في الاختلاط مع اليمنيين». وافق بوب على أن ذلك منطقي، فأعطاني سترة واقية من الرصاص وقال إنه آتٍ معي.

اتخذ قناصة فرقة إنقاذ الرهائن أماكنهم على السطح لتغطيتنا. حمل بوب معه جهاز إرسال للبقاء على اتصالٍ معهم. قررنا من باب الحيطة والحذر استخدام الدرج للنزول، وذلك لأننا لم نرغب في أن نعلق في المصعد إذا ما حدث شيء ما. بدأنا بالنزول، وما لبث جون أن ناداني بصوت متوتر: «علي. كن حذراً». لم يكن من المعتاد أن تظهر علامات القلق على جون علناً.

كانت قاعة مدخل الفندق فارغة، وهكذا ركضنا من خلاله وفتحنا الباب الخارجي ببطء. لاحظنا أن سكوناً مخيفاً يخيّم على الشارع. لم نشاهد أي

سيارات في محيط الفندق، وبدت الطرقات مقطوعة. لم يكسر جدار الصمت غير صوت سيارة إسعافٍ كانت تمر في المكان، لكننا لاحظنا أنها لم تطلق صفارة إنذارها.

رأينا مجموعة من العملاء الأمنيين اليمنيين يقفون في نهاية الشارع. لم يرتدِ الرجال أزياءهم الرسمية، بل الأزياء اليمنية التقليدية، لكنهم كانوا يحملون بنادق AK-47. لاحظوا وجودنا قبل ثوانٍ قليلة من مشاهدتنا لهم، وهكذا بدأوا بالاقتراب منا. رأينا خلفهم إحدى السيارات التي كانت تسير بسرعة تحرّكهم. كان السائق يمنياً سبق لي أن تعرفت عليه، وهو الذي كان الرئيس السابق لشرطة عدن.

توقف الرجال أمامنا مباشرة.

سألتُ السائق: «ماذا يجري؟»

أجاب: «لا شيء».

«إذاً ماذا كان إطلاق الرصاص الذي سمعناه؟»

«لا شيء. كان هناك عرس. أطلق الناس الرصاص ابتهاجاً بالمناسبة».

«لكن لماذا أقفلتم الشوارع؟»

«لا تقلق».

«وماذا بشأن سيارة الإسعاف؟»

قال مجدداً قبل أن يبتعد بالسيارة: «لا تقلق».

أبلغنا القيادة بالحادث. كان ذلك المفصل الحاسم بالنسبة إليهم، فقرروا إخلاء كلّ الرجال من الفندق. قالوا لنا: «فليخرج الجميع من دون استثناء. كان أمر المغادرة يشمل الجميع. جمعنا كل أمتعتنا، ومعداتنا، وأسلحتنا، وتوجهنا مباشرة إلى رصيف الميناء حيث كانت تتمركز فرق من مشاة البحرية. أنشأ مشاة البحرية هناك قاعدة صغيرة لهم بهدف مراقبة الذين يدخلون كول ويخرجون منها. وضعنا كل أمتعتنا في

قوارب، وتوجهنا بها إلى يو. أس. أس دولوث، وهي سفينة بحرية غير بعيدة عن الميناء.

كان قائد السفينة وضباطه بانتظارنا على سطحها للترحيب بنا. كانوا مضيافين جداً. رقد الضباط إلى جانب بعضهم بعضاً بحيث توفرت لنا غرف لننام فيها. قضت الخطة بالبقاء في دولوث لعدة أيام بينما نراقب ما يحدث على الشاطئ. كانت دولوث تتحرك باستمرار، فمنذ الهجوم على يو. أس. أس. كول لم يُسمح لأي سفينة أميركية بالبقاء ساكنة في محيط عدن. تعيّن علينا كذلك تحريك اتجاه قمرنا الصناعي للبقاء على اتصالٍ مع مركز إدارة مكتب التحقيقات الاتحادي، كما تناوبنا ليل نهار على تعديل موقعه.

انزعجت السفيرة بودين عندما علمت بمغادرتنا فندق موفينبيك. شعرت بأن هذه الخطوة كانت بمثابة إهانة لا ضرورة لها لليمنيين. اعتبرت السفيرة أننا اعتقدنا أن اليمنيين غير قادرين على حمايتنا كما يلزم. كان ذلك صحيحاً بطبيعة الحال. كان تفجير المدمرة كول، بالإضافة إلى واقع وجود شاحنة مجهزة للقيام بعملية انتحارية تجول في شوارع عدن، برهاناً أكيداً على تلك الفرضية. لكن السفيرة لم ترَ الوضع هكذا.

رفعت السفيرة شكوى عن طريق وزارة الخارجية ضد جون الذي ألقت عليه اللوم للأمر «غير الضروري» الذي أعطاه بالإخلاء. تسببت شكوى السفيرة باستدعائي أنا وكيفن دونوفون، وبعض المسؤولين الآخرين إلى مركز قيادة دولوث للتكلم مع كبار المسؤولين في مركز القيادة حول أداء جون. ما إن اتضح لي الغاية من المكالمة حتى شعرت بالإحباط الشديد. قلت لهم: «اسمعوا، إننا نعمل هنا ليل نهار من دون توقف، ونحن نحرز بالرغم من ذلك تقدماً هاماً. يقوم جون بعملٍ عظيم في هذا الشأن. إن ما نحتاجه هنا هو دعمكم وليس نقدكم».

ردّ أحد كبار المسؤولين في مكتب التحقيقات معتذراً: «أردنا إجراء هذه المحادثة فقط لأن وزارة الخارجية قدّمت شكوى».

مضت أيامٌ عدة قررنا بعدها أن يعود عدد قليل منا إلى الشاطئ لتفحص الأوضاع هناك، وذلك لأننا لم نرغب ان تصل التحقيقات إلى مرحلة توقفٍ تام. وقع الاختيار عليّ وعلى جون، وكيفن، بالإضافة إلى بوب هيكي وعددٍ من فريق إنقاذ الرهائن الذي يترأسه للعودة إلى الفندق. نزلنا بواسطة سلّم حبال إلى قاربٍ كان ينتظرنا، وبدأنا بالإبحار عائدين إلى عدن. ما إن اقتربنا من المرفأ حتى قام رجال فرقة إنقاذ الرهائن بمسح الشاطئ والتلال بحثاً عن أي خطرٍ محتمل. لاحظ أفراد الفرقة بضعة رجال مزوّدين بمناظير على قمة إحدى التلال الوعرة وكانوا يراقبون اقترابنا. سألْنا اليمنيين عند وصولنا إلى الشاطئ عما إذا كان هؤلاء الرجال في أعلى التلة هم من الموظفين الأمنيين. ردّ اليمنيون بأنهم لا يعلمون شيئاً عنهم.

كان الفندق فارغاً ويخيّم عليه السكون. كانت ممرات الفندق مليئة في السابق بالمسؤولين الأميركيين وهم يتحركون جيئة وذهاباً إما داخلين إلى الاجتماعات وإما خارجين منها، كما كان الضجيج الناتج عن الحركة مسموعاً بشكلٍ دائم. أما الآن فلم يكُنْ في المكان سوى عدد قليل من الأشخاص. عثرنا على إحدى الغرف التي يشغلها مسؤولون عسكريون من القيادة الوسطى، لكننا لم نعرف ما إذا كانوا من الذين بقوا في الفندق أو الذين عادوا إليه.

تحدثنا مع مسؤولين يمنيين وقيّمنا معهم الوضع الأمني على الأرض. سبق لنا أن خططنا للعودة إلى دولوث في ذلك المساء إلا أننا كنا قلقين من الرجال الذين كشفنا مراقبتهم لنا والمزودين بالمناظير، وذلك نظراً لاحتمال كونهم من نشطاء القاعدة الذي يخططون لشن هجوم ما. تدارسنا الأمر مع مسؤولي وزارة الدفاع الذين قالوا لنا إن عودتنا إلى دولوثً على متن قارب غير مأمونة. قال المسؤولون إنه بدلاً من القارب سوف يرسلون لنا طائرة حوامة من يو. أس. أس تاوارا، وهي سفينة القيادة لمجموعة الجهوزية المكونة من ثلاث سفن برمائية تشكل دولوث جزءاً منها، وستنقلنا الطائرة الحوامة إلى دولوث.

احتجنا إلى إذنٍ من السفيرة بودين، لكنها نقضت قرارنا. رفضت إعطاء الطائرة الحوامة من تاوارا الإذن لنقلنا. قالت إننا أتينا بالقارب ويمكننا المغادرة بقارب مثله.

قال لها اليمنيون إنهم لا يحبون رؤية طائرات عسكرية حوامة وهي تطير إلى عدن ومنها، لذلك قررت أن الأمر غير ضروري. أغضب قرارها هذا الضباط العسكريين الذين شعروا بأنها تعرّض حياة الأميركيين للخطر.

أوصتنا وزارة الدفاع بالمكوث في الفندق إلى حين جلاء الوضع. علقنا في الفندق في تلك الليلة، لذلك انطلقنا بحثاً عن طعام نأكله. علمنا أن معظم موظفي الفندق قد غادروه لدواعٍ أمنية، لكن العدد القليل الذي بقي منهم تمكنوا من تأمين بعض الطعام لنا. كان الفندق فارغاً لكننا فضّلنا تشارك الغرف لدواعٍ أمنية.

قيل لنا في صباح اليوم التالي إن قرار السفيرة بودين قد تعرّض للنقض على يد رؤسائها في وزارة الخارجية. أمرها رؤساؤها بإعطاء الإذن لنا باستخدام طائرة حوامة في عودتنا إلى السفينة، وهكذا وقّعت على التصريح، وإن فعلت ذلك مع شيء من التردد. قضت الخطة أن نطير أولاً إلى تاوارا، ومن هناك سوف ننتقل إلى دولوث بالقارب. حضّرنا أنفسنا للإقلاع من مطار عدن ثم انطلق القبطان بالطائرة نحو البحر. كان من المفترض أن تكون الرحلة عادية، لكن ما إن ارتفعت بنا الطائرة في الجو حتى انطلق صوت جهاز الإنذار فيها. علمنا أننا مستهدفون، وأن نظاماً صاروخياً موجهاً يصوّب علينا. بدأ الطيار بالتحرك، ونفّذ سلسلة من مناورات المراوغة الطارئة. واظب الطيار على تغيير اتجاه طيراننا في محاولة منه لتضليل التصويب. ساد الصمت في حجرة الطائرة بينما حبس الجميع أنفاسهم وتمسكنا بأحزمتنا جيداً (وكأنها ستحمينا إذا ما ضربتنا قذيفة صاروخية موجهة). توقف الجهاز عن إصداره للون الأحمر المتقطع، وهكذا تمكن الطيار من تجنّب التصويب المعادي. مرت ثوانٍ قليلة وصلنا بعدها إلى المحيط متجهين نحو دولوث. لم نعرف أبداً مَن هي الجهة التي صوّبت علينا، أي ما إذا كانت تابعة للجيش اليمني أم إلى القاعدة. لم نعرف كذلك ما إذا كان ذلك اختباراً أم تحذيراً، أو أن أحداً ما كان يحاول إطلاق صاروخ نحونا بالفعل. كانت تلك تجربة مرعبة، كما خبرتُ مباشرة ما يعنيه الناس عندما يقولون بأنهم لمحوا حياتهم تمر من أمام أعينهم.

وصلنا إلى دولوث مغمورين بمشاعر الغضب. كان موظفون عسكريون على متن السفينة يتتبعون الحادث. أبلغونا بأن اليمنيين هم من صوّب على طائرتنا الحوامة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يحدث فيها أمرٌ كهذا منذ أن بدأت الطائرات الحوامة رحلاتها نحو عدن ومنها، كما لم يقع أي حادث حتى ذلك الوقت. تحويل التصويب على طائراتنا منذ ذلك الحين إلى ممارسة يمنية معتادة، وليس فقط على الطائرات الحوامة. كانت كل طائرة أميركية تهبط في اليمن، والطائرات التي تأتي وتغادر باستمرار حاملة معها التموين، والأفراد، والمعدات، تتعرض للتهديف. كان على كل طيار تتعرض طائرته للتهديف، ومن دون أن يعلم ما إذا كان ذلك إجراءً «صديقاً» أم أنه تهديد جدي، أن يقوم بتنفيذ إجراءات الطوارئ من أجل تجنب التعرّض لتهديف صاروخي.

تضمنت الإجراءات الاحترازية للطائرات إطلاق مشاعل ضوئية. يساعد هذا الإجراء على تضليل الصواريخ الآتية وحرفها عن مسارها لأنها تتبع الشعلة الضوئية بدلاً من الطائرة. تبدو هذه المشاعل الضوئية للجميع، ما عدا أكثرهم خبرة، مثل صواريخ صغيرة، وهكذا عندما تظهر طائرة أميركية في السماء وترد على التهديف بإطلاق الشعلات كان اليمنيون المحليون يظنون أن الولايات المتحدة تصوّب عليهم. ساءت أكثر فأكثر حلقة التشكيك وعدم الثقة.

كنت في المطار ذات مرة مع ملحقٍ عسكري أميركي، وهو العقيد نيومان فانطلقت عندها الشعلات الضوئية من طائرة سي - ١٣٠ نحو المطار مباشرة، وهو الأمر الذي ولّد الارتباك والهلع. أراد الجنرال الذي كان يرأس الجيش الموجود في المطار مقابلتنا. سألنا بغضب: «ماذا يجري؟ أنتم تظهروننا بمظهر سيء».

أجبته: «دعني أسأل الطيار عما جرى».

توجه الكولونيل نيومان إلى الطيار وسأله عن سبب إطلاقه للمشاعل الضوئية نحو المطار. قال الطيار للعقيد نيومان: «قاموا بتصويب صاروخٍ موجّهٍ علينا واستهدفونا،

ولذلك نفذنا إجراءات المراوغة الاعتيادية». عدت إلى الجنرال اليمني، وشرحت له ما قاله الطيار.

أجابني: «حسناً، لا تطلقوا المشاعل الضوئية. إنكم تخيفون السكان».

قلت له: «حسناً لا تصوبوا على طائراتنا. أتعلم أنكم عندما تصوّبون على طائرة ونرى أن القذيفة الصاروخية تستهدفها فإن ذلك يشكّل عملاً من أعمال الحرب. هل تريدون إعلان الحرب على الولايات المتحدة؟ إنكم تصوبون على طائراتنا يسرة ويمنة».

قال لي: «كلا، كلا، إن ذلك مجرد تمرينٍ لنظامنا الدفاعي الصاروخي».

قلت له بغضب: «حسناً، لماذا لا تتدربون على طائراتكم».

تدخل نيومان هنا: «هل تعلنون الحرب على الولايات المتحدة؟ هل تفعلون ذلك حقاً؟»

قال الجنرال: «كلا، كلا».

تزايد القلق في مكتب نيويورك حول التهديدات المتصاعدة التي نواجهها. اتخذ القرار في النهاية بإرجاع الجميع إلى الولايات المتحدة باستثناء أشخاص قليلين. إن وجود عدد أقل من الأشخاص على الأرض سيؤدي إلى جعل حمايتهم أكثر سهولة، كما سيشكلون هدفاً أقل إغراءً للمهاجمين المحتملين. توليت مع جون وبعض كبار المسؤولين الآخرين تنظيم عملية المغادرة. نقلت طائرات عسكرية الأفراد إلى ألمانيا، والولايات المتحدة، والبحرين.

وبخصوص من ظلّوا، كان قرارنا بالانتقال إلى فندقٍ آخر هو غولد موهور– وهو الموقع الذي تعرّض إلى هجوم فاشل، قيل إنه من تدبير القاعدة، على مشاة البحرية في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٢. تمازحنا بأن الانتقال إلى هناك يعني إما أننا نتحدى الأقدار أو أننا نراهن على أن الإرهابيين لن يضربوا المكان ذاته مرتين. كان ذلك هو المزاح فوق أعواد المشانق كما يقولون.

اعتبرنا أنه بالرغم من سجلّ الفندق إلا أنه يظل أكثر الأمكنة أمناً في عدن، كما أنني تفهمت المنطق من وراء ذلك. كان الفندق بعيداً عن الأبنية الأخرى، وكان محاطاً بالمياه ما عدا جهة واحدة. يمكن تأمين الحماية لتلك الجهة بسهولة لأنه بالإمكان رؤية اقتراب أي شخص من مسافة بعيدة.

بالرغم من أن الفندق كان أكثر أمناً إلا أننا كنا مضطرين إلى التجوّل في عدن وزيارة بعض المواقع، وتتبع خيوط، والالتقاء مع اليمنيين، واستجواب المشتبه بهم. حدث ذلك عندما كانت المخاطر أكبر، وهكذا اتخذنا كل الاحتياطات التي نقدر عليها. كنا نتنقل بسيارات من دون لوحات كما كنا نبدل مساراتنا وأوقات مغادرتنا وعودتنا كل يوم. بقيت مع ذلك أمور تخيفنا كل يوم. حدث ذات يوم، على سبيل المثال، أن كنا في طريقنا لإجراء مقابلة عندما سمعنا صوت انفجار قنبلة. أتى صوت الانفجار من اتجاه طريق كنا نستخدمه كثيراً. سألنا اليمنيين عند وصولنا عن مصدر الانفجار. قالوا لنا: «سوف نتحرى الأمر». تلقينا تطمينات عندما وصلنا إلى غرفة الاستجواب في ما بعد: «تحرينا الأمر. لا تقلقوا، كان ذلك صوت انفجار أحد الإطارات».

قلت لهم: «اسمعوا. إننا نعرف جيداً الفرق ما بين صوت انفجار الإطار وصوت القنبلة». لكنهم أصرّوا على موقفهم.

مضت عدّة ساعات عدنا بعدها إلى الفندق، ومررنا بمحاذاة منطقة قريبة من الميناء حيث بنى البريطانيون منشأة هناك، وشاهدنا من نوافذ سيارتنا أن المكان قد تأذى وأصيب بالدمار. كان من الواضح أن قنبلة انفجرت هناك. قلت لليمنيين في اليوم التالي: «رأينا الأضرار التي خلّفها الانفجار». تابع اليمنيون إصرارهم بأن ما سمعناه كان صوت انفجار إطار سيارة. قلت لهم وأنا أضحك على سخافتهم: «حسناً، تمسكوا برواياتكم».

كان ستيف كوربيت قائد لجنة التحقيقات الجنائية البحرية على الأرض، وهو

عمل كذلك بصفته مساعد عميل خاص مسؤولاً عن NCIS. بقي قادتهم في موقع الحدث لمدة طويلة، وهي سياسة أفضل من تلك التي تسمح عندنا بالمداورة كل ثلاثين يوماً بالنسبة إلى القادة، وهو الأمر الذي لا يُبقي سوى فريق من العملاء وأنا في المكان. افترقنا كذلك عن فريق إنقاذ الرهائن. أرسل لنا مكتب نيويورك بدلاً عنهم فرقة SWAT لتتولّى حمايتنا. كان من بين العملاء كارلوس فرنانديز، وهو الذي كان مثل أخ لي. ارتحت كثيراً عندما رأيته معنا: إنه الشخص الذي يمكنني أن أتبادل معه الأفكار ومناقشة المشاكل بثقة تامة.

كان جو إينيس أحد عملاء مكتب التحقيقات الاتحادي الجدد. كان رجلاً نحيلاً أحمر الشعر من آلاباما، كما أن لقبه في مكتب التحقيقات كان «آلاباما جو». كان الرجل هادئاً وذا طبيعة طيبة، ودائم الابتسام وعلى استعداد دائم للمساعدة. لم يتأخر جو قبل أن يصبح محبوباً من كامل أعضاء فريق مكتب التحقيقات.

استغرق جو بعض الوقت للتأقلم مع مكتب نيويورك. قاد جو في يومه الأول في مدينة نيويورك شاحنته الصغيرة من دون أن ينزع منها لوحات التسجيل العائدة لآلاباما، ومعتمراً قبعة رعاة البقر. صودف في ذلك اليوم أن جماعة الكوكلوكس كلان كانت تقيم مهرجاناً لها قرب مكاتبنا، كما تجمّع حشد آخر أكبر بكثير معادٍ للكوكلوكس كلان. مرّ جو أثناء قيادته الشاحنة في المدينة بمحاذاة الحشد المعادي لجماعة الكوكلوكس كلان، فظنّه الحشد بأنه متعاطف مع تلك الجماعة بسبب سيارته وقبعته. نجا جو بصعوبةٍ من ذلك الحشد.

لم يسبق لنا نحن الذين كنا في اليمن أن التقينا جو قبل وصوله إلى عدن، وذلك لأنه نُقل إلى نيويورك بعد مغادرتنا. تلقينا مكالمة هاتفية من نيويورك ذات يوم في فندق غولد موهور، وعلمنا خلالها أن عميلاً جديداً سوف يصل في اليوم التالي. ظننا، بسبب الفروقات في التوقيت أنه سوف يصل في اليوم التالي ليوم وصوله الفعلي، وهكذا وصل جون إلى مطار عدن (وكانت تلك المرة الأولى التي يصل فيها إلى البلاد) ولم يكن أحد بانتظاره. اتصل بنا هاتفياً كي يُعلمنا بأنه وصل فعلاً

إلى المدينة، وهكذا هرعنا إلى المطار لنجده واقفاً يتبادل الضحكات مع مجموعة من اليمنيين. مكّنه مظهره الجنوبي من التعاطف مع الناس بسهولة، وذلك بالرغم من حاجز اللغة. كانت الجهود التي بذلها جو لكسب صداقة اليمنيين مصدر تسلية دائمة لنا. كان عددٌ كبير من الذين عملوا معنا من جنوب اليمن – أي ذلك النصف من البلاد الذي خسر الحرب الأهلية. كان جو يقول لهم: «إنني من الجنوب كذلك، وأعرف ما تعنيه خسارة حربٍ أهلية». كان اليمنيون يرتبكون عند سماعهم ما يقوله لهم، ويدهشون عندما يعلمون أن رجلاً لا ينطق سوى باللغة الإنجليزية وأبيض البشرة، وأشقر الشعر من الولايات المتحدة، يظن أنه يمتلك شيئاً مشتركاً معهم.

ما إن تعلّم جو بعض الكلمات العربية حتى طلب من اليمنيين مناداته باسم يوسف القبيلي الجنوبي. ظن جو أن كلمة قبيلي هي الكلمة اليمنية التي تعادل كلمة مزارع. لم يتمكن اليمنيون من التوقف عن الضحك.

كان آلاباما جو واحداً من أكثر العملاء جدية في أعمالهم من الذين التقيتهم، كما أنه يندمج جيداً بالمجموعة التي يعمل معها، حتى ولو كانت تعمل على مدار الساعة. كان جو مسؤولاً عن الشؤون الإدارية. لكن في قضية بمثل ضخامة كول يحتاج الأمر إلى عميلٍ من الدرجة الأولى لتنظيم شؤون الإدارة. أما لو سادت الفوضى تلك الشؤون، مثل تسجيل الأدلة، وتتبع الوثائق، فإن القضية بمجملها تتعرض للانهيار.

كان جو يتقاسم الغرفة مع جورج كروتش الذي أتى إليّ غاضباً ذات يوم. قال لي واضعاً يده على خدّه كعادته عندما يركّز على مشكلةٍ ما: «أريدك يا علي أن تكلّم جو».

سألته: «ما المشكلة؟» تبيّن أنه عندما ينزلق جو بجسمه النحيل بين أغطية السرير فإن أثره يكاد لا يظهر على تلك الأغطية، أي أن السرير يبدو وكأن أحداً لم يستخدمه. كان ذلك يترك انطباعاً بأن السرير لم يُستخدم تقريباً. لكن عندما يدخل موظفو الفندق اليمنيون إلى الغرفة فإنهم يلاحظون ما بدا لهم أن سريراً واحداً

فقط قد استُخدم بالرغم من وجود رجلين في الغرفة. كانوا يغمزون جورج، وكأنهم «يعرفون» ما يجري، وهو الأمر الذي كان يُزعج جورج كثيراً.

استمر جون أونيل بالصدام مع السفيرة بودين. اضطر جون، وبصفته أعلى مسؤول من مكتب التحقيقات، إلى تمثيل مصالحنا في الاجتماعات التي تُعقد معها. كان أي مسؤول يقوم بتمثيل مكتب التحقيقات سيواجه المشاكل التي واجهها هو، لكن شكاوى بودين المتكررة التي كانت تقدمها عن طريق وزارة الخارجية إلى مكتب التحقيقات أدت بالإدارة العليا إلى التفكير بمراجعة أداء جون.

زارنا باري ماون، وهو مساعد مدير مسؤول عن مكتب نيويورك، بعد مرور أيام قليلة على انتقالنا إلى فندق غولد موهور. كان باري معيّناً منذ وقتٍ قصير، وهكذا لم يسبق لي أن التقيته أبداً، لكن ما أزعجني (وآخرين) أن يأتي مدير مديري لسؤالي عن مديري.

قلت لجون: «إننا نحاول التحقيق في هجوم كبير على سفينة أميركية ، لكن بدلاً من أن يأتي من يساعدنا للتعامل مع اليمنيين، يبدُو أنكم تقلقون بشأنهم». هزّ كتفيه. لم يكن ليسمح قط بأن تزعجه أشياء كهذه.

قال لي: «سنبذل كلَّ ما بوسعنا» يا علي، وآمل أن ينظر الآخرون إلى أوضاعٍ كهذه».

شعر فريقنا في اليمن بأن الإدارة العليا لا تدعمنا بما فيه الكفاية بكل ما يتعلق بمشاكلنا مع وزارة الخارجية، ووكالة الاستخبارات المركزية. بدأت أشعر مع مرور الوقت بأن ذلك يعود جزئياً إلى واقع أن أحداً في مركز الإدارة العليا لا يتفهم المشاكل التي تواجهنا في اليمن. يُحتمل أن أحداً منهم لا يخمّن أبداً أن سفيرة الولايات المتحدة كانت مهتمة بمشاعر المسؤولين اليمنيين أكثر من اهتمامها بتلبية احتياجات فريق التحقيق. يُضاف إلى ذلك أن أحداً لا يعرف طبيعة البلاد ذاتها. يلخّص حادث واحد قلة معرفة الإدارة العليا بأحوال البلاد، وهو الحادث الذي جرى

في أحد الأيام عندما كان جون يتكلم بالهاتف مع الإدارة العليا، وكنا في الباحة الخلفية لمنزل البريقة. أبلغ جون الإدارة العليا بأنه يريد إرسال دليل إلى واشنطن العاصمة، وذلك لإجراء تحليل DNA. تعبت الإدارة العليا من شكاوى السفيرة بودين علينا لأننا لا نثق باليمنيين، ولهذا سألته الإدارة: «ولماذا لا تكلّفون اليمنيين بإجراء الاختبار؟»

يُعتبر ذلك الطلب بالنسبة إلى الذين يعرفون اليمنيين سؤالاً سخيفاً: لا يمتلك اليمنيون أي مختبرات عدلية، أو أي خبرة في هذه المجالات. لكن بالنسبة إلى بعض المسؤولين في الإدارة العليا الذين لم يسبق لهم أن عملوا في بلدان العالم الثالث كانوا يفترضون أن كل بلدٍ يمتلك التجهيزات ذاتها التي تمتلكها الولايات المتحدة. أجاب جون محبطاً: «اسمعوني جيداً، إن الرجال الذين تتحدثون عنهم لا ينتعلون أحذية، وأنتم تعتقدون أن بإمكانهم إجراء تحليلاتٍ عدلية؟»

وعندما جاء باري ماون للنظر في شكاوى السفيرة بودين ضد جون فقد تمكّنا من التنفيس عن إحباطنا، وشرحنا أن المشكلة لا تكمن في رئيسنا الذي يمثّل احتياجاتنا بكل اقتدار، لكنها تكمن في السفيرة بودين واليمنيين. أبلغناه بأننا محبطون، لأنه بدلاً من مساعدتنا على تحقيق العدالة جاء للتحقيق مع جون. بدا باري متعاطفاً مع ما قلناه بصدق. اضطرت الإدارة العليا مجدداً إلى التجاوب مع الشكاوى المقدمة من وزارة الخارجية. لم يتأخر الأمر بباري قبل وقوفه إلى جانبنا ويصبح صديقاً لنا، كما قدّم لتحقيقاتنا دعماً كبيراً.

كنا ندهش دائماً لانعدام الدعم من البيت الأبيض ومن وزارة الخارجية، وكذلك للضغوط التي كانا يضعانها على الإدارة العليا لمكتب التحقيقات. ركّز الناس في الولايات المتحدة على الانتخابات الرئاسية، لكننا اعتقدنا أن الجميع يضعون تقديم الدعم للتحقيق في هجوم إرهابي على رأس سلّم الأولويات. وجدنا صعوبة في شرحنا انعدام الدعم لنا، لكننا حاولنا الإبقاء على تفاؤلنا. قلت لجون: «سوف يكون لنا إدارة جديدة بعد وقتٍ قصير، وسوف نحصل على الدعم الذي نحتاجه».

عارضني جون، وقال لي: «لا تكمن المشكلة في أن الإدارة لا تريد تقديم الدعم لنا. تكمن المشكلة في المدير». شعر جون أن العلاقة السيئة ما بين المدير فريبه وإدارة كلينتون في البيت الأبيض ـ وهي علاقة تعود بجذورها إلى التحقيقات التي أجراها المكتب في حياة آل كلينتون الشخصية ـ حالت دون وصوله إلى الرئيس بحيث يقوم بشرح قضية مكتب التحقيقات أمامه.

أضاف جون: «يتعيّن علينا أن نتذكّر أننا وكالة حكومية». تلخّص موقفه في أنه ما لم يكن مدير مكتب التحقيقات على علاقة وثيقة مع الرئيس، فإن وزير الخارجية يمتلك الكلمة الفصل في أي نزاع ينشب ما بين مكتب التحقيقات والسفيرة. يعني ذلك أن السفيرة ستفوز عند نشوب أي نزاعات ما بين السفيرة بودين وجون. لم أكن مرتاحاً للنقد الذي وجّهه جون للمدير فريبه، وهو الذي أكنّ له، وما أزال، قدراً كبيراً من الإعجاب.

رددت عليه: «حسناً، على أي حال ستكون هناك إدارة جديدة بعد قليل، وسوف نعرف قريباً».

أبلغ الرئيس كلينتون لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بأنه قبل إطلاق هجمات إضافية ضد القاعدة يريد أن تكون وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الاتحادي على استعداد «للوقوف علناً للقول إنهما يعتقدان أن [بن لادن] هو الذي فعلها». قالت إحدى كبار مساعدات كلينتون، وهي ساندي بيرغر إن وكالات الاستخبارات «لم تتوصل إلى قرار بشأن مسؤولية القاعدة في وقت مغادرتنا البيت الأبيض». لم يكن ذلك صحيحاً، كما أنني فوجئت عندما قرأت هذا التصريح. استنتجنا بعد وقتٍ قليل من الهجوم أن القاعدة هي المسؤولة – وهذا هو سبب استبعاد مكتب واشنطن الميداني التابع لمكتب التحقيقات FBI، وتسليم المسؤولية إلى مكتب نيويورك.

سبق لي أن عملت مع أحد أعضاء مجلس الشيوخ من الجمهوريين في بنسلفانيا

بعد تخرجي من الجامعة، كما أنني تبنيت النهج الأمني القومي للحزب الذي كان يبدو قوياً، وهكذا شعرت (أنا وكثيرون غيري في المكتب) بالسرور في وقتٍ لاحقٍ من شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وذلك عندما فاز الرئيس جورج دبليو بوش بانتخابات الرئاسة، وخاصة لأن بوش المرشح اتخذ خطاً متشدداً بشأن الهجوم على المدمرة كول، وأبلغ محطة سي. أن. أن: «آمل أن نتمكن من جمع ما يكفي من الأدلة كي ننفذ الإجراء الضروري. لا بد وأن نردّ على الهجوم». تمنيت بعد انتخاب الرئيس بوش أن تتغيّر الأمور. توقعت أن نتلقى دعماً أكبر في تحقيقاتنا بشأن الهجوم على المدمرة كول، وفي معركتنا ضد القاعدة. انتظرنا، وطال انتظارنا. لكن لم يحدث ذلك التغيير.

اضطررنا لنقل تحقيقاتنا إلى صنعاء بعد مضي وقتٍ طويل، أي في حزيران/يونيو من العام ٢٠٠١، وذلك بسبب تهديد القاعدة لحياتنا، وهكذا عقدنا اجتماعاً مع أحد أعضاء لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، وكان برفقة رئيس أركانه. لكن بعد انتهاء الاجتماع الرسمي وخروج عضو مجلس الشيوخ، أغلق رئيس الأركان الباب وحجزنا في الغرفة. قال لنا: «انتظروا لحظةً فقط». انتظرنا بعد أن اعتقدنا أنه سوف يزوّدنا بأفكار جديدة. «إنني أتعاطف مع كل شيء تقولانه، لكن عليكما بالصبر قليلاً. لا يتمكن المسؤولون في البيت الأبيض، للأسف، من تصوّر أن القاعدة مسؤولة عن الهجوم على كول». تكلم معنا بلهجة اعتذارية ومتعاطفة، وبدا وكأنه يحاول مساعدتنا على فهم ما سيأتي.

تطلعنا نحوه مصدومين. قلت: «ماذا تعني بقولك لا يستطيعون تصوّر الرابط؟ القاعدة مسؤولة بالتأكيد. يعرف ذلك كل واحدٍ في الحكومة الأميركية على اطلاعٍ على تقارير الاستخبارات».

قال بتوتر: «اسمع. يتعيّن عليك أن تفهم ما يدور حقيقة». صمت قليلاً قبل أن يتابع: «أقول لكم الحقيقة بأننا لا نتفق مع البيت الأبيض في هذه القضية، لكنهم لا يريدون الربط ما بين بن لادن وبين يو أس. أس. كول. إن موقف الرئيس

ضعيف في هذه الأوقات. إن البلاد غير متحدة وراءه، وما تزال منقسمة بشأن انتصاره في الانتخابات ضد آل غور. إنه ليس على استعداد للمخاطرة برأسماله من التأييد بمهاجمة القاعدة في أفغانستان، والتسبّب بزيادة الانقسام في البلاد. لكن إذا أُعلن على الملأ أن الهجوم على كول من مسؤولية القاعدة فإنه سوف يبدو في موقف الضعف في ما يتعلق بالأمن القومي إذا لم يتحرك. يعني ذلك أن البيت الأبيض لا يريد إلقاء اللوم على القاعدة في ما يتعلق بالهجوم على كول.

أجبتُ رئيس الأركان: «يُحتمل أن يكون الأمر كذلك، لكن مهمتنا هي الإبلاغ عن الحقائق، والحقيقة تقول إن القاعدة هي المسؤولة عن الهجوم على يو. أس. أس كول. لكننا لسنا مسؤولين عما يفعله البيت الأبيض بتلك المعلومات».

مررت أنا وبوب ماكفادين بمحاذاته وخرجنا من الغرفة، وهذا ما فعله الآخرون. كنا نتلقى حينها تهديدات يومية بالقتل من القاعدة، هذا بينما كنا نحقق في مقتل سبعة عشر من البحارة الأميركيين، لكن بدا أن أحداً في واشنطن لم يكترث، وذلك لأسبابٍ سياسية.

أوردت لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أن بعض أعضاء فريق الرئيس بوش رفض الرد على هجوم يو. أس. أس كول. أوردت اللجنة أن وزير الدفاع دونالد رمسفيلد «اعتقد أن وقتاً كبيراً قد مرّ، وأن نائبه بول ولفوويتز يعتقدان أن الهجوم على كول قد مرّ عليه الزمن». يُحتمل أن يكون ذلك صحيحاً بالنسبة إليهم، لكن ليس بالنسبة إلينا، وليس بالنسبة إلى الضحايا وعائلاتهم، وبالتأكيد ليس بالنسبة إلى بن لادن والقاعدة.

غادر جون البلاد مع نهاية شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وعاد إلى الولايات المتحدة لتمضية إجازة عيد الشكر. لكن لدى محاولته العودة إلى اليمن رفضت السفيرة بودين إعطاءه تصريح مغادرة. شكّل ذلك صدمةً للإدارة العليا في مكتب التحقيقات الاتحادي، وذلك لأنها كانت المرة الأولى، بحسب السجلات، التي يقوم فيها سفير

بمنع مسؤولٍ حكومي أميركي رفيع من دخول بلدٍ معينٍ للتحقيق في عملٍ إرهابي. كنت خارج البلاد بدوري في ذلك الوقت متتبعاً بعض خيوط القضية في الأردن أولاً، ثم في الولايات المتحدة.

انتهينا في تلك المرحلة من تفحّص مسارح الجريمة، كما أن الخيوط التي كنا نتتبعها أخذتنا إلى أبعد حدٍ ممكن. كنا ننتظر لنرى ماذا حدث مع الاستجوابين الجاريين في ذلك الوقت مع البدوي والقصع. أما القصع الذي كان اسمه الحركي أبا حذيفة العدني، فقد سلّم نفسه بعد استجواب بعض أفراد عائلته. أخبرنا رئيس الحرس الجمهوري حسين عنسي، وهو خصمنا اللدود، بأن بدوي والقصع قد أقسما على كتاب القرآن على براءتهما. أبلغنا عنسي بأنه ينوي إطلاق سراحهما. عمد الجنرال القمش إلى نقض قراره، وأمر بإخضاع الرجلين لجلسات استجوابٍ أخرى. أراد اليمنيون استجواب الرجلين وحدهما، ولم يُسمح لعملائنا بالانضمام إلى جلسات الاستجواب، وذلك لأنه يصعب تصديق أن المفاوضات الشاقة التي أجراها دافيد كيلي بشأن اتفاقية الاستجواب لم تنتهِ بعد، وذلك بالرغم من اقترابها من مراحلها النهائية. لكن ذلك الوضع تغيّر بعد مضي وقتٍ قصير.

تلقيت أثناء وجودي في الولايات المتحدة مكالمة هاتفية ملحة من كيلي. قال لي: «يتعيّن عليك يا علي أن تعود إلى اليمن على الفور. وقّعنا أخيراً على اتفاقية مع اليمنيين تسمح لنا باستجواب بدوي، لكن لا يوجد أحد هنا يستطيع أن يستجوبه».

سألته: «لكن أين بوب وجورج؟ كلاهما مستجوِبٌ من الدرجة الأولى، والجميع يعرف ذلك». فهمتُ المشكلة على الفور: إن الشخص الذي يقرأ تقرير الاستجواب الحالي لن يعرف كيف يجري اليمنيون جلسات استجوابهم، ولن يعرفوا ما إذا كانوا استخدموا طرقاً موثوقة أم أنهم حصلوا على المعلومات عن طريق تعذيب الموقوف، على سبيل المثال. إنهم يحتفظون بالمعلومات مسبقاً في أذهانهم، وهو الأمر الذي يؤثّر في أسئلتهم وأحكامهم، وهكذا قد تكون المعلومات المنتزعَة مشوهة وغير موثوقة. كانت تلك مخاطرة لم نكن مستعدين لها، وذلك لأنها قد تعيق مسار ملاحقاتنا

القضائية. أضاف كيلي: «إنك الوحيد من بين أعضاء الفريق الذي لم يقرأ التقرير».

قلت: «حسناً. سأغادر بأسرع وقتٍ ممكن».

أضاف بالقول: «أنصحك، ومهما حصل، أن لا تقرأ شيئاً يتعلق بالبدوي من اليمنيين قبل أن تقوم باستجوابه.

سافرت في اليوم التالي على أول رحلة متجهة إلى عدن.

كان شريكي الرئيس في استجواب بدوي عميل NCIS، كين ريور. أجرينا معاً الاستجواب بشكلٍ مفصّل، وقرأت كل ما كُتب عن القاعدة، وعلى الأخص عن كل الأماكن التي زارها بدوي، أو المعلومات المتعلقة بأي ناشط من القاعدة قد يكون بدوي تعامل معه. كان كل ذلك تحضيرات أساسية، لأنه لا يمكن للمرء أن يتوقف أثناء الاستجواب كي يطلب من المشتبه بهم تكرار الأسماء والأماكن، أو حتى أن يكون غافلاً عن المعلومات الأساسية. وإذا فعل المرء ذلك فسوف يدركون أنهم يعطونك معلومات يجهلها. سيتباطأون في أفضل الأحوال، لكن قطار أفكارهم سيتحطم تماماً.

يتعيّن على الشخص الذي يقوم بالاستجواب إقناع الموقوف بأنه يعرف كل شيء عنه، وأن أي كذبة ستُكشف بكل سهولة. يعني ذلك أنه من الضروري أن يقوم المستجوِب بتخطيط الاستجواب بشكلٍ يتمحور حول المعلومات التي يعرفها. يتعيّن على المرء كذلك تحضير أوضاع افتراضية مختلفة من أجل توقّع ما قد يقوله المشتبه به، وإلى أي وجهة يُمكن للدليل أن يؤدي إليها، وهو الأمر الذي يقلل من فرص المشتبه به للقيام بمناورة مفاجئة.

كان شكل غرفة الاستجواب في عدن غريباً جداً، وكانت مقسّمة إلى قسمين، كما يوجد في منتصفها جدار فيه فجوة بشكل نافذة. كان المستجوبون يجلسون في أحد جانبَي الجدار ويجلس المشتبه بهم في الجهة الأخرى، بينما يجري الحديث من خلال تلك الفجوة.

كان بدوي بديناً ويتميز ببطنه وبوجهه المستدير، وعينيه الداكنتين، وشعره الأسود، ولحيته السوداء. قرأت عليه النسخة العربية من تحذير ميراندا، وقال لي إنه فهم، لكنه تخلى عن حقه بالبقاء صامتاً. قال كذلك إنه لا يمتلك شيئاً يريد إخفاءه.

لم يكن بدوي متعاوناً في البداية بالرغم من ذلك. اعترف الرجل بأنه تدرّب مع القاعدة في أفغانستان، وبشرائه للقارب. لكنه زعم بأن فكرة شرائه كانت للتجارة والأعمال، وأنكر كل معرفةٍ له بالهجوم. أدركنا أن «قبوله [في التنظيم]» جاء بعد العملية المضادة للاستجواب التي تتبعها القاعدة، وهي طريقة كنا على علم بها من دليل مانشستر. ينصح الدليل نشطاء القاعدة بالاعتراف بالأمور التي يعرفها المستجوِب، وهو ما يعطي الانطباع بأنهم يتعاونون، لكن مع إخفاء الحقيقة الفعلية، وأي معلوماتٍ جديدة في الوقت ذاته.

سألت بدوي عن خلاد والنشيري. اعترف بأنه على معرفة بهما، وتظاهر بأنه يتعاون، فأعطانا معلوماتٍ إضافية عنهما – وهي تفاصيل ظن بأنها غير مهمّة. لكن هذه التفاصيل الصغيرة وغير المهمّة التي يعطيها المشتبه بهم تترافق مع فائدة كبيرة بالنسبة إلينا، كما هي الحال في هذا الاستجواب. أبلَغَنا بدوي بأن النشيري وخلاداً هما على صداقة حميمة مع بن لادن. سألته أخيراً: «هل أن أسامة بن لادن متورط في عملية كول؟»

«لا أنوي أن أقول لك إن بن لادن متورط، بحيث تكتب في تقريرك أن بن لادن متورط في العملية».

«أتعتقد أننا ننتظرك حتى تقول لنا ذلك؟»

حاول بدوي بعد ذلك التقليل من دور خلاد، وزعم أن خلاداً لم يكن في اليمن، وأنه عرّفه إلى النشيري بواسطة رسالة تعريف.

تظاهرنا بقبول أي شيء قاله لنا بدوي، وحاولنا انتزاع تفاصيل إضافية قد تساعدنا. ذكر بدوي في إحدى المراحل أن النشيري ساعده في عملية شراء شاحنة

صغيرة لتحميل قارب. عثرنا لاحقاً على الوكالة التي تمت بها عملية البيع، كما عمدنا إلى التدقيق في سجل عملية البيع. قدّم الشاري أوراق هوية تضمنت صورة النشيري فوق اسم سعيد المنصوري. تمكنا بهذه الطريقة من كشف اسم حركي آخر استخدمه النشيري.

جلس كين صامتاً إلى جانبي بينما كنت أطرح الأسئلة على بدوي، وذلك لأنه لا يجيد العربية. لكنه عندما كان يفكر بشيء يظن أنه من الواجب طرحه على بدوي كان يسارع إلى كتابة ملاحظة على ورقة لاصقة ويعطيني إياها. لم يكن بدوي يعلم ما تحتويه هذه الأوراق، لكنني رأيته ينظر إليها أكثر من مرة. بدا متوتراً من هذه الأوراق. خمّنت بأن ما أربكه كان هو السبب الذي جعل كين لا يتكلم أبداً مكتفياً بتمرير الأوراق.

قلت: «ألاحظ أنك تنظر إلى هذه الأوراق. أعتقد أنك تتساءل عما هو مكتوب في هذه الورقة؟ «تناولت إحدى الأوراق، لكنني أظهرت له جهتها الفارغة.

ردّ بدوي: «كلا، كلا». احمرّ وجهه، وكأنه طالب أُمسك به وهو يغشّ في الامتحانات. «كلا، لم أكن أنظر». صمت قليلاً قبل أن يتابع: «إنه عملك، وأنا لا أكترث به». حاول الظهور بمظهر عدم الاكتراث، لكن عينيه عادتا إلى الأوراق.

تابعت كلامي معه: «حسناً. سأقول لك على أي حال. إن صديقي هنا هو مثل آلة كشف كذبٍ بشرية. إنه خبير بالسلوك الإنساني، وهكذا فإنه في كل مرة تكذب فيها يمرّر لي ورقةً يقول فيها إنك تكذب». لم يكن كين على علم بما أقوله فاكتفى بالتحديق ببدوي من دون أن يبتسم، أي مثل ما كان يفعل من قبلً. بدا أن ذلك قد زاد من توتر بدوي.

بدأ بدوي منذ ذلك الحين، وعندما يرغب في الكذب، إما بالابتعاد عن النافذة ومحاولة تغيير جلسته إلى زاوية تمنع كين من رؤيته، وإما أنه كان ينظر ليرى ردة فعل كين. عرفنا على الفور أنه كان يكذب، وهكذا أصبح بدوي بذاته آلة كشف كذبٍ بشرية.

سألتُ بدوي: «أي جواز سفرٍ استخدمته عندما سافرتَ إلى أفغانستان؟»

أجاب: «استخدمت جواز سفري».

«وهل كان باسمك أنت؟»

«أجل، باسمي أنا».

«أي اسم؟»

«جمال».

«جمال ماذا؟»

ارتبك قليلاً ثم سأل: «ماذا تعني؟»

«هل كان جمال البدوي، أم أنه كان واحداً من الأسماء الأخرى التي تستخدمها؟ هل كان ذاك هو الاسم الذي استخدمته للسفر إلى البوسنة؟» لجأت إلى التخمين هنا، لكن جميع الذين استجوبناهم كانوا يمتلكون جواز سفر يمنياً ثانياً (مزوراً).

تردد بدوي قليلاً هنا. نظر نحو كين، وما لبث بدوي أن تململ قليلاً. سألته: اسمع، إنني أمتلك نسخة في مكتبنا الآخر عن جواز سفرك بالاسم الآخر الذي تستخدمه. أتريدني أن أحضرها لك؟»

«كلا، كلا. إنه جمال التالي».

لجأت هنا إلى الخداع، وذلك لأنني أعلم أن إرهابيي القاعدة من أمثال بدوي يحبون التفكير في أنهم يفوقون الآخرين ذكاء. لا يرغب هؤلاء في أن يمسكهم الآخرون وهم يكذبون. يُعتبر ذلك لعبة بالنسبة إليهم، وهي لعبة يريدون أن يفوزوا فيها، كما أنها مسألة شرف، لأنهم لا يريدون أن يُنعتوا بالكاذبين. إن كشف كذبهم، وهم الذين يعتبرون أنفسهم مسلمين أتقياء، هو أمرٌ يحمل إحراجاً شديداً لهم.

أخبرني مسؤول الأمن السياسي الذي كان موجوداً في الجلسة، وأثناء فترة

الاستراحة، بأنه شعر بالصدمة عندما اعترف بدوي بأنه استخدم ذلك الاسم. امتلكنا الآن اعترافاً بأحد أسمائه الحركية، وهكذا أطلقنا حملة تفتيش للكشف عن جهة استخدام جواز السفر. اكتشفنا أنه تم شراء جهاز مناداة باسمه، ثم استجوبناه بشأن ذلك الجهاز. اعترف بأن الهدف من شراء الجهاز هو استخدامه في الهجوم: كانوا سينادونه عندما يبدأ تنفيذ الهجوم بحيث يبدأ بتسجيله على جهاز الفيديو الذي قدّمه النشيري لهذه الغاية.

تمكنا من انتزاع التفاصيل المتعلقة بالهجوم شذرة شذرة من فم بدوي. حاول طوال التحقيق التقليل من أهمية دوره في العملية. استمر بالقول إن النشيري هو الذي قدّم جهاز الفيديو، وإنه هو الذي أمره بشراء جهاز المناداة. قال لنا إنه أوكل هاتين المهمتين إلى القصع الذي أصبح مساعده في هذه العملية. أضاف أنه درّب القصع على كيفية استخدام الفيديو وجهاز المناداة. زعم بدوي أن القصع لم يسجّل الهجوم مع ذلك لأنه استغرق في النوم.

عانى أعضاء القاعدة من المشاكل ذاتها التي يعاني منها اليمنيون بالنسبة إلى الفواصل الزمنية. يكمن جزء من السبب في الثقافة: تدربنا في الغرب على التفكير بطريقة طولية، وتعلمنا أنه يمكننا الوصول إلى الحقيقة عن طريق اتّباع سلسلة من الخطوات المنطقية. يتأثر أعضاء القاعدة كثيراً بنظريات المؤامرة، ولهذا فهم يوقفون عمل تفكيرهم النقدي. إنهم يمتلكون ثقافة تستند إلى العلاقات والانطباعات بدلاً من التفكير المنطقي، كما أن لديهم استعداداً كبيراً من جهتهم لقبول نظريات المؤامرة من أجل تفسير أحداثٍ معينة. اعتمد بن لادن على هذا الواقع عن طريق تكرار فرضيات قديمة تقول إن أميركا، وإسرائيل، والغرب يحاولون إخضاع العرب والعالم الإسلامي وتدمير الدين الإسلامي.

يتدرب نشطاء القاعدة ـ وبالتزامن مع تقديم البيعة إلى زعيمهم، وتحضيراً لإمكانية وقوعهم المحتمل بأيدي وكالات الاستخبارات الغربية ـ على اختراع قصص زائفة تتبع التفكير المنطقي، لكنهم يجدون صعوبة في التمسك بقصصهم

الكاذبة عندما يتم استجوابهم عن تفاصيلها الدقيقة. يكمن جزء حاسم في جلسات الاستجواب الناجحة في طرح أسئلة مفصلة تتعلق بالزمن والأمكنة. يسهل على الموقوف عادة الإجابة عن تلك الاسئلة إذا كان يقول الصدق، لكنه إذا كان يلجأ إلى الكذب فسوف يصعب عليه الحفاظ على مجرى قصته. لم يعمد بدوي إلى الكذب كلياً، لكنه كان يفعل ذلك بشكلٍ جزئي. إن تركيزنا على التفاصيل يمكّننا من اكتشاف المواضع التي يكذب فيها. كنت أركز على تلك النقاط فيعمد إلى تصحيح كلامه، وهكذا كنا نحصل على القصة كاملة وإن ببطء.

إن سرد الأحداث بتفاصيلها يؤدي إلى كشف معظم الكاذبين. بدا الأمر في بعض الأوقات مثل نزع الأسنان، وهو الأمر الذي أشار إليه جون أكثر من مرة. كنا نعمد إلى طرح سلسلة من الأسئلة ونوقع بدوي في شباك كذبته. كان يغيّر روايته قليلاً عندما يُمسَك به، أو يشعر بأنه على وشك الإمساك به. كان يغضب أحياناً عندما تُفتضح كذبته، وما يلبث أن يعطينا معلوماتٍ أكبر. تتطلب هذه العملية قدراً كبيراً من الصبر فلا يُفترض بالمستجوبين إظهار خيبة الأمل، لأن من شأن ذلك تشجيع الموقوف على التمسك بروايته بعد أن يعتقد أن المستجوِب على وشك الاستسلام. يتعيّن على المستجوِب، بدلاً من ذلك، أن لا يُظهر أنه على عجلةٍ من أمره، وأنه على استعداد لأن يمضي من الوقت على قدر الحاجة. إن المثابرة هي ذات أهمية أساسية. يخطئ بعض الناس عندما يعطون جلسة الاستجواب فترة زمنية محددة. إن الإقدام على ذلك من شأنه تنبيه المشتبه به إلى حقيقة أن كل ما يحتاجه هو الصمود أكثر من الشخص الذي يقوم بالاستجواب.

كان يوم ٣ كانون الثاني/يناير يوماً مهماً، وذلك عندما أبلغ خمسة صيادين من الشبان عن العثور على قارب على الشاطئ. بدا لنا أن القاعدة تخطط لهجوم ثانٍ، لكن تبيّن أن ذلك الافتراض كان خاطئاً. اتصلنا بالبحرية الأميركية لتحديد أي سفنٍ كانت في المنطقة في ذلك الوقت، فاكتشفنا أنه في ليلة الثالث من كانون الثاني/يناير كان من المقرر أن تكون في المنطقة يو. أس. أس سوليفانز، وهي المدمرة التي

تحمل قذائف صاروخية موجهة. سميّت هذه المدمرة باسم الأشقاء الخمسة الذين ماتوا عندما أغرق اليابانيون سفينتهم يو. أس. أس. جونيو وذلك في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٤٢. كان ذلك الحادث أكبر خسارة عسكرية قاستها عائلة واحدة خلال الحرب العالمية الثانية في عملٍ حربي واحد.

خمّنا بأن بدوي لا بد وأن يعلم بأمر هجوم مخططٍ له، وذلك لأنه كان يساعد النشيري. اعترف بدوي في النهاية بوجود خطتَين منفصلتين. استنتجنا استناداً إلى توقيت ٣ كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٠، أن الخطة الأساسية هي مهاجمة يو. أس. أس سوليفانز. حوّل المتآمرون تركيزهم بعد فشل تلك الخطة إلى يو. أس. أس كول.

انتهى بدوي إلى تجميع المعلومات المتعلقة بسجله مع القاعدة. كان اعترافه ذاك كافياً لضمان صدور إدانة كاملة لدوره كشريك في التآمر على مقتل سبعة عشر بحاراً أميركياً.

الفصل الثاني عشر

«ماذا تفعل القاعدة في ماليزيا؟»

كانت الخطوة التالية بعد حصولنا على اعتراف بدوي هي الحصول على اعتراف مساعده، أي القصع. لم يتمكن بوب ماكفادين من مقابلة بدوي، وذلك لأنه اطلع على تقرير مستجوبيه اليمنيين. كانت المقابلة تلك صعبة لأنهم لم يتبعوا الإجراءات القانونية الأميركية. لم يحدث ذلك مع القصع، وهكذا انضم إليّ بوب في غرفة الاستجواب.

كان القصع يمازح حراسه ويضحك معهم عندما اصطحبوه إلى غرفة الاستجواب. بدا الرجل بصحة جيدة ومرتاحاً. كان شاباً نحيلاً، وذا بنية صغيرة، مع وجهٍ طويل وضيّق، ولحية كثة فبدا كأنه يحاول التمسك بها. دخل عنسي، وهو مدير أمن الرئيس في عدن إلى غرفة الاستجواب ما إن جلس القصع، وتطلع نحونا ثم قبّل القصع على خدّيه، وهمس في أذنه بما بدا لنا كأنه كلمات تشجيع. التفت القصع نحونا، وابتسم ثم طوى يديه.

قلت للقصع بالعربية قبل أن يقاطعني ويمنعني من المتابعة: «مرحباً».

قال ملوحاً بيده كي أبتعد عنه: «لن أتحدث معك. إنني أنتظر المستجوِب».

يبدو أنه اعتقد أنني المترجم، ولم يعلم أنني أعمل في مكتب التحقيقات

الاتحادي. قلت له: «حسناً، سوف تضطر إلى الانتظار وقتاً طويلاً إذاً. أنا هو المستجوِب. إنني أعمل لدى مكتب التحقيقات الاتحادي». ارتسمت ملامح عدم التصديق على محيّاه، ولذلك أبرزت أمامه أوراقي التي تثبت أنني أعمل مع مكتب التحقيقات.

قلت: «دعني الآن، وبعد أن توضحت الأمور أقدّم لك نفسي». عرّف بوب بنفسه كذلك فقرأنا عليه تحذير ميراندا. رفض القصع التوقيع على تصريح بذلك، لكنه أومأ، وتخلى شفهياً عن حقوقه. كان الامتناع عن توقيع أي وثيقة شائعاً بين أعضاء القاعدة، وذلك لأن بعضهم يجهل القراءة، وهكذا فهم لا يعرفون ما يوقّعون عليه. خشي آخرون أنهم فور توقيعهم على وثيقة ما فإن اعترافاً ما سيُضاف، ويبدو أن هذا هو أمر تلقوا تحذيراً منه في السابق.

علمت هذا في وقتٍ لاحق بعد استجواب البراء، وهو شقيق خلاد الأصغر، وهو الذي سجنه اليمنيون منذ مؤامرة بيت هبرة لتحرير المحضار. رفض الرجل التوقيع على تحذير ميراندا، لكن كان مستعداً، شفهياً، للتخلي عن حقوقه، وهكذا سألته: «لماذا لا توقّعون هذا التصريح؟»

أجابني: «لكي لا تضيفوا إليه شيئاً».

شرح لي أنه في النسخة العربية لتحذير ميراندا يوجد فراغ كبير ما بين نهاية الكلمات وسطر التوقيع. قلق هو (وبالتأكيد كل اعضاء القاعدة الآخرين) من أن يُضاف «اعتراف» ما فوق توقيعه.

سألته: «ما رأيك أن تشطب الفراغ بحيث لا يعود من الممكن إضافة أي شيء؟» رضي بذلك الاقتراح، ورسم خطاً عبر الفراغ، ثم وقّع التصريح.

بدأنا جلسة الاستجواب بإبلاغنا القصع بأننا نعرف كل شيء عن دوره في الهجوم على كول، وأنه من الأفضل له أن يتعاون معنا. ردّ بغضب بأن طَرَقَ بيده الطاولة، وأنكر كل معرفة له بذلك الهجوم. كان من المفترض أن تكون مهمتنا مع القصع سهلة

نسبياً لأن بدوي اعترف بدوريهما معاً، لكن القصع أوحى بأن تلك العملية لن تكون سهلة. اتهمني الرجل أكثر من مرة بأنني عميل للاستخبارات الإسرائيلية. قال لي: «لا أعتقد أنك مسلم في الواقع. أنت من الموساد».

حاولنا التواصل مع القصع على مستوى شخصي، وتحدثنا عن رغبته في الزواج ذات يوم. عبّرت له عن تعاطفي مع وضعه كعازب، وهو الأمر الذي بدا أنه يزعجه، وقلت له إنني أتمنى أن يجد عروساً مناسبة له ذات يوم. أبلغته كذلك بأن حياته ما زالت أمامه، وأنه إذا أعطانا المعلومات التي نحتاجها فسوف تتوفر له فرص أكبر لمستقبله.

يمتلك القصع رؤية مبالغاً فيها بالنسبة إلى ذكائه. بدا مقتنعاً منذ البداية أن ذكاءه يفوق ذكاءنا، وهكذا أنكر في البداية أي معرفة له بالهجوم. عجز القصع، مثل ما حدث مع بدوي، في الإبقاء على تسلسل الأحداث عنده، وذلك لأنه يعاني بدوره من مشكلة مع التفكير المنطقي. كان يغيّر روايته باستمرار أثناء الاستجواب عندما نكشف كذباته.

كان تركيزه في البداية، وبعد أن اعترف بالقليل، هو التقليل من شأن ذنبه هو وبدوي. قال لنا إنه ساند الهجوم نظرياً، لكنه لم يشارك به، كما سأل ساخراً عمّا إذا كان التعبير عن الآراء يُعتبر جريمة بنظر القانون الأميركي. غيّر موقفه في منتصف جلسة الاستجواب، فزعم أنه حاول مع بدوي تحذير السلطات اليمنية. لم نعثر بطبيعة الحال على أي شيء يثبت هذه المحاولة. حاول القصع بعد ذلك الزعم أنه وبدوي لم يحاولا تسجيل عملية التفجير، وأن بدوي طلب منه «الذهاب متأخراً». قال بعد ذلك إنه استغرق في النوم. ادعى كذلك أنه لم يسأل بدوي أبداً عن الجهة المسؤولة عن الهجوم، وذلك لأنه يشكّل «عملية كبيرة، ومسؤوليتي كانت أمراً محتملاً، وهكذا لم أسأل». لكنه اعترف في وقتٍ لاحق بأنه كان يعرف طبيعة ما سوف يسجله.

عمدنا كذلك إلى مقابلة كلام الرجلين. أبلغنا القصع بأن بدوي أخبرنا كل شيء

نسبياً لأن بدوي اعترف بدوريهما معاً، لكن القصع أوحى بأن تلك العملية لن تكون سهلة. اتهمني الرجل أكثر من مرة بأنني عميل للاستخبارات الإسرائيلية. قال لي: «لا أعتقد أنك مسلم في الواقع. أنت من الموساد».

حاولنا التواصل مع القصع على مستوى شخصي، وتحدثنا عن رغبته في الزواج ذات يوم. عبّرت له عن تعاطفي مع وضعه كعازب، وهو الأمر الذي بدا أنه يزعجه، وقلت له إنني أتمنى أن يجد عروساً مناسبة له ذات يوم. أبلغته كذلك بأن حياته ما زالت أمامه، وأنه إذا أعطانا المعلومات التي نحتاجها فسوف تتوفر له فرص أكبر لمستقبله.

يمتلك القصع رؤية مبالغاً فيها بالنسبة إلى ذكائه. بدا مقتنعاً منذ البداية أن ذكاءه يفوق ذكاءنا، وهكذا أنكر في البداية أي معرفة له بالهجوم. عجز القصع، مثل ما حدث مع بدوي، في الإبقاء على تسلسل الأحداث عنده، وذلك لأنه يعاني بدوره من مشكلة مع التفكير المنطقي. كان يغيّر روايته باستمرار أثناء الاستجواب عندما نكشف كذباته.

كان تركيزه في البداية، وبعد أن اعترف بالقليل، هو التقليل من شأن ذنبه هو وبدوي. قال لنا إنه ساند الهجوم نظرياً، لكنه لم يشارك به، كما سأل ساخراً عمّا إذا كان التعبير عن الآراء يُعتبر جريمة بنظر القانون الأميركي. غيّر موقفه في منتصف جلسة الاستجواب، فزعم أنه حاول مع بدوي تحذير السلطات اليمنية. لم نعثر بطبيعة الحال على أي شيء يثبت هذه المحاولة. حاول القصع بعد ذلك الزعم أنه وبدوي لم يحاولا تسجيل عملية التفجير، وأن بدوي طلب منه «الذهاب متأخراً». قال بعد ذلك إنه استغرق في النوم. ادعى كذلك أنه لم يسأل بدوي أبداً عن الجهة المسؤولة عن الهجوم، وذلك لأنه يشكّل «عملية كبيرة، ومسؤوليتي كانت أمراً محتملاً، وهكذا لم أسأل». لكنه اعترف في وقتٍ لاحق بأنه كان يعرف طبيعة ما سوف يسجله.

عمدنا كذلك إلى مقابلة كلام الرجلين. أبلغنا القصع بأن بدوي أخبرنا كل شيء

عن دوره، فما كان من القصع إلا أن أخبرنا بأن بدوي أخبره بأن العملية سوف تشتمل على قاربٍ محملٍ بالمتفجرات ويقوم بضرب سفينة حربية أميركية. قال إنه وافق على التعاون بعد أن أخبره بدوي بأن الهجوم سوف يستهدف سفينة «تهاجم المسلمين بحماسة، وأن تلك السفينة هي في طريقها إلى العراق لقتل مواطنين أبرياء». أضاف بدوي أن أميركا هي عدوة للإسلام، وهو الأمر الذي سمح بالهجوم.

حوّلنا الحديث نحو الدِّين فسألته عن مفهوم عهد الأمان، وهو العهد الذي يعد المسلمون بموجبه بتوفير الأمن والحماية لغير المسلمين. قلت له إنه بسبب ترحيب السلطات اليمنية بالولايات المتحدة في عدن، فإن عهد الأمان يجب أن يطبّق. ردّ القصع بأن «الشيخ نقض ذلك العهد»، بسبب «الشرور التي تقترفها أميركا».

سألته: «ومَن هو الشيخ؟»

أجابني: «أنت تعرف من هو. إنه بن لادن».

استخدمنا معرفتنا بالقاعدة في إنهاك القصع وإيهامه بأننا نفهم طرق عمل المنظمة، ومدى تورطه معها. كشفنا كذبه مراراً فبدأ بالشك بأننا اخترقنا تلك المنظمة، وذلك لأن ما من شيء آخر يفسر معرفتي الدقيقة بطرق عملها. كان إيمانه بذلك في إحدى المراحل إلى درجة أنه صاح بي: «سبق لي أن رأيتك في أفغانستان!» لكنه أبلغني في وقتٍ لاحق: «رأيتك في قندهار».

قلت مبتسماً: «يُحتمل ذلك».

تحوّل القصع في ما بعد إلى التفاخر بشأن علاقته ببن لادن والقاعدة. اعتقد أننا نعرف معظم ما كان يقوله لنا. لكننا لم نكن كذلك في واقع الأمر.

سافر القصع إلى أفغانستان في العام ١٩٩٨، وذلك بعد أن أنهى الدراسة الثانوية مع صديقين له في الحي – طه (الذي كان يتجول بهذا الاسم المفرد) ومأمون الموساوى. انضم الموساوى بعد ذلك إلى سلك الشرطة اليمنية، وكان يؤمّن الوثائق المزورة للقاعدة. كانت رحلة الشبان الثلاثة مدعومة من شبكة متطرفة تسيطر على

المدرسة التي التحقوا بها في تعز: جامعة الشيخ عقيل، وهي مؤسسة معروفة بتصديرها الأفراد للقاعدة. أما في أفغانستان فقد تنقّل القصع من دار ضيافة إلى آخر. اختاره أخيراً أبو خبيب السوداني (ابراهيم أحمد محمود القوصيّ) ونقله إلى دار ضيافة حيث كان أميرها أبا جندل، أي حارس بن لادن الشخصي. قال القصع إن أبا جندل يتكلم بلهجةٍ سعودية لكنه ذو ملامح يمنية، وأضاف أنه وجده محبوباً. وصف لنا كذلك العناية التي أولاها أبو جندل لأحد إرهابيي القاعدة، والذي كان مريضاً خلال شهر رمضان. صام الإرهابي بالرغم من خضوعه لعملية تصغير المعدة، وهي عملية خطيرة تتميز بالحمق. لكن رعاية أبي جندل أعادت إليه عافيته. تعرّف القصع على كبار أعضاء القاعدة بمن فيهم سيف العدل، وأيمن الظواهري، ومحمد عاطف. عرضنا على القصع ألبوم صور كبار أعضاء القاعدة فتمكّن من التعرّف عليهم.

قابل القصع بن لادن كذلك في دار ضيافة أبي جندل. قال لنا إن مشاعره تجاه زعيم القاعدة لامست حد الهيام، وأخبرنا بأنه كان يشعر بالسكينة والهدوء في كل مرة كان يكلّم فيها بن لادن. كان بن لادن يلقي محاضرات تدور حول اعتداءات الأميركيين بحق المسلمين، وكيف أنه يتوجب على المسلمين طرد الكفار من شبه الجزيرة العربية. طلب القصع من أحد حراس بن لادن الشخصيين مقابلته شخصياً. لقي طلبه مقابلة بن لادن مع طه ومأمون الموساوى الموافقة. وصف القصع بن لادن بأنه «منفتح جداً». ناقش الحاضرون المبررات التي تدعو إلى الجهاد. شدّد بن لادن أمام الرجال الثلاثة على أنه «إذا تعرضت بوصة واحدة من أراضي المسلمين للاحتلال، فسوف يتعيّن على المسلمين القيام بالجهاد».

كانت المواضيع التي يناقشها بن لادن تتغيّر بحسب الأشخاص الحاضرين. كان يتكلم بكل صراحة ومطولاً عند حضور المرافقين المقربين فقط. وعندما لا يعرف المستمعين إليه كان أكثر حذراً وأكثر تردداً. استنتج القصع من ذلك الفارق أنه دلالة على اعتبار بن لادن له على أنه مرافق موثوق به.

أعطانا القصع بعد ذلك، لكن ببطء تفاصيل أكثر عن الهجوم. قال إنه علم به

مسبقاً قبل وقوعه بنحو شهر ونصف. تقدّم البدوي منه، وقال إن مهمة تسجيل العملية أُنيطت به شخصياً، لكنه سوف يكون «منشغلاً في ذلك اليوم»، وهو لذلك يطلب من القصع القيام بذلك العمل بالنيابة عنه. اصطحبه بدوي إلى شقة التواهي، وعلّمه كيفية استخدام الكاميرا الصغيرة التي حملت ماركة سوني. أشار بدوي من النافذة إلى محطتي تزويد بالوقود في الميناء، وقال إن الهجوم سوف يحدث في واحدة منهما. تمرّن القصع وبدوي على تسجيل الهجوم. قال القصع إنهما حذفا كل هذه التسجيلات التجريبية لكنهما احتفظا بالشريط في الكاميرا. أضاف القصع أن شريطاً جديداً غير مستعملٍ كان يوجد في حقيبة الكاميرا.

أعطى البدوي القصع جهاز مناداة بعد الجلسات التجريبية، وقال له إنه سوف يتسلم نداء «١٠١٠١٠» ينذره بأن الهجوم وشيك الوقوع. قال له كذلك إنه ما إن يتسلم النداء حتى يكون عليه التوجه إلى الشقة، ويبدأ بتسجيل الحدث في الميناء. سلّم بدوي القصع بعد ذلك مفتاح الشقة.

أبلغَنا القصع بأنه استيقظ باكراً صبيحة يوم الهجوم على كول، وكان يوم خميس، وتوجّه إلى المسجد لقراءة القرآن حتى شروق الشمس، ثم توجه بعد ذلك لأداء صلاة الصبح. التقى هناك صديقه محمد الدرمة الذي دعاه للعودة إلى منزل والده لتناول طعام الفطور. تناول الرجلان طعام الفطور ثم استسلما للنوم. استمرت فترة نومهما إلى قرابة الساعة ٩:٠٠ أو ٩:٣٠، ثم توجها إلى المسجد لدراسة القرآن لأنهما كانا سيخضعان لامتحانٍ يوم الاثنين. قال القصع إنه عندها فقط، أي نحو الساعة ٩:٤٥ أو ١٠:٠٠ انتبه إلى جهاز المناداة، لأن الجهاز كان في حالة اهتزاز. افترض القصع أن المناداة وصلت أثناء نومه.

وضّب القصع أغراضه في المسجد وتوجه إلى منزل بدوي حيث كانت كاميرا الفيديو مودَعَةً. لم يكن بدوي في المنزل ـ لأنه كان في معهد ابن الأمير الصنعاني، وهو معهد ديني متطرف في صنعاء ـ ولذلك دخل القصع المنزل مستخدماً مفتاحاً احتياطياً كان بدوي قد أعطاه إياه. مضى بعد ذلك إلى منزل والده حيث توجد

مفاتيح شقة التواهي. أخذ أثناء وجوده هناك مفتاحاً احتياطياً لمنزل شقيقته. هرع بعد ذلك إلى سيارة أجرة وتوجّه إلى شقة التواهي.

وعندما وصل إلى الشارع الرئيس في المعلا، وهو حي يقع قرب ميناء عدن، سمع صوت انفجارٍ كبير. أدرك عند ذاك أنه الصوت الناتج عن تفجير السفينة، وأن الحدث فاته. أمر القصع السائق بالالتفاف ثم توجه إلى منزل شقيقته. لم يكن أحد في المنزل، لكنه دخل مستخدماً المفتاح الاحتياطي. خبأ كاميرا الفيديو، ثم اتصل ببدوي في صنعاء. أبلغ القصع بدوي بأن العملية قد نفذت لكنه لم يصوّرها على شريط الفيديو.

توجّه القصع بعد ذلك إلى مسجد الرضا لتأدية صلاة الظهر. تسلم في طريقه نداءً من بدوي، وما لبث أن توقف عند مركز اتصالات يقع قرب موقف لسيارات الأجرة بهدف إجراء مكالمة معه. طلب منه بدوي «الإبلاغ عن هذه الأنباء». أبلغه القصع بأنه سمع أصوات سيارات الإسعاف وهي في طريقها نحو الميناء، لكنه لا يعلم أي شيء آخر. طلب بدوي من القصع التوجه إلى منزله (أي منزل بدوي) ليأخذ ثلاثة أكياس وينقلها إلى منزل قريبٍ له. أبلغ القصع بدوي بأنه قلق بشأن الوضع في عدن، وأنه يخطط للتوجه إلى صنعاء. وافق بدوي على أنها فكرة جيدة. قال القصع إن محادثتهما كانت «قلقة».

تلقى القصع في وقتٍ لاحق عندما كان في سوق بانافع، نداءً ثالثاً من بدوي، وكان يسأل عن «الأخبار» مجدداً. قال القصع إنه يمتلك معلومة جديدة: أخبرته شقيقته بأنها سمعت من الجيران أن قارباً قد اصطدم بسفينة حربية. أبلغ بدوي القصع بأن لديه وظيفة جديدة و«مهمّة» له. قال بدوي: «بقيت الشاحنة والمقطورة في موقع الانطلاق. أريدك أن تعيدهما، والمفاتيح في الشاحنة». رفض القصع وقال لبدوي إن وحدة من الشرطة تتمركز قرب الجسر، وإن ذلك العمل سيكون خطراً. تابع القصع بالقول: «يعرف الجميع في حيّنا أنني لا أمتلك شاحنة ولا قارباً. يعني ذلك أنهم إذا رأوني بعد الانفجار وأنا أقود شاحنة مع مقطورة للقوارب، فإنهم سوف يشكّون بي ويلقون القبض عليّ».

ردّ بدوي: «إذا لم ترجع بالشاحنة والمقطورة، فإن كامل حي البريقة سوف يقع تحت دائرة الشك».

«إنه عمل في غاية الخطورة ولا أستطيع القيام به. إنني ذاهب إلى صنعاء هذه الليلة». قطع القصع الاتصال عند هذا الحد.

توجه القصع نحو منزل بدوي ليتسلم الأكياس الثلاثة. التقى في طريقه صديقه ياسر الشيني، وهو عميلٌ آخر للقاعدة، وما لبث أن عرض ياسر مساعدة صديقه. حمل الاثنان الأغراض: كيساً أخضر اللون، وحقيبة يدوية، ومحفظة جلدية. طلب القصع من الشيني إقفال المخبأ وتحذير كل الإخوان الآخرين بمغادرة عدن. توجه القصع بعد ذلك لاصطحاب صديقه محمد الدرمة، وهو بدوره أبلغ القصع بأنه سوف يغادر معه إلى صنعاء.

توجه الثلاثة إلى منزل القصع من أجل الحصول على بعض الأغراض الشخصية. تلقى القصع في طريقهم مناداة رابعة من بدوي الذي أراد أن يعرف وضع الأكياس التي معه، لكن القصع أبلغه أنه بدلاً من نقل الأكياس إلى منزل قريبه فسوف يكون من الأسهل له وضعها في مكانٍ أقرب، وهو ما يسمح له والدرمة بالتوجه إلى صنعاء في وقتٍ أسرع. لكن بدوي أصرّ على إيصال الأكياس إلى منزل قريبه.

فعل القصع ذلك، ثم توجه إلى صنعاء برفقة الدرمة. ما إن مروا فوق جسر البريقة حتى رأى القصع أن الشاحنة والمقطورة ما تزالان مركونتين تحته. وصل الثلاثة إلى صنعاء بعد منتصف الليل واتصلوا بمعهد ابن الأمير، وكان بدوي قد أمر حارساً بالسماح لهم بالدخول.

قال لنا القصع إنه بعد أيام قليلة حضرت القوى الأمنية واعتقلت بدوي. بقي القصع في صنعاء حتى الأسبوع التالي متجنباً السلطات. اتصل القصع بوالديه في عدن، لكنه اكتشف أن والده قد تعرّض للاعتقال. أدرك القصع أن الخناق يضيق عليه، وأن أسرته هي التي تدفع الثمن، لذلك توجّه إلى عدن وسلّم نفسه إلى الحرس الجمهوري PSO.

لم أقتنع أبداً بأن القصع قد استسلم للنوم، وهكذا عندما توجه الحرس الجمهوري إلى منزل شقيقة القصع وجد الكاميرا حيث قال إنه وضعها، لكنه عثر على شريطٍ واحدٍ فقط. كان من المفترض وجود شريطين: الشريط التجريبي والشريط الاحتياطي. عجز القصع عن تفسير ما حدث للشريط الثاني.

تبعتُ حدسي فسألت القصع: «إذاً من صوّر العملية على شريط الفيديو، إن لم تفعل أنت ذلك؟» قال مبتسماً: «يُحتمل أن الجن فعل ذلك». ما إن تلفظ القصع بكلمة الجن حتى تقدم ناجي، وهو المسؤول عن فريق الأمن الرئاسي، وأوقف الاستجواب بحجة حاجة القصع للراحة.

فقدنا اللحظة المؤاتية. يمتلك المرء في جلسات الاستجواب لحظة واحدة يقترف المشتبه فيها غلطة، وإذا تمكّن المستجوِب من الإمساك بها على الفور فسوف يكون بإمكانه متابعتها. أما إذا فاتت هذه الفرصة فسوف يتمكن المتهم من إعادة تنظيم روايته والتغطية على غلطته.

ركزّ عنسي كثيراً في أثناء جلسة التحقيق على الأسئلة التي كنا نطرحها في جلسات الاستجواب وعلى الإجابات التي كنا نتلقاها. أبدى الرجل اهتماماً شخصياً باستجواب القصع أكثر مما أبداه باستجواب بدوي، أو أي مشتبهٍ به آخر. اعتاد عنسي التدخل وطلب فترة راحة في كل مرة كان يجد فيها القصع نفسه في وضعٍ حرجٍ.

أنهينا استجواب القصع ذات يوم فطلب مني عنسي اصطحابه في جولةٍ بسيارته. ترددت قليلاً في قبول طلبه بسبب إجراءاتنا الأمنية الصارمة، وكان يحظر علينا التجول من دون مرافقة عملاء الـSWAT التابعين لمكتب التحقيقات الاتحادي المسؤولين عن حمايتنا، لكني لم أرغب في إهانة عنسي بالقول إنني لا أثق به. فكّرت بأنه يُحتمل أن لديه شيئاً هاماً يريد قوله لي. دخلت إلى سيارته، ورأيت في المرآة الجانبية كارلوس فرنانديز مع موكبٍ مؤلفٍ من رجال مكتب التحقيقات وهم يتبعوننا.

قاد عنسي السيارة ببطءٍ شديد، وهو الأمر الذي جعلني متوتراً. مرت دقائق

قليلة من الصمت بدأنا بعدها بالحديث عن الاستجوابات والتحقيقات التي نجريها. ناقشنا الأدلة التي كنا نجمعها والتقدم الذي نحرزه. قال لي أخيراً: «أعتقد أن القصع هو شاب طيب وبسيط. أعتقد كذلك أن البدوي هو الرجل الذي يجب أن يخضع للملاحقة القضائية».

استغربتُ أنه يحاول تصوير القصع وكأنه شخص طيب وإلقاء اللوم على بدوي. أجبته: «حسناً، يبدو أن هناك أشخاصاً كثيرين سيّئون ومتورطون». عدنا إلى الفندق بعد ذلك من دون أن يُفتح هذا الموضوع مجدداً.

كان عنسي يغضب كذلك إذا ما أوصلتنا تحقيقاتنا إلى المتعاطفين مع القاعدة من بين المسؤولين اليمنيين. استجوبنا في إحدى المراحل اثنين من مسؤولي الشرطة اليمنيين، وهما ياسر السروري ومحمد المراكبي، وهو الذي اعترف تحت التحقيق بمساعدته الإرهابيين في الحصول على جوازات سفرٍ مزورة. عثرنا على هذين المسؤولَين بواسطة صديق القصع مأمون الموساوي، رجل الشرطة الفاسد. ما إن خرجت من جلسة استجواب السروري والمراكبي، وهي الجلسة التي أثمرت تلك المعلومات، حتى رأيت العنسي في باحة السجن التابع لأمن الرئاسة حيث كنا نجري جلسات الاستجواب، فسألته: «أيمكننا الحصول على صوَر العميلين السروري والمراكبي؟».

«كلا».

«لماذا؟ إنهما مشبوهان محتملان، ويتعيّن علينا التدقيق فيهما».

كرّر عنسي: «كلا، لكن لماذا تعتبرهما مهمّين على أي حال؟ أنتم لا تعلمون ما إذا كانا متورطين. إن مجرد كونهما ملتحيين لا يعني أنهما إرهابيان».

أجبته: «أنت لم تفهم قصدي. إنهما عضوان معروفان في تنظيم القاعدة، وهما يؤمّنان وثائق مزورة. اعترف السروري والمراكبي بذلك. أنهما إرهابيان بكل تأكيد». عمد العنسي في المرة التالية التي تحدثنا فيها مع السروري والمراكبي إلى الصياح بهما لأنهما تحدثا مباشرة معنا بدلاً من المحققين اليمنيين، كما أنه عمد إلى صفع المراكبي.

اشتكى العنسي في ما بعد من أن تحدّثنا مباشرة مع المشتبه بهم يخرق القواعد التي تم التفاهم عليها ما بين دافيد كيلي والقاضي، وذلك لأن تلك القواعد تنص على وجوب طرح الأسئلة على المسؤولين اليمنيين، وهم الذين يعمدون إلى تكرارها أمام المشتبه بهم. لكن لم يتأخر هذا النظام في الانهيار: ما إن تفاهمنا مع المستجوبين اليمنيين حتى لم يروا أي ضرورة تستدعي عدم طرحنا للأسئلة مباشرة. كان من المثير للسخرية أن أقوم بتوجيه السؤال باللغة العربية ليقوم اليمنيون بتكراره. لم يكن ذلك منطقياً لأنه كان مجرد مضيعة للوقت، حتى أن المشتبه بهم تضايقوا من ذلك الترتيب.

استمرت مشاكلنا مع عنسي بالتزايد. وصلت ذات يوم مع عميل مكتب التحقيقات أندريه خوري لإجراء الاستجواب، لكن أحد حراس أمن الرئاسة قال لي معتذراً: «آسف، لكن لن تكون هناك جلسة استجوابات هنا هذا اليوم». سألته عن السبب. «حسين عنسي هو الذي قال لنا ذلك. سألته مجدداً عن السبب. «لا نعرف. أمرنا أن نقول ذلك فقط».

توجهت أنا وأندريه للبحث عن عنسي فوجدناه جالساً في مكتبه يقرأ القرآن. قلت له بأقصى ما أمكنني من الرضا: «صباح الخير يا حسين. قيل لنا إنه لا جلسات استجواب هذا اليوم. ماذا يجري؟».

ردّ مبتسماً بتكلّف: «إنني مشغول هذا اليوم».

قلت مشيراً إلى كتاب القرآن: «لاحظت ذلك. إنك مشغول بعملٍ سماوي». ابتسم. سألته: «إذاً لا يمكننا التحدث مع المشتبه بهم هذا اليوم».

أجاب: «كلا». ضحكنا نحن الاثنين، وتظاهرنا بأن كل شيء على ما يرام.

بدأت بالتجول في مكتبه. كانت طاولة مكتبه قبالة الباب، وكانت محاطة بالمقاعد والأرائك. كانت رفوف الجدران مليئة بالتذكارات، والكتب، وحافظات الأوراق. حاول عنسي متابعة النظر إلى القرآن، لكنه كان يلتفت متوتراً إلى الأعلى كي يعرف ما كنت أفعله. تظاهرت بأنني لم ألحظه وهو ينظر نحوي، وبدأت بالإمساك

بالتذكارات والكتب وكأنني كنت مهتماً بمحتوياتها. كنت إذا أمسكت بشيء أتعمّد وضعه في غير موضعه. فعل أندريه ما كنت أقوم به بالضبط.

قال لي عنسي بعد مرور نحو دقيقة من الزمن: «لا تلمس أغراضي». كانت عيناه تلتمعان غضباً. بدا أنه غضب كثيراً لأننا نخرب نظام الرفوف.

قال أندريه مبتسماً: «لا عمل آخر لديه، لذلك أراد بعث الفوضى في مكتبك إلى أن تعطيه شيئاً يعمله».

أجاب عنسي: «حسناً، حسناً. يمكنكما استجواب السجناء».

أجبت مبتسماً: «شكراً لك يا حسين».

تحدثنا أثناء استجوابنا للقصع عن نشاطاته خلال الأسبوع الذي سبق الهجوم. قال إنه في الأسبوع الذي سبق الهجوم على كول ذهب إلى مسجد ابن القيّم في البريقة، وإن أربعة من إخوانه من صنعاء قد جاءوا لزيارته. كان أحدهم عبد الله الريمي الذي كان يعرفه منذ العام ١٩٩٤، أي عندما كانا يدرسان في جامعة الشيخ عقيل. تحوّل الريمي في السنين التالية إلى مسؤول هام عن التجنيد في صفوف القاعدة. رحّب القصع بهم ودعاهم للتوجه إلى منزله، أي بيت الشباب. كانت دور ضيافة القاعدة تعمل بحجة الدعوة إلى الدّين. يتمكن أعضاء القاعدة والمجندون المحتملون من المكوث فيها والتحادث بحرية.

قبِل الرجال دعوته ومكثوا لمدة نصف ساعة وشربوا الشاي. حضر ناشط آخر يدعى ياسر أحمد قاسم، وتحدّث مع الريمي على انفراد. غادر الريمي، وقاسم، والسائق بعد ذلك بينما غادر القصع المنزل لترتيب إحضار طعام الغداء إلى منزل ياسر العزاني، وهو ناشط معروف في القاعدة. تجمّع الجميع في منزل العزاني بعد صلاة الظهر. انضم إليهم أعضاء محليون آخرون في القاعدة، وكان من بينهم أحمد الشيني ومحمد الدرمة.

تركز الحديث أثناء تناول طعام الغداء على تمويل الجهاد، لكن بعض الحاضرين

اتهموا الريمي «بالمحاباة» بالنسبة إلى الإنفاق وتوزيع الأموال. وافق القصع في البداية على ذلك الطرح إلى أن قال الريمي إنه بسبب عمله الجاد في تجميع الأموال من المتبرعين، فإنه حرٌ في تقرير وجهة صرفها. وافق القصع على أنها نقطة هامة. أبلغ الريمي القصع بعد ذلك بأنهم يريدون التوجه إلى البحر للسباحة. غادر الجميع ما عدا القصع لتجهيز ثياب السباحة. عاد القصع بعد صلاة العصر من المسجد فعلم أن الزائرين قد عادوا إلى صنعاء.

بدا الأمر عندما تحدث القصع عنه وكأنه غداء وداع لمهاجمي المدمرة كول. تعرّف القصع على صورة موساوي، وقال إنه كان موجوداً، لكننا تعرفنا عليه في هذه الفترة على أنه حسان الخامري، وهو يستخدم الاسم الحركي أبا علي. لم يكن ذلك هو الرابط الوحيد ما بين مأدبة الغداء والهجوم: حارب أحد الضيوف الآخرين في أفغانستان تحت اسم طه الأهدل، والذي كان من المقرر أن يكون هو مهاجم سوليفانز الانتحاري. أما إذا كان القصد من مأدبة الغداء هذه أن تكون وداعاً أخيراً للمهاجمين الانتحاريين فإن ذلك يعني أن كثيرين في اليمن كانوا على علم مسبقٍ بالهجوم وبواقعة أن كول كانت في طريقها إلى ميناء عدن. عندما محصنا ًالأمر اكتشفنا أن الريمي كان يحاول، ببساطة، الحصول على جوازات سفرٍ مزورة لإرهابيي القاعدة كي يستخدموها في عمليات مقبلة. لم نكتشف عند هذا الحد أي رابط عملاني مباشر ما بين الغداء وبين الهجوم على كول.

بعد أن غطت مناقشاتنا مسار القصع نحو القاعدة وأعماله في الأيام التي سبقت كول، قمنا بتوسيعها بحيث تغطي الأشهر التي سبقت حادثة كول. بقي حادث واحد، بالرغم من أن القصع اعتبره غير مهمّ، ولربما كان ذلك السبب في أنه لم يجد مشكلة في التحدث عنه. تلقى القصع في أواخر شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٩ مكالمة هاتفية من خلاد، وهو الذي كان على معرفةٍ به منذ أيام أفغانستان. تعمقت أواصر الصداقة بين الرجلين بحيث ناقش الاثنان في بعض المراحل إمكانية زواج خلاد من شقيقة القصع، لكن هذا الأمر لم يتحقق في النهاية.

وصف القصع خلاد بأنه رجل نحيل البنية، غزير الشعر، ويتكلم بلهجة سعودية، وذو لحية مكتملة، وصاحب «عينين جميلتين»، وهي أوصاف تتماشى مع ملاحظاتي التي تستند إلى الهوية التي عرضها عليّ القمش - لكن ما عدا اللحية، لاحظت أنه بينما يميل النشطاء إلى الاحتفاظ بلحية عندما يكونون في أفغانستان، إلا أنهم عندما يسافرون لتنفيذ عملياتهم فإنهم يحلقون لحاهم في محاولة منهم أن لا يكونوا مختلفين عن الآخرين. ادعى خلاد بأنه يبلغ الخامسة والعشرين من العمر، لكن القصع اعتقد بأنه أكبر من ذلك سناً. بقي الرجلان على اتصالٍ في ما بينهما حتى بعد مغادرة القصع أفغانستان، كما أن خلاد أبلغ القصع أنه إذا ما أراد العودة يوماً فإن والد خلاد، أي محمد بن صالح بن عطاش سوف يموّل رحلته.

طلب خلاد خدمة مهمة من القصع. أرسل والد خلاد مبلغ ٣٦,٠٠٠$ من المملكة العربية السعودية إلى أحد عملاء القاعدة ويدعى إبراهيم الثور، وهو الذي يتخذ الاسم الحركي نبراساً في صنعاء. لم نكن على علمٍ في تلك المرحلة من التحقيقات مع القصع بأن نبراساً هو أحد المهاجمين الانتحاريين في عملية كول. كان القصع يعرف نبراساً منذ أيام أفغانستان، وهما حاربا في الجبهة ذاتها كما مكثا في إحدى المراحل في دار الضيافة ذاتها. (حارب نبراس كذلك في البوسنة). قال القصع إن خلاد قال إن المال مخصّص لعملية بديلة. كان خلاد في آسيا في ذلك الوقت لكنه طلب من نبراس نقل المال إلى سنغافورة حيث سيلتقيه لتسلّمه. لكن خلاداً شعر أن مبلغ ٣٦,٠٠٠$ هو مبلغ كبير بالنسبة إلى الجمارك كي ينقله نبراس وحدَه. وافق القصع على المساعدة من دون تردد.

أبلَغَنا القصع بالمكالمة الهاتفية وهو في حالةٍ من الحبور. كان من الواضح أنه فخور بعلاقته مع خلاد العضو المهم في القاعدة، وبالشرف الذي منحه إياه خلاد من خلال طلبه لمساعدته.

توجّه القصع إلى صنعاء وهناك تناول طعام العشاء مع نبراس وناقشا الرحلة. أبلغ نبراس القصع بضرورة حلاقة لحيته وارتداء سروال (بدلاً من الزي اليمني التقليدي)

من أجل عدم الظهور بمظهر مختلفٍ عن الآخرين وعدم جذب الانتباه في المطار. حذّره نبراس من أن عليهما أن يكونا حريصين، وخاصة لأن جوازي سفرهما يحملان تأشيرات دخول وخروج إلى باكستان، وذلك منذ وقت اشتراكهما بالقتال في أفغانستان. عاد القصع إلى عدن منتظراً إتمام نبراس لعملية شراء تذكرتيهما.

انطلق الرجلان في يوم ٤ كانون الثاني/يناير إلى المطار. (اعتقد القصع أن السائق هو أحد أقرباء نبراس، ولربما يكون عمّه أبو سيف – وهو قائد خلية القاعدة في صنعاء، والذي قُتل بعد ذلك في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٣ أثناء مواجهة مع السلطات اليمنية). قسّم الاثنان مبلغ ٣٦,٠٠٠$ في ما بينهما. وضع القصع مبلغ ٩,٠٠٠$ في جيب سرواله، بينما وضع مبلغ ٧,٠٠٠$ في الجيب الأخرى. سافر الرجلان إلى بانكوك عبر أبو ظبي، وخططا للتوجه من هناك إلى سنغافورة، وذلك بعد أن أبلغهما وكيل سفرياتهما بإمكانية حصولهما على تأشيرات الدخول إلى سنغافورة من مطار بانكوك. تبيّن أن ذلك غير صحيح، فبعد محاولات عدة للتفاوض مع السلطات التايلاندية بلغتهما الإنجليزية الركيكة، تخليا عن المحاولة. علق الرجلان في بانكوك، فطلبا تأشيرة دخول لمدة شهرٍ واحد ونزلا في فندق واشنطن.

اتصلا من هناك بأبي سيف في صنعاء وأبلغاه بما حصل معهما. افترض الرجلان أن خلاداً قد اتصل به عندما لم يظهرا في سنغافورة. أبلغا أبا سيف بأنهما سينتظران في الفندق إلى أن يتسلما تعليمات إضافية. اتصل القصع كذلك بعائلته وأبلغها الرسالة ذاتها تحسباً لإمكانية اتصال خلاد بها. لكن خلاد لم يكن يعلم بأنه لا بد من الحصول على تأشيرة دخول إلى سنغافورة بشكلٍ مسبق، وهو بدوره لم يُسمح له بمتابعة السفر من مطار كوالالامبور. اتصل خلاد بعم نبراس، وهو زوّده بآخر المعلومات عما حدث مع القصع ونبراس. اتصل خلاد بالقصع ونبراس في فندق واشنطن وأبلغهما بضرورة البقاء في مكانهما، لأنه سوف يأتي إليهما. سخر منهما في هذا الوقت لعدم حصولهما على تأشيراتٍ مسبقاً متناسياً أنه اقترف الغلطة ذاتها.

وصل خلاد إلى بانكوك في اليوم التالي، فعانق القصع ونبراس بحرارة، وعندما

أعطياه مبلغ ٣٦,٠٠٠$ شكرهما على مساعدتهما، وما لبث الرجلان أن اشتريا تذاكر جديدة وعادا إلى اليمن.

ذُهلت أنا وبوب عند سماعنا هذه القصة. إذ ما هو السبب الذي تُقدم القاعدة من أجله على تحويل مبلغ ٣٦,٠٠٠$ إلى خارج اليمن وسط فترة التخطيط لهجوم كبير مثل تفجير يو. أس. اس كول؟ كان التفسير الذي قدّمه القصع بأن المال كان مخصّصاً لمشروع جديد يعدّه خلاد غير وارد أبداً، وذلك لأن مثل هذه الخطط لا تكلف أكثر من ٢,٠٠٠$. أرسلنا إخباراً إلى أحد عملاء مكتب التحقيقات الاتحادي في بانكوك، واقترحنا عليه الذهاب إلى فندق واشنطن للتحقيق بالأمر. راجعنا في هذا الوقت المكالمات الهاتفية التي جرت ما بين الفندق وأبي سيف (عم نبراس) وهكذا تمكنا من تحديد غرفة الفندق التي استخدمها القصع ونبراس. أجرينا بعد ذلك استعراضاً معاكساً (تفحّص المكالمات الواردة) على رقم هاتف القصع في عدن، ورقم أبي سيف في صنعاء، ورقم هاتف غرفة فندق واشنطن التي نزلا فيها، فاكتشفنا أنهما كانا على اتصال مع رقم في كوالالامبور، أجرينا تحقيقاتٍ إضافية فاكتشفنا أن رقم كوالالامبور يعود إلى هاتفٍ عمومي.

استنتجنا، لهذا السبب، أن هذا هو الهاتف الذي كان خلاد يجري منه اتصالاته معهم. ماذا كان خلاد يفعل في ماليزيا؟ وهل أن هذا الهاتف العمومي تستخدمه القاعدة بشكلٍ منتظم؟ لم نعرف الإجابة عن ذلك السؤال، لذلك سألنا وكالة الاستخبارات المركزية – وهي الجهاز الحكومي المسؤول عن تجميع المعلومات الاستخبارية خارج البلاد.

اكتسبنا في كل خطوة من خطوات تحقيقاتنا في حلقة اليمن – بانكوك – ماليزيا، خيوطاً مهمّة، أو كانت تبرز أمامنا أسئلة جديدة، وكنا عندها نرسل طلباً رسمياً إلى وكالة الاستخبارات المركزية (عبر مدير FBI) نسألهم فيه عمّا إذا كانت لديهم أي معلومات عنها. (يُعتبر ذلك إجراءً تقليدياً بالنسبة إلى أي طلبٍ رسمي ما بين مكتب التحقيقات الاتحادي، ووكالة الاستخبارات المركزية، والعكس صحيح،

والذي يجب أن يمر عبر مكتب المدير. لا يعني ذلك أن يوقّع المدير شخصياً على ذلك الطلب أو أنه يراه، لكنه يعني أنه طلب رسمي على مستوى عالٍ).

سألنا في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٠، وكالة الاستخبارات المركزية ما إذا كانت تعرف شيئاً عن وجود خلاد في ماليزيا، أو عن أي اجتماع للقاعدة هناك. ردّت وكالة الاستخبارات المركزية (وكذلك عن طريق الأقنية الرسمية) بأنها لا تعلم شيئاً عن تجمعاتٍ للقاعدة تهدد الأمن القومي. لم تمتلك وكالة الأمن القومي بدورها إجابات عن أسئلتنا.

وفي شهر نيسان/أبريل من العام ٢٠٠١، أي بعد أن وجدت تحقيقات مكتبنا القانوني رقم الهاتف العمومي في كوالالامبور فقد قررنا أن خلاداً لربما هو الذي استخدم ذلك الهاتف، كما أرسلنا طلباً رسمياً ثانياً إلى وكالة الاستخبارات المركزية - نطلق عليه في مكتب التحقيقات الاتحادي اسم teletype أي برقية مطبوعة عن بعد بالمبرقة الكاتبة - نسألهم عمّا إذا كانوا يعرفون شيئاً عن ذلك الرقم. لم يأتنا أي جواب.

أُرسل طلبنا الرسمي الثالث في شهر تموز/يوليو من العام ٢٠٠١، أي عندما تجمعت لدينا بعض التفاصيل الجديدة. (كان يُرسل كل طلبٍ جديد بسبب تجمّع تفاصيل أو أسئلة جديدة، وليس لأننا نشك في أن وكالة الاستخبارات المركزية لم تتجاوب بصدق مع طلباتنا السابقة). سألناهم مجدداً عمّا إذا كانوا يعرفون شيئاً عن وجود خلاد والقاعدة في ماليزيا، أو حول رقم الهاتف. لم نتسلم أي معلومات جديدة.

بالرغم من النجاحات التي حققناها في غرفة الاستجواب إلا أن الأوضاع الأمنية في عدن ساءت كثيراً، وذلك مع تزايد الاحتجاجات ضد وجودنا التي كان يقوم بها رجال الدين، وأعضاء في المجلس النيابي، وتزايدت كذلك تهديدات القتل الموجهة ضدنا. أبلغتنا بعض المصادر، وبوتيرة متزايدة أن نشطاء القاعدة في البلاد يخططون لضربنا، وأن ذلك يشمل خلية وصلت إلى عدن لهذا الغرض. قررت الإدارة بحلول شهر حزيران/يونيو من العام ٢٠٠١ أن الوضع خطيرٌ جداً إلى درجة تطلبت نقل

أولئك الباقين منا في البلاد من عدن إلى صنعاء التي اعتُبرت موقعاً أكثر أمناً. وافق اليمنيون على نقل المشتبه بهم، والذين نرغب في استجوابهم، إلى صنعاء.

مكثنا في البداية في فندق شيراتون، لكن التهديدات استمرت بالتزايد، كما أن الخلية التي انتقلت إلى عدن لمهاجمتنا عادت وتبعتنا إلى صنعاء، وهكذا انتقلنا إلى السفارة الأميركية. عمدنا إلى إجراء تغييرٍ آخر وهو عقد جلسات الاستجواب في الليل، كما كنا ننتقل بسيارات لا تحمل أي علاماتٍ مميزة. ساعدنا اليمنيون كذلك على تتبع الخلية التي تهددنا، وهكذا ألقت السلطات القبض في شهر حزيران/يونيو على ثمانية رجال، واتهموا بالتخطيط لتفجير السفارة الأميركية ومهاجمتنا مع السفيرة بودين.

لم يكن المكوث في السفارة بذلك الوضع المثالي بالنسبة إلينا. كانت المساحة المخصصة لنا والخدمات المقدمة محدودة. كنا ننام على الأرض، ونستحم في بيت مشاة البحرية حيث يمكث المشاة داخل مجمع السفارة. لم يتمكن المطعم من تحضير طعام كافٍ لنا، وهكذا اضطررنا لطلب الطعام من خارج السفارة، وعقدنا صداقة مع صاحب مطعمٍ لبناني، وهو الذي كان يسلمنا المأكولات كل يوم.

أمرت السفيرة بودين بأن يدفع كل فردٍ من أفراد فريق تحقيقات FBI وNCIS مبلغاً يتراوح ما بين خمسة إلى عشرة دولارات يومياً إلى موظفي التنظيف في السفارة. كنا ندفع ذلك المبلغ من جيبنا الخاص لأن مكتب التحقيقات لا يتحمل النفقات الإضافية عندما يمكث العملاء في السفارة، أو في أي منشأة حكومية أخرى. شعرت إدارتا FBI وNCIS بالغضب بسبب إقدام السفيرة على تحميل العملاء أجرة نومهم على أرض السفارة. لم ننزعج بسبب الكلفة، لكن ما كان يهمنا هو شعورنا بأن سفارة بلادنا لا ترحب بنا.

أمرت السفيرة بودين بتجميع بنادقنا في خزنة السفارة، لكنا عوّضنا عنها بطريقتين مختلفتين. كان المشاة الذين يحرسون الخزنة يتعمدون تركها مفتوحة في أوقات

الأوضاع الخطرة بحيث نتمكن من الوصول إلى البنادق في حال احتياجنا إليها. شملنا مشاة البحرية كذلك في تدريباتهم، وهكذا كانوا يريدون أن نصل إلى البنادق بسهولة. تناوب زملائي في مكتب التحقيقات، من أمثال دون بوريللي على المراقبة من فوق سطح السفارة. عمد بعض موظفي السفارة كذلك إلى شراء بنادق من السوق المحلية، وتندروا عن سهولة حصول أي شخص في اليمن على بندقية، هذا إلا إذا كان مسؤولاً أميركياً، وهو الذي يحتاجها أكثر من أي شخصٍ آخر.

حدث في هذا الوقت، وبالتحديد في ١١ حزيران/يونيو من العام ٢٠٠١ أن توجه كلارك أس [redacted] مع ماغي جي [redacted] وهي محلّلة لدى مكتب التحقيقات الاتحادي، لكنها ملحقة بوحدة بن لادن في وكالة الاستخبارات الأميركية، ومع دينا كورسي، وهي محلّلة تعمل مع مكتب التحقيقات في المقر الرئيس لـFBI في واشنطن العاصمة، وذلك للاجتماع مع أعضاء فريق التحقيق بالهجوم على المدمرة يو. أس. أس. كول في نيويورك. قالوا إن لديهم بعض الأسئلة التي يريدون طرحها حول القضية. كنت في اليمن في ذلك الوقت، لكن ستيف بونغاردت، وهو شريكي في المسؤولية عن هذه القضية كان في نيويورك، ولذلك ترأس الفريق.

أعطى ستيف وبقية أعضاء الفريق، وعلى مدى الساعات الأولى القليلة من الاجتماع ملخصاً للزائرين عن التقدم الحاصل في التحقيقات. طلبت دينا فور انتهاء الاجتماع، أي عند نحو الساعة ٢:٠٠ من بعد الظهر، عرض الصور على أعضاء فريق كول. وضعت دينا ثلاث صور مراقبة واضحة على الطاولة أمام الفريق.

علمنا بعد مرور أشهرٍ على ذلك الاجتماع أن دينا تسلمت الصور من توم دبليو [redacted]، وهو مسؤول في وكالة الاستخبارات المركزية، وأنها أُبلغت فقط بأن الصور أُخذت في كوالالامبور، وأن أحد الرجال من بينهم يدعى خالد المحضار. لم يقل لها أحد أي شيء عن الرجل، أو عن سبب مراقبة وكالة الاستخبارات المركزية له. علمنا لاحقاً أن توم أراد معرفة ما إذا كان مكتب التحقيقات الاتحادي يعرف أي شيء عن الرجال الظاهرين في الصور.

سأل [redacted] ستيف والفريق عمّا إذا كان فهد القصع ظهر في إحدى تلك الصور، وعمّا إذا كانوا يعرفون هوية أي شخصٍ آخر. لم يكن القصع من ضمن أي من هذه الصور الثلاث، كما أن ستيف بعد أن تفحص الصور الثلاث قال إنه لا يعرف هوية أي شخصٍ آخر.

أطلق ستيف بعد ذلك سلسلة من الأسئلة الخاصة به: «لكن مَن هم هؤلاء الرجال؟ ولماذا تعرضون هذه الصور علينا؟ وأين التُقطت هذه الصور؟ وهل توجد صور أخرى؟ وما هي علاقة هذه الصور بكول؟»

قالوا له إنهم لا يستطيعون الإجابة عن أسئلته، وعندما سأل عن السبب قالوا له إن ذلك يتعلق «بمعلومات لا يُمكن إشراك عملاء جنائيين فيها». قالت دينا في وقتٍ لاحق إن التعليقات المرفقة بالتقارير تشير إلى عدم إمكانية إشراك محققين جنائيين بالمعلومات الواردة من دون الحصول على إذنٍ من مكتب وزارة العدل لسياسات الاستخبارات والمراجعة. (أوردت لجنة الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر أن دينا لم تطلب أبداً إذناً من مكتب وزارة العدل لسياسات الاستخبارات. كان بإمكانها، وعلى أي حال، إشراك ستيف بالمعلومات لأنه كان عميلاً منتدباً للاستخبارات).

بدأ ستيف والفريق بالجدال المعاكس – كان ذلك الجدار ذاته الذي اصطدم به عندما كان في اليمن، وبدأت بعد ذلك جولة من الصراخ المتبادل. حاول ستيف والفريق إقناع [redacted] وتملّقه من أجل الحصول على المعلومات. كان من المعلوم أن الصور كانت مهمة لفريق تحقيقاتنا في اليمن، وهل هناك من سبب آخر يدفع بوكالة الاستخبارات المركزية إلى اللجوء إلى فريق كول للسؤال عن القصع؟ مَن كان أولئك الرجال، وما كانت طبيعة ذلك الاجتماع الذي راقبته وكالة الاستخبارات المركزية؟ هل كانت هناك مؤامرة أخرى كان يتعيّن أن نعلم بها؟ لم يقل [redacted] شيئاً.

دفع ستيف والفريق بالجدال إلى مستويات أقسى، وهم فعلوا ذلك جزئياً بسبب التهديد الذي تلقاه أولئك الذين بقوا منا في اليمن: انتقلنا من عدن إلى صنعاء بسبب التهديدات بقتلنا، وها هم يبلغون الآن بأن ذلك التهديد قد تبعنا إلى صنعاء. يُحتمل أن يكون أولئك الرجال الذين يظهرون في الصور جزءاً من ذلك التهديد. يُحتمل كذلك أنهم سوف يساعدوننا في إتمام الأجزاء الأخيرة من لغز كول، وهو الأمر الذي يسمح لنا بالعودة إلى الوطن في وقتٍ أسرع.

قالت دينا أخيراً: «يدعى أحد هؤلاء الرجال خالد المحضار».

سأل ستيف: «ومن هو خالد المحضار؟ ولماذا تراقبونه؟ أيمكنكم أن تخبرونا أي شيء عنه؟»

سادت فترة من الصمت.

«ما هو رقم جواز سفره؟ وهل تعرفين تاريخ مولده؟»

مرّت فترة صمت أخرى.

كان ستيف وبقية أعضاء الفريق مستميتين للحصول على أي قدرٍ من المعلومات. أما الاسم وحده فلا يمكنه تقديم مساعدة كبيرة عندما يبحث المرء عن شخصٍ لا يعرف عنه شيئاً – وهو الشخص الذي يُمكن أن يكون في أي مكانٍ في العالم.

رفض [redacted] إعطاءنا أي معلومات، وهكذا غادر في النهاية مع دينا وماغي.

استمر ستيف على مدى الأسابيع والأشهر التالية في الاتصال بدينا طالباً مزيداً من المعلومات. كانت تقول له في كل مرة إنه بحسب «القواعد» المتبعة لا تتمكن من إعطائه تلك المعلومات. احتج ستيف أمام السلطات الأعلى – أي إلى الإدارة العامة – لكن طُلب منه أن «يتوقف عند هذا الحد». (لكن بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أبلغ [redacted] المحققين بأنه سأل عمّا إذا كان باستطاعته إعطاء المعلومات إلى مكتب التحقيقات الاتحادي، لكن رؤساءه في الوكالة لم يردوا عليه أبداً).

لم تكن دينا هي الوحيدة التي أساءت فهم القواعد المتعلقة بإعطاء المعلومات. امتدت هذه المشاكل عبر أوساط الحكومة الأميركية، وهي التي وصلت إلى حد اللامعقول. كان ستيف في اليمن في شهر شباط/فبراير لعقد اجتماع مع المسؤولين اليمنيين وهوارد ليدبتر، والذي كان في فترة مناوبة لمدة ثلاثين يوماً بوصفه المسؤول [قائد فريق] عن مكتب التحقيقات. طلب ليدبتر من ستيف الخروج من الغرفة بينما كان يتحدث مع اليمنيين بشأن بعض المعلومات الاستخبارية.

قال ستيف: «اسمع، إذا كان يستطيع اليمنيون معرفة تلك المعلومات، فأنا أستطيع معرفتها كذلك».

«آسف».

قيل لنا ذات يوم عندما كنا في صنعاء، وبعد أن مضى علينا فيها نحو أسبوعٍ من الزمن، إنه يجب علينا مغادرة اليمن. تسربت تهديدات مؤكدة جديدة تفيد بأن كل الموجودين في هذا البلد [من الأميركيين] سيتعرضون للاغتيال، بمن فيهم بوب ماكفادين وأنا والسفيرة، و [redacted]، الملحق الدفاعي. عمدنا إلى تقطيع كل وثائقنا، ووضّبنا كل معداتنا، ثم استقللنا السيارات متوجهين إلى المطار.

لكن بوابات السفارة لم تُفتح. أفادنا رئيس الحرس الأمني لمشاة البحرية، وهو المسؤول عن حماية السفارة، بلهجة اعتذارية بأنه تلقى مكالمة من الضابط الأمني الإقليمي في وزارة الخارجية قال له فيها إن السفيرة بودين أمرت بعدم فتح البوابات إلى أن تتكلم بتفصيلٍ أكبر عن الموضوع مع نائب وزير الخارجية ريتشارد آرميتاج. قال لنا رئيس الحرس: «أنا آسف، لا يوجد أي شيء شخصي أبداً، لكن هذه هي أوامري». سبق لنا أن تمكنا من إنشاء علاقات طيبة مع مشاة البحرية. طلب منا المشاة مساعدتهم في تدريباتهم لتأمين الحماية للسفارة، كما أننا تدربنا معهم أكثر من مرة، وتناوبنا في الحراسة. كان جميع الموظفين غير الضروريين قد غادروا السفارة، ولهذا احتاجوا كل المساعدة التي يمكنهم الحصول عليها. سمح لنا هذا

الأمر بالتدخل، وما لبث أن نشأت صداقة متينة ما بيننا، لكنهم لم يمتلكوا أي خيار لأن السفيرة كانت هي رئيستهم.

توجهت ماري غاليغان، التي كانت مسؤولة في فترة مناوبة لمدة ثلاثين يوماً عن فريق مكتب التحقيقات، مع ستيف كوربيت، وهو قائد NCIS الميداني، بهدف التحدث مع السفيرة بودين التي أفادت بأن صورة مغادرة الجميع للسفارة ستؤذي علاقاتنا مع اليمنيين. لكنها قالت لماري وستيف، بالرغم من ذلك، إنه إذا بقيتُ أنا وبوب فإنها سوف تسمح للبقية بالمغادرة. قالت السفيرة إن اليمنيين سوف يرتاحون هكذا، لأنها تعلم أنهم يحبوننا.

تحضرت أنا وبوب لقبول هذا الاتفاق ثم رفعت ماري الأمر إلى قيادة مكتب التحقيقات. جاء الرد على الشكل التالي: «كلا. سيغادر الفريق بأكمله دفعة واحدة». يُضاف إلى ذلك أنهم أبلغونا بأننا أنا وبوب موجودان على رأس قائمة المستهدفين من قِبل الإرهابيين الذين يعرفون أننا على رأس عملية التحقيق واستجواب نشطائهم.

اتصل مدير مكتب التحقيقات الاتحادي بوزير الخارجية وشرح له الوضع. تدخل الوزير، وهكذا تلقت السفيرة أمراً بفتح الأبواب والسماح لنا بالمغادرة. سافرنا جواً إلى فورت ديكس حيث كان جون أونيل وكيني ماكسويل بانتظارنا، ثم عدنا معهما بالسيارة إلى نيويورك سيتي.

تركت لدينا مغادرة اليمن شعوراً بالإحباط، فبالرغم من التهديدات تمكّنا من إحراز تقدم مهم في التحقيقات المتعلقة بالمدمرة كول، كما تجمّع لدينا ما يكفي من الأدلة للبدءً بمحاكمة بدوي والقصع. يُضاف إلى ذلك أن التهديدات الحقيقية التي دفعتنا للمغادرة كانت دلالةً قوية على أن القاعدة ما تزال قوية في اليمن. كانت الحاجة تدعو إلى ملاحقة هؤلاء الرجال، كما أن اليمنيين كانوا يحتجزون أشخاصاً آخرين في سجونهم. أردنا استجواب أولئك الأشخاص بسبب أهميتهم في تنظيم القاعدة، بالرغم مما قيل عن عدم علاقتهم بالهجوم على كول. كان على رأس تلك القائمة أبو جندل، حارس بن لادن الشخصي، والبراء، شقيق خلاد.

بقيت لدينا كذلك مسألة خلاد وماليزيا. واظبنا على سؤال وكالة الاستخبارات المركزية عن هذه المسألة، لكنهم ظلوا مصرّين على أنهم لا يعرفون شيئاً عنها. أردنا أخذ التحقيق في هذه المسألة إلى حدٍ أبعد. كانت جميع هذه الأسئلة والقضايا هي التي دفعتنا إلى الضغط على الإدارة العليا لإعطائنا الإذن بالعودة.

حصلنا في شهر آب/أغسطس على الضوء الأخضر، وعدنا إلى اليمن للاجتماع بمسؤوليها لمناقشة شروط عودة فريقَي مكتب التحقيقات وNCIS بأمان إلى البلاد. توجهت مع كيني ماكسويل ومسؤولين آخرين إلى صنعاء للتحدث مع اليمنيين. كانت تلك هي المرة الأولى التي يحضر فيها كيني إلى اليمن.

أعربت السفيرة بودين عن سرورها لرؤية معاودة مكتب التحقيقات عمله في اليمن، ولهذا عرضت تقديم المساعدة لفريقنا كي يصل إلى هدفه. كانت مسألة البنادق ما تزال عالقة، لكن أحداً لم يعد بإمكانه تجاهل الطبيعة الحقيقية للتهديدات التي تطالنا. وافقت بودين على السماح لنا بحمل البنادق، لكن فقط لأفراد وكالة الأمن الدبلوماسي الذين سيقومون بحمايتنا.

كانت النقطة التالية في برنامجنا هي العثور على موقع آمنٍ يستطيع فريقنا التمركز فيه. عرض علينا نائب السفيرة بودين شقة تقع في منطقة المدينة الروسية في صنعاء. قام النائب بدور المرشد السياحي، وأشار إلى غرفة حيث «يمكنكم الجلوس فيها على الأرض، والتحدث بما قمتم به خلال اليوم، بالإضافة إلى مضغ القات». شرحنا لكيني بأن القات هو نوع من المخدر الذي يسبب الإدمان، وهو محظور في الولايات المتحدة، لكنه شائع في اليمن. عدّد لنا المسؤول في وزارة الخارجية للمرة الخامسة، وبكل جدية، كيف أن هذه الشقة مناسبة لجلسات مضغ القات، لكن كيني عجز عن كتم ضحكاته. نظر إلى المسؤول، ثم نظر إلي عاجزاً عن التصديق، وقال بكل حزم: «أليس ذلك رائعاً». كنا هنا، في هذا المكان نحاول إعادة إطلاق التحقيق في جريمة قتل سبعة عشر بحاراً أميركياً بينما يستمر الرجل في الحديث عن المسرات الناتجة عن مضغ القات. قلت لكيني مبتسماً بحزن: «أهلاً بك في اليمن».

يتحدر جون من سلالة كبيرة عملت في تطبيق القانون، وهو رجل إيرلندي سبق له أن خدم ضمن فرقة عسكرية. إنه رجل مستقيم وجاد وشديد التركيز على وظيفته، لكن بالرغم من أنه يميل إلى المرح إلا أنه في مسائل الأمن القومي يصبح في غاية الجدية. عدنا إلى نيويورك بعد اجتماعنا مع اليمنيين. حضر جون إلى JTTF وسأل كيني عن مدى استمتاعه بزيارته الأولى إلى اليمن. ردّ كيني: «جون، لا أعرف شيئاً عما كانوا يتحدثون به عن مشاكل مع السفيرة. إنني أعتبرها سيدة رائعة، حتى أنها طلبت مني تعليم صفٍ في سانتا باربرة». يُذكر أن سانتا باربرة هي مسقط رأس السفيرة بودين. نظر إليه جون مستهجناً، وعبّر عن ذلك بإشارة من يده، وابتسم، ثم خرج من الغرفة.

كان آخر عملٍ قام به جون في مكتب التحقيقات الاتحادي هو توقيع أمر عودتنا إلى اليمن. كانت آخر مرة رأيته فيها في يوم ٢٢ آب/أغسطس من العام ٢٠٠١، وكان آخر يوم عملٍ له.

قرّر جون ترك المكتب بسبب الإحباطات المتراكمة الناتجة من طريقة إدارة الأمور. كان منزعجاً لأن الإدارة لم تدعم جهودنا للتحقيق بالهجوم على المدمرة كول بشكلٍ كافٍ. اشتكى لأن مكتب التحقيقات تحوّل إلى بيروقراطية شديدة الحذر، وخائفة من الضغط عند الحاجة لإنجاز الأمور، كما أنه حذّر من إمكانية أن يفقد بعض الأشخاص حياتهم نتيجة هذه السياسة.

خضع جون للتحقيق في قضية معينة، وهكذا حضر في شهر تموز/يوليو مؤتمراً لمكتب التحقيقات، وتلقى أثناءه رسالة في جهاز الاتصال، وما لبث أن انسحب إلى غرفة أخرى لإتمام الاتصال. ظن جون أنه سوف يعود في غضون دقائق قليلة فترك حقيبته قي الغرفة التي كانت مليئة بمسؤولي مكتب التحقيقات. استغرق الاتصال وقتاً أطول مما توقعه، وما لبث أن عاد ليكتشف أن الموظفين الآخرين قد غادروا وأن حقيبته اختفت. احتوت الحقيبة على رسائل إلكترونية مصنفة على أنها سرية، وتقريراً حسّاساً حول عمليات الأمن القومي في نيويورك. أُخطِر مدير مكتب التحقيقات والمدعي العام بذلك.

عُثر على الحقيبة بعد ساعات قليلة، وتبيّن أن بعض الأغراض الشخصية قد سُرقت، إلا أن الوثائق كانت كلها موجودة. بيّن تحليل البصمات أن الوثائق لم تمس أبداً. لكن وزارة العدل أمرت، بالرغم من ذلك بإجراء تحقيق جرمي في الحادث.

إن انعدام الدعم الذي أظهره المكتب تجاه هذه القضية، والذي ترافق مع أمور أخرى كثيرة، دفعه إلى الشعور بأن الوقت قد حان بالنسبة إليه لترك المكتب. تلقى جون عرضاً سخياً ليعمل بصفة رئيس الأمن في مركز التجارة العالمي. كان ذلك قراراً محزناً بالنسبة إليه لأنه أحب المكتب والعمل الذي كنا نقوم به.

سرت مع جون إلى مطعم جو داينر الذي يقع قبالة مكاتبنا. طلب جون شريحة من لحم الخنزير وشطيرة جبن. مازحته مشيراً إلى شريحة لحم الخنزير: «ألا ترغب في تغيير طُرُقك الكافرة؟ ستذهب إلى جهنم».

أبلغت جون برغبتي في التقدم بعرض زواج إلى صديقتي هيثر. أبدى جون في السابق معارضته لذلك الزواج. يُحتمل أن تكون حياته الشخصية الفوضوية والمتشابكة لم تساعد في هذا المجال. لكنه لم يمتلك أي اعتراضات على الزواج هذه المرة، فاكتفى بالقول: «بقيتْ معك كل هذه المدة، ولا بد من أنها امرأة طيبة».

عرض عليّ جون رسالة بريد إلكترونية سبق له أن أرسلها إلى لاو جون، وهو الذي قُتل ابنه شيرون في الهجوم الذي تعرضت له يو. أس. أس. كول. جاء في جزءٍ من تلك الرسالة: «هذا آخر يوم لي. أريد أن أقول لك إنه في خلال ٣١ عاماً قضيتها في خدمة الحكومة، كانت اللّحظة الأكثر فخراً لي هي عندما وقع عليّ الاختيار لترؤس التحقيقات الجارية حول الهجوم الذي تعرضت له المدمرة كول. وضعت كل ثقلي في هذه التحقيقات، وأنا أعتقد بصدق أن تقدماً مهماً قد أُحرز في هذا المجال. أنت لا تعرف وعائلتك أنني بكيت لمصابك... سأظل أذكرك مع عائلتك في صلواتي وسوف أستمر في متابعة تلك التحقيقات كرجلٍ مدني. أدعو أن يباركك اللّه، أنت ومن تحبهم وأفراد عائلتك، وليبارك اللّه أميركا».

قال جون عندما ودّعنا بعضنا خارج المطعم: «لا تعتبر نفسك غريباً. تذكّر أنني في الطرف الآخر من الشارع».

قلت مبتسماً: «لست متأكداً من سماحهم لي بزيارتك». كنت أشير إلى مسؤولي مكتب التحقيقات الذين لا يحبون جون.

قال ما بين الضحك والعبوس: «فليذهبوا إلى الجحيم. عانقني بحرارة، ثم سار مبتعداً في الشارع.

أرسلت ماجي جي [redacted] في اليوم التالي، أي في يوم ٢٣ آب/أغسطس، ٢٠٠١، رسالة إلى مكتب التحقيقات الاتحادي، والجمارك، ووزارة الخارجية تطلب فيها وضع شخصين هما خالد المحضار، ونواف الحازمي تحت المراقبة، وهو الأمر الذي يعني وجوب إلقاء القبض عليهما إذا ما حاولا دخول الولايات المتحدة أو مغادرتها.

تلقت ماجي طلباً من توم دبليو [redacted] في وقت سابقٍ من ذلك الصيف بالتفتيش في المواد التي جمعتها وكالة الاستخبارات المركزية والمتعلقة بخالد المحضار «في أوقات فراغها». بدأت ماجي البحث في نهاية شهر تموز/يوليو، واستمرت في بحثها هذا طيلة شهر آب/أغسطس. عثرت ماجي على برقية [redacted] ورد فيها أن المحضار حصل على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة، وعثرت كذلك على برقية ثانية تفيد بأن نوافاً الحازمي، والذي يُعتبر شريكاً للمحضار، قد سافر جواً إلى لوس آنجلوس في شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٠. توجهت ماجي في ٢٢ آب/أغسطس إلى دائرة الهجرة والتجنيس لإجراء مزيد من التحقيق فاكتشفت أن المحضار قد دخل إلى الولايات المتحدة في يوم ١٥ كانون الثاني/يناير، ٢٠٠٠، ودخلها مجدداً في يوم ٤ تموز/يوليو من العام ٢٠٠١. أبلغت ماجي [redacted]، وكذلك أوصلت هذه المعلومات إلى دينا كورسي.

أرسلت دينا رسالة بالبريد الإلكتروني إلى جاك كلونان، وهو المشرف بالوكالة

على فرقة I-49. حملت الرسالة عنوان «إ. ع: القاعدة (تعني إ.ع. أو IT إرهاب عالمي) طلبت رسالة البريد الإلكتروني هذه من الفرقة التحقيق في ما إذا كان خالد المحضار ما زال في الولايات المتحدة. أوضحت رسالتها أنه بسبب ارتباط المحضار المحتمل بالهجوم على كول فإن ذلك يعني أنه يشكّل تهديداً للأمن القومي. لم تعطِ الرسالة الإلكترونية تفاصيل حقيقية عن المحضار وارتباطه بالقاعدة غير تلك المذكورة آنفاً. كتبت دينا كذلك أنه يتعيّن أن لا يسمح لغير عملاء الاستخبارات بالتدخل في هذا البحث. لكنها شملت، وبطريقة غير مقصودة، ستيف بونغاردت الذي كان من ضمن الذين أرسلت لهم تلك الرسالة. اتصل بها ستيف ما إن قرأ الرسالة.

وجد ستيف صعوبة في احتواء غضبه، وقال لها: «دينا، لا بد أنك تمازحينني. هل المحضار موجود في البلاد؟»

تذكَّر ستيف ذلك الاسم من الاجتماع الذي تم في ١١ حزيران/يونيو والصدّ الذي لقيه مع فريقه في ذلك الاجتماع. اعتقد ستيف أن المحضار، واستناداً إلى ما أوحي ضمناً في اجتماع ١١ حزيران/يونيو، كان متورطاً في الهجوم على كول، وهو الأمر الذي يجعل منه تهديداً لأمن الولايات المتحدة. علم ستيف في هذا الوقت أن المحضار موجود في الولايات المتحدة. تساءل ستيف عن سبب عدم إبلاغ مكتب التحقيقات بوجوده داخل البلاد.

أجابت دينا بتوترٍ ملحوظ: «ستيف. يتعيّن عليك أن تشطب الرسالة. سنعقد اجتماعاً حول مضمونها في الغد».

اتصلت دينا في اليوم التالي، وكان مسؤول كبير في وكالة الاستخبارات المركزية موجوداً معها على الطرف الآخر من الخط. أبلغ ذلك المسؤول الكبير ستيف بضرورة وقف تدخله في كل شيء يتعلق بالمحضار. شعر ستيف بالغضب مجدداً بسبب أن هذه المسألة تقع ضمن المعلومات الاستخبارية التي لا يُمكن مشاركتها مع العملاء الجنائيين.

رد ستيف بحزم: «إذا كان هذا الرجل موجوداً داخل البلاد فإنه لم يأتِ إلى هنا ليزور ديزني لاند».

ردّ المسؤول الكبير: «لا تتدخل في هذه المسألة».

أرسل ستيف رسالة إلكترونية إلى دينا في اليوم التالي. جاء في الرسالة: «بغضّ النظر عما سيحدث لهذه الرسالة، سيموت أحد الأشخاص ذات يوم، وبغض النظر عن وجود جدار أم لا، فإن الجمهور لن يفهم سبب عدم تمتعكم بما يكفي من الكفاءة والفعالية، وكذلك لن يفهم سبب إلقائكم «مشاكل» محددة على كل مصدرٍ نمتلكه. دعونا نأمل عندها أن قانون الأمن القومي هو الذي يقف وراء هذه القرارات، وعلى الأخص لأن أكبر تهديد لنا الآن، أي أسامة بن لادن، يتمتّع بقدر أعظم من الأمن».

عاد رجال مكتب التحقيقات، وستيف كوربيت وبوب ماكفادين من NCIS، وحدهم إلى اليمن في أواخر شهر آب/أغسطس من العام ٢٠٠١؛ أما دائرة شرطة نيويورك، وسيتي هول، فقررتا أن الوضع خطرٌ جداً ولا يسمح بإرسال رجالهما. أما رئيس فريقنا، فكان مديري القديم توم دونلون، وهكذا أقمنا في فندق شيراتون صنعاء.

واظبت وفود من واشنطن على زيارتنا بين الحين والآخر. كان عضو مجلس الشيوخ عن آلاباما، ريتشارد شيلبي، وزوجته آنيت يمكثان في منزل السفيرة. دُعيتُ ذات يوم للانضمام إليهما على مائدة العشاء. أعطيتهما خلال تناولنا طعام العشاء ملخصاً عن التحقيقات الجارية بشأن الهجوم على كول، وعن طبيعة عملنا في اليمن. رافقني السيناتور شيلبي أثناء مغادرتي المنزل ووضع ذراعه حول كتفيّ، وقال: «يتعيّن عليك أن تعدني بشيء».

«وما هو ذلك الشيء أيها السيناتور؟».

«لا تترك عملك في مكتب التحقيقات قبل أن تنتهي من التحقيق في هذه القضية».

«إنني لا أخطط لذلك يا سيدي».

لم تكن إدارة مكتب التحقيقات على علاقة طيبة بالسفيرة بودين، لكنني احتفظت بعلاقة طيبة بها. كان غضبها منصباً على جون والآخرين بشكلٍ خاص. حاولت بصفتي وكيل القضية إبقاء تركيزي على طبيعة هذه العلاقة، كما كانت مهذبة معي من جانبها.

أخبرتني ذات يوم عندما كنا في السفارة بأنها كانت في الكويت عندما قام صدّام باجتياحه البلاد، وهو الأمر الذي أطلق حرب الخليج الأولى. قالت لي السفيرة إنها لم تشعر بعدم الأمان في ذلك الحين، كما أنها لا تشعر بعدم الأمان هنا في اليمن. أضافت أن المرة الوحيدة في حياتها التي شعرت فيها بعدم الأمان كانت عندما شاركت في احتجاجٍ أُقيم في سانتا باربرا، ورفع أحد رجال الشرطة بندقيته في وجهها، ثم أبلغها بضرورةٍ العودة إلى منزلها.

أما ما أثار دهشتي في السفيرة أكثر من أي شيء آخر فهو أنها هاجمت مكتب التحقيقات الاتحادي على صفحات الواشنطن بوست بعد سنواتٍ عدة، أي في العام ٢٠٠٨، وذلك عندما أطلقت الحكومة اليمنية بعض الإرهابيين المسؤولين عن حادثة تفجير كول – وهم الإرهابيون الذين ساهمنا في وضعهم خلف قضبان السجون. عمدت السفيرة، بدلاً من إلقاء المسؤولية على اليمنيين، إلى القول إن مكتب التحقيقات الاتحادي أظهر تباطؤاً في الثقة بالسلطات اليمنية، وكان «يتعامل بطريقة بيروقراطية وثقافة لم يفهموها... كانت لدينا مجموعة تعمل بحسب دقة العمل في نيويورك، ومجموعة أخرى تعمل بحسب تاريخ عمره أربعة آلاف سنة».

صُدمت عندما قرأت هذه الكلمات، وعلى الأخص بالنظر إلى حساسية موضوع كول حيال هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. عمدتُ من جانبي إلى الرد في مقالة كتبتُ فيها: «ضمّ فريقنا، في واقع الأمر، عدة عملاء أميركيين من أصل عربي وهم الذين كانوا يعرفون المنطقة جيداً ويفهمون ثقافتها. لم تكن تلك التعليقات

صائبة مطلقاً، لأن FBI غادرت اليمن بعد أن ساعدت في إلقاء الإرهابيين في غياهب السجون. لقد لاحقْنا الإرهابيين بحسب تعليمات نيويورك هذا صحيح. إننا ندين بالكثير إلى البحارة الذين قُتلوا على متن كول، وإلى كل الأشخاص الأبرياء الذين بقوا أهدافاً للإرهابيين ماداموا طلقاء. صحيحٌ كذلك أننا لم نثق ببعض المسؤولين الأمنيين، لكننا امتلكنا أسباباً لعدم الثقة بهم». اعترف اليمنيون أنفسهم في وقتٍ لاحق، وإن بتردد، بأن عدم ثقتنا ببعض المسؤولين كان له ما يبرره: بعد هروب القصع وبدوي من السجن في شهر نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٣ قمنا بالضغط على السلطات للتحقيق في هذه القضية، فأُلقي القبض على حسين عنسي وأُخضع للاستجواب، كما طُرد من وظيفته (لكنهم لم يلاحقوه قضائياً).

أما تلك العلاقة الصعبة التي نشأت بيننا وبين السفيرة بودين، فلم تكن خافيةً على اليمنيين الذين أدركوا أن بإمكانهم، إذا ما نشبت المشاكل ما بيننا وبينهم أن يلجأوا إليها. أعاق هذا الأمر تقدمنا في بعض الأحيان. كان عدد من المسؤولين متعاطفين معنا في هذا الوضع. استجوبتُ أحد المشتبه بهم ذات يوم فدخل ناجي، وهو رئيس الفريق الأمني للرئيس صالح، راكضاً إلى الغرفة وقال: «أيمكنني التحدث معك في الخارج؟»

خرجت من الغرفة ظناً مني أن الأمر على جانب من الأهمية. قال وسط ملامح الجدية التي ظهرت على وجهه: «حسناً، لا أعرف كيف أخبرك بهذا، لكن إحدى الطائرات تعرضت للخطف».

«أيّ طائرة؟».

«إنَّ سفيرتكم هي على متن تلك الطائرة».

«وما هو الوضع الآن، وهل هي بخير؟»

أجابني: «إنها بخير. كان ذلك رجلاً مجنوناً، حتى أنه لا يعرف أن السفيرة كانت على متن الطائرة. هرب جميع الركاب عبر أحد أبواب الطوارئ بينما كان الخاطف في قمرة القيادة. تلقى الخاطف ضربة على الرأس بمطفأة حريق على يد أحد أفراد

الطاقم». لم يتمكن ناجي من كتمان ابتسامة كبيرة ظهرت على وجهه. وجد ناجي مفارقة كبيرة في اختطاف طائرة السفيرة بودين في الوقت الذي كانت تقلّل فيه من أهمية قلقنا بشأن الأمن. كان ناجي كذلك يكنّ محبة كبيرة لجون، وكان يعلم أنه لم يعد لأن بودين لم تعطِه التصريح بذلك.

تراكم لدينا سبعة عشر سبباً رئيساً للعودة إلى اليمن والمضي بالتحقيقات بالرغم من التهديدات بالقتل والتعقيدات الأخرى. أما الأسباب فهي:

تقني صيانة جسم السفينة من الدرجة الثانية، كينيث أوجين كلودفلتر

التقنيّ الإلكتروني، ضابط الصف ريتشارد كوستلو

البحار المتخصّص في الإدارة المطبخية لأكيينا مونيك فرانسيس

البحار تقني أنظمة المعلومات تيموثي لي غاونا

البحار عامل الإشارة شيرون لويس جون

البحار جايمس رودريك ماك دانيلز

عامل المحركات من الدرجة الثانية مارك إيان نييتو

تقني الحرب الإلكترونية من الدرجة الثانية رونالد سكوت أوينز

البحار لاكيبا نيكول بالمر

الإطفائي عامل المحرك جوشوا لانغدون بارليت

رجل الإطفاء باتريك هوارد روي

تقني الحرب الإلكترونية من الدرجة الأولى كيفن شوان روكس

اختصاصي في الإدارة المطبخية من الدرجة الثالثة رونشستر مانانغان سانتياغو

اختصاصي عمليات من الدرجة الثانية تيموثي لامونت ساوندرز

رجل الإطفاء غاري غراهام سوينشونيز الابن

الملازم البحري آندرو تريبليت

البحار كرايغ بريان ويبرلي

كان أولئك هم البحارة الأميركيون السبعة عشر الذين قُتلوا على متن يو. أس. كول على يد القاعدة. كان كل اسم من تلك الأسماء وحدَه تبريراً كافياً بالنسبة إلينا لكي نكون في اليمن. لم نشعر بأننا نستأهل الراحة إلى حين ملاحقة القتلة وتطبيق العدالة. إننا ندين لكل واحد من هؤلاء البحارة وإلى عائلاتهم بالعثور على من قتلهم. وأولئك الذين كانوا بيننا من مكتب التحقيقات الاتحادي، وNCIS، ووكالة الاستخبارات المركزية، ومن الجيش، وحققوا في قضية تفجير المدمرة كول يؤمنون بوجوب أن لا يُترك موت أي أميركي من دون عقاب. وإذا استكانت أميركا، ولم تتحرك فإن ذلك سوف يكون رسالة موجهة إلى الإرهابيين المستقبليين بالضرب من دون الخوف من التعرض للانتقام.

إن ما يُبقيني مستيقظاً في الليل حتى هذه الأيام هو الطريقة المعيبة التي عامل بها عدد من مسؤولي الحكومة ذكرى البحارة. لا يمكنني أبداً أن أفهم انعدام الدعم للتحقيقات التي قمنا بها. حاول الديمقراطيون والجمهوريون على السواء في البيت الأبيض، وفي المراكز الحكومية العليا، ولأسبابٍ مجهولة، تجاهل ما حدث للمدمرة يو. أس. كول. أبلغتني عائلات البحارة المغدورين، والأسى يغمر قلوبهم، بأن الرئيس جورج دبليو بوش رفض مقابلتهم.

الفصل الثالث عشر

مبعوث بن لادن

كان وليد بن عطاش، أو خلاد، أقرب ما يكون إلى القيادة العليا في القاعدة. كان والده على صداقة مع بن لادن، وعبد اللّه عزام، وعمر عبد الرحمن، الشيخ الضرير. أما مهنّد، وهو شقيقه الأكبر منه سناً، فقد كان نائباً موثوقاً به لبن لادن، كما كان أساسياً في تجنيد المجموعة الشمالية. أما خلاد ذاته فقد انضم إلى القاعدة في العام ١٩٩٤ عندما كان في الخامسة عشرة من عمره.

أتت اللحظة الحاسمة في حياة خلاد في العام ١٩٩٧، أي عندما حارب هو ومهند وبعض المقاتلين الآخرين من تنظيم القاعدة مع طالبان ضد التحالف الشمالي، وذلك في مراد بيج التي تقع إلى الشمال من كابول. قُتل مهنّد في تلك المعركة، كما خسر خلاد ساقه اليسرى عندما ارتدّت عليه شظية من قذيفة هاون نتيجة خطأ في إطلاقها. نُقل خلاد على وجه السرعة من ميدان المعركة إلى المستشفى، لكن تعذّر إنقاذ الساق التي قُطعت من تحت الركبة.

تلقى خلاد رِجلاً صناعية من منظمة غير حكومية، لكنَّ مقاسها لم يناسبه تماماً فسببت له ألماً كبيراً. وقع خلاد في حالة من الاكتئاب بعد مقتل مهنّد، كما تسبب له ألم ساقه في زيادة مقدار كربه. أرسلته القاعدة إلى كراتشي لتلقي العلاج، ورافقه

البراء، وهو شقيقه الأصغر الذي حارب معه في مراد بيج. أمضى الشقيقان أمسيات عديدة على شاطئ كراتشي، وكان البراء هو الذي يدفع الكرسي المتحرك الذي يجلس عليه خلاد.

خفّت حدة المعاناة التي مرّ بها خلاد عند وصول رسالة شخصية من بن لادن، وهي الرسالة التي مدحه فيها لإخلاصه للقضية ولشهادة مهند. صمّم خلاد على الحلول مكان شقيقه بوصفه شخصية محورية في القاعدة. كان فخوراً جداً لأنه تسلّم رسالة شخصية من الأمير، كما أنه اعتز بها كثيراً.

كرّس خلاد نفسه للقاعدة فور عودته إلى أفغانستان، كما اختار لنفسه اسماً حركياً آخر هو سيلفر، وهو اسم القرصان سيئ السمعة لونغ جون سيلفر ذي الساق الواحدة. عمل في البداية بصفته حارساً شخصياً كما تسلّم مسؤوليات إدارية لصالح بن لادن، وسيف العدل، وكبار قادة القاعدة الآخرين. تسلّم خلاد مسؤوليات أكبر مع مرور الزمن بما فيها مهمات شخصية لصالح بن لادن، وكانت تلك المهمات تتطلب أحياناً شهوراً عديدة من السفر. حمل بن لادن تقديراً كبيراً له، وهو الذي كان شقيق مهند بكل وجه من الأوجه.

عُرف خلاد في أوساط القاعدة بوصفه مساعداً موثوقاً فيه لبن لادن. أما عندما كان أعضاء آخرون في القاعدة يرغبون في رؤية القائد فقد كانوا يلجأون أولاً إلى خلاد ويطلبون منهم ترتيب اجتماع معه. كان نبراس من بين الذين رتّب لهم لقاءً خاصاً مع الزعيم. كان خلاد بشوشاً مع الآخرين ومحبوباً من الإخوان الذين قدّروا حبّه للمرح. أما انتقادهم الوحيد له فهو عدم إرشاده لشقيقيه الأصغرين البراء وعمير.

كان الشقيقان الأصغر منه سناً مقربين جداً أحدهما من الآخر. وضعهما والدهما عندما كانا صغيرين في طائرة وأرسلهما إلى أفغانستان. لم يبلغهما والدهما بوجهتهما. تورط البراء مع عصابات في المملكة العربية السعودية، وأرسل إلى مدرسة إصلاحية.

قلقت عائلته من إمكانية تورطه بالمخدرات بحيث تسوء حياته، وكان ذلك هو تبريرهما لإرساله إلى أفغانستان للانضمام إلى بن لادن. خشيت العائلة أن يلقى عمير المصير ذاته.

وصل الشابان إلى أفغانستان، واكتشفا المكان الذي وَجَدا نفسيْهما فيه فغضبا كثيراً. كان البراء، على وجه الخصوص يفضّل أن يكون في المملكة العربية السعودية مع أصدقائه بدلاً من أن يكون ضمن حدود معسكرٍ للقاعدة. هرع البراء إلى غرفة المرحاض في دار الضيافة التي وصلا إليها أولاً، وراح يبكي. لم يتأخر خلاد ومهند عن اللحاق بهما إلى أفغانستان وساعدا في تحوّلهما إلى طريقة الحياة التي تتبعها أعضاء القاعدة. قُبل البراء ومهند في الحلقات الداخلية للقاعدة، أي مثل ما حصل مع مهند وخلاد.

فُقد البراء وراء خطوط العدو في معركة مراد بيج، وهكذا اضطرت طالبان إلى إرسال طائرة حوامة إلى المنطقة لإنقاذه.

بدأ بن لادن في أوائل العام ١٩٩٨ بالتفكير جدياً في شنّ عملية كبيرة تستهدف المصالح الأميركية في شبه الجزيرة العربية. كانت أولى أفكاره هي تنفيذ أربع هجماتٍ متزامنة تستهدف أي شيء يحمل عَلَماً أميركياً – ناقلة نفط، أو سفينة سياحية، أو سفينة حربية – في أربعة مرافئ يمنية. قال بن لادن لمجلس شورى القاعدة إن أنسب الموانئ هي مرافئ الحديدة، وعدن، والشحر، والمكلا. شرح بن لادن للمجلس أن أهم شيء هو أن تتم العمليات بشكلٍ متزامن، لأن من شأن ذلك الاستحواذ على انتباه العالم.

اختير اليمن بسبب ضعف حكومته المركزية، وحدوده غير المضبوطة، وسهولة الحصول فيه على الأسلحة والمتفجرات، وهي الأمور التي تجعله من أسهل الأمكنة في المنطقة لاستهداف السفن الأميركية. تزايد في ذلك الحين استخدام القاعدة لليمن في شن عملياتها. كان اليمن مثالياً بوصفه الدولة الجارة للمملكة العربية

السعودية، ومكاناً مثالياً لتهريب السعوديين إلى خارج المملكة لشن العمليات في أمكنة أخرى. استُخدمت كذلك جوازات السفر اليمنية كغطاء، وعلى الأخص بالنسبة إلى السعوديين، والذين كانوا ينطلقون منها إلى باكستان وأفغانستان. لم يرغب السعوديون في أن تحمل جوازات سفرهم الحقيقية تلك التأشيرات لأنها تثير شكوك السلطات السعودية. كان كل ما على المرء أن يفعله للحصول على جواز سفر في اليمن هو الحضور إلى مكتب حكومي محلي مع شاهدَين لتأكيد هويته.

ناقش بن لادن أفكاره مع خلاد، وكان يغيّر رأيه باستمرار بشأن العملية كلما قرأ معلومات جديدة عن الجيش الأميركي. وعندما قرأ عن حاملات الطائرات الأميركية التي تحمل أربعة آلاف جندي والتي تستخدم الطاقة النووية، أبلغ خلاد بأن مهاجمة واحدة منها ستكون أكثر إثارة من خطته الأولى، وهكذا بدأ الرجلان التحضير للعملية.

قرر الاثنان أنهما يحتاجان إلى أربعة قوارب لمهاجمة الزوارق الأربعة التي قرأ بن لادن أنها تحمي كل حاملة طائرات. سيحتاجان كذلك إلى قارب كبير لمهاجمة الحاملة ذاتها. بدأ خلاد بالبحث عن أفضل أنواع القوارب لتنفيذ العملية، وسرعان ما عرف طبيعة القوارب التي يستخدمها السكان المحليون في الموانئ اليمنية بحيث تتمكن قوارب القاعدة الهجومية من الاختلاط بها، وبحيث لا تستجلب الانتباه.

غيّر بن لادن رأيه مجدداً في جلسة المناقشة الثانية. قرأ هذه المرة أن المدمرات الأميركية تتوقف في اليمن للتزود بالوقود وهي في طريقها إلى العراق. قرر بن لادن أنَّ رمزية ضرب إحدى تلك السفن ستكون أقوى بكثير. رحّب خلاد بالفكرة وأبلغ بن لادن بأنه يريد أن يكون واحداً من المهاجمين الانتحاريين في هذه العملية. قال بن لادن إنه سوف يفكر بالأمر، لكنه أرسل خلاداً في هذا الوقت لدراسة المرافئ الواقعة في جنوب البلاد، أي عدن، والشحر، والمكلا. أرسل بن لادن النشيري للغاية ذاتها، ولكن لتفقد الميناء الموجود في شمال البلاد، أي الحديدة. لم يُبلغ بن لادن خلاداً والنشيري بأنهما يحضّران لعملية من النوع ذاته.

تحوّل خلاد والنشيري إلى أكبر النشطاء عند بن لادن، وهكذا كان من الطبيعي أن توكل إليهما عملية الإعداد للعملية. وُلد كلا الرجلين في المملكة العربية السعودية وهما يتحدران من أصل يمني. طُرد والد خلاد من اليمن بسبب مشكلة تسبب بها مع الجنوب الذي كان حينها شيوعياً. يتحدر خلاد من قبيلة بني يوسف (اليوسفي)، وهي قبيلة معتبرة. أدرك بن لادن أنه إذا علق خلاد بمشكلة في اليمن فإن بإمكانه الاعتماد على اسم العائلة لمساعدته. كان زعيم القاعدة ذكياً في استغلال العلاقات القبلية لصالحه.

شغل النشيري وخلاد أنفسهما، وبشكلٍ مستقل، بتقصي أنواع المرافئ التي كلّفهما بن لادن بمراقبتها. لاحظ الرجلان أنواع القوارب المحلية المستخدمة، والإجراءات الأمنية في المنطقة، وما إذا كانت سفنٌ أميركية راسية هناك. تجوّل الرجلان في البلاد كذلك، وبحثا في مسألة شراء القوارب والمتفجرات. لكن عند مرورهما بصنعاء مكثا في بيت الهبرة، وهو دار ضيافة تابع للقاعدة. تلاقى الرجلان في هذه المحطة الأخيرة.

كان الرجلان على معرفةٍ أحدهما بالآخر، وكان كلاهما من جماعة الشمال، كما أصبحا من نشطاء العمليات الخاصة في القاعدة. كانت القاعدة، على أي حال، منظمة صغيرة بعديدها الذي يبلغ أقل من أربعمئة رجل، وكان كل واحد منهم يعرف الآخرين جميعاً. علم الرجلان أثناء تبادلهما الحديث أنهما يعملان للعملية ذاتها. لم يتفاجأ الاثنان بأن بن لادن أخفى عن كل واحدٍ منهما عمل الآخر. كانت القاعدة تعمل بهذه الطريقة: إذا كُشفت إحدى الخلايا، فإن الخلايا الأخرى سوف تكون بأمان بحيث يظل بالإمكان تنفيذ المهمة المرسومة.

افترق الرجلان وأكملا بحثهما الأولي، وعادا بعد ذلك إلى أفغانستان وقدّما تقريرهما إلى بن لادن. توصل الرجلان إلى الاستنتاج ذاته: لا تستضيف الموانئ اليمنية، غير ميناء عدن، سفناً أميركية. أبلغ بن لادن الرجلين بضرورة التركيز في عدن.

كانت دار الضيافة في بيت الهبرة تستضيف كذلك عملاء القاعدة الذين كانوا في اليمن بهدف الحصول على جوازات سفرٍ مزورة. كان حسان الخامري، والانتحاري الذي نجا من عملية تفجير السفارة في نيروبي، محمد راشد داود العوهلي، اثنين من النشطاء سكنا مع النشيري وخلاد في تلك الفترة. كان والد العوهلي عندما يريد التكلم معه في اليمن يتصل به في دار الضيافة. ظهر رقم هاتف دار الضيافة في الطلب الذي قدّمه الخامري للحصول على جواز سفرٍ يمني، وذلك ليكون وسيلة الاتصال به عند الحاجة.

ساعد النشيري العوهلي في عملية حصوله على جواز السفر المزور الذي استخدمه في عملية تفجير السفارة في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨. قال العوهلي في وقتٍ لاحق إنه بينما كان في دار الضيافة سمع النشيري وهو يناقش خطة لمهاجمة سفينة أميركية في اليمن بواسطة صواريخ الكاتيوشا، وذلك أثناء رسوّها في الميناء.

في صيف العام ١٩٩٨ وبينما كان تاريخ تنفيذ عملية تفجير السفارتين في شرق أفريقيا آخذاً بالاقتراب، أمر بن لادن النشيري وخلاد بالعودة إلى أفغانستان. لم يكن بن لادن متأكداً من طبيعة رد فعل أميركا على تلك الهجمات، كما أنه لم يعلم ما إذا كانت الولايات المتحدة سوف تضغط على اليمن والبلدان الأخرى التي تنطلق منها عمليات القاعدة من أجل الإطباق على نشطائها؛ كما أنه لم يرغب في أخذ أي مخاطرة. نفّذ النشيري وخلاد ما أُمرا به.

أمر بن لادن الرجلين لدى وصولهما إلى أفغانستان بالمساعدة في تحضير العوهلي وجهاد علي (وهو قريب النشيري) لتنفيذ التفجيرات. أمّن خلاد تذاكر السفر بالطائرة وأتمّ ترتيبات السفر، ثم عمل مع الشابين في تحضير شرائط الفيديو الخاصة باستشهادهما. كانت أوامر بن لادن تقضي بأن يقول الرجلان إنهما عضوان في «الجيش الإسلامي لتحرير المقدسات». لم يسمع الرجال بهذا الاسم من قبل، وكان اسماً جديداً لديهم من اختراع بن لادن. جرى الاستغناء عن عدة شرائط تجريبية لأنهما كانا يضحكان في كل مرة يحاولان فيها لفظ تلك العبارة. تعيّن

عليهما إعادة تحضير شريط الفيديو عدة مرات حتى تمكنا من تنفيذ النص بملامح جادة.

أبلغ بن لادن خلاد والنشيري بضرورة العودة إلى اليمن، وذلك في شهر كانون الثاني/يناير من العام ١٩٩٩، أي بعد أن بدا أن الانتقام الأميركي من تفجير السفارتين قد انتهى. ركزّ خلاد قاعدته في ذلك الوقت في صعدة، وهي منطقة وعرة تقع قرب البحر الأحمر والحدود السعودية. كانت تلك المنطقة تُعتبر منطقة محايدة، كما تتوفر فيها الأسلحة والمتفجرات بسهولة، وذلك بالإضافة إلى كونها طريقاً يمنية رئيسة للتهريب نحو السوق السعودية. أما النشيري فعمل في هذا الوقت مع طه الأهدل.

شغل النشيري وخلاد نفسيهما بتجميع المتفجرات، وهي عملية بدأها خلاد في زيارته الأولى لليمن. طلب النشيري مساعدة متعاملٍ شهير يُدعى هادي دلقم، والذي جعلت منه علاقاته الحكومية حليفاً قيّماً. انشغل خلاد بتنظيم هذه الترتيبات لكن بن لادن أمره بمحاولة الحصول على تأشيرة دخولٍ إلى الولايات المتحدة. كان التخطيط جارياً في ذلك الوقت لعملية أخرى، وهي «عملية الطائرات»، ولهذا احتاجت القاعدة إلى إدخال النشطاء إلى الولايات المتحدة لهذه الغاية. قدم خلاد طلب الحصول على تأشيرة في شهر نيسان/أبريل مستخدماً الاسم الحركي صالح سعيد محمد بن يوسف.

كانت حجته المزعومة لطلب التأشيرة هي حاجته لزيارة عيادة طبية في الولايات المتحدة بهدف تركيب رجلٍ صناعية جديدة له. عمد أحد رفاقه في القاعدة إلى تأمين التواصل بينه وبين أحدٍ الأشخاص في الولايات المتحدة لمساعدته على العثور على عيادة «مناسبة». تابع خلاد أثناء انتظاره وصول الموافقة على التأشيرة مهمّة الإشراف مع النشيري على عملية القوارب كما سُميّت في ذلك الوقت.

قرّر خلاد كذلك الحصول على أوراق ثبوتية مزورة لتأكيد هويته. طلب خلاد أوراقاً ثبوتية باسم توفيق محمد صالح بن رشيد. كان دلقم أحد الشهود الذين أقسموا

أمام السلطات بأن ذلك الاسم صحيح. اشترى خلاد في ذلك الوقت، مستخدماً الاسم المزور ذاته، بطاقة الهوية التي سلّمنا إياها القمش. واستأجر، مستخدماً تلك الهوية، وبمعونة دلقم، استأجر موضعاً يخزن فيه المتفجرات. كذلك اشترى قارباً في المكلا.

طلب خلاد في شهر أيار/مايو مساعدة ناشط آخر في القاعدة يتمركز في عدن، ويُدعى جمال البدوي. التقى خلاد البدوي في أفغانستان وأصبحا صديقين حميمين. مرض البدوي مرضاً شديداً خلال تدريباته الأولية في معسكر جهاد وال، لكن خلاداً اعتنى به. شعر البدوي منذ ذلك الحين بأنه مدين لخلاد، وهكذا لم يُضِع أي فرصة لمساعدته كلّما احتاج الأمر.

اعتقد خلاد بأن بدوي سيكون ذا فائدة في عملية القوارب. لم يقتصر الأمر على كونه صياداً متمرساً، بل هو في الوقت ذاته يمني ويعرف ميناء عدن. كان خلاد متأكداً من استعداد البدوي للموافقة على مساعدته . تمثلت المشكلة الوحيدة في انقطاع الاتصال بين الرجلين. عرف خلاد أنه يتعيّن عليه التفتيش في فندق الجزيرة في صنعاء، وهو مكان مفضّل عند الناشطين للتجمع والاختلاط بعضهم مع بعض. كان يوجد في الفندق في أي يومٍ معيّن عدة ناشطين يتبادلون الحديث ويشربون القهوة أو الشاي. توجه خلاد إلى الفندق وحيّا الناشطين الموجودين هناك. أبلغه هؤلاء بأن بدوي يعمل بالجرارات ويُمكن العثور عليه في الشارع حيث تتجمع كل شركات الجرارات. يُذكر أن الشركات تتجمع في صنعاء بحسب نوع عملها.

توجه خلاد إلى ذلك الشارع وعثر على بدوي. تعانق الرجلان عند لقائهما. سرّ بدوي عندما التقى صديقه القديم. أبلغ خلاد بدوي إنه يحضّر لعملية ويحتاج إلى مساعدته، فوافق بدوي بطبيعة الحال. قال له خلاد إنه يحتاج إلى قارب لتنفيذ العملية. أضاف أنّ طول القارب يجب أن يكون تسعة أمتار تقريباً، ويجب أن يتماثل مظهره مع القوارب الأخرى الموجودة في عدن، بحيث لا يبدو غريباً عنها، ولكي لا يلاحظه أحد. قال بدوي إنه سوف يذهب إلى جيزان في المملكة العربية السعودية

للحصول على القارب. شرح البدوي لخلاد بأن جيزان مشهورة بين اليمنيين بأنها المكان الذي يجد فيه المرء قوارب بذلك الحجم بسعرٍ أرخص، وبسهولة أكبر مما هو الأمر عليه في عدن. يُمكن للمرء أن يشتري ويبيع في جيزان قوارب مستعملة ومستعادة. يضاف إلى ذلك أن بدوي شعر بأن جيزان هي مكان أفضل من الناحية الأمنية، وذلك لأن عدن هي مجتمع صغيرٌ نسبياً، وإذا ما ظهر البدوي فيها حاملاً مبلغاً كبيراً من المال لشراء القارب، فإن الناس ستبدأ بالحديث عن الأمر، ويُحتمل عندها أن يستثير شكوك السلطات.

أمر خلاد البدوي ـ مع حسين البدوي، أي شقيقه، وعميل آخر هو معاوية المدني، وهم الذين شكّلوا خليته الأولى في عدن – بالتوجه إلى الميناء ومراقبة السفن الأميركية. خرج الجميع في قارب صيد وسجلوا الفترات التي تمضيها السفن في تلك المنطقة. فعل النشيري والأهدل الأمر ذاته في الحديدة. قارنت المجموعتان بعد ذلك المعلومات المجمعة لديهما، كما تم احتساب طول المدة التي تستغرقها السفن للانتقال من جزء من اليمن إلى جزء آخر.

ألقت السلطات اليمنية القبض خلال تلك التدريبات على النشيري، ومعاوية المدني وحسين البدوي. كان الثلاثة بعيدين جداً عن الشاطئ وفي عرض البحر فبدوا مثاراً للشك. زعم هؤلاء أنهم مجرد صيادين وأنهم تاهوا في البحر. صدّقت السلطات اليمنية روايتهم فأطلقتهم.

تابع خلاد والنشيري العمل على تجميع المتفجرات، وعندما جمعا ما بين خمسمئة إلى سبعمئة باوند من هذه المتفجرات قررا نقل بعضها من صعدة إلى الحديدة. طلب خلاد ذات ليلة من دلقم إعارته سيارته لتنفيذ عملية النقل. كان ذلك هو العمل الذي أدى إلى إلقاء القبض عليه. توقف بعد أن ملأ سيارته بالمتفجرات عند صفٍ من الهواتف العمومية لإجراء بعض المكالمات. لكنه عندما عاد إلى سيارته كان ضباط أمن الرئاسة قد أحاطوا به وأحضروه معهم لاستجوابه.

شعر النشيري بالهلع عندما علم بخبر إلقاء القبض على خلاد، واعتقد أن اليمنيين قد علموا بالمؤامرة. هرب النشيري إلى أفغانستان كي يُعلم بن لادن بما حدث. بعث بن لادن برسالة «إلى من يهمه الأمر من الإخوان في اليمن» في السلطات اليمنية رداً على احتجاز خلاد. قيل إن تلك الرسالة وصلت إلى الجنرال القمش الذي مررها بدوره إلى الرئيس صالح. أُطلق سراح خلاد الذي ما لبث أن استعاد سيارة هادي دلقم. بقيت المتفجرات على حالها ولم تمسّ.

رفضت السلطات الأميركية الموافقة على طلب الحصول على تأشيرة الدخول التي قدّمها خلاد قبل سجنه، لكنها لم تُرفض بسبب علاقته بالإرهاب، بل بسبب نقص المعلومات في الطلب. عاد النشيري إلى اليمن مزوّداً بتعليمات من بن لادن. لم يعد زعيم القاعدة يرغب في بقاء خلاد في اليمن بعد الآن لأن السلطات تركز عليه. تحول وجود خلاد في اليمن إلى خطر على عملية القوارب التي لا يريد بن لادن تعريضها للخطر. أُمر خلاد بتحويل قيادة العملية بأكملها إلى النشيري. شعر خلاد بالإحباط الشديد لأنه بذل جهداً كبيراً في تلك العملية وشعر بالإثارة للإمكانيات التي تحملها، لكن لم يكن من المعقول أبداً عصيان أمرٍ صادرٍ عن بن لادن. ساعد خلاد النشيري على نقل قسم من المتفجرات من صعدة إلى عدن واستخدموا في ذلك شاحنة مبردة. يُضاف إلى ذلك أنه زوّد النشيري بأسماء جميع معارفه في عدن بمن فيهم جمال البدوي وناشط آخر يدعى سلمان العدني. شاعت أخبار تسلّم النشيري القيادة الكاملة للعملية.

بقي خلاد على علاقة بعملية القوارب حتى بعد مغادرته عدن، وعمل كضابط ارتباط ما بين بن لادن والنشيري. أراد بن لادن أخذ كامل الحيطة بغية عدم اكتشافه، وهكذا لم يستخدم البريد الإلكتروني أبداً ، أو الهاتف، واعتمد بدلاً من ذلك على شبكة من العملاء الميدانيين. كان خلاد يتنقل بانتظام ما بين قندهار التي كان بن لادن يتمركز فيها إلى كراتشي حيث كان يتحدث بالهاتف مع النشيري.

طلب بن لادن من خلاد تكريس ما يتبقى من وقته كضابط ارتباط مع النشيري،

للمساعدة في عملية الطائرات. قال بن لادن إن العقل المدبر لتلك العملية كان أحد الجهاديين الذين انضموا للقاعدة بعد تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا، أي خالد الشيخ محمد.

أمضى خلاد قدراً كبيراً من الوقت في كراتشي يشارك خالد الشيخ محمد في التخطيط، وكذلك جال في أنحاء الشرق الأوسط وآسيا للمساعدة في رسم الخطة. أما في شهر أيلول/سبتمبر من العام ١٩٩٩ فقد أشرف على دورة خاصة مدتها خمسة وأربعون يوماً مخصّصة للتدريب على القتال وجهاً لوجه، وهي الدورة التي جرت في معسكر لوجار التابع للقاعدة. خصّصت الدورة بهدف اختيار المتدربين، وكان من بينهم خالد المحضار ونواف الحازمي، وأحمد محمد هزاع الدربي. بدا كل هؤلاء مجندين واعدين.

كان نظام القاعدة غير المركزي في الإدارة يقضي بأنه ما إن يقرر بن لادن اسم المسؤول عن عمليةٍ ما حتى يترك له تقرير كل التفاصيل. اكتفى بن لادن بأن أمر النشيري بأن يكون سلمان العدني وطه الأهدل المهاجمين الانتحاريين لعملية القوارب، وهكذا كان النشيري مسؤولاً عن اتخاذ كل القرارات الأخرى. كان ينقل مضمون تلك القرارات إلى بن لادن عن طريق خلاد للمصادقة النهائية.

شعر النشيري منذ نهاية فصل الصيف بأنهم أصبحوا على استعداد لتنفيذ الهجوم ضد السفينة التالية التي تدخل مرفأ عدن. أجرى النشيري والخامري مسحاً دقيقاً للميناء بحثاً عن نقاط انطلاق محتملة. رأى الرجلان أخيراً، أي في ٣ كانون الثاني/ يناير من العام ٢٠٠٠ المدمرة الأميركية يو. أس. أس. سوليفانز وهي تدخل الميناء. أرسل النشيري المهاجمين الانتحاريين المحددين، أي طه الأهدل وسلمان العدني من أجل ضرب السفينة تحت جنح الظلام بينما انتظر هو في أحد المخابئ، وتجهز لمشاهدة الانفجار. أنزل الأهدل والعدني القارب في المياه. لكن القارب علق في رمال الشاطئ بسبب ثقل المتفجرات. حاول الرجلان تحريكه عدة مرات، لكن القارب لم يتزحزح، وهكذا عادا إلى منزليهما تاركين القارب محملاً بالمتفجرات.

قبع النشيري منتظراً تصوير العملية بالفيديو من شقةٍ سبق له أن استأجرها في التواهي، لكن بعد طلوع فجر اليوم التالي أيقن أن الأمور ليست على ما يرام. توجه بعد ذلك إلى المنزل الذي كان المهاجمان يسكنان فيه قبل العملية كي يعرف ما استجد من أمور، لكنه فوجئ عندما رآهما نائمين. أيقظهما بغضب فشرحا له ما حدث. تلقى الرجلان توبيخاً قوياً وما لبث النشيري أن أخذ معه سلمان وكان الخامري يتبعهما، وأسرع الثلاثة إلى الميناء بشاحنة. جمد الرجال في مكانهم عند رؤيتهم القارب. كان صبيان الشاطئ الخمسة ينقلون المتفجرات ويلقون بها من دون اكتراث من واحد إلى آخر. اقترب النشيري، وسلمان، والخامري بحذر تحسباً لحدوث انفجار، فما كان من النشيري إلا أن تفاوض مع الأولاد لاستعادة صناديق المتفجرات.

هرب النشيري، وطه، والخامري، إلى أفغانستان، وقام النشيري بإبلاغ بن لادن بما حدث. أبلغهم زعيم القاعدة بضرورة تواريهم عن الأنظار، وانتظار ما يحدث في اليمن. لم تصل أي تقارير تتحدث عن قيام اليمنيين أو الولايات المتحدة بالتحقيق في الحادث، لكنهم ازدادوا وثوقاً بأن خططهم لم تتعرض للخطر.

عاد النشيري إلى اليمن في غضون شهورٍ قليلة وعادوا للاتصال بالبدوي والخلية المحلية. تم اختيار مهاجمين انتحاريين آخرين، لأن الأهدل قُتل في أفغانستان أثناء مشاركته بالقتال إلى جانب طالبان، أما العدني فقد مات بعد أن قفز إلى أحد المجاري في محاولة منه إنقاذ صبي وقع فيه. طلب خلاد من بن لادن أكثر من مرة استخدامه كمهاجم انتحاري، لكن زعيم القاعدة أراد استخدام معاوية المدني بدلاً منه. لكن مع حلولً شهر أيلول/سبتمبر أي عندما حان وقت تنفيذ عملية القوارب، حلّ النشيري مكان نبراس والخامري.

كان سليم حمدان الذي تزوج لتوه يزور اليمن عند وقوع الهجوم على يو. أس. كول. لم يكن يعرف أي شيء مقدماً عن العملية، لكنه أدرك أنها تحمل بصماتِ القاعدة من خلال المهاجمين الانتحاريين والهدف الأميركي. كان أحد ردود فعله على الهجوم هو الخوف من الاعتقال بسبب علاقته المعروفة ببن لادن.

لكنه عندما سمع الرئيس صالح وهو يقول على شاشة التلفزيون اليمني إنَ الهجوم كان عملية قام بها جهاز الموساد الإسرائيلي، شعر بالارتياح لأن ذلك الافتراض كان منطقياً بالنسبة إليه: كانت إسرائيل عدوة اليمن. لكن من الجهة الأخرى كان من غير المنطقي أن تخاطر القاعدة بإغضاب اليمن وهي التي كانت حتى ذلك الحين مكاناً يرحّب بالمتطرفين، بمن فيهم نشطاء القاعدة. سافر حمدان مع أنسبائه من صنعاء إلى المملكة العربية السعودية لأداء العمرة، وعاد من المملكة العربية السعودية إلى أفغانستان من أجل استئناف واجباته أمام بن لادن.

رحب به بن لادن فور وصوله إلى قندهار وسأله عما إذا كان يحمل «أي أخبار من اليمن تتعلق بالهجوم على المدمرة الأميركية». قال حمدان إنه سمع الرئيس صالح وهو يلقي المسؤولية على جهاز الموساد. ابتسم بن لادن وسار مبتعداً عنه. التقى حمدان في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم بالنشيري. سأل النشيري حمدان عما يحمله من أخبار من اليمن، أي كما فعل بن لادن. انطلق النشيري بالضحك عندما أخبره حمدان بأن الهجوم من تدبير الموساد، لكنه أشار بعد ذلك إلى ناحية بن لادن وقال: «إن العملية كلها من تخطيطه». فهم حمدان في ذلك الوقت السبب الذي جعل بن لادن يبتسم في وقتٍ سابقٍ من ذلك اليوم، أي إنَّ العملية ضد كول كانت من تدبير القاعدة.

فهم حمدان كذلك سبب رؤيته للنشيري وهو يجرّب بعض المتفجرات بصحبة أبي عبد الرحمن المهاجر، وهو خبير المتفجرات لدى القاعدة، والخبير في صنع القنابل. شاهد حمدان الرجلين أثناء تفجيرهما القنابل في هيكل سيارة قديمة. علم حمدان أن المهاجر كان يدرب المجندين فقط عندما يأمره بن لادن بذلك تحديداً. إن تدخل المهاجر كان يدفع المرءَ إلى الافتراض أنَّ عملية هامة على وشك الحدوث. لاحظ كذلك أن النشيري كان يمضي أوقاتاً طويلة مع خلاد، وأبي حفص، وبن لادن، وهي كلها دلائل إضافية على اشتراكه في عمليةٍ مقبلة.

لم يوافق الجميع في قندهار على أن ضرب هدفٍ أميركي في اليمن هو عملٌ حكيم. كان عدد كبير من أعضاء القاعدة إما يمنيين أو ذوي علاقاتٍ أسرية مع

اليمن، ولذلك كانوا يخافون من تأثير ذلك الهجوم في عائلاتهم وفي قدرتهم على العودة إلى البلاد. تساءل هؤلاء كذلك عن الحكمة من إثارة الاضطراب في البلاد التي تمثّل ملاذاً بالنسبة إليهم.

كان حمدان واحداً من أعضاء القاعدة الذين تساءلوا عن الحكمة من وراء شنّ ذلك الهجوم. كانت زوجته يمنية، ولذلك خشي من إمكانية منعهما من العودة إلى اليمن بعد ذلك الهجوم. أُبلغ حمدان عندما تحدث مع شقيق زوجته بأن الأمن السياسي PSO يبحث عنه. لم يعد بمقدور حمدان دخول اليمن بعد الآن.

سأل حمدان بن لادن عندما انفردا: «لماذا اخترت اليمن يا شيخ، وهي البلاد التي كانت ملاذاً آمناً بالنسبة إلى الإخوان؟» لم يرد بن لادن مباشرة على هذا السؤال، وغيّر الموضوع.

لم يكن أعضاء القاعدة الآخرون ليتجرّأوا على مساءلة بن لادن، وكان النشيري ينتمي إلى هذه المجموعة. كان يؤمن بأن بن لادن يعرف أكثر منه. وصف أبو جندل النشيري بأنه الشخص الذي هو على استعداد لتنفيذ عملٍ إرهابي «في مكة، وداخل الكعبة ذاتها» إذا ما آمن بأن القضية تستدعي ذلك.

كان بن لادن مقتنعاً بأن الولايات المتحدة ستثأر ضد القاعدة بسبب تفجيرها المدمرة يو. أس. أس كول. توقع في الحد الأدنى أن تتعرض معسكرات القاعدة للقصف. نقل بن لادن موقعه لحماية نفسه وأتباعه، وذلك قبل وقتٍ قصير من الهجوم على كول.

أُقفلت معسكرات التدريب مؤقتاً، وأُمر النشطاء بعدم التخطيط أو تنفيذ أي عملٍ إرهابي. أما بن لادن فقد استمر في تغيير مكان وجوده، وانتقل من مخبأ في أفغانستان إلى آخر. توجّه في البداية إلى التلال المحيطة بكابول، ثم ذهب إلى خوست وجلال أباد، كما تنقّل من مخبأ إلى آخر بعد عودته إلى قندهار. أمر بن لادن كذلك بإرسال أبي حفص وأيمن الظواهري إلى أماكن مختلفة في كابول. ضمن بن لادن بهذه الطريقة بأنه إذا قُتل أحد الرجال فسوف يتولى آخرون إدارة القاعدة.

لم تنتقم الولايات المتحدة بالرغم من كل ذلك، وهو الأمر الذي أدهش بن لادن. أبلغ مساعديه بأنه ينبغي عليهم توجيه ضربات أقسى من أجل إثارة انتباه أميركا. أخبرني حمدان في وقتٍ لاحق: «أنتم [أي الولايات المتحدة] تسببتم بالحادي عشر من أيلول/سبتمبر لأنفسكم. لم تردوا على تفجير كول، وهكذا اضطر بن لادن لتوجيه ضربة أقسى».

سرت الشائعات مع مرور الأيام والأسابيع بأن القاعدة هي وراء الهجوم على كول، وترددت أصداء هذه المعلومة في أنحاء العالم الإسلامي كافةً. كانت صورة الهجوم على كول – أي قارب صغير يقوم بإنزال الهزيمة بمدمرة قوية – صورةً في غاية القوة. قال بن لادن في ما بعد: «تمثّل المدمرة عاصمة الغرب، بينما يمثل القارب الصغير النبي محمد». اجتمع بن لادن مع أبي حفص وسيف العدل في قندهار من أجل مناقشة أفضل الطرق لتعزيز استثمار الهجوم من أجل تعزيز تمويل القاعدة، وتجنيد عناصر جديدة فيها. قرر المجتمعون إنتاج شريط فيديو عن الهجوم.

أمر بن لادن علي البهلول بإنتاج شريط الفيديو. أمضى علي مع أعضاء مكتب القاعدة الإعلامي ستة أشهر في التحضير لذلك المشروع الذي تضمن إعادة تصوير تفجير كول، مع إضافة صور عن معسكرات القاعدة ودوراتها التدريبية. يبدأ الشريط بصوت أبي هاجر العراقي وهو يقرأ مقاطع من القرآن – كان الرجل في أحد السجون الأميركية بسبب دوره في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا. كان مغزى ذلك في غاية الأهمية: أصدر بن لادن قبل تفجير كول إنذاراً إلى الولايات المتحدة لإطلاق السجناء، وكان من بينهم أبو هاجر. لاحظ النشطاء في ما بعد أن المعلق كان صوت بن لادن المؤثر والمليء بالفخر ـ وكان ذلك أحد التحسينات الكثيرة والتعديلات التي أصرّ عليها زعيم القاعدة.

وزّعت القاعدة ذلك الشريط في أنحاء العالم. بدأت الأموال بالتدفق وكذلك المجندون. كافأ بن لادن البهلول بترقيته، وذلك تعبيراً عن تقديره. وصل بهلول في هذه المرحلة إلى الاضطلاع بالدور المزدوج بوصفه المسؤول عن العلاقات العامة في القاعدة، بالإضافة إلى مسؤول الدعاية الشخصي لدى بن لادن.

خاطب بن لادن جمع المجنّدين الجدد الذين قدِموا بعد الهجوم على كول، وذلك في معسكر الفاروق. شكر زعيم القاعدة اللّه على نجاح عملية كول، ووعد بتنفيذ هجمات أخرى، وأثنى على الشهيدين الخامري ونبراس لأعمالهما البطولية، وسأل اللّه أن يقبلهما كشهيدين، وأن «يقدم لنا المزيد من أمثالهما». شجّع المتدربين كذلك على تحضير أنفسهم للجهاد. كان اليمنيون الموجودون في المعسكر فخورين بأن يكون النشطاء اليمنيون وراء الهجوم على كول. نظّم هؤلاء مسيرة، وردّدوا الأناشيد خلال التدريب: «نحن اليمنيين فجرنا كول». أطلق بن لادن كذلك اسمَي حسن ونبراس على أكبر دارَي ضيافة للقاعدة تكريماً لهما، وعلى أمل أن يشجع ذلك الآخرين على السير على خطاهما. تطوع بعد ذلك عدد من المجنّدين الجدد لتنفيذ مهماتٍ انتحارية.

احتفل بن لادن في قندهار في شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠١ بنجاحات القاعدة، وذلك أثناء حفل زفاف ولده حمزة البالغ من العمر سبعة عشر عاماً. تزوج الشاب ابنة أبي حفص المصري التي تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً. قرأ بن لادن قصيدة لتخليد هذه الذكرى:

مدمرةٌ يخشى أولو البأسِ بأسَها

تزيدُك رعباً حين ترسو وتُبحرُ

تشقُّ عبابَ البحرِ يحدو مسيرَها

غرورٌ وزهوٌ واقتدارٌ مزوّرُ

إلى حتفِها تسعى حثيثاً بظلفِها

بوهمٍ كبيرٍ كاذبٍ تتدثّرُ

إلى زورقٍ يلهو به الموجُ يختفي

مَعَ الموجِ حيناً ثم يبدو ويظهرُ

جلس حمدان والنشيري معاً في شهر حزيران/يونيو من العام ٢٠٠١ داخل أحد مراكز الضيافة في قندهار، وكان موضوع حديثهما هو كول. أبلغ النشيري حمدان ضاحكاً أنه بينما كان ينقل القارب الذي استُخدم في العملية أوقفه رجل شرطة يمني. طلب الشرطي أوراق بيع القارب. لم يمتلك النشيري أي أوراق، لكنه أقنع رجل الشرطة بأن يغضّ النظر عن القارب «بما يعادل ذلك من المال لشراء القات». كان من السهل رشوة رجال الشرطة في اليمن، وغمر النشيري شعور بالنجاح عندما فكّر في ذلك.

دُهش حمدان بتبجّح النشيري بدوره في العملية، وعدم إعطائه الفضل فيها للخامري ونبراس اللذين شاركا في التخطيط، وضحيا بحياتهما بطبيعة الحال. أغضب هذا الموقف حمدان لأن الرجلين كانا صديقين له، كما حارب هو والخامري معاً في الخطوط الأمامية ضد تحالف الشمال. يُضاف إلى ذلك أن نبراساً كان شاهداً على زفافه في اليمن، وكانت تلك آخر مرة يراه فيها.

عُثر في مكتبٍ كانت تستخدمه اللجنة العسكرية في القاعدة، وبعد اجتياح أفغانستان في العام ٢٠٠١ على وثيقة ضمن مغلفٍ بلاستيكي، وكانت تلك رسالة الاستشهاد العائدة لحسان الخامري. كانت كذلك رسالته الوداعية لأشقائه. تحدث حسان في هذه الرسالة عن الجهاد والقاعدة، كما عبّر عن آخر كلماته الوداعية لهم. ظهرت في أحد جوانب الرسالة خربشات ورسوم زهور.

٩ أيلول/سبتمبر، ٢٠٠١. كنا نتهيأ أنا وجورج وبوب للنوم في الغرفة المشتركة في فندق شيراتون، وذلك بعد يوم طويلٍ من العمل في صنعاء، عندما وصلتنا أخبارٌ تفيد بأن أحمد شاه مسعود، وهو زعيم تحالف الشمال، قد اغتيل.

التقاه رجلان زعما أنهما صحفيان بلجيكيان من أصل مغاربي لإجراء مقابلة، وما لبثا أن فجرا حقيبة الكاميرا التي كانا يستخدمانها، والتي كانت محشوة بالمتفجرات وهو الأمر الذي أدى إلى مقتله على الفور. علمنا في ما بعد أن رسالة التعريف بهما زوّرها الظواهري، وأنهما عضوان تونسيان ينتميان إلى القاعدة.

كان مسعود مسلماً ملتزماً، وكان يحظى بتأييد عدد من القادة الإسلاميين بمن فيهم عبد اللّه عزام الذي أعلن بعد لقائه به: «رأيت المجاهد الإسلامي الحقيقي، وهو مسعود». لكن الرجل كان يعارض طالبان والقاعدة وكان يبحث عن بديلٍ معتدل لهما.

كان مسعود بطلاً قومياً وكان موته يعني تفكك تحالف الشمال. كانت سمعته وشخصيته عامليْن حاسميْن في إبقاء جماعته موحدة، وكان أحد الشخصيات المحددة القليلة التي كان بإمكانها استقطاب احترام معظم سكان البلاد.

نقلتُ إلى جورج وبوب مخاوفي من أن اغتيال الرجل لا يتعلق فقط بمسعود وطالبان، وأن ذلك العمل يحمل معه معاني وترددات أوسع. «هذا العمل هو أكبر مما نظن. تحاول القاعدة الإقدام على شيء ما، وهي تحتاج إلى دعم طالبان، وهكذا قتلت مسعود وهكذا ستشعر طالبان بالامتنان إلى الأبد».

قال جورج: «أخفتني يا صاحبي عندما قلت هذا الكلام». أحضر جورج أوراق المذكرات التي كتبتها قبل تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا وقبل الهجوم على كول. «انظر ماذا حدث. أتمنى أن تكون على خطأ».

«أتمنى ان أكون مخطئاً بدوري».

بدأت طالبان في اليوم التالي، أي في ١٠ أيلول/سبتمبر، هجوماً رئيساً ضد تحالف الشمال المتفكك، وكان من الواضح أنها حضّرت مسبقاً لذلك الهجوم قبل أشهرٍ عدة.

الجزء الرابع

الهجوم الذي غيّر العالم

الفصل الرابع عشر

لغز بن الشيبة

٢٩ آب/أغسطس،٢٠٠١. أيقظ رنين الهاتف رمزي بن الشيبة عند الساعة ٣:٠٠ فجراً، وكان في شقته في هامبورغ. أجاب بصوتٍ مجهَد: «مرحباً؟»

أجاب الصوت على الطرف الآخر: «مرحباً». تعرّف رمزي فوراً على صاحب الصوت، وكان صوت محمد عطا، صديقه وزميل سكنه السابق.

سأل بن الشيبة: «ماذا يجري؟»

قال له عطا: «روى لي أحد أصدقائي لغزاً لا يمكنني حلّه وحدي، ولذلك طلبتك كي تحلّه لي».

«حسناً».

تابع عطا كلامه: «عَصَوَان، وشرطة، وكعكة مع عصا متدلية منها». توقف بعد ذلك عن الكلام، والتزم بن الشيبة بالصمت منتظراً عطا ليقول شيئاً آخر.

سأل بن الشيبة: «هل هذا هو اللغز؟» شعر بالارتباك وكان نصفَ نائم. «هل أيقظتني من نومي العميق لتروي لي هذا اللغز؟ عَصَوان وشيء آخر لا أعلمه؟»

ساد صمت مطبق من جانب عطا على الطرف الآخر من الخط. كان منتظراً

صديقه لعله يفهم هذه الشيفرة، والتي كثيراً ما عملا عليها سوياً في السابق. فهم بن الشيبة اللغز أخيراً، وقال لعطا: «حسناً. قل لصديقك بأن لا يقلق على أي شيء. إنه لغز لطيف».

«وداعاً».

كان لدى بن الشيبة مزيد من الكلام يريد قوله إلى صديقه، وذلك لأنه عرف أنه قد لا يراه مجدداً، لكن كان من الخطر جداً أن يفعل ذلك من خلال خطٍ غير آمن. سبق لخالد الشيخ محمد أن نبّههما صراحة إلى أن يكونا حذرين لأن هناك أموراً كثيرة لا ينبغي المخاطرة فيها. كتم بن الشيبة عواطفه لنفسه وأقفل الخط.

حزم أمره أخيراً في هامبورغ، وهكذا توجه في ٥ أيلول/سبتمبر إلى باكستان. أرسل من هناك مبعوثاً موثوقاً به إلى بن لادن وخالد الشيخ محمد اللذين كانا في أفغانستان، وزوّده برسالة مفادها: «سيقع الهجوم الكبير على أميركا في يوم الثلاثاء، ١١ أيلول/سبتمبر».

كان ذلك هو حل لغز عطا: تمثّل العَصَوان رقم ١١، بينما تمثّل الشرطة فراغاً، أما الكعكة مع العصا المتدلية منها فتمثّل الرقم تسعة. يشكل الرقم بمجموعه ١١-٩، أي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. يعني ذلك أن عطا وكل الخاطفين الذين معه جاهزون في مكانهم وأنهم اختاروا تاريخ عملية الطائرات التي ستشنها القاعدة.

وُلد رمزي بن الشيبة في العام ١٩٧٢ في غيل باوزير في اليمن، كما أنه حاول الدخول إلى الولايات المتحدة لأول مرة في العام ١٩٩٥، لكن طلب تأشيرته قوبل بالرفض. كانت الولايات المتحدة في ذلك الوقت متشككة في طالبي التأشيرات اليمنية اعتقاداً منها بأنهم قد يتحولون إلى مهاجرين غير شرعيين. حاول بن الشيبة الانتقال إلى ألمانيا – متظاهراً بأنه مواطن سوداني يطلب اللجوء تحت اسم رمزي عمر. عاش رمزي في هامبورغ بينما كان التحقيق جارياً في طلبه، كما كان يتردد على الجوامع هناك، لكن طلبه رُفض في نهاية الأمر. عاد إلى اليمن وما لبث أن عاد

إلى ألمانيا، لكنه عاد هذه المرة كطالب مستخدماً اسمه الحقيقي، وهكذا سُمح له بالبقاء.

استمر رمزي في التردد إلى مساجد هامبورغ، لكنه فعل هذه المرة بانتظام أكبر، وما لبث أن التقى هناك طالباً مصرياً باسم محمد عطا. وُلد محمد في كفر الشيخ في العام ١٩٦٨، لكنه انتقل إلى هامبورغ لمتابعة دراسته في الهندسة المعمارية. كان الشابان يمتلكان شخصيتين مختلفتين – كان عطا جدياً وعقائدياً، وطالباً كثير التركيز، بينما كان بن الشيبة ودياً ومحباً للهو وطالباً فقيراً – لكنهما تشاركا الآراء المتطرفة وأصبحا صديقين بسرعة.

تمكن الصديقان في النهاية من العثور على شقة لهما، كما تشاركاها مع طالب من الإمارات العربية المتحدة، وهو مروان الشِّحي. ارتاد مروان الذي كان أصغر سناً من محمد عطا وبن الشيبة (وُلد في العام ١٩٧٨)، المساجد ذاتها، وأصبح مثلهما أكثر تديناً في ألمانيا.

توثقت عرى الصداقة ما بين بن الشيبة وطالبٍ لبناني يدعى زياد الجراح الذي التقاه في أحد مساجد هامبورغ. عُرف عن الجراح في بيروت كثرة ارتياده للمناسبات وحفلات الرقص، كما تابع أسلوبه ذاك في ألمانيا في البداية. بدأ زياد في مرحلة ما مواعدة شابة تدعى أسيل سينغوين، وهي ابنة مهاجرين تركيين، كما اعتاد على النوم في شقتها. بدا أن زياد أخذ بالتحوّل تدريجياً إلى العقائدية في دينه، لكنه لم يقطع أبداً علاقته مع سينغوين.

اعتاد الرجال الأربعة على الاجتماع بشكلٍ منتظم في الشقة التي جمعت عطا، وبن الشيبة، والشّحي لمناقشة قضايا الجهاد والعقيدة الإسلامية. شجع الشبان بعضهم بعضاً على الالتزام بتعاليم الدّين الإسلامي. تزايدت نظرتهم إلى أنفسهم بوصفهم مبعوثين دينيين ملتزمين، ونظروا إلى دورهم بكل جدية. وصل الأمر بعطا أن كتب على شيكات الإيجار التي كان يحررها بأنه يقيم في دار الأنصار.

تاثرت المجموعة بواعظٍ يدعى محمد حيدر زمّار، كان يخطب عادة في مسجد القدس في هامبورغ. سبق لزمار أن حارب في أفغانستان في زمن الجهاد الأول ضد السوفيات، وكان يُخبر مستمعيه بأنهم مسؤولون عن البدء في الجهاد.

عزم الرجال الأربعة بدايةً على السفر إلى الشيشان للبدء في الجهاد، لكنهم تلقوا نصيحة للذهاب إلى أفغانستان بسبب صعوبات التنقل في الشيشان. اجتمع الشبان لتنفيذ خطتهم مع محمد ولد صلاحي، وهو قريبٌ لأبي حفص الموريتاني. كان صلاحي عضواً في مجلس شورى القاعدة، وترأس لجنةً دينية. نصح صلاحي الرجال الأربعة بالحصول على تأشيرة دخول إلى باكستان، وأرشدهم إلى أفضل طريقة للتقدم نحو كراتشي. اصطحبهم نشطاء من القاعدة من باكستان إلى أفغانستان، وهناك اجتمعوا ببن لادن. أعطى الشبان الأربعة البيعة لبن لادن بعد تلقيهم إرشاداتٍ إضافية.

احتفل بن لادن، وخالد الشيخ محمد، وقادة آخرون يعملون في القاعدة على تخطيط عملية الطائرات، بوصول الشبان. حَضَرَ حينها أربعة شبان كانوا مثاليين لتنفيذ الخطة. كان حصول الشبان على تأشيرات دخول أميركية أسهل بسبب مكوثهم في ألمانيا ممّا كان الأمر عليه من النشطاء الموجودين في أفغانستان أو باكستان. يُضاف إلى ذلك أن مستوياتهم العلمية كانت تعني بأنهم مؤهلون بما يكفي للتدرب على الطيران.

عُرضت المهمة على الشبان فقبلوها. كانت تلك الفرصة المثالية لإطلاق الجهاد الأعظم، كما أن أسماءهم سوف تُذكر بوصفهم أعظم المجاهدين. شجّع قادة القاعدة هذه الفكرة، كما شددوا على مفهوم أن الشهيد يكون من نصيبه اثنتان وسبعون عذراء في الجنة، بالإضافة إلى الاحتفاء بهم كأبطال في أنحاء العالم الإسلامي كافةً. وُضع الشبان في فرع العمليات الخاصة، وهو الاسم الذي تعتمده المنظمة لفرعها الإرهابي. ترأس ذلك الفرع رئيس اللجنة العسكرية، أبو حفص المصري (واسمه محمد عاطف)، ورئيس اللجنة الأمنية سيف العدل، كما امتلك ذلك الفرع خلايا

وعمليات خاصة به بحيث تعمل كل واحدة منها بشكل منفصلٍ عن الأخرى، وذلك لأسبابٍ أمنية.

أما محمد عاطف، وهو الذي كان ضابط الشرطة في أعوام الثمانينيات والذي تسلق المراكز العليا في القاعدة – فقد أعطاهم ملخصاً عن تفاصيل ما سيقومون به، كما تدربوا على التواصل في ما بينهم بواسطة الرموز المشفرة.

أبقى بن لادن الشبان أثناء إقامتهم في أفغانستان منفصلين عن باقي نشطاء القاعدة، وذلك لأن الخطة أُبقيت على أعلى درجاتٍ من السرية. لم يُسمح بالتواصل مع الشبان لغير أعضاء القاعدة الموثوقين وكان من بينهم سائق بن لادن سليم حمدان وعلي البهلول وهو مسؤول بن لادن عن الدعاية. كان بهلول يمكث في غرفة واحدة مع جراح عند وجوده في أفغانستان. صوّر أعضاء المجموعة، وتحت إشراف البهلول، شرائط استشهاد على الفيديو لكل واحد منهم. لم يمتلك الشبان الأربعة سوى معرفة ضئيلة بالعربية الفصحى وبالقرآن، لذلك تعيّن عليهم القيام بعدة تجارب قبل أن يصبح لفظهم صحيحاً. كانت هذه التجارب مصدر تسلية للشبان الأربعة وللبهلول، وكانوا ينفجرون بالضحك بعد ارتكابهم خطأً في اللفظ.

عاد الشبان الأربعة إلى ألمانيا بعد انتهاء تدريبهم، لكن مظاهرهم أصبحت أقل تشدداً، وذلك بحسب التعليمات التي زُوّدوا بها. حلق الشبان لحاهم، وارتدوا الملابس الغربية، وتوقفوا عن زيارة المساجد المتطرفة. بدأ الشبان كذلك يبحثون عن معاهد لتعليم الطيران. زوّدهم أحد نشطاء القاعدة، ويُدعى عمار البلوشي، وهو ابن أخت خالد الشيخ محمد ببرامج تعليم طيران تشبيهية. قرر الأربعة في نهاية الأمر أن معاهد تعليم الطيران الألمانية ليست جيدة بما يكفي، وأنه من الأفضل لهم تعلّم الطيران في الولايات المتحدة. طلب الشبان مصادقة بن لادن على فكرتهم هذه، وما لبث بن لادن أن باركَ هذه الخطة الجديدة.

طلب الشبان الأربعة الحصول على جوازات سفرٍ جديدة قبل تقديم طلباتهم

للحصول على تأشيرات دخولٍ إلى الولايات المتحدة، وذلك بعد أن زعموا أنهم فقدوا جوازاتهم الأصلية. قلق الشبان من أن تؤدي تأشيرات السفر الباكستانية الموجودة على جوازات السفر إلى الإضرار باحتمالات حصولهم على التأشيرات الأميركية. قدّم الشبان طلبات الحصول على التأشيرات فور إنجاز الجوازات الجديدة. جاءت الموافقة على تأشيرة الشِّحي في ١٨ كانون الثاني/يناير، ٢٠٠٠. لم يتأخر الأمر كثيراً قبل وصول الموافقة على تأشيرة عطا في ١٨ أيار/مايو، كما جاء قبول طلب الجراح في ٢٥ أيار/مايو. أما طلب بن الشيبة فقد رُفض. حاول الشاب تقديم طلبات الحصول على التأشيرة ثلاث مرات جديدة، لكنه كان يُرفض في كل مرة، ليس بسبب الشكوك بنشاطاته الإرهابية، لكن للسبب ذاته لرفض طلبه قبل سنواتٍ قليلة: كان يمنياً، والسلطات الأميركية في ذلك الوقت كانت قلقةً من أن اليمنيين سوف يحاولون البقاء في البلاد بطريقة غير شرعية.

كلّف بن لادن وخالد الشيخ محمد بن الشيبة بأن يكون مساعد خالد الشيخ محمد الرئيس في هذه الخطة، وأن يكون صلة الوصل ما بين الخلية الألمانية وقيادة القاعدة، وذلك لأنه لا يستطيع الدخول إلى الولايات المتحدة. اختار بن لادن في هذا الوقت نواف الحازمي ـ وهو واحد من النشطاء الثلاثين الذين عيّنتهم القيادة قبل سنتين للخضوع إلى تدريب خاص على يد خلاد في لوجار ـ ليكون نائب عطا.

ما إن دخل عطا، والشحّي، وجراح إلى الولايات المتحدة، حتى تولى بن الشيبة ترتيبات تحويل الأموال إليهم وتبادل المكالمات الهاتفية المرمزة مع عطا الذي عينته القاعدة في ذلك الوقت لقيادة العملية في الولايات المتحدة. تظاهر عطا وبن الشيبة في مكالماتهما الهاتفية بأنهما طالبان يستذكران مقرراتهما معاً، لكن في واقع الأمر كانت كلمة «هندسة معمارية» تشير إلى مركز التجارة العالمية، وكلمة «فنون» تشير إلى البنتاغون. التقى الشابان كذلك مراتٍ قليلة في أوروبا، ومن بينها اللقاء الذي جمعهما في برلين في شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠١، وذلك الذي جمعهما في مدريد في شهر تموز/يوليو من العام ٢٠٠١.

كان عدم تمكّن بن الشيبة من الحصول على تأشيرة دخولٍ إلى الولايات المتحدة بمثابة مشكلة بالنسبة إلى القاعدة، وذلك لأن خطتها كانت تقضي في البداية بخطف أربع طائرات والاصطدام بها بشكلٍ متزامن بأربعة أبنية: برجَي مركز التجارة العالمية، والبنتاغون، والكابيتول الأميركي. ادعى خالد الشيخ محمد في وقتٍ لاحقٍ أمام مستجوبيه في وكالة الاستخبارات المركزية بأنه خطط في البداية لخطف عشر طائرات في يوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وقال إنه كان ينوي قيادة الطائرة العاشرة بنفسه. قال كذلك إنه خطط للهبوط بالطائرة في مطارٍ أميركي ليقتل كل المسافرين الذكور على متنها، ثم يلقي خطاباً أمام العالم يهاجم فيه الولايات المتحدة على دعمها لإسرائيل والأنظمة العربية القمعية.

كان من الواضح في البداية أن هذه لم تكن أبداً الخطة الحقيقية بل هي مجرد مجهود قام به خالد الشيخ محمد لإبراز مؤهلاته، وهو الذي كان يواظب على إبراز نفسه على أنه العقل الإرهابي الأرفع، وهو الأمر الذي يعطيه شهرة أكبرمن تلك التي حصل عليها ابن شقيقته رمزي يوسف. بدا أن توصيفه لنفسه كان نتيجة مشاهدته لعددٍ كبير من أفلام الإرهاب التي اختارها لخاطفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. أما الخطة الأصلية التي وضعتها القاعدة فكانت تقضي بشن هجمات في الولايات المتحدة وجنوب شرق آسيا في وقتٍ متزامن، لكن تم التخلي عن الخطة الأخيرة بسبب تعقيداتها الكثيرة.

كان زكريا الموسوي هو الشخص الآخر الذي درّبته القاعدة ليكون قائد طائرة محتملاً، وهو رجل مغربي يحمل الجنسية الفرنسية. كان جواز سفره الفرنسي يسمح له بالحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة بسهولة. لكن المشكلة مع موسوي تمثلت في مستوى ذكائه العادي، وهكذا لم تكن القيادة واثقة من تمكنّه من القيام بدوره. كان الموسوي يعتبر نفسه رجلاً صلباً، وكان يحب إظهار قوته عن طريق مصارعة أعضاء القاعدة الآخرين. كان أبو جندل يستمتع بإغضاب الموسوي عندما يقول له إنه يستطيع أن يغلبه في مباراة مصارعة ويرفض منازلته بعد ذلك.

كان مركز أبي جندل بوصفه حارس بن لادن الشخصي يضعه في مرتبةٍ أعلى من مرتبة الموسوي، وهكذا لم يكن الموسوي يفعلُ أيَّ شيء سوى أن يغلي غضباً ويشتكي.

أرسل خالد الشيخ محمد الموسوي في العام ٢٠٠٠ إلى ماليزيا لتلقي التدريب على قيادة الطائرات، لكنه لم يعثر على مدرسة تعجبه، فتورط هناك في أنشطة إرهابية أخرى. أمره خالد الشيخ محمد بعد ذلك بالسفر إلى لندن في شهر تشرين الأول/أكتوبر، وما لبث بن الشيبة أن زاره هناك في شهر كانون الأول/ديسمبر. توجّه الموسوي في ٢٣ شباط/فبراير من العام ٢٠٠١ إلى الولايات المتحدة والتحق بمدرسة لتعليم قيادة الطائرات في أوكلاهوما ومينوسوتا، لكن أداءه فيها لم يكن جيداً. ألقي القبض عليه في ١٦ آب/أغسطس من العام ٢٠٠١ ووجّهت إليه تهمة خرق قوانين الهجرة، وذلك بعد أن أبلغ عنه مدرب الطيران الذي ارتاب به.

شعر قادة القاعدة بالسرور عندما ظهر في أفغانستان وفي العام ٢٠٠٠ مرشح آخر ليكون قائد الطائرة الرابعة، وذلك بالنظر إلى سجّل الموسوي غير الباهر. ظهر رجلٌ من بين المجندين الجدد كان قبطاناً مدرباً: هاني حنجور. وُلد حنجور في المملكة العربية السعودية، ودرس اللغة الإنجليزية في العام ١٩٩١. عاد هاني إلى المملكة العربية السعودية، لكنه انتقل مجدداً إلى الولايات المتحدة في العام ١٩٩٦ كي يتعلّم قيادة الطائرات، وما لبث أن حصل على إجازة قائد طيران خاص في العام ١٩٩٧، ثم حصل بعد ذلك على شهادة طيار تجاري. عاد هاني لاحقاً إلى المملكة العربية السعودية للتفتيش عن عمل له.

عندما اكتشف بن لادن وخالد الشيخ محمد أن لديهما طياراً مدرّباً في أحد معسكراتهما - كان يُطلب من المجنّدين الجدد ذكر أي مهارات خاصة يمتلكونها - أسرعوا بتجنيده [في عملية الطائرات]. قبِل هاني مهمته على الفور لأنه كان يعتبر انتقاء بن لادن شخصياً له شرفاً كبيراً.

درّب قادة القاعدة حنجور على مفاتيح الشيفرة التي يحتاج إليها، ثم أمروه بأن يحصل على تأشيرة للسفر إلى الولايات المتحدة. شرح له خلاد كيفية التواصل مع نواف الحازمي فور وصوله إلى الولايات المتحدة. عاد هاني إلى المملكة العربية السعودية في ٢٠ حزيران/يونيو من العام ٢٠٠٠، وحصل على تأشيرة السفر في ٢٥ أيلول/سبتمبر.

انضمت هذه المجموعة من الطيارين المستقبليين إلى صفوف الذين اختارهم بن لادن ليكونوا جزءاً من العملية، أي خالد المحضار، ونواف الحازمي، وخلاد. وُلد الحازمي والمحضار في مكة، أي أنهما كانا سعوديين ولا مشكلة لديهما في الحصول على تأشيرة أميركية. رُفض طلب خلاد مع ذلك لأنه كان يمنياً.

كان من المقرر أن يكون المحضار والحازمي من بين الخاطفين من ذوي القوة العضلية، أي أولئك الذين كانت مهمتهم التغلب على طاقم الطائرة، وعلى أي مسافرين مشاغبين. أرسل الرجلان مع خاطفين آخرين إلى معسكر مس إيناك في أفغانستان، وتلقيا تعليمات على القتال والأسلحة. تلقيا كذلك أفضل أنواع الأطعمة المتوافرة للإبقاء على لياقتهما ولتعزيز معنوياتهما. ساعد خالد الشيخ محمد شخصياً على تدريب الخاطفين من الطيارين وغير الطيارين، وعلّمهم كيفية إخفاء السكاكين في حقائبهم، وكيفية نحر أعناق الركاب. درّبهم خالد على حزّ أعناق الماعز، والخراف، والجِمال.

قام خالد الشيخ محمد بإعطاء الخاطفين معلومات عن الولايات المتحدة وذلك في منشأة أُطلق عليها «بيت الغامديين» وذلك بسبب مجيء عدد من الخاطفين من قبيلة غامد. علّم خالد الشيخ محمد الخاطفين عدداً من العبارات الإنجليزية، وعلّمهم كيفية استخدام دليل الهاتف، ومشاهدة الأفلام التي تحتوي على مشاهد خطف. كان من بين تلك العبارات، «أخفوا رؤوسكم»، و«لا تتحركوا»، و"ابقوا في مقاعدكم»، و«سأقتلكم إذا تحرك أحد منكم».

سافر الحازمي والمحضار إلى كوالالامبور بعد انتهاء التدريبات، وذلك من أجل عقد اجتماع قمة يتعلق بالحادي عشر من أيلول/سبتمبر. غادر الرجلان من هناك إلى بانكوك برفقة خلاد. سلّم نبراس والقصع إلى خلاد هناك مبلغ ٣٦,٠٠٠$ نقداً، وهكذا تمكن المحضار والحازمي من شراء تذاكر سفر بالدرجة الأولى إلى لوس آنجلوس، ثم غادرا بانكوك في يوم ١٥ كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٠.

وصل رفاقهما من الخاطفين من ذوي القوة العضلية إلى الولايات المتحدة في صيف العام ٢٠٠١. كان معظمهم من السعوديين (اثنا عشر من أصل ثلاثة عشر)، وكان معظمهم عاطلين عن العمل، وغير متزوجين، وغير متعلمين. قدّم هؤلاء طلبات الحصول على تأشيرات دخولٍ في المملكة العربية السعودية، وما إن حصلوا على الموافقة حتى سافروا إلى أفغانستان لتلقي مزيد من التدريب. قام عطا والشِّحي بتنسيق وصول المجموعة إلى الولايات المتحدة، وأمّنوا لها أماكن إقامة تستقر فيها. أما عمار البلوشي، وهو ابن شقيقة خالد الشيخ محمد، ومصطفى الهوساوي، وهو ناشط مالي في القاعدة، فقد ساعدا في تنسيق أمور السفر والمال قبل المغادرة وبعد وصول المجموعة إلى الولايات المتحدة. كان الخاطفون يحصلون على رقم هاتف البلوشي أو الهوساوي. كان الخاطفون يفتحون حسابات مصرفية فور وصولهم ويودعون فيها الأموال التي جلبوها معهم. تسلّم كل خاطف من خالد الشيخ محمد، أو الهوساوي، مبلغاً يتراوح ما بين ستة آلاف إلى ثمانية آلاف دولار، كما طُلب منهم الاحتفاظ ببضعة آلاف من الدولارات وإعطاء الباقي إلى عطا.

وصل إلى أورلاندو في فلوريدا بتاريخ ٤ آب/أغسطس من العام ٢٠٠١، أحد أعضاء القاعدة ويُدعى محمد القحطاني، وذلك على متن الرحلة رقم ١٥ التابعة لشركة طيران فيرجين آتلانتيك، لكن موظفاً في دائرة الهجرة والتجنيس الأميركية رفض السماح له بدخول البلاد، وتم ترحيله إلى خارج الولايات المتحدة على متن رحلة تالية. أقسم الرجل أثناء مغادرته بأنه سوف يعود. طلب عمار البلوشي في آب/أغسطس من العام ٢٠٠١ الحصول على تأشيرة سفر إلى الولايات المتحدة بدءاً من

٤ أيلول/سبتمبر، ٢٠٠١. كانت التأشيرة ستنتهي في ١١ أيلول/سبتمبر. لكن طلب البلوشي قوبل بالرفض.

كان التحدي الأكبر لدى عطا هو العثور على أربع رحلات تكون في الجو في الوقت نفسه من اليوم، وبحيث تكون في طائرات يجيد الشِّحي، والجراح، والحنجور، وهو ذاته قيادتها. أجرى عطا عدداً من جولات البحث على Travelocity (*) فاكتشف أن كل تلك الشروط تتوافر في ١١ أيلول/سبتمبر، ٢٠٠١. ما إن تأكد عطا من كل ذلك حتى أجرى اتصالاً مع بن الشيبة لإيصال الرسالة إليه.

ما إن تحدد الموعد حتى انطلق الخاطفون للاستمتاع بآخر أيامهم في هذه الحياة. توجه بعضهم إلى أندية التعري، بينما فضّل آخرون الذهاب إلى الحانات كي يثملوا. شوهد عطا كذلك وهو يتجرع كمية من الشراب الكحولي. يُحتمل أن يبدو من الغريب لجوء هؤلاء الرجال الذين أعلنتهم القاعدة فيما بعد شهداء دينيين إلى التقليل من قدر أنفسهم، إلا أن الواقع هو أن غالبيتهم لم يكونوا من المتدينين الحقيقيين. امتلك الخاطفون معرفة سطحية في أفضل الأحوال بالإسلام، وكان معظمهم إما أشخاصاً بسطاء تمكن المسؤولون عن التجنيد من إقناعهم، وإما كانوا أفراداً متبجحين يبحثون عن طريقة للظهور بمظهر الصلابة وإثارة إعجاب الأصدقاء. لكنهم لم يتركوا أبداً أساليب العيش التي اعتادوا عليها، حتى وهم ينفذون المهمات. عمد الجراح إلى العودة إلى ألمانيا عدة مرات بهدف اللقاء مع صديقته. كانت تصرفات كهذه معتادة في أوساط القاعدة. عاش النشيري، على سبيل المثال، وهو الرجل الذي خطط عملية تفجير يو. أس. أس كول، وفي إحدى المراحل، مع مومس في دبي.

عمد بن لادن إلى التحرك مع أقرب مساعديه وباستمرار ما بين كابول وخوست وجلال أباد، وهو فعل ذلك استباقاً للهجوم مع إدراكه أن الولايات المتحدة قد ترد بقسوة. لم يكن أحد من الحرّاس الشخصيين، ولا حتى سليم حمدان، أي سائقه

(*) موقع وكالة سفر شهيرة تملكها شركة سابر (Saber) مركزها في ساوث لايك، تكساس في الولايات المتحدة الأميركية.

الخاص، على علمٍ بوجهة الموكب، لكن بن لادن كان يخبرهم بوجهته قبل دقيقة أو نحو ذلك.

كان بن لادن في بعض الأحيان يأمر بتغيير وجهة السفر في منتصف الطريق، وفي أوقات أخرى كان يتوقف فجأة ليأمر الموكب بالتخييم. لم يكن بن لادن ذاته يعلم في بعض الأحيان أين سينتهي به المطاف. كان بن لادن يفضّل التخييم في وسط منطقة غير معروفة كي لا يُعثر عليه بسهولة، حتى أن الموكب لم يكن على معرفة بإحداثيات مكان وجوده بالضبط. دفعت كل هذه الإجراءات ببن لادن لأن يشعر بأمانٍ أكثر.

أمضى بن لادن وقتاً كبيراً في منزلي أبي الخير المصري ومحمد صالح. كان الرجلان عضوين سابقين في مجلس شورى منظمة الجهاد الإسلامي المصرية ومقرَّبَين جداً من أيمن الظواهري، وكانا من قادة الجهاد الإسلامي المصرية ثمَّ انضما إلى مجلس شورى القاعدة بعد الدمج الرسمي الذي أُعلن في شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠١ ما بين القاعدة والجهاد الإسلامي المصرية.

وبعد الدمج جال بن لادن والظواهري في أنحاء البلاد لزيارة معسكرات تدريب القاعدة ومنشآتها، وذلك برفقة أبي حفص المصري الذي أصبح الرجل رقم ثلاثة في الجماعة (احتل الظواهري المركز الثاني)، كما أن كويتياً يدعى سليمان أبا غيث، والذي تزايدت أهميته في صفوف القاعدة، قد أصبح متحدثاً باسم المنظمة. ظهر الرجال الأربعة جميعاً في شرائط فيديو القاعدة الدعائية. أما اسم القاعدة فقد تغيّر رسمياً إلى قاعدة الجهاد، وهو الاسم الذي يجمع ما بين القاعدة والجهاد الإسلامي المصري. كان تغيير الاسم شكلياً فقط لأن المنظمة ما زالت تُعرف حتى الآن باسم القاعدة.

بدا بن لادن في يوم ١١ أيلول/سبتمبر، ٢٠٠١ على درجة كبيرة من الحماسة بالنسبة إلى الذين يعرفونه جيداً. كان عدد قليل جداً من مرافقيه يعرفون السبب.

أمر بن لادن علي البهلول في وقت لاحق من ذلك المساء بتشغيل جهاز التلفزيون الموصول بالأقمار الصناعية في شاحنة وسائل الإعلام بحيث يتمكن من مشاهدة الأخبار. حاول البهلول تشغيل التلفزيون لكنه لم ينجح في التقاط المحطات. طلب منه بن لادن بعد ذلك التقاط الأخبار على جهاز الراديو. تنقل الرجلان ما بين المحطات واستمعا أولاً إلى بي. بي. سي، ثم إلى صوت أميركا، إلى أن تلقياً بثاً ثابتاً. ظل الرجلان يستمعان إلى تقارير الأخبار العادية لمدة خمس وأربعين دقيقة. سمعا أخيراً نبأً عاجلاً: عند الساعة ٨:٤٦ دقيقة صباحاً بتوقيت الولايات المتحدة الشرقي الصيفي (Eastern Daylight Time EDT) صدمت طائرةٌ البرج الشمالي من مركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك. قال التقرير إن ذلك بدا حادثاً.

لكن بن لادن كان يعرف أن الرحلة ١٦ لأميركان آيرلاينز، والتي كان من المقرر أن تطير من مطار لوغان الدولي في بوسطن إلى مطار لوس آنجلوس الدولي قد اختطفت بنجاح على يد محمد عطا، وعبد العزيز العمري، ووليد الشهري، ووائل الشهري، وسطام السقامي. قيل وقتذاك إن أحد أفراد طاقم الطائرة أبلغ قبل اصطدام الطائرة أن مسافراً قد طُعن وأنه يصعب عليه التنفس، وهو الأمر الذي دفع بالمحققين فيما بعد إلى الشك في أن غازاً مسيلاً للدموع قد استُخدم. لكن هذا التقرير لم يظهر إلا لاحقاً.

ابتسم بن لادن، كما أن أعضاء القاعدة الحاضرين بدأوا بالاحتفال. صاح الرجال «الله أكبر، وأطلقوا رصاص بنادقهم من نوع AK-47 في الهواء ابتهاجاً. كان معظمهم مسروراً لأن «الأفعى العظمى»، أي الولايات المتحدة قد ضُربت. لكنهم استنتجوا من ابتسامة بن لادن وانعدام مظاهر المفاجأة على وجهه بأن هذا العمل كان من تدبير القاعدة.

قال بن لادن رافعاً يده لإسكات المبتهجين: «اهدأوا. انتظروا. ستسمعون المزيد». كان ذلك تأكيداً لشكوكهم. التزم الحاضرون بالصمت، وراحوا يتساءلون عما سوف يحدث لاحقاً. عرف عدد قليل فقط من كبار أعضاء القاعدة ماذا يتوقعون.

وصل نبأ عاجلٌ آخر: عند الساعة ٩:٠٣ صباحاً صدمت طائرة ثانية البرج الجنوبي لمركز التجارة العالمية. قال المذيع إنه من المؤكد أن ذلك لم يكن حادثاً. تصاعدت سُحُب الدخان من أكثر ناطحات السحاب بروزاً في مدينة نيويورك. كان الناس عالقين في الداخل ويقفزون من النوافذ.

زادت ابتسامة بن لادن اتساعاً، لأن رحلة يونايتد آيرلاينز رقم ١٧٥، والتي كان من المقرر لها أن تطير من مطار لوغان الدولي إلى مطار لوس آنجلوس الدولي قد اختُطفت بنجاح على يد مروان الشِّحي، وفايز بني حمد، وحمزة الغامدي، وأحمد الغامدي، ومهند الشهري. كان بن لادن يعرف كل الخاطفين شخصياً، وهو الذي صادق على اختيارهم، وساعد على توجيه تدريباتهم. كان بن لادن منتشياً. بدأ أعضاء القاعدة الحاضرون بالصراخ وإطلاق الرصاص في الهواء. قال بن لادن مجدداً: «اهدأوا، وانتظروا، فهناك المزيد».

أما النبأ العاجل التالي فذكر أن إحدى الطائرات قد ضربت الجهة الغربية من البنتاغون عند الساعة ٩:٣٧ صباحاً. قال المذيع إن الأمر يبدو كأنه هجوم منسق. «لا يمكن أن يكون ذلك صدفة».

سأل أحدهم: «ماذا يجري؟» ابتسم بن لادن ابتسامة عريضة.

كانت رحلة أميركان آيرلاينز ذات الرقم ٧٧ تطير متجهة من مطار دوليس الدولي إلى مطار لوس آنجلوس الدولي. تمكّن هاني حنجور، ونواف الحازمي، وخالد المحضار، وماجد موقد، وسالم الحازمي من النجاح في مهمتهم. بدأت الاحتفالات مجدداً، ومرة أخرى طلب منهم بن لادن التزام الهدوء. قال لهم: «هناك المزيد».

أصغى نشطاء القاعدة بانتباهٍ إلى الأخبار. كانت تصل تفاصيل جديدة عما يجري في الولايات المتحدة: تحدثت التقارير عن اختباء الرئيس بوش، وأن برجَي التجارة العالمية قد انهارا، وكانت سحب الدخان تتصاعد من الأرض. قال المذيع: «الأمر مريع». تصاعدت ألسنة النيران من البنتاغون. لم يُعرف عدد الإصابات،

لكن التقديرات الأولية أشارت إلى مقتل عشرات الآلاف. أجبرت القاعدة الأفعى العظمى على الركوع.

جاءت بعد ذلك أخبارٌ عن الطائرة الرابعة: كانت طائرة يونايتد آيرلاينز في الرحلة ٩٣ تطير من مطار نيوارك الدولي في نيوجيرسي إلى مطار سان فرنسيسكو الدولي. تحطمت الطائرة في حقلٍ يقع في ستوني كريك تاون شيب في بنسلفانيا. وردت رسالة استغاثة من الطائرة عند الساعة ٩:٢٨، وكذلك عند الساعة ٩:٣١ أعلن أحد الخاطفين أنه يحمل قنبلة. أدى ذلك بالمحققين في ما بعد إلى الاعتقاد أن الخاطفين استخدموا قنابل زائفة. أفاد بعض الركاب الذين استخدموا هواتفهم الخلويّة لإجراء مكالمات بأن الخاطفين يرتدون أحزمة ناسفة.

شعر بن لادن بخيبة الأمل. أبلغ أتباعه بأن الأميركيين قد أسقطوا الطائرة. لم يصل زياد الجراح، وأحمد النعمي، وأحمد الحزناوي، وسعيد الغامدي إلى هدفهم المرسوم. لكن لم يطُل أمد شعور بن لادن بالإحباط نظراً لنجاح الطائرات الثلاث الأولى.

أعلن زعيم القاعدة أنهم سوف يتوجهون إلى منزل محمد صالح للاحتفال بشكلٍ لائق. جلس بن لادن وأيمن الظواهري في المقعد الخلفي لإحدى الشاحنات الصغيرة التي كان يقودها حمدان، وراحا يناقشان العملية. قال بن لادن للظواهري: «لو لم يُسقط الأميركيون الطائرة لكانت أصابت القبة الكبيرة». كان بن لادن يشير بذلك إلى مبنى الكابيتول.

بدأ الاحتفال في منزل صالح، وكان عدد من كبار قادة القاعدة حاضرين. حضر خالد الشيخ محمد إلى المنزل، وتحدث إلى الحاضرين عن العملية، وشرح لهم خلفية العملية والتدريبات التي تطلبتها، وأعلن عن أسماء الشهداء. كان عدد من الحاضرين يعرفون الخاطفين، ولذلك شعروا بالفخر نظراً لمعرفتهم بهم.

قال بن لادن مستخدماً لقبَ خالد الشيخ محمد: «ليبارك اللَّه المختار على هذا

العمل العظيم». طلب بن لادن بعد ذلك من خالد الشيخ محمد أن يسافر إلى قندهار لإبلاغ أبي حفص بما حدث. لم يتمكن أبو حفص، بسبب الأوجاع في ظهره، من مغادرة قندهار بعد إخلاء الجميع لها، وذلك لأن قيادة السيارة في تلك الطرقات الوعرة كان أمراً مؤلماً جداً.

أنهى بن لادن الاحتفال بعد ذلك وأبلغ مرافقيه بأنه يريد التوجه إلى خوست.

الفصل الخامس عشر

«أيُّ نقاط؟»

١١ أيلول/سبتمبر، ٢٠٠١. «مرحباً هيثر، كيف حالك؟» كنت أتحدث على الهاتف من أحد مكاتب السفارة الأميركية في صنعاء، وكانت هيثر في نيويورك. سُمح لنا أخيراً بالعودة إلى اليمن قبل أسبوعٍ من الزمن، وكنت منشغلاً مع زملائي في إعادة تنظيم مهمتنا ضد أعضاء القاعدة المسؤولين عن تفجير يو. أس. أس. كول.

هرع جو إينيس – أي آلاباما جو – إلى الغرفة بينما كنت أطرح ذلك السؤال. قال بصوتٍ متقطع الأنفاس: «علي، صدمت إحدى الطائرات مركز التجارة العالمية. إننا نشاهد الأخبار في مكتب السفير. تعالَ بسرعة!»

سألتُ جو: «أتعني طائرة حوامة؟»

أجابني: «كلا. قالوا إنها طائرة».

قالت لي هيثر: «علي. يعرض التلفزيون الآن سحب الدخان المتصاعدة من مركز التجارة العالمية». كررت كلامها هذا على جو الذي أطلق شتيمة.

قالت لي هيثر: «افتح جهاز التلفزيون. إن إحدى البنايات تحترق».

دلّني حدسي على أن في الأمر شيئاً أكبر، لكنني لم أرغب في إصابة هيثر بالذعر، فقلت لها: «يتعيّن عليّ الذهاب الآن كي أعرف ما يجري. سأكلمك في وقتٍ لاحق. أحبك».

«أحبك».

اتصلت برقم هاتف جون أونيل في نيويورك. بدأ جون لتوه وظيفته الجديدة في مركز التجارة العالمية. رنّ هاتفه واستمرّ في الرنين قبل أن ينتقل إلى البريد [المجيب] الصوتي. هُرع جو إينيس إلى المكتب مجدداً وصاح بي: «صدمت طائرة أخرى للتو مركز التجارة العالمية!»

«ماذا؟»

«إنها طائرة ركاب. أوه، يا إلهي إنها طائرة كبيرة». حاولت الاتصال بجون مجدداً، لكن المكالمة ما لبثت أن تحولت إلى البريد الصوتي مجدداً، لكني تركت رسالة هذه المرة: «جون. أنا علي. سمعت للتو ما حدث. إنني في اليمن. اتصل بي».

هُرعت راكضاً إلى مكتب السفير. كانت السفيرة بودين قد غادرت البلاد، لكن السفير الجديد، إدموند هل، لم يكن قد وصل بعد، وهكذا كان مكتبه فارغاً، لكن جهاز التلفزيون كان شغالاً، كما أن جميع العملاء، وأعضاء فريق مكتب نيويورك الميداني قد تجمعوا بأكملهم لمشاهدة الأخبار العاجلة الآتية من نيويورك. وقفنا صامتين نحو دقيقة من الزمن، وكنا في حالة صدمة. عجزنا عن تحويل أنظارنا عن الشاشة أثناء إعادة عرض مشاهد ما حدث مرةً بعد أخرى: ألسنة اللهب... ثم الطائرة الثانية.

أجبرت نفسي على تحويل نظري عن الشاشة، وتناولت الهاتف من فوق طاولة السفير وحاولت الاتصال بمكتب التحقيقات الاتحادي في نيويورك. لم أنجح في إجراء المكالمة. سألني أحد الزملاء بعد أن رأى السماعة في يدي: «أتتكلم مع نيويورك؟»

قلت له: «إنني أحاول، لكن الخطوط مشغولة». زاد عجزي عن التكلم مع إدارة المكتب من التوتر والخوف عند الحاضرين في المكتب. واظبت على المحاولة مرة بعد أخرى لكنني لم أسمع سوى إشارة الخطوط المشغولة. نجحت عند المحاولة العاشرة في إجراء مكالمة مع أحد زملائي في نيويورك.

قلت: «شاهدنا الصور لتونا هنا. هل تعرف ما يجري؟»

«إننا نحاول معرفة ماذا يحصل. لكننا في هذه اللحظة تأكدنا من فقدان نحو ثلاثين من عملائنا في منطقة الحدث. إننا نعتبر ما يحصل هجوماً إرهابياً».

جهّزنا أسلحتنا الشخصية واستعرضنا الإجراءات الأمنية في السفارة، وتجمعنا جميعاً في قاعة اجتماعات آمنة وانتظرنا سماع الأخبار من نيويورك. نقلت لنا شاشة التلفزيون المزيد من الأخبار السيئة: تهديدات بالقنابل في مقاطعة كولومبيا، شائعات عن خطف مزيد من الطائرات، إلى أن وردت أخيراً الأنباء الكارثية عن رحلة يونايتد آيرلاينز رقم ٦٣ التي تحطمت فوق شانكزفيل، بنسلفانيا.

انتظر توم جونلون على الهاتف لمدة خمس عشرة دقيقة قبل أن نتمكن من الاتصال مع مركز القيادة. استمرت المكالمة دقائق قليلة، ولم يقل توم ما يزيد كثيراً عن «أجل، فهمت».

قال توم بينما كان يُرجع سماعة الهاتف إلى مكانها: «حسناً. قضت التعليمات بأن يغادر الجميع اليمن على الفور، وأن نستقل أول طائرة عائدين إلى نيويورك. اعتُبرت اليمن بلداً غير آمن. لم نكن نعلم في تلك اللحظة مَن هي الجهة المسؤولة عن هجمات نيويورك وواشنطن، أو ما إذا كانت هناك هجمات جديدة. لكن تعيّن علينا الخروج بالنظر إلى المشاكل التي عانينا منها في اليمن سابقاً. اجمعوا أمتعتكم وتحضّروا للرحيل في غضون ساعاتٍ قليلة».

لم يعترضْ أحد على أمر العودة إلى البلاد هذه المرة، والتي كانت المرة الوحيدة حتى ذلك الوقت. كان يُمكن لمهمتنا في اليمن الانتظار، وذلك بالرغم من أهميتها.

وردت تقارير عن مقتل آلاف الأميركيين، كما أن زملاء لهم قد فُقدوا. أردنا العودة إلى الوطن للمساعدة. قمنا بتوضيب حقائبنا، وقطّعنا وثائقنا التي لم نصطحبها معنا، وغادرنا في اليوم التالي، أي في ١٢ أيلول/سبتمبر متجهين نحو المطار.

تقدّم مني [redacted] وكالة الاستخبارات المركزية في صنعاء بينما كنت منتظراً الصعود إلى الطائرة في المطار مع بقية أعضاء الفريق.

سألته: «ماذا هناك من جديد؟»

«يحاول مركز قيادة مكتب التحقيقات التحدث إليك. يتعيّن عليك أن تتصل بهم».

«مَع أي شخص سأتكلم في مركز القيادة؟ وماذا يريدون؟»

«لا أعلم، لكنهم أعطوني رقماً». سألت توم دونلون عمّا إذا كان يعرف لماذا يريدون التحدث معي، لكنه قال لي إنه لا يعرف سبب حرص مركز القيادة على التحدث معي.

توجهت مع توم إلى زاوية هادئة خارج مبنى المطار، أي حيث أقام تقني الاتصالات في فريقنا صحناً لاقطاً محمولاً، كما تمكّن من توفير خط آمن بواسطة الأقمار الصناعية. كان الرقم الذي أعطي لنا يعود إلى دينا كورسي، وهي محلّلة تعمل لدى مركز قيادة مكتب التحقيقات، وهي التي تصادمت مع ستيف بونغاردت خلال الاجتماع الذي عُقد في ١١ حزيران/يونيو، ٢٠٠١ في نيويورك. قالت لي: «تغيّرت الخطط يا علي. يتعيّن عليك أنت وبوب ماكفادين البقاء في اليمن».

سألتها: «ماذا تعنين؟ هوجمنا داخل وطننا. يتعيّن علينا معرفة من قام بهذا العمل. يُمكن لكل ما يجري هنا أن ينتظر».

«إننا فعلاً بحاجة لأن نعرف ما حدث للتو، وهو سبب الحاجة لبقائكم في اليمن. يتعلق الأمر بما حدث هنا. إن القصع هو أهم خيوطنا في هذه اللحظة».

«القصع؟ وما علاقته بكل هذا؟»

«يمتلك [redacted] بعض المعلومات الاستخبارية التي يريد أن تطلع عليها».

«حسناً، سأتحدث مع بوب. سنبقى هنا».

«بقي شيء أخير. تقضي تعليماتك الصادرة من القيادة العليا بتحديد من هم وراء الهجمات. سأقتبس هنا «بكل الوسائل الضرورية».

أجبتها: «سوف نعثر عليهم».

قالت دينا: «بقي أمرٌ آخر يا علي».

«أجل؟»

«أريدك أن تحرص على سلامتك».

هرعت إلى بوب الذي كان ينتظرني قبل الصعود إلى الطائرة، وكررت أمامه التعليمات التي تلقيتها لتوي. قلت له: «بأي الوسائل الضرورية». أعطيته هكذا الأمر المحدد الذي تلقيته. أومأ بكل جدية. جمعنا زملاءنا في مكتب التحقيقات الاتحادي وNCIS الذين كانوا ينتظرون الصعود إلى الطائرة وأبلغناهم بالتغيّر الذي طرأ على الخطة. قرر توم دونلون وستيف كوربيت، وهو المشرف الميداني على فريق NCIS» البقاء بدورهما للمساعدة في التحقيقات ، كما تطوع عميلان من فرقة إنقاذ الرهائن بالبقاء لتوفير الحماية لنا. صعد الآخرون إلى الطائرة بينما عدنا نحن إلى السفارة.

قال [redacted]: «دعونا نذهب إلى مكتبي». بقينا وحدنا أنا وإياه، ثم أقفل الباب. تناول ملفاً وناولني إياه بصمت.

رأيت داخل الملف ثلاث صور لنشطاء من القاعدة أُخذت في كوالالامبور. [redacted] ، كما ظهر تاريخ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠ على تلك الصور التي قدمتها إلى وكالة الاستخبارات المركزية وكالة [redacted] الماليزية.

حدّقت نحو دقيقة من الزمن بهذه الصور والتقرير المرفق بها، لكنني عجزت عن تصديق ما تمسكه يداي. سبق لنا أن سألنا وكالة الاستخبارات المركزية مراراً، وأثناء

التحقيقات في الهجوم على كول، عمّا إذا كانت تعرف شيئاً عن سبب وجود خلاد في ماليزيا، وعمّا إذا كانوا يعرفون رقم الهاتف العمومي في كوالالمبور، والذي نشتبه باستخدامه. كانوا يقولون لنا في كل مرة سألنا فيها - في تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٠، ونيسان/أبريل من العام ٢٠٠١، وتموز/يوليو من العام ٢٠٠١ - إنهم لا يعرفون أي شيء.

وجدت جواباً مختلفاً تماماً في هذا الملف: عرفت الوكالة، في الواقع، ومنذ كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٠ أن خلاداً قد التقى عملاء آخرين من القاعدة في ماليزيا. امتلكت الوكالة صوراً عن اجتماعهم بالإضافة إلى تقرير مفصل لدخولهم وخروجهم من [redacted] الماليزية.

وبالنسبة إلى رقم الهاتف فقد اعتبر [redacted] أنه هاتف عمومي كان يستخدمه جميع نشطاء القاعدة للتواصل مع زملائهم في كل الأمكنة الأخرى. كان كشك ذلك الهاتف يقع قبالة شقة خاصة يمتلكها أحد المتعاطفين مع القاعدة في ماليزيا، وهي الشقة التي كان يمكث فيها كل أعضاء القاعدة في تلك البلاد. كان استنتاجنا صائباً بأن خلاداً كان يستخدم هذه الشقة.

أورد [redacted] عن أسفار خلاد: حاول [redacted] السفر جواً إلى سنغافورة، لكنه مُنع من السفر لأنه لا يمتلك تأشيرة دخول. عاد إلى شقة كوالالامبور، ثم سافر إلى بانكوك. أما [redacted] فأورد أن خلاداً كان يستخدم جوازاً يمنياً مزوراً باسم سعيد بن صالح.

[redacted] الذي أعطي إلى وكالة الاستخبارات المركزية بواسطة الماليزيين في شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٠. أما نحن فلم نتسلّم أي شيء، وذلك بالرغم من أننا سألنا عن خلاد تحديداً وذلك الهاتف العمومي وعلاقتهما بالتحقيقات الجارية بشأن كول والأمن القومي. اكتشفت في ما بعد أن هذه الصور الثلاث [redacted] التي أعطاها لي [redacted] كانت تلك التي عُرضت من دون شرح

على ستيف وزملائي في التحقيقات حول كول في ١١ حزيران/يونيو من العام ٢٠٠١ خلال الاجتماع الذي عُقد في نيويورك. سأل فريق التحقيق في كول عن الصور ـ عن هوية الأشخاص، وعن سبب التقاط تلك الصور، وغير ذلك ـ لكن [redacted]، وهو مسؤول وكالة الاستخبارات المركزية الذي كان حاضراً، لم يقل أي شيء.

اشتمل الملف كذلك على [redacted] الذي تحدث عن أن خلاداً سافر بالدرجة الأولى إلى بانكوك مع خالد المحضار ونواف الحازمي. علمنا بعد وقتٍ قصير أن الرجال كانوا مدرجين كمسافرين على رحلة أميركان آيرلاينز رقم ٧٧، وهي رحلة الطائرة التي ضربت البنتاغون. وبحسب الترتيب الزمني الوارد في التقرير فقد كان من الواضح أنه في اليوم الذي تلا اجتماع القصع ونبراس مع خلاد، أي عندما أعطياه مبلغ ٣٦,٠٠٠$، فإن المحضار وحازمي اشتريا تذاكر سفر بالدرجة الأولى إلى الولايات المتحدة. هل استُخدم مبلغ ٣٦,٠٠٠$ من أجل شراء تذكرتيهما؟ وهل كان المقصود هو استخدام ما تبقى من المبلغ في الولايات المتحدة؟ قال لي حدسي إن الجواب بالإيجاب.

بدأت يداي بالاهتزاز، ولم أعرف بماذا أفكر. قال [redacted] بينما كان يلاحظ ردة فعلي: «أرسلوا لنا هذه التقارير للتو». خرجت من الغرفة، وهرعت نزولاً نحو غرفة الحمام، ثم سقطت على الأرض في حالة أقرب إلى الجمود، وهناك تقيأت.

جلست على الأرض لدقائق قليلة، لكنني خلتها ساعات طويلة. تردد في ذهني ما رأيته لتوي مرة بعد أخرى. بقيت فكرة واحدة تتردد في ذهني: «إذا كانوا يمتلكون كل هذه المعلومات منذ شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٠، فلماذا، بحق السماء، لم يعطوها لنا؟» بدأ كامل جسدي بالارتجاف.

سمعت أحد عملاء SWAT يسألني: «هل أنت بخير يا علي؟» رآني الرجل وأنا أركض نحو غرفة الحمام وتبعني.

«إنني بخير».

تحاملت على نفسي حتى وصلت إلى المغسلة، وهناك غسلت فمي، ورششت بعض الماء على وجهي. غطيت وجهي بورق المناشف للحظات قليلة. كنت ما أزال أحاول استيعاب حقيقة أن المعلومات التي طلبتها عن كبار نشطاء القاعدة، وهي المعلومات التي زعمت وكالة الاستخبارات المركزية أنها لا تعرف شيئاً عنها، هي التي كانت في واقع الأمر بين أيدي الوكالة منذ شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٠.

سألني عميل SWAT: «ما الخطب يا صاحِ؟ ماذا أخبروك بحق السماء؟»

«كانوا يعرفون، كانوا يعرفون».

جاء عميل آخر ليعرف ماذا يجري فأخبرته بما يجري، وحدّثته عن السبب الذي أُمرنا لأجله بالبقاء في اليمن. تعانقنا ثم خرجنا.

عدت إلى الممر قاصداً مكتب [redacted] لأخذ الملف. سألني ما إن دخلت: «علي؟» حدّقت في وجهه مباشرة فلاحظت أنه يتورد خجلاً، وبدا مضطرباً. كان من الواضح أنه فهم أهمية ما أخفته عنا الوكالة.

لم أشعر برغبة في إطلاق لعبة إلقاء اللوم. كانت نيويورك وواشنطن ما تزالان تحت النيران، كما فُقِد عددٌ من زملائي، ولهذا يتوجب علينا جميعاً التركيز على الإمساك بأولئك المسؤولين عن تلك الهجمات. سألته: «هل أخفيتم عنا أي شيء آخر؟»

لم يقل أي شيء، وهكذا خرجت من المكتب حاملاً الملف بيدي.

توجهت إلى الغرفة التي كان يعمل فيها توم دونلون، وبوب ماكفادين، وستيف كوربيت، ووضعت الملف على الطاولة. قلت: «أعطاني [redacted] هذا للتو».

نظر بوب نحوي ولاحظ ملامح الغضب التي تسيطر على وجهي. لم يقل أي شيء واكتفى بإلقاء نظرة على الملف. راح يتصفح محتويات الملف ثم التفت

نحوي غاضباً. «لا يمكنني تصديق هذا». كانت تلك كلماته الوحيدة التي قالها لي.

رأيت ملامح الصدمة كذلك على وجهَي توم وستيف ما إن تصفحا الملف. فاقت الصدمة حدود احتمالات أي واحد منا. قال بوب بصوتٍ يغلي غضباً: «والآن يريدوننا أن نستجوب القصع. كان من المفترض أن يعطونا هذا الملف قبل ثمانية أشهر».

كان عميل الـFBI الخاص أندريه خوري متمركزاً في مكانٍ آخر من الشرق الأوسط عندما صدمت الطائرتان البرجين التوأم، لكن أُعيد تعيينه بحيث ينضم إلينا في اليمن. أراد أندريه بعد اطلاعه على الملف مواجهة [redacted]، لكنني منعته من ذلك.

قال أندريه: «كانوا يعرفون! لماذا لم يخبرونا؟!»

قلت له: «أنت عل حق. إنني غاضب مثلك. صدّقني، لكن الوقت غير مناسب الآن لطرح تلك الأسئلة. سيعمد شخصٌ ما في المستقبل إلى طرح الأسئلة، وسوف يحصل على الإجابة عنها، لكن يتعيّن علينا الآن التركيز على المهمة التي هي بين أيدينا».

حضر ستيف بونغاردت وكيني ماكسويل اجتماعاً عبر الهاتف في نيويورك بعد ساعات قليلة من الهجمات، وهو الاجتماع الذي ضم مسؤولين في مركز قيادة مكتب التحقيقات في واشنطن العاصمة، بمن فيهم دينا كورسي، وأحد المشرفين في مكتب التحقيقات ويدعى رود ميدلتون. سأل كيني عمّا إذا كانت تتوافر أيّ أسماء للخاطفين المشتبه بهم. أجابت دينا بأنها تمتلك بعض الأسماء، وبدأت بقراءتها. لم تعنِ الأسماء القليلة الأولى شيئاً، لكن ستيف قاطعها عندما قرأت دينا اسم «خالد المحضار».

سأل بصوتٍ تزايد في العلو: «خالد المحضار. هل قلتِ خالد المحضار؟ هل هو الشخص ذاته الذي أخبرتِنا عنه؟ هل هو في القائمة؟»

تدخل ميدلتون هنا: «لقد فعلنا كل شيء بحسب الأصول يا ستيف».

أجاب ستيف: «أتمنى أن يجعلك هذا تشعر بارتياحٍ أكبر. مات عشرات آلاف الأشخاص». ضغط كيني على زر الإسكات في الهاتف وقال لستيف: «الوقت غير مناسب لهذا الآن. سيكون هناك متسعٌ لهذا في ما بعد، لكن ليس الآن».

اتصل ستيف بي في اليمن بعد عودة الاتصالات المنتظمة مع نيويورك، وكرّر المحادثة على مسامعي. «أتمنى أن يكونوا سعداء لأنهم عملوا بحسب الأصول».

ظلت المعلومات التي عرفتها وكالة الاستخبارات الأميركية قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر والتي أخفتها عن مكتب التحقيقات، تتسرّب إلينا على مدى الأيام، والأسابيع، والأشهر القليلة التالية. أبلغت وكالة الأمن القومي وكالة الاستخبارات المركزية في العام ١٩٩٩ بأنها علمت، ونتيجة لمراقبة رقم هاتف أحمد الحداء أن عدة أعضاء في القاعدة قد أعدوا الخطط للسفر إلى كوالالامبور في أوائل كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٠. عرفتهم الوكالة بأسماء «نواف»، و«خالد» و«سالم». تعرفت وكالة الاستخبارات المركزية إلى خالد بوصفه خالد المحضار وهو زوج ابنة الحداء، كما تتبعته الوكالة بعد وصوله إلى كوالالامبور في ٥ كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٠.

عقدنا بعد نجاحنا في كشف مركز التحويل الهاتفي للحداء خلال تحقيقات العام ١٩٩٨ حول تفجيرات السفارتين، اتفاقية عملانية مع وكالة الاستخبارات المركزية، وهي اتفاقية سمحت لنا بمراقبة الرقم وتبادل المعلومات الاستخبارية في ما بيننا. لكنهم لم يطبقوا الاتفاقية.

علمنا كذلك أن المحضار قد توقف في دبي في طريقه إلى كوالالامبور. [redacted]. حمل جواز سفره تأشيرات دخول متعددة إلى الولايات المتحدة. مررت وكالة الاستخبارات المركزية هذه المعلومة إلى وكالات استخبارات أجنبية لكنها لم تُبلغ مكتب التحقيقات الاتحادي، أو دائرة الهجرة والتجنيس، أو وزارة الخارجية.

لم يدخل اسم المحضار في قائمة الإرهابيين بسبب عدم علم أي وكالة أميركية بأمره. كان ذلك هو سبب عدم منعه من دخول الولايات المتحدة، أو حتى إخضاعه للاستجواب. أما شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٠ فقد علمت فيه وكالة الاستخبارات المركزية أن نوافاً الحازمي قد سافر بدوره إلى مطار لوس آنجلوس الدولي في ١٥ كانون الثاني/يناير، لكن، لا وزارة الخارجية، ولا دائرة الهجرة والتجنيس، أبلغتانا بذلك مجدداً.

وفي حزيران/يونيو من العام ٢٠٠٠ غادر المحضار كاليفورنيا وعاد إلى اليمن لزيارة عائلته بعد ولادة ابنةٍ له. سافر بعد ذلك إلى المملكة العربية السعودية وأفغانستان قبل العودة مجدداً إلى مكة في شهر حزيران/يونيو من العام ٢٠٠١. عاد المحضار إلى الولايات المتحدة في ٤ تموز/يوليو، ٢٠٠١. لم يوقفه أحد في المطار لأن وكالة الاستخبارات المركزية لم تُعلمنا بأمره.

حصل المحضار على تأشيرة دخولٍ جديدة في يوم ١٣ حزيران/يونيو، أي بعد مرور يومين على اجتماع ١١ حزيران/يونيو، وهو الاجتماع الذي رفض فيه [redacted] ، وهو المشرف في وكالة الاستخبارات المركزية، الإجابة عن كل الأسئلة التي طرحها ستيف، وفريق التحقيقات في هجوم كول، حول المحضار.

استخدم المحضار والحازمي أثناء وجودهما في الولايات المتحدة اسميهما الحقيقيين للحصول على إجازات قيادة السيارات ولفتح حسابات مصرفية. وصل الأمر بحازمي إلى تسجيل سيارته كما ورد اسمه في دليل هاتف سان دييغو. استخدم كذلك بطاقة ائتمانه لشراء تذاكر السفر له ولشقيقه سالم على متن الرحلة ٧٧ لشركة أميركان آيرلاينز.

لم يعلم مكتب التحقيقات، ودائرة الجمارك، ووزارة الخارجية بوجود المحضار في الولايات المتحدة حتى يوم ٢٣ آب/أغسطس، ٢٠٠١.

اقترب القمش الذي كان برفقة مساعده نبيل سنباني، مني وعانقني. لاحظت

في عينيه أمارات القلق والحزن الحقيقيين. قال لي بعد أن تركني: «إنها أخبار فظيعة. هل الجميع بخير؟» كان يشير إلى الأميركيين الكثر الذين التقاهم في إطار التحقيقات في حادث تفجير كول.

هززت رأسي. جعلني سؤاله أشعر بالاختناق، واستغرقني الأمر لحظاتٍ عدة قبل أن أتمكن من الرد. شعرت بألم في حنجرتي وأنا أقول: «جون... الأخ جون مفقود، بالإضافة إلى زملاء آخرين». لاحظت عندها علامات الحزن الحقيقي على قسمات وجه القمش.

أبلغناه بآخر الأخبار الواردة من نيويورك وواشنطن. تحدثت التقارير في ذلك الوقت عن مقتل خمسين ألف شخص، فظننا أن هذا العدد يشمل عدداً من زملائنا الذين كانوا في الجوار، والذين فقدنا الاتصال معهم. كانت مشاعر التأثر تغمر كل واحدٍ منا ونحن نتحدث عن الأمر. أعطانا نبيل مناديل ورقية لمسح دموعنا.

سألني القمش بعد انتهائي من إعطائه المعلومات: «كيف يمكنني أن أساعدك يا أخي علي؟»

قلت: «أريد التحدث مع القصع. أعتقد أنه يمتلك معلومات عن الهجمات، وأريد مقابلته».

ردّ القمش على الفور: «سأستدعيه لك».

تناول سماعة الهاتف واتصل بمكتب المسؤول الأمني في عدن، ثم تحوّلت إلى عنسي الذي كنا نعرفه جيداً بسبب تحقيقات كول.

قال القمش لعنسي: «ضع القصع على أول طائرة قادمة إلى صنعاء. يريد علي أن يقابله».

نشب جدال بين الاثنين بعد ذلك، وما لبث أن ارتفع صوت القمش، وقال بلهجة غاضبة: «لا أكترث بذلك. لا أريد أن تطير الطائرة من دونه. اسمعني جيداً...»

التفت القمش نحوي عندما أنهى المكالمة، وقال: «لا تقلق، سأتأكد من إحضار القصع إلى هنا». لم نفاجأ بمحاولة عنسي منعنا من استجواب القصع. أوضح الرجل مشاعره خلال تحقيقات كول.

اتصل القمش بعد ذلك بالمطار وأصدر أمراً إلى المسؤول عن الأمن الرئاسي الموجود هناك. «أريدك أن تبحث عن آخر قائد طائرة ستقلع من عدن إلى صنعاء ودعه يتصل بي على الفور». رن هاتف القمش بعد دقائق قليلة. قال المسؤول الأمني إنّ القبطان على الخط.

قال القمش لقائد الطائرة: «أريد إحضار سجين إلى طائرتك. لا تقلع من دونه، ودع الطائرة تنتظر إذا تأخر».

كان من الواضح أن القمش يعتقد أن عنسي سوف يتعمد إحضار القصع متأخراً إلى المطار بحيث تفوته الطائرة. كان على حقٍ في هذا، لأن عنسي أحضر القصع متأخراً. فوجئ عنسي عندما اكتشف أن الطائرة تنتظر في المطار.

توجهت في وقتٍ متأخر من مساء يوم ١٢ أيلول/سبتمبر برفقة بوب إلى أحد أبنية حرس الأمن الرئاسي لمقابلة القصع. أُحضر الرجل من المطار مباشرة، لكن ما إن رآنا جالسين بانتظاره حتى بدأ بالصراخ: «ما هذا؟ إذاً، هل تلقون اللوم عليّ إذا ما حدث أي شيء في نيويورك أو واشنطن؟»

قلت له: «اهدأ قليلاً. كيف عرفتَ أننا سوف نسألك عن هذا الأمر؟» التزم القصع بالصمت، ويبدو أن سؤالي قد فاجأه. قلت له: «كنت سأسألك عن كول في الواقع، لكن بما أنك أثرت الموضوع، هل لك أن تقول لنا ما تعرفه؟» تهالك القصع على مقعده.

قرأنا تحذير ميراندا على القصع، لكنه آثر التخلي عن حقوقه، ثم بدأنا باستجوابه. «إذاً قل لنا ما تعرفه عما جرى؟»

«لا أعرف أي شيء».

قلت له: «حسناً، لكنك تعرف أشياء عن القاعدة، أليس كذلك؟»

«أجل، لقد ناقشنا ذلك من قبل».

«حسناً، سنعود الآن إلى موضوع كول.

طرحت على القصع سلسلة من الأسئلة دارت حول تسليمه المال إلى خلاد في بانكوك. عرضت عليه الصور الثلاث التي أعطاني إياها [redacted]، وكانت إحداها لخالد المحضار- وهي الصورة التي التقطت في ماليزيا. لم يتعرف إلى الرجل على أنه المحضار، بل قال إنه يعتقد أنه يبدو كأنه خلاد.

استلزمنا الأمر قدراً كبيراً من ضبط النفس للحفاظ على هدوئنا أثناء استجواب القصع. يُحتمل كثيراً أن يكون مبلغ ٣٦,٠٠٠$ الذي سلّمه إلى خلاد من اليمن قد استُخدم في هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ولربما استُخدم لشراء تذاكر اثنين من الخاطفين وهما الحازمي والمحضار. أما نحن فقد علمنا لتونا من وكالة الاستخبارات المركزية أن هذين الرجلين كانا مع خلاد في بانكوك، وأنهما سافرا من هناك إلى لوس آنجلوس. عرضنا على القصع بعد ذلك صوراً لنشطاء القاعدة وطلبنا منه التعرّف إلى أولئك الذين يعرفهم. كان بعض المحلّلين في واشنطن مقتنعين بأن القصع ظهر في تلك الصور [الثلاث]، وذلك بالرغم من أنني أمضيت أنا وبوب ساعات عدة مع القصع ونعرف أن الأمر ليس كذلك. أراد المحققون منا بالرغم من ذلك أن نطلب من القصع التعريف بصوره. استعرضنا جميع الصور واخترنا الشخص الذي اعتبرناه القصع. لاحظ ذلك وأبلغنا: «أعرف ما تفكرون فيه. هذا ليس أنا. إنه يشبهني، لكنه ليس أنا». اشتملت الصور على أولئك الذين اشتبهنا بأنهم الخاطفون، لكننا لم نوضح له أهميتها. تعرف القصع إلى عدد كبير من أعضاء القاعدة، لكنه لم يتعرف إلى أي صورة للخاطفين المحتملين ما عدا واحدة. قال لنا: «هذا هو مروان الشِّحي». كان الشِّحي على متن الرحلة يونايتد آيرلاينز ١٧٥. اشتبهنا بأن يكون الشِّحي أحد الخاطفين، لكن لم نمتلك دليلاً يُثبت ذلك في تلك المرحلة. ساعد القصع على تقديم الإثبات عندما تعرف إليه بأنه عضو في القاعدة.

قلت بغير اكتراث: «حسناً، لكن كيف تعرفت إليه؟»

«مكثت ذات مرة معه في مركز الضيافة ذاته في أفغانستان».

«وبعد ذلك؟»

«كنا في شهر رمضان، ويبدو أن الشِّحي خضع لعملية تصغير معدة لمساعدته على فقدان الوزن، لذلك كان الصيام خطيراً بالنسبة إليه، لكنه قرر أن يصوم على أي حال. زاد مرضه نتيجة لذلك، واضطر أمير مركز الضيافة إلى الاعتناء به».

«وهل حدث له شيء آخر؟»

«أتذكّر أنه وصل إلى أفغانستان مع صديق له اسمه الحركي عباس، لكنه قُتل خلال أحد التدريبات. يبدو أنه لم يعرف أن البندقية التي يستخدمها محشوة برصاصٍ حقيقي، وهكذا أطلق النار على نفسه». ضحك القصع عند هذا الحد.

سألته: «من كان الأمير في مركز الضيافة حيث التقيت بالشحّي؟» كنت أعرف الجواب بطبيعة الحال، لكنني أردته أن يلفظ الاسم أمام مسؤولي الأمن الرئاسي الذين كانوا حاضرين معنا.

أجابني: «أبو جندل».

طرحت على القصع عدة أسئلة إضافية حول أشخاصٍ آخرين، وذلك لأنني لم أرغب أن يعرف أهمية ما قاله لي للتو. اقترحت على اليمنيين أن نأخذ جميعاً فترة استراحة.

سبق لنا أن عرفنا من مصدرنا المجهول في أفغانستان أهمية أبي جندل بالنسبة إلى بن لادن. علمنا كذلك أن اليمنيين يحتجزونه. رفض اليمنيون السماح لنا باستجوابه في التحقيقات المتعلقة بالمدمرة كول، وقالوا إننا لا نمتلك دليلاً على علاقته بالهجوم على المدمرة. لكننا تمكنا الآن من حمل القصع على الربط ما بين أبي جندل وأحد خاطفي هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

أبلغتُ أحد مسؤولي الاستخبارات اليمنيين: «أريد أن أتحدث مع أبي جندل، وسريعاً!»

تابعنا استجواب القصع أثناء انتظارنا أبا جندل الذي أمضينا أربعة أيام بالتحدث إليه، وبحثنا كل تعاملاته مع أعضاء آخرين في القاعدة. كنا نستجوبه أثناء الليل ونمضي النهارات في التحضير للمقابلة التالية. شعرت في إحدى المراحل بأنني أكاد أنهار نتيجة التعب، وعندها نُقلت إلى غرفة الطوارئ، لكن ما إن استعدتُ عافيتي حتى خرجت من المستشفى وعدت إلى العمل.

كنّا نرتاح من الاستجواب لنكتب المعلومات التي استقيناها، ثم نقوم بإرسالها إلى واشنطن. وعندما أعلمنا مركز القيادة في مكتب التحقيقات بأننا عرضنا على القصع الصور الثلاث، وأنه أخطأ في التعرف إلى صورة المحضار وقال إنه خلاد، أبلغونا بأن وكالة الاستخبارات الأميركية قدمت لتوها صورة [redacted].

سألتُ بشيء من الإحباط: «أي صورة [redacted]؟ قولوا لي، كم عدد الصور؟»

«قالت لنا وكالة الاستخبارات المركزية إن هذه هي الصور كلها. توجد هناك صور [redacted]، لكننا ما زلنا نضغط عليهم. سنقول لك عندما نعرف».

أرسل لنا مركز القيادة صورة [redacted]، وكانت صورة خلاد وهو يتحدث بالهاتف في كشكٍ. أوردت [redacted] الماليزية في [redacted] الرقم المعيّن للهاتف في ذلك الكشك. كان ذلك هو الرقم الذي سألنا وكالة الاستخبارات المركزية عما إذا كانت تعرفه، وأجابت الوكالة بالنفي. أكّد القصع أنه تعرّف إلى الرجل الذي ظهر في صورة [redacted] بوصفه خلاد.

كانت صورة [redacted] بحوزة وكالة الاستخبارات المركزية عندما عُرضت الصور الثلاث [redacted] على ستيف بونغاردت وفريق التحقيق في الهجوم على كول في يوم ١١ حزيران/يونيو، ٢٠٠١. ولو عُرضت تلك الصور على فريق كول، وستيف، وعملاء آخرين في ذلك الاجتماع، لكانوا تعرّفوا إلى الرجل الظاهر في الصورة على

أنه خلاد. كنا نعرف بالضبط شكل خلاد نتيجة تحقيقات كول. وكذلك لو علمنا أن وكالة الاستخبارات المركزية تمتلك صورة خلاد في حزيران/يونيو ٢٠٠١، وأنها كانت تراقبه، إذاً لكنا توجهنا مباشرة إلى مركز القيادة [في FBI] وقلنا إن وكالة الاستخبارات المركزية قد كذبت عندما قالت إنها لا تعرف شيئاً عن خلاد، ولكنا طالبناها بتسليم كل المعلومات المتوافرة عنه.

أما لو حدث كل ذلك لكان، على أقل تقدير، مُنع خالد المحضار من دخول الولايات المتحدة في يوم ٤ تموز/يوليو، ٢٠٠١، ولكان أُلقي القبض على نواف الحازمي، وهو مساعد عطا. كان ذلك أقل ما يُمكن حدوثه.

أما الذي أثار غضبنا أنا وبوب الآن فهو أن خطأ القصع في التعرّف إلى المحضار وقوله إنه لربما يكون خلاد، كان هو السبب الوحيد الذي دفع بوكالة الاستخبارات المركزية لأن تعرض صورة [redacted]. أما الآن وبعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، فإن الوكالة لا تعطينا المعلومات بالشكل المطلوب. تساءلنا عمّا إذا كانت الوكالة تحجب عنا صوراً أخرى عن اجتماع ماليزيا.

آب/أغسطس ٢٠٠٣. قال لي كيفن كروز عند اقترابه من طاولتي: «انتبه يا علي يبدو أنهم يطلبون رأسك». كان كيفن قد خرج لتوّه من اجتماع مع لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

سألته: «ماذا تعني؟"

«إنهم يطرحون أسئلة كثيرة عنك. يبدو أن أصدقاءك في لانغلي كانوا يتحدثون عنك. أريد منك أن تأخذ حذرك عندما تجتمع معهم غداً». كان من الواضح أن مسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية وهم المسؤولون عن حجب المعلومات في فترة ما قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر عنا، كانوا متوترين بشأن ما سأقوله، وكانوا يحاولون تشويه سمعتي. كان من المؤسف أنهم يمضون أوقاتهم بهذه الطريقة، وذلك بدلاً من مواجهة الأخطاء والعمل على التأكد من عدم تكرارها، وها هم يحاولون التغطية على هذه الأخطاء ومحاربة مكتب التحقيقات الاتحادي بدلاً من ذلك.

«شكراً يا كيفن. سأفعل ذلك».

تشكلت اللجنة الوطنية حول الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة في أواخر العام ٢٠٠٢، وذلك بموجب قانون صدر عن الكونغرس، كما أوكلت إليها مهمة «تحضير رواية كاملة وتامة عن الظروف المحيطة بهجمات ١١ أيلول/سبتمبر، ٢٠٠١». وصل المحققون إلى نيويورك وتحدثوا في البداية مع كبار مسؤولي مكتب التحقيقات الاتحادي مثل كيفن كروز، وهو الذي كان أحد اثنين من المشرفين على تحقيقات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. تحدث المحققون في اليوم التالي مع العملاء الميدانيين.

كنت أول عميل قاموا باستدعائه. عرّف المحققون بأنفسهم وطرحوا بعض الأسئلة الأولية، وسألني أحد المحققين: «إذاً، أيها العميل صوفان، ما هو السبب الذي يجعل وكالة الاستخبارات المركزية تكرهك؟» صُدمت بهذا السؤال، التزمت بالصمت متفكراً في كيفية الإجابة عنه.

أجبتُ بعد قليل: «لا بد أنكم تتحدثون مع الأشخاص غير المعنيين هنا. الحقد كلمة كبيرة. لكن إذا أردتَ الحصول على إجابة عن سؤالك يمكنك أن توجه السؤال إليهم». بدأ أعضاء اللجنة بالضحك.

قال لي دوغلاس جاي ماك آيشن، وهو الذي أمضى ثلاثين سنة من حياته مع وكالة الاستخبارات المركزية: «دعنا نركزّ على القاعدة. هاك سؤالي: إذا أردتَ التدقيق في القاعدة كي تفهم الأمور التي حدثت، فمن أين تبدأ؟»

أجبته: «أبدأ بالعام ١٩٧٩».

أشرقَ وجهه عندما سمع جوابي، وقال: «أقول لك إنني مسرور جداً لأنك قلتَ ذلك. قال لنا كل الذين تحدثنا معهم إنهم يبدأون قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بقليل، أو مع تفجير السفارتين في شرق أفريقيا أو مع يو. أس. أس كول. لكنني أعتقد أنك على حق. قُل لي، لماذا اخترتَ العام ١٩٧٩؟»

شرحت له ما قلتُه لجون قبل سنوات، وشرحت له سبب أهمية العام ١٩٧٩، وما حمله من أحداث مثل الغزو السوفياتي لأفغانستان والثورة الإيرانية.

قال أحد أعضاء اللجنة: «هذا أفضل تفسير سمعته حتى الآن، شكراً لك. لكن لماذا لا تأخذنا الآن في جولة على ما حدث منذ العام ١٩٧٩، والقضايا التي عملتم على التحقيق فيها».

حدّثتهم عن سلسلة من القضايا بما في ذلك تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا، وعملية التحدي، وهجمات الألفية التي تمكنا من إحباطها في الأردن، وتفجير المدمرة يو. أس. أس كول. أحسست بتغيّر في العلاقة في ما بيننا أثناء هذه المناقشة. يبدو أن أحدهم في وكالة الاستخبارات المركزية قد أعطاهم صورة مشوهة عني، لكنهم أدركوا الآن أنني أعرف عملي، ولا شك في أنهم بدأوا عملية إعادة تقييمي في أذهانهم.

أنهيت حديثي بأن قلت لهم إننا سألنا وكالة الاستخبارات المركزية، وفي سياق عملنا على التحقيق في كول، عن خلاد ونشطاء آخرين من القاعدة في ماليزيا، وأنهم أنكروا أنهم يعرفون شيئاً عنهم. ذكرت كذلك أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تعرف في شهر كانون الثاني/يناير أن الخاطف خالد المحضار حاز على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة، كما كانت تعرف في شهر آذار/مارس أنه موجود في الولايات المتحدة، لكنهم لم يعطوا هذه المعلومات إلى مكتب التحقيقات الاتحادي حتى شهر آب/أغسطس من العام ٢٠٠١.

تدخل أحد المحققين ليقول: «أبلغتنا وكالة الاستخبارات المركزية، كما أبلغوا لجنة التحقيق المشتركة التي شكّلها الكونغرس من قبل، بأن مكتب التحقيقات أُبلغ بوجود خلاد في ماليزيا، وأن مكتب التحقيقات أُبلغ بوجود خالد المحضار والحازمي هنا». (حُكم بالفشل على اللجنة المشتركة الناظرة في أنشطة مجتمع الاستخبارات قبل وبعد الهجمات الإرهابية في ١١ أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠١، أو JIICA-TAS «911»، تحت إشراف اللجنة المنتخبة من مجلس الشيوخ حول الاستخبارات، وكذلك

اللجنة الدائمة المنتخبة من مجلس النواب حول الاستخبارات، وذلك ما بين شهري شباط/فبراير ٢٠٠٢ وكانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠٢. كان ذلك هو سبب تشكيل لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر غير الحزبية).

أجبت: «هذا غير صحيح، وبإمكانكم التدقيق في كل الملفات التي لدينا لتتأكدوا من عدم وصول هذه المعلومات إلينا. تعلمون أن أي معلومات نتلقاها ستكونُ في هذه الملفات. تعمل الحكومة بطريقة إلكترونية، وهناك سجل لكل شيء. ستجدون في ملفات المدمرة يو. أس. كول كل الطلبات التي تقدمنا بها، وكذلك الردود التي تلقيناها والتي يقولون فيها إنهم لا يمتلكون أي معلومات».

«إننا نرغب في التدقيق في كل ملفات يو. أس. كول».

«بكل تأكيد. إننا نمتلك ملفات كثيرة. يُمكن للأمر أن يستغرق أياماً عدة».

«هذا ليس بمشكلة أبداً، لأنّ لدينا أشخاصاً كُثُراً ليدققوا فيها».

استدعيت أحد زملائي في مكتب التحقيقات، وطلبتُ منه إحضار كل الملفات المتعلقة بالمدمرة يو. أس. كول إلى المحققين. كانت لدينا ملفات حول كل شخص له علاقة بالهجمات، وكل شاهد قمنا باستجوابه، وكل مسرح جريمة حققنا فيه. اشتملت هذه السجلات على ملفات سميكة تحتوي على المعلومات التي أرسلناها إلى وكالة الاستخبارات المركزية. يوجدُ أيضاً ملفٌّ منفصل يحتوي على المعلومات التي أعطتنا إياها وكالة الاستخبارات المركزية وكان ملفاً صغيراً جداً على أي حال.

أخذنا فترة من الراحة بينما كانت الملفات تُنقل إلى المكتب، ومضيت كي أتحدث مع بات دامورو. رأيت دامورو مع جو فاليكويت، وهو المتحدث باسم مكتب التحقيقات. سألني بات: «كيف تسير الأمور يا علي؟»

«إن التحدي الذي أواجهه هو أنهم يدّعون أن وكالة الاستخبارات المركزية أعطتنا المعلومات عن وجود المحضار وخلاد في ماليزيا».

أجاب بات: «لكنهم لم يفعلوا ذلك».

«بالتأكيد يا سيدي، كما أننا نمتلك في ملفات يو. أس. أس. كول كل الوثائق التي تثبت ذلك. لكن ما أريد معرفته هو ما إذا كان مكتب التحقيقات لا يمانع بأن أشير للمحققين أين يبحثون بالضبط، وإن لم أفعل ذلك فإنهم سيضطرون إلى البحث في مئات الملفات».

أجاب بات: «بالتأكيد، يمكنك أن تعطيهم كل ما يريدونه ويحتاجونه».

كان ذلك تغيراً ملحوظاً في طريقة تعامل المكتب مع لجنة التحقيق المشتركة، حيث أُبلغ العملاء بأن قيادة مكتب التحقيقات ستتقبل «اللوم» عن الحادي عشر من أيلول/سبتمبر لكي لا تزعج أي شخص في وكالة الاستخبارات المركزية وتتسبب بإحداث صدمة. أغضب ذلك القرار العملاء الذين كانوا في الخطوط الأمامية في مواجهة القاعدة، والذين عرفوا أن الحقيقة مختلفة جداً. عدت إلى الغرفة التي اجتمع فيها محققو اللجنة، لكنني شعرت بأنني طليق اليد هذه المرة.

استُدعيت في مرحلة ما من مناقشاتي مع لجنة محققي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر إلى مكتب مساعدتي بالوكالة، العميلة الخاصة آمي جو ليونس. قالت لي: «إننا نتلقى شكاوى من وكالة الاستخبارات المركزية حول الأمور التي تقولها للجنة». بدا لي أن المحققين عادوا إلى وكالة الاستخبارات المركزية وطرحوا أسئلة جديدة عليها. يبدو أن وكالة الاستخبارات المركزية قد اشتكت إلى مركز قيادة مكتب التحقيقات الاتحادي.

أجبتُ آمي: «لا مانع لدي أنا شخصياً، لكن إذا كان المسؤولون في مركز القيادة غير راضين عن إبلاغي اللجنة بما حدث فعلاً، فإنهم يستطيعون أن يقولوا لي كتابةً بأن لا أتعامل معها».

قالت آمي: «كلا، كلا. أردت فقط أن أعرف ماذا يجري هنا»؟

قلت لها: «الأمر بسيط. بدأت اللجنة بطرح أسئلة حول كول والحادي عشر من

أيلول/سبتمبر، فأدركت بسرعة أنهم أُبلغوا بسلسلة من الأكاذيب. وافق بات على أن أعرض عليهم الوثائق الحقيقية مع اللجنة وأوضحت لهم ماذا حدث حقيقة».

أجابت آمي: «إذا كانت الحال كذلك فأنت لم تقترف أي خطأ، أي أنك فعلتَ كل ما يتوجب عليك فعله».

عندما نشرت لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر نتائج تحقيقاتها تبيّن أن كل ما قلته لها كان صحيحاً ونتيجة تلك التحقيقات كان أبرز ما ورد في الصفحة ٣٥٥ من التقرير، وتحت عنوان «الفرص العملانية":

كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠: لم تُقدم وكالة الاستخبارات المركزية على وضع خالد المحضار على قائمة المراقبين، كما أنها لم تُخطر مكتب التحقيقات الاتحادي عندما علمت أن المحضار يمتلك تأشيرة دخول صالحة إلى الولايات المتحدة.

كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠: لم تضع وكالة الاستخبارات المركزية خطة قومية لتتبع المحضار ورفاقه، بحيث يمكن تتبع خطواتهم إلى بانكوك وما بعدها، بما في ذلك الولايات المتحدة.

آذار/مارس ٢٠٠٠: لم تضع وكالة الاستخبارات المركزية نواف الحازمي ضمن قائمة الخاضعين للمراقبة، أو تبلغ مكتب التحقيقات عندما علمت أنه يمتلك تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة، وأنه سافر جواً إلى لوس أنجلوس في ١٥ كانون الثاني/يناير، ٢٠٠٠.

كانون الثاني/يناير ٢٠٠١: لم تُعلم وكالة الاستخبارات المركزية مكتب التحقيقات الاتحادي بالمصدر الذي تعرّف إلى خلاد، أو توفيق بن عطاش، وهو الذي أدّى دوراً بارزاً في التفجير الذي تعرضت له المدمرة يو. أس. كول في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٠، وبسبب حضوره الاجتماع في كوالالامبور مع خالد المحضار.

أيار/مايو ٢٠٠١: لم يُقدم أحد من المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية

على إعلام مكتب التحقيقات بشأن تأشيرة دخول المحضار إلى الولايات المتحدة، وبشأن سفر الحازمي إلى الولايات المتحدة، أو حضور خلاد اجتماع كوالالامبور (وهو الذي تم التعرّف إليه عند مراجعته كل المراسلات المهمة التي جرى تبادلها بشأن المستوى العالي للتهديدات).

حزيران/يونيو ٢٠٠١: لم يحرص مسؤولون في مكتب التحقيقات الاتحادي ووكالة الاستخبارات المركزية على إعطاء كل المعلومات المتعلقة باجتماع كوالالامبور لمحققي المدمرة كول خلال اجتماع ١١ حزيران/يونيو.

توصل تقرير المفتش العام في وكالة الاستخبارات المركزية في أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر إلى الاستنتاجات ذاتها والمتعلقة بأخطاء وكالة الاستخبارات المركزية، وفشلها في تمرير المعلومات الاستخبارية. ورد في التقرير: «كان من الممكن أن يؤدي وضع المحضار في لائحة الخاضعين للمراقبة إلى منعه من العودة إلى البلاد في شهر تموز/يوليو من العام ٢٠٠١. كان من شأن إعلام مكتب التحقيقات، والمتابعة الجيدة من قِبل وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات، أن يؤدي إلى مراقبة المحضار والحازمي، وبالتالي أن يؤدي إلى الحصول على معلومات حول التدرّب على الطيران، والتمويل، والعلاقات مع الآخرين المتواطئين في هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر». يمضي التقرير إلى القول: «إن واقع فشل عدد كبير من الأشخاص في التحرك في هذا الاتجاه يعكس عجزاً منهجياً». أوصى المفتش العام بتشكيل «مجلس تحديد المسؤوليات لمراجعة أداء رؤساء CTC». (لم يتشكل بالفعل).

استمرت مناقشاتي مع محققي لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وبدأنا بالحديث عن «المصدر» في أفغانستان.

«إنه مصدر لمكتب التحقيقات الاتحادي حصلنا عليه قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. اتفقنا على أن يكون هذا المصدر مشتركاً بيننا وبين وكالة الاستخبارات

المركزية. قضت اتفاقيتنا معهم بشأن ذلك المصدر بإعطائنا أي معلومات تصدر عنه، وهو مصدر مختص بالتحقيقات الجنائية».

«وماذا حدث؟»

«علمنا بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أن وكالة التحقيقات المركزية قد غافلتنا وعرضت صور قمة ماليزيا - وهي الصور التي رفضوا إعطاءنا إياها - على المصدر. لم تخبرنا الوكالة بأنها عرضت الصور عليه، وكذلك لم تبلغنا بما أخبرهم عن تلك الصور. لم يعرف المصدر أن وكالة الاستخبارات المركزية لا تمرر تلك المعلومات إلى مكتب التحقيقات الاتحادي، كما أن الوكالة لم توضح له سبب أهمية هذه الصور. وعندما عُرضت صور ماليزيا على المصدر في شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠١، قال لهم إنه لا يستطيع تحديد المحضار، لكنه كان متأكداً بنسبة ٩٠ بالمئة من أن الشخص الآخر هو خلاد.

«لم يبلغونا بهذه المعلومات. يبرهن هذا الأمر أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تعرف أهمية ماليزيا، وخلاد، والمحضار، لكنها عمدت إلى مخالفة الأصول لتحجب المعلومات عنا. لا يتعلق الأمر بعدم تمرير المعلومات فقط. كانت تلك هي المعلومات التي كان يجب أن يعرفها ممثل مكتب التحقيقات الاتحادي الذي يعمل مع المصدر. كانت تلك ضرورة قانونية كذلك. لكنهم أبعدونا عمداً عما يجري.

ردّ أحد أعضاء اللجنة بالقول: «أبلَغنا مركز مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات المركزية بأنهم أعطوا كل المعلومات التي بحوزتهم من المصدر إلى مكتب التحقيقات الاتحادي، وأنهم لم يحجبوا أي شيء».

توقفت للحظة، وسألت مفكراً بصوتٍ عالٍ: «هل تفحصتم كل البرقيات المنتظمة؟»

«أجل».

«هل تفحصتم المراسلات العملانية؟»

قال دوغ مع ابتسامة عريضة: «لا بد أن هذا يفسر كل شيء». فهم دوغ أولاً النقطة التي أردت التركيز عليها، لكنه تلقى نظرات تساؤل من الموظفين الآخرين. شرحها لهم بعد ذلك.

تشير المراسلات العملانية إلى البرقيات المرسلة خلال عمليةٍ ما. يقوم الموظف خلالها بإيراد الإجراءات المتبعة، ثم يقوم بالتسجيل تحسباً لوقوع خطأ ما، أو ظهور أمر يتطلب الإشارة إليه. تُعتبر هذه البرقيات إجرائية تحديداً، ولا تتعلق بالاستخبارات، ولذلك لا تُرسل إلى مكتب التحقيقات الاتحادي. وإذا أراد أحدهم إخفاء أي شيء عن مكتب التحقيقات يقوم بوضعه هناك. سبق لدوغ أن عمل في وكالة الاستخبارات المركزية لذلك فهو يعرف مكان وجود البرقيات العملانية بينما قد يجهل باقي أعضاء الفريق ذلك.

توصلت لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وبعد التحقيق بهذه الحادثة، إلى أن هذه المعلومات الاستخبارية مخبأة بالفعل مع المراسلات العملانية.

تحدث مع اللجنة من بعدي أحد زملائي في مكتب التحقيقات في نيويورك، وهو فرانك بيليغرينو. قال أحد العاملين في اللجنة إن المحققين «عجزوا عن الوصل ما بين النقاط».

رد فرانك بغضب: «أي نقاط؟ ليس هناك من نقاط لوصلها! كل شيء موجود هناك، ومكتوب أمامهم».

طلبت مني لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر في ما بعد السفر إلى واشنطن مع دان كولمان، وديبي دوران، وعدد قليل من مسؤولي مكتب التحقيقات الاتحادي، وذلك بهدف تسليم ملخصٍ حول القاعدة إلى اللجنة الكاملة. تمثلت وكالة الاستخبارات المركزية ببعض المحلّلين، كما ترأس الاجتماع المدير الأعلى للجنة، فيليب زيليكاو.

أما دوغ ماك آيشين، وهو مسؤول سابق في وكالة الاستخبارات المركزية، والذي ساندني بعد اجتماعنا في نيويورك، فقد طلب مني مسبقاً تقديم الملخص ذاته الذي سبق لي أن قدّمته من قبل، وهو ما فعلته. قدم محلّلو وكالة الاستخبارات المركزية بعد ذلك عرضاً حول تركيبة القاعدة.

سألني أحد أعضاء اللجنة: «هل هذا العرض دقيق؟»

«كلا. توجد للأسف سلسلة من الأخطاء في ما اعتبروه تركيبة القاعدة».

«هل لك أن تعطينا مثالاً عن تلك الأخطاء؟»

«حسناً. قالوا إن خالد الشيخ محمد يدير اللجنة الإعلامية في القاعدة. تقع هذه اللجنة تحت سيطرة أيمن الظواهري. أما خالد الشيخ محمد فيدير المكتب الإعلامي، وهو عبارة عن غطاء لوحدة التخطيط العملاني عندهم».

«هل لك أن تدعم ما تقوله؟»

«أجل. وجدنا بعض الوثائق في أفغانستان التي توضح تركيبة المنظمة».

«وماذا غير ذلك؟»

أجبت: «يأتي بعد ذلك ما قالوه عن خلاد. قالوا إن خلاداً لم يَكُنْ أبداً في الولايات المتحدة. تستطيع ديبي أن تقول لكم إن هذا الأمر غير صحيح».

تدخلت ديبي هنا: «أجل. اكتشفنا أن اسم صلاح بن سعيد بن يوسف – وهو الاسم الحركي الذي استخدمه في تنقلاته – وارد في لائحة الواصلين إلى لوس آنجلوس خلال عام الألفية».

قال أحد محللي وكالة الاستخبارات المركزية: «إننا نحتجز خلاداً». [redacted].

«يُحتمل أن تكون على حق، لكنه إذا لم يكن هناك، فكيف تفسّر وجوده في قائمة أسماء الركاب؟»

كانت تلك بعض النقاط القليلة من بين المواضيع الكثيرة التي أُثيرت. تُعتبر بعض تلك النقاط سرية، بينما لم أستطع تذكر بعض النقاط الأخرى بعد كل هذه السنين. خرجنا من الغرفة بعد انتهاء الاجتماع. تقدم مني أحد الموظفين في اللجنة وقال: «أشعر أنك أنت من بين الثلاثة قد نسيتَ أشياءَ أكثر مما قد يظنون».

علّق فيليب زيليكاو في ٢٣ نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٩، أي بعد مرور عدة سنوات، وذلك في مقالة له في موقع foreignpolicy.com على تلك الحادثة. ورد في المقالة: «التقيت صوفان، وأجريت مقابلة معه في سياق عملي مع لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وذلك خلال قيامه بعملٍ هام في مكتب التحقيقات الاتحادي... إنني، وزملائي أعضاء اللجنة نعتبر أن صوفان يتمتع بمصداقية كافية. يُتقن صوفان اللغة العربية إتقاناً جيداً، وبدا لنا أنه واحد من أكثر عملاء الاستخبارات إثارة للإعجاب – من بين كل الذين التقيناهم في سياق عملنا، ومن بين كل الوكالات.

لم يدرك كبار مدراء مكتب التحقيقات الاتحادي في واشنطن الوضع إلى أن قدّمت أنا وديبي، ودان، وعملاء آخرون ملخصاً إلى اللجنة. تمثّل جزء من المشكلة في تغيّر إدارة مكتب التحقيقات في شهر آب/أغسطس من العام ٢٠٠١. جاء مدير جديد هو روبرت مويلر، وجاء معه فريق جديد من كبار المسؤولين، وكان عدد قليل منهم على علم بالقضايا الإرهابية الرئيسة التي برزت في السنوات الماضية.

لم تعرف إدارة مكتب التحقيقات أننا كنا نطلب المعلومات، وأن وكالة الاستخبارات حجبتها عنا، لكن كل ما أرادت هذه الإدارة هو أن تبدأ من جديد. أبلغ الرئيس جورج دبليو بوش مكتب التحقيقات الاتحادي، ووكالة الاستخبارات المركزية، بأنه يريد من الجميع المشاركة. كانت نتيجة ذلك، مجدداً، أنه يتعين على مكتب التحقيقات أن يتلقى النقد واللوم عن الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

لكننا، نحن الذين عرفنا الحقيقة، كنا نرويها، تحت القسم، كما هي بالضبط، عندما نُسأل عما جرى أمام لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. لكن كبار مسؤولي مكتب التحقيقات فوجئوا لدى سماعهم عن أدائنا أمام اللجنة. طُلب مني في إحدى

المراحل تقديم ملخص عما جرى إلى جون بيستول، وهو أحد كبار نواب المدير موبلر، وذلك قبل أدائه لشهادته أمام لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، لكن هذه الجلسة أُلغيت في آخر دقيقة، وذلك لأن الإدارة العليا لم ترغب في التسبب بالمشاكل لوكالة الاستخبارات المركزية.

عيّن جون ميلر، وهو مراسل سابق لمحطة آي.بي.سي ABC، والذي أجرى مقابلة مع بن لادن في العام ١٩٩٨، مساعداً لمدير مكتب العلاقات العامة في FBI. فهِم جون الحاجة إلى تصحيح رواية ما حدث. وعندما طلب لورنس رايت السماح بدخول الناس أجاب جون المدير فقال: «إننا مضطرون إلى فعل هذا للتاريخ. لا يتعلق الأمر بوكالة الاستخبارات المركزية، أو مكتب التحقيقات الاتحادي. يتعيّن علينا إبلاغ الشعب الأميركي الحقيقة عن حقبة هامة». وافق المدير، وأعطى المكتب موافقته على دخول لاري. كتب بعد ذلك روايته التي لاقت رواجاً هائلاً The Looming Tower، البرج العملاق وما لبث بعد ذلك أن كتب عني في صحيفة نيويوركر. بدأت الحقيقة بالظهور ما بين كتابه وبين لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

أما أولئك الذين هم في وكالة الاستخبارات المركزية من الذين كانوا مسؤولين عن عدم إعطائنا المعلومات فقد فعلوا أقصى ما بوسعهم لمنع الحقيقة من الظهور. تكلمنا في الوقت ذاته مع رايت بموافقة مكتب التحقيقات، كما أن جو فاليكويت رتّب اجتماعاً بين دان كولمان وبيني لإعطاء ملخص عما حدث لصحفي كبير من إحدى الصحف الرئيسة. توجّه جو إلى وكالة الاستخبارات المركزية بحفنة من الأسئلة بعد أن تحدث معنا في نيويورك.

قال له أحد مسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية: «إن ما أبلغك إياه مكتب التحقيقات الاتحادي هو زائف تماماً». طلب الصحافي رؤية الدليل، فما كان من مسؤول وكالة الاستخبارات المركزية إلا أن أشار إلى رزمة من الوثائق، ثم وصف الملفات بأنها «معلومات تنقض كل شيء قاله مكتب التحقيقات الاتحادي، لكنها كلها معلومات سرية، وهكذا لا أستطيع أن أريك إياها». قرر الصحافي التقليل من

أهمية الرواية. أُبلغ رايت الأمر ذاته، وكشف عن تهديدات (بالنسبة إلى ابنته). لكنه كان مراسلاً جريئاً يتمكن من فهم طُرق الخداع، وهكذا أجرى أبحاثاً تكفي لتُقْنع المرء بطبيعة الحقيقة، كما أنه لا ينحني أبداً أمام التهديدات. ألّف الرجل كتابه، وفاز بجائزة بوليتزر عنه.

وبعد نشر تقرير لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وبعد أن تبيّنت صحة كل ما قلته للصحافي، فقد اتصل ذلك الصحافي بجو فاليكويت، وأبلغه ما قالته له وكالة الاستخبارات المركزية، ثم اعتذر لعدم تماشيه مع الحقيقة. قال الصحافي لجو: «لقد تعرضت للخداع، وأنا الذي وثقت بهم».

أما السبب الذي أثار التوتر عند عددٍ قليل من الأشخاص في الطبقة السابعة من لانغلي – الطبقة المخصصة لكبار المدراء – فهو أن لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر قد ناقضت، وبصراحة، ادّعاءات وكالة الاستخبارات الأميركية بشأن الاشتراك في المعلومات الاستخبارية. برهنت اللجنة للشعب الأميركي أنه لو تم تمرير المعلومات لكان بالإمكان تجنب الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

أما أكثر المقاطع إدانة في تقرير لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر فهو ذلك الموجود في الصفحة ٢٦٧: «شهد دي. سي. آي تينيت، وكوفر بلاك أمام لجنة التحقيق المشتركة للكونغرس في موضوع الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بأن مكتب التحقيقات الاتحادي حصل على هذا التعرّف [خلاد في كوالالامبور] منذ البداية. لكن بالعودة إلى السجلات المطولة بما فيها الوثائق التي لم تكن متوفرة لموظفي وكالة الاستخبارات المركزية الذين قدّموا تلك الشهادة فإننا نستنتج أن الواقع كان غير ذلك».

كان أحد المصادر الذي ورد ذكره في تذييل ذلك السطر هو «آل. أس». أما أولئك الذين هم في وكالة الاستخبارات المركزية من الذين لم يقدموا لنا المعلومات الاستخبارية فيعرفون أن هذين الحرفين يرمزان إلى «علي صوفان»، وهم يكرهونني لأجل ذلك.

الفصل السادس عشر

أبو الموت

١٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. خيّم الظلام في الخارج أثناء دخولي أنا وبوب إلى غرفة الاستجواب في مقر قيادة حرس أمن الرئاسة في صنعاء. سبق لنا أن اتفقنا مع اليمنيين على أن إجراء الاستجواب أثناء الليل هو أفضل من ناحية الأمان. كانت هناك فرصٌ أقل لرؤيتنا أثناء تنقلنا من السجن وإليه.

كانت التهديدات الأمنية أعظم الآن مما كانت عليه من قبل، وذلك لأن المشتبه به الجديد الذي كنا على وشك استجوابه، وهو ناصر أحمد ناصر البحري ـ الذي يُعرف باسم أبي جندل ـ كان الحارس الشخصي السابق لأسامة بن لادن. كان من المؤكد أن القاعدة وأنصارها لا يرغبون في أن يتحدث إلينا. كان الرجل كنزاً هائلاً من المعلومات المتعلقة بالعدو الذي أقدم منذ ستة أيام فقط على قتل عدد كبير من الأميركيين. لم يُعرف بعد العدد النهائي للقتلى لأن الجثث كانت ما تزال تُنتشل، لكن عدداً من أصدقائي كان من بين الذين قُتلوا، مثل رئيسي السابق جون أونيل. كان أبو جندل يعرف، على أقل تقدير، مروان الشّحي، وهو أحد الخاطفين المشتبه بهم لرحلة يونايتد آيرلاينز ١٧٥.

كان الحصول على معلومات عن الخاطفين والقاعدة، وبشكلٍ عام، أولوية قصوى

بالنسبة إلى الحكومة الأميركية. كان الجيش الأميركي يحضّر لاجتياح أفغانستان بهدف مطاردة القاعدة، أما الحكومة فانشغلت بمحاولة بناء تحالف دولي لمساندة جهودها. وقعت في هذا الوقت كل أجهزة تطبيق القانون، والاستخبارات، والجيش الأميركية تحت ضغوطٍ كبيرة لمعرفة أقصى ما يمكنهم عن قدرات العدو، وخططه، ومواقعه، وأعداده من أجل مساعدة الجيش على التحضير للحرب. طُلب منا كذلك العثور على دليل يبرهن بشكلٍ قاطع أن القاعدة هي وراء هجوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

كان بعض قادة العالم من الذين أرادت الولايات المتحدة ضمّهم إلى تحالفها، وبمن فيهم الرئيس المصري حسني مبارك والرئيس الباكستاني الجنرال مشرّف، غير مقتنعين بأن القاعدة هي المسؤولة عن الهجوم. كان مشرّف مهمّاً بشكلٍ خاص نظراً لمجاورة بلاده لأفغانستان. كان أبو جندل هو أفضل خيط امتلكته الولايات المتحدة حتى الآن، وكنا نأمل الحصول منه على معلومات قد تزيل أيَّ شكوك لدى هؤلاء القادة وتعطي جيشنا معلومات عن العدو الذي نوشك أنْ نهاجِمَهُ.

علمنا بعض الأمور المتعلقة بالبحري الذي ولد في المملكة العربية السعودية ويتحدر من أصلٍ يمني، ومن ضمنها سمعته المخيفة. ظهر أبو جندل في صورة شهيرة إلى جانب بن لادن وحراسه الشخصيين الذين غطوا وجوههم جميعاً لإخفاء هوياتهم، فيما عداه هو الذي أراد إظهار أن الخوف لا يسيطر عليه. تحدّث مصدرنا المجهول عن أبي جندل بوصفه شخصاً مخلصاً إلى حد الشراسة لبن لادن الذي يثق به كثيراً، وقال لنا إنه الشخص الذي يخافه أعضاء القاعدة الآخرون ويحترمونه.

ألقى اليمنيون القبض عليه في مطار صنعاء الدولي في شهر شباط/فبراير من العام ٢٠٠١، وذلك أثناء محاولته مغادرة البلاد والعودة إلى أفغانستان. لم يسمح لنا اليمنيون باستجوابه في البداية، لكنهم سمحوا لنا فقط باستجواب الذين كان من الممكن أن نبرهن علاقتهم بالهجوم على كول. كان أبو جندل عضواً معروفاً في

القاعدة، لكن لم يكن هناك أي شيء يربطه بتفجير كول. كان اليمنيون يحتجزونه لأنهم يعرفون علاقته ببن لادن، كما شكّوا بالأسباب التي تدفعه إلى الدخول إلى البلاد والخروج منها. لكن القصع ربط عرضاً ما بين أبي جندل وبين الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وهو الأمر الذي سمح لنا بالوصول إليه.

جلسنا أنا وبوب في مقعدينا على أحد جوانب الطاولة وانتظرنا إحضار أبي جندل. كنا مرتاحين لأن شريكينا اليمنيين المعتادين في الاستجواب، وهما العقيد ياسر والرائد محمود، كانا معنا. عملنا مع الرجلين في إطار تحقيقات كول، ونعرف أنهما من قوى تطبيق القانون الموهوبين، ونعرف أنهما يشاركاننا في الالتزام بتطبيق العدالة.

قرع الحراس الباب بعد مرور نحو عشر دقائق. فُتح الباب وما لبث أن دخل أبو جندل الذي بدا مرتاحاً إلى آخر حد. يتميّز الرجل بلحية كثة سوداء اللون، وشعر قصير أسود اللون مع بعض الصلع في أعلى رأسه، وعينين نفاذتين بلونهما البني واللتين كانتا تحدقان بنا وكأنه يريد أن يعرف كيف تجرأنا على استجوابه.

لم نرَ قيوداً ولا أصفاداً في يديه، وحتى أنه لم يكن مرتدياً زي السجناء. ارتدى بدلاً من ذلك ثوباً أزرق اللون وانتعل خفاً. لم يتصرف الرجل كالسجناء ولم يرتدِ ثيابهم. بدا كذلك بصحة جيدة، وكان من الواضح أنه تلقى معاملة حسنة خلال عدة شهور قضاها في السجن.

أبقى أبو جندل رأسه مرفوعاً بينما كانت لغة جسده توحي بالثقة والسيطرة على الذات. طلب شريكانا اليمنيان أن لا يُقرأ اسماهما بصوتٍ عالٍ ـ لأنهما لا يريدان أن يعرف أبو جندل مَن يكونان. كان من الواضح أنهما خائفان منه.

جلس في مقعده في الجهة المقابلة من الطاولة التي جلست عليها أنا وبوب، بينما استند ياسر ومحمود إلى الجدار، وعندها بدأنا الاستجواب. قلت بالعربية مستخدماً اسمه الأول للتشديد على تآلفي معه: «مرحباً يا ناصر. اسمي علي صوفان،

وأنا أعمل مع مكتب التحقيقات الاتحادي». أخرجت أوراقي التي تثبت أنني أعمل مع مكتب التحقيقات ووضعتها أمامه على الطاولة.

أردت إخراجه من حلقة الارتياح التي يشعر بها: اعتاد الرجل أن يخافه الآخرون وأن يرافقه حراس يُظهرون له الاحترام. أردته أن يعرف أن الأمور مختلفة الآن: إنه الآن مع أميركيين لا يخشونه. تابعت كلامي معه مشيراً إلى بوب الذي أومأ: «وهذا هو زميلي بوب ماكفادين من دائرة التحقيقات الجنائية البحرية. إننا نود أن نطرح عليك بعض الأسئلة. لكن دعني أولاً أُعلمك بحقوقك التي سأقرأها عليك الآن».

وقف أبو جندل بحركة واحدة ومن دون أن يسمح لي بمتابعة كلامي، وما لبث أن أدار كرسيه بعيداً عنا وجلس عليه مجدداً. أدار لنا ظهره، كما التفت جانباً نحو ياسر ومحمود، وقال لهما بينما تقدح عيناه البنيّتان شرراً: «لا أريد التكلم معهما مباشرة. إن كان هناك من أسئلة يمكنكما أن تقوما بطرحها، بدلاً من هذين الأميركيين. لا أريدهما أن يتحدثا معي. أنتما تعرفان القواعد في هذه الحالة». ألقى عليهما محاضرة في الدقائق القليلة التالية في وجوب عدم تمكينهما الأميركيين من استجوابه.

بدا أن ضباط الأمن الرئاسي المتعاطفين معه أبلغوه بأن اليمنيين هم وسطاء ما بيننا وبين أي يمني نقوم باستجوابه. كان ذلك هو ما اتفقنا عليه أثناء تحقيقاتنا التي أجريناها بشأن كول. لكننا تخلينا عن ذلك الإجراء، لأن ياسراً ومحموداً، ومعظم اليمنيين الذين عملنا معهم اعتبروا أن ذلك مجرد تضييع للوقت. لماذا يتعين عليهم أن يعيدوا بالعربية السؤال الذي نطرحه بالعربية؟ بدا ذلك أمراً لا معنى له وسخيفاً، وهكذا سمحوا لنا بالتحدث بالعربية مباشرة مع المشتبه بهم.

التفتّ إلى محمود عندما أنهى أبو جندل تشدّقه، وقلت له بالعربية ومن دون اكتراث: «هيا. كرّر ما قلته. إذا كان ناصر يريد تضييع وقته بسماعه الأمر الواحد مرتين فلا مانع عندي». أردت أن أُظهر لأبي جندل أنه لم يرهبني، كما أنه لا فرق

عندي إذا اضطر ياسر أو محمود إلى تكرار أسئلتي. يعني ذلك أنه إذا كان يحاول تسجيل أي نقاطٍ نفسية، فإنه قد فشل في مسعاه. التزم أبو جندل بالصمت.

قال محمود: «اسمه علي صوفان، وهو يعمل لدى مكتب التحقيقات الاتحادي. يريد أن يطرح عليك بعض الأسئلة، لكننا سنقرأ حقوقك عليك في البداية»

أجاب أبو جندل وهو ينظر إلى محمود: «حسناً».

قلت: «حسناً. لك الحق يا ناصر بأن تظل صامتاً. إن أي شيء تقوله الآن يُمكن أن يُستخدم، وسوف يُستخدم، ضدك في المحكمة...» تابعت قراءة النص بالعربية. قلت بعد أن انتهيت: «هل فهمت هذه الحقوق كما تُليت عليك؟» لم يقل أبو جندل شيئاً. أومأتُ إلى محمود.

بدأ محمود بالقول: «لك الحق يا ناصر البحري بأن تلتزم الصمت. إن أي شيء تقوله...» كرر حرفياً بالعربية ما قلته لتوي بالعربية.

أجاب أبو جندل بثقةٍ تامة: «لا أحتاج إلى محامٍ. لم أفعل أي خطأ. سأجيب عن أسئلتكم».

سألته: «هل ستوقّع على التصريح الذي يقول إنك تفهم حقوقك؟»

بقي أبو جندل صامتاً. ظل على وضعه السابق، أي أنه أدار ظهره لي ولبوب، كما حدّق بمحمود. كرّر محمود مجدداً ما قلته: «هل ستوقع على التصريح الذي يقول إنك تفهم حقوقك؟»

«لن أوقّع شيئاً، لكني أقول لكم شفهياً إنني أوافق».

قلت: «حسناً. إذاً كيف حالك اليوم يا أبا جندل؟»

صمت الرجل. أومأت نحو محمود الذي كرّر من بعدي: «كيف حالك اليوم؟»

أجابه أبو جندل: «إنني في حالة حسنة».

قال لي محمود: «أنا في حالةٍ حسنة». لاحظت أن «أبا جندل» يبتسم ساخراً بينه وبين نفسه. يبدو أنه يتسلى بهذه الفكاهة. سألته: «إذاً هل أنت أبو جندل، حارس بن لادن الشخصي؟»

مرت فترة صمت، وما لبث محمود أن أعاد السؤال.

قال أبو جندل: «أجل. لا يمكنني إنكار ذلك لأنه لا يوجد سوى أبي جندلٍ واحد، وأنا أبو جندل». لم يستطع منع ابتسامة عريضة من الظهور على محياه وهو يقول لنا ذلك. بدا من الواضح أنه فخور بسمعته ومركزه في القاعدة.

سألته: «وهل كنتَ حارس بن لادن الشخصي؟» تولى محمود تكرار سؤالي.

أجاب أبو جندل: «أجل. كنت كذلك، لكنني تركت القاعدة وها أنا الآن موقوف من دون سبب».

سألته: «كيف انضممت إلى القاعدة؟» كرّر محمود هذا السؤال.

«توجهت أولاً إلى البوسنة لحماية المسلمين من وحشية الصرب، ثم توجهت إلى أفغانستان، وهناك التقيت بن لادن». قال ذلك لمحمود الذي تولى تكراره لي. مضينا بعد ذلك في طرح سلسلة من الأسئلة الأساسية عن حجبه هويته ودوره في القاعدة. لم يتردد الرجل من الإجابة عنها كلها عن طريق محمود وياسر.

بدا أن أبا جندل يتعاون مع الاستجواب، لكنه كان يمارس في الواقع تقنية تقليدية مضادة للاستجواب. كان يدرك تماماً أننا نعرف مَن يكون، ونعرف مركزه في القاعدة، وذلك بالإضافة إلى عدة معلومات أساسية عنه. كان يدرك تماماً أنه لا فائدة من إنكار تلك المعلومات، وهكذا لم يتردد في الاعتراف بها لكي يبدو متعاوناً معنا. لكنه في واقع الأمر لم يعطِنا أي معلوماتٍ جديدة غير الأمور الأساسية التي افترض أننا نعرفها. جعل ذلك من الصعب علينا اتهامه بعدم التعاون.

كان علينا إذا أردنا حمل أبي جندل على التعاون معنا بالشكل الصحيح والحصول

منه على معلوماتٍ استخبارية جديدة أن نحمله على التحدث معنا مباشرة بدلاً من أن يجري الحديث عبر اليمنيين. إن إرساء جوٍ من الوئام مع الموقوف هو شرط أساسي للاستجواب الناجح، وهي مهمة تكاد تكون مستحيلة إذا ما رفض التحدث معنا مباشرة. بدأت مع بوب بطرح سلسلة من الأسئلة السخيفة في ظاهرها على أبي جندل. لا تعطينا هذه الأسئلة في العادة أي معلومات استخبارية حقيقية، لكنها تشجعه على الانفتاح والانطلاق في الحديث.

سألته: «ما هو السبب الذي يدفع أي شخص للانضمام إلى القاعدة؟» تولى محمود تكرار السؤال. تعمدت أن يكون هذا سؤالاً مفتوحاً يسمح لأبي جندل بالاستفاضة في الحديث. ردّ أبو جندل بالحديث عن التقاليد الإسلامية في محاربة الظلم والطغيان، وربط ذلك بـ«احتلال» الأميركيين لأراضي المسلمين، وبالأعمال التي تقوم بها إسرائيل ضد الفلسطينيين. أعتقد أنه تحدث عن هذه المواضيع مراتٍ عديدة، ولربما من أجل تعزيز تجنيد المزيد من المتطوعين في صفوف القاعدة.

تابعنا بأن طرحنا سلسلة من الأسئلة المشابهة والبسيطة، والتي لا يجد أبو جندل غضاضة في الإجابة عنها، وهي أسئلة يرغب هو شخصياً في الإجابة عنها. أدّت هذه الأسئلة إلى جعله عاطفياً أكثر، وذلك لأنها بحثت في أمور قريبة إلى قلبه، وهكذا فقدَ نتيجة لذلك بعض تحكّمه في الإجابة وإمعانه فيها. سألته عن «المظالم» التي أشار إليها، وعما رآه في البوسنة وأفغانستان.

انغمس أبو جندل في الإجابة أكثر فأكثر، ولربما اعتقد أنه يقنعني بها، وذلك بالنظر إلى جدية لهجتي الممزوجة بالاحترام، إلا أنه نسي في بعض الأحيان انتظار تكرار محمود للسؤال، وهكذا كان يجيبني مباشرة.

عدنا في ساعات الصباح الأولى، وكنا سعداء بنجاحنا في حمل أبي جندل على الكلام والنظر إلينا مباشرة. كان ذلك بمثابة تحقيق أول هدفٍ لنا.

عدت برفقة بوب إلى السفارة الأميركية في صنعاء (وهي التي كانت منزلنا

ومكتبنا في ذلك الحين) وبدأنا بمراجعة محادثتنا مع أبي جندل والتحضير لمقابلة الصباح التالي. أخذنا فترة من الراحة بعد ساعات قليلة، وتوجهنا إلى متجر قريب للمواد الغذائية للحصول على بعض الطعام. مررنا أمام قسم المخبز فأشار بوب إلى بعض الكعك غير المحلى وقال لي بعينين وامضتين: «دعنا نأخذها له. سنوحي إليه بأن الأميركيين طيّبون. إننا طيبون يا حبيبي». تعني كلمة حبيبي بالعربية حرفياً «الرجل الذي أحبه» لكنها تستخدم كتعبير عن الصداقة والتقدير. أراد بوب إظهار سخريته في هذا المجال.

سبق لنا أثناء جلسة استجواب أن وضعنا بعض الكعك على الطاولة أمام أبي جندل، لكنه لم يلمسها أبداً. سألنا ياسر عن السبب، فقال إن أبا جندل يعاني من داء السكري. طرحتُ بعض الأسئلة الإضافية بينما ركّز بوب على التخفيف من حدة الاستجواب. كان يفكر في كيفية إرساء جوٍ من الود مع أبي جندل، وذلك حتى عندما كنا نأخذ فترة استراحة من التحضيرات.

عدنا في صباح اليوم التالي إلى مقر أمن الرئاسة وعدنا إلى غرفة الاستجواب مع محمود وياسر. كان أبو جندل برفقة حارسيه اللذين رافقاه إلى الغرفة، لكني بادرته بالتحية قبل جلوسه: «السلام عليكم».

هزّ رأسه ثم أجاب ببطء: «وعليكم السلام». تقضي التقاليد الإسلامية بأنه إذا قال أحدهم «السلام عليك» أن يكون الرد بالمثل. استخدمنا معرفتنا بهذا التقليد لمصلحتنا وحملناه على أن يبدأ في ذلك المساء من حيث انتهت الجلسة السابقة: أي بالتحدث معنا مباشرة.

قرأت على أبي جندل بعد ذلك تحذير ميراندا (كنا نفعل ذلك كل يوم): «تمتلك الحق في...» بقي أبو جندل صامتاً، لكنه التفت بعد ذلك محملقاً نحو محمود، وكان من الواضح أنه يحاول العودة إلى الحدود التي تحصّن فيها في الليلة السابقة قبل انطلاقه في الحديث معنا. أومأت إلى محمود الذي أعاد على مسامعه تحذير

ميراندا. تخلى أبو جندل شفهياً عن حقوقه مرة أخرى، وقال إنه لا يريد إخفاء أي شيء.

سألته: «كيف حالك اليوم؟» بقي صامتاً ونظر إلى محمود.

أومأت إلى محمود الذي كرّر سؤالي.

أجاب أبو جندل: «أنا بخير».

قال لي محمود «إنه بخير».

«نعرف أنك لم تتناول الكعك الذي قدمناه لك البارحة لأنك تعاني من مشكلة السكري. جلبنا لك اليوم بعض الكعك غير المحلى وبإمكانك أن تأكله».

ظهرت علامات المفاجأة على وجه أبي جندل. قيل له أن يتوقع القسوة من الأميركيين وليس المودة، فبدا حائراً لا يدري كيف يجيب. ثم قال: شكراً، وأومأ برأسه؛ إذ إن التقاليد الإسلامية توجب شكر المُحسن على إحسانه، وقد كان أبو جندل مؤدّباً بالآداب الإسلامية. تطلع هذه المرة نحوي بدلاً من محمود منتظراً السؤال التالي.

بدأنا بطرح بعض الأسئلة الشخصية الخفيفة، أي الأسئلة التي لم يجد أي مشكلة في طرحها. كان الهدف هو الانطلاق بالحديث. يختلف كل موقوف عن غيره، أما أبو جندل فهو محبٌّ للكلام بطبيعته. أحب الرجل إلقاء محاضرة، كما أحب أن يُصغي الناس إليه. كان ذكياً وواسع القراءة، أي أنه يختلف عن عدد كبير من أعضاء القاعدة الآخرين من الذين استجوبتهم، وهكذا استفدنا من شخصيته وشغلناه فكرياً.

سألته، بعد أن تقبلت زعمه الذي أعلنه الليلة الماضية بأنه عاد إلى اليمن في العام ٢٠٠٠، لأنه ترك القاعدة: «إذاً، تركتَ القاعدة في العام ٢٠٠٠؟»

أجابني مباشرة وبلهجةٍ ساخرة: «أجل، بالرغم من أن مجرد وجودي هنا أتحدث إليك يُظهر بأن المرء لا يستطيع ترك القاعدة فعلياً».

قال حين تابع كلامه: «أخبرني أبو محمد المصري في واقع الأمر بأنني أخطئ

إذا كنت أعتقد أنه لمجرد مغادرتي أفغانستان فإنهم [الأميركيون] سيتركونني وشأني. هذه هي الحرب. إما أن تفوز فيها وإما تموت. ليس هناك من مكان للتراجع». استخدم أبو جندل هنا الاسم الحركي الذي يتخذه عبد اللَّه أحمد عبد اللَّه، وهو عضو في مجلس شورى القاعدة، والعقل المدبر لتفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا. صمت برهة وكأنه يريد إكساب كلماته قوة، ثم تابع مع هزّ كتفيه وشبه ابتسامة، «وهو محق في ذلك، لأنني هنا معكم بالرغم من أنني تركت القاعدة».

سألت أبا جندل، متجاهلاً تعليقه ومتمسكاً بخطتنا في السماح له بالتحدث في مواضيع تريحه: «لماذا تركتَ القاعدة؟»

أجابني: «تركتها لأسباب كثيرة. أولاً، بسبب زوجتي وأولادي...» قال لي إن ابنه حبيب يعاني من مشكلة في عظامه، ولم يتمكن من الحصول على علاجٍ كافٍ له في أفغانستان. قال لنا إن السبب الآخر لمغادرته هو أن زوجته لم تكن سعيدة في أفغانستان.

سألته: «ولماذا لم تكن سعيدة».

«لأن بن لادن أعطاني مالاً كي أعطيه إلى شخصٍ ما في اليمن، لكن تبيّن أنه مخصّص للحصول على زوجة جديدة لبن لادن بذاته. كانت في ريعان شبابها، وهكذا كرهتني الزوجات الأخريات لأنني جلبتها له، وهكذا أخذن يعاملن زوجتي معاملة سيئة». أخبرنا أبو جندل بأنه اعتقد في البداية أنه أُرسل مع المال بهدف تنفيذ ما أسماه «عملية استشهادية»، لكنه غضب عندما علم أنه استُخدم كمبعوثٍ لتسهيل ترتيبات الزواج.

سألته: «إذاً تركتَ القاعدة لهذه الأسباب الشخصية فقط. ألم تكن هناك أسبابٌ عقائدية؟» فكرت أنا وبوب بأنه لو توفّرت تلك الأسباب العقائدية، إذاً لكانت أساساً ملائماً لانتزاع المعلومات من أبي جندل.

أجاب: «كلا، بل كانت هناك بعض الأسباب العقائدية. لم أتفق مع بعض الأمور التي أقدم عليها أسامة بن لادن».

سألته: «مثل ماذا؟»

«مثل إعطائه البيعة للملا عمر».

سألته: «وما هو سبب اعتراضك؟» تراوحت محادثتنا عند هذه النقطة ما بين المد والجزر.

«كان ذلك يعني أن كل أعضاء القاعدة الذين قدموا البيعة لبن لادن كانوا مجبرين على طاعة الملا عمر. لا تشمل أهداف القاعدة هذا الأمر برأيي، وهو أمر لم أتعهد به عندما انضممت إلى القاعدة. لم أوقّع على الانضمام إلى طالبان».

سألته: «وكيف يجب أن تكون القاعدة». أعطى أبو جندل آراءه التي كانت مستندة إلى إعلان بن لادن الحرب في العام ١٩٩٦ لتحرير الأماكن المقدسة وشبه الجزيرة العربية من وجود الصليبيين واليهود. وجّهت المحادثة انطلاقا من هذا الموضوع نحو المسوّغات الدينية للانضمام إلى القاعدة. قمت، وإن بلطف، بتحدي تلك المسوّغات الدينية، واستشهدت بمقاطع من القرآن التي بدت كأنها لا تتوافق مع رؤيته. أردت امتحان معرفة أبي جندل الدينية وأن أعرف مدى التزامه بآرائه الدينية، كما أردت أن أُثبت له أنني مطلع، بدوري، على العقيدة الإسلامية.

عاكسني أبو جندل بأن استشهد بمقاطع من كلام علماء مسلمين يدعمون موقفه، فرددت عليه بأن استشهدت بكلام لعلماء يختلفون مع العلماء الذين استشهد بهم. أثرنا مع ذلك نقاشاً ودياً، وتبادلنا الاستشهاد بمراجع وبمقاطع من القرآن. بدا أن أبا جندل يستمتع بكلامه ويستمتع بهذا التحدي. عبّر عن تعجبه عند إحدى النقاط بالقول: «يدهشني كيف يتمكن رجل مسلم يعرف الكثير عن الإسلام، ويتخذ مع ذلك موقفاً مختلفاً جداً عن موقفي بشأن أميركا، والقاعدة، والجهاد».

أبلغته مبتسماً: «أتمنى أن يؤدي بك ذلك إلى مراجعة بعض مواقفك».

أخذنا حديثنا إلى مواضيع الثورات، وهي المواضيع التي علمنا في الليلة السابقة أنها موضوع مفضّل عند أبي جندل. أخبَرنا أبو جندل عن التقاليد الإسلامية للثورات

التي تستهدف إحقاق الحق، وقال: «لا تحدث الثورات بسبب المظالم في العالم الإسلامي فقط. يمتلك غير المسلمين ثوراتهم الخاصة بهم».

سألته: «حقاً؟»

هذا صحيح. بدأت الثورة في اسكتلندا في الواقع لأن القائد البريطاني الذي كان يحكم البلاد أصرّ على النوم مع كل امرأة قبل أن تتزوج، فما كان من أحد الرجال إلا أن رفض ذلك. قتلوا زوجة الرجل عقاباً له فردّ بأن أعلن الحرب على البريطانيين و...»

قلت مقاطعاً: «تمهل. هل تحدثني عن فيلم سينمائي؟ إنه برايف هارت [القلب الشجاع]، أليس كذلك؟ » لاحظت أنه يتحدثً عن أحد أفلام ميل غيبسون.

قال بحماسة ترافقت مع ابتسامة عريضة: «أجل، أجل». يشرق وجه أبي جندل عندما يبتسم، كما أن الفجوات تظهر بين أسنانه. «شاهدته مع زوجتي وأحببناه كثيراً». اتفقنا على أنه فيلم عظيم، ثم ناقشناه كما قارنا ما بين مشاهدنا المفضلة فيه.

قلت عندما أردت إنهاء الحديث عن برايف هارت: «أتعرف يا أبا جندل أنني أعرف الكثير عن تقاليد الثورة في الإسلام، كما يتضح أنك تعرف الكثير عن هذا الموضوع نتيجة قراءاتك. لكن هل تعرف كذلك أن أميركا تمتلك ماضياً ثورياً بدورها؟» هزّ رأسه وانحنى قليلاً. بدا فضولياً للغاية، وبدا أنه يحب التعرف إلى أمور جديدة، وخاصة تلك التي تتعلق بمواضيعه المفضلة.

قلت متابعاً كلامي: «هذا صحيح. إننا نفهم الثورات كأميركيين، ونحن نمتلك ثورتنا الخاصة بنا. كان البريطانيون يحكمون أميركا. لكن نفد صبر الأميركيين في العام ١٧٧٦ من قسوة البريطانيين وضرائبهم. ثرنا ضد البريطانيين بقيادة جورج واشنطن الذي كان جنرالاً في ذلك الحين قبل أن يصبح أول رئيس أميركي، وما لبثنا أن هزمناهم». دُهش أبو جندل بهذه المعلومات وراح يطرح عليّ الأسئلة عن الثورة الأميركية.

بدأ أبو جندل في هذا الوقت بالتحدث مباشرة معنا، وهكذ انتقلنا أنا وبوب إلى المرحلة التالية من الاستجواب، فسألناه أسئلة أكثر تفصيلاً عن نفسه وعن القاعدة. تابع أبو جندل الحديث معنا مباشرة، لكنه عاد ليمارس معنا التقنية المضادة للاستجواب، والتي تقضي بالاعتراف بما يعرف أننا نعلمه، وبالأمور التي لا تترافق مع قيمة كبيرة، وذلك كي يبدو أنه يتعاون معنا. كنا بحاجة لانتزاعه من تقنيته المضادة للاستجواب. «سنقوم الآن بشيء مختلف». تناولت حقيبتي اليدوية وأخرجت منها واحداً من ألبومات الصور المتعلقة بالقاعدة. وضعت الألبوم على الطاولة ودفعته نحوه ببطء. قلت له: «يمتلئ هذا الألبوم بصورٍ لأشخاصٍ تعرفهم. أريد منك أن تؤكد لي هوية الأشخاص الذين تعرفهم».

قال أبو جندل: «بالتأكيد. سألقي نظرة». تناول الألبوم وبدأ بإلقاء النظر.

بدا أنه يتفحص كل صورة بشكلٍ جدي – تغضّن حاجباه وتجعدت جبهته، وخصّص لحظاتٍ قليلة لكل صورة – لكنه كان يهز رأسه ويقول إنه لا يعرف أحداً منهم تقريباً. كانت هناك ستون صورة تقريباً. لم يتعرّف في نهاية الأمر إلا إلى أسامة بن لادن، وأبي حفص المصري، وأيمن الظواهري، وقلة أخرى من النشطاء المعروفين. لم يتمكن أبو جندل من إنكار معرفته بهؤلاء الأشخاص، وذلك بالنظر إلى اعترافه بأنه كان الحارس الشخصي لبن لادن. كان أبو حفص في الفترة التي خدم فيها أبو جندل الخلف المعيّن لبن لادن.

سألته متعمداً إضافة عنصر المفاجأة إلى صوتي: «هل هؤلاء هم كل من تتمكن من التعرف إليهم؟»

أجاب: «أجل. آسف، لم أتمكن من التعرّف إلى أي شيء آخر».

«هل أنت متأكد من ذلك؟»

أجابني: «أجل».

«انظر مرة أخرى من فضلك يا صديقي. أتعتقد أنني أطلب منك ذلك من دون

أن أعرف أنك تعرف عدداً من هؤلاء الناس؟ إنني واثق تماماً من أنك تعرف عدداً أكبر منهم. تطلع ثانية».

حاول الظهور بمظهر المتعاون مجدداً، ومَن يريد الحفاظ على العلاقة الودية التي نشأت بيننا، «حسناً سأنظر مجدداً».

نظر ببطء في صفحات الألبوم، وأمضى لحظات أطول قليلاً في تفحّص كل صورة. «أنا آسف. لا أعرف أي شخصٍ آخر».

سألته مقوساً حاجبيّ: «هل أنت متأكد؟»

«أجل».

«حسناً. أيمكنك أن تنظر مرة أخرى لأجل صداقتنا؟»

قال مبتسماً: «حسناً. سأفعل ذلك لأجلك».

تفحص أبو جندل الألبوم صورة إثر صورة، وهزّ رأسه عند انتهائه من النظر إلى كل صورة. ضحكت بعد أن وصل إلى نحو منتصف الألبوم، والتفتّ نحو بوب وقلت: «أترى؟»

سأل أبو جندل بصوتٍ فيه شيء من التوتر، ومحاولاً فهم ما يجري: «ما بكما؟» لم تعجبه فكرة أن يكون خارج الدعابة.

قلت له: «عرفت أنك لست صادقاً معنا. قلت لبوب إنك لن تعترف بمعرفتك للناس».

سأل أبو جندل بصوت أوحى بمقدارٍ أقل من المعتاد من الثقة : «ماذا تعني؟»

قلت: «اهدأ قليلاً. خذ هذه الصورة على سبيل المثال». أشرت إلى صورة في الصفحة التي ينظر إليها. «هل تزعم أنك لا تعرف الشرقي؟» كان الشرقي الاسم الحركي للشحي، وهو الخاطف الذي أخبرنا القصع بأنه مكث في مركز الضيافة الذي يشرف عليه أبو جندل.

قبع أبو جندل صامتاً بينما لم تظهر أيُّ تعابير على وجهه. تابعت بالقول: «أتعتقد أنني لا أعرف شيئاً عن علاقتك به؟ أتتذكر شهر رمضان من العام ١٩٩٩، أي عندما كان الرجل مريضاً في مركز الضيافة الذي تنزل فيه؟ اعتنيتَ بالرجل بوصفك أميره، وأطعمته الحساء، واعتنيت به إلى أن استرد عافيته؟» بدأ وجه أبو جندل بالتورد. سألته: «إذاً أنت حقاً لا تعرفه؟»

قال معترفاً بوداعة: «أجل. أنا أعرفه». مرّت فترة صمت وكأنه يقيّم الوضع، ثم أضاف: «أنا آسف». لم نذكر شيئاً عن كون الشّحي أحد خاطفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وخاصة لأنه لم يبدأ في تلك اللحظة تداول اسم الشّحي في وسال الإعلام بوصفه خاطفاً مشتبهاً به.

قلت له: «عندما أطرح عليك سؤالاً فإنني أعرف جوابه في أغلب الاحتمالات. لكني أختبرك فقط لأعرف ما إذا كنتَ تتعاون معنا بصدق، أي كما تزعم. والآن، إذا أردتَ أن لا تتعاون يمكنك أن تقول لي ذلك بصراحة، لكن لا تكذب عليّ من فضلك، وتضيّع وقتي بالادعاء بأنك لا تعرف هؤلاء الناس». نظر أبو جندل نحو الأسفل بخجل. انكشف كذب الرجل، وهو الأمر الذي يحمل إساءة ليس فقط لزعمه بالتعاون معنا، بل وهذا هو الأهم، لكونه رجلاً متديناً – يُعتبر الكذب خطيئة في الإسلام، كما في الديانات الأخرى. تابعت كلامي بالقول: «اسمع. أعتقد أنك رجل صادق. إن إطعام شخصٍ ما الحساء هو أمر شخصي جداً. كيف عرفتُ أنا به في اعتقادك؟ أعرف كذلك عن علاقاتك بالعديدين الذين تظهر صورهم في هذا الألبوم. لم أسافر جواً من أميركا لأجري مقابلة معك، وأنت لا تعرف أي شيء. أنت لا تعرف كم احتجز من أصدقائك، أو الذين عملوا لصالحي، وكم منهم تحدث عنك. أرجوك إذاً أن لا تلعب معي، ودعنا نُنهِ عملنا بصدق.

قال أبو جندل: «حسناً، حسناً».

قلت له: «دعنا نبدأ من أول الألبوم». تفحص أبو جندل عدداً من الصور،

وتعرّف إلى نشطاء في القاعدة واحداً بعد الآخر. لكننا لم نُظهر مطلقاً أن الشخص الوحيد الذي كنا متأكدين من هويته هو الشِّحي. تعرّف أبو جندل إلى سبعة من أعضاء القاعدة، وهم الذين تم التعرّف إليهم فيما بعد على أنهم من خاطفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بمن فيهم قائد الخاطفين محمد عطا، وهو الذي التقاه في مجمّع بن لادن في قندهار، لكنه تعرّف إليه بوصفه أبا عبد الرحمن المصري. قال أبو جندل إنه يظن أنه التقى نوافاً الحازمي في مركز ضيافة بن لادن الخاص في كابول. تعرّف أبو جندل كذلك إلى سالم الحازمي، وهو الذي شاهده في الخطوط الأمامية في كابول. مضى أبو جندل يتحدث عن المكان الذي رأى فيه أحمد الغامدي ومهند الشهري. أعطانا أبو جندل الجنسيات والأسماء الحركية التي استخدمها الخاطفون في تنظيم القاعدة، وهي كلها أمور لم نكن نعرفها في ذلك الوقت.

تعرّف أبو جندل إلى خالد المحضار عندما رأى صورته باسمه الحركي سنان المكي. قال لنا أبو جندل: «سنان الآن متزوج من شقيقة أبي جعفر اليمني الذي مات في العام ١٩٩٧. كان أبو جعفر ابن أحمد الحداء، كما كان صديقاً لي شخصياً، وأراد أن يزوّجني إحدى شقيقاته، لكنها غيّرت رأيها في النهاية».

كان أحمد الحداء يمنياً استُخدم رقم هاتفه كمحطة تحويل هاتفية للقاعدة. «هل الحداء عضو في القاعدة؟»

«أجل، حتى أنه حارب في الخطوط الأمامية».

«وما رأيك به؟»

«أخبرني سنان بأن الحداء وضيع جداً، وأن عائلته في المملكة العربية السعودية، وهي لم توافق على زواجه من فتاةٍ تنتمي إلى أسرة يمنية وضيعة».

تابعنا النقاش حول مواضيع تتمحور حول هذه النقاط، لكننا لم نقل أي شيء لأبي جندل يتعلق بكون هؤلاء الرجال من خاطفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. كانوا بالنسبة إليه مجرد رجالٍ التقاهم في مخابئ ومعسكرات تدريب في أفغانستان

وباكستان، أي أنهم لا يختلفون بشيء عن نشطاء القاعدة الآخرين الذين تعرّف إليهم. لم يكن أبو جندل يعلم أن القاعدة هي وراء هجوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. يُضاف إلى كل ذلك أن الإرهابيين الذين عرضنا صورهم عليه كانوا هم أنفسهم متورطين في الهجوم على يو. أس. أس. كول وفي الهجمات على السفارتين في شرق أفريقيا، وهكذا افترض أن أسئلتنا تتعلق بتلك الأحداث.

لكن بالنسبة إلينا كانت تلك هي المرة الأولى التي نحصل فيها على تأكيد جازم أن سبعة من الخاطفين هم أعضاء في القاعدة. عرفنا في هذا الوقت، وعلى وجه التأكيد، أن القاعدة كانت وراء الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

أغلقت ألبوم الصور بعد أن فرغنا من عملية التعرّف إلى الأشخاص، وقلت: «شكراً لك لأنك تفحصت هذه الصور. دعنا الآن نتحوّل إلى مواضيع أخرى». بدأنا بالحديث عن النشطاء الذين تعرّف إليهم والذين كانوا جزءاً من تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨.

سألت أبا جندل: «قل لي أين يسمح الإسلام بالهجمات الانتحارية؟ أنت تعلم أن الانتحار محرم في القرآن».

قال معترفاً: «إن ذلك صحيح بشكلٍ عام، لكن الأمر يختلف في الحرب، وهي الحالة التي نحن فيها. كانت تلك الهجمات أسلحة ضد صواريخ الجهة الأخرى، وهذا ما يجعلها مشروعة».

رددت عليه بالقول: «لكن، ماذا بشأن النساء والأطفال الذين يقتلهم المهاجمون الانتحاريون؟ أي آية في القرآن تبرّر قتل المدنيين؟»

سألني: «مثل مَن؟»

أجبت: «مثل أولئك الذين قُتلوا في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا. قُتل نساء وأطفال، وكان عددٌ كبير منهم من المسلمين».

ردّ عليّ بالقول: «يُعتبر هؤلاء ضحايا الحروب. أما إذا كانوا مسلمين طيبين فإن الله سوف يقبلهم كشهداء».

قلت له: «تمهّل قليلاً هنا. عملت شخصياً في التحقيقات المتعلقة بتفجير السفارتين في شرق أفريقيا. أتذكّر، على سبيل المثال، أننا وجدنا بقايا امرأة وطفلها في حافلةٍ كانت متوقفة أمام السفارة في نيروبي. كان كلاهما محترقين. أحاط ذراعا الأم بطفلها، وكأنها تريد حمايته. قل لي، ماذا جنى ذلك الطفل؟»

امتلك أبو جندل جواباً جاهزاً: «سينال الطفل جزاءه في الجنة. تُعتبر تلك الوفيات تضحية صغيرة مقابل الجرح الكبير الذي أنزلناه بعدونا، وبالنسبة إلى الإلهام الذي أعطاه لمئات آخرين ليصبحوا شهداء. إن كل المسلمين الأبرياء الذين يُقتلون سينالون جزاء تضحياتهم في السماء». كانت تلك إجابة تقليدية يقدمها علماء الدين التابعون للقاعدة لتفسير مقتل أشخاصٍ أبرياء.

استشهد أبو جندل بعد ذلك بإعلان بن لادن الجهاد في العام ١٩٩٨، وقال لنا: «يختار الله وكيلاً [مشيراً إلى بن لادن] وطلاباً في المرحلة الثانوية من أجل الدفاع عن دينه، وإطلاق الجهاد ضد أعدائه». كانت هذه هي المرة الأولى التي يشير فيها أبو جندل إلى الهجمات التي يشنها بن لادن. ترمز عبارة «طلاب الصفوف الثانوية» إلى الأعمار الصغيرة لمقاتلي القاعدة.

سألته مغتنماً الفرصة التي أتاحها تعليقه هذا: «إذاً هذا هو السبب الذي جعل هجماتٍ تحدث منذ وقتٍ قريب في نيويورك وواشنطن؟»

«إن سبب حدوث هجماتٍ كهذه وسبب وجودكم هنا [مشيراً إلينا] هو سياسات أميركا الخارجية – احتلالكم لشبه الجزيرة العربية، والحظر المستمر المفروض على العراق، ودعم إسرائيل في قتل الفلسطينيين واحتلال أراضيهم». أضاف قائلاً: «لكل فعلٍ رد فعل».

سألته: «إذا هل إنَّ رجالك هم وراء الهجمات التي حدثت في الأسبوع الماضي؟».

أجابني: «لا أعلم من نفَذ الهجمات».

قلت: أعتقد أن رجالكم هم الذين نفذوها». بدأت أصواتنا بالتصاعد عند هذه النقطة».

«كلا، إنها مجرد خطة من جانبكم لمهاجمة أفغانستان. إذا فعلتم ذلك فإن المجاهدين سوف يثورون ضدكم، وسوف تحدث عمليات في أميركا ذاتها». توقف قليلاً ثم قال: «لم تبدأ الحرب بعد، لكن إذا تمكّنا من توجيه ضرباتٍ إضافية فإننا سوف نفعل ذلك».

أشار بوب في هذا الوقت إلى صحيفة يمنية بتاريخ ذلك اليوم، وهي التي كانت ملقاة على طاولة محمود. حملت الصحيفة عنواناً رئيساً يتحدث عن مقتل مئتي يمني في مركز التجارة العالمي. (تبيّن في ما بعد أن هذا الرقم خاطئ). قرأت العنوان بصوتٍ عالٍ – «مائتا يمني يموتون في هجوم نيويورك» – ثم عرضتُ الصحيفة بعد ذلك على أبي جندل.

قال أبو جندل بعد أن بدا التأثر عليه لعدد القتلى من اليمنيين: «فليساعدنا اللّه».

سألته: «هل هناك من شيء يبرر هذا؟»

أجاب: «كلا. إنها جريمة مروعة».

«إذاً ماذا تقول لعائلات اليمنيين الذين قُتلوا في الهجوم على مركز التجارة العالمي بسبب القاعدة. أي نوعٍ من المسلمين يفعل هذا؟»

رد بالقول: «لم يفعل بن لادن هذا». لوّح بيده وكأنه يريد استبعاد تعليقي وأضاف: «الشيخ ليس مجنوناً».

حدّقت به بقوة وقلت: «أعرف أن القاعدة هي التي قامت بذلك الهجوم».

سألني: «كيف عرفت؟»

«أخبرني أحدهم بذلك».

«من أخبرك؟»

«أنتَ أخبرتني. تعرّفت إلى خاطفي الطائرات بوصفهم أعضاء في القاعدة». ما إن أنهيت جملتي حتى وضعت على الطاولة صور الخاطفين السبعة الذين تعرّف إليهم، وكان من بينهم محمد عطا، وخالد المحضار، ومروان الشِّحي. قلت مشيراً نحوهم: «هؤلاء هم الخاطفون. قتل هؤلاء مئتين من اليمنيين».

استرخى أبو جندل في مقعده وكأنه تلقى لكمة في بطنه. بدت أماراتُ الصدمة الشديدة على وجهه. نظر إلى الأمام بشرود وكأنه لا يصدّق ما سمعه، وأحنى وجهه ثم أحاطه بيديه، بينما أسند مرفقيه إلى ركبتيه. التزم أبو جندل بالصمت.

كررت بعد مرور نحو دقيقة: «هؤلاء هم الخاطفون. إنهم الرجال الذين قتلوا آلاف الأشخاص الأبرياء».

قال وهو يهز رأسه: «لا أعرف. أيمكنني أخذ استراحة لمدة خمس دقائق من فضلك؟»

قلت وأنا أشير إلى بوب بوجوب مغادرتنا: «حسناً». خرج ياسر برفقتنا.

سأل ياسر: «ماذا حدث بالضبط؟» لماذا خرجتما؟ لقد نلتَ منه». لم يدرك ياسر سبب سماحنا لهذه اللحظة بالإفلات من يدنا. «لماذا وافقتما على إعطائه خمس دقائق؟»

قلت: «أريده أن يستجمع نفسه. إنه يعرف أنه تعرّف لتوه إلى القاعدة بوصفها تقف وراء الهجمات. كان ذلك اعترافاً كبيراً. أردنا أن يترسخ هذا الاعتراف في ذهنه كذلك. لم يَفلت الزخم من يدنا. إننا ننال منه الآن».

عدنا بعد دقيقتين. كان أبو جندل ما يزال مسنداً رأسه بين يديه. سألته: «ما رأيك الآن». بقي هادئاً لدقائق قليلة، ثم نظر إلى الأعلى وحدّق بي مباشرة.

«أعتقد أن الشيخ فقد صوابه [جنّ جنونه]. أعرف هؤلاء الرجال. إنهم جميعاً

من أتباع بن لادن. اعتدنا أن نجتمع سويّاً». هزّ رأسه ثم عاد إلى صمته. تابع كلامه بعد قليل: «لا أعرف ماذا أقول، لأن ذلك ليس ما أؤمن به. سأتعاون معكم بشكلٍ تام. ماذا تريدون؟»

بدأنا بأن طلبنا من أبي جندل أن يخبرنا كل شيء يعرفه حول الخاطفين الذين تعرّف إليهم. صدق أبو جندل بوعده وتعاون معنا بالكامل. كان شخصاً مختلفاً بالكامل عن أبي جندل الذي التقيناه في البداية. أعطانا الرجل تفاصيل ومعلوماتٍ مهمّة. كان زكريا موسوي من بين الإرهابيين الذين تحدث عنهم، وهو الذي ألقى مكتب التحقيقات الاتحادي القبض عليه في ١٦ آب/أغسطس من العام ٢٠٠١ بسبب أنشطته المشبوهة المتعلقة بعملية الطائرات. اعتبر أبو جندل أن الموسوي رجل بسيط.

تحدثنا عن الخاطفين، وتحولنا بعد ذلك إلى أعضاء قيادة القاعدة. كان عدد من الأسماء التي أعطانا إياها جديداً علينا، وكذلك كانت التركيبة الهيكلية للمنظمة. تبيّن لنا أن معرفة الحكومة الأميركية بالعمليات اليومية للقاعدة تعود إلى زمن وجودها في السودان.

وضعت تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا التي قامت بها القاعدة في العام ١٩٩٨ على خارطة الإرهاب الدولي، كما أنها أدت إلى زيادة حجم الجماعة وتمويلها. كان هذا، وبالإضافة إلى الانتقال إلى أفغانستان، هو سبب تغيير طريقة عملها. (لم ينتقل جونيور، ولا خرشتو عائدين إلى أفغانستان مع بن لادن). ملأ لنا أبو جندل الثغرات وأعطانا صورة أكثر اكتمالاً عن العدو الذي نواجهه الآن.

لخص أبو جندل لنا مجلس شورى القاعدة، كما وصف لنا العادات الشخصية لأبي محمد المصري، وسيف العدل، وأبي حفص المصري، وأبي حفص الموريتاني، والشيخ سعيد المصري، وأيمن الظواهري، وأبي عاصم المغربي الذي كان اسمه الحقيقي عبد اللّه تبارك. علمنا كذلك أن أبا حفص الموريتاني (وهو موريتاني كما

يوحي اسمه بذلك) كان الشخص الوحيد في القاعدة الذي يمتلك تدريباً دينياً، وهكذا ترأس لجنة الدين أو الفتوى. أما الشيخ أبو سعيد المصري، وهو مصري الجنسية، فقد تولى الأمور المالية والإدارية للقاعدة بعد مدني الطيب. أما أبو عاصم المغربي فقد كان زميلاً قديماً لبن لادن، وحارب معه ضد السوفيات، كما ذهب معه إلى السودان. طلب بن لادن من أبي عاصم المغربي أن يتولى فريق حراسه الشخصيين بعد تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا.

شرح لنا أبو جندل كيفية عقد النشطاء والقادة لاجتماعاتهم وتوقيتها. «أبو حفص وبعض الآخرين كانوا يلتقون بن لادن بصورة منتظمة. كان الإخوان يتمازحون عندما كانوا يلتقون جميعاً: «الشيبة [المسنون] مجتمعون، فليساعدنا اللّه». كانوا يعلمون أن عملية كبيرة قيد التحضير». ابتسم ابو جندل وهو يتذكر ذلك.

«تأتي بعد ذلك اللجنة العسكرية التي يرأسها أبو حفص المصري». تابع أبو جندل كلامه بعد لحظة: «إنه يترأس كذلك لجنة العمليات الخاصة والتي يشترك فيها سيف العدل، كما أن سيف بدوره هو عضو كبير في القاعدة، وهو يترأس اللجنة الأمنية».

عرضتُ صورة عليه وسألته: «هل هذا أبو حفص؟»

«أجل». ضحك أبو جندل بعد أن تعرّف إلى أبي حفص.

«ما المضحك في الأمر؟»

«تذكرت حادثةً جرت عندما كنا نخوض معركة جاجي. قتل أبو حفص أحد الجنود الروس، ثم نادى بن لادن، بينما كان هو واقفاً فوق الجندي وقال له: «إنني أدوس بقدمي ضابطاً روسيّاً»».

وعندما عرضنا على أبي جندل صورةً لسيف العدل قال عنها: «إنها قديمة».

«ولماذا؟»

«حسناً، لسيف ندبة تحت عينه اليمنى تسببت بها رصاصة ارتدت عليه وأصابته».

«وهل تحبه؟»

ردَ أبو جندل مع ابتسامة عريضة: «إن أعضاء القاعدة الآتين من شبه الجزيرة العربية لم يحبوا فيه سلوكه الخشن».

عرضنا عليه سلسلةً من الصور فتعرّف إلى كل شخص سبق أن عرفه في الحركة، وذلك بالرغم من أنه عرفهم غالباً بأسمائهم الحركية. قال لنا بعد أن تفحص إحدى الصور: «هذا هو يعقوب الدوسري الذي يساعد أبا حفص في اللجنة العسكرية». كنا نعرف أن الشخص الذي يظهر في الصورة هو فضل عبد اللّه محمد، واسمه الحركي هارون فضل، وذلك من خلال التحقيقات في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا.

سأل بوب: «وما هي اللجان الأخرى؟»

قال لنا: «يترأس أبو حسين المصري لجنة العلاقات العامة». (تولى أيمن الظواهري مسؤولية هذه اللجنة بعد فترةٍ ما من وضع أبي جندل في السجن). «أما اللجنة المالية فيترأسها الشيخ سعيد المصري، والذي هو مدير التمويل، والفاتح المصري الذي هو أمير [المسؤول عن] المعاشات. توجد أخيراً اللجنة الدينية التي يترأسها أبو حفص الموريتاني. تشكل كل هذه اللجان القيادة العليا». كان أبو حسين المصري زوج ابنة الظواهري، أما أبو أنس اليمني فكان علي البهلول، وهو الناشط الذي أنتج شريط الفيديو الذي أعدته القاعدة بعد الهجوم على كول.

شرح لنا أبو جندل أن نشطاء يأتون في درجةٍ أدنى من أولئك الأشخاص، مثل خلاد الذي كانت مهمته مساعدة العملاء وحثّهم على تنفيذ الهجمات. لم يكن خلاد يتولى التخطيط، لكن كانت تُسند إليه مهمات خارج أفغانستان، مثل توزيع الأموال، وتأمين جوازات السفر المزورة، وإعطاء التعليمات من بن لادن إلى العملاء والإتيان بردودهم. بدا لنا أن أبا جندل معجب به.

أخبرنا أبو جندل بأنه: «بالرغم من أن خلاد كان فتياً إلا أنه كان ناشطاً بارزاً. كان خلاد في العشرينيات من عمره. لكن النقد الوحيد الذي كان يوجهه أبو جندل إليه – وهو النقد الذي وجهه أعضاء القاعدة الآخرون من الذين استجوبناهم – هو إهماله لشقيقيه الأصغر منه سناً، أي عمير والبراء، وذلك بعد موت مهنّد، الشقيق الأكبر. أبلَغنا أبو جندل بأنه واجه خلاد في إحدى المراحل لأن عمير كان يعيش مع التكفيريين. يعتبر التكفيريون أن أعداءهم هم القريبون منهم، أي حكومات بلادهم، أي أنهم لا يعترفون بالعدو الشامل الذي تؤمن به القاعدة. تتبنى القاعدة بعض عقائد التكفيريين ، لكنها لا تُعتبر تكفيرية بشكل كبير. كان التكفيريون يكرهون بن لادن لأنه كان يأخذ نشطاءهم ويحرفهم عن عدوهم القريب منهم ويوجههم إلى الجهاد العالمي. قال أبو جندل لخلاد: «أنت لا تتصرف مثل ما كان مهند سيتصرف لو كان مكانك». أدى هذا الكلام إلى تصويب سلوك شقيقه.

كانت هذه القصص عن أعضاء القاعدة مفيدةً سواء في مساعدتنا على فهم نفسيات الأشخاص الذين كنا نواجههم وكذلك في الاستجوابات المستقبلية. كان بإمكاننا أن نبرهن للمشتبه بهم أننا نعرف تفاصيل حياتهم وأنه لا فائدة من الإنكار. قمنا كذلك بتشجيع أبي جندل كي يخبرنا تفاصيل أكثر بقدر الإمكان عن النشطاء، وهذا ما فعله. قال أبوجندل، على سبيل المثال، إن سيف العدل «اشتُهر بأنه يفقد أعصابه بسرعة، وبلسانه اللاذع، كما أنه يُعرف بتهديداته ضد أعضاء القاعدة الذين يغضبونه».

تحوّل حديثنا إلى تفاصيل الإجراءات الأمنية الشخصية لبن لادن، وهي الأمور التي كان أبو جندل يعرفها جيداً. «يختار الشيخ حراسه بنفسه. يقوم سيف العدل بعد ذلك بتدريبهم مع أبي حفص المصري الذي يُعلّم الإجراءات العسكرية».

شرح أبو جندل أن حراس بن لادن كانوا من الموثوق بهم، وكانوا أعضاء مهمّين في القاعدة، وحتى أنهم كانوا ينامون في الغرفة ذاتها التي ينام فيها زعيم القاعدة. أما أبو جندل فكان يمتلك غرفته الخاصة به، وذلك لأنه كان صاخباً في نومه، وهو

الأمر الذي كان يشكّل إحراجاً بالنسبة إليه: كان يصدر «أصواتاً بأسنانه» [يصرّ بأسنانه] وهو لذلك لم يرغب في إيقاظ بن لادن. فصّل لنا أبو جندل الأسلحة التي كان الحراس الشخصيون يحملونها. اشتملت مجموعة أسلحتهم على قذائف سام ٧- وستينجر الموجهة، وبنادق AK-47، وقذائف آر. بي. جي، ورشاشات بي. كاي (الشبيهة برشاشات M60).

قال لنا أبو جندل إن أبا عاصم المغربي (عبد اللّٰه تبارك)، هو الرئيس المعيّن لفرقة الحراس الشخصيين بعد تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا. قال أبو جندل إن تبارك كان من ضمن مجلس شورى القاعدة. (لكن الوثائق التي عثرنا عليها لاحقاً برهنت أنه لم يكن من ضمن المجلس، لكنه كان يشارك في الاجتماعات لأنه مقربٌ جداً من بن لادن). كان تبارك في إحدى المراحل في معتقل غوانتانامو باي الأميركي، لكنه سُلّم لاحقاً إلى المغاربة الذين أطلقوا سراحه في وقتٍ لاحق. يسرح تبارك بكل حرية في المغرب حتى تاريخ تأليف هذا الكتاب.

يعتبر أبو جندل أن القاعدة كانت بمثابة أسرة كبيرة. أبلغنا كذلك أن هيكلية القبيلة الكبيرة الواحدة هي الطريقة التي بنى بها بن لادن منظمته على أساس قبيلة كبيرة واحدة، وذلك على أن يكون هو شيخ تلك القبيلة. كانت تلك طريقة لتكوين الولاء وتمتين الروابط بين الأعضاء، كما أن بن لادن لم يشجّع فقط أبا جندل وصقراً، بل أنه فعل ذلك عن طريق التزاوج في ما بينهم. وعندما تحدّث أبو جندل عن حمدان فقد أخبرنا أنه عند ولادة ابنه [ابن أبي جندل] بدقائق قليلة حمل صقر الطفل الوليد وركض به نحو بن لادن قبل أن يتمكن أبو جندل من إيقافه. صرخ صقر: «يا شيخ، يا شيخ، هذا هو حبيب ابن أبي جندل. حمل زعيم القاعدة الطفل، ومضع بِضْعَ حبات من التمر في فمه، وتناول واحدة أو اثنتين منهما، ثم وضعهما على شفتَي حبيب، وراح يتلو الأذان في كلتا أذنَي الطفل. شعر أبو جندل وصقر بالفخر بأن يكون أول شيء يتذوقه حبيب في حياته قد خرج من بين شفتَي بن لادن.

بدا لنا من حديثنا أن أبا جندل ما زال يحتفظ بتقديره لعلاقته بزعيم القاعدة،

وذلك بالرغم من معرفته بأن بن لادن هو وراء هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، وأنه كان معجباً به بطريقة ما. كان الروتين اليومي عند بن لادن هو النهوض قبل الفجر، والصلاة في المسجد، والعودة إلى المنزل. كان يمضي بعض الأوقات مع أسرته (مع زوجاته الأربع وأطفاله الكثر) ثم يعود إلى المسجد لتأدية المزيد من الصلوات. كان يجتمع بعد ذلك بأتباعه ويعالج شؤون القاعدة. وصف أبو جندل منزل بن لادن بأنه «بسيط جداً، ويخلو حتى من سجادة على الأرض». ابتسم أبو جندل لأن ذلك شحذ ذاكرته. كان أبو جندل مريضاً في مرحلةٍ ما، فأتى بن لادن لزيارته. رأى بن لادن أثاث المنزل، ورفاً من الكتب، وسجادة، فقال مبتسماً: «انظر إلى كل هذا، في حين تزعم أنك مجاهد». قدّر أبو جندل زيارة بن لادن كثيراً.

عبّر أبو جندل عن الرهبة حتى عندما تذكّر أعمال بن لادن غير الدينية، أو تلك غير المتعلقة بالقاعدة. أخبرنا أبو جندل بأنه عادة ما كانا يشتركان في لعب كرة القدم، وأضاف أن بن لادن كان لاعباً ماهراً. قال أبو جندل: «يريد الجميع أن يلعب أبو عبد الله في فريقهم، وذلك لأنه يجيد تسجيل الأهداف».

أمضينا بعض الوقت بالتحدث عن مختلف معسكرات التدريب والمجمعات التابعة للقاعدة، وشكّل ذلك معلومات هامة بالنسبة إلى جيشنا. كان أمير كل معسكر، وكل أمير مجمع سكني، يرسل تقارير عن النشاطات والأعضاء، كما أن بن لادن يجتمع شخصياً بمختلف الأمراء. كان سيف العدل يحتفظ بالتقارير الأمنية، والمعلومات عن الأفراد.

تحولنا إلى الحديث عن المعدات التي تستخدمها الجماعة، وبدأنا بنظام الاتصالات. قال أبو جندل: «يستخدم أعضاء القاعدة في التواصل في ما بينهم نظام راديو من نوع يايسو Yaesu، والذي يعمل على الطاقة الشمسية. يجري تشفير الرسائل عن طريق جهاز كمبيوتر من نوع كاسيو حيث يقوم أحد المشغلين بقراءة أرقام عن طريق الراديو. يقوم مشغل في الطرف الآخر بتسجيل الأرقام ويُدخلها إلى جهاز كمبيوتر لفك شيفرة الرسائل. كان أبو عطاء التونسي هو الذي طبّق النظام. لم

يستخدم الشيخ هذا النظام بنفسه، لكن سعيداً المصري هو الذي كان يقوم بتشغيل النظام نيابة عنه».

استخدمت القاعدة شاحنات تويوتا الصغيرة (موديل هيلوكس) في التنقلات، وذلك بالإضافة إلى أربع عشرة حافلة للركاب. كان بن لادن يحصل على شاحنات التويوتا الصغيرة من الإمارات العربية المتحدة، وكان يحبها بسبب «مرونتها». وعندما كان بن لادن يتنقل من مكان إلى آخر كان فريقه الأمني يطبّق إجراءات محددة لضمان أمن تلك المناطق التي يزورها، ويشمل ذلك التفتيش عن ألغام مدفونة في الأرض.

لخّص أبو جندل لنا الأسلحة التي تستخدمها القاعدة، وذلك بدءاً من أنظمة الدفاع الجوي، والرادار (وكيفية تخزينها ونقلها) مروراً بالمسدسات التي يحملها الحراس الشخصيون. أخبرنا أبو جندل كل شيء يعرفه عن أسلحة وقدرات القاعدة التي تستضيفها طالبان. وعندما سألنا أبا جندل عمّا إذا كان يعتقد أن طالبان سوف تحافظ على دعمها للقاعدة إذا ما تعرضت لهجوم من الولايات المتحدة، فقال لنا إن الملا عمر، وهو زعيم طالبان، قال ذات مرة: «سيحدث ذلك فقط إذا ما تعرضت بلاد أفغانستان بأكملها للحرق، وبعد أن يُقتل كل أفغاني، وعندها سوف يُسمح لنا بتسليم مسلمٍ إلى الكفار».

لخّص أبو جندل عملية التدريبات التي تتبعها القاعدة والمنشآت الموضوعة تحت تصرفها. «عندما يصل المتدربون فإنهم يخضعون بداية إلى دورةٍ إرشادية في مركز الضيافة الذي ينزلون فيه، وهي الدورة التي يشرف عليها عادة أمير العلاقات العامة. يشدّد الأمير على المكافآت السماوية التي يحصل عليها أولئك الذين يصبرون ويلتزمون بالانضباط خلال التدريبات، كما أنه يشدّد كذلك على أهمية الأخلاق والسلوكيات الإسلامية».

يتوجه المتدربون بعد ذلك إلى معسكر تدريب حيث يدرسون الانضباط

العسكري، والمسائل الإدارية، والتشكيلات العسكرية. يتعلّم المتدربون كذلك استخدام الأسلحة الخفيفة، كما يتلقون تدريبات على المدفعية، والطوبوغرافيا [تضاريس الأرض]، والإسعافات الأولية، والمتفجرات البدائية، وذلك قبل وصولهم إلى حرب العصابات. تُختتم فترة التدريب بتدريبات عسكرية يتم فيها الهجوم على الأهداف.

تابع أبو جندل كلامه: «يُعتبر كل ذلك المستوى العادي للتدريب، لكن يتم اختيار بعض المتدربين بسبب التزامهم، وأخلاقهم، وانضباطهم كي يلتحقوا بتدريب متقدم ومتخصص. ينظم سيف العدل دوراتٍ أمنية متخصصة. تعلم هذه الدورات المتدربين كيفية اختيار هدفٍ لتنفيذ عملية، وكيفية جمع المعلومات حول الهدف، والتقاط الصور، وأي شيء آخر يُعتبر ضرورياً». كان أبو عبد الرحمن المهاجر وطارق التونسي يتوليان التدريب ذا المستوى المتقدم على المتفجرات والإلكترونيات، لكن ذلك كان يحدث فقط إذا سمح بن لادن بذلك، وكانت هذه التدريبات مخصصة للنشطاء الذين توكل إليهم مهمة معينة.

وضع سيف العدل بدوره قواعد أمنية منتظمة وحذّر الإخوان من التحدث عن الأعمال الرسمية، وشرح لهم ما يفعلون قبل السفر إلى خارج أفغانستان، مثل تكليف حلاق بقص شعرهم ولحاهم بحيث لا يبدون مختلفين عن الآخرين. حدّد لنا أبو جندل بعد ذلك بعض النصائح الأخرى التي يتلقاها النشطاء قبل السفر.

سألته: «هل يشترك بن لادن في التدريبات؟»

أجاب أبو جندل: «أجل، فعادة ما يساعد الشيخ في التدريب. أتذكر ذات مرة عندما توجهنا إلى الصحراء وخضعنا لدورة تدريبية سماها ثعلب الصحراء، واشتملت على كيفية المناورة في الليل وسط الصحراء. أخذنا في مرحلة أخرى إلى الصحراء في يوم شديد الحرارة، ثم أمرنا بالركض إلى قمة إحدى التلال الرملية والعودة منها. أبلغنا عندما عدنا: «تماثل طريقنا الركض بصعوبته ومشقته، لكن في نهاية ذلك

الطريق ستجدون جنة اللّه، أي مثل ما وصلتم إلى قمة هذه التلة بعد قهركم لها». شعر جميع الرجال بالتشجيع بعد سماعهم ذلك الكلام».

كانت هناك تدريبات تعلّم فيها المتدربون كيفية خطف الطائرات، كما تعلموا تقنيات الاغتيال. شيّد المتدربون أثناء إحدى التدريبات هيكلاً لقاعدة وراء معسكر خالدان، ورفعوا عليها العلم الأميركي على أحد أبنيتها. طُلب من المتدربين أن يتخيّلوا أن تلك القاعدة هي قاعدة أميركية، وأن يهاجموها.

كانت من بين المواضيع الأخرى التي تطرقنا إليها كيفية تخطيط القاعدة للهجوم، بما في ذلك تحديد المشتركين، وتحديد المراحل المختلفة للعملية. كان بن لادن يجتمع عادة بلجنته العسكرية، أي مع رئيسها محمد عاطف وآخرين، بمن فيهم أبو محمد المصري وسيف العدل. كان يجتمع كذلك مع اللجنة الاستشارية، وهي اللجنة التي تضم سعيداً المصري، وأبا حفص الموريتاني، وأيمن الظواهري.

أضاف أبو جندل أنه عندما يتقرر تنفيذ عملية كبيرة يتعيّن إعلام كبار الأعضاء بالتبريرات الموجبة لها. أُبلغ الأعضاء قبل عمليات تفجير السفارتين بأن عملية استعادة الأمل الأميركية قد أسفرت عن قتل ثلاثين ألف مسلم، وأن السفارتين كانتا مركزَي تجسسٍ أميركيين في شرق أفريقيا.

اغتنمنا فرصة الحديث عن تفجيرات السفارتين فسألنا أبا جندل عما إذا كان قد علم بشأن تفجيرهما. اعترف لنا بأنه طلب من بن لادن أن يكون مهاجماً انتحارياً، وهو ما يناقض زعمه السابق بأنه يعارض الهجمات الانتحارية. أبلغه بن لادن بعد أن طلب منه التحلي بالصبر: «هذا ليس وقتك».

أبلغنا أبو جندل كذلك بأنه عرف أسماء المشتركين بالعملية بمن فيهم العوهلي. تذكّر أبو جندل أنه رأى صورة العوهلي تحت اسم زائفٍ في صحيفة، وذلك بعد حدوث التفجيرات. قال لنا: «أعتقد أن الاسم الحركي للرجل كان خالد سالم».

سألته: «ماذا نفعل به برأيك؟»

قال أبو جندل: «إن أفضل ما تفعلونه به هو إعدامه».

«ولماذا؟»

قال أبو جندل عن اقتناع بما هو في مصلحة العوهلي: «إنه يريد أن يكون شهيداً، ولا يريد أن يعيش».

ناقشنا مع أبي جندل تفجيرات شرق أفريقيا، ثم أخبرنا ما يعرفه عن خلية القاعدة في لندن، وهي الخلية التي يرأسها فواز، وهو رئيس سابق لخلية كينيا. انزعج بن لادن كثيراً عند وصول خبر إلقاء القبض على فواز. قال أبو جندل متذكراً ما قاله بن لادن: «أخبرنا بأنه طلب من فواز مغادرة لندن والعودة إلى أفغانستان، لكنه لم يصغِ». قال أبو جندل بأن بن لادن مضى في الثناء على فواز، وقال له إن فوازاً كان «نموذجاً جيداً ويتمتع بقدرات نأمل أن يعوضنا اللّه بديلاً عنها».

مضينا في مناقشة مسائل عمليات القاعدة الأخرى، بما في ذلك تفجير يو. أس. أس كول. بدأت المحادثة بعد أن عرضنا على أبي جندل صورة لحسان الخامري، وهو أحد المهاجمين الانتحاريين. قال لنا إنه يعرفه: «هذا هو حسان، فليرحم اللّه روحه».

سألته: «وكيف علمتَ أنه مات؟»

أجاب أبو جندل: «يقول لي حدسي إنه مات». اعترف في وقتٍ لاحق بأنه رأى صورة الخامري في صحيفة، وعرّف به بوصفه أحد المهاجمين الانتحاريين للمدمرة كول. أخبرنا أبو جندل بأن الخامري كان أمير معسكر تدريب الفاروق، وهو المعسكر الذي أصابته القذائف الصاروخية الموجهة التي انهمرت رداً على تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا. كان لتلك التجربة تأثير كارثي في الخامري. حدّثنا أبو جندل عن نشطاء آخرين من الذين تورطوا في الهجوم على كول، مثل النشيري.

ناقشنا بعد ذلك موضوع الأميركيين الذين التقاهم، والذين تحوّلوا إلى الإسلام

ثم توجّهوا إلى أفغانستان. تحوّل الحديث بسرعة إلى مناقشة المحاولات التي قامت بها وكالات التجسس الخارجية بهدف محاولة اختراق القاعدة. أخبرنا أبو جندل بأن إحدى وكالات الاستخبارات الأجنبية جنّدت أحد العملاء بعد أن أخذته إلى غرفة فندق، وعرضت عليه أفلاماً إباحية، واعتدت عليه ثم ابتزته. انهار المجنّد بعد أن اتهمه سيف العدل بأنه جاسوس، وما لبث أن اعترف بأن تلك هي الحقيقة. هناك قصص أخرى تتعلق بوكالات استخبارية من بلدانٍ أخرى.

استمرت المقابلة مع أبي جندل الليل بأكمله. أردنا الحصول منه على كل شيء ممكن في تلك الجلسة، وذلك تحسباً لإمكانية أن يغيّر رأيه بشأن التعاون معنا. وعندما انتهينا أخيراً بدا مرتاحاً وقال لي: «أيمكنني أن أطلب منك خدمة؟»

«بالتأكيد».

قال لي: «من فضلك، ثم من فضلك، ابعث بتعازيّ الحارة إلى الشعب الأميركي، مني أنا الإرهابي الذي كان جزءاً من القاعدة».

ألقيت التحية على أبي جندل في بداية الجلسة التالية، وقلت له: «أتذكر ما قلته لك عن تاريخ أميركا الثوري؟»

أجاب بتلهف: «أجل».

«حسناً، هاك كتاباً عن هذا الموضوع. أعتقد أنك سوف تستمتع به». ناولته الكتاب (الذي كان بالعربية) وهو الذي يتحدث عن جورج واشنطن وتاريخ الثورة الأميركية، وهو كتاب عثرتُ عليه في السفارة الأميركية.

قال لي وهو يأخذ الكتاب بامتنان: «شكراً لك».

أمضينا تلك الجلسة وكل المساءات التالية على مدى الأسبوع ونصف الأسبوع التالي بالتحدث مع أبي جندل ومتابعة المسائل التي أثرناها في جلسة المساء الثاني التي أردنا عنها المزيد من المعلومات، استمتع أبو جندل بمحادثتنا كما أنه أعطانا

كل المعلومات التي أردناها، وضحكنا وتناولنا الشاي معاً. عانقنا أبو جندل أنا وبوب عند مغادرتنا اليمن بعد ذلك، ودعانا إلى زيارة بيته في اليمن، «عندما أصبح حراً وأخرج من السجن».

تكلم معنا أبو جندل عن المسار الذي أوصله إلى القاعدة. ولد الرجل في جدة لكن عائلته انتقلت بعد ذلك إلى اليمن. ظهر التزامه الديني القوي نحو العام ١٩٨٨، وبدأ في التردد على مسجد في صنعاء ثم بدأ بدراسة الدين والقرآن. ومع اشتداد الحرب في البوسنة وبعد أن شجعته أقوال أساتذته وبعد أن استفزته صور المذابح وقصص اغتصاب النساء، والفتيات المسلمات على يد الغزاة الصرب، سافر إلى البوسنة لمساعدة المسلمين في الدفاع عن أنفسهم.

لم يكن من الممكن في ذلك الوقت السفر إلى البوسنة مباشرة من اليمن، ولهذا اتبع مساراً طويلاً. سافر جواً من صنعاء إلى دمشق في سوريا، وقاد السيارة من هناك إلى اسطمبول في تركيا، ثم سافر جواً من العاصمة التركية إلى زغرب في كرواتيا. استقل أبو جندل سيارة من زغرب إلى زينيتسيا في البوسنة وهناك استقبلته مجموعة من المجاهدين، وهو الاسم الذي أطلق على المجاهدين العرب، ومعظمهم من الذين سبق لهم أن حاربوا في أفغانستان والبوسنة. أعطاهم جواز سفره وكل ممتلكاته الثمينة كي يحفظوها له، وذلك كي لا يتمكن أحد من التعرّف إليه بوصفه مقاتلاً أجنبياً في حال مقتله أثناء المعركة، كما أنه خضع لتدريب في أحد المعسكرات لمدة خمسة وأربعين يوماً.

تعلّم أبو جندل كيفية استخدام رشاشات الكلاشينكوف، ورشاشات بي. كاي، وقذائف آر. بي. جي، كما تعلم الطوبوغرافيا والتكتيكات القتالية. توجّه أبو جندل بعد أن أكمل الدورة التدريبية إلى الخطوط الأمامية، وشارك في المعارك ضد القوات الصربية. لم يحارب أبو جندل لمدة طويلة مع ذلك لأنه بعد وقتٍ قصير من ذهابه إلى الجبهة تم توقيع اتفاقية دايتون للسلام، وما لبث أن تعرّض أبو جندل والمحاربون الأجانب الآخرون إلى الترحيل. قال أبو جندل إن قادة المقاتلين

الأجانب، وبمن فيهم أبو الحارث الليبي، وأبو حمزة الجزائري، وأبو زياد النجدي، وأبو همام النجاجي، قد تعرضوا للاغتيال في هذه الفترة. قيل لأبي جندل وجماعته بعد ذلك إنه ينبغي عليهم مغادرة البلاد التي لم تعد تحتاجهم بعد الآن.

اتخذ المحاربون أسماءً حركية بهدف إخفاء هوياتهم الحقيقية عن حكومات بلادهم، والهيئات الاستخبارية الأخرى. اتخذ أبو جندل في البداية الاسم الحركي أبا حمزة، لكن قيل له إن ذلك الاسم شائع جداً. اقترح أحد أصدقائه من المصريين أن اسم أبي جندل هو أكثر ملاءمة له، بكل ما يحمله من صفات لحامل ذلك الاسم، أي وكيل الموت.

سافر أبو جندل في العام ١٩٩٦ إلى الصومال من أجل مساعدة المقاتلين المسلمين الذي كانوا يحاولون السيطرة على البلاد. اكتشف أبو جندل مع ذلك أن الصوماليين انتقائيون في ما يتعلق بمن يُسمح له بالقتال. سُمح لأبي جندل وحده بالبقاء من بين مجموعته، وذلك لأن بشرته الداكنة تسمح له بالاختلاط ببقية سكان البلاد بسهولة. أراد الصوماليون «تجنّب التعقيدات، لذلك رفضوا قبول أي شخص يوحي مظهره بأنه أجنبي المولد، وذلك لأنهم أرادوا الإبقاء على مظهر القوة المحلية. توافق وصف أبي جندل للمسار الذي قاده إلى الصومال مع المسار الذي قال لنا الحسين خرشتو إن القاعدة تستخدمه لنقل المقاتلين.

اتصل رجال دين تابعون لحركة الوحدة الإسلامية، أو الاتحاد الإسلامي (أي مضيفيه)، وسألوه عمّا إذا كان يحمل معه مالاً يعطيه من أجل «قضيتنا العادلة». أوصل هذا الطلب أبا جندل إلى خيار حاسم. أبلغهم بلهجة غاضبة: «إننا لَسْنا هنا للجهاد من أجل الأموال، ولا للجهاد من أجل لون البشرة». لم يعجبه موقف رجال الدين إزاء القتال، وتجاه رفاقهم من المسلمين. عاد أبو جندل إلى اليمن من دون أن يحارب في معركة واحدة في الصومال.

التقى أبو جندل في وقتٍ لاحقٍ من تلك السنة مهند بن عطاش، وهو شقيق خلاد الأكبر، وذلك في مركز ضيافة القاعدة الكائن في شارع أكتوبر في صنعاء. كان مهند

شخصية ملهمة، فأقنع أبا جندل بالذهاب إلى طاجكستان للبدء معه بالجهاد. سافر الرجلان إلى كراتشي أولاً، والتقيا هناك مقاتلين أجانب. عُرفت تلك المجموعة في ما بعد، وإن بشكلٍ غير رسمي، بالمجموعة الشمالية. كان أبو جندل من ضمن أفراد هذه المجموعة الذين قدموا البيعة في العام ١٩٩٦ إلى بن لادن. عرّف لنا أبو جندل أعضاء تلك المجموعة.

توجّه أبو جندل إلى الخطوط الأمامية للقتال إلى جانب طالبان ضد التحالف الشمالي. جُرح أبو جندل في سياق القتال في أسفل قدمه، ثم أُخلي إلى خوست. أمضى أبو جندل ثلاثة أشهر من النقاهة، وما لبث أن ذهب إلى قندهار للانضمام إلى بن لادن. عمل ضمن مجموعة من الحراس، وذلك إلى جانب خلاد، وحمدان، وآخرين، وذلك خلال المؤتمر الصحافي الذي عقده بن لادن في العام ١٩٩٨ بعد المقابلة التي أجراها مع محطة آي. بي. سي.

ضمّ بن لادن أبا جندل، وصقراً الجدوي، وفياضاً المدني، ومعاوية المدني إلى مجموعة حرّاسه الشخصيين، وذلك بعد تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا. أعطى بن لادن أبا جندل بندقية محشوة برصاصتين، وقال له: «أريدك أن تقتلني أولاً إذا حدث وكنت على وشك الوقوع في الأسر». تحولت هذه البندقية والرصاصتان إلى أثمن ممتلكات «أبي جندل».

أوصى أبو محمد المصري بعد رحلة له إلى اليمن أن يعيّن أبا جندل أميراً على مركز ضيافة كابول. وقع نزاع ما بين نشطاء القاعدة المصريين وأعضاء القاعدة الآتين من شبه الجزيرة العربية حول مَن سيكون مسؤولاً عن المركز. أدرك بن لادن أنه يحتاج إلى شخصٍ تحترمه المجموعتان، وشعر بأن أبا جندل يلبي هذا الشرط. شعر أبو جندل بأنه حصل على شرف كبيرٍ بهذا التعيين.

كانت وظيفة أبي جندل كأمير هي إجراء المقابلات مع الأشخاص الذين أتوا للبقاء، وتحديد السبب الذي أتوا من أجله إلى أفغانستان، واختبارهم لتحديد ما إذا

كانوا مرشحين مناسبين لعضوية القاعدة. كان بن لادن يدفع له مبلغ ٦٤$ شهرياً مقابل هذه المهمة. جال أبو جندل كذلك بين مختلف معسكرات التدريب، واجتمع مع المجنّدين ودعا إلى الجهاد ضد أميركا، كما شرح أهمية القاعدة.

انتقل أبو جندل في وقتٍ لاحق من كابول إلى قندهار حيث مكث في مقر بن لادن، وكان يتلقى مرتباً من بن لادن يبلغ ٩٤$ شهرياً لمساعدته على حمايته. ضمن أبو جندل له في هذه المرحلة مركزاً محورياً ضمن الموكب المرافق لبن لادن.

احتفظ أبو جندل بالكتاب الذي يتحدث عن جورج واشنطن. (أخبرني المحامون الذين قابلوه بعد سنوات في سياق محاكمة حمدان بأنه ما زال يحتفظ بالكتاب، وأنه عرضه عليهم). قرأ أبو جندل الكتاب على الفور، وخصّص يوماً بأكمله لقراءته، كما ناقشه معنا في ذلك المساء. قال لي بحماسة: «بن لادن هو مثل جورج واشنطن، وكلاهما رجل ثورة».

أجبته مبتسماً: «كلا، فهما ليسا متشابهين».

توزعت المعلومات الاستخبارية التي أعطانا إياها أبو جندل بين مختلف الوكالات الاستخبارية والعسكرية. اعتُبر الحصول على هذه المعلومات نجاحاً كبيراً. اتصل بنا، أنا وبوب، إدموند هال، وهو الرجل الذي حلّ مكان باربرا بودين كسفيرٍ إلى اليمن، ودعانا إلى مكتبه وقال لنا: «تهانينا. أدى استجواب الجنرال مشرف لأبي جندل إلى الاعتراف بأن القاعدة هي التي تقف وراء هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ودفعت به كذلك إلى الانضمام إلى التحالف. حسناً فعلتما. كان ذلك نجاحاً ضخماً».

بقي استجواب أبي جندل الذي يحمل الرقم ٣٠٢ يُعتبر حتى هذا اليوم أنجح استجوابٍ لأي ناشطٍ في القاعدة. كان ذلك الاستجواب قيّماً جداً في الحرب على أفغانستان، كما كان عاملاً حاسماً في نجاح استجوابات عدد كبير من نشطاء القاعدة الذين ألقينا القبض عليهم في ما بعد، كما أنه كان أساساً لمعظم معلوماتنا عن

القاعدة. بقي هذا الاستجواب مستخدماً في استجواب وملاحقة نشطاء القاعدة. (يمكنني التحدث عن أبي جندل بتفصيلٍ أكبر من ذلك الذي يمكنني التحدث به عن الموقوفين الآخرين، وذلك لأن لجنة مجلس الشيوخ القضائية نزعت صفة السرية عن الاستجواب رقم ٣٠٢).

رحّبت الهيئات العسكرية بلهفة بالمعلومات التي كسبناها عن قدرات تنظيم القاعدة، وأنظمة الاتصالات التي تستخدمها، وهي استوعبت تلك المعلومات. يُذكر كذلك أنه تم تأخير موعد البدء بالحرب على أفغانستان من أجل إتاحة الفرصة للاستخدام الأمثل لتلك المعلومات. دُعي فريقنا إلى البحرين لإعطاء ملخص عن استجوابنا أمام الضباط العسكريين، وكان من أبرزهم نائب الأميرال، تشارلز «ويلي» مور، وهو قائد القوات البحرية الأميركية في القيادة الوسطى. أعطينا ملخصاً للأميرال حول كل شيء كشفه أبو جندل أمامنا. انتهت جلستنا في وقتٍ متأخرٍ من ذلك اليوم، ولهذا اضطررنا إلى تمضية الليل في البحرين. قصدنا كذلك العودة جواً إلى اليمن في الصباح. كانت تلك أول أمسية حرة لنا خلال أسابيع، وهكذا قرّرنا الذهاب إلى أحد المطاعم لتناول طعام العشاء.

ما إن خرجنا من المطعم حتى رأينا مجموعة من الشبان الذين تجمعوا في موقفٍ للسيارات قريب من المطعم. زاد الشبان من عدائيتهم لنا فأمسكوا بوب وحاولوا دفعه إلى إحدى سياراتهم. قاومهم بوب، كما حاولت مع صديقي وأحد زملائي في مكتب التحقيقات كارلوس فرنانديز مقاومة الشبان. لكنهم كانوا يفوقوننا عدداً، كما أننا لم نكن نحمل سلاحاً.

كانوا يصرخون في ما بينهم بالعربية، فعرفت أنهم من الشبان الشيعة الغاضبين الذين يريدون تقليد نشطاء حزب اللّه البحريني. بدا أن بوب لم يعجبهم، وهو الذي رأوه بلون بشرته الفاتح، وعينيه الزرقاوين، أكثر الأشخاص من بيننا قرباً من الغربيين. سبق للبحرين أن عانت من مشاكل مهمّة مع الشريحة الشيعية من سكانها.

صرخت بهم: «ماذا تفعلون أيها الحمقى؟»

«إننا إرهابيون. إننا من حزب اللّٰه».

أدركت على الفور أنهم مجرد صبية ضجرين لا عمل لهم. إن العضو الحقيقي في حزب اللّٰه لا يسمي نفسه إرهابياً.

اقتربت من أحدهم الذي بدا أنه زعيم تلك المجموعة، وقلت له: «إنني لبناني، وأنا العضو الحقيقي لحزب اللّٰه، ومن لبنان. إنكم تتدخلون في عملي. ابتعدوا عنا».

جمُد الشاب ثم حاول بعد ذلك أن يعانقني. قال بتأثر: «أنت واحد منا يا أخي، ونريد مساعدتك».

«كلا أنتم لا تساعدونني. أقدّر لك مشاعرك، لكن أريدك أن تذهب من هنا، وتأخذ رفاقك معك قبل أن تقعوا في مشاكل».

ترك الشبان بوب وشأنه بعد أن اعتذروا وبدأوا بمعانقتي: «إننا حلفاؤك من حزب اللّٰه البحريني. يحيا حزب اللّٰه!» تبيّن لي أنهم ثملون.

صرخت بهم وأنا أبعدهم عني: «حسناً، حسناً. سنذهب الآن إلى منازلنا». هرعوا إلى سياراتهم، ووجهوا تحياتهم لي، وابتعدوا عن المكان.

سافرنا جواً عائدين إلى اليمن في صباح اليوم التالي.

سألت القمش: «والآن، هل نستطيع التكلم مع الحداء؟»

أجاب القمش: «ولماذا؟ إنه مجرد رجلٍ عجوز، ولا يرتبط بالإرهاب مباشرة. انتهينا من هذه المسألة من قبل».

«انتهينا من هذه المسألة، لكن الوضع مختلف الآن».

دأب اليمنيون على ترديد عبارة «إنه مجرد رجل عجوز» أمامنا منذ تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا. أما مهاجم نيروبي الذي بقي على قيد الحياة، أي

العوهلي، فقد اعترف أمام مستجوبيه من مكتب التحقيقات بأنه اتصل برقم هاتف الحداء في اليمن بعد الهجوم، وذلك كي يُعلم القاعدة بما حدث له، وكذلك كي يطلب جواز سفر مزوراً وبعض المال. أصرّ اليمنيون على القول، بالرغم من ذلك، إنه مجرد رجل عجوز استُخدم منزله.

قلت للقمش: «إنه ليس مجرد رجلٍ عجوز يا صديقي. أخبرنا أبو جندل للتو بأن الحداء ليس فقط عضواً في القاعدة، لكنه والد زوجة خالد المحضار، وهو أحد خاطفي الرحلة ٧٧ لأميركان آيرلاينز، وهي الطائرة التي صدمت البنتاغون».

أُحضر الحداء إلى غرفة الاستجواب في صنعاء وجلس أمامنا. عرّفْنا أنا وآندريه خوري، وبوب بأنفسنا وقرأنا عليه تحذير ميراندا وشرحناه له. تخلى الرجل عن حقوقه في استخدام محام، ووقع وثيقة ميراندا مستخدماً بصمته، وذلك لأنه لم يكن متعلماً، ولا يعرف كيفية كتابة اسمه.

بدأته بالتحية: «السلام عليكم». أخبرته بأننا نحقق في الهجوم الإرهابي على أميركا.

أجاب الرجل: «لا أعرف أي شيء عن الإرهاب. إنني مجرد رجل عجوز».

سألته: «ألا تعرف أي شيء عن القاعدة؟»

«كلا».

«حسناً إذاً. أخبرنا عن زوج ابنتك خالد المحضار».

«لا أعرف أي شيء عن زوج ابنتي. لا أعرف حتى أن ذلك هو اسمه».

«ألا تعرف اسم زوج ابنتك؟ إذاً، كيف تزوجت ابنتك؟»

«أتى رجال ذات يوم إلى المسجد وسألوا عن ابنتي، وقالوا إنّهم يريدون تزويجها لصديقهم».

«وهل وافقتَ؟»

«أجل».

«ألم تلتقِ زوج ابنتك أبداً، أو تتحدث معه؟»

«كلا».

صرخ أحد الضباط الموجودين معنا بعد أن عجز عن المحافظة على هدوئه: «يا للعار. كيف تكون ابن قبيلة، وكيف يمكنك أن تكون عربياً؟» كيف تزعم أنك يمني وتقول شيئاً كهذا؟ أنت تتكلم عن ابنتك، وهي لحمك ودمك. إنها شرفك». تورد الحداء خجلاً.

تدخل آندريه هنا: «إن أي عربي يحترم نفسه لا يُقدم على شيء كهذا. ما خطبك يا رجل؟» هزّ الحداء كتفيه ولم يقل أي شيء. كان من اللافت للنظر أن حماية القاعدة هي أكثر أهمية بالنسبة إليه من سمعته.

حافظ الحداء على مدى ساعات عدة على القول إنه لا يعرف شيئاً. أردت أنا وآندريه الإيقاع به، فبدأنا نختبره بما يعرفه عن نفسه. سألناه عن حقيقة محددة، وتصرفنا كأننا لا نعرف الإجابة. كان يجيبنا منكراً أنه يعرف الإجابة. لكنه كان يُظهر أنه يعرف تلك الحقيقة. كان الحداء يشعر بحرج شديد عندما تنكشف كذبته، لذلك يعود ليعترف بأنه يعرف بالفعل تلك المعلومات، كما يعترف بتفاصيل جديدة. زعم، على سبيل المثال، أنه لا يعرف هويات أزواج بناته، لكننا عرضنا عليه صورهم. اعترف عند ذلك بأنه يعرفهم بالفعل، كما أعطانا معلوماتٍ عنهم. كنا نطرح سؤالاً في بعض الأحيان من دون أن نعرف الجواب عنه، لكنه كان يعتقد أننا نحاول الإيقاع به لنختبره مجدداً فكان يسارع إلى إبلاغنا بالمعلومات التي نريد معرفتها. كنا نراكم المعلومات ببطءٍ بهذه الطريقة.

جاء أحمد الحداء أساساً من ذمار، اليمن. كان أشقاؤه رجالاً محترمين في المجتمع، لكنه كان بمثابة النعجة السوداء في الأسرة، وهي التي لم تكن ميسورة مادياً. توجه شقيق الحداء، أبو جعفر، إلى أفغانستان وانضم إلى القاعدة بعد وقتٍ

قصير من عودة بن لادن من السودان ١٩٩٦، وهكذا أصبح عضواً في المجموعة الشمالية.

رتّب أبو جعفر في نحو العام ١٩٩٧ زواج اثنتين من شقيقاته بناشطَين من القاعدة صادقهما في أفغانستان، وهما خالد المحضار وأحمد محمد الدربي. سافر الدربي والمحضار إلى اليمن للاجتماع بزوجتَي المستقبل، وتزوجا في حفل زواج مزدوج حضره أعضاء آخرون في القاعدة. عاد الرجلان بعد مضي أشهرٍ قليلة إلى أفغانستان مع زوجتيهما.

تزوجت بنات الحداء الأخريات بدورهن من مقاتلين في القاعدة. كان مصطفى الأنصاري أحد هؤلاء الأزواج، وهو الذي كان يستخدم الاسم الحركي عبد الكريم المكّي. عرّف المحضار أسرته على الأنصاري. كان الأنصاري سعودياً من أصلٍ يمني، أي مثل ما كان الدربي والمحضار. كنا نعرف عنه لأنه كان مسجوناً بسبب حادثة سرقة سيارات بيت هبرة، لكننا لم نكن على علم بعلاقته بالحداء. قُتل الأنصاري في وقتٍ لاحق بينما كان ينفذ هجوماً ضد العاملين الغربيين في منشأة نفطية في ينبع، في المملكة العربية السعودية. أما أزواج بنات الحداء الآخرون المنضوون إلى لواء القاعدة فكان من بينهم عبد الوهاب المكي الذي قُتل في العام ١٩٩٩ في جزر الملوك، إندونيسيا.

أدّى الحداء دوراً ثانوياً في العمليات التي شنتها القاعدة في اليمن. كان بشير الشدادي هو الرجل الأبرز المكلف بتسهيل سفر أعضاء القاعدة في البلاد. شارك الرجل كذلك في الجهاد في البوسنة، وطاجكستان، وأفغانستان. أما الشخص الذي ساعده في تنظيم تنقلات المجاهدين هذه فكان عبد الرزاق صالح النجار، وهو الذي تزوج من شقيقة الشدادي. كان أبو الخلود هو الشخص المكلف باستقبال المجندين اليمنيين في مركز ضيافة قندهار، وهو الذي كان متزوجاً من شقيقة الشدادي الأخرى. أما الناشط الذي تسلم تدريب المجندين في معسكر تدريب الفاروق فكان زوجاً آخر لإحدى شقيقات الشدادي يدعى حسام الدين الحميري. ساد الاعتقاد في ذلك

الوقت أن الإخلاص لرابطة القربى سيتجاوز العقائد، وهو الأمر الذي يجعل من اختراق المجموعة أقلّ احتمالاً. أما محمد، الذي هو ابن بن لادن والذي كان يعتبره جميع أعضاء القاعدة أقرب ما يكون لوالده، فقد تزوج ابنة أبي حفص المصري، وهو الذي كان القائد العسكري للقاعدة.

تحوّل منزل الحداء في صنعاء، وبطبيعة الحال، إلى مكان اجتماع يلتقي فيه نشطاء القاعدة، وذلك لأن كل أولاده قد التحقوا بالقاعدة. كان يأتي أحد الأشخاص في معظم الأيام للمشاركة في اجتماع ما، أو لمجرد تبادل الحديث. أدى هذا الأمر إلى أن يصبح رقمه بمثابة سنترال تحويل المكالمات الهاتفية للقاعدة في اليمن. انزعج الحداء في أحد الأيام من ارتفاع فاتورة هاتفه، وهو الأمر الذي دفع المحضار لمداعبته بالقول بأن الحداء كان «بخيلاً».

أصيبت عائلة الحداء بفاجعة عندما صُعق أبو جعفر في العام ١٩٩٩ بينما كان يصيد السمك في بحيرة ديورانتا في أفغانستان. كان أبو جعفر في قارب مع عضو آخر في القاعدة، بينما جلس عضو ثالث على الشاطئ من أجل تشغيل محولٍ كهربائي. كان الرجال يتصلون ببعضهم بواسطة مرآة عاكسة لضوء الشمس. أساء الشخص الموجود على الشاطئ تفسير حركة المرآة في القارب واعتبرها إشارة، فأقدم على تشغيل المحوّل بينما كان أبو جعفر ما يزال في المياه لكي يجمع الأسماك. مات الرجل على الفور. سافر الحداء إلى أفغانستان لزيارة قبر ابنه، ومكث مع ابنته التي كانت حاملاً في ذلك الوقت، ومع زوجها أحمد محمد الدربي، وهو الذي كان مدرباً في ذلك الوقت في معسكر الفاروق.

قرّر الحداء الانضمام إلى القاعدة فخضع لتدريبٍ عسكري في لوغار. التقاه بن لادن هناك وكرّمه نظراً لسنّه وولائه المعروف. اعتاد نشطاء آخرون على مناداته باسم العم أحمد. تطلبت دورة التدريب في نهايتها تنفيذ مسيرة بطول ثلاثين كيلومتراً. أعفى المدربون في البداية الحداء بسبب سنّه، لكنه غضب لهذا السبب، فقبلوا بشرط أن يكون هو قائد المسيرة. كان فخوراً لأنه سيقود ذلك التشكيل وحمل علمه. أطلق عليه المقاتلون لقب العمدة.

أراد الحداء بعد انتهاء التدريب المشاركة في الجهاد، وهكذا أُرسل إلى الخطوط الأمامية للقتال ضد جنود تحالف الشمال الذين كانوا بقيادة أحمد شاه مسعود. أُبقي الرجل في المؤخرة نظراً لسنّه، أي أنه بقي قرب المدفعية. انضم إليه في أفغانستان سمير (واسمه الحركي عبد الرحمن) أحد أولاده الآخرين، والتحق بأحد معسكرات التدريب التابعة للقاعدة. قُتل سمير في وقتٍ لاحق عندما فجّر نفسه بقنبلة يدوية بعد أن حاصره رجال الأمن اليمنيون أثناء تنفيذ عملية في اليمن.

مكث الحداء في أفغانستان فترة تقرب من الأشهر الخمسة. توقف في قندهار في طريق عودته إلى اليمن، وكان بن لادن في ذلك الوقت يقيم وليمة عشاء. تلقى الحداء تكريماً كبيراً لأنه جلس بالقرب من بن لادن. عاد الحداء إلى اليمن فشجّع ابنه الثالث، أبا خليل، على السفر إلى أفغانستان للانضمام إلى القاعدة.

أيقن اليمنيون عند انتهائنا من جلسة الاستجواب أن الحداء ليس مجرد رجلٍ عجوزٍ لا يعرف القراءة والكتابة.

كان عبد العزيز الجنوبي، وهو الاسم الحركي لأحمد محمد الدربي، أحد النشطاء الذين ذكرهم أبو جندل والحداء. لم نكن نعرف اسمه الحقيقي في ذلك الوقت، وهكذا أطلقنا عليه اسم عبد العزيز. اعتقدنا في البداية أن الدربي قد يكون من بين خاطفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وذلك بسبب المعلومات التي كانت بحوزتنا مسبقاً عنه بما في ذلك واقع أنه كان في الصف القتالي ذاته الذي منه تم اختيار المحضار كخاطف، لكن أوصافه لم تنطبق على أي مسافر كان من ضمن مسافري الرحلات المختطفة.

سألت أبا جندل بعد أن استبعدنا تلك الإمكانية: «أتعتقد أن عبد العزيز يصلح للمشاركة في العمليات؟»

أجاب أبو جندل: «إنه في قسم العمليات الخاصة. لكن إذا أردتم التأكد من أنه ما زال قادراً على المشاركة في العمليات فسوف يتعيّن عليكم التحقق من مكان

وجود عائلته. إذا كان أرسل زوجته إلى أسرتها، فإن ذلك قد يعني أنه يشارك في مهمة». طرحنا على الحداء، أي والد زوجته، هذا السؤال فأكد لنا أن أسرة الدربي قد عادت إلى اليمن وهي تمكث معه في منزله.

تمكنا من التعرف على الدربي بصورةٍ أفضل بفضل الأوصاف التي أعطانا إياها أبو جندل والحداء، كما حصلنا على صورة له من اليمنيين، وذلك بعد أن تقدم بطلب للحصول على جواز سفر يمني تحت اسم آخر. أرسلنا بعد ذلك إنذاراً إلى جميع قوى الشرطة والوكالات الاستخبارية في العالم. عدت إلى الولايات المتحدة بعد أشهر قليلة، وتوقفت في أحد الأيام أمام متجر بقالة في مانهاتن. ذُهلت عندما رأيت ملصقاً لأحد المطلوبين والصادر عن دائرة شرطة نيويورك. كان الملصق موضوعاً خلف آلة تسجيل المدفوعات النقدية. ألقي القبض في النهاية على الدربي عندما كان يحاول زيارة خليلته في أذربيجان.

الجزء الخامس

نظام عالمي جديد

الفصل السابع عشر

هروب بن لادن

سألني أحد قادة تحالف الشمال في أوائل العام ٢٠٠٢ بينما كنا نتجول فوق ركام ما كان في الماضي مخبأ بن لادن في كابول: «ما هذا؟» كانت طائرة مقاتلة أميركية قد حلقت من فوقنا في وقتٍ سابق وألقت آلاف المنشورات التي استقرت رزمة منها قربنا على الأرض.

تناولت ورقةً منها وقلت: «إنها مذكرة تعرض مبلغ خمسة وعشرين مليون دولارٍ مقابل المعلومات التي تؤدي إلى إلقاء القبض على أسامة بن لادن. كان المبلغ مكتوباً بشكل أرقام بينما ظهرت سلسلة من أرقام الصفر المثيرة للانتباه.

قال لي القائد وهو يهز رأسه: «لا تفيد هذه بشيء، ولن تحصلوا على أي معلومات».

«ولِمَ لا؟»

«حسناً. أولاً، لا يُحسن معظم الناس في هذه المنطقة القراءة. لكن ما هو الأهم من ذلك هو أنهم لا يصدقون إمكانية وجود هذه الكمية من المال في العالم. إنهم أناسٌ بسطاء. أما لو كتبتم، على سبيل المثال، مئة روبية فإن ذلك سوف يكون أقرب إلى التصديق، وربما ستحصلون على ردودٍ أكثر».

أطلق الجيش الأميركي ـ بعد رفض طالبان الإنذار الذي وجهته الحكومة الأميركية للتوقف عن إيواء القاعدة، وهو الإنذار الذي انتهت مدته يوم ٧ تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠١ – عملية الحرية الدائمة، وهاجم أفغانستان. استهدفت الضربات الأولية العاصمة كابول، والمطار الرئيس في البلاد، وقندهار حيث يتمركز الملا عمر وكذلك جلال أباد، وكل المدن التي اعتُبرت مهمة لطالبان والقاعدة. شنّت قوات تحالف الشمال في هذا الوقت هجمات ضد مواقع طالبان مستفيدة من الغطاء الجوي الأميركي، ومن عمليات القوات الخاصة.

تنادى قادة مختلف المجموعات الإرهابية للاجتماع، وذلك فور بدء الهجوم الأميركي. كان من بين الحاضرين ممثلون عن القاعدة، والجماعة الإسلامية، والجماعة الإسلامية المقاتلة بليبيا. شارك في هذا الاجتماع كذلك نشطاء مستقلون مثل أبي زبيدة، وابن الشيخ الليبي من خالدان. اتفق الجميع على وضع خلافاتهم العقائدية جانباً، والاتحاد لمقاتلة القوات الأميركية الغازية.

عُيّن عبد الهادي العراقي، وهو أحد القادة العسكريين في القاعدة قائداً على كل المقاتلين العرب. أما مساعده في القيادة فكان عبد الوكيل المصري، وهو أحد المتآمرين في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا. جال عبد الوكيل على جميع قواعد القاعدة، وأمر المحاربين بحفر خنادق حول قواعدهم، ثم قال أمام عدد من نشطاء القاعدة: «ستهاجم الولايات المتحدة من الجو فقط، وسوف تُسقط طائراتها القنابل علينا. يعني ذلك أنها لن تستخدم الجنود على الأرض». تمركزت كل تحضيرات القاعدة حول هذه الفرضية.

كان ظهور القوات الأميركية في أفغانستان مفاجأة لمعظم أعضاء القاعدة بمن فيهم سليم حمدان. سمع حمدان في الماضي خطابات لبن لادن أبلغ فيها زعيم القاعدة الحاضرين بأن الولايات المتحدة بلدٌ ضعيف، ويتراجع عندما يتعرض للهجوم. شكّل رد الولايات المتحدة على الهجمات في نيويورك وواشنطن، والذي تمثل بغزو أفغانستان، صدمةً ضاعفها اضطرار قادة طالبان والقاعدة إلى الفرار.

دأب بن لادن وموكبه على التنقل الدائم فور بداية الاجتياح، وتنقلوا ما بين كابول وجلال أباد، وهي المناطق التي كانت مألوفةً جداً لبن لادن لأنه عاش وتنقل فيها منذ بداية الجهاد ضد السوفيات. اقترب حمدان بتردد من زعيم القاعدة أثناء إحدى محطات التوقف، وطلب الحصول على إجازة قصيرة. قال إن زوجته حامل ومريضة، لكنه وعد بالعودة.

منح بن لادن حمدان الإذن بأخذ إجازة، لكنه قرّر مع مغادرة سائقه الشخصي ومستشاره تغيير مرافقيه. أدرك أن حياته ستصبح من الآن فصاعداً حياة رجلٍ هارب. كان بن لادن في الماضي ضيفاً على نظام طالبان الحاكم، لكنه يحتاج الآن من حوله إلى نشطاء يمتلكون مهارات مختلفة. اشتملت المجموعة الجديدة التي انتقاها على ثلاثة من أبرز النشطاء الذين يثق بهم: ابنه عثمان، وحمزة الغامدي، وهو قائد المجموعة الشمالية، وخلاد. كان من بين الباقين خالد الحبيب، وهو مصري الجنسية، ويوسف القناص وهو كويتي الجنسية، وعبد الرحمن التعزي، وأبو سعيد، وهو سعودي الجنسية.

لم تعد طالبان قادرة على الاحتفاظ بخطوطها الدفاعية، لذلك تولى المقاتلون الأجانب مهام حفظ الأمن في المدن. أرسل بن لادن سيف العدل، وهو أحد كبار نشطاء القاعدة العسكريين، إلى قندهار للمساعدة على تنظيم الدفاع عن المدينة. أدرك بن لادن أن الوضع يزداد سوءاً فأمر مقاتلي القاعدة بنقل عائلاتهم إلى خارج أفغانستان. أما القائد الوحيد الذي لم يهرب من معسكرٍ رئيس للقاعدة فكان أبا حفص، وهو القائد العسكري الأبرز في القاعدة والذي لم يتمكن من التنقل بسبب الأوجاع في ظهره. تمكنت إحدى الغارات الجوية الأميركية من تسوية المنزل الذي كان يقطنه بالأرض، وهو الأمر الذي أدى إلى مقتله مع سبعة أفراد آخرين من أعضاء القاعدة. كان زكريا التونسي واحداً من هؤلاء السبعة وكان (على ما أسرّ به أحد أصدقائه لأبي زبيدة) متورطاً في المعركة التي دارت في العام ١٩٩٣ ضد القوات الأميركية في الصومال. كان هو في الواقع، من قام بإطلاق قذيفة آر. بي. جي

أسقطت طائرة هليكوبتر أميركية، وذلك في الحادثة التي أصبحت تُعرف في ما بعد بحادثة إسقاط البلاك هوك. قُتل في تلك الغارة كذلك مُعز بن عطاش، وهو أصغر أفراد أسرة عطاش سناً والذي كان مكلفاً في ذلك الوقت الاهتمام بمركز الضيافة الرئيس للقاعدة في قندهار. وبعد الغارة التي قتلت أبا حفص، هُرع أعضاء القاعدة الناجون إلى الموقع، فأزالوا الركام بأيديهم، ودفنوا الذين ماتوا في بقعة مجاورة. شكّل موت أبي حفص خسارة كبيرة للقاعدة، كما أن بن لادن نفسه قدّم رثاءً مصوراً على شريط من مكان اختبائه.

بدأت المدن التي تسيطر عليها طالبان بالوقوع في أيدي تحالف الشمال في أواخر العام ٢٠٠١. بدأت القوات الخاصة الأميركية في ذلك الوقت بمطاردة قادة القاعدة وطالبان، كما أعطى بن لادن الأمر لمقاتليه بالتوجه إلى طورا بورا، وهي منطقة جبلية تقع في شرق أفغانستان. تقع طورا بورا في الجبال البيضاء قرب الحدود مع باكستان. كان بن لادن ونشطاء آخرون من أيام الجهاد ضد السوفيات يعرفون جيداً الكهوف التي يتصل بعضها ببعضها الآخر. أدت تلك المنطقة الجبلية الوعرة والمخابئ جيدة التحصين إلى منع الاختراق السهل للقوات الغازية، كما أن السلسلة الجبلية وفّرت طرق هروب إلى باكستان.

أدرك بن لادن أن نجاح القوات الأميركية الخاصة، وبمساعدة من حلفائها الأفغانيين، في اختراق شبكة الكهوف هو مسألة وقت فقط ، وهكذا أمر النشطاء، بعد إعادة تجميع مقاتلي القاعدة، بالتوجه إلى باكستان والمناطق القبلية الخارجة عن القانون. كانت تلك هي الأماكن التي كان يصعب على جنود العمليات الخاصة الأميركية ومقاتلي تحالف الشمال اللحاق بهم. أراد بن لادن تجنب جذب الانتباه، لذلك تنقّل برفقة حمزة الغامدي والقناص. وقف نشطاء آخرون وهم يشاهدون بن لادن والرجلين الآخرين وهم يبتعدون عن أنظارهم نحو الجبال. ضاقت في هذه الأثناء الحلقة التي تحيط ببن لادن. (عندما علمنا بعد أشهرٍ قليلة في جيتمو Gitmo من الموقوفين بشأن المرافقين الجدد اتضح لنا أن العثور على زعيم القاعدة يعتمد على هذين الرجلين. انتشرت هذه المعلومات عبر كامل الإدارة الأميركية).

أما رئيس فريق الحراس الشخصيين لبن لادن، أي تبارك فقد غادر مع مجموعة مؤلفة من ثلاثين ناشطاً، كما أخذ هاتف بن لادن الموصول بالأقمار الصناعية. كان من بين هذه المجموعة الفريق الأمني التابع لبن لادن بأكمله، ومن بينهم بهلول، مساعد بن لادن الشخصي وهو الذي أعطى كل ناشط يغادر طورا بورا مبلغ مئة دولار لتغطية تكاليفه. عمد تبارك بين الحين والآخر إلى تشغيل هاتفه الموصول بالأقمار الصناعية بهدف حمل الاستخبارات الأميركية على مراقبته بدلاً من مراقبة بن لادن. علمت قوات تحالف الشمال بمكان وجود الرجال الثلاثين بينما كانوا يحاولون عبور الحدود.

تمكنت قوات العمليات الخاصة الأميركية وحلفاؤها من الأفغانيين، وفي منتصف شهر كانون الأول/ديسمبر، من السيطرة على تلك السلسلة الجبلية، لكن قيادة القاعدة كانت قد غادرتها منذ وقتٍ طويل.

تحولت بيرميل، وهي بلدة في مقاطعة باكتيكا على الحدود ما بين أفغانستان وباكستان، إلى نقطة ترانزيت رئيسة للعرب الهاربين. كانت القاعدة تشغل مخبأً آمناً في تلك البلدة حيث يمكث كثير من أعضائها، وكان من بينهم عبد الهادي العراقي، وهو قائد جميع المقاتلين العرب في أفغانستان، ونائبه عبد الوكيل، والقائد الأعلى أبو محمد المصري الذي يتخذ اسماً حركياً هو الزيات. خيّم كذلك بعض النشطاء في مدرسة محلية. جرت مناقشات ضمن هذه المجموعة بشأن ما إذا كان يتعين عليهم البقاء في المنطقة أو التوجه إلى داخل باكستان. كان أبو محمد المصري ضد فكرة المغادرة، فقرر البقاء في الجانب الأفغاني من الحدود، في حين عبر آخرون، مثل سيف العدل إلى المناطق القبلية في الجانب الباكستاني.

تلقى أولئك الذين قرّروا المغادرة مساعدةً من الأفغان المتعاطفين معهم، وأوصلوهم إلى بانو في باكستان. تابع من هناك نشطاء تابعون لجماعة لاشغار الطيبة الباكستانية الإرهابية تهريبهم إلى لاهور، وكراتشي وفيصل أباد. انتظر المقاتلون في مراكز الضيافة في باكستان التعليمات من قيادتهم. أُبلغ بعضهم بضرورة مغادرة

باكستان بهدف التخطيط لعملياتٍ في الخارج، بينما طُلب من آخرين انتظار إتمام خطة إعادتهم إلى أفغانستان. التقى النشطاء في فترة انتظارهم هذه رياض الجزائري وهو الرجل المكلّف بتسهيل أمور السفر لأعضاء القاعدة والذي كان ينظّم ترتيبات التهريب.

جاء إلى مركز الضيافة حيث كان أبو زبيدة ناشطان يحملان جوازَي سفرٍ أميركي وبريطاني، وأبلغاه بأنهما يريدان شن عملية كبيرة ضد الولايات المتحدة مستفيدين من جوازَي سفرهما اللذين يسهلان عليهما القدرة على السفر. أحالهما أبو زبيدة إلى خالد الشيخ محمد، وهو الرجل الذي عيّنه بن لادن بعد وفاة أبي حفص ليرأس مجموعة العمليات العسكرية العالمية للتنظيم.

بدأت طبيعة القاعدة بالتغيّر بسرعة. عملت الشبكة قبل الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر بطرقٍ عدة وكأنها دولة: امتلكت قيادة شديدة المركزية وهيكلية تحكّم، ومنطقة وجودٍ محددة. وبعد الرد الحاسم الذي وجّهته الولايات المتحدة على هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ونجاحها في تفكيك ما كان يُعتبر «مركز جاذبية القاعدة» فقد تكيّفت تلك الشبكة الإرهابية مع الواقع الجديد. وبدلاً من القيادة المركزية التي كانت تُعرف بها، أصبحت القاعدة أقل من «المحرّك الرئيس» مما هي «المحفّز الرئيس»، وهي خطوة ساعدت على إطلاق عملية التجنيد عبر الإنترنت وشجعت على قيام الإرهاب المحلي ـ وهي ما تزال إلى اليوم مشكلة كبيرة تواجهها حكومات الولايات المتحدة والدول الأخرى التي تحارب الإرهاب.

تحوّل تركيز شبكة الإرهاب إلى استغلال الصراعات الإقليمية، والمحلية، والقبلية، والطائفية بهدف الترويج لمصالحها. وزعت الشبكة امتياز اسم القاعدة، وشجعت المجموعات الإرهابية الأخرى في أماكن مثل شمال أفريقيا، وجنوب شرق آسيا وأجزاء من الشرق الأوسط (والعراق في وقتٍ لاحق) على العمل تحت راية القاعدة.

أمر بن لادن كبار النشطاء من أمثال خالد الشيخ محمد، وخلاد، والنشيري بنشر

مقاتليهم في أنحاء العالم كافةً ورسم الخطط - بهدف التأكد من أن أميركا لن تنعم بالسلام أبداً: «أقسم بالله العظيم الذي رفع السماء بغير عمد لن تحلم أميركا ولا من يعيش في أميركا بالأمن قبل أن نعيشه واقعاً في فلسطين، وقبل أن تخرج جميع الجيوش الكافرة من أرض محمد (ﷺ)». اعتبر عدد كبير من نشطاء القاعدة هذا التصريح الذي صدر في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠١ بمثابة قَسم من قائدهم، والتزامٍ بمتابعة القتال.

وعندما ألقي القبض على حمدان أثناء عبوره الحدود إلى أفغانستان عُثر في سيارته على مذكرة من خالد الشيخ محمد موجهة إلى أبي عبيدة، وهو الاسم الحركي لرمزي بن الشيبة، وهو المخطّط الرئيس لهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، والذي عمل كضابط ارتباط ما بين خالد الشيخ محمد، وكبير الخاطفين محمد عطا. أمرت المذكرة أبا عبيدة بإرسال كل النشطاء المتوافرين والقادرين على السفر إلى الولايات المتحدة وإنجلترا.

كان خالد الشيخ محمد يخطط لعمليات في المملكة المتحدة وأماكن أخرى في أوروبا، كما كان يعيد تنشيط الشبكة في جنوب شرق آسيا وهي الشبكة التي عمل معها أثناء مؤامرة بوجينكا الفاشلة في العام ١٩٩٥. كان ريتشارد ريد، وهو ناشط إنجليزي المولد من بين العملاء الذي أمروا بتنفيذ هجمات في الولايات المتحدة، وهو الذي حاول في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠١ استخدام قنبلة مخبأة في حذائه لتفجير طائرة متجهة من باريس إلى ميامي.

كانت تونس من بين الأماكن الأخرى التي استهدفها خالد الشيخ محمد، حيث أمر شاباً يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً يدعى نزار نوار (سيف الإسلام التونسي) بالتخطيط لهجوم. وفي ١١ نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٢ فجّر نوار شاحنة صغيرة محملة بالغاز الطبيعي، ومليئة بالمتفجرات في كنيس الغريبة القديم، وهو الأمر الذي أدى إلى مصرع واحد وعشرين شخصاً - أربعة عشر من السيّاح الألمان، ومواطنين فرنسيين، وخمسة تونسيين - وجرح أكثر من ثلاثين آخرين.

نظم النشيري، مع تركيز خالد الشيخ محمد على هذه المناطق، هجمات في الخليج العربي. عيّن النشيري بعد نجاحه في تفجير المدمرة يو. أس. أس كول قائداً لعمليات القاعدة البحرية. أسّس النشيري بمساعدة أحمد الدربي قاعدة في منطقة دبي مستخدمين سفينة صغيرة اشترياها لذلك الغرض. خطّط الرجلان لشن عمليات في اليمن، والمملكة العربية السعودية، وقطر. كان النشيري مهتماً كذلك بمهاجمة السفن في مضيق جبل طارق، كما أرسل إلى المغرب سعوديين تزوجا من فتاتين مغربيتين، وهما زيجتان قام بترتيبهما أبو عاصم المغربي.

كان النشيري في أحد أيام كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٢ على متن قارب قبالة ساحل دبي، وكان برفقته أربعة يمنيين شكلوا في وقتٍ من الأوقات جزءاً من فرقة الحراسة الشخصية لبن لادن. في ذلك الوقت بالذات كانوا تحت إمرة النشيري الذي تمتع بمركزٍ مزدوج بوصفه رئيس العمليات في شبه الجزيرة العربية ورئيس العمليات البحرية. أما الأربعة فكانوا عمر حسن سعيد جار اللّه واسمه الحركي ابن الحفيظ، وفوزي يحيى قاسم الحبيبي واسمه الحركي أبو الشهيد السناني، وفوزي محمد عبد القوي الوجيه واسمه الحركي أبو مؤاب التعزي، وبشير السفاري واسمه الحركي سلمان التعزي.

لخّص النشيري أمام الرجال خطته التي تقضي بتنفيذ سلسلة من الهجمات في اليمن بحيث تكون إحداها هجوماً بحرياً شبيهاً بتفجير يو. أس. أس كول. أراد النشيري هذه المرة استهداف ناقلة نفط عند مرورها قبالة ساحل المكلا في جنوب اليمن. فكّر النشيري قبل الهجوم على يو. أس. أس كول بالهجوم على ناقلة نفط، وأعد الخطة لذلك، وهكذا فهو يعرف ما يحتاجه بالضبط.

اختار بن لادن بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أبا علي الحارثي ليكون الممثل الرئيس للقاعدة في اليمن. كان الرجل مجاهداً مخضرماً إضافة إلى امتلاكه خلفية يمنية قبلية قوية، وهو الأمر الذي مكّنه من العمل متمتعاً بحماية من قبيلته. كان من المفترض أن تساعد خليته رجال النشيري بأي طريقة يحتاجونهم فيها.

أبلغ النشيري نشطاءه بضرورة جلب المتفجرات الضرورية لعملية ناقلة النفط من أبي علي، كما أبلغهم بكل الأشياء الأخرى التي يريدها: وهي قاربٌ صغيرٌ، ومنزلٌ لتحضير القارب، وشاحنة داينا صغيرة لتحريك القارب، ووثائق مزورة تفيد بشراء القارب، ومكانٌ لتخزين المتفجرات.

الفصل الثامن عشر

الاستفادة من الوثائق DocEx

عدت إلى الولايات المتحدة في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠١، فاكتشفت أن فريق مكتب التحقيقات الاتحادي قد خضع لعملية إعادة تنظيم: لم تعد ترغب الإدارة العليا بعد الآن بأن يجري التحقيق في هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر والقاعدة على يد مكتب نيويورك الميداني، وذلك بالرغم من قاعدة المعرفة المهمّة الموجودة فيه، وأنشأت فريقاً جديداً يتمركز في واشنطن العاصمة، ويُعرف باسم فريق الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

أعيد في ذلك الوقت تعيين رئيسي بات دامورو، ونُقل من نيويورك إلى واشنطن للإشراف على العمل هناك. كما انتقل بعض العملاء معه بصورةٍ مؤقتة. عاد في وقتٍ لاحق إلى نيويورك كل المحققين من ذوي الخبرة في التحقيق بالأعمال الإرهابية. شعر عدد من العملاء العاملين في مكتب نيويورك بأن خبراتهم غير مرحبٍ فيها في واشنطن حيث تسلمت إدارة جديدة، وغالبيتها من الساحل الشرقي للبلاد، زمام الأمور وهي التي عيّنها المدير العام روبرت مويلر. لم يكن لكل هؤلاء، فيما عدا بات، أي خبرة في التعامل مع شؤون القاعدة. كان من الممكن مقارنة ذلك القسم داخل مكتب التحقيقات الاتحادي بحروب الراب [فن غنائي يعتمد على الكلام المتواصل] الدائرة في ذلك الوقت ما بين الساحلين الشرقي والغربي من البلاد. أما

نائب بات الذي كان يدير الفريق الذي أصبح في هذا الوقت مسؤولاً عن العمليات ضد القاعدة في أنحاء العالم كافةً، فكان برتبة مساعد عميل خاص بالوكالة يدعى آندي آرينا، وهو من ديترويت.

ضغط البيت الأبيض، في الفترة التي سبقت حرب العراق، على مكتب التحقيقات الاتحادي لإظهار رابطٍ ما بين صدام حسين والقاعدة. لكن تقييم فريق الحادي عشر من أيلول/سبتمبر كان يقضي مرة بعد أخرى بعدم وجود هذا الرابط. لم يعجب هذا الجواب البيت الأبيض؛ فأبلغ المكتب بالتدقيق في الأمر مجدداً و«الإتيان برابطٍ ما». رفض آندي التدقيق في الأمر مجدداً. أبلغ آندي مويلر في سياق حديث (أصبح الآن شائعاً بين عملاء المكتب): «سيدي. تعوّدنا في مكتب التحقيقات تقديم الحقائق. إننا لا نُقدم على تلفيق الأسباب لحروب البيت الأبيض». وافق المدير العام على ذلك الطرح، فأُبلغ البيت الأبيض بأن التقييم لن يتغير.

نُقِلْتُ في ذلك الوقت إلى مكتب واشنطن مؤقتاً، وهو ما حدث مع جورج كروتش الذي سبق له أن عمل معي في تحقيقات يو. أس. أس كول، وكذلك الخبير المخضرم في شؤون القاعدة دان كولمان، وكذلك ديبي دوران التي عيّنت مشرفة على DocEx، وهو برنامج يتعلق بترتيب آلاف الوثائق التي عُثر عليها في ميادين المعارك، ومراكز الضيافة، والمنشآت المختلفة في أفغانستان وباكستان. كان تنسيق كل الوثائق وترتيبها وترجمتها عملاً معقداً، لكن ديبي أدّتْ دوراً مشابهاً في تحقيقات حول تفجير السفارتين في شرق أفريقيا . شُحنت عشراتُ الصناديق المحتوية على أدلة إلى واشنطن، كما كُلّفت فرق المترجمين الذين لا يملكون معلوماتٍ مسبقة لديهم عن القاعدة، أو الإرهاب بالتعامل مع تلك الأدلة.

قال لي بات، بعد أن استدعاني إلى مكتبه، عقب تعييني مساعداً له: «علي، سيكون برنامج DocEx بطيئاً بطبيعة الحال. تقوم فرق الترجمة بكتابة الوثائق من دون معرفة ما هو مهم وما هو ليس مهماً. أنت تعرف القاعدة وتمتلك المهارات اللغوية. أيمكنك، من فضلك، أن تدقق بصناديق الأدلة الواردة، وذلك قبل وصولها

إلى برنامج DocEx وبحيث تعرّف لنا أي شيء تظّنه مهماً؟ يُحتمل أن تكون هناك بعض المواضيع التي تحتاج إلى متابعة على الفور».

بدأت بالبحث على الفور. فعثرتُ في أحد تلك الصناديق المحتوية على أدلة وُجدت بين ركام المنزل الذي مات فيه أبو حفص، على شرائط فيديو الاستشهاد، وشريط فيديو يبدو أنه تصوير لعملية استكشاف هدفٍ ما. استنتجت من أرقام السيارات التي كانت واضحة في الخلفية أن هذه الأخيرة قد تكون في سنغافورة.

تعرفت إلى ثلاثة أشخاص في شرائط الفيديو الاستشهادية: رمزي بن الشيبة، ومعاوية مدني الذي كان مشاركاً في استكشاف يو. أس. أس كول، وهو الذي أخبرني أبو جندل عنه بأنه كان حارساً شخصياً ذات مرة لبن لادن، وكذلك غريب التعزي الذي تعرّف إليه أبوجندل أيضاً بوصفه حارساً شخصياً ذات مرة لزعيم القاعدة. لم يعرف عن أي واحدٍ منهم أنه قتل نفسه في العمليات، وهو الأمر الذي أشار إلى احتمال تورطهم في شيء ما.

ظهر رجل لا أعرفه في أحد الشرائط. لم يكن الرجل مبتسماً، كما ظهرت في عينيه نظرة شرود وكأنه في مكانٍ آخر، كان وجهه المائل إلى الاستطالة مغطى جزئياً بلحية من الحجم المتوسط.

عثرت على شريط آخر خالٍ من الصوت، لكن الرجل الذي يظهر فيه لم يبدُ، أو يتصرف، مثل الآخرين، فبدلاً من الإيحاء بالثقة والكبرياء، بدا كأنه يمر في حالة إحباط. أما التعريف المكتوب بخط اليد على الشريط فقد اقتصر على «عبد الرحمن». علمنا لاحقاً أن القاعدة اتهمته بأنه عميل لوكالة استخبارات أجنبية يعمل للتجسس على المنظمة. ألقت القاعدة القبض عليه وأجبرته على تسجيل شريط اعترافاته.

عثرت على رسالة في صندوقٍ آخر، وهي الرسالة التي بدت موجهة إلى قيادة القاعدة، وهي التي شرح فيها الكاتب أسبابه التي دعته إلى الانضمام إلى المنظمة

ورغبته في أن يكون جزءاً من عملية استشهادية. أرفقت الرسالة بصورة بحجم صور جوازات السفر: كانت تلك صورة العميل الذي لم أعرف هويته. قال العميل في الرسالة بأنه تونسي مهاجرٌ إلى كندا حيث التحق بإحدى الجامعات. ظهر في آخر الرسالة الاسم الحقيقي والاسم الحركي: عبد الرؤوف بن حبيب بن يوسف جدي وفاروق التونسي.

أخذت الرسالة إلى بات وأخبرته بشريط الفيديو الذي يُظهر أحد العملاء غير المعروفين. قلت: «يُحتمل أننا وقعنا على مشكلة كبيرة. إذا كان هذا الرجل كندياً فسيكون من السهل عليه دخول الولايات المتحدة». اتصل بات بضابط الاتصال مع نظيرنا الكندي، أي وكالة الاستخبارات الأمنية الكندية CSIS، والذي كان يعمل في سفارة كندا في واشنطن العاصمة. حضر الضابط بعد ساعات قليلة مع زميله الضابط في CSIS. أبلغونا بأنهم على علم بارتباطات جدي الإرهابية ويعرفون أنه في مكان ما في كندا لكنهم فقدوا أثره. اختفى الرجل مع كندي آخر من أصلٍ تونسي كانوا يراقبونه ويحمل اسم فاكر بو صرّة.

جمعنا هذه المعلومات معاً، ثم عقدَ روبرت مويلر، والمدعي العام جون آشكروفت، مؤتمراً صحفياً أعلنا فيه أول قائمة لأخطر الإرهابيين المطلوبين طلباً للمعلومات عنهم.

تحطمت في ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠١، طائرة تابعة لشركة أميركان آيرلاينز في رحلتها الرقم ٥٨٧، وذلك بعد إقلاعها بوقتٍ قصيرٍ من مطار جون ف. كينيدي في نيويورك. تحطمت الطائرة فوق حي بيل هاربور الذي يشكّل جزءاً من كوينز. قُتل في هذا الحادث ما مجموعه ٢٦٥ شخصاً، منهم ٢٦٠ كانوا على متن الطائرة وخمسة أشخاصٍ كانوا على الأرض.

ألقت السلطات العمانية القبض في شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٢ على محمد منصور جبارة، وهو كندي ناشط في صفوف القاعدة والجماعة الإسلامية. رحّلت

السلطات العمانية جبارة إلى كندا حيث سلّمته السلطات إلى الولايات المتحدة. قال جبارة إن أحد مساعدي خالد الشيخ محمد، وهو عبد الرحيم أبلغه بأن ريتشارد ريد وجدي قد عُيّنا ليكونا مفجرَيْ أحذية، وأن جدي نجح في الرحلة رقم ٥٨٧.

أعلنت القاعدة في العام ٢٠٠٤ قائمة تضم ثمانية عشر هجوماً نجحت في تنفيذها ضد الولايات المتحدة. كانت الولايات المتحدة على علم بسبعة عشر هجوماً من أصل ثمانية عشر، أما الهجوم الآخر فكان ذلك الذي استهدفَ الرحلة ٥٨٧. لم يُعثر على جدي حتى اليوم، كما أن حكومة الولايات المتحدة أنكرت أن يكون ما جرى للرحلة ٥٨٧ هجوماً إرهابياً، لذلك فإنه من المحتمل أن يكون جدي قُتل في مكانٍ آخر، وأن القاعدة أرادت أن ترفع من معنوياتها وتزيد من أعداد مجنديها، لذلك زعمت أنها فجرت الرحلة رقم ٥٨٧.

عثرنا كذلك على مواد دعائية أعدّتها القاعدة تثني فيها على جدي لقيامه بذلك الهجوم، لكننا لم نعثر على دليل يشير إلى وجوده هو، أو أي مشتبهٍ به آخر على متن الطائرة، وذلك لأن هويات الركاب عُرفت جميعها. يُضاف إلى ذلك أنه بعد إجراء تحقيق مطوّل ومعمق، قرّرت هيئة سلامة النقل القومي أن تحطم الطائرة كان نتيجة إفراط مساعد القبطان [الضابط الأول] في استخدام أجهزة التحكم بالدقة.

عثرتُ في أحد الصناديق المرسلة إلى برنامج DocEx على مذكرة مكتوبة بخط اليد. علمنا في وقت لاحق أن المذكرة كُتبت بخط خلاد، وكانت موجهة إلى شخصٍ يدعى مختاراً (علمنا في ما بعد أنه خالد الشيخ محمد). تحدث خلاد عن عملية مراقبة قام بها في إطار خطة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. [redacted]

عثرنا في الصناديق كذلك على مئات طلبات الانتساب والأوراق التي تحتوي

على أرقام اتصالات، وهي الطلبات التي ملأها المجندون الجدد الذين وصلوا حديثاً إلى أفغانستان. ذكر المجنّدون الجدد في تلك الطلبات كفلاءهم (أو أولئك الذين أوصوا القاعدة بقبولهم)، وخبراتهم، وتخصّصاتهم، وبعض المعلومات الشخصية عنهم، وأسماءهم الحركية. ظهر من ضمن المعلومات الشخصية كذلك اسم الشخص الذي يتعيّن الاتصال به في حالة حدوث أي شيء للمجند.

كان الطلب الذي قدّمه أبو عبد اللّه المهاجر من بين تلك الطلبات. ذكر المهاجر النجارة في خانة خبراته. لم يحمل اسمه الحركي أي معنى بالنسبة إلينا حتى قمت(*) باستجواب أبي زبيدة، وهو الذي أعلَمَني بأن «أبا عبد اللّه» المهاجر كان في الحقيقة رجلاً أميركياً يُدعى خوسيه باديلا.

عثرت كذلك على رسالة قصيرة من أحد العملاء يشير فيها إلى أنه ذاهب في مهمة إلى اليمن. حملت الرسالة توقيع فرقان الطاجيكي. يشير اسم الطاجيكي في العادة إلى أن العميل قدِم من طاجكستان. لكنني أدركت مع ذلك بأن هذا الاسم الحركي يعود إلى أحد نشطاء القاعدة الذين أُلقي القبض عليهم في حادث سرقة السيارات في بيت هبرة. كان الاسم الحقيقي لفرقان هو فواز الربيعي، وهو يمني الجنسية لكنه وُلد في المملكة العربية السعودية. قلت لبات: «إذا توجه الفرقان إلى اليمن من أفغانستان فإن أغلب الاحتمالات تشير إلى أنه عاود الاتصال بأصدقائه القدامى في بيت هبرة. أظن أنهم يخططون جميعاً لعملية يقومون بها سويّاً.

أضاف مكتب التحقيقات الاتحادي في ١١ شباط/فبراير، ٢٠٠٢ اسم فرقان، بالإضافة إلى أسماء النشطاء الستة عشر الآخرين المتورطين في عملية سرقة السيارات، إلى قائمة المطلوب معلومات عنهم. أشار أولئك الذين عملوا في التحقيقات في

(*) حُذف ضمير المتكلم في النص الإنجليزي علماً أنه بقي واضحاً ومعلوماً مع ذلك. إلا أنه أُبقي عليه في الترجمة العربية توضيحاً للقصد وكشفاً لكل ما يفيد. وأُجري هذا التعديل في الكتاب كله. أما ما لا يمكن معرفة مضمونه فأبقي مظللاً بالأسود.

الهجوم على كول إلى أن عدداً من هؤلاء الإرهابيين ما زالوا مسجونين في اليمن، وهكذا شُطبت من اللائحة في ١٤ شباط/فبراير أسماء ستة منهم.

اعتُبر الباقون خطرين ويمثلون تهديداً، كما ظهرت علامات تدل على البدء بتخطيط عملية رئيسة في اليمن، وهو البلد الذي حدث فيه الهجوم الكبير للقاعدة قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وتحديداً في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٠، وهو الهجوم الذي استهدف المدمرة يو. أس. أس كول. جُمع فريق مختلط يضم مسؤولين أميركيين من وكالاتٍ مختلفة (ما عدا وكالة الاستخبارات الأميركية التي لم ترغب في المشاركة) وأُرسل إلى اليمن، وكان الفريق برئاسة العقيد البحري سكوت ديوك. أما ستيفن غودين فكان ممثل مكتب التحقيقات الدائم في ذلك الفريق المختلط، وما لبث أن انضمّ إليه أحد العملاء في مكتب واشنطن الميداني، وهو الذي كان يعمل على تحقيقات أخرى مرتبطة بالتحقيقات الأساسية. أعدت أنا وبوب ماكفادين الاتصال بالجنرال القمش، وهو رئيس الاستخبارات اليمنية، وهو الذي عقدتُ صداقة متينة معه أثناء تحقيقات كول. أما العقيد ياسر والمايجور محمود، وهما من ضباط الاستخبارات اليمنية اللذان جلسا إلى جانبنا أثناء استجواب أبي جندل، فتقرر أن يعملا معنا.

الفصل التاسع عشر

السحر الأسود

١٤ كانون الأول/ديسمبر، ٢٠٠١. أعلمت وكالة الاستخبارات المحلية الشهيرة في سنغافورة، وهي دائرة الأمن الداخلي، والتي تُعرف بأحرفها الأولى ISD، أحد ضباط الارتباط الأمنيين الأميركيين بوجود مؤامرة تعدها مجموعة إرهابية تعمل في آسيا، وتُدعى الجماعة الإسلامية. تستهدف المؤامرة السفارات الأميركية، والإسرائيلية، والبريطانية، والأسترالية في سنغافورة. كانت ISD في مرحلة إحباطها للمؤامرة في ذلك الوقت. أخبرَ ضابط الارتباط ISD بشأن عملية الاستكشاف، وأشرطة الفيديو الخاصة بالاستشهاديين التي عُثر عليها بين ركام منزل أبي حفص، وهي التي كُشف عنها أثناء التدقيق في تحقيقات DocEx. تقرر في ما بعد أن مواقع سنغافورة التي تعرضت للاستكشاف، والتي ظهرت في شريط الفيديو كانت مواقع كثيراً ما يرتادها الموظفون العسكريون الأميركيون. طلبت ISD نسخة عن شريط الفيديو فتسلّمتها في ٢٨ كانون الأول/ديسمبر.

ألقت ISD في ١٥ كانون الأول/ديسمبر القبض على أحد أعضاء الجماعة الإسلامية في سنغافورة، وهو خليم جعفر. تبيّن بعد تفتيش منزله وجود النسخة الأصلية للشريط ذاته. أنتج جعفر هذا الشريط بمساعدة أحد أعضاء الجماعة الإسلامية الآخرين في سنغافورة وهو هاشم عباس. أبلغ جعفر محققي ISD بأنه خبأ شريط

فيديو للمواقع الموجودة حول محطة ييشون للنقل الجماعي في سنغافورة، وذلك في منزل أبي حفص. قال كذلك إنه كتب ملاحظات ورسم مخططات للمحطة لشرح خطته. منحت القاعدة دعمها للهجوم، لكن الهجوم فشل بسبب عيوبٍ عملانية.

وفّر لنا ذلك الشريط برهاناً دامغاً على العلاقة ما بين الجماعة الإسلامية والقاعدة.

أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. رنّ الهاتف مرتين في مكتب دائرة الأمن الداخلي الكائن في فونيكس بارك، سنغافورة، وما لبث المفتش تشارلي أن ردّ عليه. أظهرت شاشة التلفزيون الصامتة في المكتب فرق البحث والإنقاذ في المنطقة المنكوبة حيث ارتفع بُرْجا مركز التجارة العالمي ذات يوم. أدرك تشارلي بحدسه المرهف أن المتصل هو من الملايا السنغافوريين، مستنداً في ذلك إلى لهجته. حدّثه المتصل عن رجلٍ يدعى محمد إسلام بن يار علي خان الذي قال بأنه يعرف بن لادن، وأنه حارب ضد السوفيات في أفغانستان، وأنه ينوي الرجوع إلى هناك في وقتٍ قريب بهدف العودة إلى صفوف المجاهدين.

كان يُمكن لبرانكسترز أن لا يتصل بمكتب دائرة الأمن الداخلي، لكن تشارلي كان بحاجة للتحقق من المعلومات. أظهر أحد التحقيقات أن محمد إسلام بن يار علي خان كان جدياً، كما كشف عن رفاقٍ له من الذين كانوا جزءاً من دار الإسلام، وهي جماعة إندونيسية سبق لها أن حاربت الهولنديين طلباً للاستقلال، كما حاربت بعد نيل الاستقلال لتحويل البلاد إلى دولة إسلامية. مضى أمير دار الإسلام، عبد اللّه سونغار، في ما بعد لتأسيس الجماعة الإسلامية، وهي مجموعة منشقة عن دار الإسلام.

تتبع الجماعة الإسلامية إجراءاتٍ أمنية في غاية الحذر، كما تستخدم نظام تشفير لترتيب اجتماعاتها. وعندما يجتمع الأعضاء لما يُفترض به أن يكون جلسات صلاة في المنازل الخاصة، فإنهم عادة ما يُدخلون أحذيتهم إلى داخل المنزل بدلاً من تركها خارجه، أي مثل ما يفعل سكان سنغافورة في العادة. يبتعد الأعضاء كذلك عن الأنشطة الدينية السائدة في البلاد، كما يرتدون الأزياء الحديثة، أي أنهم تخلوا عن

ارتداء الأثواب الرائجة في الشرق الأوسط، والتي يتبناها أعضاء دار الإسلام ويرتدون القمصان العادية، والجينز، وما شابه ذلك. يُضاف إلى ذلك أنهم يتبادلون الاشتراك في مجلة بلاي بوي (المحظورة في سنغافورة). بدا أن المحاولات المتعمدة للتأقلم مع المحيط مشابهة جداً للتحضيرات التي قام بها محمد عطا، ورمزي بن الشيبة، وباقي أعضاء خلية هامبورغ.

وفي ٤ تشرين الأول/أكتوبر حاول محمد إسلام بن يار علي خان مغادرة سنغافورة في طائرة متجهة إلى باكستان. لكنه بعد أن درست ISD الوضع جيداً قررت السماح له بالمغادرة. كان هناك القليل من الأمور التي يُمكن إثباتها عليه، لكن الأهم من كل ذلك هو أن إلقاء القبض عليه من شأنه تنبيه باقي أعضاء المجموعة التي كانوا يراقبونها. وصل بعد أسبوعين من مغادرة إسلام رجلٌ آسيوي يسمي نفسه مايك إلى سنغافورة، والتقى أعضاء المجموعة. كان عدد كبير منهم يعرفونه من صف تجهيز القنابل الذي أعطاه في ماليزيا في العام ٢٠٠٠. أبلغ مايك المجموعة أن أحد نشطاء القاعدة، واسمه الحركي سامي سوف يصل بعد وقتٍ قصير بهدف التخطيط لهجوم إرهابي، وأنه ينبغي عليهم تقديم المساعدة له.

وصل سامي من كوالالامبور في يوم ١٣ تشرين الأول/أكتوبر، فالتقاه أعضاء من المجموعة في فندق يقع خارج منطقة تسوق في طريق أورشارد في سنغافورة. اصطحبه هؤلاء الأعضاء بالسيارة إلى موقف سيارات يقع في مارينا ساوث وهي منطقة هادئة تقع في ضواحي المنطقة التجارية. تحدث سامي إلى السنغافوريين عن خطته التي تقضي باستخدام شاحنات مفخخة بهدف مهاجمة السفارة الأميركية، والسفارة الإسرائيلية، والقواعد البحرية الأميركية في سنغافورة.

سأل سامي أعضاء المجموعة عمّا إذا كانوا يمتلكون مقترحات أخرى فاقترحوا عليه أن تكون البعثات الدبلوماسية الأسترالية والبريطانية أهدافاً محتملة، وذلك بسبب قربهما من السفارة الأميركية. بحثت المجموعة كذلك إمكانية مهاجمة «أهدافٍ رخوة» مثل الأبنية التي تستخدمها الشركات الأميركية.

استكشف سامي وأعضاء مجموعته الأهداف المختارة مستخدمين آلة تصوير فيديو، وأنتجوا شريطاً كتبوا عليه «زيارة سنغافورة للسياحة» من أجل حجب حقيقة محتواه: كان الصوت المرافق في شريط الفيديو هو الموسيقى التصويرية لفيلم هوليوود الذي حقق نجاحاً كبيراً، وهو هرمجدّون [يوم الدينونة]. طلب مايك من نشطاء آخرين شراء سبعة عشر طناً من نيترات الأمونيا، واستكشاف القواعد البحرية الأميركية، والعثور على مستودعات مناسبة تمكّنهم من تجهيز الشاحنات الصغيرة. تسلّم هؤلاء العملاء مبلغ خمسة آلاف دولار لتغطية مختلف التكاليف.

تمكنت دائرة الأمن الداخلي في ما بعد من التعرّف إلى هوية مايك، وذلك عن طريق التنقيب في قواعد البيانات، وأعمال التحري الأخرى على الأرض، فتبيّن أنه رجل إندونيسي يدعى فاذور رحمان الغزي، والذي يتمركز في جنوب ميناناو ويتنقل مستخدماً جواز سفر فلبينيا باسم علي راندي. تعرفت الدائرة كذلك إلى هوية سامي، فتبيّن أنه الرجل الكندي الذي ألقي القبض عليه في عُمان، أي محمد منصور جبارة. أبلغنا جبارة عندما قمت باستجوابه مع زميلي في مكتب التحقيقات الاتحادي جورج كروتش، بأنه حاول العثور على أحد أعضاء القاعدة اليمنيين ليكون مهاجماً انتحارياً في سنغافورة، وذلك لأن أحداً من سكان سنغافورة لا يريد أن يكون استشهادياً.

بدأت مسيرة جبارة نحو القاعدة مع تلقيه تدريباته في معسكرات أفغانستان في العامين ٢٠٠٠ و٢٠٠١. قدّم البيعة إثر ذلك إلى بن لادن الذي عيّن له عملية في جنوب شرق آسيا بحيث تكون تحت إشراف خالد الشيخ محمد. مكث جبارة مع خالد الشيخ محمد لمدة ثلاثة أسابيع في كراتشي، وذلك في منتصف شهر آب/أغسطس من العام ٢٠٠١، كما أنه تلقى تدريباً من العقل المدبر للحادي عشر من أيلول/سبتمبر على أعمال المراقبة وتقنيات السفر متخفياً. قابل جبارة كذلك رضوان عصام الدين، وهو أحد قادة الجماعة الإسلامية والذي يُعرف أكثر باسم الحنبلي، وهو الذي كان مسؤولاً عن سنغافورة وماليزيا وكان على علاقة وثيقة بخالد الشيخ محمد، لأنه انضم إلى القاعدة عن طريقه، وقدم البيعة إلى بن لادن.

أُرسل جبارة إلى ماليزيا للمرة الأولى بهدف مساعدة الجماعة الإسلامية على مهاجمة السفارتين الأميركية والإسرائيلية في الفليبين. أعطاه خالد الشيخ محمد أمراً صريحاً بالمغادرة قبل يوم الثلاثاء في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. اجتمع جبارة بعد ذلك مع نشطاء الجماعة الإسلامية بعد أسبوع من وصوله إلى ماليزيا – أي في منتصف شهر أيلول/سبتمبر – واستكشف السفارة الأميركية في مانيلا قبل مغادرته إلى سنغافورة للتخطيط لعملية هناك.

وفي شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠١، أي بعد إلقاء القبض على أعضاء الجماعة الإسلامية في سنغافورة، أبلغ الحنبلي جبارة بضرورة الفرار إلى جنوب شرق آسيا. لكنه توجه إلى الإمارات العربية المتحدة بدلاً من ذلك. أبلغه خالد الشيخ محمد بضرورة السفر إلى عُمان بهدف إقامة مخبأ لأعضاء القاعدة الهاربين من أفغانستان والمتوجهين إلى اليمن. ألقي القبض في عُمان على جبارة.

أمر بريان، وهو المسؤول في دائرة الأمن الداخلي المشرف على العملية ضد المجموعة، فريقه من المحققين بمراقبة نحو مئة شخص، لكنه كان يفضّل مراقبة نضوج المؤامرة أكثر، وذلك لأنه بقي أكثر من سؤال واحد من دون جواب: من هم الآخرون المتورطون في هذه المؤامرة؟ ما هو مدى اتساع هذه الشبكة الإرهابية في سنغافورة والمنطقة؟ ما هي طبيعة ارتباط هذه المجموعات بالقاعدة؟ وما هي أعمال العنف الأخرى التي يخططون لها؟

كان بريان محققاً محنكاً ومشرفاً شحذ مهاراته في الاستجواب نتيجة قضايا التجسّس، كما أنه يعتمد أسلوباً لا يرتكزُ على المواجهة يشجع المشتبه بهم على الكلام، كما أن قوته تعززت بعد أن تحدثت الصحافة عن إلقاء قوات تحالف الشمال القبض عل إسلام في أفغانستان. تحركت فرقه ونفذت سلسلة من الغارات (كان آخرها في ٢٤ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١)، فكانت النتيجة إلقاء القبض على ثلاثة وعشرين رجلاً. أما أولئك الذين لم يتأكد أنهم أعضاء في هذه المجموعة فقد سُمح لهم بالفرار مع عائلاتهم إلى ماليزيا، وذلك لأن دائرة الأمن الداخلي كانت واثقة من تمكنها من تتبعهم إذا ما عادوا.

راجع آندرو، وهو رئيس دائرة الأمن الداخلي هذه القضية في مكتب بريان، وذلك في مركز الاعتقال الكائن في ويتلي رود في سنغافورة. وقف آندرو أمام لوحة قابلة للالتفاف، وبدأ في رسم تركيبة المنظمة بخطّه المتّصل السريع، وذلك بينما أشار المحققون إلى الخلايا الملحقة التي كشفوا عنها، وتلفظوا بالأسماء، كما ناقشوا دور الشخصيات الثانوية.

عندما ذُكر اسم الجماعة الإسلامية لم يكن ضباط ارتباط الوكالات الأمنية يمتلكون أي معلومات عنها، حتى أن أحدهم ضحك استهزاءً وقال: «إنها تعني الحي الإسلامي. لماذا نقلق بشأنها؟» لكن الذي اكتشفته دائرة الأمن الداخلي كان شبكة إرهابية تعمل في كامل جنوب شرق آسيا، وتمتلك خلايا متعددة في سنغافورة، وماليزيا، وإندونيسيا، والفليبين كما تمتلك علاقات مباشرة مع القاعدة في أفغانستان.

كانت سنة ١٩٧٩ سنة محورية بالنسبة إلى القاعدة، لكنها كانت كذلك سنة مهمّة جداً بالنسبة إلى الجماعات الإرهابية الإسلامية في جنوب شرق آسيا. سافر في تلك السنة أعضاء عدد من المنظمات إلى أفغانستان للمساعدة على قتال السوفيات، وكذلك لتذوّق «إثارة» الجهاد والنصر على قوة عظمى.

كانت الورقة البيضاء حول الجماعة الإسلامية، والتي أصدرتها حكومة سنغافورة في كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٣، على حق عندما اعتبرت أن الجهاد ضد السوفيات كان ربما «العامل الأهم الذي ساعد على تطرف الجماعات الإسلامية المتشددة في المنطقة». سافر عبد اللّه شونغار، الذي أسّس بعد ذلك الجماعة الإسلامية، وبعض كبار قادة دار الإسلام برفقة رجل الدين أبي بكر بشير، إلى أفغانستان في أعوام الثمانينيات من القرن الماضي بهدف ترتيب اشتراك أعضاء جماعته في الجهاد. أسّس هؤلاء رابطةً في ما بينهم تطورت لاحقاً لتصبح القاعدة. أُرسل في منتصف أعوام التسعينيات نخبة من أعضاء الجماعة الإسلامية لتلقي التدريب في معسكرات القاعدة في أفغانستان وتعلّم «مهنة الإرهاب المعقدة واكتساب الخبرة فيها» على حد وصف تقارير الورقة البيضاء كما «نقلوا مهاراتهم إلى أعضاء آخرين

في منظماتهم». أسس هؤلاء كذلك روابط مع الجماعات الإرهابية الأخرى التي تنشط في جنوب شرق آسيا، والذين حارب أعضاؤها في أفغانستان، بمن فيهم جبهة تحرير مورو الإسلامية.

أعطى التدخل في أفغانستان أعضاء القاعدة حرية الوصول إلى جنوب شرق آسيا. تحدثت في ما بعد مع عدد من أعضاء الجماعة الإسلامية فأخبروني بأنهم التقوا خالد الشيخ محمد، وأعضاء آخرين في القاعدة عندما جالوا في تلك المنطقة. يُذكر أن خلاداً وخاطفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، خالداً المحضار ونوافاً الحازمي مروا في جنوب شرق آسيا في الفترة ما بين شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٩ وكانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٠، كما أن الحنبلي ساعدهم في تدبير أمور سكنهم وسفرهم. كان الحنبلي محورياً بالنسبة إلى تمتين العلاقة ما بين القاعدة والجهاد الإسلامي. أُرسل عندما كان تلميذاً لشونغار للتدرب في أفغانستان، وذلك في العام ١٩٨٦، حيث شارك في قتال السوفيات. بقي في تلك البلاد لفترة ثمانية عشر شهراً، وأسّس في هذا السياق علاقات مع خالد الشيخ محمد.

عمدت القاعدة إلى تمويل الجماعة الإسلامية، أي مثل ما فعلت مع المجموعات الإرهابية الأخرى التي حاولت استيعابها، وهو الأمر الذي جمع المنظمتين معاً. تبنى الحنبلي القاعدة، وبايع بن لادن، لكن أعضاء الجهاد الإسلامي الآخرين قاوموا ذلك الربط ما بين المنظمتين، وفضّلوا التركيز على عدوهم القريب بدلاً من التركيز على عدو القاعدة، أي الولايات المتحدة.

تحدثت مع أعضاء آخرين من الجماعة الإسلامية في ما بعد، وكان نصير عباس من بينهم، فأخبروني بأنهم عارضوا الحنبلي ورفضوا الموافقة على عملياته. امتلك الرجل سيطرة على سنغافورة وماليزيا، وهما المنطقتان اللتان ركزت عليهما القاعدة في البداية، وذلك لأن أعضاءها كانوا هناك. تمكن عباس في بعض الأحيان من تجاوز القادة المحليين وتنفيذ عمليات في مناطق نفوذهم، بما في ذلك إندونيسيا ذاتها. تعززت جهود الحنبلي بعد وفاة شونغار في العام ١٩٩٩ وحلول أبي بكر بشير

مكانه. دعم بشير علاقة الحنبلي بالقاعدة وأعطى الحنبلي حرية القيام بكل ما يريده تقريباً.

١٣ كانون الأول/ديسمبر، ٢٠٠١. غضب الحنبلي كثيراً عندما علم بأمر الاعتقالات في سنغافورة. كان ذلك بمثابة فشلٍ آخر له: نسّق الرجل سلسلة من تفجيرات الكنائس المسيحية في مختلف أنحاء الأرخبيل الإندونيسي عشية عيد الميلاد في العام ٢٠٠٠، لكن عدداً كبيراً من القنابل وُضع في المكان الخطأ، وهكذا لم يُقتل أي شخص بسببها. مات بالرغم من ذلك ١٩ شخصاً في تلك الليلة كما جُرح ١٢٠ آخرون، وذلك في ما عُرف بتفجيرات عيد الميلاد. قرّر الحنبلي، مع فشل خطة سنغافورة واحتجاز عدد من العملاء الأساسيين، الارتجال والتقى عدداً من أعضاء الجهاد الإسلامي الهاربين في جوهور، وذلك في ١٣ كانون الأول/ديسمبر. أمرهم باستهداف عدد من الأهداف في سنغافورة بهدف الانتقام من إلقاء القبض على رجاله. عثر الرجل على متآمرٍ إرهابي هو ماس سلامات كاستاري، وهو الرجل الذي أمسك بزمام قيادة شبكة الجهاد الإسلامي في سنغافورة بعد ابراهيم مايدين في العام ١٩٩٩، وأعطاه الموافقة على خطف طائرة متوجهة إلى سنغافورة وصدمها في مطار شانغي، وهو مطار سنغافورة الدولي، وذلك في العملية التي وصفها أحد المتواطئين في ما بعد بأنها مركز التجارة العالمي في شانغي، وهو أشار بذلك إلى عملية تدمير مركز التجارة العالمي.

حددت المنظمة في وقتٍ سابق المطار بوصفه هدفاً محتملاً كما التقطت صوراً له. انتقى سلامات شخصياً أربعة من أعضاء خليته الذين يثق بهم كثيراً واصطحبهم إلى تايلاندا، وذلك بعد أن انتهى من عمليات البحث الأساسية. اختبأ الخمسة في منزل يقع على شاطئ البحر، واشتروا خمس تذاكر سفر في درجة رجال الأعمال على شركة آيروفلوت [الروسية] في رحلتها المتجهة إلى سنغافورة، ثم خططوا تفاصيل هجومهم. (كان اختيار شركة الطيران الروسية مقصوداً لأن كاستاري أراد الانتقام لمقتل رجال الشيشان المسلمين على يد الجنود الروس).

تمكنت دائرة الأمن الداخلي [الاستخبارات في سنغافورة] من إحباط هذه المؤامرة. نبهت الدائرة في ٢٩ كانون الأول/ديسمبر كل شركائها الأمنيين من هذه المؤامرة، وما لبثت صورة ماس سلامات أن ظهرت في الصفحات الأولى في الصحف التايلاندية. اضطر ماس سلامات وأعضاء خليّته إلى الفرار من تايلاندا بعد انكشاف خطتهم. لاحقت دائرة الأمن الداخلي ماس سلامات في رياو بعد مرور سنة من الزمن، وأعلمت الشرطة الإندونيسية التي ما لبثت أن اعتقلته وسجنته بسبب خرقه نظام الدخول إلى البلاد. رُحّل الرجل في النهاية إلى سنغافورة في العام ٢٠٠٦ مع اثنين من رجاله.

وقفت حكومة ميغاواتي سوكارنوبوتري الإندونيسية حائرة أمام التهديد الذي تمثله الجماعة الإسلامية. تعزز هذا التهاون الإندونيسي عندما عيّنت سلطات سنغافورة رجل الدين أبا بكر بشير ليكون القائد الروحي للجماعة الإسلامية. لكن بينما بدا بشير مسالماً ويتمتع بقدرٍ كبيرٍ من الاحترام إلا أنه في واقع الأمر كان شديد الالتزام بالعنف، كما سمح للحنبلي بإدارة جماعته فعلياً. قاد نائب ميغاواتي في هذا الوقت حملة المشككين الذين تحدثوا بالسوء عن المؤامرات الغربية، وأصروا على أن الجماعة الإسلامية تعني، ببساطة، المجتمع الإسلامي. تغيّر كل ذلك في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٢، وذلك عندما انفجرت قنبلتان ضخمتان في قلب بالي. كان ذلك التاريخ يمثّل الذكرى السنوية الثانية للهجوم على يو. أس. أس. كول، وكان ذلك أول ما تبادر إلى ذهني فور سماعي للنبأ.

كانت أول عملية ناجحة للحنبلي في إندونيسيا هي تفجير سيارة السفير الفليبيني في جاكارتا في آب/أغسطس ٢٠٠٠. تحملت سيارة السفير، وهي من نوع مرسيدس - بنز انفجار العبوة الناسفة التي وضعت خارج مدخل منزله (والتي فُجّرت فور دخول السيارة)، لكنه أُصيب بجروح بالغة، كما أن حارساً إندونيسياً كان واقفاً عند البوابة، وبائعاً متجولاً، قُتلا في ذلك الحادث.

كان صانع القنبلة هو الناشط في الجماعة الإسلامية رحمان الغزي، وهو الذي

تلقى تدريباته مع جبهة تحرير مورو الإسلامية الإندونيسية. أدى التعاون ما بين وكالتَي الاستخبارات السنغافورية والفليبينية إلى إلقاء القبض على الغزي في مانيلا في ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢، وذلك بينما كان يحاول ركوب طائرة متجهة إلى بانكوك. كان الغزي في طريقه لقبض مبلغ من المال من قادة الجهاد الإسلامي لشراء المتفجرات اللازمة لشن هجوم في سنغافورة.

كان للجهاد الإسلامي صانعو قنابل آخرون بمن فيهم أحد الماليزيين، ويُدعى أزهري حسين، وهكذا دعا الحنبلي إلى اجتماع يُعقد في بانكوك في أوائل شهر شباط/فبراير من العام ٢٠٠٢. حضر الاجتماع كذلك اثنان من قادة الجهاد الإسلامي الإندونيسي مخلص (هدى بن عبد الحق)، وذو الكفل مرزوقي، واثنان من قادة الجهاد الإسلامي الماليزية، وان مين بن وان مات ونور الدين م. توب.

ناقش المجتمعون التفجيرات الصغيرة في الحانات، والمقاهي، والملاهي الليلية التي يرتادها الغربيون في تايلاندا، وماليزيا، وسنغافورة، والفليبين، وإندونيسيا. قررت المجموعة، بعد التداول في المواقع المناسبة للتفجيرات استهداف جزيرة بالي التي هي بمثابة منتجعٍ سياحي إندونيسي وذلك من أجل إحداث أقصى قدرٍ من الأضرار.

أرسل حنبلي بعد اجتماع بانكوك إلى مخلص مبلغ ٣٥,٠٠٠$ عن طريق وان مين، كما أن مخلص ورّط شقيقيه آمروزي وعلي إمرون في هذه العملية. كان علي إمرون صانع قنابل سبق له أن علّم التعامل مع الأسلحة في معسكرٍ للقاعدة في أفغانستان في أواسط أعوام التسعينيات، وهو الذي أخبرني في وقتٍ لاحق أنه بالرغم من أنه لم يكن يعرف الحنبلي جيداً، وأنه لم يكن قائده، إلا أنه وافق على الاشتراك في هذه العملية لأن شقيقه مخلص يثق به.

وضع علي إمرون قنبلة بشكل علبة على الرصيف خارج القنصلية الأميركية في دينباسار، وهي العاصمة الإقليمية لبالي، وذلك في مساء يوم ١٢ تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٢. قاد شاحنته الصغيرة من نوع ميتسوبيشي L-300، والمحملة بما زنته

طنٌ واحدٌ من كلورات البوتاسيوم و٢٠ كيلوغراماً من تي. أن. تي حتى تقاطع شارع ليجيان في مركز كوتا، حيث تسلم الشاحنة رجل آخر. تسبب هاتف خلويّ بعد الساعة ١١:٠٠ مساء في تفجير القنبلة خارج القنصلية الأميركية، وهو الأمر الذي تسبب في جرح أحد عابري الطريق، لكن أحداً في كوتا لم يسمع شيئاً غير موسيقى البوب التي تنبعث من الملاهي الليلية. كانت الحفلة في ملهى بادي في أوج صخبها عندما دخل شاب إندونيسي، وتطلع من حوله، ثم فجّر حزامه الناسف.

اندفع الناجون إلى الخارج للفرار من كرة النار، وفي الوقت ذاته قاد الرجل الذي أخذ الشاحنة من علي إمرون قنبلته المتحركة نحو مدخل ملهى ساري، ثم ضغط على صاعق التفجير.

مات ما مجموعه مئتانِ وشخصان في بالي في تلك الليلة: ٨٨ من الأستراليين، ٨٨ من الإندونيسيين، و٢٤ من البريطانيين، و٧ من الأميركيين، و٦ من الألمان، و٥ من السويديين، و٣٢ مواطناً من ١٧ بلداً آخر. بقيت جثتان لم يتم التعرف عليهما أبداً.

غادر علي إيمرون برفقة إمام سامودرا، وهو قائد عمليات الخلية، وبقية المهاجمين بالي في اليوم التالي. ركّزت الشرطة الإندونيسية في هذا الوقت على الأخطار المحدقة، وتلقت مساعدة من البلدان التي قُتِل مواطنوها، فاكتشفت هيكل شاحنة الميتسوبيشي L-٣٠٠ في موقع التفجير، وهو الأمر الذي أدى إلى أول اختراق: بيعت الشاحنة إلى آمروزي، وهو شقيق مخلص. كان اسمه مألوفاً لدى المحقق الإندونيسي بيني ماموتو، وذلك لأنه سمع به من دائرة الأمن الداخلي، وذلك عندما حضر بهدف استجواب موقوفي الجهاد الإسلامي في سنغافورة قبل أشهرٍ عدة. أتاح إلقاء القبض على آمروزي في قرية لامونجان الواقعة في جاوا الشرقية، للشرطة الإندونيسية أن تضع يدها على الوثائق الأساسية، ولائحة بأرقام الهواتف الخلوية العائدة إلى أعضاء آخرين في الشبكة، كما أنه في شهر تموز/يوليو من العام ٢٠٠٣ أُلقي القبض على ما يزيد عن ثلاثة وثمانين مشتبهاً به بينما لاذ الحنبلي بالفرار.

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

أبلغ الحنبلي الفرع الخاص التايلاندي عن شقيقه روسمان غاناوان، والذي يُعرف كذلك بلقبه غون غون، وهو الذي كان مع خلية في باكستان تدعى الغرباء (لم يكن أعضاء الخلية من باكستان). أُلقي القبض في ١٨ أيلول/سبتمبر على أعضاء تلك الخلية، وكانوا ١٣ ماليزياً، وخمسة إندونيسيين. التحق الماليزيون الثلاثة عشر، والذين تراوحت أعمارهم ما بين سبعة عشر وخمسة وعشرين عاماً، بجامعة أبو بكر الإسلامية ومدرسة الدراسات الجامعية، وهذه الأخيرة هي مدرسة دينية يديرها لاشغار الطيب. أظهرت التحقيقات أن عدداً منهم كان من خريجي لقمان الحكيم، وهي مدرسة دينية تحت إدارة الجماعة الإسلامية في أولو تيرام. أقفلت السلطات الماليزية تلك المدرسة في أوائل ٢٠٠٢.

تدرب عدد من الطلاب على الدراسات الدينية والمهارات العسكرية والإرهابية، كما كانوا يحضّرون ليكونوا الجيل التالي من قادة الجماعة الإسلامية. سافر عدد قليل منهم إلى أفغانستان لتلقي التدريب على حرب العصابات، وذلك قبل أشهرٍ قليلة من الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كما قابلوا بن لادن في قندهار. تبيّن بعد ذلك أن هذه الخلية لم تقترف أي أعمالٍ إرهابية ولم تخطط لأي شيء، بل إنّ أعضاءها كانوا يتدربون ويدرسون. وفي شهر تشرين الثاني/نوفمبر أُعيد الطلاب الثمانية عشر إلى أوطانهم.

أبلغ فران تاونسند ـ وهو مساعد الرئيس جورج دبليو بوش للأمن الداخلي

ومكافحة الإرهاب، والذي عمل سابقاً في وزارة العدل - المراسلين في مؤتمر صحفي عقده في ٩ شباط/فبراير من العام ٢٠٠٦، بأنه بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر رسم خالد الشيخ محمد خطة تستهدف الساحل الغربي، وترمي إلى ضرب أعلى مبنى في ذلك الجانب من الولايات المتحدة. كشف خالد الشيخ محمد أثناء جلسة استماع جرت في خليج غوانتانامو في شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٧، أنه أراد استهداف برج المكتبة (ليبراري تاور) الواقع في وسط لوس آنجلوس. أضاف أنه عمل مع الحنبلي، وجنّد أربعة أعضاء للخلية، كما أنه درب قائدها على التفجيرات بواسطة الأحذية. قال تاونسند: «ألقي القبض على قائد الخلية في شباط/فبراير من العام ٢٠٠٢. اعتقد أعضاء الخلية الآخرون أن خطة الساحل الغربي قد أُلغيت».

رددت «صحيفة وقائع» صدرت عن البيت الأبيض في ٢٣ أيار/مايو من العام ٢٠٠٧ أن تلك الخطة قد أُحبطت في العام ٢٠٠٢: أحبطنا في العام ٢٠٠٢ خطة أعدها خالد الشيخ محمد لخطف طائرة وقيادتها إلى أعلى مبنى في الساحل الغربي».

ادعى في ما بعد مناصرو طرق الاستجواب بالإكراه التي أجازتها إدارة بوش أن استخدامهم لتلك الطرق مع خالد الشيخ محمد هو الذي منع ذلك الهجوم على الساحل الغربي. كانت المشكلة مع هذه الحجة هي أن خالد الشيخ محمد قد أُلقي القبض عليه في شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٣، وذلك بعد وقتٍ طويل من إحباط الخطة. مارس خالد الشيخ محمد أساليب مقاومة الاستجواب، فأبلغ المحققين بتلك الخطة، وهو ما دفعهم إلى الاعتقاد أنه يتعاون معهم، لكنه كان يعطيهم، في واقع الأمر، معلومات قديمة. أُسدل الستار على تلك الخطة، وقال تاونسند إن قائد الخلية قد أُلقي القبض عليه.

وفي إحدى المذكرات التي نُزعت عنها صفة السرية، والتي كانت بعنوان: «موقوف يُفصح عن معلومات في غاية الأهمية في الحرب ضد القاعدة». زعمت

وكالة الاستخبارات المركزية أن خالد الشيخ محمد أعطى معلومات في شهر آذار/ مارس من العام ٢٠٠٣ عن ماجد خان، وهو الذي أعطى بدوره تلك المعلومات. زعمت المذكرة بعد ذلك ما يلي: «أُلقي القبض على زبير في حزيران/يونيو من العام ٢٠٠٣ استناداً إلى تلك المعلومات. استخدمنا المعلومات التي حصلنا عليها من زبير لملاحقة حنبلي واعتقاله». إن أقل ما يُقال إن ذلك ما هو إلا تفسير فضفاض لما حدث.

تحاول المذكرة كذلك تعزيز أهمية غون غون وخلية الغرباء فتضيف: «اعترف الحنبلي بأن بعض أعضاء الخلية [الباكستانية] كانوا يستعدون أخيراً لتنفيذ عمليات في الولايات المتحدة ـ وذلك تحت ضغطٍ من خالد الشيخ محمد ـ ولربما كان ذلك جزءاً من خطة خالد الشيخ محمد لقيادة طائرات مختطفة إلى أعلى مبنى في الساحل الغربي الأميركي». كان ذلك في المحصلة «النهائية» و«المحتملة» أفضل ما يمكن للمحللين استنتاجه، وذلك بالرغم من ١٨٣ جلسة من الاستجوابات، ومن الاستجوابات الإكراهية التي تُشبه الإغراق. أما الواقع فهو أن خلية الغرباء لم تكن متورطة، وهو ما يفسّر سبب عدم طلب الولايات المتحدة إلقاء القبض على أعضائها، وإرسالهم إلى بلدانهم.

بينما كان خالد الشيخ محمد يدلي «باعترافاته» عن الخطة التي تم إحباطها مسبقاً، اعتقد المسؤولون عن برنامج تقنيات الاستجواب المحسنة EIT أن اعترافاته تلك تشكل أنباءً مهمّة، لكنه لم يخبرهم أي شيء عن تلك الخطط التي لم تنفذ بعد، لكنه يعلم بها جيداً بسبب المركز الذي يحتله بوصفه القائد العسكري في القاعدة، أي مثل الخلايا التي كانت ناشطة في مدريد، ولندن، وجاكارتا. شعر خالد الشيخ محمد بالسرور للنجاح الذي حققه الهجوم الأول في بالي في تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٢، لذلك أعطى الحنبلي مبلغ ١٠٠,٠٠٠$ «علامة على التهنئة»، وذلك بالإضافة إلى مبلغ ٣٠,٠٠٠$ لتنفيذ عمليات إضافية. أعطى الحنبلي المال إلى نور الدين توب، وصانع القنابل آزهري حسين، بهدف تفجير فندق جاي. دبليو

ماريوت في جاكارتا في يوم ٥ آب/أغسطس من العام ٢٠٠٣، وذلك بعد خمسة أشهرٍ تقريباً من إلقاء القبض على خالد الشيخ محمد.

قطعت عملية إلقاء القبض على حنبلي وسائل اتصال بقايا شبكة الجماعة الإسلامية عن مركز القاعدة، إلا أن نشطاء مثل نور الدين توب كانوا قد طوروا ميلاً إلى العنف. مضى الأزهري وتوب في تنفيذ ثلاث عمليات إرهابية أخرى في إندونيسيا، بما في ذلك هجومٌ ثانٍ في بالي. قُتل الأزهري عندما أغارت الشرطة الإندونيسية على أحد المخابئ في جاوا الشرقية في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام٢٠٠٥، كما أن نور الدين توب لوحق حتى وصل إلى مخبأ يقع قرب مدينة سولو الملكية الإندونيسية، حيث مات وسط زخاتٍ من الرصاص في ١٧ أيلول/ سبتمبر، ٢٠٠٩. اكتشفت الشرطة الإندونيسية بعد ذلك معسكر تدريبٍ إرهابياً يقع في آتشيه Aceh، فحاصرت عشرات النشطاء الإضافيين التابعين للجماعة الإسلامية مع مجنّديهم الجدد.

الجزء السادس

أول موقوف ذي أهمية كبرى

الفصل العشرون

أبو زبيدة

٢٩ آذار/مارس ٢٠٠٢. كنت أُوضّبُ حقائبي في شقتي في نيويورك سيتي، وكنت أحضّر نفسي لأخذ إجازة كانت منتظرة منذ وقت طويل وتشمل تمضية عطلة عيد الميلاد مع الأسرة في بنسلفانيا، وذلك عندما رن هاتفي الخلوي، وهاتف المنزل، وجهاز المناداة بصورة متواترة. كان على الطرف الآخر من الخط، مساعدي العميل الخاص بالوكالة كيني ماكسويل، وكان يتكلم من المركز المشترك لمكافحة الإرهاب في نيويورك. أمرني بالتوجه إلى مدرج خاص في مطار دوليس الذي يقع خارج واشنطن العاصمة، وذلك تنفيذاً لمهمة خاصة. أُلقي القبض في الليلة السابقة على أبي زبيدة الذي يُعتبر أثمن موقوف عالي الأهمية بالنسبة إلى أميركا منذ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. كان من المفترض أن أحضر لاستجوابه.

بحث مكتب التحقيقات الاتحادي عن أبي زبيدة منذ مدة. كان الرجل مطلوباً في البداية بسبب علاقاته مع محاولة أحمد رسام لتفجير مطار لوس آنجلوس الدولي ليلة الاحتفال بعيد رأس سنة ١٩٩٩، وكذلك مع مؤامرة الألفية في الأردن. تردّد اسم أبي زبيدة بوتيرة متزايدة في تقارير الاستخبارات بعد مؤامرة الألفية. لم يكن الرجل عضواً في القاعدة، لكن دوره كأمير خالدان خارج تلك المنظمة اكتسب أهمية كبيرة.

كان كبار أعضاء القاعدة، مثل خلاد، يلتجئون دائماً إلى أبي زبيدة طلباً للمساعدة في جوازات السفر والتنقلات. كانت القاعدة تضمن لأبي زبيدة بدورها الحماية في أماكن أخرى من أفغانستان، كما أنه اعتاد المكوث في مراكز ضيافتها. كان واحداً من أهم النشطاء الخارجيين في شبكة الظل التي نجهد لتفكيكها.

أفرغت حقيبتي وما لبثت أن ملأت كيساً أسطواني الشكل يحتوي على أغراض شخصية. صعدت بعد مرور عشر دقائق في سيارة أجرة متوجهاً إلى مطار لاغوارديا. التقاني تشارلز فرام، وهو نائب مساعد مدير مكتب التحقيقات الاتحادي بالوكالة، في واشنطن كي يصطحبني إلى مطار دوليس. كان معه [redacted] ، وهو [redacted] السابق من أيام مكتب نيويورك، والذي أُلحق بالإدارة العليا منذ وقتٍ قريب.

كان فرام ملحقاً بمكتب واشنطن في ذلك الوقت، أو معيّناً مع وكالة الاستخبارات المركزية، وأبلغني في طريقهما إلى دوليس بنبأ إلقاء القبض على أبي زبيدة في الليلة الفائتة خلال معركة بالبنادق نشبت في فيصل أباد، باكستان. لوحق الرجل بعد أن ساعد مكتب التحقيقات على تتبّع إحدى مكالماته التي أجراها مع إحدى الشقق، وذلك بعد نجاح المكتب في مراقبة اتصالاته. عمل مكتب التحقيقات الاتحادي مع وكالة الاستخبارات المركزية و [redacted] الباكستانية على الإغارة على المبنى.

استسلم شاغلو الشقة بعد معركة بالبنادق، أو أنه تم التغلب عليهم وإخضاعهم. أُحضر الجميع للاستجواب. لم يكن من السهل التعرف إلى أبي زبيدة في البداية. أصيب الرجل في فخذه، وخاصرته، وبطنه بينما كان يحاول الهرب قفزاً من سطح أحد المباني إلى سطح مبنى آخر، لكن جروحه كانت خطيرة. يُضاف إلى ذلك تغييره لملامحه في محاولة منه لإخفاء هويته. بدا في وقتٍ سابق مثل رجل أعمال بلحيته المشذبة بدقة، ونظارته، وشعره القصير نسبياً. أما الآن فإنَّهُ حلق لحيته تماماً لكنه أطال شعره الأشعث. كان أبو زبيدة يُعتبر إرهابياً من المستوى المنخفض. تعرّف إليه رجال مكتب التحقيقات والاستخبارات المركزية على الأرض بالرغم من

تنكره، وهكذا فصِل عن بقية السجناء. اتخذت وكالة الاستخبارات المركزية قراراً بتسفيره جواً إلى بلدٍ آخر – الذي بقي اسمه سراً – حيث سيخضع للاستجواب في موقعٍ آمن.

كان كرايغ دوناشي هو مسؤول مكتب التحقيقات لمراقبة أبي زبيدة. كنت أعرف كرايغ جيداً. كان الرجل معيناً في المركز المشترك لمكافحة الإرهاب في نيويورك، كما كان يعرف بأمر أبي زبيدة. عملنا معاً في قضايا I-49 سابقة. سبق لإدارة مكتب التحقيقات أن قررت أن نشترك أنا وكرايغ في هذه المهمة. أبلغني فرام بالرغم من ذلك أن كرايغ لن يلحق بي، لأنهم لم يستطيعوا الاتصال به. (تبيّن في ما بعد أنه كان داخل قطار عائداً إلى نيويورك لتمضية عيد الفصح مع أسرته). لكن [redacted] سيأتي بدلاً منه.

أبلغني فرام أن الأوامر تقضي بمساعدة فريق وكالة الاستخبارات المركزية، وأننا قد أُحضرنا للمساعدة بسبب معرفتي بأبي زبيدة. أبلغني أكثر من مرة بأن العملية تهدف إلى جمع المعلومات الاستخبارية بقيادة وكالة الاستخبارات المركزية، وأننا موجودان لمساعدتهما كلما كان ذلك ضرورياً. لم يقرأ [redacted] تحذير ميراندا، أو يقلق بشأن قبول الدليل في المحكمة. كان من المقرر أن يبقى [redacted] طالما احتاجته وكالة الاستخبارات المركزية.

انضم إلينا في مطار دوليس اثنان من الفريق الطبي سبق للوكالة أن تعاقدت معهما، وهما طبيب وطبيب تخدير، واللذان كان من المفترض بهما المساعدة في العناية بأبي زبيدة. لم يسبق لطبيب التخدير أن عمل مع وكالة الاستخبارات المركزية من قبل، وهكذا اصطحبه أحد ضباط الوكالة إلى حجرة هاتف تقع في مبنى المطار ليشرح له المهمة، وحمله على توقيع اتفاقية حفظ الأسرار. كان معهما أحد المتدربين العسكريين الذي أُخذ من بين صف جديد لضباط وكالة الاستخبارات المركزية وأُلحق بهذه المهمة لأنه تلقى تدريباً كمساعدٍ طبي. كان من المفترض به مساعدة

الطبيب وطبيب التخدير بصفته تلك. صعدنا إلى طائرة استأجرتها وكالة الاستخبارات المركزية وما لبثت أن أقلعت. وصلنا بعد رحلة طويلة إلى مقصدنا.

استقبلنا عدد من ضباط محطة وكالة الاستخبارات المركزية المحلية واصطحبونا إلى طائرة صغيرة. سافرنا إلى حيث يوجد أحد المنازل الآمنة حيث يُحتجز «أبو زبيدة». رحب ضباط وكالة الاستخبارات المركزية المتمركزون هناك بنا ترحيباً حاراً. شرعنا بتنظيف المكان وتجهيزه تمهيداً لوصول أبي زبيدة بعد قليل، وهكذا جُهّزت له غرفة مستشفى مؤقتة. حاولنا كذلك جعل المكان صحياً بشكلٍ يتمكن باقي الأعضاء من استخدامه. كان ذلك موقعاً بدائياً جداً. ذهبت ذات يوم إلى الحمام ورأيت أفعى متكورة في الزاوية، وكان رأسها مرفوعاً وتصفر نحوي. خرجت من الغرفة راكضاً وناديت أحد الحراس الذي كان مكلفاً بتأمين الأمن في الموقع. عثر الحارس على غصنٍ بشكل V وتناوله عن الأرض، ثم أمسك بالأفعى وأخرجها بعد ذلك من المرحاض. لم تكن تلك بالمشكلة الفريدة من نوعها.

أُبلغنا أن مركز مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات المركزية وهو المكلّف بإجراء الاستجوابات نيابة عن الوكالة، قد قرر عدم إرسال فريق للانضمام إلينا. لم تصدّق الوكالة أنّ الرجل الذي ألقي القبض عليه هو أبو زبيدة بالفعل. لكن آخرين في وكالة الاستخبارات المركزية صدّقوا أنه أبو زبيدة بالفعل، وهو سبب إرساله جواً إلى منزلٍ آمن تابع للوكالة، وسبب الطلب منا السفر جواً لملاقاته. (اكتشفنا في وقتٍ لاحق أن فريق مركز مكافحة الإرهاب كان من المفترض أن يكون في الطائرة معنا). لكن آلفين، وهو رئيس العمليات الذي ارتكب أخطاءً أثناء التحقيقات في هجمات الألفية، هو الذي يدير الآن مركز مكافحة الإرهاب.

اكتشفت في ما بعد أن ارتباك مركز مكافحة الإرهاب ناتج عن مصدرنا المجهول في أفغانستان، وهو الذي أبلغ المركز بأن الرجل الذي ألقي القبض عليه لم يكن أبا زبيدة. عُرضت صورة الرجل الأسير على المصدر، لكن تبيّن أنه بالرغم من أن المصدر رجل موثوق به عادة إلا أنه لا يتمتع بمهارة في التعرّف إلى الناس في الصور.

كانت الصور غريبة عنه لأنه نشأ في ظل طالبان الذين لا تُلتقط صور لأعضائها. كان من المؤكد أن المصدر لن يتعرف إلى أبي زبيدة من دون لحية. كان مركز مكافحة الإرهاب يثق بالمصدر لذلك لم يرغب في تضييع وقته في المجيء. لكننا وآخرين في وكالة الاستخبارات المركزية كنا واثقين بالتعرّف إلى أبي زبيدة الذي أكّده فريق الاعتقال الذي يعمل على الأرض في فيصل أباد.

افترضت أننا سندعم فريق وكالة الاستخبارات المركزية المحلي في مسألة استجواب أبي زبيدة، وذلك بالنظر إلى غياب فريق مركز مكافحة الإرهاب، وهو الأمر الذي أكّده فرام باعتباره كل ذلك عملية لوكالة الاستخبارات المركزية. كان [redacted] هناك لتقديم الدعم، وليس لإدارة العملية. ما إن وصل أبو زبيدة واستعد للاستجواب حتى توجهت إلى رئيس قاعدة وكالة الاستخبارات المركزية وسألته عن توقيت الموعد الذي حدّدوه للبدء باستجوابه. فوجئ لدى سماعه سؤالي. سألني: «مَن؟ نحن؟ أنا لا أعرف أي شيء عن هذا الرجل، وكذلك رجالي. لكني أعلم أنكم في مكتب التحقيقات تعلمون شيئاً عنه. لماذا لا تتولون أنتم مسألة الاستجوابات؟ إننا جميعاً نعمل لصالح العم سام».

سار [redacted] إلى غرفة المستشفى المؤقتة التي ساعدنا على إقامتها قبل ساعات قليلة. رأينا أبا زبيدة مستلقياً على نقالة في وسط الغرفة. كان وجهه مغطى بكيس، وهو إجراء معتاد عند نقل الإرهابيين. كان الرجل لا يكاد يتحرك، وكانت بعض أجزاء جسده تغطيها الضمادات، بينما ظهرت بعض الندوب والجروح في أنحاء أخرى من جسمه. كان الرجل في حالة صحية حرجة، ويداه مقيّدتان بالنقالة.

[redacted] الكيس عن رأسه. رمشت عيناه بينما تكيّفتا مع الضوء. تنقلت عيناه في أرجاء الغرفة ونحونا في محاولة لفهم كل شيء. تفحصت وجهه. كانت إحدى عينيه ذات لون أخضر داكن من جراء الالتهاب، بنما ظهرت الجروح والدماء الجافة على وجهه. كان شعره طويلاً ومجعداً وأشعثَ. فهمت عند ذلك السبب الذي منع المصدر من التعرّف إليه. قدرت أن الرجل في سن [redacted]، الثانية والثلاثين.

[redacted]

كنا نتحدث بالعربية، لكن الرجل بدا، كأنه افترض أننا كنا إما عرباً أو عملاء للاستخبارات الإسرائيلية. كانت فكرته عن مسؤولي مكتب التحقيقات الاتحادي تصورهم على أنهم شبان بيض البشرة وقساة القلوب، وهي صورة لا تشمل الذين يتكلمون العربية باعتبارها لغتهم الأصلية. تناول [redacted] أوراقنا التي تُثبت أننا نعمل مع مكتب التحقيقات الاتحادي وعرضناها عليه. ظهرت ملامح المفاجأة على وجهه مجدداً.

[redacted]

[redacted]

كانت المعلومات المتعلقة بالتحضير للهجوم حساسة بالنسبة إلى الوقت بطبيعة الحال، لذلك أخذنا استراحة سريعة من استجواب أبي زبيدة، وكتب كل شيء أبلغنا به في برقية، هذا بينما اعتنى الفريق الطبي بجروح أبي زبيدة منهمكاً بتقييم وضعه الصحي. كانت كل المراسلات البرقية تمرّ من المنزل الآمن [المخبأ] عبر أقنية وكالة الاستخبارات المركزية قبل وصولها إلى الإدارة العليا في لانغلي. كانت المعلومات تخضع للتقييم هناك، كما كان مدير وكالة الاستخبارات المركزية يتلقى ملخصاً عنها. أُحبط الهجوم بناءً على المعلومات التي حصلنا عليها.

أبلغنا الأشخاص الذين كانوا جالسين حول طاولة الاجتماع، وحيث تلقى تينيت ملخصاً عما حدث، في ما بعد بأن تينيت قد فوجئ [redacted] لأن أبا زبيدة يتعاون. سبق لوكالة الاستخبارات المركزية أن كلفت محلّلين نفسيين اثنين في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٩ بإعداد تقرير خاص. ورد في ذلك التقرير أن الأسلوب الذي يعتمد القسوة والإذلال لإخضاع الإرهابيين لا غنى عنه لحملِ الموقوفين من ذوي الأهمية العالية على الكلام، وأن تلك العملية تستغرق وقتاً.

أمر تينيت معاونيه بإرسال تهانيه إلى [redacted] ضباط وكالة الاستخبارات المركزية الذين يقومون بالاستجواب. ساد صمت ثقيل في أنحاء الغرفة. أبلغ الحاضرون بأن

عملاء مكتب التحقيقات الاتحادي هم الذين يقومون بالاستجواب في واقع الأمر، وهم الذين حصلوا على هذه المعلومات. استشاط تينيت غضباً وضرب الطاولة بقبضة يده بكل قوة. سأل بكل صرامة: «لماذا لا يتولى مركز مكافحة الإرهاب هذا الاستجواب؟» أُبلغ بأن المركز لم يصدق أن الرجل الذي أُلقي القبض عليه كان أبا زبيدة، فما كان منه إلا أن قال آمراً: «فليتوجهوا الآن إلى هناك كي يتولوا زمام الأمور».

عدنا إلى أبي زبيدة بعد أن كتبنا تقريرنا. أخذنا بصماته وعينة من حمضه النووي DNA، وكلها إجراءات معتادة، كما سجّل صوته، وذلك بسبب استنتاج مركز مكافحة الإرهاب الأولي أن المشتبه به ليس أبا زبيدة. تقرر كذلك إرسال نموذج الصوت إلى مراجع أخرى للتثبت من صحته.

كنا نعرف قدراً كبيراً من المعلومات عن أبي زبيدة قبل اعتقاله، وكذلك خلال استجواب [redacted]. كان أبو زبيدة فلسطينياً وُلد في المملكة العربية السعودية في العام ١٩٧١، وهناك كان والده يعمل في التدريس. نشأ أبو زبيدة هناك كمهاجر فلسطيني نموذجي من الطبقة الوسطى، حتى أنه شارك في رحلة نظمتها مدرسته الثانوية إلى الولايات المتحدة. درس كذلك في الهند، وتزوج امرأة هندية. قال أبو زبيدة إنها كانت مولعة «بالجنس، ولا شيء غير الجنس»، وهكذا أنهى زواجه منها عندما غادر الهند. تأثر الرجل في ما بعد، كما فعل عدد كبير من كبار المجاهدين، بالخطابات النارية التي كان فلسطيني آخر، هو عبد اللّٰه عزام، يلقيها وهكذا صمم على المشاركة في القتال ضد الروس. سافر أبو زبيدة إلى أفغانستان لمقاتلة نظام نجيب اللّٰه المدعوم من السوفيات (١٩٨٩-١٩٩٢).

أصيب أبو زبيدة خلال إحدى المعارك بشظية في رأسه، لكن الشظية قضت على ذاكرته، فنسي حتى من يكون. نُقل إلى المستشفى على وجه السرعة للمعالجة، لكن الأطباء قرروا بأن نزع الشظية هو أمر في غاية الخطورة. يحتفظ أبو زبيدة حتى اليوم بهذه الفجوة في رأسه.

نُقل أبو زبيدة بعد تلقيه العلاج إلى مركز ضيافة في بيشاور لإخضاعه للعناية الصحية. عُرض عليه جواز سفره في ذلك الوقت، وكان جواز السفر في عهدة أمير مركز الضيافة بينما كان يقاتل في الجبهة، وكان ذلك إجراءً معتاداً. أراد جميع نزلاء مركز الضيافة مساعدته فكانوا يقولون له «اسمك أبو زبيدة». كان ذلك هو السبب الذي جعله، مع عدد قليل من الإرهابيين، يتجول باسمه الحقيقي بدلاً من الاسم الحركي.

بدأ أبو زبيدة، وفي محاولة منه استجماع ذكريات ماضيه، بكتابة يوميات تسجل تفاصيل نشاطاته اليومية، ومشاعره، وماذا قال له الناس. قسم الرجل معلوماته إلى فئات، مثل ما يعرفه عن نفسه وماذا قال له الناس عن نفسه، ووضع كل هذه المعلومات تحت مسميات مختلفة [redacted] وذلك لتمييز كل مجموعة عن الأخرى. أخطأ المحللون عند العثور على اليوميات في اعتبارهم هذه المسميات المختلفة دليلاً على متلازمة اضطراب في الشخصية [تعدد الشخصيات].

تابع أبو زبيدة كتابة يومياته حتى بعد انتهاء فترة العلاج ومغادرته مركز الضيافة. قيّمنا في ما بعد هذه اليوميات، وهكذا حصلنا منها على معلومات جديدة كما أكدت لنا المعلومات التي سبق أن أعطانا إياها. اشتملت اليوميات، على سبيل المثال، على تفاصيل كيفية تحضيره قبل أيام من الحادي عشر من أيلول/سبتمبر لإجراءاتٍ دفاعية ضد الهجمات المضادة التي قد تشنها الولايات المتحدة، وهكذا عمل مع القاعدة في شراء الأسلحة وتجهيز الخطوط الدفاعية في أفغانستان. فصّلت إحدى اليوميات والتي تعود إلى العام ٢٠٠٢ كيف أنه خطط شخصياً لشن الجهاد ضد الولايات المتحدة وذلك عن طريق إشعال الحروب العرقية، ومهاجمة محطات الوقود وشاحنات نقل الوقود وإشعال الحرائق بشكل متزامن. قدّم لنا أبو زبيدة تفاصيل أكثر في ما بعد خلال استجوابه.

[redacted]

[redacted]

[redacted]

علمنا من تحقيقاتٍ سابقة، وحتى قبل أن يُبلغنا بهذا الأمر أن أبا زبيدة [redacted]. كان من المفاجئ كثيراً بالنسبة إلينا ملاحظة أن مسؤولي إدارة بوش يصفونه بأنه من كبار قادة القاعدة، وحتى أنه يحتل المركز الثالث أو الرابع من مراكز قيادة تلك المنظمة الإرهابية، وذلك بالرغم

من أنه نقل ذلك إلينا – وقمنا بكتابتها إحساساً منه بالواجب ثم أرسل البرقيات إلى لانغلي.

حافظ مسؤولو إدارة بوش على إصرارهم بأن أبا زبيدة كان عضواً في القاعدة، كما أنهم بالغوا في تقدير أهميته، وذلك ليس فقط علناً، ولكن في المذكرات السرية. ورد في إحدى المذكرات التي نُزعت عنها السرية حديثاً والتي تحمل تاريخ ٣٠ أيار/مايو ٢٠٠٥ – وهي المذكرة التي أرسلها كبير نواب مساعد المدعي العام في وزارة العدل، ستيفن جي. برادبوري، إلى جون آي. ريزو، الذي كان في ذلك الوقت كبير نواب المستشار العام في وكالة الاستخبارات المركزية – أن أبا زبيدة كان قبل إلقاء القبض عليه «واحداً من كبار نواب أسامة بن لادن»، والرجل رقم ثلاثة أو أربعة في تلك المنظمة، وأنه تورط «في كل عملية إرهابية رئيسة نفذتها القاعدة». (عُرفت تلك المذكرة، والمذكرات الأخرى المشابهة لها، والتي أصدرها مكتب المستشار القانوني في وزارة العدل، وهي التي عُرفت في ذلك الوقت باسم «مذكرات OLC»)(*). لم تكن كل هذه المذكّرات صحيحة، وما كان يجب تصديقها. لم يتوقف المسؤولون الأميركيون عن اعتباره عضواً في القاعدة إلا عندما تولت إدارة أوباما مسؤولياتها.

وعندما خضع أبو زبيدة بعد وقت طويل على يد فريق التحقيقات الجنائية CITF في خليج غوانتانامو، كوبا، عُرضت عليه صورة أبي حفص المصري. وضع أبو زبيدة يده على الصورة ثم أعادها إلى المستجوِب وقال: «والآن، هذا هو الرجل رقم ثلاثة في القاعدة». [redacted]

عندما استجوبنا أبا زبيدة، كنا نكافح في هذا الوقت لإبقائه على قيد الحياة. كان الرجل في وضعٍ مريع. مزّقت الرصاصة التي أصابته في فخذه الأيسر القطع

(*) نسبة إلى الأحرف الأولى من: Office of legal Counsel وتعني مذكرات مكتب المستشار القانوني.

النقدية المعدنية التي كانت في جيبه. دخلت أجزاء من هذه الشظية الغريبة إلى بطنه. اضطررنا إلى أخذ عدة فترات استراحة خلال الاستجواب وذلك بينما فتح الفريق الطبي جروحه ونظفها منعاً للالتهاب. لم يتمكن أبو زبيدة من تناول الطعام، والشرب، أو حتى الاهتمام بنظافته الشخصية. وضعت مكعبات من الثلج على شفتيه بهدف إعطائه بعض السوائل، وذلك بينما كنا منهمكين باستجوابه، كما أن [redacted] نظّفه بعد أن بلل نفسه.

أدرك أبو زبيدة أن وضعه مريع. [redacted] كانت في وضع غريب: كنا نكافح لإبقاء رجلٍ إرهابي حياً، وهو الذي كان ملتزماً بقتل أميركيين. لكننا كنا نحتاج إلى الحصول على معلوماتٍ منه، أما إذا مات فلن نستطيع الاستفادة منه بشيء في تلك الحال.

توجّه الجميع إلى فندق قريب للمبيت فيه، وذلك بعد أن استسلم أبو زبيدة للنوم في تلك الليلة الأولى، وبعد أن فرغنا من إرسال البرقيات إلى لانغلي، قررت المكوث في المنزل الآمن [المخبأ] مع أبي زبيدة، وذلك تحسباً لاستيقاظه من النوم ورغبته في قول أي شيء. وضعت سريراً مؤقتاً لي في الغرفة المجاورة له. أمضيت معظم الليل في مراجعة ما نعرفه عن أبي زبيدة والإرهابيين الآخرين في شبكته، وكذلك المعلومات التي أعطانا إياها في ذلك اليوم، وذلك تحضيراً لجلسة استجواب اليوم التالي.

كنت منهمكاً في رسم خطة الاستجواب عندما دخل أحد المساعدين الطبيين التابعين لوكالة الاستخبارات المركزية الذين يعتنون بأبي زبيدة إلى غرفتي عند الساعة ٣:٠٠ فجراً. سألني: «مرحباً يا علي، ما هي درجة أهمية هذا الرجل؟» لم

يكن المساعد الطبي يعرف شيئاً عن أبي زبيدة، وكان موجوداً في هذا المكان نظراً لمهاراته الطبية.

أجبته: «إنه في غاية الأهمية».

«أيعرف أشياء كثيرة؟»

«أجل. أعتقد ذلك».

«حسناً. إذا أردتَ الحصول على أي شيء منه فمن الأفضل أن تذهب لاستجوابه الآن».

«لماذا؟ عمَّ تتحدث؟»

«لا أعتقد أنه سوف يبقى حياً إلى الصباح. إن جروحه مليئة بالقيح». قال المساعد الطبي ذلك من دون اكتراث.

اتصلت بالفندق حيث ينزل [redacted]، والفريق الطبي، وبعض مسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية المحليين وأيقظتهم. وصلوا بعد مرور عشرين دقيقة فكررت على مسامعهم ما قاله لي المساعد الطبي. قيّم الطبيب وضع أبي زبيدة وقال موافقاً: «سيموت عند الصباح إن لم نفعل شيئاً».

كانت المشكلة الأولى هي أنهم لم يكن بحوزتهم الأدوات الطبية اللازمة في هذا المنزل الآمن لمعالجة أبي زبيدة. كان نقله إلى مستشفى لائق هو الفرصة الوحيدة التي أمامنا لإبقائه حياً. أما المشكلة الثانية فكانت أنهم كانوا من عملاء مكتب التحقيقات ومن ضباط وكالة الاستخبارات المركزية. يعني ذلك أن وجودهم في هذا البلد يُفترض أن يبقى سراً. أما إذا تسربت هذه المعلومة فإن من شأن ذلك تنبيه إرهابيين آخرين إلى مكان اعتقال أبي زبيدة، ولربما يسبب ذلك مشاكل للبلد الذي يستضيفنا.

أبرق رئيس قاعدة وكالة الاستخبارات المركزية إلى لانغلي، وشرح وضعنا، ثم

طلب الحصول على التعليمات اللازمة. جاء الرد على البرقية سريعاً: «الموت ليس خياراً». كان ذلك بمثابة إعطائنا الضوء الأخضر كي نفعل كل ما في وسعنا لإبقاء أبي زبيدة حياً. ساهم ذكاؤه الواضح وتعاونه في إنقاذ حياته. كان التحدي هو كيفية نقله إلى مستشفى محلي من دون جذب الانتباه.

طلع علينا آلان، وهو المسؤول الأمني عن المحطة المحلية بخطة: سيبادر [redacted] إلى [redacted]

ساء وضع أبي زبيدة أكثر في طريقنا إلى المستشفى. جلسنا أنا و [redacted]، وآلان، في المقعد الخلفي لسيارة الإسعاف معه وراقبنا الأطباء وهم يكافحون ليتمكن من الاستمرار في تنفسه. أجرى طبيب التخدير عملية أحدث فيها فتحة في عنقه وأدخل أنبوباً من خلالها. تناوب [redacted] على ضخ الهواء إلى رئتيه [التنفس الاصطناعي] من خلال الأنبوب. كان ما يزال حياً عندما توقفنا خارج المستشفى. شعرنا بالتوتر عندما دفعنا النقالة التي تحمله إلى مدخل المستشفى. لم نعرف ما إذا كانت المقالة الرئيسة في [redacted] ستكون مقبولة، كما أن هناك فرصةً كبيرة في أن يموت أبو زبيدة في أي لحظة. حدّق الناس بنا وهم يتساءلون عن السبب الذي يجعل كل هؤلاء الجنود يدفعون رفيقاً جريحاً لهم في نقالة وهو مقيّد بالأصفاد. تحدثنا مع موظفي المستشفى، وهكذا أُدخل أبو زبيدة بسرعة إلى غرفة العمليات الجراحية. بدأ الجراحون بعد دقائق قليلة بإجراء الجراحة.

جلسنا في غرفة الانتظار وأمضينا الوقت في مشاهدة التلفزيون. رحت أفكر، ماذا يحدث لو مات؟ أما إذا عاش فماذا سنناقش تالياً؟ لم يقطع أفكاري سوى خروج الجرّاح وإبلاغنا بأن العملية الجراحية كانت ناجحة.

تقرر إحضار أحد الأطباء من مستشفى جونز هوبكنز بالطائرة من أجل تقييم وضع أبي زبيدة الصحي. تشاور الطبيب مع الجراحين، وكتب تقريره، ثم غادر المكان. بقي [redacted] في المستشفى مع أبي زبيدة منتظراً إياه كي يستعيد وعيه. سألنا تكراراً الأطباء والممرضات الذين يعتنون به ويغيّرون له ضماداته طول المدة التي ستمر قبل استعادته وعيه. فتح أبو زبيدة عينيه أخيراً.

أبلغنا أبو زبيدة في وقتٍ لاحق بأنه عندما فتح عينيه في البداية رأى نساء يغطين كامل وجوههن وقد أحطن به – كنّ الممرضات اللواتي ارتدين أزياء عملهن الرسمية والأقنعة الطبية – فظن أنه لربما هو في الجنة. تبخرت تلك الرؤية عندما شاهد [redacted] في أزيائهم العسكرية وهم ينظرون إليه. ابتسم أبو زبيدة عند روايته هذا الخبر.

ما إن فتح عينيه، وكان من الواضح أنه استعاد وعيه، حتى أعطيته محاضرة صارمة. حذرته بالقول: «إياك أن تُحدث أي ضجة. ابقَ كما أنت. إن [redacted] يفعل هذا لإنقاذ حياتك. ستعرّض حياتك للخطر إذا ما أقدمتَ على أي مغامرة». بدأ [redacted] بطرح الأسئلة من دون تأخير. [redacted]

ركّزنا عند عودتنا إلى المنزل الآمن على الخطط التي تورط فيها [redacted]. كانت الأولوية الأهم لدينا هي إحباط أيّ خطط قيد الإعداد. وفي المستشقى فإن هدفنا في الجلسة الأولى هو الحصول على تفاصيل أكثر عن التهديدات المحدقة وانتزاع أي معلوماتٍ جديدة يعطينا إياها حول بن لادن وكبار القادة في القاعدة. عمدنا هنا إلى توجيه المحادثة.

[redacted]

[redacted] بعد أن انتهى أبو زبيدة من وصف ذلك التفاعل، [redacted]

طلب [redacted] من [redacted] أن يُحضر صورة له، وذلك من أجل التأكد من أن أبا زبيدة كان يتحدث عن الشخص ذاته.

لم يكن أي من ألبومات الصور التي يمتلكها مكتب التحقيقات الاتحادي معنا، وذلك لأن المقصود منها أن تكون داعمة لوكالة الاستخبارات المركزية ولم تُحضر معها أدوات الاستجواب الخاصة بها. عمد [redacted] لهذا السبب إلى تحميل لائحة أخطر الإرهابيين المطلوبين لدى مكتب التحقيقات الاتحادي على جهاز سوني الذي يمتلكه، وهو جهاز شبيه بجهاز Palm Pilot(*). نُشرت هذه القائمة لأول مرة بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وهي القائمة التي تشتمل على أسماء اثنين وعشرين إرهابياً أدانتهم هيئات المحلفين بسبب أعمالهم الإرهابية. [redacted]

كان [redacted] ينقر باستمرار على جهازه لتكبير الصور ثم يناوله إلى [redacted] بينما تستمر عملية تحميل الصور [redacted]

(*) جهاز جوّال بنظام خفيف، عبارة عن منظّم مواعيد ومفكرة شخصية بمواصفات متواضعة.

[redacted]

[redacted]

تذكّر [redacted] شريط فيديو كان عثر عليه بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ويظهر فيه بن لادن واصفاً إحدى الخطط، ومتبجحاً بخبرته في وضعها. نظر بن لادن عدة مرات في ذلك الشريط إلى شخصٍ ما، إما أنه الشخص الذي يصوّر الشريط أو الذي يجلس بقرب ذلك الشخص ويؤشر نحوه قائلاً، «مختار». يذهب بن لادن إلى حد أنه ينسب إليه بعض الفضل في تنفيذ الهجمات.

تحدث بن لادن في مكانٍ تالٍ من ذلك الشريط ذاته عن حلم لأحد الأشخاص عن الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وقال: «رأى في ذلك الحلم ذاته المختار وهو يعلمهم فن الكاراتيه». يظهر في نهاية ذلك الشريط أعضاء القاعدة وهم يحيطون بطائرة هيليوكوبتر كانت قد أُسقطت فوق مقاطعة غزني في أفغانستان. كان الإرهابيون يلتقطون صوراً لحطام تلك الطائرة، كما سُمع صوت أحدهم وهو يقول «يا مختار، تعال وشاهِد هذه». عرفنا من هذه اللقطة أن مختار هو شخص مهم، لكننا لم نعرف من يكون. يُمكن لكلمة مختار أن تعني ما يشبه رئيس البلدية [أو العمدة]، ويمكن أن تعني كذلك «الشخص المختار». يوحي هذا الاسم بالاحترام على أي حال.

ترددت في مجتمعات الاستخبارات معلومات واردة تتحدث عن «الشخص الذي طار عقله» ـ أو مخ طار كما هي بالعربية الدارجة. اعتقدَ بعض المحللين أن

هذه العبارة تعني بن لادن، لكن شكوكي المستندة إلى تلك المعلومات بأن ذلك الاسم هو طريقة أخرى يستخدمها النشطاء للإشارة إلى مختار، وذلك للتعمية عليه أكثر. طلع علينا أبو زبيدة أخيراً بحلٍ لهذا اللغز، وهذا ما تأكدنا منه. هل أن خالد الشيخ محمد هو المختار! لم نكن متأكدين.

كان خالد الشيخ محمد على رأس قائمة أخطر المطلوبين في مكتب التحقيقات الاتحادي، وذلك نظراً لدوره في مؤامرة بوجينكا مع ابن أخته رمزي يوسف. لم يكن مجتمع الاستخبارات الأميركي يمتلك دليلاً حتى تلك اللحظة يشير إلى أن خالد الشيخ محمد هو عضو في القاعدة حتى (كان يُعتقد أنه إرهابي مستقل)، دعك من كونه العقل المخطط لهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. تعيّن عليّ أن أكون حذراً، لأنني لم أرغب في أن يعرف أبو زبيدة أن ذلك هو اختراقٌ كبير بالنسبة إليّ. إنَّ الأمر الأساس بالنسبة إلى الاستجواب الناجح هو عدم تمكين المشتبه به من معرفة أنه يعطيك معلومات لا تعرفها. إن من شأن ذلك أن يقلّل فرص إعطائك مزيداً من المعلومات وذلك لأنه يدرك أنه قال من الكلام أكثر من اللزوم. لكن تحتّم عليّ أن أدع [redacted] يعلم بما حدث.

أدرك [redacted] من هذه المحادثة أن شيئاً ما يجري، لكن بما أنه لا يجيد العربية الفصحى – وهو لا يعرف سوى عدد قليل من الكلمات – لذلك لم يعلم التفاصيل. التفتّ نحوه وقلت: «يا [redacted] ما الأمر؟ لقد عرضتَ عليّ الصورة الخاطئة». ناولته جهازه الإلكتروني، وأشرت إلى صورة خالد الشيخ محمد الظاهرة على الشاشة. ما إن تناول [redacted] الجهاز، [redacted] في محاولةٍ منه للحاق بوتيرة الاستجواب.

[redacted]

[redacted]

[redacted] نجحت هذه الخطة.

[redacted]

خرج [redacted] من الغرفة مع آلان، الذي كان يراقب الاستجواب أثناء هذه المحادثة. توثقت علاقتنا مع آلان منذ وصولنا، أعجبنا. كما أنه لم يكن خبيراً بإرهابيي الشرق الأوسط، وهكذا لم تعنِ له صورة خالد الشيخ محمد شيئاً. اصطحبه [redacted] خارجاً كي يشرح له ما حدث للتو.

مضيتُ قُدُماً مع أبي زبيدة. [redacted] اعتمدت على حدسي مجدداً. لم أكن أعلم أنهما صديقان، لكنني خمّنت هذا، وذلك نظراً لمعرفة أبي زبيدة بالدور الذي قام به خالد الشيخ محمد في هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، لذلك فكّرت أنهما لا بد أن يكونا صديقين. أردت مجدداً أن أجعل أبا زبيدة يعتقد أنني أعرف كل شيء عن علاقتهما.

[redacted]

[redacted]

عندما انتهينا من التحدث مع أبي زبيدة [redacted] قلت له: «والآن دعنا نَعُدْ إلى [redacted]». عمد [redacted] هذه المرة إلى تكبير الصورة الصحيحة، و [redacted]. أعطانا تفاصيل أكثر عن الخطط التي كان [redacted] متورطاً

فيها، [redacted]. أدت هذه المعلومات إلى إحباط الهجوم.

اعتُبرت [redacted] أبو زبيدة على أنها اختراق كبير في واشنطن.

لم نمتلك خطاً هاتفياً آمناً في المستشفى، ولذلك انتظرت أياماً قليلة حتى عدت إلى المنزل الآمن لإجراء مكالمة مع كيني ماكسويل، وهو رئيس الفريق المشترك لمكافحة الإرهاب، وهي الهيئة التي يقع خالد الشيخ محمد من ضمن اختصاصها. كان الفريق المشترك لمكافحة الإرهاب كذلك يقود أجزاء مهمّة من تحقيقات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ولهذا كانت هذه المعلومات جزءاً أساسياً من اللغز الذي كانوا يجمعون أجزاءه. كنت متلهفاً لمعرفة رأيهم في هذه الأنباء، كما أنني احتجت إلى الحصول على أي أفكار يمكنهم إرسالها إلينا.

«كيني، ما رأيك في هذه الأنباء؟»

بدا منذهلاً عندما أجاب: «أي أنباء؟»

قلت ببطء: «كيني. هل تعرف من خطّط لهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر؟»

«مَن؟»

قلت: «إنه الرجل الذي يعمل فرانك بيليغرينو على قضيته». كان فرانك وكيل قضية لمكتب التحقيقات الاتحادي في ما يتعلق بخالد الشيخ محمد.

سأل كيني مجدداً: «مَن؟»

قلت له مستخدماً اسماً آخر لمؤامرة بوجينكا: «إنه الشاب من طيران مانيلا».

ذُهل كيني على الفور: «إنك تمازحني من دون شك. إنه ليس عضواً في القاعدة».

قلت: «فكّر مجدداً. لم أصدق أن المركز المشترك لمكافحة الإرهاب لم يتلقَ هذه الأخبار بعد. أبلغت كيني بضرورة الحصول على المعلومات التي أرسلها [redacted] إلى لانغلي، وذلك لكي يتمكن عملاء المركز المشترك لمكافحة الإرهاب، من أمثال فرانك، من الاستفادة منها وإرسال أي أسئلة لديهم إلينا».

عندما عدت أخيراً إلى نيويورك اكتشفت أن قدراً قليلاً من المعلومات التي كنا نرسلها برقياً كل يوم قد وصل فعلاً إلى المركز المشترك لمكافحة الإرهاب.

واصلْنا على مدى الأيام القليلة التالية التي أمضيناها في المستشفى استجواب أبي زبيدة في كل لحظة أُتيحت لي، [redacted] كنا نتوقف عندما يضطر إلى النوم أو عندما يقوم الأطباء بمعالجته. كان يخضع لفحوص في بعض الأوقات. وعندما يحتاج إلى تصوير بالرنين المغناطيسي MRI، ونكتشف أنَّ جسمه كان أكبر من أن يتسع للجهاز، كان يضطر [redacted] إلى حشره في الفجوة.

دار أحد الأحاديث ما بيننا وبين أبي زبيدة [redacted]

وبعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ومع توالي الأنباء بأن أميركا كانت تستعدّ لغزو أفغانستان، ومع زيادة ضغط تحالف الشمال على مواقع طالبان، [redacted]

[redacted] فكّر في أن يسأله عن الموضوع في وقتٍ لاحق، لكن برزت أمامنا أشياء أكثر أهمية تطلبت تركيزنا.

وخلال الأوقات التي قضاها أبو زبيدة في المستشفى تفحصنا دليل هاتفه، ويومياته، وأغراضه الشخصية الأخرى، وهي كلها صودرت من شقّته بعد إلقاء القبض عليه في فيصل أباد. عُثر على كل هذه الأغراض في حقيبته الشخصية، وهي التي ساعدت في إعطائنا فهماً أكمل لعلاقاته بالشبكة الإرهابية في كل أنحاء العالم، كما ساعدتنا في التحضير لجلسات الاستجواب. عُثر كذلك على شريط فيديو تضمن دعوة الجميع للوقوف وراء بن لادن بوصفه زعيماً للمجاهدين في أفغانستان. قال أبو زبيدة في الفيديو: «إننا والشيخ واحد. عملنا معاً نحو عشر سنوات، لكن كنا نأمل إبقاء هذا العمل سرياً... ومخفياً». [redacted]

[redacted] لكن بالرغم من أنه كان عنصراً مساعداً، إلا أنه لم يجتذب مجندين أو يجمع أتباعاً يخصونه وَحْدَه.

مضى أبو زبيدة يشرح [redacted]

[redacted]

[redacted] تدرب معظَّم بيج، وهو رجل باكستاني من بيج في المملكة المتحدة، في معسكرات أفغانستان. [redacted]

[redacted] كان [redacted] على علم بوجود بيج من أيام مكافحة الإرهاب في المملكة المتحدة: وكان يعرف كيف تم انتقاؤه في بريطانيا في صيف العام ٢٠٠١ من قِبل SO1، MI5، وكيف تمت الإغارة على متجره وتفتيش أغراضه. راجعت القضية ذهنياً: لم تعلم SO13 بأمر هذه الغارة، ولم تكن جاهزة لإقامة دعوى إرهابية ضده. فرّ بيج لدى إطلاق سراحه إلى كابول.

[redacted]

[redacted] أما بيج فيجول حراً طليقاً في بريطانيا.

الفصل الحادي والعشرون

المقاولون يتولَّوْن زمام الأمور

كانت هذه الفترة من التعاون مع أبي زبيدة [redacted] في المستشفى، و [redacted] عندما وصل فريق مركز مكافحة الإرهاب أخيراً إلى البلاد من واشنطن العاصمة. اشتملت مجموعة وكالة الاستخبارات المركزية على كبير المحللين النفسانيين العملانيين، و[redacted]. وعلى مستجوِب، وإد، وفرانك وهو مشغّل جهاز كشف الكذب. كان هناك كذلك موظفون آخرون من وكالة الاستخبارات المركزية: محلّلون، وموظفو دعم، وموظفون أمنيون. وصل مع هذه المجموعة بوريس، وهو محلّل نفسي، ومقاول استأجرته وكالة الاستخبارات المركزية.

سررت في البداية عند وصول فريق مركز مكافحة الإرهاب. وبالرغم من أنني كنت ألتقي فرانك للمرة الأولى، إلا أنني كنت أعرف [redacted] وإد جيداً. [redacted]، واكتشفت أنهما يتبنيان وجهات نظر متشابهة بالنسبة إلى تلك القضايا في ذلك الوقت. عملت مع إد مراتٍ قليلة. التقينا للمرة الأولى أثناء [redacted] التحقيقات في تفجير المدمرة كول، كما اشتركنا مراتٍ قليلة

في استجوابات [redacted]. إنني أكنّ له احتراماً كبيراً. افترضت بحضورهما أننا سوف نعمل معاً، أي كما فعل [redacted] في مكانٍ آخر [redacted]، وأنها سوف تكون عملية سهلة.

أقام [redacted] مع ضباط وكالة الاستخبارات المركزية المحليين في فندقٍ مجاور طوال مكوث أبي زبيدة في المستشفى. وعندما وصل [redacted] وفريق مكافحة الإرهاب إلى الفندق، طلب [redacted] من [redacted] و [redacted] الانضمام إليهم لعقد اجتماع. بعد تبادل التحيات والمجاملات، قال [redacted] لنا: «ترغب واشنطن في إدخال شيء جديد إلى الاستجواب». قدّم إلينا بوريس الذي قال إنه طوّر طريقة جديدة للاستجواب.

سأل [redacted]: «ولماذا يحتاج الأمر إلى [redacted]؟» «[redacted]»، «لكننا أنجزنا حتى الآن سلسلة من الاستجوابات الناجحة».

بدا الإنزعاج على [redacted] بكل وضوح. «سبق لي أن استجوبت إرهابيين من قبل. إنها عملية بحد ذاتها. إن الرجل يتعاون معنا، [redacted]؟»

قال [redacted]: «أعرف ذلك، لكن واشنطن تشعر أن أبا زبيدة يعرف أموراً تتعدى بكثير ما يقوله لكم، كما أن بوريس هنا يمتلك طريقة لانتزاع المعلومات منه بسرعة».

سألت بوريس بعد أن التفتّ إليه: «ما هي طريقتك؟» قال إنه سوف يرغم أبا زبيدة على الإذعان. تقضي طريقته بأن يجعل أبا زبيدة ينظر إليه على أن إلهاً يتحكم بمعاناته. ستؤخذ [redacted] بعيداً عن أبي زبيدة: [redacted] ثيابه. وإذا تعاون فسوف تُعاد إليه بعض أغراضه، وإذا لم يتعاون، فإن تقنيات متزايدة في القساوة سوف تُستخدم. أعلن بوريس: «سترون سريعاً جداً كيف سيُذعن أبو زبيدة ويصبح مطواعاً».

قال بوريس: «لكي تنجح طريقتي سيتعيّن علينا إبلاغ أبي زبيدة بأنه مُنحَ حتى الآن فرصةً للتعاون لكنه أضاعها. سيتعيّن عليه أن يفهم أننا نعرف بأنه يتلاعب بنا، وأن اللعبة انتهت الآن». أنهى حديثه بأن قال لنا: «سيرى [redacted] أبا زبيدة مرةً أخيرة. ستقول له إن رئيسك سوف يتولى الأمر، وهو وحده سيتكلم مع أبي زبيدة، كما أنه سوف يحدّد الوقت الذي يستطيع فيه أبو زبيدة [redacted]، وما إذا كان سوف يعيش أو يموت. لكنك لن تراه أبداً بعد ذلك». أضاف بوريس أن المسؤول سوف يكون إد، مستجوِب مركز مكافحة الإرهاب.

تبادل [redacted] النظرات مدهوشين بينما كان بوريس يشرح خطته. سألت ملتفتاً نحو [redacted] وفرانك: «هل هذا ضروري، بالنظر إلى أن أبا زبيدة يتعاون معنا [redacted]؟»

قاطعنا بوريس: «يُحتمل أنكم حصلتم على بعض النتائج، [redacted]، لكن توجد طريقة أكثر فعالية. سيكون مطيعاً لنا من دون أن نفعل شيئاً».

اعتبرت أنني سمعت ما يكفي. كان من الواضح أن بوريس لا يفهم طبيعة الإرهابيين الإسلاميين المدفوعين عقائدياً من أمثال أبي زبيدة. حذرته بالقول: «لا تنجح هذه الأمور مع أشخاصٍ تعهدوا بالموت في سبيل قضيتهم. إن أشخاصاً مثل أبي زبيدة مستعدون لتفجيرٍ أنفسهم وللموت. إن أشخاصاً مثله مستعدون لتحمّل التعذيب والضرب المبرح. إنهم يتوقعون التعرّض للاعتداء وهم يتحملون رؤية أفراد أسرهم يتعرضون للاعتداء أمام أعينهم! أتعتقد أن تجريده من ثيابه وحرمانه من مقعده سيحملانه على التعاون؟ هل تعرف مع مَن تتعامل؟»

ردّ بوريس: «لكن هذا علم». بدا أنه صُدم لأن أحداً تجرأ على تحدي آرائه. أبلغني بعض زملائه السابقين في وقتٍ لاحق بأنه يعتبر نفسه، وعلى الدوام، أذكى إنسانٍ في أي غرفة، كما أنه لا يحب أن يشكك أحدٌ في آرائه. لكن لم أنتهِ عند هذا الحد.

«إذاً، لماذا تسلك طريقاً يُحتمل أنه سيهدد المرحلة النهائية من الاستجواب؟»

أجاب بوريس: «إننا لن نصل إلى نهاية الطريق. الأمر سهل. سيعترف بسرعة».

«ألا تدرك أنك إذا حاولتَ إذلاله فإنك بذلك تعزّز ما يتوقع منا أن نفعله، وهي أمور تدرّب على مقاومتها؟» لم أمتلك في تلك المرحلة أي فكرة عن انحراف خطط بوريس إلى ما عُرف فيما بعد ب EITs (تقنيات الاستجواب المحسّنة).

قال بوريس: «سترى. تقضي الطبيعة البشرية بالتجاوب مع تلك الأمور. سترون بعد وقتٍ قليل كيف سيخضع بسرعة. يرغب البشر دائماً في تحسين حياتهم. سترون».

أجبته: «إنه ليس مومساً ولا مجرماً عادياً. إنه من النوع الذي تكون حياته أفضل عندما يرانا كلنا مقتولين أو متحولين إلى ذلك النوع من الإسلام الذي يدين به. لن تنجح طريقتك».

أجاب بوريس: «سترى». ظهرت مسحة تسامح على وجهه وكأنه لا يريد أن يزعج نفسه بالتحدث مع بسطاء كهؤلاء.

سألته: «هل سبق لك أن استجوبت إرهابياً إسلامياً من قبل؟»

«كلا».

«هل أجريتَ جلسات استجواب من قبل؟»

قال مجدداً: «كلا، ولكنني أعرف الطبيعة البشرية». شعرت بالصدمة من ردّه. لم أتمكّن من تصديق أن وكالة الاستخبارات المركزية ترسل شخصاً لا يمتلك أي خبرة في الاستجوابات أو الإرهاب في هذه المهمة.

تحدثت مع [redacted] وفرانك على انفراد وسألتهما: «هل هذه نكتة؟ ماذا يجري؟ لا يمتلك هذا الرجل أي خبرة، الأمر في غاية السخافة».

قال [redacted]: «أعطِه فرصة. يُحتمل أن تنجح أفكاره. أخبرني فرانك بأن بوريس مشهور جداً في حقل اختصاصه: علم النفس». أضاف أن ليس من خيار أمامي غير الموافقة على طُرُقه.

أضاف فرانك: «إنه المسؤول عن هذه العملية».

قال [redacted] بعد ذلك: «أتعرف شيئاً، [redacted]، يُفترض أنه خبيرٌ في هذا الحقل. دعنا نُعْطِ هذا الرجل فرصة». بدا لي أن [redacted] يأمل أن تنجح طريقة بوريس. لم يكن أمام [redacted] أي خيار. كانت وكالة الاستخبارات المركزية هي المسؤولة، كما أن أوامر [redacted] قضت بمساعدة ضباط CIA.

توجّه [redacted] إلى غرفة أبي زبيدة في المستشفى. [redacted]

[redacted]

[redacted]

نُقل أبو زبيدة من المستشفى وأُعيدَ إلى الموقع الأساسي. أُجريت تغييرات في الغرفة في غيابه، وشيّدت زنزانة حقيقية لأجله، ووُضعت كاميرات وميكروفونات خفية لمراقبتها. استغرقت وقتاً طويلاً للاستسلام للنوم في تلك الليلة. حدّقتُ في السقف محاولاً فهم السبب الذي يجعل مقاولاً لا يمتلك أي خبرة في الاستجواب أو الإرهاب الإسلامي على رأس برنامج استجواب أكثر الموقوفين قيمةً بالنسبة إلى البلاد. لم يكن في ذلك أي منطق.

كان أول عملٍ قام به بوريس هو الأمر بتجريد أبي زبيدة من ثيابه وتركه عارياً. قال بوريس إن العري سيُشعره بالإذلال، وسرعان ما سيصبح مطيعاً كي يستعيد ثيابه. [redacted]

دخل إد إلى الزنزانة، [redacted]

أعلن بوريس أن موسيقى صاخبة وعالية سوف تبثّ في زنزانة أبي زبيدة، كما أن تعريته سوف تستمر. قال بوريس إن الموسيقى سوف تصبح غير محتملة بحيث إن أبا زبيدة سيبدأ بالكلام من أجل إيقاف الموسيقى. تقرّر أن تبث أغنية الروك ذاتها في الزنزانة مرةً بعد مرةٍ وطيلة اليوم. شعرنا نحن الذين نصغي في غرفة المراقبة بالتقزز من هذه الموسيقى، كما تمكّنا من تخيّل العذاب الذي يعانيه أبو زبيدة. طلب بوريس من إد الدخول إلى الزنزانة. [redacted] خرج إد من الزنزانة بعد ذلك.

وصل [redacted] الذي طلبه بوريس. أبلغنا بوريس بأن سبب فشل الموسيقى الصاخبة العالية [redacted]. أراد استخدام [redacted] على الدوام – لكنه كان يستخدم الموسيقى الصاخبة العالية [redacted]. بلغ طولها ثلاث أقدام، واعتقدتُ أنها لربما تكون شيئاً مميزاً.

لكن عندما تم تشغيلها، [redacted]. سألته: «وهل ستحمله هذه على الكلام؟ لا بد من أنك تمازحني».

قال [redacted]: «كان بإمكانهم الاكتفاء بتشغيل جهاز التكييف، [redacted]».

استمر هذا الوضع أياماً عدة [redacted]، [redacted].

قال بوريس بعد ذلك إن ما نحتاجه لحمل أبي زبيدة على الكلام هو حرمانه من النوم. تساءل [redacted] عما إذا كان الحرمان من النوم لن يؤذيه بالفعل، ولن يجعله ذا فائدة أقل بالنسبة إلينا. وافق ضباط وكالة الاستخبارات المركزية الموجودون على الأرض معنا بشأن المخاطر التي تترافق مع هذا النهج، وهكذا طلبوا الحصول على النصح من لانغلي.

أتت الرسالة بأن بوريس يستطيع حرمان أبي زبيدة من النوم، لكن ليس لأكثر من أربعٍ وعشرين ساعة. شعر بوريس بالسرور وقال إن أبا زبيدة سيتكلم بعد حرمانه من النوم، وهو سيعطي كل المعلومات التي في جعبته بصورة آلية.

استمر الحرمان من النوم لمدة أربعٍ وعشرين ساعة . لكن هذه الطريقة فشلت، أي كما حدث بالنسبة إلى العري، والضجيج العالي، والضجة البيضاء [التي تحتوي على ترددات عدة]. [redacted] كما خرج إد. [redacted]

كانت كل دقيقة أمضاها [redacted] في السابق مع أبي زبيدة، ومن [redacted] معه، وهكذا تمكّنا من الحصول على معلوماتٍ استخبارية منه. بدأ أبو زبيدة بالتعاون، لكن ببطء وبثبات، وهكذا أعطانا معلومات ساهمت في إنقاذ حياة أشخاصٍ كثر. لكن الآن تعيّن علينا الجلوس والمراقبة أياماً من دون كسب أي

شيء من خلال الوسائل التي لا يُقدم أي مستجوِبٍ محترم حتى على التفكير في استخدامها.

حاولت مجادلة ضباط وكالة الاستخبارات المركزية بالمنطق على أمل أن يطلبوا من قيادتهم تغيير موقفها. يتدرب الإرهابيون على مقاومة التعذيب، لكن مهما كانت وسائل بوريس مريعة بالنسبة إلينا فإن الإرهابيين يتلقون تدريبات تحضّرهم لأشياء أسوأ منها – أي ذلك النوع من التعذيب الذي يتوقعونه إذا أمسكتهم الأنظمة الاستبدادية على سبيل المثال. تشمل هذه الأمور مهاجمة الكلاب لهم، والاعتداء عليهم، والاعتداء على أفراد عائلاتهم أمام أعينهم، وهم يتعلمون تحمّل كل ذلك جسدياً وذهنياً. يُضاف إلى ذلك أن أبا زبيدة لم يكن إرهابياً متدرباً عادياً، وهو الذي كان الأمير المستقل لمعسكر خالدان، أي أنه كان يشرف على عملية التدريب هناك. إن الحرمان من النوم وتجريده من ملابسه هما أمران لا يُحتمل أن ينجحا مع الإرهابي العادي، دعك من شخصٍ في وضع أبي زبيدة لديه تجاربه.

بدأ [redacted]، وبعد فشل أسلوب الحرمان من النوم يشك في شأن بوريس. قارن ما بين النجاحات السابقة مع ندرة المعلومات التي أنتجها نظام بوريس. يُضاف إلى ذلك أنه بدأ بإدراك أن تقييمي لأبي زبيدة ـ بوصفه مساعداً كبيراً على الإرهاب، لكنه ليس الرجل رقم ثلاثة في القاعدة ـ كان صحيحاً، أي مثل ما كان تحذيرنا من أن تجارب بوريس لن تنجح مع إرهابي كهذا.

بدأ مسؤولون آخرون في مركز مكافحة الإرهاب، وضباط من وكالة الاستخبارات المركزية بتكوين شكوكهم الخاصة بهم، كما أن التشكيك المتزايد حلّ مكان الانفتاح الذي أظهروه في البداية بشأن تجربة تقنيات بوريس. لم يكن لهؤلاء تجارب في الاستجوابات كما أنهم لم يعرفوا شيئاً عن أبي زبيدة، وهذا هو سبب موقفهم الذي أظهروه في البداية. بدا بوريس بالنسبة إليهم، وكأنه يعرف ما يتحدث عنه.

لكنهم أحسّوا بعد ذلك أن تجارب بوريس تتحول إلى وضعٍ خطرٍ يترافق مع

عواقب قضائية محتملة. بدأوا يدركون أنه بينما بدا بوريس كأنه واثقٌ من وسائله، إلا أنه كان في حقيقة الأمر يجري تجاربه فقط. كانت تجربته محصورة في السابق في غرف الدراسة، لكنه لم يشترك أبداً باستجوابٍ فعلي لإرهابي من قبل. قاد [redacted] الجهود لوضع [redacted] على رأس عملية الاستجواب مجدداً.

رفض بوريس الإجابة عن أي سؤالٍ يتعلق بما يفعله. حاول بوريس حشد أنصاره وشرح أسباب فشله بالقول إن فترة الحرمان من النوم لأربعٍ وعشرين ساعة ليست كافية. أعلن بوريس: «إنني أحتاج إلى ثمانٍ وأربعين ساعةً على الأقل من الحرمان المتواصل من النوم كي أحقق الهدف».

جاء فريق من محلّلي وكالة الاستخبارات المركزية ومعظمهم من الشبان، وذلك بعد وقت قصير من وصول بعثة مكافحة الإرهاب. كانوا متقبلين جداً، مع الأسف، للحجج التي قدّمها بوريس، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن الرجل يحتل المركز الثالث أو الرابع في القاعدة، ولهذا لم يكن يتعاون. أعرب جميعهم تقريباً عن إعجابهم ببوريس، وبدوا مقتنعين بأننا فشلنا مع أبي زبيدة. اعتبر بعض المحللين الشبان أن الحديث كان مملاً، وأننا يجب أن نكون قساة. أرسل بوريس طلباً إلى قيادة وكالة الاستخبارات المركزية طالباً الإذن بتجربة فترة أكبر من الحرمان من النوم.

لم تكن إدارة وكالة الاستخبارات المركزية تواجه فقط تحديات من أقلية بارزة في ذلك الموقع. مضت عدة أيام [redacted]، كما وردت عدة تساؤلات من أقسامٍ أخرى من مجتمع الاستخبارات الأميركي تسأل عن سبب إرسال [redacted] على نحوٍ مفاجئ. كانت نتيجة كل هذا الأخذ والرد والتساؤلات أن وكالة الاستخبارات المركزية أجازت [redacted] إعادة التعامل مع أبي زبيدة. كان ذلك بمثابة اعتراف بأن تجارب بوريس لم تكن ناجحة، وذلك بالرغم من عدم كفّ يده عن التعاطي بهذه المسألة. أدت هذه الخطوة كذلك إلى إفشال دور بوريس الرئيس، والذي كان يقضي بأن يتعامل شخص واحد فقط مع أبي زبيدة - هو

«إلهه». لم يكن بوريس سعيداً بهذا التدبير، لكن لم يكن له خيار في ذلك ـ أخذت إدارة وكالة الاستخبارات المركزية جانبنا أول مرة.

وضعت شرطاً قبل التحدث إلى أبي زبيدة، وهو شرطٌ أوضحته تماماً لهم. «لن ندخل إلى الزنزانة وهو في حالة عري، أو عندما يمارس بوريس ألاعيبه». أبلغنا بأن نقوم بما نشاء [redacted] عرف أنه بالنظر إلى محظوراته الثقافية والدينية المتعلقة بالعري، فإن هذه الخطوة، كانت موضع ترحيب. [redacted]

[redacted] لكن بينما تفهّمنا مشاعره ووافقنا عليها إلا أننا لم نتمكن من إبلاغه بها. سيعرف أبو زبيدة عند ذلك أن جانب [redacted] كان معطلاً، كما أنه سيصمت، حتى معنا.

[redacted]

عمل فرانك، الذي كان مكلفاً بتشغيل جهاز كشف الكذب، مع [redacted] وذلك عندما عدنا. كان الرجل مستجوِباً مدرباً، كما شاركنا في وجهات نظرنا. تبادلنا العمل مع أبي زبيدة.

كانت طريقة فرانك في العمل مع أبي زبيدة هي التركيز على إقناعه بأن التعاون هو في صالحه. كان يقول له، [redacted]

[redacted]

أما عندما يكون أحد [redacted] في غرفة الاستجواب كان الآخرون يحضرون في غرفة مجاورة يراقبون ما يجري على شاشة دائرة تلفزيون مغلقة CCTV(*). كان بوريس ومحللّو وكالة الاستخبارات المركزية يراقبون الاستجوابات ويدعمونها في تلك الغرفة. علمت بعد وقتٍ قصير أن بوريس كان يكره فرانك. يُحتمل أن السبب يعود إلى أن فرانك كان مستجوباً حقيقياً، وهو برهن قولاً وفعلاً بأنه لا يوافق على طريقة بوريس، بل يدعم طريقتنا في الاستجواب.

اعتاد بوريس على إطلاق تعليقات تهكمية أمام الموجودين في الغرفة عندما يكون فرانك مع أبي زبيدة: كان يقول، «إنه يُزهق روحه من الملل»، أو «أتعرفون ما يقوله أبو زبيدة الآن؟ إنه يقول له : أطلِق عليّ النار». كان بعض المحلّلين الشبان يضحكون عندما يتلفظ بوريس بأي شيء. لم يمتلك [redacted] أي فكرة عمّا قاله عنا عندما كنّا خارج الغرفة، لكن كان بإمكاننا أن نخمّن ذلك.

تجاهلنا بوريس، فتابعنا مع أبي زبيدة من النقطة التي بلغناها في المستشفى. [redacted]

[redacted]

(*) هي عبارة عن منصة تُستخدَم لكاميرات المراقبة الأمنية التي تعمل بنظام الإشارة الأساسية. وتُعتبر شائعة جداً في قطاع كاميرات المراقبة الأمنية.

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted] . أرسلنا برقية بهذه المعلومات على الفور إلى لانغلي، وأوصيت فيها بوجوب وضع إنذار دولي للرجلين. تم تنفيذ هذه التوصية بالفعل.

وردت رسالة من محطة وكالة الاستخبارات الأميركية في [redacted] تفيد بأنها تمتلك صوراً بمقاس صور جواز السفر لشخصين يطابقان هذه المواصفات. تمكن أحد ضباط وكالة الاستخبارات المركزية هناك من ملاحظة أوجه الشبه هذه. أوقف الباكستانيون الشخصين عندما كانا يحاولان مغادرة باكستان، وذلك بعد اشتباه السلطات بأن جوازَي سفرهما مزوّران. أُرسل جوازا السفر إلى [redacted] والسفارات الأميركية على التوالي، وذلك للتأكد من أنهما شرعيان.

ردّت السفارة الأميركية بأن جواز السفر الأميركي، [redacted] [redacted]، كان شرعياً، وهكذا كان في الواقع. قالت [redacted] إن جواز سفر بينيام

محمد كان مزوراً، وهو ما طابق توقعات أبي زبيدة. أقدم الباكستانيون نتيجة لذلك على إطلاق سراح باديلا، بينما احتجزوا محمداً لإجراء مزيد من الاستجواب.

عُرضت الصورتان على جهاز المسح الإلكتروني وأرسلتا إلى [redacted]، و [redacted]

[redacted] أن [redacted] يمتلك صورهما.

[redacted]

[redacted] بدأت عملية بحثٍ دولية عن باديلا.

وفي هذا الوقت، [redacted]

قال أبو زبيدة كذلك إنه خطط لمهاجمة محطات الوقود في كامل أنحاء البلاد

بالإضافة إلى جسرٍ رئيس في نيويورك. «[redacted]».

[redacted]

[redacted] كان ذلك جسر بروكلين.

[redacted]

[redacted]

استمرت التحقيقات باستخدام مزيج من استراتيجيات الاستجواب الشخصية، والمعرفية، والعاطفية، وهي التي أثمرت معلوماتٍ كثيرة، طلبت الإذن من لانغلي باستخدام ثلاث محادثات مسجّلة ومصنفة سرية تتعلق بأبي زبيدة، وقد حصلت على الإذن. [redacted]

بدأت بطرح أسئلة كنت أعرف إجاباتها مسبقاً، وذلك استناداً إلى الأشرطة المسجلة. « [redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

كانت إجادتي للّغة العربية عاملاً مساعداً لي [redacted] ولم تكن هناك حاجة إلى مترجم؛ كما أن أبا زبيدة لم يتمكن من الإنكار أو الكذب في هذا السياق. كانت هناك حيل متعددة استُخدمت للتفوق على ذكاء أبي زبيدة التي لم تحتج إلى اللغة العربية.

يعرف المستجوبون المحترفون أن إحدى النقاط الأساسية للتأثير في الموقوف هي ترك الانطباع بأنه يمتلك دليلاً ضده. يتعيّن على المستجوِب أن يقوم بعمله ويكون عليماً بكل التفاصيل المعروفة لدى مجتمع الاستخبارات عن الموقوف. يستخدم المستجوِب بعد ذلك تلك المعرفة للتأثير في الموقوف وإيهامه بأنه يعرف كل شيء عنه وأن أي كذبة ستُكشف بسهولة.

وبالمقابل فإن محاولة «إرغام الموقوفين على الإذعان من دون معرفة أي شيء عنهم، أو عن مستوى تورطهم قد يحمل معه عواقب كارثية». لا يعرف المستجوِبون في هذه الحالة ما إذا كانت المعلومات التي تُعطى لهم دقيقة، أو تافهة، أو كاذبة.

يستخدم المستجوِب كذلك الخوف الذي يشعر به الموقوف نتيجة أسره وعزله عن قاعدته التي يتلقى منها الدعم. يتوق الناس إلى التواصل مع البشر الآخرين، ويصدق هذا بشكلٍ خاص في بعض المجتمعات. يحوّل المستجوب في هذه الحالة هذه المعرفة إلى نقطة تفوق له عندما يصبح الشخص الوحيد الذي يُمكن للموقوف

أن يتحدث معه، والذي يُصغي إلى ما يقوله. يستخدم المستجوِب هذه النقطة لتشجيع الموقوف على الكلام.

لا يتوقع الموقوف أن يتصرف المستجوِب الأميركي بأسلوب غير تهديدي. يزيد هذا من ارتباك الموقوف ويجعله أكثر ميلاً للتعاون. يستفيد نهجنا كذلك من الحاجة التي يشعر بها الموقوف للمحافظة على قدرٍ من الاحترام والقيمة بالنسبة إلى المستجوِب. تنشأ العلاقة ما بين الطرفين لأن المستجوِب هو الشخص الوحيد الذي يتحدث إلى الموقوف ويصغي إليه، وهنا لا يرغب الموقوف في إعاقة هذه العلاقة. كانت تلك حالنا مع أبي زبيدة، وهكذا تمكنا من الاستفادة منها.

دخل بوريس إلى غرفتنا مع ابتسامة عريضة، وذلك بينما كان [redacted] منهمكاً في كتابة التقرير حول باديلا، وحول خطة أبي زبيدة التي تشتمل على زرع القنابل في مباني الشقق الأميركية، وكذلك المعلومات الأخرى التي أعطانا إياها. تقدّم منا، وصافحنا، وقال: «أخطأتُ بحقكم. كان الأمر عظيماً».

تبادلنا النظرات مدهوشَين. أدى نجاحنا إلى إفشال طريقته بالكامل، كما برهن أن طريقتنا كانت هي الطريقة الفعالة. كان كل ما تمكنت من قوله: أمامنا عملٌ كثير هنا». شككتُ في أن [redacted] هو الذي طلب من بوريس المجيء إلينا لمحاولة إصلاح العلاقة. كان [redacted] في تلك المرحلة أعلى من بوريس، وذلك لأنه كان موظفاً عند CTC، وكان بوريس مجرد مقاول.

أرسلت إدارة مكتب التحقيقات الاتحادي في يوم ١٧ أيار/مايو، ٢٠٠٢، واستناداً إلى معلومات استخبارية حصلتُ عليها، تحذيرات إلى كل مالكي الشقق السكنية بشكلٍ عام، كما أن الإجراءات الأمنية قد تشددت في جسر بروكلين. انطلقت في الوقت ذاته حملة دولية للقبض على باديلا. علِم الباكستانيون أنه توجّه إلى مصر. اكتشفنا أنه توجه من هناك إلى سويسرا. لوحق الرجل إلى زيوريخ حيث استقلّ طائرة متجهة إلى شيكاغو، كما أن مجموعة من المسؤولين السويسريين لحقت به

إلى تلك الطائرة. توجه في الوقت ذاته عملاء من مكتب التحقيقات الاتحادي كانوا متمركزين في نيويورك إلى شيكاغو لإلقاء القبض عليه.

تسلم مكتب نيويورك قضية باديلا بسبب علاقته بالقاعدة. كان كيني ماكسويل والمركز المشترك لقضايا الإرهاب JTTF هما المسؤولين عنها. تكلمت هاتفياً عبر خطٍ آمن مع كيني حول باديلا. أبلغنا كيني بأنهم يخطّطون لإلقاء القبض على باديلا فور هبوط طائرته. بدا منزعجاً بهذا القرار. قال لي إنه يفضّل بدلاً من ذلك مراقبة باديلا لمعرفة من سيلتقي به في شيكاغو.

وافقتُ كلياً مع وجهة نظر كيني، لكنني استغربت توجّه باديلا إلى شيكاغو، وهو الذي نشأ في فلوريدا وعاش في نيويورك. سألته: «ما علاقته بشيكاغو؟»

قال كيني موافقاً: «هذا ما أحب أن أعرفه». قال إن الإدارة العليا قررت اعتقال باديلا فور وصوله خوفاً من فقدان أثره. لا تريد الإدارة المخاطرة، وفكرت في أنه من الأفضل مجرد اعتقاله. أما أنا فقد تفهمت أسباب قلقهم.

ما إن ترجل باديلا من الطائرة في مطار أوهاير الدولي في شيكاغو، حتى دفعه رجال مكتب التحقيقات جانباً، وأبرزوا مذكرة جلب شاهدٍ مادي محررة من مقاطعة نيويورك الجنوبية. خضع باديلا للتفتيش فعُثر معه على مبلغ عشرة آلاف دولار، وذلك بالإضافة إلى هاتفٍ خلوي ودليل هاتفٍ شخصي. (يقبع باديلا الآن في سجنٍ أميركي، بينما يسرح بنيام محمد حراً في بريطانيا).

حررت مذكرة الجلب بناءً على شهادة تحت القَسَم لجو إينيس ـ أي آلاباما جو. بقيت «شهادة إينيس» سرية، إلا أن أجزاءً منها اقتُبست في وثائق قضائية غير سرية: «عُرضت في ٢٣ نيسان/أبريل أو نحوه على CS-1 ([redacted]) صورتان». أوردت الشهادة أن [redacted] تعرّف إلى الرجلين الظاهرين في الصورة على أنهما باديلا وبنيام محمد. كانت شهادة إينيس، ومذكرة جلب الشاهد، موقعتين من كبير قضاة المقاطعة الجنوبية في ذلك الحين، مايكل موكاسي، الذي أصبح في ما بعد ثالث مدعٍ عام لدى جورج دبليو بوش.

عقد جون آشكروفت، وهو أول مدعٍ عام لدى إدارة بوش، مؤتمراً صحفياً في موسكو بعد إلقاء القبض على باديلا، وذلك في سياق زيارة قام بها إلى موسكو، ووصفه بأنّه «إرهابي معروف» وكان يسعى إلى تنفيذ «خطة إرهابية كانت قيد التنفيذ»، وهي التي تقضي بزرع قنابل تطلق مخلفات مشعة في مدينة أميركية. لم يكن ذلك صحيحاً، وذلك لأن المدعي العام السابق تلقى معلومات مغلوطة. كان باديلا إرهابياً ملتزماً ومصمماً على محاولة إيذاء أميركا، لكنه كان أبعد ما يكون عن صنع قنبلة تطلق مخلفات مشعة، كما لم تكن هناك خطة قيد التنفيذ. كان باديلا هو الخطة ذاتها. وعندما عدت لاحقاً إلى نيويورك فقد صُدمت عندما رأيت باديلا على أغلفة المجلات مع عنوان «زارع القنابل الإشعاعية».

إن ما قاله آشكروفت للتو لا يتناسب مع المعلومات التي أبرقنا بها إلى لانغلي. إن المبالغة في تقدير خبرة باديلا وقدراته زرعت الخوف من دون داعٍ في قلوب الأميركيين. لم يكن تصريح آشكروفت غير دقيق فقط، لكنه جعلنا نبدوٍ حمقى في أعين القاعدة وآخرين الذين يعرفون مقاصدها الحقيقية. كان مغزى كل ذلك هو أن خداع الولايات المتحدة أمر سهل.

تابعتُ استجواب أبي زبيدة، لكن مسؤولي وكالة الاستخبارات الأميركية في ذلك الموقع والذين توثقت علاقتي بهم أبلغوني بأن بوريس والذين يدعمونه في واشنطن حريصون على أن يتسلم هذه القضية مجدداً. تابع هؤلاء الضغط بهدف الموافقة على فتراتٍ أكبر من الحرمان من النوم، وذلك بعد أن توافقوا على حجة أن السبب الوحيد وراء فشل تجاربه على أبي زبيدة هو أن فترة الحرمان من النوم لم تكن طويلة بما يكفي. استمر بوريس في هذا الوقت يحاول التدخل في عملي مرات قليلة.

دخل [redacted] ذات صباح إلى زنزانة أبي زبيدة لحضور جلسة استجواب. ارتجف [redacted] من البرد. كانت الغرفة باردة جداً. [redacted] كان من الواضح أن درجة حرارة الغرفة قد خفّضت عمداً. كان

بوريس يحاول التلاعب بدرجة حرارة الغرفة بالرغم من أننا كنا على رأس جلسات الاستجواب، كما تلقينا تأكيداً من أن تجاربه [بوريس] سوف تتوقف.

خرجت من الغرفة وأبلغت بوريس بأن أبا زبيدة يشعر بالبرد. سألته مباشرة: «هل تتلاعب بدرجة حرارة الغرفة؟»

«كلا. لم أفعل ذلك».

قلت له: «إذهب وتحقق بنفسك. الغرفة باردة جداً». أراد بوريس [redacted] تطبيق [redacted]

[redacted] بدا أنه يتحقق من درجة الحرارة، ومن نبضات قلب أبي زبيدة. خرج بوريس بعد ذلك، ومرّ بمحاذاة [redacted]، وأعلن أمام فريق محلّلي وكالة الاستخبارات المركزية: «كل شيء على ما يرام». لاحظت مسحة تهكمية في لهجته، أي كأنه فكّر بأن [redacted] هو الذي يصطنع الأشياء.

لم أكن في مزاجٍ يسمح لي بالمناورة مع بوريس. قلت له: «ارفع درجة الحرارة الآن». راجعت الأمر مع ضباط وكالة الاستخبارات المركزية. لم يكن أحد منهم على علمٍ بتسلّم بوريس الإذن بالتلاعب بدرجة الحرارة. أبلغتُ بوريس بالأمر فخرج من الغرفة متمتماً، وقال إنه سيرفع درجة الحرارة.

حضّرت بعض أكواب الشاي [redacted]

[redacted]. أدركتُ أنه يلعب إحدى ألاعيبه. [redacted]

[redacted]، وكذلك لا يستطيع الصقيع في تلك الغرفة [redacted] كما أن أعضاء فريق دعم وكالة الاستخبارات المركزية الذين يراقبون من خلال الكاميرات لم يمتلكوا أي فكرة.

ابتسمت لأنني عرفت ذلك. [redacted]

كان محمود المليجي ممثلاً مصرياً شهيراً. أعرف أن عدداً قليلاً من الناس يعرف ممثلين مصريين، وهكذا فإن الاسم لا يعني شيئاً بالنسبة إلى [redacted] أو الآخرين. لكنني تذكرت الاسم و [redacted]

سكبت كوباً من الشاي لـ [redacted]، وسرت عائداً إلى زنزانة أبي زبيدة. [redacted]

[redacted] ضحك الجميع.

الفصل الثاني والعشرون

«إننا لا نفعل ذلك»

لم يكن بوريس الشخص الوحيد في الموقع الذي تسبّب لنا بالمشاكل. كان، ومن أوجهٍ عدة، الرجل الواجهة لأشخاصٍ أقوياء في واشنطن. دأبت وزارة العدل في ذلك الوقت على إعطاء موافقاتٍ شفهية للانغلي تسمح باستخدام تقنيات الاستجواب الإكراهي على أبي زبيدة. كان للقوى الداعمة لبوريس في واشنطن تابعون لها في الموقع كذلك. استمر فريق المحلّلين الساخرين من وكالة الاستخبارات المركزية الذين ساندوا بوريس بالتشكيك بما كنا نفعله، كما وجّهوا نصائح إلينا بشأن فشلنا في حمل أبي زبيدة على التعاون بالكامل. كان أبو زبيدة في أذهانهم عضواً فاعلاً في القاعدة. اعتقدوا، بناءً لهذا الافتراض أنه قادرٌ على إعطاء معلومات مفصلة عن القيادة وصولاً إلى مخابئ بن لادن. لم تكن المعلومات التي حصلنا عليها من أبي زبيدة مهمّةً بالنسبة إليهم، وهكذا يُصبح بوريس وتقنياته مِنَ الضرورات.

وبالنسبة إلى الأشخاص الذين يعرفون ما يتحدثون عنه، فإن الإصرار على فكرة أن أبا زبيدة كان الرجل رقم ثلاثة أو أربعة في القاعدة كان إصراراً سخيفاً بشكلٍ فاضح، وكذلك هي المزاعم بأنه لا يتعاون. لكن المحلّلين دأبوا على كتابة تقارير

تقول إن أبا زبيدة كان الرقم ثلاثة أو أربعة، وهم تمكنوا من نشر هذه الفكرة بين أوساط الشعب الأميركي.

أصرّ أحد المحلّلين الشبان في فريق وكالة الاستخبارات الأميركية على «البرهنة» أمام [redacted] أن أبا زبيدة كان الرجل رقم ثلاثة في القاعدة، كما لفت نظر [redacted] حول دور أبي زبيدة في خطة الألفية في الأردن. أصغيتُ إلى ما يقوله. كانت كل الوقائع التي قدّمها مغلوطة. أبلغته بألطف لهجة تمكنتُ منها: «اسمع، إن كل معلوماتك عن مؤامرة الألفية مغلوطة، ولربما يكون ذلك هو سبب فكرتك الخاطئة عن أبي زبيدة». بدأتُ بعد ذلك بتعداد أخطائه.

بدا الانزعاج عليه بينما كنتُ أصحّح مفاهيمه المغلوطة. بانت على وجهه كذلك علامات التساؤل عمَّن أكون. قال بإصرار: «وكيف علمتَ أنك على صواب؟ سبق لي أن قرأت كل المذكرات».

[redacted]

عمد محلّلو وكالة الاستخبارات المركزية إلى التشكيك بمعلوماتنا حتى في أصغر الأمور، وذلك من أجل البرهنة على خبرتهم والتركيز على نقاط «فشلنا»؟ حدث أثناء إحدى جلسات الاستجواب، [redacted]. أبلغ محللو وكالة الاستخبارات المركزية بعد ذلك بأن أبا زبيدة كان يخدعنا، وأن [redacted]. قالوا إن الدلائل تشير إلى أن أبا زبيدة لا يتعاون.

سبق لي أن طلبت من [redacted] التفتيش في الأغراض الشخصية لأبي زبيدة فور إلقاء القبض عليه. كان من بين تلك الوثائق رسالة من [redacted]، تشير بوضوح

إلى أنهم كانوا [redacted]. كانت تلك الوثيقة مكتوبة باللغة العربية، ولهذا لم يتمكن محلّلو وكالة الاستخبارات المركزية من قراءتها، لكنني شرحت لهم، وبصبر محتوى الرسالة.

ردَ أحد المحلّلين: «أنت مخطئ. لم يقل مترجمونا في مركز مكافحة الإرهاب الأمور التي تقولها».

قلت لهم: «عُد إليهم ودعهم يراجعوها مجدداً». ساد توتر أكبر بيننا وبين محلّلي وكالة الاستخبارات المركزية على مدى الأيام القليلة التالية.

تقدّمت بعد أيام قليلة المشرفة على فريق المحللين، وتدعى جين مني وعانقتني. شعرتُ بالصدمة. ما الذي يحدث؟ قالت: «كانوا [redacted]. إنني آسفةٌ جداً. كنتم على صواب. فهمَ اللغويون في لانغلي الرسالة بطريقة خاطئة».

كان ذلك الاعتذار أمراً نادراً، لأن المحلّلين شكّكوا في أي شيء قاله [redacted]. كان هناك استثناء واحد أو اثنان لكن أصواتهما ضاعت. شعر المحلّلون بأنهم يعرفون كل شيء، وأنه لا حاجة لوجود [redacted]. قرأ المحللون الملخصات، وكان ذلك كافياً بالنسبة إليهم. لكن، وبما أنهم لم يمتلكوا أي خبرة مع الإرهابيين عدا قراءة بعض المذكرات عنهم، فإنهم لم يفهموا شبكة الإرهابيين الأوسع. عبّر [redacted] عن الوضع بالشكل التالي: «يقرأ هؤلاء الشبان، لكنهم لا يمتلكون أدنى فكرة عن كيفية عمل الأمور في العالم الحقيقي».

[redacted] كان استنتاجي الشخصي المتعلق بالمشاكل مع الأشخاص الذين يديرون برنامج الاستجوابات المتعلق بوكالة الاستخبارات المركزية. أكّد ذلك الاستنتاج في ما بعد جون. أل. هيلجيرسون، وهو المفتش العام في وكالة الاستخبارات المركزية. دقّق هيلجيرسون في ذلك البرنامج تحت إلحاح المختصّين في وكالة الاستخبارات الأميركية الذين عبّروا عن اعتراضهم على الأخطاء التي تُرتكب. نُشر تقريره في العام ٢٠٠٤ ثم نُزعت عنه صفة السرية بعد سنواتٍ قليلة،

وهو التقرير الذي يشير إلى ما يلي: «بحسب ما قاله عدد من الذين أجريت المقابلات معهم أثناء إعداد هذا التقرير فإن المعلومات الاستخبارية المتوافرة لدى الوكالة حول القاعدة كانت محدودة قبل إطلاق برنامج الاستجوابات في مركز مكافحة الإرهاب. افتقدت الوكالة إلى اللغويين من ذوي الكفاءة، أو إلى الخبراء في هذا الموضوع، كما أنها امتلكت معرفةً قليلةً جداً عما عرفه قادة القاعدة الذين أصبحوا موقوفين في ما بعد. قاد هذا النقص في المعرفة المحلّلين إلى التساؤل عما «يجب على الموقوف أن يعرفه، وهي المعلومات التي تؤكد ما يعرفه الموقوف بالفعل».

يمضي التقرير بالقول: «عندما لا يتجاوب الموقوف مع سؤالٍ يوجّه إليه فإن الافتراض لدى القيادة العليا كان أن الموقوف يحجب المعلومات التي يمتلكها، وأنه يعرف معلوماتٍ أكثر. كانت نتيجة كل ذلك أن أوصت القيادة العليا بوجوب إعادة العمل ب «EIT's» تقنيات الاستجواب المسحّنة. كان ذلك وضعاً أشبه ما يكون بأعمى يقود أعمى آخر. كان إدخال بوريس في هذه العملية نتيجة لهذا النقص في المعرفة عند وكالة الاستخبارات المركزية، أي بسبب أن الوكالة لم تفهم أن أبا زبيدة كان يتعاون مع التحقيق، وأن طوله «ليس اثني عشر قدماً» وهو تعبير اعتاد أصدقائي في مكتب التحقيقات الاتحادي استخدامه للإشارة إلى إصرار داعمي بوريس في واشنطن على أن أبا زبيدة كان عضواً كبيراً في القاعدة. كانت تلك إشارة أخرى إلى فيلم برايف هارت الذي يظهر في أحد مشاهده وليام والاس، وهو القائد الثوري البارز الذي لعب شخصيته ميل غيبسون، أمام الجيش الاسكتلندي ليعلن: «يا أبناء اسكتلاندا. أنا وليام والاس». قال له أحد الجنود الشبان ممن سمعوا قصصاً عنه، لكنه لم يلتقِ به أبداً، بأنه لا يمكن أن يكون والاس، لأن «وليام والاس يبلغ طوله سبعة أقدام». أجاب والاس: «أجل. سمعت ذلك. إنه يقتل الرجال بالمئات. أما لو كان هنا فإنه سوف يُهلك الإنجليز بكرات النار التي تخرج من عينيه، وكذلك بضربات البروق التي تخرج من جسمه»».

كان محللو وكالة الاستخبارات المركزية في الموقع ممثلين لآراء أسيادهم في لانغلي، وهكذا لم يتأخر ورود أمر إعادة بوريس إلى موقع المسؤولية. بقي خط

التفكير الذي اتخذه الخبراء كما كان من قبل: أبو زبيدة لا يتعاون، وهو لم يعطِ المعلومات التي يُفترض بالرجل رقم ثلاثة في القاعدة أن يمتلكها، وهكذا سُمح لبوريس بإجراء المزيد من تجاربه.

قال بوريس، وبكل ثقة، عند اجتماعنا به للمرة الأولى إن بأن أبا زبيدة سيتعاون معنا بسرعة بمجرد استخدام طريقة أو اثنتين من تقنياته. قائلاً لنا، «هذا علم»، لكن نبرته وشروحاته تغيّرت الآن. بدا وكأنه أدرك أن العمل مع الإرهابيين شخصياً هو أمرٌ يختلف عن نظريات غرف التدريس. بدأ بالتحدث عن الكيفيةِ التي ستكون فيها طُرُقُهُ «جزءاً من طريقة منهجية تهدف إلى تقليص قدرته على المقاومة». أعلن كذلك أن أبا زبيدة سوف يُحرم الآن من النوم لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة، وأنهم سوف يفرضون عليه تجريده من ثيابه وتعريضه إلى الموسيقى الصاخبة العالية في الوقت ذاته. امتلك بوريس الإذن بذلك من لانغلي. [redacted] جُرّد أبو زبيدة من ثيابه، كما صدحت في زنزانته موسيقى الروك العالية، وأُجبر على البقاء مستيقظاً.

افترضنا أن تجارب بوريس المجنونة قد انتهت. نقل اعتراضه القوي إلى رؤسائه في لانغلي، لكنه لم يتلقَ رداً مرضياً. أعلن أخيراً أنه سوف يغادر الموقع. وضّب أغراضه استعداداً للرحيل. جلست بقربه أثناء انتظاره للسيارة التي ستقلّه. قال لي: «كدنا نتخطى الحدود. هناك شيء اسمه اتفاقيات جنيف حول التعذيب. الأمر لا يستأهل خسارة حياتي المهنية من أجل هذا الذي يحصل هنا». كان يشير إلى أخلاقه وإلى إجازة ممارسة عمله. عاد بعد ذلك إلى الولايات المتحدة.

أعلن إد، وهو مشغل جهاز كشف الكذب، عدم موافقته مراراً. لعب إد، وكان مستجوِب مركز مكافحة الإرهاب، دور «إله» أبي زبيدة، وكان قلقاً بدوره. جلسنا معاً أنا وإد على مدى أسابيع وتحدثنا مراراً. سألته: «هل أن ما يجري موافقٌ عليه؟ أنت تعرف أننا قد نقع في مشاكل لمجرد مشاهدتنا ما يجري في حال عدم وجود موافقة».

ردّ إد: «توجد موافقة على ما يجري. غونزاليس هو الذي أعطاها». كان آلبرتو غونزاليس، مستشار جورج دبليو. بوش في البيت الأبيض، وهو كاتب المذكرة المثيرة للجدل بتاريخ كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٢، والتي يشكك فيها بالحماية التي تفرضها اتفاقية جنيف على موقوفي القاعدة والإرهابيين الآخرين. مضى الرجل يعمل بصفته ثاني مدع عام في إدارة بوش، لكنه استقال في العام ٢٠٠٧ وسط اتهامات بالتحيز أمام الكونغرس في قضية منفصلة.

سألته لأنه لم يسبق لي أن سمعت بالاسم من قبل: «ومَن يكون غونزاليس بحق السماء؟»

أبلغني إد: «يقولون بأنه محامي بوش».

«أيعني ذلك أنه لا يعمل لدى وزارة العدل؟»

«كلا، إنه يعمل في البيت الأبيض».

«هذا لا يكفي. إننا نحتاج إلى موافقة من وزارة العدل على مثل هذه الأمور».

«أنت على حق».

جاء إد بعد أيام قليلة إلينا وقال: «اجتمع رجالنا مع محامي وزارة العدل، وأبلغوهم بما يجري، لكنهم قالوا لهم إنه لا مانع مما يجري». يبدو أن إد طلب من رؤسائه في وكالة الاستخبارات المركزية إذناً خطياً من وزارة العدل. أبرز إد البرقية التي تلقاها. لم تُذكر هويات محامي وزارة العدل في البرقية التي اكتفت بذكر أن تلك التقنيات موافقٌ عليها من قِبل وزارة العدل.

قلت لإد: «أريد أن أرى شيئاً مكتوباً من وزارة العدل. إنني لا أعتمد على كلمتهم فقط». هناك قول شائع في أوساط الإدارة يقول إنه إذا لم يكن أمرٌ ما مكتوباً على الورق فإنه لا يوجد أبداً: «ستنقلب الدفة ذات يوم، وسيتلقى أحدهم اللوم على هذا».

وافق إد، ثم قال لي: «إنني أسجّل كل أمرٍ تلقيته منهم، لأن الأمور سوف تسوء في يومٍ من الأيام».

أما لماذا أصرّ إد بذاته على اللجوء مرة أخرى إلى تجاربه التي شهد بنفسه فشلها فلربما يعود السبب إلى المرتبات العالية التي كانت تدفعها الحكومة. أشارت التقارير في وقتٍ لاحق إلى أنه كان يتقاضى ألف دولار في اليوم الواحد.

كان إد أثناء فترة الحرمان من النوم التي تستغرق ثماني وأربعين ساعة يدخل إلى الزنزانة ويقول لأبي زبيدة: «[redacted]». كان إد يخرج بعد ذلك.

مارس إد ذات مرة ممارسة بوريس الروتينية وأبلغ أبا زبيدة، [redacted]

[redacted]، تابعنا المشاهدة من خلال نظام البث التلفزيوني المقفل CCTV، بينما [redacted]. كان منهكاً بسبب الحرمان من النوم. كان من الممكن أن أضحك لو أن الأمر لا يتعلق بحياة الناس.

وُضعت في مرحلة أخرى خلال الساعات الثماني والأربعين هذه، وبناءً على تعليمات بوريس، ورقة وقلم أمام أبي زبيدة، وذلك على أمل أن يكتب بعض «المعلومات الاستخبارية»، لكنه لم يكتب شيئاً. كان من الصعب عليّ التصديق أن أولئك المسؤولين عن تطبيق البرنامج يعتقدون أن شيئاً كهذا سوف ينجح، وأنهم سيبلغون هذه الدرجة من عدم الاكتراث مع هذا المصدر المهم للاستخبارات.

تابعنا في هذا الوقت تدوين تفاصيل هذا الوضع القائم على الأرض، وكذلك تسجيل اعتراضاتنا على ما يحدث عبر مذكرات سرية كنا نرسلها إلى إدارة مكتب التحقيقات عبر لانغلي، وذلك بالرغم من أننا لم نعرف ما إذا كانت هذه المذكرات تصل بالفعل إلى إدارة مكتب التحقيقات. تناولت البرقيات اليومية ـ [redacted] ومركز مكافحة الإرهاب ـ المرسلة إلى لانغلي المعلومات التي حصلنا عليها عبر استخدام تقنياتنا، وكذلك النقص الحاصل في المعلومات نتيجة تطبيق التقنيات الجديدة. تحدثنا في البرقيات عن كل شيء بما في ذلك محاولة وضع القلم والورقة. لكن ذلك لم يغيّر شيئاً. أخذ بوريس الموافقة على كل ما يقوم به من الإدارة العليا، وهكذا لم نتمكن من فعل أي شيء أو قوله. سُمح له بفترة الثماني والأربعين ساعة [حرمان أبي زبيدة من النوم].

عندما فشلت الجولة الثانية من تجارب بوريس عمدت إدارة وكالة الاستخبارات المركزية مجدداً إلى إبلاغنا، وإن بتردد، بأن بإمكاننا العودة إلى استجواب أبي زبيدة. كانت شروطنا مجدداً أن تتوقف تجارب بوريس، وإلا سأرفض المشاركة.

أعدنا إلى أبي زبيدة ثيابه، وأوقفنا الموسيقى، وتركناه ينام. [redacted]

اكتشفنا أن إعادة التعامل معه أصبحت أكثر صعوبة هذه المرة، وذلك لأن تقنيات بوريس أثّرت فيه. [redacted]، لكنني نجحت في النهاية، وعاد إلى الحديث معي. استعرضتُ الصور معه، وكذلك دفتر يومياته، ودليل هاتفه، وباقي أغراضه الشخصية. [redacted]

[redacted]

[redacted]

تابعنا مناقشة فكرة قنبلة باديلا ذات المخلفات المشعة [redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

إن كل إرهابي يخضعه [redacted] للاستجواب هو شخص مختلف. يحتاج الأمر أحياناً إلى المرح لتعزيز جو الوئام. كانت مهمتنا هي الحصول على المعلومات الاستخبارية منهم، واستخدام ما تيسر لنا من الوسائل القانونية من أجل تهدئتهم وكسب تعاونهم. كان من المثير للاشمئزاز أن يجلس المرء ويضحك مع إرهابي ملتزم.

فكرت بجون أونيل، رئيسي السابق الذي كان بمثابة المرشد بالنسبة إليَّ، وهو الذي قُتل في مركز التجارة العالمي. فكرت كذلك في ليني هاتون. كان ليني في طريقه إلى مركز عمله في صباح يوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر عندما رأى ألسنةَ النيران وهي تلتهم البرج الأول. لكن بدلاً من إكمال طريقه إلى مكتب التحقيقات الاتحادي، توجه إلى موقع الحريق للمساعدة. لكن عندما ضُرب البرج الثاني ركض ليني إلى المبنى المنهار لمساعدة رجال الإطفاء والمنقذين الآخرين في إخراج الناس إلى منطقة الأمان. قاد بعض الناس للنجاة ثم عاد لإخراج الآخرين. قُتل جون داخل البرج. فكّرت كذلك في البحارة السبعة عشر الذين كانوا على متن يو. أس. أس كول. [redacted] لكن تعيّن علينا القيام بهذا. اضطررنا للابتسام كلما كان ذلك ضرورياً، وذلك من أجل إنقاذ حياة الناس والحصول على معلوماتٍ استخبارية.

كانت هناك نكات، [redacted]

[redacted]

[redacted]

تابعتُ تسجيل النجاحات مع أبي زبيدة، لكن بوريس ومحللي وكالة الاستخبارات المركزية تابعوا جهودهم للحصول على تفسيرٍ لفشل طريقة الحرمان من النوم لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة. قال أحدهم: «إن الحرمان من النوم لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة فترة غير كافية»، و«الجسم وحدَه ينهار بعد ثمانٍ وأربعين ساعة». رأيت في المنزل الآمن [المخبأ] في أحد الأيام [redacted] كبيراً مستنداً إلى الجدار. [redacted]

بوصف تلك المرحلة التالية من استمرار الزخم بعد أن تولى المسؤولية.

قال لنا ضباط وكالة الاستخبارات المركزية إن بوريس يتوقع وصول الموافقة. [redacted] ، وهي إشارة واضحة إلى أن المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية يدعمون خطته. قلت لمسؤول وكالة الاستخبارات المركزية: «لا بد من أنك تمزح معي». هزّ كتفيه وكأنه يريد أن يقول لا خيار لنا في ذلك.

[redacted]

[redacted] أبلغت مسؤول وكالة الاستخبارات المركزية بأني أرغب في تجربتها. [redacted]

أبلغته قبل أن أخرج من الغرفة: «هذا جنون». أومأ موافقاً بينما ظهرت ملامح الإحباط على وجهه.

أدركتُ أن الإدارة العليا في وكالة الاستخبارات المركزية لن تأمر بإيقاف تجارب بوريس. فكان التجاهل مصير اعتراضاتنا. أعطى البيت الأبيض وإدارة وكالة الاستخبارات المركزية بوريس شيكاً على بياض، كما تلقى التشجيع من محلّلي وكالة الاستخبارات المركزية على الأرض. كان من شأن افتقادهم إلى الخبرة والخوف من المجهول أن يؤدي بهم إلى الموافقة على أمور أكثر جنوناً وأكثر إساءة، وإن كانت من دون نتيجة. ازدادت التجارب قساوة، وهكذا قلصت فرص الحصول على معلومات استخبارية موثوقة من أبي زبيدة في المستقبل. بدأت، وللمرة الأولى بالتساؤل عما إذا كان القصد الحقيقي للمسؤولين في واشنطن هو جمع المعلومات الاستخبارية.

لاحظت أن محاولات بوريس تكاد تلامس حدود التعذيب، وهو الأمر الذي أذهلني. بقيت في ذلك الموقع لأنني تمنيت من قلبي أن شخصاً ما في واشنطن سوف يوقف هذا الجنون، ويسمح لنا بمتابعة استجواب أبي زبيدة. لم أرغب حتى الآن في التخلي عن فرصة الحصول على معلومات مفيدة منه مجدداً. لكني كنت أشعر بتوتر أكبر في كل مرة كان بوريس يحاول فيها تطبيق أشياء أكثر جنوناً، وكنت أشعر بالقلق حيال الأشخاص الذين يشرفون على البرنامج.

أدركت بعد مقابلتي [redacted] أن آمالي بإمكانية إزاحة بوريس قد ذهبت أدراج

الرياح. فالشخص، أو الأشخاص الذين يديرون البرنامج قد ابتعدوا عن العقلانية. [redacted] بدأ الاستجواب يتخطى حدود التعذيب، وفي الواقع تخطاها بعيداً جداً.

قلت في نفسي إن صبرنا قد نفد. تناولت الهاتف الآمن واتصلت بإدارة مكتب التحقيقات. كانت تلك هي المرة الأولى التي أتصل فيها بالإدارة مباشرة. كانت كل رسائلي السابقة [redacted] تمر عبر الأقنية العادية، أي أنها كانت عبارة عن الرسائل الإلكترونية المرسلة عبر وكالة الاستخبارات المركزية والتي كان من المفترض أن تسلَّم إلى ضابط ارتباط مكتب التحقيقات، وهو تشاك فرام الذي يعمل في مقر وكالة الاستخبارات المركزية. تطلب الوضع التواصل خارج نطاق الأقنية المعتادة، وذلك لأنني قلقت من أن شكاواه السابقة لم تصل إلى المدير.

طلبتُ من عاملة الهاتف في مقر مكتب التحقيقات في واشنطن أن توصلني بمساعد المدير بات دامورو الذي أعتبره صديقاً، وأنا أحترمه بوصفه موظفاً حكومياً يلتزم بالمبادئ، كما أنني لا أشك في أنه سيغضب نتيجة ما يجري. كنت محقاً في حدسي.

شرحتُ لبات ما حدث على مدى الأسابيع السابقة، وما يُحتمل أنهم سوف يفعلونه تالياً مع [redacted] . أنهيت مكالمتي بأن قلت له: «لا يمكنني البقاء هنا بعد الآن. إما أن أغادر وإما ألقي القبض عليه». لا يمكنني أن أبقى متفرجاً إزاء الأعمال غير الأخلاقية التي تنافي الطبيعة الأميركية لتلك الأساليب، ولا يمكنني أن أتفرج على شخص يتعرض للإساءة بينما كان من المفترض أن نكسب معلوماتٍ استخبارية منه يُمكن أن تؤدي إلى حماية أرواح الأميركيين.

أبلغني بات بأن [redacted] يجب أن يغادر الموقع على الفور وأن يتوجه إلى مدينة مجاورة في انتظار التعليمات. أراد بات التشاور مع مدير مكتب التحقيقات الاتحادي روبرت مويلر بشأن أفضل الطرق للمضي قُدُماً. انضمّ إلينا فرانك وهو المكلف بتشغيل جهاز كشف الكذب من قِبل مركز مكافحة الإرهاب. أبلغنا فرانك

أثناء تجوالنا في شوارع المدينة: «كان توظيف ذلك الرجل أسوأ شيء قمت به». لمحت نبرة الندم والخجل في صوته.

زرت محطة وكالة الاستخبارات المركزية. سبق لي أن أقمت علاقة عظيمة مع الضباط في تلك المحطة. كانوا بمعظمهم يشاطرونني الرأي. أوضح رئيس هيئة الموظفين [رئيس الأركان] أمام [redacted] بأنه متفهم لما يجري.

بعد مرور يوم وصلت رسالة من مويلر: «إننا لا نفعل ذلك».أمرني بات بمغادرة الموقع على الفور، والعودة إلى الولايات المتحدة. حزمت حقائبي وعدت جواً إلى نيويورك.

لكن [redacted] لم يفعل، لأنه عندما أبلغ رؤساءه بأنه مستعد للرحيل طُلب أن يؤجل المغادرة حتى وصول تعليمات إضافية. أبلغ [redacted] ذلك عبر أقنيته المعتادة وصولاً إلى الإدارة. كان [redacted] تحت إشراف رؤساء آخرين. كنت أنا العميل الميداني، وأرسلُ تقاريري عبر رؤسائي في نيويورك. لكن [redacted] لم يكن عميلاً عملانياً في ذلك الوقت، لكنه عيّن كعميلٍ مشرف في مكاتب الإدارة العليا في واشنطن، وكان يرسل تقاريره عبر تلك الأقنيةٍ. لم يوافق أشخاص آخرون على الأمر الذي أصدره بات لأنهم رأوا ضرورة بقاء تدخل [redacted] في الموقع، وهو السبب الذي دفعهم إلى السماح ل [redacted] بالبقاء. قال [redacted] : «اسمعوا، قد تتغير الأمور، وهم قد يدركون أننا نحن من يجدر به الإشراف. أما إذا غادرتُ، فهل تتمكنون من الوثوق بهؤلاء الحمقى في إدارة البرنامج؟ يتوقف أبو زبيدة عن الكلام في كل مرة يتدخلون فيها. ما رأيكم؟»

قلت له: « [redacted] ، لا يمكنني البقاء فترة أكبر. خرج الأمر عن السيطرة، وهو بعيد عن أخلاقيات الأميركيين، كما أنه يحمل خطراً كبيراً. وافق المدير على أننا لا نقوم بأعمالٍ كهذه، كما أن بات أمرنا بالمغادرة. إنني سأغادر، لكن يمكنك أن تفعل ما تشاء».

«سوف أبقى».

قلت له مودعاً: «إذن انتبه».

عاد [redacted] إلى واشنطن لعقد اجتماع حول أبي زبيدة. اكتشف بات عند ذلك فقط أن [redacted] قد بقي في الموقع. (كان مقر بات في واشنطن، أما أنا فعدت إلى نيويورك ولم ألتقِ به، كما أن أحداً لم يخبره عن قرار [redacted]).

غضب بات كثيراً لأن [redacted] لم ينفذ أوامره، وهو لم يسامحه حتى اليوم، وهو أمر [redacted] بعدم العودة إلى الموقع. صمّم مكتب التحقيقات الاتحادي أن لا يكون طرفاً في الأساليب المغالية في القسوة.

لم يوافق عدد من المسؤولين في الإدارة العليا مع بات، وشعروا بأنه يتعين على [redacted] أن يكون جزءاً من برنامج مكافحة الإرهاب، لكن روبرت مويلر وقف مع بات و [redacted]. أدرك مويلر أن الأمور قد تعدت حدودها المرسومة، وأن أولئك الذين يساندون هذه الأساليب ليسوا جاهزين للتراجع، لكن الكلمة الفصل كانت له. بقي [redacted] في واشنطن. كان ذلك نهاية تدخل مكتب التحقيقات الاتحادي في استجواب أبي زبيدة.

تابع بوريس بعد رحيل [redacted] تطبيق طرق متزايدة في القساوة، ويعود ذلك إلى أن أبا زبيدة والإرهابيين الآخرين كانوا مدربين على مقاومة تلك الأساليب. يوجد في النظم الديموقراطية مثل نظامنا سقف زجاجي للتقنيات القاسية، وهو السقف الذي لا يُمكن للمستجوِب أن يخترقه. يلجأ الموقوف إلى خداع المستجوِب في النهاية، وهذا ما فعله أبو زبيدة.

كان ذلك هو السبب الذي أجبر المدافعين عن أساليب EIT على إصدار الأمر بتعريض أبي زبيدة لتقنية الإغراق (وهي تقنية تعذيبية تُشعر المستجوب بالغرق)، وبما لا يقلّ عن ثلاثٍ وثمانين مرّة كما قيل. كانت هذه الأساليب مثل حلقة مفرغة، أي أنها تفرض إدخال أساليب متزايدة في القسوة مرة بعد أخرى.

لا تؤدي أساليب الاستجواب القاسية إلى تعزيز الأمور التي حضّر الإرهابي نفسه لتقبلها في حالة إلقاء القبض عليه، لكنها تعطيه إحساساً أكبر بالتحكم في تجربته وتوقّع ما سيتعرض له، وهو الأمر الذي يؤدي إلى تقوية مقاومته. تؤدي استراتيجية الاستجواب التي طبقتها [redacted]، في المقابل - إثارة انتباه الإرهابي والتفوق على ذكائه - إلى إرباكه وتدفعه إلى التعاون. إن فن إجراء المقابلة والاستجواب هو علمٌ بحد ذاته، وعلم سلوكي، ولقد تم النجاح بالتحديد لأننا حوّلنا هذا الفن إلى علم.

إن الأدلة المكتسبة من التعذيب هي أدلة غير موثوقة. لا توجد طريقة للتأكد ممّا إذا كان الموقوف صادقاً، أو أنه تكلم إما لتجنب الانزعاج أو لإعطاء معلومات مغلوطة عمداً. أبلغ خالد الشيخ محمد الصليب الأحمر في وقتٍ لاحق، وهو الذي تعرّض للأساليب القاسية في الاستجواب: «خلال أقسى مراحل استجوابي أعطيت قدراً كبيراً من المعلومات المغلوطة كي ألبي ما أعتقد أن المستجوبين يرغبون في سماعه، ومن أجل دفعهم إلى إيقاف معاملتهم السيئة».

كانت طُرق بوريس تهدف إلى تحقيق الإذعان أكثر من التعاون. يدفع المستجوِب في حالة تحقيق الإذعان الشخص المستجوَب لقول ما يعتقد أن المستجوِب يسر لسماعه، وليس من الضرورة أن تكون الحقيقة. إن أفضل مثالٍ على ذلك هو قضية ابن الشيخ الليبي، وهو شريك أبي زبيدة في خالدان. اعترف الليبي في ما بعد بأنه «قرر أن يلفّق أي معلومات يريدها المستجوبون كي يحصل على معاملةٍ أفضل، ولكي يتجنب تسليمه إلى [حكومة أجنبية]». كان ذلك هو السبب ذاته الذي دفع أبا زبيدة بعد أن تعرض لتقنية الإغراق «للاعتراف» بأنه الرجل رقم ثلاثة في القاعدة، وهي التي كانت كذبة، وشكلت نهاية الطريق بالنسبة إلى المستجوبين. اكتشفت لجنة تحقيق حول الاستخبارات والتي تشكلت من أعضاء مجلس الشيوخ SSCI في العام ٢٠٠٦ أن وكالة الاستخبارات المركزية قد اعتمدت بشدة على المعلومات التي أدلى بها الليبي لتقييم العلاقة ما بين العراق والقاعدة. لعبت تلك المعلومات دوراً

حاسماً في تشكيل مبررات إدارة بوش لغزو العراق في العام ٢٠٠٣، وذلك بحسب ما لخصها وزير الخارجية آنذاك في عرضه أمام الأمم المتحدة وذلك قبل أسابيع من الاجتياح.

أما نهج الاستجواب الرشيد فيؤدي، في المقابل، إلى الحصول على معلومات دقيقة، وقابلة للتنفيذ، ومفيدة في عمليتنا القانونية. لكن المشكلة الرئيسة في تقنيات بوريس تكمن في تجاهلها للمرحلة النهائية. يتعيّن علينا بعد الحصول على معلومات استخبارية من الإرهابيين أن نلاحقهم قضائياً في مرحلةٍ ما. إننا لا نستطيع توقيف الناس إلى أجلٍ غير مسمى. تتحول المحاكمة إلى أمرٍ ضروري سواء بعد سنة أو عشر سنوات، وإن لم يحدث ذلك فيجب إطلاق سراحهم. لكن المعلومات الناتجة عن التعذيب ليست مقبولة لدى المحاكم. يشكّل هذا الأمر مشكلة حتى في الهيئات العسكرية – مثل المحاكم التي تتشكل من عسكريين أو التي تكون تحت إدارتهم، وبما تتضمنه من قواعد ومتطلبات تختلف عن تلك الموجودة في المحاكم العادية.

تحدثت مع إد في هذا الشأن وسألت: «ما هي المرحلة النهائية التي سوف نصل إليها مع أبي زبيدة بعد استخدام هذه الوسائل؟»

«أعتقد أنهم يريدون أن يتحول إلى محكمة عسكرية».

أجبته: «يُحتمل أن يكون للمحاكم العسكرية معايير أدنى للأدلة من المحاكم العادية، لكننا نعرف أنها ليست محاكم مصطنعة [تهدف إلى الإدانة فقط]».

كنت أنا وإد على علم بعملية خليج غوانتانامو وبالتحضيرات المستخدمة في حالات أخرى للمحاكم العسكرية. أبلغ محامو الجيش في وقت مبكر من العام ٢٠٠٢ المستجوبين بضرورة أن يكونوا حريصين بالنسبة إلى الأدلة، وأن يدونوا مذكرات عنها. كانت هناك كذلك عملية الاكتشاف؛ وضرورة إشراك جهة الدفاع في كل ما نعرفه. كان من الواضح كذلك بالنسبة إلينا أنه حتى في المحاكم العسكرية فإن الأدلة المكتسبة من التقنيات القاسية تُعتبر غير مقبولة. وافق إد معي على ذلك.

يُعتبر الاستجواب بالإكراه عملية بطيئة. صُرف وقت كثير على كل تقنية غير ناجحة، وذلك من دون أي نتيجة تُذكر، وكان ذلك في الواقع يلائم ما يريده العدو. يأمر دليل مانشستر [الخاص بالقاعدة] الإرهابيين الموقوفين بالامتناع عن الإجابة عن الأسئلة لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة، بحيث يتمكن رفاقهم من تبديل مخابئهم وأرقام هواتفهم، وحتى الفرار من البلاد. يوجدُ كذلك احتمال حدوث مشهد «القنبلة الموقوتة» وهو الذي يخيّم على عملية استجواب الإرهابي، وهو الأمر الذي يفسر كيف أن إضاعة الدقائق أو الساعات، دعك من الأيام، هو أمر غير مقبولٍ تماماً.

أورد تقرير أصدره مكتب وزارة العدل في ٢٩ تموز/يوليو ٢٠٠٩، عن المسؤولية المهنية أن تقنيات بوريس «لم يكن يُتوقَع منها الحصول على نتائج فورية. كان هدف برنامج استجواب وكالة الاستخبارات المركزية من ورائها هو تهيئة الموقوف تدريجياً بهدف كسر مقاومته للاستجواب». إنني أتساءل عما إذا كان الشخص الذي كتب كلمة «تدريجياً» يمتلك أي فكرة عن الأهمية القصوى لعمليات مكافحة الإرهاب.

علمت في وقتٍ لاحق أن مسيرة بوريس الذي كان في البداية مقاولاً مستقلاً يفتقد إلى الخبرة في طرق الاستجواب أو في التطرف الإسلامي، ثم تحول إلى إدارة إحدى أهم الجبهات في معركتنا ضد القاعدة ـ أي برنامجنا المخصص لاستجواب الموقوفين من ذوي الأهمية العالية ـ إنما تعود بجذورها إلى يوم ١٧ أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠١. منح الرئيس بوش في ذلك اليوم وكالة الاستخبارات المركزية، سلطة اعتقال مشتبه بقيامهم بأعمال إرهابية واحتجازهم واستجوابهم وذلك في التفويض الذي عُرف باسم مذكرة تبليغ.

عملت وكالة الاستخبارات المركزية أساساً في العقود الماضية بوصفها وكالة لجمع المعلومات الاستخبارية. كان مكتب التحقيقات الاتحادي وبالتعاون مع الهيئات العسكرية مثل NCIS، وقيادة التحقيقات الجنائية في الجيش الأميركي،

ومكتب سلاح الجو الأميركي للتحقيقات الخاصة، هي الهيئات التي تتولى استجواب المشتبه بهم. يشرح التقرير الذي أعده جون هيلجرسون في العام ٢٠٠٤ عن الاعتقالات والاستجوابات، وبالتفصيل أن برنامج وكالة الاستخبارات المركزية لما بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر «بدأ من دون أساسٍ تقريباً، وذلك لأن الوكالة أوقفت فعلياً كل تدخلاتها في الاستجوابات وذلك بعد أن واجهت صعوبات في قضايا تتعلق ببرامج الاستجوابات الأولى في أميركا الوسطى والشرق الأدنى».

أورد تقرير صدر في ٢٩ تموز/يوليو، ٢٠٠٩ عن محققي OPR(*) أن المستشار العام بالوكالة لوكالة الاستخبارات المركزية، جون ريزو، أبلغهم بأن الوكالة في معظم تاريخها لم تحتجز أشخاصاً ولم تجرِ استجوابات. قام موظفو وكالة الاستخبارات المركزية بإصدار تقارير عن المصادر (لكن هذه المقاطع خضعت للمراقبة ولا تظهر في التقرير)، لكن الوكالة لم تكن مجازة لاحتجاز الأفراد أو استجوابهم. يعني ذلك أن الوكالة كانت تفتقر إلى خبرة رسمية في ذلك الحقل. (لم يكن ريزو مصيباً في ذلك، لأن قسم كشف الكذب في الوكالة، وقبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، والذي عُرف سابقاً باسم فرع الاستجواب، كان مسؤولاً عن إجراء الاستجوابات في الخارج. أما بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر فقد سُحبت هذه المسؤولية من الوكالة وأُعطيت إلى مركز مكافحة الإرهاب).

كان الافتقار إلى الخبرة الرسمية هو السبب الذي دفع بوكالة الاستخبارات المركزية إلى البحث عن شخص يدير برنامج الاعتقال الذي أمر به الرئيس بوش. تقدم في هذا الإطار بوريس، وعالم نفسٍ آخر، بناء على توصية من جهاتٍ لم يُعلن عنها، وعملا بموجب عقدَي عمل. كتب هيلجرسون في تقريره: «في أواخر العام ٢٠٠١ كلّفت وكالة الاستخبارات المركزية محللاً نفسياً متعاقداً [بوريس]... بإجراء بحثٍ، وكتابة دراسة حول مقاومة القاعدة لتقنيات الاستجواب». تعاون بوريس مع أحد العلماء النفسيين العاملين مع وزارة الدفاع. طوّر العالمان النفسيان نتيجة ذلك

(*) مكتب المسؤولية المهنية التابع لوزارة العدل.

قائمة بطرق EITs وأوصيا باستخدامها في الاستجوابات». وصف العسكريون الذين عرفوا المتعاقدين بوريس بأنه في غاية الغطرسة، وأن شريكه ـ الذي لم أجتمع به أبداً ـ شخص ذو مزاج سيئ. أعتقد أن الغطرسة والغضب هما مزيج في غاية الخطورة.

اكتشفت في ما بعد من تقرير لجنة تحقيقات من مجلس الشيوخ أنه في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠١، طلب مسؤولو وكالة الاستخبارات المركزية من بوريس وشريكه تحليل دليل مانشستر الذي أعدته القاعدة. استند المحللان إلى هذا الدليل للتوصل إلى استنتاج يوحي بأن التقنيات القاسية ستكون ضرورية لحمل معتقلي القاعدة على الاعتراف. لكن ذلك يشكّل سوء تفسير لدليل مانشستر، إلا أن الواقع هو أن تقنيات بوريس بررت صحة التعليمات المعطاة للإرهابيين الموقوفين.

اجتمعت مع بات دامورو بعد مرور أسابيع قليلة على مغادرتي للموقع. قال لي إن روبرت مويلر تحدث مع جورج تينيت. سأل مويلر عن سبب غياب المعلومات الاستخبارية الآتية من أبي زبيدة. (جرى الحديث بعد مغادرة [redacted] للموقع). ردّ تينيت: «أربكه رجالك في واقع الأمر. ينبغي علينا إرضاؤه مجدداً». كان من الواضح أنه بعد مغادرتنا استمر فشل تجارب بوريس، لكن الأشخاص الذين يدعمونه جهدوا في العثور على عذرٍ جديد يبرر ذلك الفشل.

ألقى الرئيس بوش خطاباً في العام ٢٠٠٦ اعترف فيه بوجود برنامج الاستجوابات القاسية، وعدّد «نجاحاته». تلقيت مكالمة هاتفية بعد ذلك من مساعد مدير مكتب التحقيقات الاتحادي سألني خلالها: «هل سمعت خطاب الرئيس؟».

أجبته: «كلا». كنت خارج البلاد في ذلك الوقت منشغلاً بالعمل في أحد المشاريع.

«لكن تذكر أن الأمر ما زال سرياً. إن تحدّث الرئيس عنه لا يعني أنه بإمكاننا الحديث عنه بدورنا».

قرأت الخطاب في ما بعد وفهمت مغزى المكالمة الهاتفية. أدركتُ أن الرئيس يكرر المعلومات المغلوطة التي اعتُبرت سرية في مذكرات وكالة الاستخبارات المركزية. (أعتقد أن الرئيس بوش قد تعرض للتضليل، وتلقى معلومات مغلوطة عن فعالية تلك التقنيات). علمت من الخطاب، ومن المذكرات التي نُزعت عنها صفة السرية في ما بعد، أن داعمي EITs في واشنطن مضوا حتى إلى نسبة الفضل إليهم في الأنباء التي تحدثت عن أن خالد الشيخ محمد هو مختار، وذلك بالرغم من أن فريق مكافحة الإرهاب لم يكن في الموقع عندما عرفنا تلك المعلومات.

أوردت مذكرة برادبوري في ٣٠ أيار/مايو ما يلي: «استجواب أبي زبيدة - مجدداً، وما إن استُخدمت تقنيات الاستجواب المعززة... حتى حُدّد خالد الشيخ محمد على أنه العقل المدبر لهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر». قدم أبو زبيدة، بحسب تلك المذكرة، «معلومات مهمّة حول ناشطَين [بمن فيهما] خوسيه باديلا [،] الذي خطّط لصنع «قنبلة ذات مخلفات مشعة» في منطقة واشنطن العاصمة». أما الخطط [المؤامرات] المتعلقة بالشقق السكنية وجسر بروكلين التي حصلنا عليها من أبي زبيدة، فقد زعمت وكالة الاستخبارات المركزية أنها حصلت عليها من خالد الشيخ محمد بعد سنة من الزمن. يبدو أن الوكالة لم تتمكن من إحراز أي نجاح لها في أي وقت، ولهذا اضطرت إلى استخدام [redacted].

توجد أخطاء كثيرة أخرى مع ذلك. أوردت مذكرة برادبوري التي حملت تاريخ ٣٠ أيار/مايو أنه أُلقي القبض على باديلا «لدى وصوله إلى شيكاغو في أيار/مايو من العام ٢٠٠٣». لكن الواقع هو أن تاريخ إلقاء القبض عليه يعود إلى شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٢. أوردت مذكرة أخرى نُزعت عنها صفة السرية أن رمزي بن الشيبة قد اعتُقل في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠٢. لكن الواقع هو أن إلقاء القبض عليه قد تم في شهر أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٢. أدت هذه التواريخ المغلوطة بالمسؤولين إلى التصريح، مخطئين، أن إلقاء القبض على باديلا جاء نتيجة تقنية الإغراق والاختناق التي بدأت في ١ آب/أغسطس من العام ٢٠٠٢. أما الواقع فهو أن ذلك مستحيل من الناحية العملية.

أُتيحت لي فرصة مشاهدة «التقييم النفسي» الذي وضعته وكالة الاستخبارات المركزية، وذلك بعد نزع السرية عن مذكرات عدة. استُخدم هذا التقييم من قِبل جاي أس. بايبي (الذي كان آنذاك مساعد المدعي العام في مكتب الاستشارات القانونية التابع لوزارة العدل) لكتابة مذكرة وجهّها إلى ريزو في ١ آب/أغسطس من العام ٢٠٠٢ يعطي فيها الإذن لوكالة الاستخبارات المركزية لاستخدام تقنيات الاستجواب المعززة.

تورد مذكرة بايبي، وبالإشارة إلى التقييم النفسي: «بحسب هذا التقييم فإن أبا زبيدة الذي كان في الحادية والثلاثين من عمره فقط، قد تسلّق بسرعة صفوف المجاهدين الدنيا حتى توصل إلى أن يكون الرجل الثالث أو الرابع في القاعدة. عمل الرجل كذلك بوصفه كبير مساعدي أسامة بن لادن. تمكن أبو زبيدة بصفته تلك من إدارة شبكة من معسكرات التدريب... كما عمل كذلك بوصفه منسّق المناصرين في الخارج، والاتصالات الأجنبية. يُضاف إلى ذلك أنه عمل بصفة ضابط مكافحة التجسس في منظمة القاعدة، كما أنه تسلّم مهمة كشف الجواسيس داخل المنظمة... كان أبو زبيدة متورطاً في كل عملية إرهابية رئيسة نفذتها القاعدة... يُضاف إلى ذلك أنه كان أحد المخططين لهجمات ١١ أيلول/سبتمبر».

لم أفهم، لغاية اليوم، كيف يتمكّن أي شخص من كتابة مثل هذا الملخص عن سيرة الرجل. لا يقتصر الأمر على أننا نعرف أن هذه المعلومات مغلوطة قبل إلقائنا القبض على أبي زبيدة، لكن تأكدنا أكثر من أنها مغلوطة بعد إلقاء القبض عليه. لكن هذا التقييم النفسي ظلّ مقتبساً على مدى السنوات القليلة التالية في المذكرات الحكومية الداخلية.

أورد التقييم النفسي كذلك أن أبا زبيدة كتب دليل القاعدة حول تقنيات المقاومة وأنه «شخص موجّه ذاتياً، ويقدّر استقلاليته». يبدو كذلك أنهم لم ينتبهوا إلى صياغة كلماتهم. لماذا يعمد شخص «يقدّر استقلاليته» (وهذا صحيح) إلى الانضمام إلى منظمة تتطلب الطاعة العمياء لقائدها؟ وإذا ما كان هو الذي كتب دليل القاعدة حول

تقنيات المقاومة، فلماذا يعتقدون أن التقنيات القاسية سوف تنجح (وهي التقنيات التي تبدو ضئيلة بالنسبة إلى ما يتوقعونه)؟ يبدو أنهم وضعوا على الورق كل ما أرادوه للبرهنة على أن طول أبي زبيدة يبلغ «اثني عشر قدماً».

أورد تقرير المفتش العام في وكالة الاستخبارات المركزية لعام ٢٠٠٤، والذي أعدَّه هيلجرسون، أنّ مذكرات وكالة الاستخبارات المركزية الرسمية حول أبي زبيدة لا تحجب فقط النجاحات التي أحرزناها معه قبل مغادرتنا، لكن جعلتها تبدو وكأنها لم تحدث أبداً: «قدمت الوكالة منذ البداية عناية طبية مشددة لمعالجة جروح أبي زبيدة نتيجة القبض عليه، كما أجّلت عملية استجوابه أسابيع عدة بانتظار شفائه. جمعت الوكالة بعد ذلك فريقاً قام باستجواب أبي زبيدة». لكن الواقع هو أن الاستجواب لم يؤجَل أبداً، كما أنه كان ناجحاً.

لكن ما هو ملحوظ بشكل خاص بالنسبة إلى المذكرات التي تجيز استخدام تلك التقنيات هو تقبلها غير المشكوك فيه للمعلومات المقدمة من مسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية. اعترف برادبوري بأنه «اعتمد كلياً تقييم وكالة الاستخبارات المركزية بشأن فعالية تقنيات الاستجواب المعززة EITs، وأنه لم يحاول التأكد من صحة تلك المعلومات التي تلقاها أو التشكيك فيها». أبلغ برادبوري OPR: «لا يشتمل دوري في الواقع على إجراء تحقيق فعلي في تلك المعلومات». كان دور من يحرس مصالح الآخرين في هذا الإطار أفضل قليلاً من دور موظفٍ مطيع.

لم يكن ما جرى خطأ وزارة العدل وحدها. أوردت إحدى التذييلات على تعليقات برادبوري التي قدمها إلى OPR والتي قال فيها إن دوره ليس التحقق من الوقائع، وأن أحد المسؤولين «حتّ آي. جي غونزاليس، ومستشار البيت الأبيض، فرِد فيلدنغ على إنشاء فريق جديد تابع لوكالة الاستخبارات المركزية من أجل مراجعة البرنامج، لكن تقييمات الفعالية اعتمدت دائماً على مَن تبنوا البرنامج». هل أنه من اللائق أن يكلّف داعمو EITs بتقييم فعالية برنامجهم؟ كان ذلك طريقة أكيدة، وسهلة، تضمن الوصول إلى الاستنتاج الذي يريدونه.

أما مذكرة بايبي التي أجازت تلك التقنيات فتورد ما يلي: «استندت نصيحتنا إلى الحقائق الآتية، التي قدمتموها لنا. إننا نفهم كذلك أنكم لا تمتلكون أي حقائق في جعبتكم تخالف الحقائق التي قمنا بتلخيصها هنا، وأن هذا الرأي محدود بهذه الحقائق. أما إذا تغيرت هذه الحقائق فلا تعود هذه النصيحة مطبقة بالضرورة».

تلخصّت الحقائق التي استوجبت منح الترخيص باستخدام التقنيات القاسية في أن أبا زبيدة لم يكن يتعاون (لكنه كان يتعاون في الواقع) وأنه كان من كبار أعضاء القاعدة (لكنه لم يكن كذلك). يُحتمل أن كتاب تلك المذكرة لم يكونوا على علمٍ بالحقيقة، لكن أولئك الذين قدّموا محتويات المذكرات، وأولئك الذين طلبوا منحَ الإذن لتطبيق تجارب بوريس، كانوا على علم بهذه الحقائق على وجه التأكيد. لكن بسبب السماح لمناصري تلك التقنيات القّاسية بتدوين هذه الأكاذيب، ونسبة نجاحاتنا إليهم مُنح بوريس وشريكه (وتحت توجيهات داعميهما في واشنطن) حق الإشراف على كل الموقوفين ذوي القيمة العالية الذين يُلقى القبض عليهم في المستقبل. كان أبو زبيدة أول شخصٍ تطبّق عليه هذه التقنيات. كان ذلك، ومن طرقٍ عدة، بمثابة تجربة أو تطبيق أولي لتلك التقنيات. كان بعض الأشخاص في واشنطن يعمدون إلى إعادة كتابة النتائج لإظهار أنهم نجحوا في «الحالة التجريبية» وهكذا كانوا يجادلون بنجاح في هذه التقنيات يُمكن استخدامها في المستقبل. مُنح بوريس وشريكه الحق في التحكم بمعتقلين آخرين من ذوي القيمة العالية.

أما المقر الرئيس لمكتب التحقيقات الاتحادي فإن الوضع فيه كان في غاية الوضوح. تمكنا من كسب معلومات عن طريق استخدام نهج علمي مجربٍ سبق أن خضع للاختبار، بينما بوريس كان يقوم بأمور بعيدة عن طبيعة الأميركيين وغير فعالة. كنا واثقين من أنه سوف يُستغنى عن المقاولَين [أو المتعاقدَين] وأفكارهم المجنونة في وقتٍ قريب. لكننا لم نعرف أن هناك جهداً أوسع يرمي إلى نشر المعلومات المغلوطة حتى بين مسؤولي وزارة العدل.

علمت في وقتٍ لاحق ـ ونتيجة تقرير OPR الصادر بتاريخ ٢٩ تموز/يوليو ٢٠٠٩ ـ أن وكالة الاستخبارات المركزية قد طلبت في البداية أن تُستخدم تقنيات الاستجواب EITs الاثنتي عشرة في استجواب أبي زبيدة. تتلخص التقنيات كالتالي (التوصيفات بحسب ورودها في التقرير):

١- الإمساك بقصد جذب الانتباه: يُمسك المستجوِب الموقوف بكلتا يديه، ويضع يداً على كل جانب من فتحتَي الياقة، وذلك في حركةٍ مضبوطة وسريعة، ثم لا يلبث أن يجذب الموقوف نحوه.

٢- الإسناد إلى جدار: يُسحب الموقوف إلى الأمام ثم يُدفع بسرعة وحزم إلى جدارٍ صناعي بحيث تصطدم عظمتا كتفيه بالجدار. يُسند رأسه ورقبته في هذه الأثناء بمنشفةٍ ملفوفة لمنع حدوث جروحٍ في العنق.

٣- الإمساك بالوجه: يُمسك المستجوِب برأس الموقوف ويمنعه من الحركة وذلك عن طريق وضع راحة يدٍ مفتوحة على إحدى جهتي وجه الموقوف، لكن مع إبعاد أطراف الأصابع عن العينين.

٤- صفعة الوجه أو الإهانة: تُفرد أصابع اليد قليلاً عن بعضها بعضاً، وتتلامس يد المستجوِب مع المنطقة الواقعة ما بين مقدمة ذقن الموقوف، وأسفل شحمة الأذن في الجهة ذاتها.

٥- الاحتجاز الضيّق: يوضع الموقوف داخل حيزٍ ضيّق، وعادة ما يكون صندوقاً صغيراً أو كبيراً، والذي يكون معتماً في العادة. لا يستمر الاحتجاز في الحيّز الأصغر أكثر من ساعتين، أما الحيّز الأكبر فلا يستمر الاحتجاز فيه أكثر من ثماني عشرة ساعة.

٦- الحشرات: يتم إدخال حشرة غير مؤذية في صندوق الاحتجاز مع الموقوف.

٧- الوقوف بمحاذاة الجدار: يُمكن للمعتقَل أن يقف على بُعد أربعة إلى خمسة أقدامٍ من الجدار بينما تكون قدماه متباعدتين بمقدار عرض كتفه تقريباً. تكون

الذراعان ممدودتين أمامه في هذه الحالة بينما تَسْتَنِدُ أصابعه إلى الجدار كي تسند ثقل جسمه بالكامل. لا يُسمح للموقوف بتغيير وضعية يديه أو قدميه.

٨- أوضاع الإجهاد: يُمكن أن تتضمن هذه الأوضاع جعل الموقوف يجلس على الأرض مع مدّ رجليه إلى الأمام، بينما يُرفع الذراعان فوق رأسه، أو الركوع على الأرض مع الاستناد إلى الخلف بزاوية مقدارها خمس وأربعون درجة.

٩- الحرمان من النوم: يُمنع الموقوف من النوم على أن لا تزيد المدة عن ١١ يوماً في المرة الواحدة. [ملاحظة: اقتُرح في البداية أن يكون الحرمان من النوم عن طريق تقييد المعتقل في وضعية الوقوف، بينما تكون قدماه مقيدتين بحلقة مثبتة في الأرض أما ذراعاه فتكونان مربوطتين بقضيب حديدي يوضع على مستوى الرأس، وذلك من دون أن يُعطى مجالاً للحركة إلاّ قليلاً].

١٠-استخدام الحفاضات: يُجبر الموقوف على ارتداء حفاضات لكبار السن، كما يُحرم من الوصول إلى المرحاض لمدة طويلة وذلك بهدف إذلاله.

١١-الإغراق والاختناق: يقيّد الموقوف فوق أريكة بينما تُرفع قدماه إلى فوق مستوى رأسه. يُحرم المعتقل من تحريك رأسه ثم يضع المستجوِب قطعة قماش فوق فمه وأنفه بينما تُسكب المياه في تلك القطعة. يُمنع في هذه الحالة مرور المياه لمدة تتراوح ما بين عشرين إلى أربعين ثانية. ينتج عن هذه التقنية إحساس بالغرق والإختناق.

١٢-[عمدت الحكومة إلى إزالة هذه الفقرة عند نشر هذه الوثيقة].

أورد تقرير OPR الذي صدر في ٢٤ تموز/يوليو، أن أحد محامي وزارة الدفاع وهو جون يو، «تحدث هاتفياً مع ريزو، وأبلغه بأن المدعي العام قد أجاز له أن يقول بأن التقنيات الست الأولى (الإمساك بقصد جذب الانتباه، والاسناد إلى جدار، والإمساك بالوجه، وصفع الوجه، والاحتجاز في مكانٍ ضيّق، والوقوف بمحاذاة جدار [وهي في الواقع الرقم سبعة] تُعتبر قانونية، وهكذا يُمكنهم المضي في تطبيقها على أبي زبيدة».

لكن وزارة العدل تأخرت حتى ١ آب/أغسطس، ٢٠٠٢ وعند نحو الساعة ١٠:٠٠ من بعد الظهر لإعطاء الوكالة مصادقة قانونية بأن عشر تقنيات معززة لا تخالف اتفاقية جنيف الخاصة بمنع التعذيب، وهكذا يُمكن تطبيقها على الموقوفين. كانت هذه المذكرة من تحضير جاي بايبي وجون يو. (توجد في الواقع صيغتان من هذه المذكرة، واحدة سرية وأخرى غير سرية، ويشار إلى كلتيهما باسم مذكرات بايبي). تقول سجلات وكالة الاستخبارات المركزية إن الصيغة السرية من مذكرة بايبي أرسلت بالفاكس إلى وكالة الاستخبارات المركزية عند الساعة ١٠:٣٠ من بعد الظهر في يوم ١ آب/أغسطس من العام ٢٠٠٢. أمسك بوريس وشريكه مع داعميهما في واشنطن بزمام السيطرة الكاملة على البرنامج وذلك بعد انتهائهما من استجواب أبي زبيدة. لم تبدأ وكالة الاستخبارات المركزية «بتدريب» فريق المستجوبين عندها إلا بعد انتهاء استجواب أبي زبيدة. أورد تقرير OIG(*) لعام ٢٠٠٤ أنه فقط في «تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٢»، عمدت الوكالة إلى إطلاق دورة تجريبية تستغرق أسبوعين لتدريب المستجوِبين، وهي الدورة المخصّصة لتدريب، وتأهيل، وإجازة الأشخاص ليكونوا مستجوبين لدى الوكالة». لا تكفي فترة أسبوعين لجعل أحدهم مستجوِباً كفوءاً. إن ما يجعل شخصاً ما مستجوباً كفوءاً ليس شهرين فقط من التدريب لكن الحصول على المعرفة بالموقوف وبالإرهاب.

تقنيات الاستجواب المعززة EITs تعبير سمعت به للمرة الأولى بعد وقتٍ طويل من [redacted] أي أنه لم يكن هناك أي نظام يستند إليه بوريس وداعموه في ما يفعلون. بدا هؤلاء أنهم يجرون تجارب على التقنيات ومن دون أن تكون أمامهم خطة واضحة. لم يقتصر الأمر على أن أبا زبيدة كان أول موقوفٍ يقومون باستجوابه، لكنه كان أول إسلامي متطرف يلتقون به على الإطلاق.

أما التقنيات التي وصفها [redacted] بأنها «تكاد تقارب حدود

(*) مكتب المفتش العام التابع لوزارة العدل.

التعذيب» فقد أعلنها جورج تينيت في ما بعد، ومن ضمن التوجيهات الصادرة في ٢٨ كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٣، على أنها «تقنيات الاستجواب المعتمدة في وكالة الاستخبارات المركزية». اعتبر تينيت أن «هذه التوجيهات «تكمل توجيهات إدارة العمليات الداخلية المتعلقة بكيفية إجراء الاستجوابات». تنص هذه التوجيهات على أن التقنيات المعتمدة «تتضمن، كل الصيغ القانونية للاستجواب التي تعتمدها هيئات تطبيق القوانين الأميركية والأفراد العسكريون المولجون بالاستجواب لكنها لا تقتصر عليها. تتضمن هذه الصيَغ استخدام العزل، والحرمان من النوم على أن لا يتجاوز ٧٢ ساعة، وتقليل حصص السعرات الحرارية (طالما أن الكمية محسوبة للمحافظة على الصحة العامة للمعتقل)، والحرمان من مواد القراءة، واستخدام الموسيقى العالية (بحسب مستوى الصوت (ديسيبل) لتجنب إحداث عطبٍ في سمع الموقوف)، واستخدام الحفّاظات لمدة محدودة (لا تتجاوز عادة ٧٢ ساعة)...» أما الباقي فتعرض للتنقيح.

اعتُبرت الوسائل التي ثبُت فشلها مع أبي زبيدة «معيارية [معتمدة]» من قِبل جورج تينيت. بدا أن أحداً لم يتعلم الدرس.

تعيّن علي، وعلى مدى السنوات التالية، أي حتى نُزعت صفة السرية عن الوثائق المتعلقة بهذه الفترة، أن أبقى صامتاً وأنا أسمع كذبة تلو أخرى تُحكى عن أبي زبيدة. كان أحد المدافعين العلنيين عن تلك التقنيات مسؤولاً في وكالة الاستخبارات المركزية يدعى جون كرياكو، وهو الذي أعلن من على شاشة التلفزيون الوطني أن أبا زبيدة لم يتعاون مع التحقيق حتى استُخدمت وسيلة الإغراق والاختناق معه لمدة خمس وثلاثين ثانية. قال كرياكو إنه شاهد ذلك بنفسه. قال كرياكو: «كان الأمر أشبه بالضغط على زر»، وما لبث أبو زبيدة بعد ذلك أن اعترف بكل شيء. اعترف كرياكو في وقتٍ لاحق بأنه تلقى معلوماتٍ مغلوطة، كما علمنا أن أبا زبيدة تعرض لعملية الإغراق والاختناق ثلاثاً وثمانين مرة، وأنه لم يعترف بأي معلوماتٍ جديدة

ذات قيمة. (يعمل كرياكو هذه الأيام بوصفه موظفاً في لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ).

أما في مكتب التحقيقات الاتحادي فإن بوريس وشريكه وكبار داعميهما في واشنطن فقد أشير إليهما على أنهما «رجال الملصقات»، وذلك في إشارة إلى قائمة أخطر المطلوبين لدى مكتب التحقيقات الاتحادي، ونحن نعتقد أن طرقهما ستقضي في يومٍ ما على مستقبلهما المهني.

سجّلت وكالة الاستخبارات المركزية كل ما حدث مع أبي زبيدة في ذلك الموقع السري. لكن الوكالة أقدمت على إتلاف الأشرطة قبل أن يتمكن المحققون من مشاهدتها. تُظهر الرسائل الإلكترونية لوكالة الاستخبارات المركزية والتي نُزعت عنها السرية أن كبار مسؤولي الوكالة هم الذين شددوا على الأهمية القصوى لإتلاف الأشرطة. [redacted]

برزت إحدى أشد الإدانات لبرنامج وكالة الاستخبارات الأميركية مع نزع صفة السرية عن تقرير المفتش العام في الوكالة للعام ٢٠٠٤. تفحص جون هيلجيرسون كل المزاعم حول فعالية تلك التقنيات، كما اطّلع على المذكرات السرية لوكالة الاستخبارات المركزية. أورد التقرير أنه بينما أحرزت طرق الاستجواب العادية (أي الطريقة التي نعتمدها نحن) نجاحاتٍ عديدة ، «إلا أن قياس فعالية تقنيات الاستجواب المعززة... هي عملية ذاتية أكثر، ولا تخلو من بعض الجوانب التي تثير القلق». يُضاف إلى كل ذلك أنه قال إنه يعجز عن تحديد تهديد واحد أوردته وكالة الاستخبارات المركزية على أنه تهديد داهم تمَّ إحباطه. لكن من المؤسف أن هذا التقرير تأخر سنتين عن الظهور.

أعطيت في أوائل العام ٢٠٠٨، وضمن قاعة اجتماعات يشار إليها على أنها منشأة معلومات حساسة SCIF، ملخصاً سرياً عن أبي زبيدة، وذلك أمام موظفين في لجنة الاستخبارات التابعة لمجلس الشيوخ. شعر الموظفون بالصدمة. كان كل ما أبلغتهم إياه يناقض كل شيء سمعوه من إدارة بوش، ومسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية.

قلت لهم عندما وصلت المناقشة إلى حد قدرتي على إثبات كل شيء ذكرته لهم: «تذكروا أن عميل مكتب التحقيقات يدوّن مذكراته على الدوام». كانت المذكرات التي دونتها بخط يدي وتحتوي على كل شيء حدث مع أبي زبيدة محفوظة في خزنة آمنة في مكتب التحقيقات الاتحادي في نيويورك [redacted].

الجزء السابع

النجاح والفشل

الفصل الثالث والعشرون

خليج غوانتانامو

شباط/فبراير ٢٠٠٢. سألت عجوزاً أفغانياً جالساً قبالتي داخل زنزانة اعتقال في خليج غوانتانامو: «إذاً قُل لي، ماذا تعرف عن نيويورك وواشنطن؟»

«أجابني: «لا أعرف ماذا فعلوا، لكنني متأكد من أنهم أناس طيّبون».

لم يكن ذلك العجوز الأفغاني يعرف شيئاً عن القاعدة أو ١١ أيلول/سبتمبر، وحتى أنه ظنّ أن «نيويورك» و«واشنطن» هما اسمانِ لشخصين. كان التحدي الأول الذي واجهناه في غوانتانامو هو تمييز أعضاء القاعدة وطالبان من أولئك الذين ألقي القبض عليهم عن طريق الخطأ.

وصلت إلى غيتمو في أوائل شباط/فبراير من العام ٢٠٠٢. كانت الولايات المتحدة قد بدأت لتوها في جلب الموقوفين الذين ألقي القبض عليهم في أفغانستان إلى موقع احتجازٍ أميركي. لم نكن نعرف سوى القليل جداً عن سجنائنا الجدد، كما أن الهيئات الحكومية الأميركية أرسلت كبار محققيها ومستجوبيها لمساعدة الجيش في استجوابهم وتصنيفهم. كان من بين الذين تجمعوا هناك بوب ماكفادين، وإد، وهو ضابط وكالة الاستخبارات المركزية الذي عملت معه في ما بعد [redacted]، وآندريه خوري، وجون آنتيشيف.

سمعنا جميعاً القصص التي تحدثت عن مقاتلي تحالف الشمال الذين كانوا يقودون شاحناتهم عبر مناطق قبائل الباشتون في أفغانستان ويعرضون على القرويين ركوبها. لم يسبق لعدد كبير منهم أن استخدم سيارة من قبل، ولذلك كانوا يقبلون العرض بلهفة. كان مقاتلو تحالف الشمال، والذين كانوا بمعظمهم من الطاجيك ويكرهون الباشتون، يقودون الشاحنات إلى قاعدة أميركية مجاورة ويقولون لمسؤولي القاعدة إن ركابهم ينتمون إلى طالبان أو القاعدة، وهكذا كانوا يتلقون مكافآة قدرها خمسون دولاراً مقابل كل شخص يسلّمونه ولقاء جهودهم.

كان معتقلون آخرون مع ذلك من الشخصيات المهمّة في شبكتَي القاعدة وطالبان. سبق لي أن قمت مع آندريه، وإد، باستجواب عبد العزيز المطرفي، وهو المسؤول عن مكاتب الوفاء في أفغانستان، وهي منظمة غير حكومية أدرجتها الولايات المتحدة ضمن الهيئات المتعاونة مع الإرهاب. كنا نعلم أن العالم الإسلامي (وهو شخصياً) يعتبره شخصاً مهمّاً، وهكذا عاملناه بقدرٍ كبير من الاحترام وذلك كي نجعله يشعر بالارتياح. دأبنا على الدوام على تكوين جوٍ من الوئام معه، وكنا نبدأ بمناقشة الأمور غير المتعلقة بالقاعدة، مثل أمور عائلته. وعندما سألناه عن أولاده انطلق بالبكاء وأخبرنا بأنه اشتاق لبناته. بدأنا بعد ذلك بتوجيه المحادثة كي نعرف ما إذا كان على خلافٍ مع بن لادن.

قال لنا بعد وقتٍ قصير إن بن لادن أغضبه مع عدد من رجال الدين السوريين عندما أعلن أن سفر المرء مع عائلته إلى أفغانستان يعتبر بمثابة الهجرة في زمننا الحاضر، وهو الأمر الذي يوحي بأن أي شخص لا يقوم بهذا الحج لا يُعتبر مسلماً صحيحاً. كان ذلك الإعلان إهانة واضحة لداعمي المطرفي في المملكة العربية السعودية الذين لم يصطحبوا عائلاتهم إلى أفغانستان.

ما إن بدأ المطرفي بتعداد نقاط خلافه مع بن لادن حتى أقنعناه بالتعاون معنا، وهو الأمر الذي فعله، حتى أنه أبلغنا كيف كانت منظمته، التي كان من المفترض أنها منظمة إنسانية، تشتري الأسلحة للجهاد. شهد المطرفي عدداً كبيراً من اجتماعات

القاعدة المهمّة، وكان من بينها تناول طعام الغداء مع بن لادن، والظواهري، وخالد الشيخ محمد، والملا السعودي المشلول خالد الحربي، وهو الذي ظهر مع بن لادن في شريط الفيديو سيّئ الذكر الذي مدح فيه هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. (عُثر على الشريط في ٩ تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠١، لكن وزارة الدفاع أطلقته في ١٣ كانون الأول/ديسمبر).

سافر عدد من المتعاطفين مع القاعدة إلى أفغانستان بعد وقتٍ قصير من هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وذلك بعد أن اعتقدوا أن النبوءات السماوية بدأت بالتحقق، وأن الهجمات هي بداية النهاية بالنسبة إلى أميركا. بدأ هؤلاء بتناقل الحديث النبوي الذي يتحدث عن الآخرة، وهو الذي يشبه الأحاديث التي تتحدث عن الرايات السود الآتية من خراسان. ظهر الحربي في شريط بن لادن الذي أعدّه عن الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وتحدث فيه عن المجاهدين الآتين جواً من كل مكانٍ إلى أفغانستان بصفتهم جزءاً من تدبيرٍ إلهي.

تبنت الوفاء رحلة الحربي، وهكذا سافر جواً إلى إيران، وهناك عبَر إلى أفغانستان عن طريق التهريب. كان بن لادن يعتبر الحربي من أصدقائه فأقام مأدبة غداءٍ تكريماً له، وهي المأدبة التي حضرها المطرفي. بدا أن خالد الشيخ محمد بدأ في تلك اللحظة بتصوير شريط الفيديو الذي قرأ فيه بن لادن قصيدةً احتفاءً بالحادي عشر من أيلول/سبتمبر وأسند الفضل فيها إلى المختار، أو خالد الشيخ محمد.

كان المقاتلون الذين ألقي القبض عليهم في أفغانستان بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر يحملون جوازات سفرهم الحقيقية، وذلك لأنهم كانوا يحاولون الفرار من البلاد؛ لكن أسماءهم الحقيقية كانت تعني القليل بالنسبة إلينا، وذلك لأننا كنا نعرف أعضاء القاعدة بأسمائهم الحركية. كان أول تحدٍ واجهناه في غيتمو [غوانتانامو] هو مقابلة الأسماء الحقيقية بالأسماء الحركية للمعتقلين.

تفحصت صور المعتقلين. بدا أحد الرجال من الذين أثاروا انتباهي مغربياً في

الأربعينيات من عمره، وكانت أوصافه تتوافق مع تلك التي أعطانا إياها أبو جندل عن أبي عاصم المغربي، وهو الرجل الذي كان يُشرف على حراس بن لادن الشخصيين. كان اسمه المسجّل في الملف عبد اللّه تبارك، كما أن الملاحظات الموجودة في الملف سجّلت أنه ألقي القبض عليه مع آخرين كانوا يعبرون الحدود الأفغانية إلى باكستان. زعمت المجموعة بأكملها أنهم كانوا في أفغانستان لتعليم القرآن. بدا لنا أن روايتهم مختلقة وتثير الشك. بدأت أنظر إلى صور الأعضاء الآخرين للمجموعة، وذلك كي أتحقق مما إذا كنت سأتعرف إلى أي واحد منهم. بدا ابراهيم القوصيّ، وهو مواطن سوداني، متوافقاً مع الأوصاف التي أعطاني إياها عدد من اعضاء القاعدة، بمن فيهم الحسين خرشتو، وفهد القصع، وأبو جندل، عن أبي خُبيب السوداني، وهو الذي كان مع بن لادن منذ البداية، وعمل معه في إحدى المراحل بوصفه محاسب القاعدة. كان كذلك زوج ابنة أبي عاصم المغربي.

طلبت أن تُرسل نسخ عن صور تبارك والقوصيّ إلى مايك أنتيشيف، وهو شقيق جون وزميلي في فرقة I-٤٩ في نيويورك. كان من المفترض أن تُعرض الصور على جونيور والحسين خرشتو، وهما عضوان سابقان في القاعدة أصبحا من الشهود المتعاونين مع الحكومة الأميركية. جاء الرد في اليوم التالي من مايك بأن الشاهدين قد تعرفا إلى الرجال في الصور على أنهما أبو عاصم وأبو خُبيب.

عندما أُحضر أوائل الموقوفين إلى غيتمو جرى تقسيم القاعدة [المخصصة للمعتقلين] ما بين قائدين: اللواء مايكل إي. دونلافي، وهو قائد الفريق المشترك ١٧٠ (Joint Task Force 170) وهو الفريق المسؤول عن الاستجوابات العسكرية؛ والعميد ريك باكوس، وهو قائد الفريق المشترك ١٦٠، وهو المسؤول عن إدارة القاعدة وحراسة السجناء.

كان عملاء مكتب التحقيقات الاتحادي في غيتمو يعملون تحت إشراف فريق التحقيقات الجنائية CITF التابع لوزارة الدفاع، والذي هو تحت رئاسة العقيد بي. مالو، وهو من قيادة التحقيقات الجنائية. (يُشار إلى هذه الأخيرة بأحرف CID، وهي

الرمز المؤلف من الاسم الأصلي للوحدة، أي قسم التحقيقات الجنائية). كان مارك فالون من NCIS، هو نائب العقيد مالو. أوكلت لفريق التحقيقات الجنائية CITF التحقيق مع المعتقلين، وتقرير مَن منهم يجب أن يلاحق قضائياً، وهي وظيفة مستقلة عن مهمة المستجوبين العسكريين التي تقتصر على تجميع المعلومات الاستخبارية فقط.

أخذت صوراً عن تبارك والقوصيّ إلى الجنرال دونلافي. أخبرني بأن مجموعات أخرى من السجناء أظهرت قدراً من العنف، وكانت تتعارك دائماً مع الحراس وتتسبب بالمشاكل، لكن تبارك والقوصيّ وبعض المعتقلين الآخرين في مجموعتهم كانوا «سجناء مثاليين». سألني الجنرال دونلافي: «ما رأيك في ما يجدر بنا عمله؟»

قلت: «نحتاج أولاً إلى إخراجهم من بيئتهم المريحة، وأن نبرهن لهم أننا نعرف مَن هم، وأن اللعبة انتهت. نحتاج كذلك إلى عزلهم عن قاعدة إسنادهم. يُعتبر تبارك أبرز قيادي في القاعدة تمكنا من القبض عليه منذ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كما أن رتبته كانت أعلى من رتبة أبي جندل. إنه رجلٌ مهم، ولذلك يجب أن يكون مصدراً مذهلاً للمعلومات الاستخبارية، هذا إذا تمكنا من التعامل معه بالطريقة الصحيحة».

اصطحب الجنرال دونلافي تبارك إلى السجن العسكري، وهو الذي كان في ذلك الوقت المنشأة الوحيدة في غيتمو المتوافرة لفصل المعتقلين من ذوي الأهمية عن باقي الأسرى. كانت إحدى المشاكل هي أن ذلك السجن العسكري موجودٌ على قمة تلة تتوسط الجزيرة، كما أن الزنزانات كانت مجهزة بنوافذ، وهو الأمر الذي يسمح للنزلاء برؤية المكان الذي يوجدون فيه، وكذلك الأشخاص الذين يجيئون ويروحون. لم يكن من المسموح لنا أن نبلغ المحتجزين في كوبا بمكانهم، وذلك بالرغم من أنهم خمّنوا ذلك المكان (لكنهم عرفوا بعد ذلك المكان على وجه التأكيد بفضل زيارات الصليب الأحمر). لم نرغب كذلك أن يشاهدوا مَن يأتي ومَن يذهب، ولذلك قام الحراس بتغطية النوافذ.

توجهت لزيارة أبي عاصم فور وصوله إلى السجن العسكري. قلت له: «السلام عليكم يا أبا عاصم».

«وعليكم السلام».

دخلت على الفور في صلب الموضوع متكلماً باللغة العربية: «أعرف من أنت، وأعرف أهميتك. انتهت اللعبة».

أجابني: «أنت مخطئ. لا أعرف عما تتحدث».

قلت له: «إنكارك لن يفيدك بشيء، لأنه لدي شهود تمكنوا من التعرف إليك، وهم من زملائك الأعضاء في القاعدة. إننا على علم بمسيرتك الطويلة مع الشيخ أبي عبد اللَّه. أبلغتني مصادري أشياء كثيرة عنك وعن أسرتك». تعمدت ذكر الاسم الحركي [لقب] لبن لادن من أجل إيضاح فكرة أننا نفهم حركيات الجماعة.

«أسرتي، ما بها؟»

«هناك الكثير عنها بعد مقتل أبي عطاء».

قاطعني بالقول: «مَن هو أبو عطاء؟»

«أبو عطاء التونسي، وهو زوج ابنتك الذي قُتل بينما كان يقاتل ضد أحمد شاه مسعود. وصل الأمر بالقاعدة إلى تسمية جبلٍ باسمه، وهو الجبل الموجود في الخطوط القتالية في أفغانستان. هل تتذكره؟»

لم يردّ أبو عاصم، بل اكتفى بتقييمي.

«لنعد الآن إلى أسرتك. تزوجت ابنتك الأرملة ثانية من شقيق آخر هو أبو خُبيب وهو معتقلٌ معك». أردته أن يعرف أننا نجحنا في التعرف إلى كل الذين اعتُقلوا معه. كانت الرسالة التي أردت إيصالها إليه هي أننا نمتلك مصادرنا الخاصة، ولربما لدينا معتقلون آخرون يتعاونون معنا بالفعل. كان من شأن معرفته أن آخرين يتحدثون معنا تسهيل أمر تعاونه معنا.

«سأذهب الآن، لكني آمل عندما نتحدث في المرة التالية أن تعرف أن تعاونك معنا هو أفضل لك. يمكنك الاستراحة الآن لأنه لدينا الكثير لنتحدث عنه». أردته أن يفكر في ظروفه الجديدة ويدرك أننا نعرف حقيقته. علمنا بعد وقتٍ قصير، وبشكلٍ غامض أن أبا عاصم أصبح خارج متناول أيدينا، وأن أحداً لا يمكنه الوصول إليه. رفعت الأمر إلى بلاين توماس، وهو قائد فريق التحقيقات الجنائية CITF على الأرض. «إنه سجين تمكنا من التعرّف إلى هويته الحقيقية، ولذلك يقع ضمن نطاق اختصاصنا».

«أبلغونا بأنه لربما أصبح خارج الجزيرة».

حاول فريق التحقيقات الجنائية الاحتجاج على الأمر لدى المسؤولين، لكن من دون طائل. وعندما سألت آخرين في القاعدة عمّا إذا كانوا يعرفون ما يجري مع أبي عاصم قالوا لي جميعاً إنهم لا يمتلكون أي معلومات. كان عندي عدد كبير من الموقوفين الذين يجب عليّ التعامل معهم، ولذلك وضعت ملفه جانباً.

مرت أشهر عدة، وكنت أطالع إحدى الصحف الصادرة بالعربية. لمحت مقالة أوردت أنه أطلق سراح أبي عاصم على يد قاضٍ مغربي. أجريت بعض الاستفسارات، واكتشفت أنه بعد وقتٍ قصيرٍ من تعرّفنا إلى هويته الحقيقية أجازت إدارة بوش تحويله إلى المغرب. أطلق المغاربة سراحه أخيراً بعد استجوابه.

عبّرت عن إحباطي أمام شريكي بوب ماكفادين: «هل هذه دعابة؟ يُعتبر تبارك أكبر عضوٍ في القاعدة وقع في أيدينا. كان الرجل مع بن لادن منذ البداية وكان يثق به كثيراً».

قال بوب: «إن كمية المعلومات الاستخبارية التي بحوزته يا صديقي تفوق معلومات أي رجلٍ آخر في حوزتنا، وهذا إذا لم نذكر أنه يستحق أن يمضي بقية حياته وراء القضبان».

أما القوصيّ، في المقابل، فقد بقي في غيتمو، وقمت باستجوابه أنا وبوب.

استغرق خلق جوّ من الودّ بعض الوقت، كما أنه قدّم لنا معلوماتٍ قيّمة عن بن لادن وفريقه الأمني. كان الرجل أول حارسٍ شخصيّ يعيّن لحماية بن لادن بعد مهاجمته في السودان، وكان مؤهلاً للقيام بهذا الدور. قدّم لنا الرجل كذلك معلوماتٍ عن طريقة تسليمه الأموال من أبي حفص المصري إلى ناشطٍ مصري يعمل في إثيوبيا. قام ذلك الناشط بعد مرور أيام على هذا التسليم بقيادة محاولة اغتيال فاشلة استهدفت الرئيس المصري حسني مبارك في أديس أبابا.

سألني القوصيّ في إحدى المراحل: «هل اجتاحت الولايات المتحدة العراق؟» لكن الاجتياح الأميركي للعراق لم يحدث حتى بعد مرور وقتٍ طويل، أي في العام ٢٠٠٣، لذلك بدا لي أن هذا السؤال في غاية الغرابة.

«كلا، لم نفعل ذلك حتى الآن، لكن لماذا سألت؟» أبلغني بوجود حديثٍ عن نهاية العالم التي ستحدث بعد أن تتعرض البلاد التي هي العراق الآن إلى الغزو على يد جيوش تتقاتل على ذهبها الأسود، إشارة إلى النفط. ذكر أمامي عدد من معتقلي القاعدة ذلك الحديث عن الذهب الأسود. أعرب جميع هؤلاء عن تصديقهم ما تقوله القاعدة، واستخدام أحاديث مشكوك بصحتها، واعتبروا أنفسهم جزءاً من نبوءة مقدسة.

أبلغني القوصيّ كذلك أن بن لادن كان يردد كثيراً أن استراتيجيته لإلحاق الهزيمة بأميركا كانت تمر بإلحاق آلاف الجراح بها. عرف بن لادن أنه لن يستطيع أبداً إلحاق الهزيمة بأميركا بضربة واحدة، وحتى بسلسلة من الضربات، وهكذا كان هدفه الاستمرار في تسديد الضربات الصغيرة للولايات المتحدة، وبطرقٍ متعددة إلى أن تصبح الحياة غير محتملة فيها. لم يكن القصد فقط تنفيذ عملياتٍ كهذه في الولايات المتحدة لكن أراد تكوين مصدرٍ دائم للقلق. قال القوصيّ إن بن لادن كان يأمر النشطاء في بعض الأحيان بالحديث عن عملياتٍ وهمية عبر الخطوط الهاتفية التي يعتقدون أن الولايات المتحدة تتنصت عليها وذلك كي تضيّع الوقت والموارد في ملاحقة تلك «المؤامرات».

اعترف القوصيّ بعد مرور عدة سنوات بأنه مذنب عند تقديمه إلى المحاكمة، وذلك بناءً على نصيحة فريق دفاعه.

تمكنا من تحقيق نجاحاتٍ عدة لكننا مررنا كذلك بإحباطاتٍ عدة في غيتمو. تمثلت المشكلة في عدم وجود خطة محددة، وكنا نفتقد إلى قواعد العمل [الاشتباك] التي تؤدي إلى المرحلة النهائية. أما المحققون المحنّكون فقد بدأوا بالعمل حسب القواعد المعمول بها، لكنهم سرعان ما بدأوا بتلقي الأوامر من فوق.

منعت أولى التعليمات الجديدة قراءة تحذير ميراندا على الموقوفين. كان ذلك يعني عدم تمكننا من استخدام أي اعترافات نحصل عليها كأدلة في المحاكم، سواء كانت عسكرية أم مدنية (يقضي قانون العدالة العسكرية الموحدة بأن يُنصح الموقوفون بحقوقهم). لكن بعد بروز اعتراضات من كثيرين، وعلى الأخص من رجال التحري الملحقين بـ JTTFs الذين أعيد إلحاقهم بغيتمو، فقد أرسل مكتب التحقيقات مسؤولاً رفيعاً، وهو سبايك بومان، ليبلغنا بأن واشنطن تعتبر غوانتانامو في هذه المرحلة مثل عملية تجميع المعلومات الاستخبارية، وأنه لا حاجة بنا للقلق بشأن المحاكمات التي ستجري في النهاية.

دأب الجنرال دونلافي على طلب مساعدتي عندما يواجه مشاكل مع الموقوفين، وأخبرني في إحدى المراحل بأن الموقوفين أعلنوا الإضراب عن الطعام، وأن الحراس لا يعلمون السبب الذي دفعهم إلى ذلك. قابلت بعض الموقوفين فأبلغوني بأنهم يحتجون لأن الحراس استبدلوا أذان صلاة الصباح بأغنية بروس سبرنغتين، «وُلدنا في الولايات المتحدة».

حدثت كذلك سلسلة من الخلافات بين المستجوبين ذوي الخبرة وبين المستجوبين المبتدئين بشأن كيفية إجراء جلسات الاستجواب. كانت المشكلة هي أنه بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر عمدت الهيئات العسكرية والحكومية الأميركية الأخرى بسرعة إلى توسيع فرقها التي تتصدى للإرهاب، وهكذا تضع بعض

الأشخاص في مواقع لم يتلقوا أي تدريب في مجالاتها ولم يكتسبوا خبرة فيها. كان المحقّقون يباشرون ممارسة مهماتهم في غيتمو بعد تمضية ستة أسابيع فقط في دورة تدريبية، ومن دون أن يجروا أي استجوابٍ حقيقي دعك من استجواب إرهابيي القاعدة. كانت معرفة المحقّقين الجدد بالقاعدة ضئيلة جداً، ومستندة بشكلٍ كبير إلى روايات وسائل الإعلام والمؤتمرات الصحفية.

لم يحرز المستجوبون الذين يفتقدون إلى الخبرة نجاحاتٍ تُذكر عندما بدأوا بإجراء المقابلات بأنفسهم، ولذلك بدأوا بتجربة طرقٍ مختلفة للحصول على المعلومات. وقع هؤلاء تحت ضغوطات كبيرة من المسؤولين في واشنطن «للحصول على نتائج». ارتدى أحد المستجوبين ملابس رعاة البقر وأمر ببث موسيقى الريف في غرفة التحقيق ظناً منه أن هذه الطريقة سوف تصدم الموقوف بحيث يضطر إلى التعاون. سمعت في وقتٍ لاحق تقارير عن المعاملة القاسية التي بدأت بالظهور، وعن التكتيكات الأقسى التي استُخدمت في غيتمو، مثل استخدام أحجار الطابوق الصخري للإبقاء على الموقوفين في أوضاعٍ متعبة.

رفض المستجوِبون ذوو الخبرة أن يكونوا جزءاً من جلسات التحقيق هذه، واعترضوا أمام رؤسائهم. نظّم فريق التحقيقات الجنائية كذلك جلساتٍ تدريبية لهؤلاء المستجوِبين الجدد، كما حاولنا أن نشرح لهم كيفية تصنيف الموقوفين، وكيفية التأثير في الناس (أي حملهم على التعاون)، وكيفية استغلال ما يعرفونه عن القاعدة من أجل الحصول على المعلومات. تمثلت المشكلة في أن مهارات الاستجواب والمعرفة في هذا المجال لا يمكن اكتسابها في جلسات قليلة بل تأتي من خلال الدراسة الجماعية، ودراسة مواضيع الإرهاب بالإضافة إلى قدرٍ كبير من خبرة الاستجواب المكتسبة من خلال العمل مع المستجوِبين ذوي الخبرة.

بدأ بعض المستجوِبين العسكريين بارتداء ملابس تماثل تلك التي يرتديها أفراد مكتب التحقيقات الاتحادي، وفريق التحقيقات الجنائية، ظناً منهم أن نجاحاتنا جاءت نتيجة مظهرنا. تسلّم مارك فالون، وهو نائب آمر فريق التحقيقات الجنائية،

في إحدى المراحل طلباً من الجيش للحصول على مئتي قميص تحمل شعار فريق التحقيقات الجنائية.

لم يقتصر الاعتراض على المستجوِبين ذوي الخبرة الذين اعترضوا على ما شاهدوه، لكن الخبراء السلوكيين الذين أُرسلوا إلى القاعدة لدعم عمليات الاستجواب شاركوا بدورهم في تلك الاعتراضات. أما الخبراء المخضرمون من أمثال توم نير الذي يعمل في وحدة التحليل السلوكي التابعة لمكتب التحقيقات الاتحادي، و [redacted] الذي يعمل في مركز مكافحة الإرهاب، ومايك جيلز، وهو كبير المحلّلين النفسيين في NCIS، فقد سافروا جميعاً إلى القاعدة، وعبّروا عن اعتراضاتهم.

أجرينا بعد وقتٍ قصير من وصولنا إلى غيتمو سلسلةً من المناقشات التي نظّمها فريق التحقيقات الجنائية حول كيفية تصنيف الموقوفين والتعامل معهم. ذكّرني بوب ماكفادين بعد سنوات عديدة بما قلته أمام الحاضرين: «إننا سنربح الحرب أو نخسرها بدءاً من هنا، وداخل غيتمو. يتعيّن علينا بعد الانتهاء من استجواب المعتقلين أن نصنّفهم بين من هو مذنب بارتكاب جرائم ومن هو بريء. أما إذا كانوا أبرياء، أو إذا لم نتمكّن من ملاحقتهم قضائياً، فسوف نضطر عندئذٍ إلى اعتبار فترة اعتقالهم هنا وكأنها فترة تأهيل، وإن لم نفعل ذلك فإننا بذلك نكسب أعداءً جدداً لنا. يتعيّن علينا في هذا السياق إظهار طبيعة «أميركا الحقيقية» وأن نترك لديهم انطباعات جيدة. أما إذا فشلنا في التعامل مع المعتقلين، فإننا سوف نقلّل بذلك من الحافز لدى المعتقلين للتعاون، وذلك لأنهم سوف يلاحظون أن شيئاً لم يتغيّر من أوضاعهم. وبالنسبة إلى المذنبين منهم يتعيّن علينا التعامل معهم وتقديمهم إلى المحاكمة، وإلا فسوف نجعل منهم شهداء أحياء».

شاركني مستجوبون آخرون من ذوي الخبرة في هذا الرأي، كما كنا بعد الانتهاء من استجواباتنا ندوّن أي معلومات استخبارية من التي يُمكن استخدامها في العمليات، وتقييم ما إذا كان يتعيّن إطلاق سراح الموقوفين، أو تقديمهم إلى المحاكمة. امتلكنا ميزةً مهمة ضد بعض أعضاء القاعدة الذين استجوبناهم في البداية، وذلك لأنهم

كانوا مصدومين لوجودهم في قبضة الولايات المتحدة. ظلّ هؤلاء، وعلى مدى سنواتٍ عديدة يسمعون بن لادن يقول لهم إن الولايات المتحدة هي بلد جبان يبادر جنوده إلى الفرار عندما يهاجَمون. كان زعيم القاعدة يستشهد بانسحاب الولايات المتحدة من لبنان والصومال بعد الهجمات التي استهدفت جنودها، وكان يقول إن تلك الانسحابات هي من الأمثلة التي تدل على «جبانة» الأميركيين. لكن غزونا لأفغانستان بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر كشف مدى زيف تلك الادعاءات. كانت صور زعماء القاعدة (وليس الجنود الأميركيين) الذين يهرعون إلى المخابئ، وحتى خلال فرارهم من أفغانستان، هي التي قلبت تلك المفاهيم رأساً على عقب. دفع ذلك بأعضاء القاعدة إلى الشعور بالخوف من الولايات المتحدة للمرة الأولى، كما جعل ميلهم إلى التعاون أكثر قوة من الزمن الذين كانوا يعتقدون فيه أن القاعدة هي الأقوى.

لكن صورة أميركا الواثقة من نفسها والقوية تعرضت للخطر عندما أُمر الحراس بتقييد أيدي المعتقلين وأرجلهم بحيث يصعب عليهم التحرك. وعندما يضطر المعتقل إلى التنقل من زنزانته إلى غرفة الاستجواب فكان يضطر حارسان إلى حمله، حتى أنه كان يوضع على كرسي متحرك في بعض الأحيان. قلت لأعضاء فريق التحقيقات الجنائية: «يعزّز هذا، في الواقع، مقولة القاعدة ويثبت لهم أننا خائفون منهم بالفعل. يتعيّن علينا القيام بعملنا بشكلٍ آمنٍ وواثق، لكن ما يجري مبالغٌ فيه كثيراً. إنه خطأ».

كنت أعمد في كل جلسة استجواب أعقدها إلى الطلب من الحراس نزع السلاسل من أيدي المعتقل. أردت أن أبرهن أنني لست خائفاً من الشخص الذي أقوم باستجوابه، كما أن نزع السلاسل يعزّز فكرة أن المعتقلين يتجاوبون بصورة أفضل عندما يُعاملون باحترام.

سألني أحد الحراس بلهجة استهجان: «لماذا تعاملهم بهذا اللطف؟»

قلت له: «إنني ألعب معهم ألعاباً ذهنية، وأخاطب مفاهيم الاحترام والكرامة عندهم. أما عندما أعاملهم بطريقة حسنة فسوف يشعرون بأن عليهم أن يكونوا مهذبين ومتجاوبين، كما أنني أحصل بدوري على المعلومات الاستخبارية التي أحتاجها. هذا هو السبب الذي يدفعني لأكون لطيفاً».

استدعاني الجنرال دونلافي إلى مكتبه، وكان معي مات رئيس [redacted] في وكالة الاستخبارات المركزية. أبلغنا بأن مدير مكتب التحقيقات الاتحادي، روبرت مويلر سوف يصل قريباً، وهو يريد منا أن نصطحب المدير في جولة. لم يسبق لي أن قابلت مويلر من قبل، وذلك لأنه عُيّن في منصبه قبل وقتٍ قصيرٍ من أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كما أنني كنت منذ تعيينه خارج الولايات المتحدة لمعظم الوقت خلال قيامي بمهمات متفرقة.

كنت خارجاً لتوي من إحدى جلسات الاستجواب عند وصول المدير. كنت أرتدي سروالاً مزوداً بجيوب كبيرة وقميصاً قطنياً واسعاً، وكانت ذقني غير حليقة، وهكذا لم يدل مظهري على أنني محقّق لدى مكتب التحقيقات الاتحادي. كان دونلافي يطلب مني بين الحين والآخر شرح بعض الأمور لمويلر أثناء تجوالنا في القاعدة. لاحظت أن المدير كان ينظر إليّ بغرابة، وكأنه كان يحاول معرفة من أكون. التفت دونلافي في نهاية الجولة إلى المدير وقال: «والآن بعد أن رأيت ما يجري هنا، دعني أعرّفك بالشخصين المسؤولين عن حسن سير الأمور». لم أسمح للجنرال بتعريف المدير إلى أحد العملاء الذين يعملون لديه، وهكذا قلت بسرعة قبل أن ينهي دونلافي كلامه: «علي صوفان من مكتب التحقيقات الاتحادي. سررت للاجتماع بك يا سيدي».

سألني المدير رافعاً حاجبيه: «أنت علي؟» بدأ يتفحصني مجدداً صعوداً ونزولاً.

«أجل سيدي».

«أريد أن أقول لك إنني وصلت لتوي من جولةٍ إلى خارج البلاد، وكان موظفو

الخدمات الخارجية يسألونني عند هبوطي في بلادٍ كثيرة، «ما هي أحوال علي؟ سمعت أشياء عظيمة عنك، ولهذا أنا مسرور جداً بلقائك».

«شكراً لك يا سيدي. هذا شرفٌ كبير لي».

تابعنا المسير نحو مركز مكتب التحقيقات الاتحادي في غيتمو حيث يسكن عملاؤنا ويعملون، وكانوا متجمعين في غرفة الجلوس حيث وُضعت عدة صفوف من المقاعد القابلة للطي. دُعي مات، وهو رئيس قاعدة وكالة الاستخبارات المركزية للحضور، وهكذا وقفت وإياه في آخر الغرفة. لم يجلس أحد في الصفّين الأماميين، وهكذا عندما كان المدير على وشك البدء بحديثه طرح سؤاله: «ألا يريد أحد الجلوس في المقدمة؟» سادت فترة من الصمت. سأل ثانية: أين علي؟» وراح ينظر من حوله. رآني في آخر الغرفة فقال لي: «تعال واجلس هنا». خمّنت أن اسمي كان واحداً من الأسماء القليلة التي يعرفها.

كنت أعمل ذات مساء من أمسيات آخر شهر حزيران/يونيو في مقر مكتب التحقيقات الاتحادي في واشنطن العاصمة، وكنت أقسم وقتي ما بين المساعدة في غيتمو وبين مهمات أخرى. اقترب دان كولمان من طاولتي وقال لي: «علي. هل تعلم بوجود رجلٍ يدعى سليم حمدان في غيتمو؟ أليس هو زوج شقيقة أبي جندل؟»

«هل أنت جاد؟ أتقول في غيتمو؟»

قال دان وهو يناولني الصورة: «أجل. كنت أتفحص ملفات الموقوفين. هاك صورة توقيفه».

قلت وأنا أتفحص الصورة: «إذاً، هذا هو صقر الشهير».

أخبرنا أبو جندل ذات مرة بأنه يعرف صقراً باسمه الحركي فقط. قلت له: «دعك من هذا يا رجل. أتريد أن تقول لي إنك لا تعرف الاسم الحقيقي لزوج شقيقة زوجتك؟» تورد خدّا أبي جندل قليلاً بعد انكشاف كذبته. لم يكن يعرف كيف علمنا بعلاقة القرابة التي تربطهما معاً.

قال لي: «اسمه سليم حمدان».

توجهت لمقابلة بات دامورو وأعلمته بما عرفته لتوي. اتفقنا على أن أذهب لمقابلة حمدان. لم يوجد في ذلك الوقت «فريق جاهز» (فريق متخصص للتحرك السريع) مخصّص لاستجواب المعتقلين الجدد، لذلك سمح لي بات باصطحاب مَن أرغب في اصطحابه. اخترت جورج كروتش، وهو الذي سبق له أن عمل معي عندما كنا نحقق في الهجمات على كول، وكان ملحقاً حينها مؤقتاً بالإدارة العليا. أرسلنا خبر قدومنا مقدماً إلى قاعدة مكتب التحقيقات الاتحادي في غيتمو، وقلنا لهم إننا قادمون بهدف استجواب حمدان.

استقبلنا بيل كوربيت عند هبوط طائرتنا، وهو الذي كان حينذاك وكيل قضية في قاعدة غيتمو. قلت له: «أعلم أن الوقت متأخر، لكننا نريد التوجه مباشرة لمقابلة حمدان.

قال لنا: «هناك مشكلة. قررت وكالة الاستخبارات المركزية إجراء مقابلة معه الآن».

«لكن ما هو الأمر الذي أثار اهتمام الوكالة بهذا الشكل المفاجئ؟»

أجاب بيل: «أعرف أن شيئاً ما يجري، وهو في غاية الغرابة. ظل حمدان قيد الاعتقال لأشهرٍ عدة، أي أن الوكالة امتلكت وقتاً كافياً لاستجوابه. لكن الآن فقط قررت التحدثَ معه عندما سمعوا أن مكتب التحقيقات قد طلب مقابلته تحديداً، وأن الإدارة العليا أرسلتكم إلى الجزيرة».

قلت له: «دعنا نتوجه إلى حمدان على أيّ حال. أريد معرفة ما يجري».

توجهنا مباشرة إلى غرفة الاستجواب، وطلبنا من مستجوِبي وكالة الاستخبارات المركزية الخروج من الغرفة. كان أحدهم صديقاً لي، وسبق أن عملنا معاً في الماضي فتبادلنا التحيات. قلت له: «اسمع، لقد أتينا جواً من واشنطن للتحدث مع حمدان. يمكننا أن نفعل ذلك معاً إذا أردت، لكن هذا الرجل مهم جداً بالنسبة إلينا».

وافق صديقي على الفور، لكن زميله الذي كان ضابطاً متقاعداً من الوكالة ويعمل معها الآن بصفة متعاقد عارض الفكرة. رفض ذلك الزميل الإصغاء إلى الأسباب التي تدفعنا إلى مقابلته فرفعنا المسألة إلى مات، وهو رئيس [redacted] في وكالة الاستخبارات المركزية. شرحنا له الوضع والسبب الذي يدفعنا للتحدث مع حمدان، فما كان منه إلا أن وقف إلى جانبنا وعرض علينا تقديم المساعدة. جادل الرجل المتعاقد مع الوكالة معارضاً، لكن مركز مات كان الأعلى.

قال لي جورج عندما خرجنا من مكتب مات في طريقنا إلى غرفة الاستجواب: «تحوّل الوضع إلى نموذج سيئ لعلاقتنا مع وكالة الاستخبارات المركزية. فرغ جورج من مقابلة ابن الشيخ الليبي، وهو شريك أبي زبيدة. ألقى ضباط باكستانيون القبض على الليبي في أواخر شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠١ أثناء محاولته الفرار من أفغانستان. سلمته السلطات الباكستانية إلى الجيش الأميركي، ونُقل إلى مطار باغرام الذي يقع في محافظة بارفان الأفغانية. تمكن جورج وروسل فينشر ، وهو عضو آخر من فريقنا من استجواب الليبي على مدى جلساتٍ عدة. تعاون الليبي مع الاستجواب وأعطى معلومات استخبارية تضمنت تفاصيل تهديداتٍ ضد السفارة الأميركية في اليمن. [redacted]

دخل فِرد أثناء إحدى الجلسات، وهو ضابط في وكالة الاستخبارات المركزية، وهو الذي تسبّب بحدوث مشاكل أثناء التحقيقات في مؤامرة الألفية والذي أرسل البرقيات المغلوطة التي سُحبت في ما بعد. دخل فِرد إلى الغرفة بشكلٍ مفاجئ، وبدأ بالصياح على الليبي الذي جهد [redacted]. «لا أكترث بما قلتَه عن المؤامرات في اليمن. أريد أن أعرف شيئاً عن مؤامرات [redacted]».

صعُب على جورج وروسل تصديق ما يسمعانه. أيعتقد فِرد حقيقةً أن إحباط الهجمات ضد السفارة الأميركية أمرٌ ليس مهمّاً؟ ولماذا يعرقل مسار الاستجواب؟ أظهر وجه الليبي بعض الارتباك. سأل متوجّهاً نحو جورج لعله يعرف شيئاً: «ماذا يجري؟»

قال فِرد لليبي: «إذا لم تخبرني بما تخطط [redacted] ، فإنني سوف أُحضر والدتك إلى هنا وأعتدي عليها أمامك».

كان ذلك فوق قدرة الليبي على الاحتمال، فحوّل وجهه عن فريقنا ورفض قول أي كلمة لأحد. كان الليبي الأمير الداخلي لمعسكر خالدان، وكان يعتبر نفسه شخصيةً هامة، لذلك فهو لا يستطيع تحمّل إهانةٍ كهذه. توقفت جلسة الاستجواب في ذلك اليوم.

غضب الجنرال المسؤول عن باغرام عندما سمع بما حدث فمنع فِرد من دخول المطار. قدّم فِرد مع ذلك تقريره الخاص، وما لبثت وكالة الاستخبارات المركزية أن أتت بعد وقتٍ قصير بصورة سرية وسلّمت الليبي إلى بلدٍ ثالث (ما زال اسم البلد سرياً حتى الآن). تحدث الليبي هناك، وبعد تعرضه للتعذيب عن «الروابط"ما بين القاعدة وصدّام، وكانت كلها معلومات ملفقة.

أورد تقرير اللجنة المنتخبة من أعضاء مجلس الشيوخ حول الاستخبارات، وفي الفقرة التي تحدثت عن الاستخبارات حول العراق في فترة ما قبل الحرب، ما يلي: «تدعم الاستنتاجات التي ظهرت في فترة ما بعد الحرب... التقييم الذي ظهر في شهر شباط/فبراير من العام ٢٠٠٢ والذي أظهر بأن ابن الشيخ الليبي كان يضلّل مستجوبيه عمداً عندما قال لهم إن العراق زود ناشطين من القاعدة بأسلحة كيميائية وبيولوجية.... والتدريب في العام ٢٠٠٠... أبلغ الليبي مستجوبيه بأنه اختلق تلك المعلومات عندما كان قيد الاعتقال في الولايات المتحدة كي يحصل على معاملة أفضل ورداً على تهديدات نقله إلى وكالة استخبارات أجنبية كان يفترض أن تقوم بتعذيبه... قال كذلك في ما بعد إنه أثناء استجوابه... قام بتلفيق معلومات إضافية نتيجة الأذى الجسدي والتهديدات بالتعذيب».

أُرسِل الليبي في وقتٍ لاحق إلى ليبيا وهناك مات في ظروفٍ غامضة. تحدثت التقارير عن شنق نفسه. إن ظاهرة إقدام السجناء على الانتحار في ظروفٍ غامضة

ليست بالظاهرة الغريبة في بعض البلدان. سمعت أن أحد السجناء أقدم على الانتحار بأن أطلق النار على مؤخرة رأسه... ثلاث مرات. سبق لنا أن رأينا كيف أن إدارة بوش ـ والتي لم تكن راضية عن تقرير مكتب التحقيقات الاتحادي الأولي والذي أظهر عدم وجود روابط ما بين العراق والقاعدة ـ قد طلبت إعادة كتابة ذلك التقرير وهو الطلب الذي رفضه آندي آرينا المسؤول الرفيع في مكتب التحقيقات.

لم يكن جورج هو عميل مكتب التحقيقات الوحيد الذي عانى من تجارب سيئة مع فرِد. سبق لي أن مررت، بطبيعة الحال، بإحدى تلك التجارب معه عندما كنا في الأردن، ورأيته خلال الاستجوابات التي أجريت مع أحدِ نشطاء القاعدة رمزي بن الشّيبة و [redacted].

أورد تقرير هلجيرسون، المفتش العام لوكالة الاستخبارات المركزية لعام ٢٠٠٤، بعض الأخطاء التي ارتكبها فرِد.

قلت لجورج: «لا يمكنك أن تفعل ذلك، وحمداً لله لأن شخصاً مثل مات موجودٌ هنا».

ظهر العبوس على وجه حمدان عند دخولنا. حملق الرجل بنا عندما كنت أعرّف بنفسي. «هذا هو زميلي جورج كروتش. إننا من مكتب التحقيقات الاتحادي، وجئنا للتحدث إليك. بقيت من ضمن اهتمامنا لمدة طويلة. إنني أعرف عائلتك، وأعرف مركزك. أعرف كذلك حقيقة مَن تكون».

قال مستهجناً: «هذا جيّد لكما. لا أملك أي شيء أقوله لكما. إن كل شيء قلتُه وسأقوله موجود في ملفي. يمكنكما أن تقرآه».

«لست مهتماً بملفك. إنني هنا لأمرٍ آخر».

«لا يهمني ذلك. أنا لا أثق بأي واحد منكم. جميعكم كذابون».

«لم يسبق لك أن تعاملت معي من قبل، ولا أعرف من قال لك أي شيء. لكن قل لي، ما هي الأكاذيب التي تحدثت عنها؟»

«وعدوني مراراً بأنني أستطيع مكالمة زوجتي هاتفياً كي أعرف ما إذا كانت بخير، لكنهم لم يبرّوا بوعدهم أبداً».

قلت له: «إننا مختلفان عن الآخرين، لكنني لن أتحدث معك الليلة لأنك غاضب بشكلٍ واضح. استرح الآن وسوف نتكلم غداً. أريدك أن تصلي في هذا الوقت وأن تطلب استخارة» ـ عبارة تشير إلى طلب توجيهٍ من اللّه في أمرٍ معين ـ «لأن ما أعرفه عنك، وعن عائلتك ودورك في القاعدة قد يصدمك بالفعل».

سألني بفضولٍ واضح: «كيف عرفت تلك الأشياء؟»

«دعني أكتفِ بالقول إنني أصبحت على صداقة متينة مع أبي جندل». نظر إليّ مندهشاً. «ألعلك لا تصدّقني؟» هزّ رأسه. «حسناً، لعلنا كاذبون جميعاً، لكن هل تذكر عندما وُلد حبيب؟» مضيت في تذكيره بقصة ولادة ابن أبي جندل، وكيف أنه افتخر لأن حبيب قد تذوق التمر من فم بن لادن حتى قبل أن يتذوق الطفل الوليد حليب والدته. لم يقل حمدان أي شيء، لكنه تطلع نحوي بعينين واسعتين.

سألته: «مَن يعرف بهذه القصة غير الصديق الحميم؟ سنلتقي غداً يا صديقي. طابت ليلتك».

سألني مات بينما كنا ندخل إلى مكتبه: «إذاً، كيف تسير الأمور مع حمدان؟» أعدت على مسامعه ما جرى بيننا وبينه من حديث.

«إذاً يزعم الرجل أنه تعرّض للكذب، ويبدو أن ذلك يعيق تعاونه معنا. هل هذا صحيح؟»

أجاب مات وهو يتناول أحد الملفات: «دعني أتحقق من ذلك. يبدو أنه يقول الصدق. وُعد مراتٍ قليلة بأنه سوف يُسمح له بإجراء مكالمة هاتفية، لكن ذلك لم يحدث أبداً».

«ما رأيك في أن نسمح له بإجراء تلك المكالمة الهاتفية؟»

«وماذا سينفع ذلك؟»

«سوف يهدأ قليلاً ويصبح أكثر استعداداً للتعاون. هذا في المبدأ، وسوف نتمكن بعد ذلك من استخدام سماحنا له كنقطة ضده».

قال مات بينما كان يناولني أحد هواتف الوكالة: «تبدو لي هذه فكرة جيدة، وهي تستحق المحاولة. يمكنك تنفيذها في الحال. هاك هاتفاً موصولاً بالأقمار الصناعية. يمكنك استخدامه».

التقيت برفقة جورج في صباح اليوم التالي حمدان في غرفة الاستجوابات. أمرتُ الحارس بإزالة الأصفاد من ذراعي حمدان ورجليه.

«أريد أن أخبرك شيئاً قبل أن نبدأ: تحققت من وعدك بإجراء مكالمة هاتفية، فاكتشفت أن ذلك صحيح. أشعر بالخجل لأن زملائي لم يفوا بوعدهم. لكننا أنا وجورج نفي بوعودنا على الدوام. يُحتمل أنك لن تصدقني، ويُحتمل أنك عرفتَ من حديثنا في الليلة الماضية أننا نعلم كل شيء عنك وعما قمتَ به من أجل القاعدة، لكن الوعد هو الوعد. هيا بنا إذاً».

سألني حمدان بعد أن بدا غير متأكدٍ من أنه فهمني: «ماذا؟»

سألته: «ألا تريد أن تجري مكالمة هاتفية؟» أومأ وبدأ بالارتجاف.

أخذناه إلى خارج الزنزانة حيث كان من الممكن إجراء مكالمة هاتفية، وناولته الهاتف كي يتصل بزوجته. بدأ بالبكاء عندما أجابت وسمع صوتها. أبلغها باختصارٍ شديد بأنه بخير، ثم سألها عن أحوالها وأحوال أولادهما. تكلّم الزوجان لمدة دقائق قليلة. أنهينا بعد ذلك المكالمة الهاتفية وما لبث حمدان أن سقط راكعاً على ركبتيه وسجد، ثم ركع مصلياً، وحمد اللّه على المكالمة الهاتفية. لم يتوقف الرجل عن البكاء.

أعدنا حمدان بعد ذلك إلى غرفة الاستجواب. لم يقل أحدٌ منا شيئاً فترة تقرب

من ربع ساعة. اكتفى حمدان بالنظر جانباً، وكان يرتجف بشكلٍ ملحوظ. لم أقل أي شيء لأنني لم أرغب أن يفكر بأننا نستغل عواطفه. سكبت له بعض الماء، وما لبث أن شربه.

قال أخيراً والدموع تملأ عينيه: «شكراً لك على المكالمة».

«الوعد هو الوعد».

سأل حمدان: «كيف حال أبي جندل؟»

قلت له: «إنه بخير، ومن المؤكد أنه ساعد نفسه بتعاونه معنا، وأنا متاكد من أنك تعرف ذلك».

«حسناً. سأعطيكم كل شيء تحتاجانه».

وفى حمدان بوعده وبدأ بالتعاون معنا بشكلٍ كامل. بدأنا بالكلام عن أيام طفولته في الذرابة، اليمن، حيث كان والده يمتلك متجر بقالة. مات والد حمدان عندما بلغ التاسعة عشرة. حاول حمدان إدارة المتجر بعد والده لكنه فشل في ذلك، وما لبثت والدته أن ماتت. انتقل حمدان إلى صنعاء، وهناك التقى مهنّد بن عطاش في أحد المساجد. أقنعه مهنّد بالذهاب إلى أفغانستان والالتحاق بما أصبح في ما بعد مجموعة الشمال. التقى أعضاء في مجموعة الشمال مع بن لادن، فما كان من زعيم القاعدة إلا أن قال لحمدان: «أنت من إقليم حضرموت في اليمن». تأثر حمدان، وما لبث أن قبِل عرضاً من بن لادن للعمل معه بصفة سائق.

ظل حمدان يقود شاحنة لمدة ستة أشهر، وكان ينقل فيها مواد بناء لتشييد معسكر جديد للقاعدة. قال لنا حمدان: «كان ذلك امتحاناً بالنسبة إليّ. أرادوا أن يعرفوا ما إذا كنت ملتزماً وأهلاً للثقة. عملت بجد فعيّنوني بعد ستة أشهر سائقاً في موكب بن لادن».

سألته: «ومن كان كبير السائقين؟»

«كان سيف العدل يقود سيارة بن لادن، أما في حال غيابه فكان مهند بن عطاش، أو شخصاً آخر أمضى وقتاً طويلاً مع بن لادن، يتولى القيادة. كنت أقود واحدة من السيارات الأخرى في الموكب». كان بن لادن يدفع له مبلغاً يتراوح ما بين مئتين وثلاثمئة دولار شهرياً بالإضافة إلى تغطيته لقيمة إيجار بيته.

«متى قدتَ سيارة بن لادن لأول مرة؟»

«كنت في الجبهة أقاتل ضد تحالف الشمال، لكنهم كانوا أقوى منا وكانوا يتجاوزون خطوطنا. هرع سيف العدل نحوي، وقال إنه لا يريد أن يأتي بن لادن إلى الجبهة بعد الآن، لأن ذلك كان في منتهى الخطورة بالنسبة إليه. قال سيف إنه يريد البقاء في المكان لمواصلة القتال، ولهذا يجب أن أقود سيارة بن لادن إلى منطقة آمنة، وهو ما فعلته».

«أي معركة كانت تلك؟»

لست متأكداً، لكنها المعركة التي قُتل فيها مهند بن عطاش، والمعركة التي خسر فيها خلاد إحدى ساقيه».

أخبرنا حمدان على مدى الأيام والأسابيع التالية كل شيء عرفه عن القاعدة. كنا نجلب له شطائر السمك من مطعم ماكدونالد، وهي الشطائر التي أحبّها كثيراً، كما جلبنا له مجلات السيارات والشاحنات، وكان يعطينا معلومات عن القاعدة. بدا لنا أن حمدان سوف يكون شاهداً عظيماً في محاكمات أعضاء القاعدة الآخرين. كان الرجل حاضراً في اللحظات الحاسمة التي مرت بها القاعدة في تاريخها، وكان يسمع في سياق عمله كسائق تفاصيل عديدة عن الخطط التي تحاك. رافق الرجل بن لادن، مثلاً، عندما أطلق زعيم القاعدة فتواه في العام ١٩٩٨، وكان موجوداً عندما عقد بن لادن مؤتمره الصحفي بعد أن أجرى مقابلة مع محطة آي. بي. سي. قال لنا حمدان: «كان ذلك عندما التقيت الظواهري للمرة الأولى».

«هل أُعجبت به؟»

«كان انطباعي الأول عنه إيجابياً، وهو كان ودوداً. لمست في وقت لاحق المشاكل التي أثارها المصريون الذين يديرون القاعدة».

أخبرَنا حمدان بأنه كان موجوداً في موقع الفاروق عندما تم إعلان اندماج القاعدة والجهاد الإسلامي المصرية بقيادة الظواهري في النهاية. كان حمدان حاضراً كذلك عند مناقشة المخططات المختلفة للقاعدة، كما أنه فصّل لنا ما عرفه عن واضعيها، كما روى لنا كيف أن «أبا عبد الرحمن المهاجر»، وهو كبير خبراء المتفجرات لدى القاعدة، شرح له بالضبط كيفية عمل الشاحنات المليئة بالمتفجرات التي فجرت السفارتين في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨.

كان حمدان موجوداً كذلك عندما ناقش أبو حفص المصري، وهو القائد العسكري للقاعدة، وبن لادن عملية إنتاج شريط الفيديو عن هجوم يو. أس. س كول. أبلغ النشيري بذاته حمدان أثناء حديث شخصي جرى بينهما بأنه هو كان العقل المدبر لذلك الهجوم. تحدثنا كذلك عن هيكلية القاعدة، والعملية التي تتبعها القيادة في اختيار الأشخاص المناسبين لمختلف المهمات. قال لي حمدان مستنتجاً إن أبا محمد المصري، أمير معسكر الفاروق، هو الذي كان «يحدد في أغلب الأحيان المهاجمين الانتحاريين المحتملين».

تحدّث حمدان كذلك عن الطريقة التي اتبعها بن لادن لتحفيز أتباعه وإقناعهم بالمشاركة في عمليات القاعدة. «تملّكنا حماس لا حدود له بعد الهجمات على السفارتين في شرق أفريقيا، والهجوم على المدمرة كول. كنا جميعاً فخورين بما فعلناه».

«ألم تفكروا بالأشخاص الأبرياء الذين قُتلوا؟»

«يتعيّن عليك أن تفهم بأنه عندما يكون المرء في أوساط القاعدة فسوف يصعب عليه التفكير بصفاء أو بموضوعية. كان بن لادن يشجعنا على الدوام، ولهذا اعتقدنا أن أحداً لا يستطيع مواجهتنا. كان من الصعب أن يعزل المرء نفسه عن محيطه.

لم تكن هناك وسائل إعلام، ولا صحف، أي لم يكن هناك غير ما ينشره بن لادن والقاعدة. وعندما يصبح المرء جزءاً من تلك البيئة وفي داخلها فسوف يكون من الصعب عليه التفكير في ما يحدث خارجها. إذا اعتقد المرء أن بيليه هو أفضل لاعب كرة قدم في كل الأزمان، فسوف يصعب على أي شخص أن يقنعه بوجود أي لاعبٍ أفضل منه. لكن من المؤكد أنه يوجد لاعبون أفضل منه، إلا أنه يظل الأفضل في نظره. يرى المرء في هذه الحالة أفضل ما لعبه من جولات، وإذا خاض لعبة غير موفقة فسوف يعمد إلى تجاهلها. كان بن لادن هكذا بالنسبة إليّ. تحدث كل هذه الأشياء من حولنا ونحن نكتفي بمسايرتها».

سبق لي أن لاحظت الأمر مع عددٍ من نشطاء مختلف المنظمات الإرهابية: يصعب عليك اختراقهم عندما يكونون ناشطين في منظماتهم. إنهم يكونون منشغلين بالتخطيط لهجمات والاختباء عن أعين السلطات. لكن الوقت المناسب الذي يسمح بتحويل الإرهابيين يكون إما أثناء فترة التجنيد، أو عندما يُقبض عليهم ويُدخلون إلى السجون.

سألته: «إذاً، ما الذي تغيّر الآن؟ لماذا تغيّر شعورك تجاه بن لادن؟»

«فتحت فترة اعتقالي عينيّ على أمورٍ كثيرة. رأيت تقنيات الأميركيين، وصُدمت حتى عندما رأيتُ العربات العسكرية أثناء تحرّكها. لم أكن أعتقد أن عربات وسيارات كهذه يُمكن أن توجد على هذه الأرض. أفكر الآن في ما مضى من حياتي وأتأسف على أمورٍ كثيرة. لكن كان من الصعب عليّ إدراك الأمور بوضوح».

بدأت بالعمل مع دافيد كيلي، وهو من المقاطعة الجنوبية لنيويورك، والذي سبق لي أن عملت معه أثناء التحقيقات في الهجوم على المدمرة كول وفي قضايا أخرى، وذلك بهدف وضع اتفاقية يعترف فيها بأنه مذنب، ويكون شاهد إثبات ضد أعضاء القاعدة الآخرين، ولا سيّما أولئك المتورطين في مؤامرة الهجوم على كول. كنت أشاهد محطة سي. أن. أن ذات صباح وأنا أرتدي ثيابي تمهيداً لذهابي إلى المكتب.

سمعت من المحطة بأن الرئيس بوش أعلن حمدان «مقاتلاً عدواً». اتصلت بكيلي على الفور، وسألته ما إذا كان شاهد الأخبار.

قال بأسى: «أجل».

«لكن ماذا يعني ذلك؟»

«لا أعرف، لكننا سوف نعرف بعد وقتٍ قريب. لا أعتقد أن الأمر يبشّر بالخير».

كان ذلك الإعلان يعني أنه لم يعد بإمكاننا الوصول إلى حمدان لطرح الأسئلة عليه والتي تتعلق بالمعتقلين الآخرين، وأنه لم يعد بإمكاننا استخدامه كشاهدٍ في المحاكمات الأخرى. لكنه خُصّص بدلاً من ذلك محامون ساعدوه على إطلاق تحدٍ قانوني مطول (وناجح) ضد النظام القانوني الذي يفرضه الجيش، والذي أقامته إدارة بوش في غيتمو، وهو الأمر الذي دفع بالإدارة في النهاية إلى وضع نظامٍ جديد.

أما أكثر الأمور مدعاة للدهشة بالنسبة إلى الموظفين في المقاطعة الجنوبية لمكتب التحقيقات في توصيف «المقاتل العدو» فهو أن إدارة بوش قد أعلنته من دون أن تستشير الوكالات المعنية التي تعمل على قضية حمدان، أو المدّعين الذي يتحضرون لمحاكمته. كانت تلك خطوة أعاقت كثيراً الجهود التي نبذلها ضد القاعدة، وعلى الأخص في غيتمو.

كانت رؤيتي لحمدان في الجلسة التي شهدت فيها بوصفي شاهد الادعاء، هي المرة الأولى التي أراه فيها بعد إعلانه مقاتلاً عدواً. وضع حمدان يده فوق صدره عندما لمحني عبر قاعة المحكمة وأومأ نحوي، وهي إشارة تدل على الاحترام. حُكم على حمدان في النهاية بالسجن لمدة خمس سنوات ونصف، وهي مدة استُنفدت بشكلٍ كبير بالنظر إلى المدة التي قضاها في غيتمو. أطلق سراحه بعد أشهرٍ قليلة، وما لبث أن عاد إلى اليمن في ٨ كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٨.

انتقد محامي الدفاع خلال المحاكمة الحكومة لرفضها اتفاق الاعتراف الذي كان حمدان بموجبه سيخدم كشاهد متعاون (وكان سيُحكم عليه بالسجن لفترة

أطول، كما تبيّن لاحقاً). «إننا نأمل أن يكون الشعب الأميركي على علم ذات يوم بهذه الفرصة الضائعة». كانت تلك إحدى المناسبات النادرة التي يوافق فيها شاهد الادعاء على ما يقوله محامي الدفاع.

تبيّن في شهر تموز/يوليو من العام ٢٠٠٢، وخلال تدقيق روتيني في بصمات مجموعة من الموقوفين في غيتمو أن الموقوف رقم ٦٣ قد أعطى اسماً مزيفاً، وهو الذي ظل مصراً حتى ذلك الوقت على أنه لا يعرف شيئاً عن القاعدة، وأنه ذهب إلى أفغانستان لممارسة هوايته وهي الصيد عن طريق الصقور. كان الرجل في واقع الأمر محمد القحطاني، وهو الذي سبق أن أقسم قائلاً «سوف أعود» بعد رفض السلطات السماح له بدخول الولايات المتحدة في شهر آب/أغسطس من العام ٢٠٠٤ في مطار أورلاندو. هبطت طائرة القحطاني في فلوريدا وهو الذي يكاد لا يعرف شيئاً من اللغة الإنجليزية، وكان يحمل تذكرة ذهابٍ فقط، ومبلغ ٢,٨٠٠ دولار نقداً. أجاب القحطاني عندما طُرح عليه سؤال عن الرجل الذي ينتظره، فقال إن شخصاً ما ينتظره في «الطابق الأعلى»، لكن عند سؤاله عن اسم الرجل غيّر روايته وقال إن ما من شخصٍ ينتظره.

عاد الرجل إلى البلاد الآن، لكنه لم يفعل ذلك بالطريقة التي توقعها. أظهر ملّفه أنه أُلقي القبض عليه قرب منطقة تورا بورا من أفغانستان، وذلك على يد القوات الباكستانية في يوم ١٥ كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠١، ونُقل إلى خليج غوانتانامو في يوم ١٣ شباط/فبراير من العام ٢٠٠٢. أُلقي القبض على القحطاني من ضمن مجموعة اشتملت على أبي عاصم القوصيّ، وهي المجموعة التي لقّبها المحققون باسم «الثلاثين القذرين» نظراً لقصصهم الزائفة، وروابطهم الوثيقة بقيادة القاعدة.

لكن بالنظر إلى هذه المعلومات الأولية، وقرب محاولة دخول القحطاني من أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، فقد بدأنا بالبحث عن العلاقة التي تربطه بالخاطفين. اكتشفنا أن بطاقة الهبوط التي ملأها تحمل رقماً هاتفياً يعود إلى مصطفى

الهوساوي، وهو المساعد الإداري لخالد الشيخ محمد في هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وضع بعض الخاطفين كذلك رقم هاتف الهوساوي في بطاقة هبوطهم. اكتشفنا بعد ذلك أنه في اليوم الذي حاول فيه القحطاني دخول الولايات المتحدة أجريت سلسلة من المكالمات الهاتفية ما بين الساعة ٤:٣٠ و٨:٣٠ مساءً وذلك من هاتف عمومي في المطار المتصلة برقم الهوساوي.أجريت المكالمات باستخدام بطاقة اتصال اشتُرِيت عن طريق بطاقة ائتمان كبير الخاطفين محمد عطا. أظهر شريط فيديو المراقبة في المطار أنه عند نحو الساعة ٤:١٨ مساءً دخلت سيارة كان محمد عطا قد استأجرها إلى مرأب المطار، لكنها غادرت عند الساعة ٩:٠٤.

بدا من غرائب الصدف أن يكون عطا، أو شخصٌ آخر استخدم بطاقته، جاء إلى المطار ذاته ليجري مكالمة قبل وصول القحطاني بساعات قليلة. طلبت من أحد زملائي التحقق مما إذا كانت رحلة فيرجين آتلانتيك قد تأخرت، وتبيّن أن ذلك هو ما حدث بالفعل. كان هبوط الطائرة مقرراً عند الساعة ٤:٤٠ مساء لكنها لم تهبط في المدرج إلا بعد مرور ساعاتٍ عدة. يُعتقد أن عطا (أو أحد المتآمرين معه) قد اتصل لمحاولة معرفة مكان القحطاني وما الذي حدث للرحلة.

تشير الأدلة إلى أن القحطاني هو الخاطف الخامس المفقود في رحلة يونايتد آيرلاينز ذات الرقم ٩٣. أما الطائرات الثلاث الأخرى فقد كان على متن كل واحدة منها خمسة خاطفين، بينما كان أربعة خاطفين على متن الرحلة ٩٣. كان هو، وليس زكريا الموسوي، كما ادّعى المدعي العام جون آشكروفت، الخاطف العشرين المفقود.

حملنا هذه المعلومات إلى الجنرال دونلافي، وأوضحنا له علاقة القحطاني بالحادي عشر من أيلول/سبتمبر. أوصى فريقنا، وبمساعدة خبراء سلوكيين بنقله من بين عموم نزلاء غيتمو ووضعه داخل سجن عسكري، أي كما سبق لنا أن فعلنا مع أبي عاصم. كانت الغاية من ذلك الإجراء هي الإيحاء له بأن سرّه قد انكشف وعزله عن قاعدة دعمه. قلقنا كذلك من احتمال اكتشاف الموقوفين الآخرين أننا نعرف

أنه الخاطف العشرون، واحتمال أن يحاولوا قتله لمنعه من إعطائنا المعلومات عن المؤامرة. نُقل الرجل إلى سجن عسكري وحصلت على إذن لرؤيته.

سألني القحطاني بعد أن بدا توتره الواضح بسبب نقله إلى سجن عسكري: «لماذا نُقلت إلى هنا؟»

قلت له: «إننا نعرف من أنت، كما انكشف سرك. نعرف أنك حاولت دخول الولايات المتحدة في شهر آب/أغسطس. حان الوقت بالنسبة إليك لقول الحقيقة».

ردّ بغضب: «لا أعرف عما تتحدث».

تفحصته دقائق قليلة بينما تركته كي يستوعب كلماتي. كان الرجل قصيراً ونحيلاً، وكانت عيناه شاردتين، وكأنه ليس موجوداً في المكان الذي هو فيه. كان يرتجف وبدا خائفاً. لم يكن من أحد غيرنا في غرفة الاستجواب، وذلك بالرغم من أن عملاءنا كانوا يراقبون في غرفة أخرى ما يجري من خلال كاميرا فيديو.

قلت: «حسناً. دعنا نتفحص روايتك إذاً. لماذا كنتَ في أفغانستان؟»

«ذهبت إلى هناك لأنني أحب الصقور، وأفغانستان بلدٌ عظيم بالنسبة إلى الصيد بالصقور».

"كم من مرة توجهت فيها إلى أميركا؟»

«لم أدخل أميركا أبداً».

«لدينا تفاصيل عن محاولتك دخول البلاد في شهر آب/أغسطس».

تمتم القحطاني: «أوه، كانت تلك المرة الوحيدة».

«ولماذا كنتَ تحاول الدخول؟»

"أردت شراء سيارات».

«ومِن أين؟»

«لا أعرف».

توضح لدينا سريعاً أن القحطاني لا يمتلك خطة تمويه معدة جيداً. كان كل ما قاله هو أنه توجه إلى أفغانستان للصيد بالصقور، وأنه توجه إلى الولايات المتحدة لشراء السيارات. كان ردّه الوحيد حول مسألة ذهابه إلى الولايات المتحدة هو «لا أعرف». وعندما تناقشنا في مسائل لا تتعلق بالإرهاب لاحظت أنه ليس في غاية الذكاء. استنتجت أن دوره المفترض في أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر هو أن يكون الخاطف العضلي في أحسن الأحوال [الذي يستخدم قوته الجسدية].

قلت له: «سنتوقف الآن، لكن عليك أن تدرك أننا نعرف مَن تكون. يمكنك أن تطلق كل الألاعيب التي تريدها، لكنك في النهاية سوف تدرك أن من مصلحتك أن تتكلم معي».

عمدت قبل بدء مقابلتي معه في اليوم التالي إلى وضع صور أعضاء القاعدة على الجدار، وهم صور الأعضاء الذين كنت واثقاً من أنه سيتعرف إليهم، بمن فيهم خالد الشيخ محمد، ومحمد عطا، ورمزي بن الشيبة، ومصطفى الهوساوي. كان هؤلاء جميعاً من المخططين الأساسيين لهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. قمنا بإجراء تعديلات طفيفة في الصور ما عدا صورة محمد عطا، وذلك بحيث يظهرون وكأنهم يرتدون أثواباً من قطعة واحدة برتقالية اللون، وذلك علامة على أنهم في قبضتنا.

سألته وأنا أشير إلى الصور أثناء دخوله إلى الغرفة: «أتعرف هؤلاء الأشخاص؟ سقط كل أصدقائك في قبضتنا، وهذا سبب معرفتنا كل شيء عنك». جمُد لحظةً في مكانه واحمرّ وجهه، لكنه ما لبث أن هزّ رأسه وقال: «لا أعرف أي شيء».

قلت له: «أنا مضطر للخروج الآن. لكنني سأعود سريعاً».

غادرت الغرفة وتوجهت إلى الغرفة حيث كان آخرون يشاهدون الاستجواب عن طريق رابط فيديو. شاهدنا القحطاني وهو يغادر سريره، ويقترب من الجدار ببطء

حيث الصور التي وضعنا شريطاً لاصقاً من فوقها. حدّق بالصور دقائق قليلة ثم لمسها بلطف، وكأنه يحاول الاتصال بأصحابها الموقوفين.

عدت إلى الغرفة فوجدت القحطاني وهو يرتجف. سألته: «هل أنت بخير؟»

قال لي: «إنني أنفذ إضراباً عن الطعام». نفّذ عدد من الموقوفين عندما كان بينهم إضراباً عن الطعام، وذلك للاحتجاج على ظروف السجن. اعتقد القحطاني أن هذا الإضراب سينجيه من التعاون معنا.

قلت له: «يبدو أنك سخيف. يمكنك أن تلجأ إلى هذه اللعبة إذا أردت، أما نحن فسوف ننتظر انتهاء هذا الإضراب، لكن من الأفضل لك أن تبدأ بقول الصدق، وتتوقف عن تضييع وقتنا ووقتك كذلك». ضمّ يديه ورفض أن يقول أي شيء، وهكذا أُعيد إلى زنزانته.

خرجت وأحضرت له أطباق الحمص، والتبولة، والكباب وبعض الأرغفة. قلت له: «هاك بعض الطعام لك. يمكنك أن تأكل إذا أردت». وضعت الأطباق أمامه وغادرت الزنزانة. راقبته من غرفة كاميرات الفيديو. شاهدته وهو ينهض مسرعاً، ويبدأ بتناول الطعام. كان ذلك نهاية إضرابه عن الطعام.

إن البرهنة أمام الموقوف بأنني أعرف كل شيء عنه، وأن أي إنكارٍ إضافي هو مجرد مضيعة للوقت، كانت عملية ناجحة إذا أنكر الموقوف دوره، أو رفض التعاون. كان تحطيم مقاومة أعضاء القاعدة أمراً يستغرق وقتاً، وذلك لأنه عندما لا يثنينا صمتهم كانوا يتكلمون وينكرون قيامهم بأي شيء خاطئ، وذلك على أمل البرهنة على «براءتهم» بتلك الطريقة. كنا نبدأ باستجوابهم حول التفاصيل الصغيرة: لماذا ذهبوا إلى أفغانستان؟ وكيف سافروا إلى هناك؟ ومَن نظّم رحلتهم؟ ومَن أقنعهم بالذهاب؟ وكيف تم تمويل الرحلة؟ وكيف حصلوا على المال؟ ومَن أمّن كفالتهم؟ ومن استقبلهم في المطار؟ وكيف دخلوا إلى أفغانستان؟ وأين مكثوا في أفغانستان؟ ومَن التقوا هناك؟

اعتبر الموقوفون أن هذه أسئلة لا تتعلق بالإرهاب مباشرة كما ستساعدهم في

رواياتهم الزائفة، لكن إجاباتهم كانت تنتهي بإيقاعهم في الكذب، وكانت تضطرهم إلى إعادة النظر بقصتهم بحيث تتلاءم أكثر مع الحقيقة. كنا نمتنع والحالة هذه عن طرح سؤالٍ مثل: «هل التقيت بن لادن؟» لكننا كنا، بدلاً من ذلك، نستخرج منهم التفاصيل. كنا نسألهم: «مَن كان أول مَن التقيتم في أفغانستان؟ وكيف وصلتم من المطار؟ ومَن كان السائق؟ وأي طريق سلكتم؟ ومَن كان في مركز الضيافة؟ وإلى من سلّمتم جوازات سفركم؟ ومَن كان أمير مركز الضيافة؟ وماذا كان موضوع حديثكم؟ وإلى أين توجهتم بعد ذلك؟ لكن عندما كانوا يُسألون عن تفاصيل محددة كان من الصعب على أي واحدٍ منهم الحفاظ على قصصهم الزائفة.

ما إن يسمّي الموقوف الأمير، أو الشخص الذي درّبه حتى نبدأ بسماع الأسماء التي كنا نعرفها من الاستجوابات والتحقيقات السابقة، وهو الأمر الذي كان يعطينا فكرة عن موقع الموقوف في هيكلية القاعدة. أما إذا قال الموقوف إن أميره كان أبا مصعب اليمني، وهو الذي كان أحد المدربين النظاميين في معسكرات القاعدة فكان ذلك يعني أن المتدرب قد تلقى التدريب الأساسي فقط. أما إذا ذُكر اسم سيف العدل فإن معنى ذلك أن المتدرب قد يُستخدم في عملية خاصة.

كانت هذه العملية تستغرق ساعة أو أسبوعاً، وذلك لأن كل موقوفٍ يختلف عن الآخر. كانوا يبدأون في النهاية في إبلاغنا بما حدث فعلاً. لكن إذا أراد المستجوِب الوصول إلى تلك المرحلة فسوف يحتاج إلى أن يكون خبيراً بالموضوع، وكذلك يتعيّن عليه أن يُظهر أن ما يتحدث عنه الموقوفون ليس غريباً بالنسبة إليه. لا يجوز للمستجوِب التوقف ليطلب من الموقوف تهجئة أسماء الأشخاص، أو الأماكن لأن من شأن ذلك أن يعني عدم إمكانية كشف الأكاذيب.

وصلت إلى مرحلة الأحاديث العادية مع القحطاني، وبدأت بتطوير العلاقة معه. وصل الأمر إلى حد تأديتنا للصلاة معاً. اضطررت بعد ذلك إلى مغادرة غيتمو في مهمة أخرى اعتُبرت ذات أولوية، وهكذا أعدتُ قضيته إلى العملاء الذين بدأوا باستجوابه.

تدلني خبرتي على أن الأشخاص من أمثال القحطاني سيقدرون فقط على إبلاغنا بأدوارهم المحددة في مؤامرةٍ ما: أي كيفية تجنيدهم وتدريبهم والأشخاص الذين تفاعلوا معهم. كانت كل هذه الأمور بمثابة معلومات مفيدة في إدانة القحطاني، وإعطائنا معلومات عن المؤامرة بحد ذاتها، لكن كان من المستبعد أن تعطينا معلوماتٍ كثيرة عن المؤامرات الأخرى.

وعندما ألقي القبض على خالد الشيخ محمد في وقتٍ لاحق أبلغ المستجوِبين بأن القحطاني كان «بدوياً بسيطاً»، وسخر منه لعدم قدرته على تعلم عبارات إنجليزية، أو استخدام البريد الإلكتروني. حاولت القاعدة كذلك إلحاق القحطاني بدورةٍ تدريبية خاصة في معسكر البنشيري، وهو المعسكر الذي سمي تيّمناً بأحد قادة القاعدة العسكريين وعضو مجلس الشورى فيها، والذي غرق في حادث انقلاب العبارة في بحيرة فكتوريا، لكن القحطاني فشل في تلك الدورة.

عمل عملاء آخرون بعد مغادرتي مع القحطاني وتابعوا تسجيل تقدّم معه. لكن المستجوبين العسكريين الذين استندوا إلى موظفين معيّنين سياسياً في واشنطن، أرادوا الحصول على معلومات استخبارية مثيرة من القحطاني. لم يتمكن هؤلاء من إدراك أن شخصاً مثل القحطاني لا يمتلك تلك المعلومات. جادل المستجوبون العسكريون بأن مكتب التحقيقات لم ينجح معه وأن تقنيات استجواب أقسى كانت ضرورية. إذا لم يعرف المرء ما يجب على الموقوف أن يعرفه – وبالتأكيد فإن الموظفين المعيّنين سياسياً لا يعرفون – فلا توجد طريقة لمعرفة ما هو النجاح وما هو الفشل.

كان أفراد مكتب التحقيقات الاتحادي وفريق التحقيقات الجنائية CITF يعانون من مشكلات مع قيادات من الجيش ، لكن من الصحيح كذلك القول إن احتكاكاتٍ كانت تحصل داخل جناحين من العسكريين – أي بين JTF ١٧٠ بقيادة الجنرال دونلافي، وJTF ١٦٠ بقيادة الجنرال باكوس. كان فصل المسؤولية ما بين الاستجوابات وبين إدارة القاعدة قد أثار إحباط الموظفين غير العسكريين في غيتمو، وذلك بسبب افتقاد الهيكلية المتناسقة التي تجعل من الصعب اتخاذ القرارات. شعر

الجنرال دونلافي أن الجنرال باكوس كان في غاية الليونة مع المعتقلين، كما أنه طلب في إحدى المراحل من NCIS التحقيق معه بتهمة «التعامل مع العدو». كان الجنرال باكوس في حقيقة الأمر يعامل الموقوفين بحسب ما تتطلبه القوانين والقواعد العسكرية. شعرت بالإحباط نظراً لافتقاد التنظيم في القاعدة وطريقة التعامل مع الموقوفين، إلا أنه لم تحدث أي مشاكل بيني وبين الجنرال دونلافي، ولاحظت أنه يتقبل دائماً أي اقتراحات تُطرح عليه.

وصلت الشكاوى المتعلقة بصعوبة التوافق بين الهيئتين العسكريتين إلى كبار قادة الجيش الأميركي. أُعفي الجنرال باكوس من مسؤوليته في JTF ١٦٠ في ٩ تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٢، كما تم دمج JTF ١٦٠ وJTF ١٧٠. شعرت قيادة الجيش بوجوب أن يتولى شخصٌ آخر القيادتين. عيّنت القيادة اللواء جيوفري ميلر ليكون مسؤولاً عن إدارة القاعدة في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٢، لكن لم تمضِ أيام قليلة حتى غادر الجنرال دونلافي.

كان اختيار الجنرال ميلر لقيادة عملية كان تركيزها الأساس على استجواب المعتقلين وتصنيفهم اختياراً غريباً. كان اختصاص الجنرال الأساسي في حقل المدفعية، وكان يفتقد إلى أي خبرة في الاستجوابات أو الاستخبارات. لم يحضر الجنرال أي جلسة استجواب كما اعترف علناً. برز هذا الافتقاد للخبرة عندما أمر بأن تُدار الاستجوابات مثل العمليات العسكرية: كان من المفترض تعيين وقت محدد للبدء في الاستجواب وإنهائه، كما أمر بإجراء عددٍ محدد من الاستجوابات كل يوم.

حاول فريق التحقيقات الجنائية أن يشرح له أن الاستجوابات لا تنجح بهذه الطريقة، وذلك لأن كل موقوفٍ يختلف عن الآخر، ويعرف أشياء تختلف عما يعرفه الموقوف الآخر، كما أنه يمتلك حوافز مختلفة تدفعه للتعاون. أما تحديد مواعيد ثابتة لإنهاء جلسات الاستجواب فهو أمر يقع في صالح الموقوف، وذلك لأنه يعرف أنه يحتاج إلى حجب معلوماته لفترةٍ محددة من الوقت حيث تنتهي بعدها جلسة الاستجواب.

علمت بعد مضي سنوات أن الميل إلى تطبيق تقنيات استجواباتٍ قاسية في غيتمو قد بدأت قبل وقتٍ طويل من الزعم بأن القحطاني لا يتعاون مع التحقيق. أورد تحقيق تقرير لجنة الهيئات المسلحة في مجلس الشيوخ حول معاملة الموقوفين في المعتقلات الأميركية- وهو التحقيق الذي صدر في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٨، ونُزعت السرية عنه في شهر نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٩ - أنه بتاريخ يعود إلى شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠١، أي قبل سبعة أشهر من تعرفنا إلى القحطاني ونقله من مجمع المعتقلين في غيتمو، طلب مكتب المستشار العام لوزارة الدفاع برئاسة وليام جايمس هاينز الثاني، المساعدة في «استغلال» المعتقلين من مدرّبي Survival Evasion Resistance and Escape SERE(*) العسكريّين والتابعين لوكالة Joint Personnel Recovery Agency JPRA. كان هاينز صديقاً مقرباً من دافيد أدينغتون، وهو مستشار ديك تشيني، نائب الرئيس، كما كان إشبينه في يوم زفافه.

تأسست SERE لتعليم الأفراد العسكريين الأميركيين كيفية تحمّل أساليب الاستجواب التي تُعتبر غير مشروعة بموجب اتفاقيات جنيف. تستند هذه الاستراتيجيات جزئياً إلى الطرق التي استخدمها الشيوعيون الصينيون خلال الحرب الكورية بهدف كسب اعترافاتٍ زائفة. يورد تقرير مجلس الشيوخ أن نائب قائد القوات المشتركة JFCOM، والقيادة العليا للوكالة المشتركة لاستعادة الأفراد JPRA، قال «تكمن خبرة JPRA في تدريب الأفراد على كيفية الاستجابة للاستجوابات ومقاومتها - وليس في كيفية إجراء هذه الاستجوابات».

لم تكن أقوال تقرير مجلس الشيوخ متوفرة في ١٦ أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٢، أي عندما توجهت مجموعة من المستجوِبين العسكريين وعلماء السلوكيات العاملين في غيتمو إلى JPRA، الواقعة في فورت بيلفوار، فرجينيا لتلقي التدريب في SERE والذي أتى بعد تلقي مساعدة في وقتٍ أبكر. أما في ٢٥ أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٢

(*) برنامج خاص يزود العسكريين الأميركيين وموظفي وزارة الدفاع الأميركية المدنيين والشركات العسكرية الخاصة بمهارات النجاة من أخطار الحروب أو غيرها والفرار من الأسر وبمجموعة القوانين العسكرية.

فقد سافر وفدٌ يضم كبار محامي إدارة بوش بمن فيهم جيم هاينز ودافيد أدنغتون، وكذلك جون ريزو ومايكل شيرتوف الذي كان يعمل حينها مع القسم الجنائي في وزارة الدفاع (والذي أصبح بعد ذلك مدير الأمن الداخلي)، لإجراء مناقشاتٍ حول كيفية إجراء الاستجوابات.

وفي ٢ تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٢ اجتمع كبير مستشاري مركز مكافحة الإرهاب مع الأفراد العاملين في غيتمو. أورد تقرير لجنة الهيئات العسكرية في مجلس الشيوخ ما يلي: «تشير تفاصيل ذلك الاجتماع إلى أنه كان مفعماً بالمناقشات حول أساليب الاستجواب التعسفية بما في ذلك الحرمان من النوم، والتهديد بالقتل، والتهديد بالإغراق والاختناق waterboarding، وهي كلها أمور نوقشت في سياق استخدامها في تدريب SERE».

كان المتعاقدون مع وكالة الاستخبارات المركزية المولجون باستجواب أبي زبيدة يطبقون الأساليب التعسفية التي [redacted] اعترضت عليها، والتي أمر روبرت مويلر العملاء العاملين لديه بعدم تطبيقه، وذلك في حين كان كبير مستشاري مكافحة الإرهاب يقدم تقريره. لكن عندما حاول مارك فالون وأعضاء آخرون من فريق التحقيقات الجنائية CITF، ومكتب التحقيقات الاتحادي، الحصول على تفاصيل اجتماعات ٢٥ أيلول/سبتمبر و٢ تشرين الأول/أكتوبر، للاستفادة منها في جدالهم ضد أساليب الاستجواب التعسفية، قوبل طلبهم هذا بالرفض. بدا لأعضاء CITF أن القرار قد اتُّخذ لتطبيق الأساليب التعسفية، وأن وفد إدارة بوش لا يريد سماع الآراء المغايرة. كان من المستغرب أن يقوم المحامون بإعطاء الأوامر حول الكيفية التي يجب أن تُدار بها الاستجوابات بينما لم يُسمح للمختصين من ذوي الخبرة بعرض آرائهم.

أرسل الجنرال دونلافي بعد هذه الاجتماعات، وفي ١١ تشرين الأول/أكتوبر، مذكرة إلى رئيسه العسكري، الجنرال جايمس هيل، يطلب فيها الموافقة على أساليب الاستجواب التعسفية. شملت هذه الأساليب ثلاث فئات متدرجة القساوة. تضمنت الفئة الأولى الصراخ في وجه الموقوف، والسماح للمستجوِب بالادعاء بأنه مواطن في

بلدٍ أجنبي معروفٍ بمعاملته القاسية للموقوفين. اشتملت الفئة الثانية على استخدام الأوضاع التي تسبب الإجهاد، والعزل، والاستجواب التي تستمر لفترة أربع وعشرين ساعة، وتجريد الموقوف من ثيابه، واستخدام التخويف (مثل الخوف من الكلاب) من أجل إنهاك الموقوف. أما الفئة الثالثة فقد تضمنت أساليب إيهام الموقوف بأن أذى داهماً على وشك الحدوث له ولأسرته، واستخدام الماء لتكوين «مفهوم خاطئ» بالاختناق عنده. لقيت تلك الأساليب دعماً في مذكرة قانونية وجهها العقيد المساعد (في ذلك الوقت) ديان بيفر، وهو كبير المحامين في غوانتانامو. مرّ ذلك الطلب من خلال مكتب الجنرال هيل صعوداً في سلسلة القيادة حتى انتهى على طاولة جيم هاينز، وذلك تمهيداً للتوصية به لدى دونالد رمسفيلد الذي كان وزيراً للدفاع في ذلك الوقت.

كان النظام القانوني في الجيش يقضي بالسماح للمحامين من كل الهيئات بتقديم آرائهم، لكن السلطة القانونية النهائية كانت بيد المستشار العام الذي يعمل لدى وزير الدفاع. يقضي النظام كذلك بأن يورد تقرير مجلس الشيوخ تفاصيل عن مختلف الاعتراضات التي تمتلكها مختلف الهيئات على الأساليب [تقنيات الاستجواب] القاسية. أما سلاح البحرية، على سبيل المثال، فقد صرّح بأن تقنياتٍ عدة «يشكّ بأنها تخرق القانون الاتحادي، كما أنها تعرّض جنودنا إلى ملاحقة قضائية محتملة»، ودعا إلى «مراجعة القوانين والسياسات».

تجاهل هاينز كل التحذيرات، وبعث بمذكرة من صفحة واحدة إلى الوزير رمسفيلد في ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر، وذلك بحسب تقرير مجلس الشيوخ الذي «يوصي بأن يوافق على جميع التقنيات الثماني عشرة ما عدا ثلاثة منها، وهي الواردة في طلب GTMO(*)... أشارت مذكرة السيد هاينز إلى أنه ناقش الموضوع مع نائب وزير الدفاع بول ولفوويتز، وهو وكيل وزارة الدفاع لسياسة دوغ فايث Policy Doug Feith، والجنرال مايرز وأوردت أنه يعتقد أن الجميع يتوافقون على هذه التوصية».

(*) غوانتانامو.

وقّع الوزير رمسفيلد في ٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢ تلك التوصية، كما أضاف ملاحظة كتبها بخط اليد في أسفل الصفحة، وهي تتعلق بحدود استخدام أوضاع الإجهاد: «إنني أقف لفترة تتراوح ما بين ٨ و١٠ ساعات يومياً. إذاً لماذا نضع حدود الوقوف لمدة ٤ ساعات فقط؟»

صادق الوزير رمسفيلد رسمياً فقط على أساليب [تقنيات] ٢ كانون الأول/ديسمبر، إلا أن بعض هذه الأساليب قد طبقت بالفعل في أوائل شهر تشرين الأول/أكتوبر، أي بعد مغادرة محامي إدارة بوش والمستشار العام لمركز مكافحة الإرهاب التابع لوكالة الاستخبارات المركزية للقاعدة. استُخدمت الكلاب لتخويف القحطاني كما أُجبر على اتخاذ أوضاع منهكة. استُخدمت ضده في وقت لاحق مجموعة من التقنيات أكثر تعسفاً وذلك خلال فترة ثلاثة أشهر. تضمنت هذه الأساليب، وبحسب تقرير لجنة مجلس الشيوخ، إجباره على نزع ملابسه و«إعطاءه سوطاً والقيام بألاعيب تتعلق بالكلاب».

وعندما عرض أعضاء في قيادة غيتمو العسكرية خطة الاستجواب المقترحة المتعلقة بالقحطاني على مارك فالون، قال إنها «غير قانونية»، وإنه سوف يوصي بأن يُمنع أعضاء لجنة التحقيقات الجنائية CITF من الاشتراك في الاستجوابات.

جاء الرد: «لا يمكن أن تكون غير قانونية، لأن وزير الدفاع صادق عليها».

«وزير الدفاع لا يمتلك القدرة على تغيير القانون، كما لا يمكنه تحديد ما هو قانوني وما هو غير قانوني».

عارض رئيس فالون، بريتاين مالو، وجهة نظره هذه في البداية: كان يعارض تلك التقنيات كلياً، لكنه اعتبر أن عملاء فريق التحقيقات الجنائية CITF يمكنهم الحضور بصفة مراقبين وتخفيف كل الإجراءات التي يقوم بها المستجوبون العسكريون. جاء رد فالون في غاية الصراحة: «سيكون العملاء في وضع سيّئ. إما أنهم سيراقبون كيفية خرق القانون، وإما أنهم قد يحاولون اعتقال المستجوبين العسكريين بصفتهم أقسموا اليمين على تطبيق القوانين. لا يمكن للمرء أن يتوقع أي خير من كل هذا».

كان مارك فالون من سكان نيوجيرسي ومتحدراً من أسرة ضمّت عدداً من مسؤولي تطبيق القوانين، وما لبث أن احتل منصباً سبق له أن حذّر مرؤوسيه منه خلال فترة تدريبهم. قال لهم: «حتى ولو أعطيتكم أمراً غير قانوني، فإنني أريد منكم أن تقسموا لي بأنكم لن تنفذوه. إنكم محكومون بالدستور. تذكروا كذلك بأننا في نورمبيرغ قمنا بمحاكمة النازيين الذين زعموا أنهم كانوا ينفذون الأوامر فقط. تذكروا كذلك أنه في الولايات المتحدة لا توجد أسرار، لكن الكشف عنها يتأخر فقط. سينظر الناس يوماً، سواء بعد سنة، أو بعد عشر سنين، إلى ما فعلتم، لذلك تأكدوا من أنكم تتصرفون بنزاهة مطلقة». أبلغ مالو بأنه سوف يستقيل من فريق التحقيقات الجنائية CITF، ومن الحكومة إذا كان ذلك ضرورياً، هذا إذا ما سمح مالو لعملاء فريق التحقيقات الجنائية بحضور الاستجوابات التعسفية. رأى مالو أن ما يقوله فالون هو صواب فأمر أفراد فريق التحقيقات الجنائية بعدم المشاركة في أي استجواب تُستخدم فيه التقنيات التعسفية. أثار ذلك غضب الجنرال ميلر الذي سرعان ما أنّب قادة فريق التحقيقات الجنائية بالقول: «إما أن تكونوا معنا أو تكونوا ضدنا ويُستبعَد رجالكم».

عارض مايك جيلز، وهو كبير المحللين النفسيين في NCIS، مثل ما فعل فالون، ما يفعله المستجوبون العسكريون، فتوجها معاً لمقابلة مدير NCIS، دافيد برانت. وافق برانت معهما وتحدث الثلاثة مع آلبرتو جاي. مورا، وهو مستشار عام في سلاح البحرية. قال لهم مورا: لا أفهم كيف أنهم ما زالوا يمارسون هذه الأمور. تمتلكون أنتم الخبرة في الاستجواب. أقترح أن تعودوا إلى غيتمو وتحاولوا التحدث مع الجنرال ميلر».

سافر فالون وجيلز جواً إلى غيتمو لمقابلة الجنرال ميلر وشرحا اعتراضاتهما مجدداً. أبلغاه بأنه نظراً لخبرتهما في التعامل مع الإرهابيين فإن هذه التقنيات لا تعطي نتائج أبداً. يُضاف إلى ذلك أن هذه الأساليب تعتبر غير قانونية بنظر القانون الأميركي. تجاهل ميلر حججهما بالقول: «إذا أردتم المشاركة في الفريق فسيتعين عليكم ارتداء قمصانه ذاتها».

ردّ فالون: «اسمع يا جنرال. إننا لا نعمل عندك، ونحن لدينا رؤساؤنا. إننا لن نشارك، وسوف نستمر في معارضة هذه الأساليب التعسفية».

عندما علم مورا بما دار في هذه المحادثة بادر إلى الاتصال بجيم هاينز مرات قليلة بهدف الاعتراض على استخدام هذه التقنيات. أورد تقرير مجلس الشيوخ أنه أبلغ هاينز في إحدى المراحل بأنه يعتقد أن التقنيات التي أجازها رمسفيلد «يمكن أن ترقى إلى مستوى التعذيب». تجاهل هاينز ملاحظات مورا هذه.

فشل مورا في حمل هاينز أو رؤسائه في البنتاغون على الإصغاء، لذلك وجّه مذكرة في ١٥ كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٣ يقول فيها إنه من الواضح أن تلك الأساليب غير قانونية، ثم أرسلها إلى هاينز وحذّره فيها من أنه سوف يوقّع المذكرة في نهاية اليوم إلا إذا توقف استخدام تلك الأساليب. يتمكن محامٍ رفيع في الإدارة، والذي يعتبر أن ما تفعله الإدارة هو «غير شرعي»، من التسبّب بمشاكل جدية. وقّع رمسفيلد في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم أمراً يلغي فيه موافقته على استخدام تلك الأساليب.

لم يطُل أمد النصر الذي حققه مورا كثيراً على أيّ حال. أعاد رمسفيلد، وسراً، في شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٣ إجازة التقنيات الأربع والعشرين، وحدث ذلك في وقتٍ غادر فيه مورا منصبه في البحرية لممارسة أعمالٍ حرة.

أعلن البنتاغون في هذه المرحلة من الأخذ والرد أن استجواب القحطاني هو «في غاية الأهمية»، كما أن متحدثاً باسم وزارة الدفاع قال إنه «مصدرٌ قيم للمعلومات». أبلغ مسؤولون في إدارة بوش، ومن دون الإفصاح عن أسمائهم، المراسلين بأن استجوابه قدّم معلومات عن هجماتٍ مخططة، وعن الشبكات المالية التي يستخدمها الإرهابيون.

عندما توقف استخدام الأساليب التعسفية في وقتٍ لاحق طُلب مني العودة لاستجواب القحطاني لأن معلوماتٍ أساسية ما تزال مفقودة. يعني ذلك أنه بالرغم من

ادعاءات النجاح فإن الأمر لم يقتصر على فشل الذين استخدموا تلك الأساليب في الحصول على أي معلومات قيمة، بل لم يتمكنوا كذلك من الحصول على المعلومات الأساسية.

تحدثت مع القحطاني فأعطاني التفاصيل التي أردناها حول فترة تدريبه وعلاقته بخالد الشيخ محمد والمتآمرين الآخرين، وذلك بالإضافة إلى معلوماتٍ أخرى. أخبرني كذلك بالصعوبات التي واجهها في تعلّم العبارات الإنجليزية واستخدام البريد الإلكتروني، وخيبات أمل خالد الشيخ محمد منه، وأخبرني بأنه عندما كان مصطفى الهوساوي يتدرب معه كان يذهب إلى الشاطئ عند مغيب الشمس لتأدية الصلاة والدعاء.

سألته: «حول ماذا دارت أدعيتك؟»

«سألت اللّه أن يعطيني علامة تُظهر ما إذا كان يوافق على مهمتي. قلت له إنه إذا ما وافق على مهمتي فإنه سوف يسهّل رحلتي. وإذا لم يوافق يمكنه أن يوقفها».

لم تُسفر المعلومات التي أعطاها القحطاني أثناء تعريضه للأساليب التعسفية عن إنقاذ حياة أميركي واحد، وهذا ما يناقض ادعاءات إدارة بوش بشأن أهمية القحطاني. استنتجت لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أنه كان «خاطفاً ذا قوة عضلية»، وهو الأمر الذي توقعناه منذ البداية. لم يتلقَ القحطاني حتى هذا اليوم إدانة عن دوره في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. يُضاف إلى ذلك أن كل الإدانات السابقة ضده قد أُسقطت. إن تعريضه للتقنيات التعسفية يجعل من محاكمته قضائياً أمراً صعباً. سبق لنا أن حذرنا عند بداية تطبيق هذه الأساليب من أن الأمر لا يقتصر فقط على أنها غير موثوقة، وغير فعالة، وغير أميركيّة بطبيعتها، بل هي تتجاهل كذلك الأهداف بعيدة المدى وتجعل من الملاحقة القضائية غير محتملة.

سأل المفتش العام في وزارة العدل القحطاني عني خلال تحقيقه في مسألة الإساءة إلى الموقوف. اشتكى القحطاني من أنني وضعته في السجن العسكري، ولم أسمح لأي شخصٍ آخر برؤيته، لكنه قال إنني أمتلك «حسّاً إنسانياً». لاحظ المفتش

العام أن السجلات تُظهر أنني لم أكن الشخص الوحيد الذي أجرى مقابلات مع القحطاني، وذلك لأن عملاء آخرين فعلوا ذلك، بمن فيهم أعضاء من وحدة التحليل السلوكي في مكتب التحقيقات الاتحادي.

أبلغني العملاء الذين قرأوا ذلك التقرير بأنه بدا لهم أن المفتش العام كان يحاول توجيه القحطاني ليقول شيئاً ضدي. يُضاف إلى ذلك أن القحطاني كان يمتلك سبباً يدفعه للشعور بالكراهية نحوي: كنت أنا الوجه الذي ربطه بالتعرّف إلى هويته وعزله عن باقي المعتقلين ـ لكنه قال إنني أمتلك «بعض الإحساس الإنساني». أما الأمر المستغرب مع ذلك فهو أن المفتش العام اكتفى بأن سأل القحطاني عني، وهو الذي كان مرشحاً ليكون الخاطف العشرين، لكنه لم يسألني أبداً عن روايتي لما حدث. يُحتمل أن السبب يعود إلى أن القحطاني لم يقل أي شيء سلبي عني، وهكذا لم يشعر المفتش العام بوجود حاجة لسماع وجهة نظري.

بينما كان الوزير رمسفيلد وأعضاء فريقه، مثل هاينز، وولفوويتز، وفايث، منهمكين في المصادقة على استخدام تلك التقنيات، كانوا في الوقت ذاته يقفون حجر عثرةٍ أمام نجاح الاستجوابات. تعرّف المستجوبون في مكتب التحقيقات الاتحادي وفريق التحقيقات الجنائية إلى الموقوف رقم ٣٧ على أنه ناشط يمني في القاعدة يدعى البتار، وذلك استناداً إلى المعلومات والتوصيفات التي حصلت عليها من أبي جندل. كان البتار هو الشخص الذي سلّمه أبو جندل الأموال ـ تبيّن أن المبلغ وصل إلى خمسة آلاف دولار ـ المخصصة لتأمين زوجة يمنية لبن لادن. سبق لأبي جندل أن أبلغني بأنه قبِل تلك المهمة ظناً منه بأن المال كان مخصصاً لعملية محددة. التقاه نبراس والبتار في مطار صنعاء، وهو الذي أصبح فيما بعد أحد المهاجمين الانتحاريين للمدمرة كول. توجه الثلاثة معاً إلى فندق الجزيرة. سلّم أبو جندل هناك مبلغ الخمسة آلاف دولار إلى البتار الذي شكره وأبلغه بأن المال كان بمثابة مهر. شعر أبو جندل بالإحباط والكدر، لكنه عاد إلى أفغانستان بعد وقتٍ قصير.

ظننت أن البتار سوف يكون مصدراً قيّماً بشكلٍ خاص في معرفة مكان بن لادن،

وذلك بالنظر إلى علاقته بزوجة بن لادن اليمنية. عرّفت البتار بنفسي، فقال لي: «إذاً أنت علي، محقّق مكتب التحقيقات الاتحادي؟»

«أجل».

«قال لي مشيراً إلى حمدان باسمه الحركي: «أخبرني صقر عنك».

«وماذا قال لك؟»

«قال لي إنه لم يرغب في التعاون مع التحقيق في البداية، لكنه التقى بك، وقال إنك أهلٌ للثقة وإنه تعاون معك».

«هذا صحيح».

«أبلغني صقر بأنه يحررني من القَسَم بحيث يمكنني أن أتحدث معك».

«عن أي قَسَمٍ تتحدث؟»

«يُقسم أحدنا للآخر عند إلقاء القبض علينا بأنه مهما حدث فلن نعترف بأن أحدنا يعرف الآخر». (حافظ حمدان على قَسَمه لأنه لم يذكر أمامي أبداً اسم البتار).

«وبعد ذلك؟»

«أخبرني حمدان بأنك عاملته بطريقة حسنة، وكنتَ صادقاً معه، وسمحت له بالاتصال بأسرته كي يتأكد من أنهم بخير».

«هذا صحيح».

«أخبرني حمدان أنه من مصلحتنا التعاون مع التحقيق، وهكذا ألغينا القَسَم».

قلت له: «عظيم. دعنا نبدأ بمعرفة نشأتك».

«سأقول لك كل شيء، لكنني أريد الاطمئنان عن عائلتي».

«يمكننا ترتيب ذلك».

«سأقول لك ما سنفعله. سأخبرك نصف قصتي. علمت من حمدان أنك تعرف القاعدة جيداً، وهكذا سوف تعرف ما إذا كنتُ أقول الحقيقة. سأخبرك النصف الآخر بعد إجراء المكالمة الهاتفية».

تحدثت مع قيادات مكتب التحقيقات وفريق التحقيقات الجنائية. وافقوا معي على أنه من الحكمة جعل البتار يجري المكالمة، وقالوا إنهم سوف يحصلون على الإذن من الجنرال ميلر. (أعطى ميلر أوامر بأن تحصل كل المكالمات على موافقته المسبقة). عدت إلى البتار وأبلغته بالاتفاق.

اعترف بهويته الحقيقية للمرة الأولى، وأخبرني عن نشأته بالتفصيل، وعن المسار الذي أوصله إلى القاعدة، وعن علاقته بين لادن. سبق للمحققين أن عثروا على وثيقة بدا أنها وصية شهادة مكتوبة بخط اليد وموقعة باسم البتار، وهي الوثيقة التي اعترف بأنها تعود له. تعاون الرجل معنا كما وعد.

قدم قادة مكتب التحقيقات الاتحادي وفريق التحقيقات الجنائية طلباً للحصول على إذن الجنرال ميلر لإجراء المكالمة. ردّ الجنرال بالقول: «لا يُسمح لأي سجين بإجراء مكالمة هاتفية من دون موافقة بول ولفوويتز». كان ولفوويتز النائب المساعد لوزير الدفاع رمسفيلد. جادل القادة بوجود سابقة مع الموقوف حمدان، وهي المكالمة التي حصلت على موافقة الجنرال دونلافي.

لم نحصل على الموافقة أبداً، وهكذا لم نحصل على النصف الآخر من اعتراف البتار. كان من الممكن لنا أن نعرف معلومات هامة عن زوجة بن لادن اليمنية، وهي المعلومات التي كان من الممكن أن تساعدنا على تتبع بن لادن وآخرين. وعندما كُشف مكان بن لادن وقُتل في شهر أيار/مايو من العام ٢٠١١ كانت زوجته اليمنية من بين الموجودين معه. ألم يكُنْ من المحتمل أنه كان بإمكاننا الوصول إلى بن لادن في وقتٍ أسرع، كما كان من الممكن إنقاذ حياة كثيرين؟

كان بمستطاع الجنرال ميلر عدم الموافقة على المكالمة الهاتفية، لكنه لم يتردد

أبداً في تطبيق أساليب الاستجواب التعسفية على القحطاني من دون الحصول على موافقة رسمية صحيحة من وزير الدفاع. يصدق الأمر ذاته على رؤسائه: لم يسمحوا لموقوف باستخدام الهاتف ولو دقيقة واحدة كانت كافية لإرشادنا إلى بن لادن، لكنهم لم يكترثوا أبداً لتجاهلهم الدستور الأميركي.

سألني أحد أعضاء فريق الحادي عشر من أيلول/سبتمبر: «علي. ستتوجه إلى غيتمو، أليس كذلك؟»

كان ذلك في شهر آب/أغسطس من العام ٢٠٠٢ عندما غادرت مقر الإدارة العليا للتحضير للعودة إلى استجواب حمدان مجدداً.

«أجل، سأغادر بعد وقتٍ قصير».

هل لك أن تلقي نظرة عند وجودك هناك على السجين رقم ٣٩؟»

«بالتأكيد، لكن من يكون؟»

«اسمه علي حمزة أحمد سليمان البهلول».

«وماذا فعل؟»

«لا نعرف. إننا لا نعرف شيئاً عنه في واقع الأمر. وصل إلى غيتمو منذ أشهرٍ عدة. يقول الجيش إنه متعاون بالكامل. إنهم لا يصدّقون أنه عضو في القاعدة».

«لكن؟»

«لكننا عثرنا في أفغانستان على دليل هاتف يحتوي على أسماء وأرقام هواتف نشطاء في القاعدة. تتنوع محتويات هذا الدليل بين تفاصيل الاتصالات لعدد من الإرهابيين المتورطين في تفجير يو. أس. أس كول، مثل القصع ونبراس، وعنوان ورقم هاتف في ماليزيا حيث عُقد اجتماع قمة التخطيط للحادي عشر من أيلول/سبتمبر. يبدو أنه من المحتمل أن الشخص الذي يمتلك دليل الهاتف كان يعرف عن الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وكان عضواً هاماً في القاعدة. حصلنا بعد فحصنا للبصمات على نتيجة إيجابية: بصمة بهلول.

تابع العميل كلامه: «هناك شيء آخر بشأن بهلول، وهو أمر يجعلنا نشك به، وهو أنه أقلّ الثلاثين القذرين بسيارته».

سألته: «أيمكنني إلقاء نظرة على دليل الهاتف؟»

قال العميل وهو يناولني الدليل: «بالتأكيد». كان الدليل مليئاً بأرقام هواتف النشطاء من ذوي المستويات العالية، بمن فيهم خلاد، وهو الذي تعرّفنا إليه من خلال اسمه الحركي سيلفر.

«ومن أين أتى هذا الدليل؟»

«عُثر عليه في السيارة التي كان حمدان يقودها عند إلقاء القبض عليه».

«وماذا بشأن بصمات البهلول؟»

«إنها تظهر على الصفحتين الثامنة والتاسعة، وهذا يعني أنه كان يستخدمه. يقول لي حدسي إن ذلك الشخص هو ناشط مهمٌّ في القاعدة».

«أعتقد أنك على حق. سأتحدث معه في غيتمو وسأرى ما يمكن أن أنتزعه منه».

عُثر في سيارة حمدان كذلك على قواذف صواريخ سام-٧ الموجهة، بالإضافة إلى بطاقات تفصّل الرموز الرقمية المستخدمة داخلياً للإشارة إلى أعضاء القاعدة وشخصياتها، ومواقعها، وكلمات تكتيكية محددة: بن لادن الرقم ٤، الظواهري الرقم ٢٢، سيف العدل الرقم ١١، خالد الشيخ محمد الرقم ١٠. أما الرقم ٣٣ فكان مخصصاً للقيادة العسكرية، معسكر البنشيري الرقم ٣١، حراس بن لادن الشخصيّون الرقم ٤٧. أما الرقم ٧٧ فيرمز إلى العائلات، و١١٥ إلى المواد الكيميائية، و١٢٩ إلى كمين، و١٠٠ إلى دبابة، و٦٧ إلى الطعام. كانت مختلف المواقع التي يتمركز فيها المقاتلون تترافق مع أرقامٍ كذلك: ١٠٨، على سبيل المثال، تعني «في المدينة».

عندما وصلت مجدداً إلى غوانتانامو طلبت من الجيش مقابلة البهلول، لكن

مستجوبيه رفضوا ذلك. وُضع الرجل في موقع محظور، وذلك لأنه اعتُبر متعاوناً مع التحقيق. قال لي المستجوبون العسكريون إنه أخبرهم كل شيء يعرفه، وإن «أي استجواب من قِبلكم في مكتب التحقيقات الاتحادي» كان «غير ضروري».

تحدثت مع الجنرال دونلافي عن دليل الهاتف والبصمات. قلت له: «أعتقد أنه يكذب على المحققين». وافق الجنرال على منحي الإذن بمقابلته، وهكذا تسلمت ملف البهلول. لاحظت أنه أمضى في غيتمو نحو ثمانية أشهر، وأنه كان يكرر القصة ذاتها باستمرار: كان في أفغانستان يعلّم القرآن. كان ذلك مجرد تغطية لما قاله الثلاثون القذرون. لم يكشف الملف عدا ذلك سوى القليل عن البهلول.

كنت متأكداً من أن بهلول قد تعلّم خلال الأشهر الثمانية الماضية كيفية عمل الاستجوابات العسكرية النموذجية. أردت إفهامه أن هذا الاستجواب هو أمرٌ مختلف، وأردته كذلك أن يصل إلى استنتاجات مختلفة تتعلق بمَن أكون، وسبب وجودي هنا، وكذلك ما أعرفه عنه.

كان أول شيء فعلته هو تغيير أوضاع غرفة الاستجواب. جرت جلسات استجواب بهلول في غرفة نموذجية مع إبقائه مقيّد اليدين. أخذناه إلى غرفة مصممة لكي تبدو وكأنها غرفة معيشة صغيرة بحيث جهزناها بأرائك، وسجادة وطاولة صغيرة، وبعض الصور. ساعدنا مات، وهو المسؤول في وكالة الاستخبارات المركزية، على الحصول على الموقع وتجهيزه.

كنت جالساً بانتظار بهلول على مقعدٍ وإلى جانبه طاولة صغيرة عندما أُدخل إلى الغرفة. رأيته مرتدياً زي المساجين البرتقالي اللون، وكانت ذراعاه وقدماه مقيدة بالأصفاد. لاحظت أن علامات الثقة والضجر ترتسم على وجهه، وكأنه يريد أن يقول، «ها هو الآن مستجوب آخر، والذي سأروي على مسامعه القصص ذاتها. ما إن نُزعت الأصفاد عنه حتى جلس على الأريكة قبالة الطاولة الصغيرة.

سألته عن المعاملة التي يلقاها. أجابني: «إنها مقبولة». مضى ليقول لي إنه جرى تدنيس القرآن في بعض الحالات «في البداية»، إلا أنه شعر بأن هذه الحالات قد ضُبطت. «عموماً، كانت المعاملة جيدة، ونحن كمسلمين علينا أن نعترف بالحق».

بدأت بالحديث مع البهلول عن عائلته ومكان ولادته في اليمن. سبق لي أن أمضيت وقتاً لا بأس به في اليمن أثناء التحقيقات بتفجير المدمرة كول. فوجئ البهلول بمعرفتي بالبلاد، والشعب، والحضارة. قال لي: «أنت تعرف عن اليمن أكثر من الآخرين».

سألته بعد ذلك عن السبب الذي دفعه للتوجّه إلى أفغانستان. أعطاني ما بدا أنه الجواب الجاهز، أي أنه ذهب إلى هناك لمساعدة الناس على تعلّم القرآن. قال لي إنه لا يهتم بالقاعدة أو بالجهاد، وأنه ذهب إلى هناك لأسباب دينية فقط. أصرّ كذلك على أنه لم يلتقِ أي مقاتلين عرب هناك، وأنه أمضى كامل وقته مع الفقراء الأفغان الذين يحتاجون إلى ثقافة دينية. ناقشنا كذلك انطباعاته عن البلاد.

سألته: «ما رأيك بالفتوى التي أصدرها بن لادن والتي تتعلق بطرد الأميركيين الكفرة من أراضي المسلمين؟»

«لا أؤمن بتلك الفتوى، كما أنه يوجد علماء دينيون في المملكة العربية السعودية أفتوا بأن الوجود الأميركي ليس احتلالاً لكنه مساعدة مشروعة، وذلك لأن ملك المملكة العربية السعودية هو الذي طلبها».

لعبتُ دور محامي الشيطان، وأعطيت تبريرات للقاعدة لشن الجهاد كردٍ على ذلك الوجود. جادلني في تلك التبريرات ومضينا في المناقشة. إن مجرد كون البهلول ليس ببعيد عن الحجج التي ناقضت حجج القاعدة كان إشارة إلى معرفته بكل حجج القاعدة كذلك. لكن مع استمراري في تقديم الحجج التي تدافع عن القاعدة استمر هو بالرد بأفكاره الدينية التي تناقضها، لكن حججه أخذت تضعف ببطء، وبدا أنه

أقل ثقة بنفسه. كان من الواضح بالنسبة إليّ أنه يكرّر الأمور التي تمرّن على قولها في حال ألقي القبض عليه، كما أنه كان يكتم الأشياء التي يؤمن بها بقوة.

سألته في محاولة مني لتغيير المواضيع: «أين هي عائلتك الآن؟ هل سمعت عنها شيئاً مؤخراً؟»

«لا أعرف، لكني أتمنى أنهم تمكنوا من الوصول إلى الوطن بأمان». طرحت عليه هذا السؤال كي أعرف ما إذ كان قد اصطحب عائلته معه إلى أفغانستان، وذلك بعد إعلان بن لادن أنه واجب ديني بالنسبة إلى المسلمين الملتزمين. كان اصطحابه عائلته إلى أفغانستان إشارة إلى احتمال كونه عضواً في القاعدة. هل هناك سبب آخر يدفع بالناس إلى اصطحاب عائلاتهم إلى مناطق الحرب؟

توقفت بعد فترة عن تدوين الملاحظات بالرغم من استمراري بطرح الأسئلة واستمراره في الإجابة عنها. أظهرتُ أمامه أنني غير مكترث، حتى أنني أغلقت دفتر الملاحظات في إحدى المراحل، ووضعت يدي على رأسي، ثم تثاءبت. بدا البهلول محتاراً، وذلك لأنه اعتاد أن يدوّن المستجوبون العسكريون كل ما يقوله.

سألته: «قل لي مجدداً، لماذا ذهبتَ إلى أفغانستان؟»

قال لي: «أتيت لتعليم القرآن كما قلت لك». نظرت إليه مع ابتسامة عريضة. سألني: «لماذا تبتسم؟»

«المشكلة معكم يا رجال أنكم لا تفكرون بقصص يمكن تصديقها. لو كنتَ أنت وأصدقاؤك الذين اعتُقلوا معك أذكياء، لكنتم قسمتم أنفسكم بحيث يقول الخمسة عشر الأوائل إنهم يدرسون القرآن بينما الأرقام من السادس عشر وحتى الثلاثين يعلمونه. لكنكم قلتم إنكم جميعاً تعلمون القرآن. إن قولكم جميعاً إنكم تعلّمون القرآن لهو أمر فيه الكثير من الغباء». لم يقل البهلول شيئاً، لكني لاحظت أنه يبتسم بتكلّف.

عدت للحديث عن الإسلام، لكني امتنعت عن تدوين الملاحظات. لم يستطع بهلول في إحدى المراحل السيطرة على نفسه فسألني بحدة: «لماذا؟»

رددت السؤال ذاته: «ماذا؟»

«لماذا توقفتَ عن تدوين الملاحظات؟»

سألته: «هل فعلتُ شيئاً يقلّل من احترامك هنا؟»

هزّ رأسه: «لقد احترمتني».

«هذا ما فعلته. أتيتُ إلى هنا وتعاملت معك باحترام كما يعامل إنسان إنساناً آخر. لكن عندما لا تصدق معي فإنني أعتبر ذلك علامة على عدم الاحترام».

قال محتجاً: «لكني أقول لك الصدق».

«لا تبدأ من جديد من فضلك. إنك لا تعرف ما أعرفه. إنني أعرف من أنت. أتيت إلى هنا للتحدث معك على وجه الخصوص».

«إنني أقول الصدق».

«اسمع. يُحتمل أنك تعتبر نفسك جندياً هاماً في الحرب على الكفار، لكنك عندما تجلس هنا وتُسمعني تلك الحجج التي تناقض ما أقسمتَ على التضحية بحياتك من أجله، فإنك تجعلني أتساءل عن مدى إيمانك بقضيتك حقيقة. إن سؤالي هو على الشكل التالي: هل تؤمن حقيقةً بهذه الأشياء؟» صمت البهلول عند هذا الحد. تابعت بقولي: «إذا كنتَ تؤمن بهذه الأمور بالفعل، فمعنى ذلك أن جهادك لم ينتهِ بعد. إن واجبك هو متابعة مناصرة القضايا التي تحارب من أجلها.

تابعت حديثي: «سأقدّم لك عرضاً. حان الوقت الآن لصلاة الظهر. يتعيّن علينا أن نتوقف بحيث تتمكن من الذهاب لأداء الصلاة. أريدك عندما تصلّي أن تطلب استخارة. أريدك أن تطلب إرشاداً من اللّه. إسأل اللّه عمّا إذا كان يجب عليك الاستمرار بالاختباء وراء ظلّك، أو أن تكون مجاهداً حقيقياً وتعترف بما تؤمن به»».

ضحك البهلول ضحكة صغيرة تنمُّ عن عدم الارتياح، وكأنه يحاول إظهار أنه ما زال واثقاً بنفسه، ثم غادر الغرفة متوجهاً لأداء الصلاة.

كان جالساً في مكانه على الأريكة عند عودته، لكني جلست إلى جانبه هذه المرة. ضمّ يديه ما بين ركبتيه وحدّق إلى الأسفل نحو الطاولة. قلت له: «تقبّل الله صلاتك». كان ذلك قولاً شائعاً بين المسلمين بعد أداء الصلاة.

قلت قاصداً كسر جدار الصمت: «أتريد تناول بعض الكعك؟» سبق لي أن وضعت على الطاولة الصغيرة أمامنا شاياً وطبقاً من الكعك.

قال لي وهو يتناول كعكة من الطبق: «شكراً لك». تناول قضمة من الكعكة ثم قال ببطء: «أنا أنس المكّي. وأنا مسؤول. إنني أحد ضباط القاعدة، كما أشغل منصب مساعد بن لادن الشخصي. ماذا تريد أن تعرف؟»

سبق لي أن سمعت اسم أنس المكّي مراتٍ عدة خلال مختلف التحقيقات، وكنت أعرف أنه مهمٌّ بالفعل. أجبته: «أتود القليل من الشاي؟»

سعل البهلول بحيث خرجت من فمه بعض بقايا الكعكة التي كان يمضغها. نظر إليّ وكأنه لا يصدّق ما يسمع: «بحت لك بمركزي في القاعدة، وتسألني ما إذا كنت أحب تناول الشاي؟»

قلت له: «حسناً. سبق لي أن عرفت ذلك، لذلك لم يكن ذلك مفاجأة لي. قلت لك سابقاً إنك لا تعرف ما أعرفه أنا. لكنني أعلم الآن على الأقل أنك صادق معي وتحترمني، ولهذا أعرض عليك الشاي».

أمضيت اليوم التالي ونصف اليوم في التحدث مع البهلول. كانت قصته مشابهة كثيراً لقصص عدد آخر من أعضاء القاعدة اليمنيين. كانت عائلاتهم تعيش وتعمل في المملكة العربية السعودية إلى أن طُردوا من المملكة في أعقاب حرب الخليج الأولى، بسبب مساندة اليمن لغزو صدام حسين للكويت. شملت أحاديثنا كل شيء عن مساره الذي أوصله إلى القاعدة. قال إنه تأثر كثيراً بعبد الله عزام، وإنه انتهى إلى تنفيذ أدوارٍ فعّالة في تلك المنظمة. مكث البهلول في إحدى المراحل مع محمد عطا وزياد الجراح، وهما كانا من بين خاطفي هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. أمضينا الوقت في مناقشة شريط الفيديو الذي أنتجه احتفالاً بنجاح تفجير يو. أس.

أس كول، وهو الشريط الذي أدى إلى تعيينه المسؤول الشخصي عن الدعاية لدى بن لادن. تحدثنا عن الشريط، وشاهدنا مختلف المشاهد. شرح لي مواقع تصوير المشاهد: خطابات بن لادن، والتدريبات العسكرية في معسكر الفاروق، ومشاهد في المملكة العربية السعودية، والمؤتمر الصحفي الذي أعرب فيه بن لادن وآخرون عن تضامنهم مع الشيخ الضرير.

كانت الأدوار التي أدّاها البهلول متنوعة. أجرى البهلول أبحاثاً لبن لادن وكتب له خطاباته، كما أقام له أجهزة التقاط بثّ الأقمار الصناعية التي سمحت لبن لادن بالاستماع إلى التقارير التي أوردت تفاصيل هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كما دوّن محاضر الاجتماعات التي كان يعقدها قادة القاعدة.

عندما كان قادة القاعدة يعترفون بأدوارهم في المنظمة ويعطوننا المعلومات التي هي بحوزتهم، كانوا يفعلون ذلك بسبب توبتهم، أو لأنهم يتظاهرون بتوبتهم، أو كي يقلّلوا من عقوبتهم. كان البهلول مختلفاً عنهم في أنه لم يخجل من أي شيء فعله للقاعدة، وهو قدم اعترافاته بكل فخر. بدا أنه اقتنع بحجتي القائلة إنه إذا كان يؤمن فعلاً بأهداف القاعدة فلا يتعيّن عليه أن يكذب وينكر تورطه في أعمال المنظمة.

فصّل لي البهلول بطريقة مثيرة، وبأعصاب باردة، السبب الذي جعل مركز التجارة العالمي هدفاً مشروعاً. «كان مركز التجارة العالمي مركز أولئك الذين يديرون الاقتصاد العالمي والبنك الدولي، أي أولئك الذين يخربون اقتصادات الدول الأخرى، وحتى أنهم يحرمون صغار المزارعين من أراضيهم، وأولئك الذين يمنعون المصارف الإسلامية والمؤسسات المالية من الازدهار لأنهم يريدون التحكم بكل الرساميل الموجودة في العالم.

«كان مركز التجارة العالمي مركز العولمة، وهو يمثّل الهيمنة الأميركية على العالم وشعوبه». مضى البهلول ليزعم بأن أي شخص، «عمل فيه شارك في جرائم ضد الشعوب المضطهدة سياسياً ومالياً في أنحاء العالم» كافةً.

جاء ردي على الشكل التالي: «لكن الأشخاص الأبرياء الذين كانوا يعملون في مركز التجارة العالمي لا يتحكمون باقتصاد العالم والأسعار في أسواقه».

رفض بهلول حتى الاعتراف بموت أشخاصٍ أبرياء في يوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر: «كانوا أهدافاً مشروعة لأنهم كانوا يدفعون الضرائب، أي أنهم كانوا يموّلون حروب أميركا ضد المسلمين. يتعيّن علينا أن نقتل الأميركيين كما يقتلوننا بالضبط، أي العين بالعين والسن بالسن. يتعيّن علينا أن نمضي في قتلهم حتى تتساوى كمية الدماء التي تسيل منهم مع كمية الدماء التي سالت منا». قال كذلك إنه كان يأمل أن تقتله أميركا لأن موته كان سيُغضب بن لادن. أما إذا قُتل على يد المسيحيين واليهود فإن مكافأته ستكون أكبر من تلك التي يلقاها الشهيد العادي.

كان بن لادن مهتماً جداً بمفاعيل هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، حتى أنه أمر بهلول بإجراء أبحاثٍ تتعلق بما توقعه الخبراء من نتائج اقتصادية للهجوم.

طلب مني البهلول في إحدى المراحل إرسال رسالة إلى الرئيس بوش تحثّ أميركا على غزو العراق، و«إنهاء المهمة التي لم يُكملها والده». تابع إقناعي بالقول إن صدّام حسين هو شخصٌ متعطش للدماء يقتل شعبه، وأن العالم العربي سوف يساند الهجوم الأميركي. كان البهلول مؤمناً، مثل بقية أعضاء القاعدة، بالحديث الذي يقول إن الانتصار النهائي للإسلام سوف يأتي بعد معركة هيرمجدو النهائية. يؤمن البهلول بأن اجتياح العراق سيكون خطوة هامة في سبيل تحقيق تلك النبوءة.

عرضنا على البهلول صوراً عديدة تمثّل أعضاء القاعدة فتعرّف إليهم. وعندما رأى صورة أبي زبيدة فقال إنه يتذكر رؤيته له في أفغانستان، كما سمع الكثير عنه منذ العام ١٩٩٠. لكن عندما سأل أبا حفص المصري عما إذا كان أبو زبيدة عضواً في القاعدة أجاب أبو حفص بالنفي.

زوّدنا البهلول كذلك بتواريخ وأوقات المعلومات التي كشفناها في أفغانستان.

وعندما عرضت على بهلول شريط الفيديو الذي اعتقد خبراؤنا أنه صوّر بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر قال لي مصححاً: «يعود تاريخ هذا الشريط إلى ما قبل الهجوم على نيويورك».

«ولماذا تقول ذلك؟»

«لأن أبا حفص يظهر في الفيلم. غادر الجميع قندهار بعد الهجوم على نيويورك وواشنطن، لكن أبا حفص بقي لأنّه كان يعاني من آلام في ظهره [الديسك] ولا يستطيع أن يتحرك.

عملت مع الادعاء تحضيراً لمحاكمة بهلول، وذلك لأنه كان من المقرر أن أكون الشاهد الرئيس. كانت الصعوبة الوحيدة التي واجهتنا هي أن أشخاصاً معيّنين داخل وكالة الاستخبارات المركزية اعترضوا على استخدام الادعاء لدليل الهاتف الذي عليه بصمات بهلول كما فيه إشارة إلى اجتماع القمة بخصوص الحادي عشر من أيلول/سبتمبر الذي عُقد في ماليزيا.

أبلغ أحد ممثلي وكالة الاستخبارات المركزية أحد المدّعين العامين: «لا يمكنك استخدام ذلك في المحاكمة. إن واقعة اجتماع ماليزيا ما تزال مصنفة سرية».

سأل المدعي العام: «ماذا تعني؟ اجتماع ماليزيا ليس سراً، وهو وارد في تقرير لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر».

«إن مجرد كشف اللجنة تلك المعلومة لا يعني أنها لم تعد سرية».

«لكن تينيت، مديرك السابق، أشار إلى ذلك الاجتماع في كتابه».

«لكنه لم يعد المدير».

«لكن كتابته حول تلك المعلومة يعني أنها لم تعد سرية».

«لا يمكنك استخدامها».

صُدم المدّعون بالمدى الذي يُمكن أن تذهب إليه وكالة الاستخبارات المركزية

لتقييد أي ذكرٍ علني لاجتماع ماليزيا، كما أن المحاكمة لم تأتِ على ذكر ذلك الاجتماع.

لاحظت أن بهلول كان يومئ عندما قدمت شهادتي في محاكمته وكأنه كان يؤكد ما أقوله. أومأ كذلك عندما أبلغت المحكمة بأن بهلول أخبرني بإنتاج شريط الفيديو الذي يحتفي بتفجير المدمرة كول، وكأنه أراد أن يقول: «أجل، قلت له ذلك.

حُكم على بهلول بالسجن مدى الحياة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٨.

كنت في سجنٍ عسكري في كارولينا الشمالية في العام ٢٠٠٤ للمساعدة في استجواب أحد الموقوفين الذين لا يتعاونون مع التحقيق. تلقيت مكالمة هاتفية ملحة في ذلك الحين من مدير مكتب التحقيقات الاتحادي: أبلغ فريق من المستجوبين العسكريين المتخصصين في غيتمو بحصوله على اعتراف من أحد أعضاء القاعدة يدعى طارق محمود السواح. كشف الاعتراف أن القاعدة كانت هي، كجماعة، وراء سلسلة الهجمات بالأنثراكس التي حدثت على مدى أسابيع عديدة بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

أعطى البنتاغون الكونغرس معلومات عن اعتراف السواح، فطلب الكونغرس من المدير تزويده بملخص عن التحقيقات المتعلقة بالأنثراكس. علمتُ أن فريقاً مؤلفاً من عملاء قديرين من مكتب التحقيقات، ويتمتع بخبرة عالية المستوى في العلوم والإرهاب والتحقيقات المتخصصة، قد باشر بالفعل العمل على هذه القضية بكل جدية. لم يُعثر على صلات للقاعدة بهذه الهجمات. لكن المدير أراد التأكد من موثوقية المعلومات الاستخبارية، وذلك بسبب إعلام الكونغرس بالأمر، فطلب مني استجواب السواح. لم يقتصر الأمر على المحققين العسكريين الذين أبلغوا بأنه العقل المدبر لبرنامج الأنثراكس في القاعدة، لكنهم قالوا كذلك بأنه هو الذي صمّم برنامج قنابل الأحذية للقاعدة.

استجوبت السواح الذي كان بديناً، لكنه يكون أسعد حالاً عندما نُحضر إليه

المثلجات. كان الرجل منفتحاً حول علاقاته مع القاعدة. حارب الرجل في الجهاد الأفغاني الأول، وفي البوسنة حيث عمل بصفته خبير متفجرات، كما كان يعرف كبار قادة القاعدة في تلك الفترة. قرّر السواح زيارة أفغانستان كي يتأكد من أنها دولة إسلامية حقيقة تحت حكم طالبان، أي كما سبق له أن سمع. أما لو كانت كذلك فكان ينوي جلب أسرته للعيش هناك. زار أصدقاءه القدامى عندما كان هناك، وكان من بينهم «أبو حفص» وسيف العدل. طلب منه أبو حفص المساعدة في تدريب نشطاء القاعدة على المتفجرات. قال السواح: «لكنَّ لديكم مدرّبين».

أجاب أبو حفص: «إننا نخرّج في معسكر البنشيري أشخاصاً إلى الجنة أكثر مما نخرّج من الصف». شرح لي أن لديهم مدربين يمنيين لا يعرفون ما يفعلون. فجّر أحدهم صفاً بأكمله من الإيغور الصينيين الذين انضموا للقاعدة. وافق السواح على المساعدة، كما تلقى تدريباً متخصصاً بالمتفجرات بما في ذلك تعليمات تتعلق بصنع الأدوات المتفجرة المرتجلة، وأدوات التفجير عن بعد، وهو تلقى ذلك التدريب من أبي عبد الرحمن المهاجر. مضى السواح في تلقي تدريبٍ متقدّم في المتفجرات والإلكترونيات على يد أبي طارق التونسي، وتعلّم كيفية صنع أجهزةً توقيت للأدوات المتفجرة المرتجلة باستخدام ساعات كاسيو بوصفها جهاز تفجير عن بُعد.

أعطى السواح بدءاً من حزيران/يونيو من العام ٢٠٠١ تعليمات تتعلق بالمتفجرات، كما كتب دليلاً مؤلفاً من أربعمئة صفحة عن صنع القنابل. حارب السواح بعد اجتياح الولايات المتحدة لأفغانستان مع القاعدة ضد الولايات المتحدة في منطقة تورا بورا قبل أن يُجرح ويُلقى القبض عليه.

عندما سألته عن برنامج القاعدة المتعلق بالأنثراكس، لم يفهم السؤال. كنا نتكلم بالعربية، لذلك لم يعرف ما تعنيه كلمة أنثراكس بالعربية. وعندما مضيت في استجوابه محاولاً معرفة من أين حصل المحققون العسكريون على معلوماتهم، علمت أنه قال لهم إنه ذات مرة كان يتناول طعام الغداء في قندهار مع أبي حفص وسيف العدل. سأله الرجلان عمّا إذا كان يتذكر صديقاً مشتركاً يحمل شهادة في الكيمياء

وكانا قد عرفاه في مصر. قال السواح إنه تذكّر ذلك الخبير فسأله سيف العدل عما إذا كان على اتصالٍ به، لكن السواح أجاب بالنفي.

كتب المحققون استناداً إلى ذلك تقريراً عن «برنامج الأنثراكس». أما ما يتعلق بكون السواح هو العقل المدبر لأي عملية تفجير بالحذاء فقد اكتشفت أن المستجوبين العسكريين قالوا له: «أنت خبير متفجرات. إذا طُلب منك صنع أحذية تحمل قنابل فكيف تصنعها؟» رسم السواح رسماً توضيحياً. شكّل ذلك الرسم التوضيحي «دليلهم». تبيّن أن ذلك الرسم كان سيئاً ولا يماثل قنبلة الأحذية التي استخدمها ريتشارد ريد.

توجهت مع زملاء لي من مكتب التحقيقات إلى المستجوِبين الذين انتزعوا «الاعتراف»، وأبلغتهم بأنه بناءً على استجوابي فإن إدعاءاتهم لا معنى لها. كانوا مستجوِبين مبتدئين ولم يفهموا أن المرء لا يستطيع القفز إلى مثل هذه الاستنتاجات. اعترفوا لنا بأنهم أخطأوا.

نُقل المطرفي، وهو رئيس الوفاء الذي استجوبته في أولى أيام غيتمو مع إد وآندريه، على يد الفريق العسكري المتخصص ذاته إلى موقع سري لإخضاعه للاستجواب، وذلك في الوقت ذاته تقريباً الذي انشغلت فيه باستجواب السواح. يبدو أنهم لم يحصلوا منه على معلومات استخبارية كثيرة، وهكذا طلب الفريق مني الحضور للتكلم معه مجدداً. أبلغني أحد أفراد الفريق: «إننا نعرف أنه يعرف بوجود تهديد، لكنه لا يتعاون معنا. أيمكنك أن تستجوبه وتطلب منه أن يتحدث إلينا؟» لم يكن عندي ثقة كبيرة في فريق الاستجواب العسكري المتخصص بعد ما جرى مع السواح، لكنني شعرت بأنه يتعيّن عليّ المساعدة إذا ما كان هناك بالفعل تهديد يعلم به المطرفي».

كان غاضباً جداً عندما دخلت إلى الغرفة، لكن قبل أن أتمكن من قول أي شيء قال لي: «أخبرتك كل شيء أعرفه منذ البداية. اعترفتُ بكل شيء. لماذا نقلوني إلى هنا؟ لماذا يجب عليّ أن أتكلّم مجدداً؟»

قلت له: «لا يمكنني أن أشرح لك أمور غوانتانامو. أنا لا أفهم كيف تُدار». عرف المعتقلون في ذلك الوقت مكان وجودهم. «لكن يمكنني أن أقول لك إن التعاون هو أفضل طريقة، لذلك أنصحك بأن تخبرهم كل شيء».

«لكني أخبرتك كل شيء سلفاً. لماذا يتوجب عليّ تكراره مجدداً؟ ألم تدوّن كل شيء؟»

سألته: «ماذا تعني؟»

«طلب مني المستجوبون الآخرون للتو تكرار كل شيء أخبرتك إياه عندما استجوبتني، وذلك كي يضيفوه إلى الملف».

قلت له: «إنني آسف لأنني أضعت وقتك». خرجت بعد ذلك من الغرفة. لم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي يحاول فيها أولئك المستجوبون الذين يفتقدون إلى الخبرة «إعادة استجواب» المعتقلين، ويكتفون بالطلب منهم تكرار ما قالوه للخبراء المتمرسين. كانت الغاية من ذلك الزعم أن تقنياتهم ناجحة، وأنهم حصلوا على «معلوماتٍ استخبارية».

سافر الجنرال ميلر جواً إلى العراق في ٣١ آب/أغسطس من العام ٢٠٠٣، وذلك بهدف تقديم النصح إلى أولئك الذين يديرون سجناً في بغداد يُدعى أبو غريب. أرسل مارك فالون عميلاً من فريق التحقيقات الجنائية CITF لمرافقة الجنرال وزوده بتعليمات لتحذير المسؤولين الذين يلتقونه من أن استخدام التقنيات التي سوف يروّج لها ليست الطريقة الوحيدة لإجراء الاستجوابات. لم يسمح الجنرال للعميل بحضور أي اجتماع. تسلّم الجنرال ميلر في شهر نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٤ مسؤولية الإشراف على كل السجون في العراق التي تخضع للسيطرة الأميركية.

انتشرت في كلّ أرجاء العالم في العام ٢٠٠٤ صور الجنود الأميركيين الذين يسيئون معاملة المعتقلين في سجن أبو غريب. أظهرت إحدى هذه الصور التي انتشرت في أنحاء العالم إحدى الجنديات، واسمها ليندي إنجلند، وهي تمسك

بلجام رُبِط برقبة سجينٍ عارٍ. عانى القحطاني من معاملة مماثلة في معتقل غيتمو الذي كان تحت إمرة الجنرال ميلر كذلك.

توجّه مدربون من مدرسة JPRA SERE إلى العراق بدورهم وشاركوا في جلسات استجواب مستخدمين تقنيات SERE. أبلغ العقيد ستيفن كلايمان ـ وهو من احتياطي سلاح الجو، ومحارب مخضرم سبق له أن خاض ثلاث حملات عسكرية رئيسة (عمليات القضية العادلة، وعاصفة الصحراء، وحرية العراق) كما اشتُهر بأنّه واحد من أنشط المستجوبين خلال حرب العراق الأولى – لجنة الهيئات المسلحة في مجلس الشيوخ في أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٨ أبلغ بأنه شهد في العراق استجواباتٍ تعسفية وأنه تدخل لإيقافها. قال الجنرال إن فريق JPRA «نقل أحد الموقوفين المقنعين إلى مستودع في إحدى المنشآت التابعة للفريق وجردوه بالقوة من ثيابه، وكبّلوا رسغيه وكاحليه، ثم أجبروه على الوقوف لمدة ١٢ ساعة».

عقد الوزير رمسفيلد والرئيس الجديد لهيئة الأركان المشتركة الجنرال بيتر بايس مؤتمراً صحفياً في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٥. طرح أحد المراسلين من وكالة يونايتد برس إنترناشيونال سؤالاً يتعلق بالشائعات الرائجة عن تعذيب السلطات العراقية للمعتقلين في السجون الخاضعة للسيطرة العراقية. أبلغ الجنرال بايس المراسل: «تقع مسؤولية كاملة على كل جندي أميركي في أن يتدخل لإيقاف أي معاملة غير إنسانية تقع تحت أبصاره».

تدخل الوزير رمسفيلد مقاطعاً، وقال: «لا أعتقد أنك تقصد القول إنه يقع على الجنود واجب التدخل جسدياً لإيقاف تلك المعاملة، لأن الواجب يقضي بالإبلاغ عنها».

ردّ الجنرال بايس: «إذا كان الجندي حاضراً شخصياً عند حدوث المعاملة غير الإنسانية يا سيدي، فإن من واجبه محاولة إيقافها».

الفصل الرابع والعشرون

٤٥ دقيقة

منتصف أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢. وقفت سامانثا، وهي رئيسة وحدة الأهداف ذات القيمة العالية HVT في وكالة الاستخبارات المركزية، في مدخل المكتب الذي كنت أستخدمه في مخبأ وكالة الاستخبارات المركزية في كابول، وقالت: «كيف حصلتَ على هذه المعلومات؟» كانت تلوّح ببرقية سبق لي أن طلبتُ من رئيس المحطة إرسالها إلى مقر إدارة مكتب التحقيقات. عُيّنت سامانثا في محطة [redacted] التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية، وذلك قبل هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. يعني ذلك أننا كنا نعرف بعضنا بعضاً.

أجبتها: «حصلت عليها من رجال القاعدة الذين سمحتم لي باستجوابهم». كنت أشير إلى مجموعة من الإرهابيين الذين ألقي القبض عليهم خلال غارة جرت في ١١ أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٢ على شقق في كراتشي، وهي التي أسفرت، وهو الأهم، عن إلقاء القبض على رمزي بن الشيبة و [redacted]. سمحت وكالة الاستخبارات المركزية لي ولزملائي من مكتب التحقيقات [redacted] و [redacted] باستجواب [redacted]، لكنها منعت [redacted] ـ بناءً على أوامر من لانغلي ـ من استجواب بن الشيبة و [redacted].

عثرت السلطات الباكستانية على هذه المجموعة بناءً على معلومات استخبارية حصل عليها أحد الزملاء من أحد نشطاء القاعدة السعوديين، ويُدعى أحمد الدربي، والذي سبق له أن استجوبه في مطار باغرام. أما معرفتنا بالدربي فقد استقيناها من والد زوجته أحمد الحداء، ومن أبي جندل. تعرف مكتب التحقيقات إلى الإرهابيين بعد الغارة، والتقط صوراً لهم، كما فتّش الشقق بحثاً عن أدلة. أسفرت إحدى الغارات عن معركة دامية بالبنادق وهي معركة قُتل فيها عدد من نشطاء القاعدة. أما الشقة التي عُثر فيها على بن الشيبة و [redacted]، فقد برزت فيها معضلة تمثلت في حمل بن الشيبة سكيناً أمام عنقه.

أعلن بن الشيبة: «إذا تقدّم أحد منكم خطوة واحدة فإنني سوف أحزّ عنقي». بدا أنه لم يدرك أنه في موقف احتجاز رهينة فإن المرء يحتاج إلى رهينة غير ذاته هو، وأن الباكستانيين كانوا سيسرون بالحصول عليه حياً أو ميتاً. كان من غير الوارد أن يسمحوا له بالفرار. لم يتأخر الأمر قبل إخضاعه. تولى فريق مكتب التحقيقات في كراتشي أمر المعتقلين في البداية، لكن سرعان ما سلّمهم إلى وكالة الاستخبارات المركزية، وذلك بناءً على أمرٍ من إدارة بوش.

قالت سامانثا في إشارة منها إلى المذكرة التي حررناها بناءً على المعلومات الاستخبارية التي أعطاها الإرهابيون إلى [redacted]. «إنها واحدة من أفضل المعلومات الاستخبارية التي قرأتها منذ مدة. يدهشني أنهم أعطوها لك».

غادرت المكتب بعد ذلك. همس لي [redacted] الذي كان في المكتب مع [redacted]: «أتعتقد أنهم سيدركون الآن مدى حماقتهم بعدم السماح لنا بالتحدث مع الاثنين الآخرين».

أجبته: «دعنا نأمل ذلك».

ظهرت سامانثا مجدداً بعد ساعاتٍ قليلة في المدخل. سألتني: «أيمكننا التحدث قليلاً؟»

«بالتأكيد تبعتها بعد ذلك إلى الممشى. «ماذا يجري؟»

قالت: «تعلم أنه من غير المسموح لك التحدث عن بن الشيبة و [redacted]، وذلك بسبب رغبتهم في إخضاعهما للاستجواب على يد .....» ذكرت اسمَي بلدين أجنبيين ـ لكن اسميهما مصنفان على أنهما معلومات سرية ـ ثم ما لبث صوتها أن تلاشى. استنتجت من تعابير وجهها أنها لا توافق على سياسة منعي من استجوابهما، وأنها تريد سماع رأيي.

قلت لها: «إن هذا يثير الشفقة. لماذا السماح للبلدان الأخرى بإجراء الاستجوابات في حين أن لدينا أشخاصاً يمكنهم القيام بهذه المهمة بشكلٍ أفضل؟».

«ويقولون إنهم قتلوا أميركيين. لا أريدهم أن يقوموا بوظيفتنا. أعرف أنه بإمكاننا القيام بهذا هنا، ونقوم بها بالطريقة الصحيحة».

«إنني أتفق معك تماماً. لكن هل تمتلكين خطة تمكننا من الوصول إليهما؟».

«أجل. سأتصرف بعكس التعليمات التي تسلمتها من واشنطن، وسأسمح لك بالتحدث مع كل واحد منهما لمدة خمس وأربعين دقيقة. أما إذا تعاونا، فلربما نتمكن من الاستغناء عن فكرة الحاجة إلى تسليمهما وإكمال استجواباتهما هنا».

«تبدو فكرة جيدة، لكن هل قلتِ إنه يمكنني استجواب كل واحد منهما لمدة خمس وأربعين دقيقة فقط؟»

«أجل. أمنحك خمساً وأربعين دقيقة».

«حسناً إذاً. سأستفيد من هذا الوقت الذي حصلت عليه».

١١ أيلول/سبتمبر، ٢٠٠٢. رآني كيفن دونوفان، الذي أصبح الآن مساعد مدير بالوكالة لمكتب نيويورك. قال لي: «مرحباً يا علي بعودتك».

أجبته: «شكراً لك. إنني مسرور بالعودة إلى الوطن». عدت لتوي إلى نيويورك بعد العمل مع الخلية المشتركة fusion cell في اليمن.

قال كيفن: «إننا ذاهبون إلى منطقة الكارثة. أود أن تحمل أنتَ وستيف بونغاردت إكليل مكتب التحقيقات بمناسبة ذكرى الهجمات».

«لكنْ هناك آخرون يناسبون هذه المهمة أكثر منا».

«كلا. يشرّف مكتب التحقيقات الاتحادي أن تقوم أنت وستيف بهذا». سبق لي أنا وستيف أن حاولت حثّ وكالة الاستخبارات المركزية على إعطائنا المعلومات التي بحوزتها قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وهي المعلومات التي كان يمكن لها أن تمنع الهجمات، ولهذا أدركت السبب الذي دفع كيفن إلى الطلب منا حمل الإكليل. كان هذا العمل رمزياً.

لم أتمكن من منع نفسي من أن أذرف الدمع عندما سرت أنا وستيف حاملَين الإكليل.

لم تكفّ ذكرى ما حدث عن الدوران في ذهني.

شعرت بعجزي عن النظر إلى الموقع الذي مات فيه ألوف الأميركيين، وذلك في هجوم كنت أعرف في أعماقي أنه كان من الممكن لنا إيقافه. مررت في إحدى اللحظات أمام صورة جون أونيل، لكن ما إن نظرت في وجه جون حتى شعرت بألم حاد في صدري. وضعنا الإكليل فوق نُصب أفراد هيئات تطبيق القانون الذين ماتوا في الهجمات.

عدت إلى المكتب بعد هذه المسيرة، بينما توجّه آخرون إلى حانة قريبة، لكنني كنت في غاية التأثر بحيث عجزتُ عن مواجهة الآخرين. جلست إلى طاولتي واستعدت ذكرى ما حدث قبل سنةٍ من الآن، وحاولت أن أعمل. رنّ هاتفي. كانت الإدارة العليا لمكتب التحقيقات الاتحادي في واشنطن على الطرف الآخر من الخط. أبلغوني بأن رمزي بن الشيبة و [redacted] قد اعتُقلا، [redacted]

سافرت جواً إلى واشنطن العاصمة، وهناك التقيت [redacted] و [redacted] وعميلاً

آخر من مكتب التحقيقات، [redacted]، والذي كان من المفترض به المساعدة في تأمين أمننا. صعدنا على متن إحدى الطائرات الخاصة التي استأجرتها وكالة الاستخبارات المركزية، والتي كانت متوجهة إلى إسلام أباد. التقانا ضباط من وكالة الاستخبارات المركزية على المدرج، وسرعان ما تقدم مني أحد الرجال الأكبر مني سناً وسألني: «هل أنت [redacted]؟»

أجبته: «أجل. أنا هو».

مدّ يده لمصافحتي وقال: «سمعت الكثير عنك. إنني متشوّق كي أراك أثناء عملك».

«شكراً لك. سنرى كيف تجري الأمور».

استقللت بعد ساعاتٍ قليلة طائرة شحنٍ صغيرة من إسلام أباد إلى كراتشي، كما سافرت معنا مجموعة جديدة من مسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية. كان المسؤولون الذين رافقونا من العاصمة وفي مطار كراتشي وديين معنا، لكن المسؤولين الذين رافقونا في هذه الرحلة تجاهلونا. تعرفت إلى بعض هؤلاء المسؤولين، وكان من بينهم فرِد، وهو مسؤول الاستخبارات المركزية الذي تسبب بمشاكل في الأردن أثناء التحقيقات في محاولة تفجيرات الألفية، وهو الذي هدّد ابن الشيخ الليبي، وهو الأمر الذي أفشل استجوابنا له. كان حضوره وتدخله علامة شؤم بالنسبة إليّ.

التقانا في كراتشي بعض مسؤولي [redacted] في وكالة الاستخبارات المركزية، وبعض جنود القوات الخاصة الباكستانية الذين كانوا يحتجزون المعتقلين. نُقل الإرهابيون [redacted]، والذين كانوا معصوبي الأعين، ومكبّلي الأيدي، واحداً واحداً من المبنى الذي يجاور المدرج إلى داخل [redacted] طائرة شحن.

أشار أحد ضباط [redacted] وكالة الاستخبارات المركزية إلى أحد الموقوفين معرّفاً إياه بأنه [redacted]. لم يكن شبيهاً في الواقع بأخيه الذي سبق لي أن استجوبته في اليمن. قال لي الضابط: «إنه مثيرٌ للمتاعب، وهو متغطرس جداً، إلى حد أنه قال للآخرين إن مدرسة إسلامية على وشك أن تُفتتح في غوانتانامو».

ما إن انتهى تحميل السجناء إلى داخل الطائرة حتى طارت إلى [redacted]، وهناك التقينا ضباطاً آخرين من وكالة الاستخبارات المركزية، ومن ضمنهم سامانثا التي تعمل في وحدة الأهداف عالية القيمة HVT. كانت الشمس قد غابت وراء الأفق وخيّم الظلام على [redacted]. أقلّتنا سيارات جيب رباعية الدفع وانطلقنا بها وسط الظلمة. استقللتُ مع سامانثا العربة ذاتها. جلسنا بصمتٍ في البداية بينما كان [redacted] يقود السيارة خارج المدينة. شاهدنا ما تبقى من [redacted] والمعدات العسكرية الأخرى، وهي التي تركها [redacted] عمداً إشارة إلى انتصارهم على قوةٍ عظمى.

سألت سامانثا بعد مرور دقائق قليلة: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

أجابت: «توجد منشأة اعتقالٍ خارج المدينة نستخدمها لاستجواب الإرهابيين».

أدخلنا من خلال بوابة المنشأة، وهو الذي بدا بأنه يتحكم في هذا الموقع. نُقل المعتقلون إلى الزنزانات، أما نحن فتلقينا تعليمات بالجلوس في غرفة الانتظار.

كنا متلهفين للبدء في جلسات استجواب المشتبه بهم. عُيّن [redacted] و[redacted] للعمل في تحقيقات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وكانا يتتبعان بن الشيبة [redacted] وكنت أعرف عائلتَي [redacted] و [redacted] بأكملهما. قلت: «إذا حالفنا الحظ فإن هؤلاء الرجال قد يقودوننا إلى خلاد وحتى إلى بن لادن».

انتظرت ما يقرب ساعة قبل أن يتقدم مني أحد مسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية ويقول: «ستستجوبون أنتم [redacted]، لكن ليس بن الشيبة أو [redacted]».

قلت له: «أرجو المعذرة. لكن لمَ لا؟»

«تلقينا تعليمات محددة من واشنطن تقضي بأن عملاء مكتب التحقيقات لا يحق لهم التحدث مع الموقوفَين الرئيسيين. أنا آسف». عملتُ فيما بعد أن برقية وردت من مركز مكافحة الإرهاب التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، جاء فيها الأمر التالي: «لا يُسمح، أكرّر لا يُسمح، لعميل مكتب التحقيقات الاتحادي [redacted] بالتحدث

[مع أبرز معتقلَين]». كان مركز مكافحة الإرهاب غاضباً مني نظراً لخلافي الواضح معهم بشأن أبي زبيدة [redacted].

سألت: «هل أتيتم بنا بالطائرة من الولايات المتحدة فقط لتقولوا لنا إنه لا يمكننا بالفعل استجواب المشتبه بهم الرئيسيين؟»

«هذا هو النظام هنا. يمكنكم أن تختاروا بين [redacted] أو لا شيء. إننا نعطيكم الخيار في ذلك».

«سنأخذ الخيار [redacted]، لكن هل لكم إعادة النظر بموقفكم من فضلكم».

اتصل [redacted] و [redacted] بإدارة مكتب التحقيقات الاتحادي للاستعلام عما إذا كانت على علمٍ بأي من هذا. أفادتنا الإدارة بأنها لا تعلم شيئاً، لكنها متضايقة مثلنا.

لم تكن تلك المرة الأولى التي نتلقى فيها [redacted] رسائل متناقضة من وكالة الاستخبارات المركزية. تُعتبر الوكالة مؤسسة كبيرة، ويوجد داخلها بعض المسؤولين الذين كانوا يعارضون استخدام تقنيات الاستجواب المعزّزة، ووقفوا معنا في موضوع استجواب أبي زبيدة. كان هؤلاء هم الأشخاص الذين أرادوا أن نجري استجواب هذين الموقوفين. أما الآخرون، وعلى الأخص مركز مكافحة الإرهاب الذي أحضر المتعاقدين، وتقنيات الاستجواب المعززة، فلم يريدوا أن نتدخل.

تدخلت أقسام في وكالة الاستخبارات المركزية قبل أن أقوم باستجواب أبي زبيدة. لكن مركز مكافحة الإرهاب لم يكترث بالتدخل منذ البداية، وذلك استناداً إلى تقاريرهم الاستخبارية التي أفادت بأنه لم يكن هو أبا زبيدة الحقيقي. بدا، مع الأسف بالنسبة إلى وكالة الاستخبارات المركزية، أن أولئك الذين يدعمون طرق الاستجواب المعززة هم الذين يمتلكون الكلمة النهائية، أما الباقون فقد أُجبروا على الذهاب إلى المفتش العام في وكالة الاستخبارات المركزية لتسجيل شكاواهم.

بدأت باستجواب [redacted]، ولم يتأخر الوقت قبل الحصول على معلومات

استخبارية قيّمة: حول تحركات نشطاء القاعدة في باكستان، وطُرق فرارهم، والمهربين الذين ينقلونهم إلى باكستان وإيران. فوجئ [redacted] بما نعرفه سلفاً عن شبكة القاعدة، والنشطاء المتعددين، وتركيبة المنظمة، وحول بلدهم الأم، اليمن – وهو الأمر الذي ساعد على إقناعهم بالتعاون معنا.

أبلغونا بمخابئ القاعدة المستخدمة على جانبَي حدود أفغانستان مع باكستان وإيران. كما أعطوا تفاصيل عن كيفية تهريب النشطاء من [redacted]، وأماكن أخرى في إيران إلى [redacted]، واليمن، وبلدان أخرى في شبه الجزيرة العربية.

كنا مهتمين بطبيعة الحال بالعمليات المستمرة، كما أخبرونا بما تورطوا به قبل اعتقالهم. تحدّث أحد الموقوفين عن ناشطٍ في القاعدة هو [redacted]، والذي كان في صدد إنشاء خلية تهدف إلى شنّ «هجمات في شبه الجزيرة». ظننت، استناداً إلى اسمه، أنه يمني، [redacted]

أجاب [redacted]، وهو ينظر في عينيه مباشرة. [redacted] وضعت يدي بلطفٍ على كتفه عندما انتهيت من الكلام.

نظر إلى الأسفل ثواني قليلة، وما لبث أن رفع رأسه محدقاً إلى [redacted]

أبلغَ مسؤولون في وكالة الاستخبارات المركزية في وقتٍ لاحقٍ من تلك الليلة [redacted] بأنهم سوف يعودون لاصطحابنا بعد ساعاتٍ قليلة. لم يأتوا أبداً، وهكذا استسلمت للنوم في غرفة تغطي أرضها وجدرانها سجادة حمراء. كان الحراس يقومون بدوريات في القاعدة خلال الليل، وأُفهمنا بأنه ما لم يسمعوا كلمة السر فإن النار سوف تُطلق علينا.

أبلغنا أحد [redacted] بكلمة السر ـ كانت [redacted]، وهي اللغة التي يتكلّمها [redacted]. كتبنا كلمة السر على أيدينا وذهبنا للنوم. استيقظتُ في منتصف الليل، وما إن توجهت نحو المرحاض حتى سمعتُ الحارس يصرخ في وجهي.

كان يتكلم باللغة [redacted]، وهكذا لم أفهم شيئاً، وبسبب أني كنت نصف نائم تطلب الأمر مني لحظات قليلة لأعرف أنه يريد معرفة كلمة السر. حاولت قراءة الكلمة المكتوبة على يدي وصرخت متلفظاً بالكلمة. جربت عدة طرقٍ مختلفة للتلفظ بها، وفي المحاولة الرابعة أو الخامسة أشار لي بالمرور.

استيقظت باكراً في صباح اليوم التالي بعد انبلاج الفجر، وكان [redacted] يهمس بجملة واحدة في أذني مرة بعد أخرى: «استيقِظ يا علي، لكن لا تتحرك. علي استيقظ، لكن لا تتحرك». فتحتُ عيناً واحدة ونظرت إلى [redacted]، الذي كان مستلقياً إلى جانبي. بدا نائماً لأنه لم يكن يتحرك، كما أن عينيه كانتا شبه مغمضتين. رأيت أصابعه تلتف بشدة حول مسدسه.

قال لي وهو يشير بعينيه نحو مدخل الغرفة: «انظر. انظر إلى هؤلاء الرجال الذين يراقبوننا». رأيت من زاوية عيني اثنين من [redacted] جاثمين على الأرض ويحدقان نحونا. قاما بإيقاظ [redacted] بالطريقة ذاتها التي أيقظني [redacted] بها، وكان يهمس ويأمرهم بعدم التحرك. لم يتكلّم أحد منا [redacted]، كما أننا لم نكن متأكدين مما يجدر بنا أن نفعله.

قررت بعد دقائق قليلة كسر الجمود، فتظاهرت بأنني استيقظت. تمطيت قليلاً ووقفت ببطء، ثم التفتّ إلى [redacted] وقلت: «السلام عليكم». يعرف كل المسلمين هذه العبارة مع أنها بالعربية. ابتسم لي أحد [redacted] ابتسامة كبيرة، وأشار لي بأن أتبعه.

تناولت أغراضي وأسلحتي وتبعته بحذر إلى خارج الغرفة. دخلنا إلى غرفة أخرى حيث كان أحد الأشخاص الذي خمّنت بأنه القائد، وكان طعام فطوره أمامه. أشار لي بالجلوس ثم أشار إلى الفطور، وقال: «كُلْ». بدا أن هذه الكلمة هي كل ما يعرفه من اللغة الإنجليزية، لكنه لم يبذل أي جهد للتكلّم معي بعد ذلك.

كان هناك بعض الشاي، والخبز، والجبن، وكان من الممكن أن أستمتع بها لولا مرور نصف ساعة على طلوع الشمس من دون ظهور رجال وكالة الاستخبارات المركزية، وذلك بالرغم من تأكيدهم لي أنهم سوف يأتون لاصطحابنا في الليلة السابقة.

كنت أعرف أن الوضع في [redacted] هو في غاية التعقيد، وذلك مع تبديل القبائل ولاءاتها بشكل منتظم، وهكذا بدأت أخشى من أن يكونوا قد وقعوا أسرى كي يتم استخدامهم كأوراق للمساومة.

عدت إلى غرفتنا وقمت بعد ذلك بنزهة حول القاعدة. رأيت سيارة جيب تابعة [redacted] وهي تحمل صورة كبيرة تمثّل [redacted] على زجاجها الأمامي.

ما إن وقف حول سيارة الجيب، حتى قلت للآخرين: «هناك مشكلة ما، وهناك سبب لعدم قدوم أفراد وكالة الاستخبارات المركزية لاصطحابنا. إما أن نمكث هنا وننتظر ما يحدث، وإما أن نستعير سيارة الجيب هذه ونتوجه إلى [redacted]».

وافق الآخرون على أنه يتعيّن علينا أخذ سيارة الجيب. لم يكن لدينا جهاز تحديد المواقع، كما لم يكن لديّ فكرة واضحة عن كيفية الوصول إلى [redacted]، لكن بدا لنا البقاء مخاطرة كبيرة. أشرت نحو [redacted] الذي كان يراقبنا بأننا نريد فقط استعارة سيارة الجيب للقيام بجولةٍ في المنطقة، وهو الأمر الذي شرحته له عن طريق قيامي بحركات بذراعيّ تدل على القيادة، ثم بحركة دائرية بأصابعي. ابتسم الجميع وأومأوا بالموافقة.

سألت [redacted] هل تجيد قيادة السيارات؟ [redacted]

«سألتُ: «وهل ترى أي طرقاتٍ هنا كي نقود فيها؟» ضحك الجميع. لم نرَ من حولنا سوى طرقاتٍ ترابية وأراضٍ جرداء.

استخدمنا ذاكرتنا في محاولة منا [redacted] تذكّر كيفية وصولنا إلى القاعدة، وحاولت العودة بهذه الطريقة. مررنا بعدد كبير من [redacted] سيارات الجيب والدبابات فاضطررنا إلى قيادة سيارة الجيب حول حفرة كبيرة بدا أنها نتيجة سقوط قنبلة كبيرة. تمكّنا من العودة بفضلٍ من الله فقط، وما لبثنا أن وصلنا إلى قاعدة وكالة الاستخبارات الأميركية هناك. ذُهل المسؤولون عندما رأونا.

تمتم أحدهم: «ماذا تفعلون هنا؟ كيف وصلتم إلى هنا؟»

أجبته: «لقد استعرنا سيارة جيب».

قال أحدهم بتردد: «كنا ننوي الذهاب إليكم، لكننا انشغلنا بأمور أخرى».

استخدمنا سيارة الجيب منذ ذلك الحين في كل مرة احتجنا فيها للتنقل من مكانٍ

إلى آخر، ولم نشأ الاعتماد على مسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية المحليين ليتركونا ومصيرنا مجدداً. أما عندما عدتُ إلى الولايات المتحدة فقد تركت سيارة الجيب بالقرب من مخبأ تابع لوكالة الاستخبارات الأميركية، وعندما عدت بعد أشهرٍ قليلة كانت ما تزال في مكانها، وهكذا استخدمتها مجدداً.

كتبت من المخبأ [المنزل الآمن] التابع لوكالة الاستخبارات الأميركية، المعلومات الاستخبارية التي حصلت عليها من معتقلي [redacted]، وأرسلتها عبر وكالة الاستخبارات المركزية إلى إدارة مكتب التحقيقات الاتحادي، وذلك لأن الـCIA أصرت أن نستخدم نظامها فقط عند إيداع تقاريرنا. أتت سامانثا لمقابلتي في هذه اللحظة.

كانت الترتيبات التي اقترحتها هي أن أقوم أنا باستجواب بن الشيبة و [redacted] من دون حضور [redacted]. كان من المفترض حضور أحد ضباط مركز مكافحة الإرهاب في غرفة الاستجواب. كان زملاء [redacted] في وضعٍ أفضل من وضعي لاستجواب بن الشيبة، وذلك لأنهم كانوا يلاحقونه.

سألتني سامانثا: «وما الفرق؟ أنت تعرف القاعدة».

«يمتلك [redacted] التفاصيل الصغيرة، وهذه التفاصيل هي ما يستخدمه المرء لإقناع الموقوفين بأنه يعرف كل شيء عنهم، وكذلك للإمساك بهم إذا ما كذبوا. يعرف [redacted] الأسئلة التي ينبغي أن يطرحها على بن الشيبة وما ينبغي عليه أن يعرفه. إما أن تسمحي لهم بالدخول معي إلى الغرفة، وإما أن ترسليهم بدلاً مني، وعندها سأقوم بمقابلة [redacted]».

«أنا آسفة، لكن يمكنك الدخول وحدك. يمكنهم البقاء في الخارج ومراقبة ما يجري عن طريق حلقة البث المقفلة CCTV. أما إذا كنتَ تريد الاستفادة منهم فسوف يكونون بقربك». اعتبرت أن هذا قد يفيدنا لأننا كنا نستخدم شبكات البث المقفلة في غيتمو. قبلت لأنني لم أمتلك أي خيارٍ آخر على أي حال.

قلت لسامانثا: «حسناً. دعينا نجرّب ذلك».

عدنا إلى منشأة الاعتقال التي تقع في ضواحي المدينة، وبينما كنا ننتظر حراس [redacted] لإحضار بن الشيبة إلى غرفة الاستجواب اكتشفتُ أن حلقة البث المقفلة غير مزودة بنظام للصوت. كان ذلك يعني أن [redacted] سيتمكنون من مشاهدة ما يجري، لكن من دون أن يسمعوا شيئاً.

أحضر [redacted] بن الشيبة إلى الغرفة وطرحوه أرضاً، ثم كبّلوه بالجدار. بدا بالضبط مثل الصورة التي أمتلكها عنه في قائمة أخطر الإرهابيين المطلوبين لدى مكتب التحقيقات. كان ذلك أمراً غير اعتيادي لأن الإرهابيين نادراً ما يشبهون صورهم التي أحتفظ بها تماماً. يُضاف إلى ذلك أنهم يغيّرون مظهرهم لإخفاء هوياتهم، أو أنهم يحاولون الظهور بمظهر الجد في صورهم. تُظهر صورة أبي جندل، على سبيل المثال، شخصية غير مبتسمة، وصلبة المظهر، لكن الرجل لا يكف عن الابتسام إذا ما التقى المرء به.

شعرت بأنني أرتجف في أعماقي أثناء دخوله الغرفة، وذلك لأنه كان شخصاً مسؤولاً مباشرة عن أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. سبق لي أن استجوبت أعضاء في تنظيم القاعدة أكثر أهمية منه، لكن بن الشيبة كان متورطاً بصورةٍ مباشرة بمقتل عددٍ كبير من الأميركيين. تعيّن عليّ الحفاظ على رباطة جأشي وتحكمي بالوضع إذا ما أردت النجاح معه، وهكذا طلبت بهدوء مِنْ [redacted] فكّ قيوده.

عرّفته بـ [redacted] باختصار بعد خروج الحراس وقلت له: « [redacted] ».

[redacted]

[redacted]

أجرى بن الشيبة مقابلة مع محطة الجزيرة قبل أيام قليلة. اعترف بن الشيبة، وبكل فخر، بدوره في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وقدَّم روايةً مفصّلة عن مرحلتَي تخطيط المؤامرة وتنفيذها. [redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

بعد أن أعطاني هذه المعلومات أخذت فترة استراحة بهدف إبلاغ [redacted] ومقابلة أقوال بن الشيبة مع ما قاله لي. اكتشفت أنه أعطانا معلومات جيدة بالإجمال، لكن [redacted] لاحظ فروقات طفيفة بين ما كان يقوله، والأدلة التي

حصلنا عليها نتيجة التحقيقات التي أجراها [redacted]. كان ذلك يعني أنه يختبر معرفة [redacted]، وأنه يمارس تكتيكاً تقليدياً مضاداً للاستجواب.

بعد إعادته إلى الزنزانة، [redacted]

تابعت استجوابنا، وكنت أخرج بانتظام وأراجع مع [redacted] للتأكد من أن ما قاله لي بن الشيبة يتقاطع مع ما كنا نعرفه سلفاً. لم يقتصر الأمر على قدرتهما على معرفة ما إذا كان يقول الحقيقة أم لا، لكنهما كانا يستطيعان اقتباس أدلة

تدعم وجهات نظرهما، وذلك من دون الرجوع إلى ملاحظات مكتوبة، مثل رسائل الفاكس، والمواعيد المحددة، والمعلومات الأخرى التي هي بحوزتنا. إن [redacted] هو محام متدرّب، لكنه ترك المحاماة كي يحقق حلمه بأن يكون عميل مكتب التحقيقات الاتحادي، كما أن تدريبه كان واضحاً للعيان. كان يولي التفاصيل اهتماماً شديداً. يمتلك [redacted] مهارات مماثلة، كما أنني تأثرت كثيراً بقدرة الرجلين على تحديد أكاذيب بن الشيبة وعلى الفور.

مضت خمسٌ وأربعون دقيقة قال لنا بعدها مسؤولو وكالة الاستخبارات المركزية إن وقتنا قد انتهى، وهكذا أخرجوا بن الشيبة من الغرفة. اتصلّ [redacted] بمقرّ الإدارة العامة وأبلغها بالاختراقات التي حصلنا عليها. طلبت الإدارة العليا منّا تدوين المقابلة. بدأت التحضير لاستجواب الهدف [المعتقل] الثاني ذي القيمة العالية HVT، أي [redacted]، بينما عمل [redacted] على تدوين المقابلة.

كان [redacted] عارياً عند إدخاله إلى غرفة الاستجواب، لكنه بدا مزهواً ورافعاً ذقنه إلى الأعلى. حتى لَيُخَيَّل إليك أنه يرتدي ثياب ملك، وأنه هو الذي يسيطر على المكان. نظر نحوي بازدراء بينما كان أحد حراس [redacted] يوثقه بالجدار. بصق على الأرض كي يُظهر مدى استيائه، وتلفّظ بسلسلة من الشتائم.

تجاهلته تماماً، ونزعت عنه قيوده، وناولته منشفة يغطي نفسه بها، ثم جلست إلى جانبه على الأرض. نظر بعيداً عني. [redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted] أدرك أنه عرف هوية الشخص الوارد في القصة.

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted] كان في أحد سجون اليمن منذ حادثة [redacted]. لكن حتى بعد إطلاق سراح أعضاء آخرين في القاعدة من الذين ألقي القبض عليهم بسبب سرقات السيارات، فقد أُبقي مسجوناً بهدف استخدامه ورقة مساومة بسبب أهمية أسرته بالنسبة إلى بن لادن. لم يُشاهد [redacted] [redacted] طوال سنوات عدة.

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

انتهى وقتي مع [redacted] وهكذا أخذه حراس [redacted] بعيداً.

أخبرت [redacted] بما قاله [redacted] لنا [redacted]، كما كتبنا المعلومات، ووزّعناها من خلال أقنية وكالة الاستخبارات المركزية. اتصلنا كذلك بالإدارة العليا لمكتب التحقيقات الاتحادي على هاتفٍ آمن، وأعلمناهم بما حدث.

قال رئيسي بات دامورو: «هذا ما يُقال له معلومات استخبارية قابلة للتنفيذ. إذا تحركنا الآن، فلا بد من أن نتمكن من إحباط المؤامرة. يتعيّن عليهم الآن، وبالنظر إلى نجاحاتكم الواضحة، والتي لا يمكن لأحد إنكارها، منحكم المزيد من الوقت لاستجوابه، وتغيير رأيهم بشأن تسليمه. سأحرص هنا على أن يعلم الجميع بهذه الأخبار الطيبة. قمتم بعملٍ عظيم».

خيّمت علينا حالة من الابتهاج: حصلنا على معلومات استخبارية قابلة للتنفيذ من كل واحدٍ من هذين الهدفين [المعتقلَين] المهمّين، وهو الأمر الذي يُبرهن عدم الحاجة إلى تسليمهما إلى بلدانٍ أجنبية حيث سيتعرضان للتعذيب. انتظرنا في المكتب وصول تعليمات حول ما سنفعله لاحقاً، ولم أشك في أنني سوف أحصل على فرصة للتحدث مع المعتقلَين وفي أسرع وقت.

دخل نائب رئيس محطة الاستخبارات المركزية إلى مكتبنا بعد مرور نحو ساعة على تحدّثه مع الإدارة العليا. صرخ فيّ: «مَن هو بحق السماء الشخص الذي أبلغ إدارة مكتب التحقيقات بأن المعتقلَين يتعاونان مع التحقيق؟»

قلت له: «نحن فعلنا ذلك، أو بالأحرى أبلغنا بحقيقة ما حدث خلال الاستجوابات. توجد بالفعل معلومات استخبارية قابلة للتنفيذ، كما توجد دلائل كثيرة على أنهما تعاونا».

«ألا تعرفون أنه ما مِن أحدٍ يمكنه منع إرسال هذين الرجلين إلى ....؟» ذكر اسمَي البلدين اللذين ما زالا سريين حتى الآن.

«لا معنى لذلك، لأننا حصلنا على معلومات استخبارية واضحة وقابلة للتنفيذ، وهكذا لا توجد حاجة لإرسالهما إلى أي مكان آخر. تخطئون كثيراً إذا ما فعلتم ذلك».

صاح قائلاً: «هذه مسألة أكبر منكم، لأن الأمر أتى من البيت الأبيض. لا يمكنكم أنتم، أو مكتب التحقيقات أن تفعلوا شيئاً. لا يمكنكم إيقاف عملية التسليم». تلفظ بهذه الكلمات بسرعة، وتصرف وكأنه مستاء جداً، وما لبث أن خرج مسرعاً من الغرفة.

أبلغتُ إدارة مكتب التحقيقات الاتحادي بما حدث، بما في ذلك عبارة «هذه مسألة أكبر منكم»، وهي التي توحي بأن القرارات قد اتّخذت من أعلى مركز في الإدارة الأميركية.

أُبلِغنا في البداية بأن نظلّ في حالة انتظار، وذلك بينما يحاول مسؤولو مكتب التحقيقات الاتحادي التفاوض مع وكالة الاستخبارات المركزية والبيت الأبيض لمعرفة ما إذا كانا يوافقان، على الأقل، على تأخير عملية التسليم بحيث نتمكن من التحدث مع المعتقلَين لوقتٍ أطول. أُبلِغنا بمؤامرات قيد التنفيذ ـ وهي شبيهة بقنابل موقوتة ـ كما أنهما كانا مستعدين للإدلاء بمعلومات قد تقودنا إلى بن لادن. تمكّنا من إرساء جوٍ من الوئام مع المعتقلين، لذلك كان من غير المبرر عدم إعطائنا فرصة التحدث معهما بضع ساعاتٍ أخرى. حذّرت الإدارة العليا البيت الأبيض من أن التصرّف مع بن الشيبة [بهذا الشكل]، وعلى الأخص في هذا الوقت، سيؤثّر في إمكانية تمكننا من ملاحقته قضائياً في المرحلة النهائية.

جاء الرد على الشكل التالي: «اتُّخذ القرار بتسفيرهما جواً إلى البلدين المعنيين. سيُعتبر الموقوفان غير متعاونين، حتى ولو أبلغانا بمكان وجود بن لادن».

تلقيت بعد ساعات قليلة مكالمة هاتفية من الإدارة العليا. قال بات بصوتٍ محبط إننا خسرنا المعركة، وأن القرار قد اتُّخذ، أي تماماً مثلما قال نائب رئيس قاعدة وكالة الاستخبارات المركزية: إنهم ينكرون أن بن الشيبة و [redacted] قد تعاونا معنا، وقال إن ما سمعناه هو مجرد أكاذيب.

[redacted]

قال لنا أحد الزملاء في وقتٍ لاحق: «اتُّخذ قرار قبل استجوابكما للمعتقلَين. كان السبب الوحيد لسماحهم بفترة الدقائق الخمس والأربعين هو تغطيتهما في المرحلة النهائية. لم يتوقعوا أن تتمكنوا من إحراز هذا النجاح في هذه الفترة القصيرة، وهكذا لم يمانعوا بأن تتحدثوا إليهما بحيث سيقولون عند مساءلتهم إنهم فعلوا كل ما في وسعهم حتى إعطاء أحد أكبر مستجوِبي مكتب التحقيقات فرصة استجوابهما، لكن الإرهابيين لم يتعاونا. لكنكم أفسدتم عليهم خططهم، ولهذا أنكروا حصولكم على معلوماتٍ استخبارية».

لا أصدّق هذه النظرية، وأعتقد أن سامانثا، التي أعطتنا فرصة إجراء الاستجوابات، كانت من ضباط وكالة الاستخبارات المركزية الجيّدين. تعرّفت أثناء عملي في مواقع مختلفة إلى مسؤولين من وكالة الاستخبارات المركزية كانوا محترفين وموهوبين في أعمالهم، وقاموا بما هو صائب. أعتقد أن سامانثا تقع ضمن هذه الفئة، كما أنها حاولت القيام بالأمر الصائب، لكنها فشلت في النهاية وذلك لأن القاطرة [القوة القاهرة] كانت أقوى من أي شخصٍ في هذا الحقل.

أمرت الإدارة العليا [redacted] بهدف [redacted] بن الشيبة [redacted]

[redacted] لمعرفة ما إذا كان بالإمكان استجوابه مجدداً. أُبلغ [redacted] بضرورة العودة إلى اليمن للعمل مع الخلية المشتركة fusion cell على إحباط الخطة التي أبلغنا [redacted] بها. كانت المشكلة بالنسبة إلينا هي أنه بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر حازت وكالة الاستخبارات المركزية السيطرة على عمليات مكتب التحقيقات الاتحادي في الخارج. اعتبرت لانغلي أن التهديد بتفجير ناقلة النفط غير حقيقي بالمرة: بالنسبة إليهم [redacted] قال أكاذيب.

الفصل الخامس والعشرون

مذكرة الكرة السحرية

٦ تشرين الأول/أكتوبر، ٢٠٠٢. رنّ الهاتف في غرفة الفندق الذي أنزل فيه في صنعاء. قلت: «مرحباً»

قال العقيد سكوت ديوك، وهو مسؤول سلاح البحرية عن الخلية المشتركة في اليمن: «افتح جهاز التلفزيون». كان صوته عالياً، وتمكّنت من ملاحظة الغضب والتأثر في لهجته.

«ماذا جرى؟»

أجابني: «لقد فعلوها. هناك ناقلة نفطٍ تحترق قبالة شاطئ المكلا. كان من الممكن أن نمنع هذا لو أنهم أصغوا إلينا، فقط لو أنهم أصغوا إلينا...» شغّلت جهاز التلفزيون، فشاهدت ألسنة الدخان تتصاعد من ناقلة نفط في عرض البحر. ظهر شريط إخباري في أسفل الشاشة يقول: «نبأ عاجل: انفجار في ناقلة نفط قبالة ساحل اليمن».

أنهينا المكالمة وأطفأت جهاز التلفزيون ثمّ حدّقت في النافذة لدقائق قليلة. يستحيل على المرء أن يصف شعوره عندما يعرف أنه كان من الممكن إحباط هذا الهجوم الإرهابي لو أن حكومته دعمته. سيطر عليّ ذلك الشعور الرهيب مجدداً.

رنّ هاتفي بعد مرور ساعات. كان آندي آرينا، وهو كبير مسؤولي مكتب التحقيقات الاتحادي، والذي رفض الربط بين صدّام حسين والقاعدة، على الطرف الآخر من الخط. قال بصوتٍ مليء بالذعر: «إنني بحاجة يا علي إلى التأكد من شيء معك. ما كان مدى توزيع [redacted] مذكرة [redacted] التي تحذّر من هجوم قبالة ساحل اليمن؟»

أجبته: «وزّعنا هذه المذكرة عبر كل الوكالات الحكومية الأميركية عن طريق أقنية وزارة الدفاع».

قال آندي: «انتهيت لتوي من التحدث هاتفياً مع بات دامورو. إنه مستاءٌ جداً من أن الهجوم حدث بالضبط كما توقّع [redacted] في المذكرة، أي أنه حدث ضد ناقلة نفط قبالة ساحل المكلا، وهو مستاءٌ جداً من عدم الإصغاء إلى التحذير. لكنه أراد أن يتأكد من أن المذكرة قد وُزّعت بشكلٍ واسع».

تم وضع تلك المذكرة بمساعدة فريق من الجيش والخلية المشتركة. عُقد اجتماع ضم ممثلين عن كل الوكالات الحكومية الأميركية في اليمن، وكذلك السفير الأميركي إدموند هَل. طلب الكولونيل ديوك في ذلك الاجتماع الإذن بالتدخل لإحباط ذلك المخطط. عارضت [redacted] وكالة الاستخبارات المركزية التحليل الذي قدّمه [redacted].

قُتل أحد أعضاء طاقم الناقلة في الهجوم الذي حدث في ٦ تشرين الأول/أكتوبر على ليمبورغ، وهي ناقلة نفطٍ يبلغ طولها ٣٣٢ متراً ويبلغ عرضها ٥٨ متراً، وترفع العلم الفرنسي قبالة ساحل المكلا. جُرح اثنا عشر آخرون في هذا الحادث، بالإضافة إلى تسرب كمية ٩٠,٠٠٠ برميل من النفط في خليج عدن.

توجهت بعد الانتهاء من المكالمات الهاتفية مع ديوك وآندي إلى السفارة الأميركية مع بوب بهدف عقد اجتماع في مكتب السفير هَل. تجمّع أعضاء من الخلية المشتركة، ومسؤولون من وزارة الخارجية، و [redacted] في وكالة الاستخبارات

المركزية. لاحظت عند دخولي مع ستيفن غودين، والذي كان يعمل في ذلك الوقت كملحقٍ خاص دائم بالخلية المشتركة، بأن [redacted] بدا غاضباً.

قال السفير: «عدت لتوي من اجتماعٍ مع مسؤولين يمنيين. أبلغوني بأنهم يعتقدون أن الهجوم كان حادثاً وليس هجوماً إرهابياً». أُبلغنا كذلك بأنه في الوقت الحاضر يتعيّن علينا تأييد رأي اليمنيين في هذه القضية، وعدم كتابة تقارير تقول إنه حادث إرهابي.

سأل ستيفن: «وعلى أي أساسٍ استندوا في قولهم إنه حادث؟»

«لقد حققوا فيه. هذا هو موقفهم».

غادرت الاجتماع مع ستيفن والعقيد ديوك الذي راح يتمتم في طريقنا: «أراهن بأنه ليس حادثاً».

أجبته: «مثل ما قالوا عن الهجوم على المدمرة يو. أس. أس. كول إنه حادث؟»

قال ديوك: «لن ينفعهم هذا التمويه».

قلت: «ستظهر الحقيقة في وقتٍ قصير. هناك اتجاه الانفجارات، والمخلفات، والشهود. يشبه ذلك ما حدث مع كول. لا يمكننا إخفاء حقيقة أن الهجوم إرهابي مدة طويلة».

بقي الموقف الرسمي مدة ثلاثة أيام يفيد بأن ما جرى لم يكن هجوماً إرهابياً. لم نتمكن من إطلاق صفة الإرهابي على الهجوم، كما لم نتمكن من الإشارة إلى المذكرة التي كتبتها قبل الهجوم متوقعاً حدوثه.

بدأ فريق من هيئة التحقيقات الجنائية البحرية كان قد وصل في اليوم الثالث إجراء الاختبارات على الناقلة فوجدوا بقايا من مادة تي. أن. تي ومتفجراتٍ أخرى. توضح بعد الكشف على منطقة الانفجار أن الناقلة قد تعرضت لهجوم. رفعت هيئة التحقيقات الجنائية البحرية تقريراً بالنتائج التي توصلت إليها إلى المسؤولين عنها.

أما مدير مكتب التحقيقات الاتحادي فقد عيّن من جهته فريقاً من مكتب التحقيقات مختصاً بالتفجيرات ليحقق في الحادث.

حققنا في هذا الهجوم بمشاركة اليمنيين، وتوصلنا إلى أن ما حدث يتوافق تماماً مع المعلومات التي أعطاها [redacted] إلى [redacted]: اثنان من مهاجمي القاعدة الانتحاريين، أحدهما [redacted] الذي ذكره [redacted] بالاسم أمام [redacted]، قد اقتربا بقاربهما إلى جانب ليمبورغ وفجّرا شحنة المتفجرات التي حملها قاربهما.

عُرفت المذكرة التي كتبتها في الدوائر الحكومية بأنها «مذكرة الكرة [التوقعات] السحرية»، وذلك لأنها كانت دقيقة تماماً بشكلٍ لا يُمكن إنكاره.

قررت لجنة مشتركة من الجيش، والخلية المشتركة التابعة لمكتب التحقيقات، أن خليّتين كانتا تعملان في اليمن: واحدة أرسلها النشيري خصيصاً لمهاجمة ليمبورغ، ومجموعة محلية كان يديرها أبو علي الحارثي، وهو الرجل الذي عيّنه بن لادن في اليمن بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. اشتملت خلية الحارثي على فرقان الطاجيكي. ركّزنا على تتبع النشطاء الآخرين بعد أن مُنعنا من تفكيك الخلية التي تستهدف ليمبورغ.

علمنا كذلك أن خلية القاعدة المحلية قد وضعت خطة تستهدف السفارات الأجنبية في صنعاء، وأنها خطّطت لضرب السفارات الأميركية، والبريطانية، والألمانية، والفرنسية، والكوبية. وُضعت السفارة الكوبية ضمن قائمة الأهداف بسبب احتجاز المعتقلين في خليج غوانتانامو. بدا أن قيادة القاعدة لم تكن على علم بأن ذلك الموقع تمتلكه الولايات المتحدة وتديره، أي أنه لا يتعلق أبداً بالحكومة الكوبية.

كان من المقرّر أن يحدث هجوم الخلية المحلية في يوم ١٣ حزيران/يونيو، ٢٠٠٢. قرّر النشطاء بعد قيامهم بمراقبة السفارتين البريطانية والألمانية مهاجمتها بسيارات مفخخة؛ أما السفارتان الفرنسية والكوبية فتقرّر مهاجمتهما بمتفجرات تُترك في جوارهما؛ وتقرر ضرب السفارة الأميركية بصاروخ موجّه، وذلك بسبب

اعتبارها محمية جيداً بحيث يستحيل مهاجمتها بسيارات مفخخة، أو بأكياسٍ من المواد المتفجرة. كان سلمان التعزي، وهو خبير المتفجرات، يعمل قبل ثلاثة أيام من العملية على زيادة قدرة الصاروخ، فطلب من وليد الشيبي، وهو كبير النشطاء في الخلايا العاملة في اليمن، أن يحمله ريثما يقوم بإعادة توصيل بعض الأسلاك. سار الشيبي بتثاقل فوق أرض الغرفة المغطاة بالسجاد. لكنه ما إن لمس القذيفة الموجهة حتى تجمعت الطاقة الساكنة بسبب اجتيازه السجادة، وهو الأمر الذي تسبّب بإشعال القذيفة التي سرعان ما اخترقت جسد التعزي فقتلته على الفور. تسبّب هذا الإشتعال كذلك بإصابة الشيبي بصدمة كبيرة، وسرعان ما ركض إلى خارج الشقة صارخاً، لكنه انهار في الممشى. فارق الشيبي الحياة بعد لحظات قليلة.

أما فرقان وشقيقه الآخر الذي كان ناشطاً بدوره فكانا يستريحان في الجوار. ركض الشقيقان حافيي الأقدام إلى خارج المبنى بعد أن سمعا الانفجار، واجتازا الشارع وهما يصرخان بهستيرية. كان ذلك نهاية الهجوم المخطّط على السفارات.

لكن فرقان وأعضاء آخرين من خليته ما زالوا ينشطون في اليمن.

عملنا إلى جانب صديقينا العقيد ياسر والرائد محمود، وهما المسؤولان في الأمن السياسي PSO، وذلك بهدف ملاحقة أعضاء الخلية المحلية. كان فرقان يختبئ عادة في منزل أبي سيف، وهو عم نبراس. داهم اليمنيون منزل أبي سيف الذي قُتل في معركة بالبنادق بسبب مقاومته عملية إلقاء القبض عليه. عُثر في منزله على أدلةٍ تتعلق بالقاعدة والخليّة المحلية. عثرنا كذلك على وصية الاستشهاد التي تركها نبراس.

زار فرقان وشقيقه أبو بكر (ناشط آخر ينتمي إلى الخلية المحلية) أبا الشهيد السناني، وهو أحد نشطاء ليمبورغ، وقال له إن الحارثي يريد ضرب طائرة حوامة [هليوكوبتر] تابعة لشركة نفط. لم يوافق النشيري على هذه العملية، لكن بما أن الطلب جاء من الحارثي فقد منح السناني مساعدته بشكل مبلغ نقدي، وعيّن له أحد النشطاء ليقوم بأعمال المراقبة، وشخصاً آخر لتدريب المجموعة على الأسلحة.

استأجر فرقان منزلاً في صنعاء وملأه بالأسلحة والذخائر بما فيها قاذفة صواريخ موجهة. قضت الخطة أن يُطلق فرقان القذيفة الصاروخية الموجهة نحو الحوامة، بينما يُصوّب عليها ناشط آخر ببندقية AK-47 كُلّف ناشطان آخران بقيادة السيارتين إلى المدخل وتصوير العملية على شريط فيديو.

أقدم فرقان عند ملاحظته للطائرة الحوامة على إطلاق القذيفة، لكنه أخطأها. أفرغ الناشط الذي يحمل الرشاش كل ما في مخزنه من طلقات، والتي بلغ عددها ٢٥٠ طلقة، لكنه تمكّن من إصابة الحوامة مرتين فقط، إلا أن ذلك لم يتسبب لها بأضرار خطيرة. أدركت المجموعة أن الخطة فشلت فهرع أفرادها إلى السيارتين وابتعدا بها. ألقى أبو الليث بندقيته تحت المقعد الأمامي ثم صعد إلى داخلها، بينما جلس شقيقه حُزام في المقعد المخصّص للسائق. لم يكن رشاش AK-47 مغلقاً [مؤمناً]، وهكذا ما إن أسرعا بالسيارة فوق الطريق المليئة بالأخاديد حتى انطلقت رصاصات الرشاش فأصابت أبا الليث في قدمه.

انطلق أبو الليث باكياً من فرط الألم وبدأ بالصراخ: «لقد أُصبت. لقد أُصبت». لم يعرف حُزام مكان انطلاق الرصاص، لكنه أوقف السيارة إلى جانب الطريق، وانحنى ظناً منه أنهما يتعرضان لهجوم. قفز أبو الليث من السيارة صارخاً من الألم. أما المجموعة الأخرى من النشطاء، ومن بينهم فرقان فلم تعرف ما حدث. عُثر في النهاية على الرشاش غير المغلق [غير المؤمن] تحت المقعد الأمامي، بينما نقل النشطاء أبا الليث إلى المستشفى.

أما الخفّ الذي كان ينتعله فقد سقط وسط كل هذه الجلبة، وبقي على جانب الطريق.

حققنا في قضية الهجوم على الحوامة. توصلنا بعد ذلك إلى اختراقٍ كبير عند العثور على الخف الذي يحمل آثار الدماء، وذلك بعد أن ذكر بعض الشهود سماع أصوات الرصاص في المنطقة. تفحص اليمنيون سجلات المستشفيات المحلية

للتحقّق من استقبالها لأي شخص مصاب بجرح نتيجة طلقات رصاص في قدمه. تبيَّن أن شخصاً ما قد أتى بالفعل، وكان ناشطاً معروفاً في القاعدة يدعى أبا الليث، والذي يعمل ضمن خلية فرقان. استجوبه اليمنيون، وهكذا بدأنا معاً ملاحقة باقي أعضاء الخلية.

استمع محلّلون يعملون في وكالة الأمن القومي الأميركية، وبمحض الصدفة، إلى مكالماتٍ هاتفية فتمكنوا من تحديد مكان الحارثي، وما لبث صاروخ أن أُطلق من طائرة غير مأهولة على سيارته. قُتل الحارثي وخمسة نشطاء آخرون من القاعدة الذين كانوا معه في السيارة. كان من بين القتلى مساعده الرئيس، وهو مواطن أميركي يمني المولد يُدعى كمال درويش، والذي كانت له روابط وثيقة مع إحدى مجموعات القاعدة في الولايات المتحدة، والملقبة باسم لوكاوانا الستة. (كانت المجموعة تجتمع عادة في شقة درويش التي تقع قرب بافالو في نيويورك).

أمر النشيري خلية ليمبورغ بالتحرك لاغتيال السفير الأميركي إدموند هَلْ وذلك انتقاماً لمقتل الحارثي ورفاقه. اختبأ أعضاء الخلية بعد الهجوم على ليمبورغ، لكن ما إن أمرهم النشيري ببدء التخطيط لهجوم جديد حتى ظهروا مجدداً، وهكذا تمكنّا من العثور عليهم واعتقالهم. حدّد المتآمرون الطرقات التي يسلكها السفير، وكانوا يخطّطون لإطلاق صواريخ موجهة على سيارته المدرعة. عثرنا كذلك على المخبأ الذي استأجروه، والأسلحة التي أرادوا استخدامها.

عملنا بعد إلقاء القبض على نشطاء من الخليتين مع السلطات اليمنية لملاحقتهم قضائياً. كان المدعي اليمني سعيد العاقل ملتزماً بتحقيق العدالة، فواجه محامِي الدفاع الذين حاولوا ترويج نظريات المؤامرة، بما في ذلك فكرة أنه لا وجود للقاعدة، وأن كل ما يجري هو عبارة عن اختلاقات أميركية. راح الموقوفون في هذه الأثناء يؤدون أغنيات في قاعة المحكمة يثنون فيها على بن لادن والقاعدة.

بصق المشتبه بهم على الأرض أمامنا أثناء دخولهم في أول يوم محاكمةٍ لهم.

طلبتُ من أحد الزملاء التوجّه نحوهم، وجمع بصاقهم في أوراق وأن يقول لهم: «شكراً لكم، لقد حصلنا الآن على حمضكم النووي DNA». فعل الزميل ما طلبته منه. وهكذا لم يبصقوا بعد ذلك على أرض المحكمة أبداً أثناء وجودنا.

صاح قاسم الريمي، وهو أحد النشطاء الشبان العاملين مع فرقان بوجه العاقل بينما كان يتلو لائحة الاتهام: «سأكسر ساقيك».

أجاب العاقل: «ماذا قلت؟ أتعتقد أن أحداً مثلك يستطيع أن يهددني؟» ألقيت في ذلك المساء قنبلة يدوية على منزل العاقل بينما كان خارجه. لم تُصب، لحسن الحظ، زوجته وأولاده بأذى في ذلك الحادث.

جرت محاكمتان، واحدة للمشتبه بهم في الهجوم على كول، بينما كانت المحاكمة الأخرى للمتورطين في كل الخطط الأخرى. كانت المحاكمتان ناجحتين، وتلقى المعتقلون أحكاماً متنوعة تراوح ما بين الإعدام والسجن المؤبد، وفترات سجن طويلة. بقي المحكومون في السجن حتى ٣ شباط/فبراير من العام ٢٠٠٦، أي عندما قامت مجموعة تتألف من ٢٣ سجيناً بالهرب من السجن، وذلك بعد أن حفروا نفقاً إلى مرحاض للنساء في مسجدٍ يبعد ١٤٠ متراً عن السجن. كان من بين الفارّين فرقان وقاسم الريمي الذي كان ذات مرة عضواً عادياً في خلية النشيري (يُعتبر أحد أبرز قادة القاعدة في الجزيرة العربية حتى كتابة هذه السطور)، وكذلك نشطاء أُدينوا قبل سنواتٍ عدة بسبب أدوارهم التي قاموا بها في تفجير المدمرة يو. أس. أس. كول.

تلقيت مكالمةً هاتفية بعد أشهرٍ قليلة من محاكمة أعضاء الخلايا اليمنية، وكانت من صديقٍ لي في مركز مكافحة الإرهاب CTC. قال لي: «إن ما سأقوله لك يا علي هو في غاية الأهمية. ما هو رقم STU لديك؟» ترمز STU إلى الهاتف الآمن للوحدة. أعطيته إياه ثم أبلغني: «سأبعث إليك برسالة عن طريق الفاكس».

كانت تلك الرسالة عبارة عن مذكرة من [redacted] إلى إدارة مركز مكافحة

الإرهاب. ورد في تلك المذكرة أن السفير هَلْ اقترح أن أتوجه إلى اليمن للمساعدة على التحقيق مع المحتجزين في قضية تفجير المدمرة يو. أس. أس. كول الذين فروا من السجن في العام ٢٠٠٣. (فرّ في ذلك الوقت عشرة من أعضاء القاعدة بمن فيهم جمال البدوي. لكن أُعيد اعتقالهم في السنة التالية). قدّم هَلْ هذه التوصية استناداً إلى علاقتي الوثيقة بالجنرال القمش، وكبار المسؤولين اليمنيين الآخرين. سجّل [redacted] معارضته، وطلب من السفير تغيير طلبه. زعمَ [redacted] أن اليمنيين لا يحبّونه لأنني «طلبت مقابلة المشتبه بهم في هجوم المكلا». لم يسبق لي أن زرت المكلا من قبل، لكنني أدركت أن الشخص ذاته الذي منعنا من إحباط خطة ليمبورغ هو الذي يلفّق الأكاذيب بشأني.

أعطيت المذكرة إلى رؤسائي في مكتب التحقيقات الذين ما لبثوا أن طلبوا من وكالة الاستخبارات المركزية الاعتذار والتراجع عن موقفها. لم نتسلّم أي اعتذارٍ رسمي، لكن أحد الرسميين في وكالة الاستخبارات المركزية توجّه إلى ممثل مكتب التحقيقات الاتحادي في مركز مكافحة الإرهاب وقال له: «لقد أخطأنا».

الجزء الثامن

المهمات الأخيرة

الفصل السادس والعشرون

الاستقالة من مكتب التحقيقات الفيدرالي

٢٩ نيسان/أبريل، ٢٠٠٣. رأى ضبّاط الاستخبارات الباكستانية المحلية السريون الشاحنة التي كانوا ينتظرونها وهي تقترب من مكان الاجتماع المتفق عليه. ما إن توقفت الشاحنة حتى سار أحد الضباط بكل حذر إلى نافذة السائق وحدّق في داخلها. تظاهر الضباط بأنهم من تجار الأسلحة في قضية إرهابٍ محلية كانوا يحققون فيها – تفجير مساجد الشيعة في كراتشي – كما تمكن أحد المصادر من ترتيب لقاء التعارف ما بينهم وبين الرجال الذين يسعون إلى شراء المتفجرات.

تفحّص أحد الضباط السريين ركّاب الشاحنة وصاح بالسائق: «لماذا تنظر إلى شقيقتي؟»

سأل السائق: «عمّ تتكلم يا رجل؟» ضحك وتابع القول: «إننا لا ننظر إلى شقيقتك».

سحب الضابط بحركة سريعة منه مفاتيح الشاحنة. غضب السائق في هذه الأثناء، وتابع الإصرار على أنه لا يعرف عما يتكلم الضابط. ابتسم الرجل الذي كان إلى جانب السائق بسبب المأزق الذي وقع فيه صديقه، وما لبث أن خرج من الشاحنة بينما لاحظ الضباط المتخفون أنه ذو ساقٍ واحدة.

نزل السائق بدوره من الشاحنة، وما لبث أن نشب عراك بالأيدي بينه وبين الضابط. تجمّع حشد من الناس في غضون لحظات قليلة، وتمّ الفصل بين الضابط المتخفي والسائق كما أُخضِع السائق والراكب. كان ذلك الحشد مؤلفاً بالكامل من الضباط المتخفين. كانت عبارة «لماذا تنظر إلى شقيقتي» التقليدية خدعة لإنزال الرجلين من الشاحنة. كانت تلك خطوة موفقة لأن السائق كان يحتفظ بزجاجة عطر بخاخ تحتوي على السيانيد، والتي كان من الممكن أن تُستخدم فيما لو عرف أن ما يحدث مجرد فخ.

نُقل السائق والراكب ذو الرجل الواحدة إلى مركز للشرطة حيث أنكرا أي علاقة لهما بالإرهاب. لم يكن الرجلان من الوجوه المعروفة لدى ضباط الشرطة المحليين أنهم من الإرهابيين، أو تجار الأسلحة المحليين. امتلك السائق بحوزته قرصاً مدمجاً يحتوي على رسالة إلى أسامة بن لادن، وعلى صورتين لمركز التجارة العالمي، وظهرت كذلك طائرة رحلة يونايتد آيرلانز ذات الرقم ١٧٥ التي صدمت البرج الجنوبي. اشتبهت الشرطة بوجود علاقة للرجلين بالخارج. تصفّح رجل الشرطة المسؤول موقع مكتب التحقيقات الاتحادي الذي يحتوي على صور أخطر الإرهابيين المطلوبين لديه للتأكد من وجود صورة أحد الرجلين فيه. لم تظهر صور الرجلين لأن الموقع يحتوي فقط على الإرهابيين المتهمين رسمياً.

أراد أحد الضباط أن يحاول الإيقاع بالراكب ذي الساق الواحدة، فقال له: «أرى أنك رجلٌ في غاية الأهمية؟»

قال الرجلُ العربي ذو الساق الواحدة من دون تردد: «سيفعلها بن لادن ثانية بالرغم من كل ما يدفعه الأميركيون لك».

عرّف الراكب بنفسه على أنه خالد بن عطاش، وهو الناشط الرئيس لدى بن لادن، أما السائق فقد عُرف في ما بعد بأنه عمار البلوشي والذي يُعرف باسمه الحركي علي عبد العزيز علي، وهو ابن أخت خالد الشيخ محمد الذي ساعد الخاطفين في

هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وحاول بدوره الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة قبل أسبوعٍ واحدٍ من الهجوم، ولعله أراد الدخول للمساعدة كأحد الخاطفين.

عُثر في جيب أحد الرجلين على رسالة موجهة من علماء سعوديين إلى بن لادن وفيها يناقشون استراتيجية القاعدة ضد الولايات المتحدة. أراد خلاد والبلوشي شراء المتفجرات لمهاجمة القنصلية الأميركية في كراتشي. سُلّم الخاطفان في وقتٍ لاحقٍ إلى وكالة الاستخبارات المركزية، وادّعى مناصرو تقنيات الاستجواب المعززة في وقتٍ لاحق أن هذه التقنيات التي طُبّقت على خالد الشيخ محمد هي التي أدّت إلى إلقاء القبض على بلوشي وخلاد، لكن تلك لم تكن سوى أكذوبة أخرى: حدث الاعتقال بالصدفة، ويعود الفضل كلياً في ذلك إلى سرعة بديهة ضابط الشرطة، وهو الذي أخبرني هذه القصة بنفسه عندما زرت باكستان في وقتٍ لاحق للتحقيق في هذه القضية.

لم يسلَّم خلاد أبداً إلى مكتب التحقيقات ليتمّ استجوابه، وذلك بالرغم من أننا نعرف عنه أكثر من أي جهة أخرى في الحكومة الأميركية – وذلك بدءاً من مصدرنا مجهول الهوية في أفغانستان، ومروراً بالتحقيقات التي جرت بشأن الهجوم على المدمرة كول، ومن شقيقه، وكذلك من قضية تفجير السفارتين في شرق أفريقيا، ومن أبي جندل، وصولاً إلى حمدان والبهلول ونشطاء القاعدة الآخرين الذين استجوبناهم بنجاح. [redacted]

[redacted] مع النشيري، وهو العقل المدبّر الذي ظهر في التحقيقات المتعلقة بالهجوم على المدمرة يو. أس. أس كول. ألقي القبض على النشيري في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٢. أما نحن الذين عرفنا كل شيء عنه بعد تمضية سنين عدة في اليمن في التحقيق بهذه القضية، وفي التحدث مع نشطائه

العاملين بإمرته، فلم يُسمح لنا بمقابلته. [redacted] أما خالد الشيخ محمد الذي ألقي القبض عليه في شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٣، وأخضع لبرنامج الاستجواب المعزز فلم يُسمح لأحد زملائي في مكتب التحقيقات بالوصول إليه بالرغم من أنه يعرف عن خالد الشيخ محمد أكثر من أي شخصٍ آخر.

علّقتُ على هذا الأمر بعد مرور سنين عدة، فما كان من فيليب زيليكاو، وهو مدير لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وأحد المسؤولين في إدارة بوش، إلا أن وافقني. كان الأشخاص غير المناسبين يستجوبون كبار نشطاء القاعدة، وهو الأمر الذي أسفر عن نتائج كارثية.

كان خلاد، وقبل إلقاء القبض عليه، على اتصالٍ بخلية القاعدة في المملكة العربية السعودية، وذلك بعد إلقاء القبض على النشيري، وبعد أن عيّنه بن لادن على رأس العمليات في شبه الجزيرة العربية. كان هو الذي يعطيهم الأوامر من بن لادن الذي يصادق على العمليات في المملكة العربية السعودية. كان بن لادن في السابق يتردد في ضرب بلده الأم. لكن بعد مضي أسبوعين على إلقاء القبض على خلاد في ١٢ أيار/مايو من العام ٢٠٠٣، هوجمت المجمعات السكنية في الرياض، وهو الأمر الذي أسفر عن مقتل خمسة وثلاثين شخصاً بمن فيهم تسعة أميركيين، كما جُرح ما يزيد عن ١٦٠ شخصاً. كان معاوية المدني و [redacted] على رأس ذلك الهجوم. ألقي القبض على أحد [redacted] نشطاء القاعدة مع بن الشيبة و [redacted] الذي تورط في التخطيط لهجوم [redacted]. كان لأولئك الذين يستجوبون خلاداً مهلة أسبوعين لاستخراج المعلومات منه. كان ذلك مشهداً يشبه القنبلة الموقوتة التي تدق بانتظام. انفجرت بعد مرور أشهرٍ قليلة شاحنة ملغومة يقودها انتحاري في مجمعٍ سكني آخر في المملكة العربية السعودية، وهو الأمر الذي أسفر عن مقتل ثمانية عشر شخصاً، كما جُرح مئة واثنان وعشرون شخصاً. كانت الاحتمالات تشير إلى أن خلاداً يعرف بأمر النشطاء العاملين في المملكة العربية السعودية، وحتى قد يكون هو الذي أعطى الأمر بتنفيذها.

يصدق الأمر ذاته على خالد الشيخ محمد، وهو الذي ترأس كل خلايا القاعدة في مختلف أنحاء العالم بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. يُستبعد كثيراً أنه لم يعلم بوجود خلايا في لندن، ومدريد، وبالي. أُخضع الشيخ محمد لبرنامج الاستجواب المعزّز. لم يتأخر الأمر حتى انفجرت في ١١ آذار/مارس من العام ٢٠٠٤، قنابل على يد نشطاء في القاعدة في شبكة قطارات مدريد، وهو الأمر الذي أسفر عن مقتل ١٩١ شخصاً وجرحِ نحو ١,٨٠٠ شخص. وفي ٧ تموز/يوليو من العام ٢٠٠٥، أقدمت عناصر من القاعدةَ على تنفيذ هجمات في لندن، وهو الأمر الذي أسفر عن مقتل ٥٢ شخصاً، وجرح ما يزيد عن ٧٠٠ شخص. وفي الأول من تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٥ قتلت القنابل التي انفجرت في بالي ٢٠ شخصاً وجرحت ما يزيد عن ١٠٠ شخص. كان يستحيل على خلايا القاعدة تنفيذ كل هذه الهجمات من دون علم خالد الشيخ محمد بها. يُذكر، على سبيل المثال، أن محمد صدّيق خان، وهو أكبر المهاجمين الانتحاريين الأربعة سناً الذين فجروا أنفسهم في لندن قد تدرب في معسكراتٍ في باكستان وأفغانستان في الوقت ذاته الذي كان فيه خالد الشيخ محمد يدير العمليات مع الجماعة الإسلامية في جنوب شرق آسيا، وهي التي تُعتبر جزءاً من منطقة نفوذ خالد الشيخ محمد.

تعرّض فندق جاي. دبليو ماريوت للتفجير بعد مرور نحو خمسة أشهر على اعتقال خالد الشيخ محمد، وهي العملية التي موّلها بمبلغ ١٠٠,٠٠٠$ والتي طُلب من الحنبلي تنفيذها بعد تفجير بالي الأول، وذلك «علامة على التهنئة». تسلّم الحنبلي مبلغ ٣٠,٠٠$ آخر تمهيداً للقيام بعملياتٍ جديدة، كما أعطى هذا المبلغ إلى الأزهري حسين، ونور الدين توب، للقيام بهذه الهجمات. لكن مستجوِبي خالد الشيخ محمد لم يحصلوا أبداً على هذه المعلومات.

أما أولئك [redacted] في مكتب التحقيقات الذين رأوا ما حدث مع أبي زبيدة، وابن الشيخ الليبي والقحطاني، ورمزي بن الشيبة، و [redacted]، وغيرهم فقد اضطروا إلى البقاء على الهامش في حين وُضع إرهابيون أكثر أهمية في القاعدة في برنامجٍ أثبت فشله، وأسفر عن معلومات استخبارية مغلوطة.

وصلت في ١٤ أيار/مايو من العام ٢٠٠٤، إلى اليمن عند الساعة ١١:٣٠ ليلاً مع كارلوس فرنانديز. أتينا لمساعدة اليمنيين على ملاحقة المشتبه بهم في قضية تفجير المدمرة كول قضائياً. التقانا ستيفن غودين، وزوجته كاساندرا في المطار. سبق للاثنين أن تزوجا في وقت سابق من تلك السنة، لكنني لم أتمكن من حضور حفل زفافهما، وهكذا كنت متحمساً للقاء كاساندرا وتقديم تهنئتي شخصياً. لم يكن ستيف في مزاج تلقي التهاني، ولاحظت أنه يغلي غضباً.

سألته: «ما الأمر».

«هل قرأت مقالة نيويورك تايمز يوم أمس؟» لاحظت نبرة الغضب في صوته. قلت له إنني لم أقرأ المقالة لأنني كنت في الطائرة. قال لي إن وكالة الاستخبارات المركزية تنسب لنفسها الفضل في نجاحنا في الحصول على معلومات من أبي زبيدة. قال وهو يرسم إشارة ما بين القوسين في الهواء عندما قال معاملة خاصة: «أقدموا في الحقيقة على ربط النجاح مع خالد الشيخ محمد وباديلا بالمعاملة الخاصة».

التقينا السفير إدموند هَلْ في اليوم التالي، وقال لنا إنه سعيد بقدومنا، وإنه يأمل أن تساعد علاقتي الخاصة مع الجنرال القمش في حصولنا على تعاون اليمنيين بالنسبة إلى المعتقلين في قضية الهجوم على المدمرة كول.

تعرّض مسرح دوحة بلايرز في قطر للتفجير على يد مهاجم انتحاري في يوم ١٩ آذار/مارس من العام ٢٠٠٥. قُتل مواطن بريطاني في هذا الحادث، كما جُرح خمسة عشر شخصاً آخر. يُحتمل أن تكون هذه العملية قد نفذتها الخلية ذاتها التي حذّرنا بشأنها بعد إلقاء القبض على أحد اليمنيين مع بن الشيبة و [redacted]. ظهرت على موقع محطة الجزيرة صورة المهاجم: كان شخصاً بحثنا عنه منذ تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا. نشرت القاعدة في المملكة العربية السعودية قبل يومين من التفجير شريطاً مسجلاً يشير إلى الهجوم. كان أحد قياديي خلية القاعدة في السعودية في ذلك الوقت [redacted].

مشيت نحو مكتب بات دامورو وعرضت عليه صورة المهاجم الانتحاري، وسألته: «ماذا نفعل هنا بحق السماء؟» كان ذلك سؤالاً قوياً. كان بات يعرف كل هذه القضايا، كما كان غاضباً مثل ما كنت أنا. سبق لبات أن أعلن أنه سوف يترك مكتب التحقيقات الاتحادي، وأنه سوف يتولى منصباً في شركة استشارات خاصة، والتي يرأسها رئيس بلدية نيويورك السابق رودي غولياني. قلت متابعاً: «ألستَ مسروراً لأنك ستترك المكتب؟ أتمنى أن أستقيل بدوري، لكن ما زالت تنتظرني سنوات عديدة». يحتاج المرء للتقاعد من مكتب التحقيقات إلى أن يمضي عشرين سنة من الخدمة، وأن يصل إلى سنّ الخمسين أو أكثر من ذلك. أما أنا فقد أمضيت في مكتب التحقيقات الاتحادي فترة تقلّ عن عشر سنوات. سألني بات: لماذا لا تأتي معي؟» ظننت أنه يمازحني، لكنه واظب على طرح ذلك السؤال. مرّت فترة أسابيع عدة من النقاش ما بيننا قبلتُ من بعدها عرضه لي. كان ذلك واحداً من أصعب القرارات التي تحتم عليّ اتخاذها في حياتي، لكنني أدركت أنه إما أن أُصاب بنوبةٍ قلبية عندما أصل إلى سن الأربعين، وإما أن أترك وظيفتي.

لم يتعلق الأمر فقط بإبعادنا عن التحقيقات الجارية في الخارج، لكن توضح لنا أن بعض كبار المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية في ذلك الوقت كانوا يستهدفونني بالتحديد، وهذا ما قاله لي بعض المدراء التنفيذيين في مكتب التحقيقات، وبعض الزملاء في وكالة الاستخبارات المركزية. تحولت إلى هدف منذ أن قابلتني لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. لم يفِدْني في شيء اعتراضي على ما أصبح يُعرف في ما بعد بتقنيات الاستجواب المعززة.

أراد مكتب التحقيقات الاتحادي في مناسبات عدة إرسالي إلى الخارج للمشاركة في التحقيقات، لكن وكالة الاستخبارات المركزية حاولت منعي من السفر. لكن بات كان يرد على إدارة مكتب التحقيقات، والتي كان يرد طلب وكالة الاستخبارات المركزية من خلالها، على الشكل التالي: «منذ متى يسمح مكتب التحقيقات للآخرين بأن يحددوا له مَن يجب إرساله في مهمات؟» كان مدير مكتب التحقيقات يوافق على هذا المنطق، وهكذا كنت أشارك في تلك المهمات.

ساعدت في حزيران/يونيو من العام ٢٠٠٣ في التحقيقات الجارية في قضية في الولايات المتحدة حيث كان أحد المشتبه بهم على صلة بالقاعدة في المملكة العربية السعودية. استجوبت المشتبه به بالاشتراك مع عميل آخر في مكتب التحقيقات هو بوب هيرمان. كان المشتبه به برفقة محام، وكنا إذا وجّهنا سؤالاً إلى المشتبه به يرد بالقول: «لا تتكلموا معي. يمكنكم التكلّم مع المحامي».

تجاهلته، وأبلغته بالسبب الذي يجعله عنصراً مهماً في تحقيقاتنا، ومدى أهمية أن يتكلم، وأن إجاباته قد تُنقذ أرواح آخرين. كان يرد على هذا الحديث بتكرار جملة: «تكلموا مع المحامي». فوجئت عندما التفت المحامي إلى موكّله، وقال له: «والآن أصغِ إلي. يقول المحقّق صوفان أشياء في غاية الأهمية، ومن الأفضل لك أن تصغي إليه جيداً لأن التعاون مع التحقيق هو في مصلحتك». حصلنا بعد ذلك على المعلومات التي كنا نحتاج إليها.

رُشّحت أنا وبوب لنيل «جائزة الاستخبارات»، وهي جائزة داخلية في مكتب التحقيقات، وذلك بعد انتهاء تلك العملية بنجاح. يتطلب هذا الترشيح الذي يقدمه مدير مكتب التحقيقات الاتحادي مصادقة شكلية من مدير الاستخبارات المركزية وتوقيعه، لكن يبدو أن هذا الترشيح لم يغادر مكتب مدير الاستخبارات المركزية.

قلت لبات عندما قبلت عرضه: «أريد قبل مغادرتي إتمام العملية السرية التي أقوم بها في هذه الأيام». كان بعض المواطنين الأميركيين يحاولون الانضمام إلى القاعدة. تمكنت من اختراق هذه المجموعة بعد أن تظاهرت بأنني الممثّل الشخصي لأسامة بن لادن في أميركا الشمالية.

قال لي دافيد جونستون، وهو مراسل صحيفة نيويورك تايمز، في اليوم الذي أعلنتُ فيه استقالتي إنه تكلم مع مدير مكتب التحقيقات الاتحادي أثناء حفلٍ أُقيم في نيويورك، وسأله: «أين ترى مستقبل مكتب التحقيقات الاتحادي؟» أشار المدير إليّ وقال: «هذا هو مستقبل مكتب التحقيقات».

تأثرت كثيراً بهذه الكلمات اللطيفة، وهي كانت أثمن عندي من أي جائزة. قلتُ لجونسون مبتسماً: «إذاً عليك أن لا تلوم إلا نفسك، لأنك لو قلت لي هذا الكلام قبل يومين لربما كنت عدلت عن تقديم استقالتي».

الفصل السابع والعشرون

العمل متخفياً

٤ آذار/مارس، ٢٠٠٤. سألتُ طارق شاه وهو خبير الفنون القتالية وموسيقي من برونكس: «هل تريد أن تطرح أي سؤال آخر؟» كان شاه مقتنعاً بأنني الممثل الشخصي لبن لادن. سبق له أن أخبرني عن رغبته في الانضمام إلى القاعدة، وقتلِ الكفار. تفاخر أثناء عرضه لمؤهلاته بأنه سيّد القتال وجهاً لوجه ويعرف كيفية انتزاع حنجرة خصمه.

«إنني أتحدث عن إلحاق الأضرار بالداخل بحيث يسبحون في دمائهم».

قلت له: «لا يمكنني اتخاذ قرار قبولك مع أصدقائك أم لا. إنني بحاجة للتشاور مع رؤسائي في القاعدة أولاً. يتعيّن عليك في هذا الوقت أن تتابع تدريباتك، وسأكون على اتصالٍ بك».

قال لي بالعربية: «شكراً». أعتقد أنه شعر بأن التحدث بالعربية سوف يبرز التزامه بالقضية.

كان واقع قيامي متخفياً بمهمة سرية أمراً غريباً: تقع قضية شاه ضمن صلاحية فرقة أخرى، لكنني كنت عميلاً خاصاً مشرفاً، وهو الأمر الذي يعني أنني أدير فرقتي الخاصة وعملائي الذين أُشرف عليهم. لكن الفرقة التي كانت تتولى قضية شاه طلبت

مني المساعدة. لم يتوافر لديهم في ذلك الوقت أي شخصٍ آخر يعرف معلومات كافية عن القاعدة، أو يمتلك تدريباً كافياً للإيقاع بشاه.

أمضيت عدة أسابيع للتحضير لهذه العملية، وراجعتُ المعلومات المتعلقة بالقضية، ومعلوماتي عن القاعدة، وطريقة تجنيدها للنشطاء، كما تمرنت على ما يجب عليّ قوله في مختلف المواقف المحتملة. بدأت بالبحث عن كل شيء معروفٍ عن شاه: خواطره وأفكاره ودوافعه. حددت تالياً موقعه في العملية، ثم عملت على تطوير قصتي المختلقة مستعرضاً أدق التفاصيل: تعيّن عليّ الإجابة بكل ثقة، وأن لا أُظهر أي تردد.

لا تترك العمليات السرية مجالاً للأخطاء. إذا اكتشف الإرهابيون المستقبليون حقيقة هوية الشخص الذي يتعامل معهم، فإن معظم الاحتمالات تدل على أنه قد يُقتل. لا يقتصر الأمر على كوني ممثلاً للطغاة الغربيين الذين يُظهرون الرغبة في قتالهم، لكنهم سوف يعتبرونني عائقاً يحول بينهم وبين جهادهم. يتمكن المرء إذا أسعفه الحظ من النجاة بحياته، لكن عملية الكشف تكون قد فشلت، وستضيع في تلك الحالة فرصة كشفهم أثناء إدانتهم لأنفسهم.

ألقي القبض على شاه في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠٣ على يد شرطة مدينة يونكرز، وذلك بتهمة سرقة بسيطة، لكن أثناء تفتيش سيارته عثرت الشرطة على أرقام هواتف تعود إلى سيف الله تشابمان ـ وهو عضو في مجموعة متطرفة في شمال فرجينيا، والتي تدعى شبكة الجهاد في فرجينيا، وهي الشبكة التي أدينت في شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٤ بتزويد مجموعة باكستانية إرهابية بالدعم المادي ـ وعلى رقم شخص آخر عُرف عنه التدرّب في معسكرات إرهابية أجنبية. قدّم شاه كذلك استفسارات في المساجد والمجمعات الدينية في نيويورك حول الانضمام إلى القاعدة. وصلت إلينا هذه الاستفسارات في نهاية الأمر.

أرسلت مخبراً سأطلق عليه اسم سعيد (وهو أحد المدانين السابقين من منظمة

الفهود السود) في ١٦ كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠٣، لكي يقيم علاقة صداقة مع شاه بحجة رغبته في تلقي دروسٍ في الموسيقى. نجح سعيد ونمت صداقته مع شاه، وهكذا طلب المساعدة من سعيد في العثور على موقع يصلح ليكون مكاناً «لتعليم الأخوة... الضرب بالسكاكين والعصي، وأموراً مماثلةً» بحيث يتمكنون من تنفيذ أنشطة إرهابية. أخبر شاه سعيد كذلك بشبكة من الأشخاص الآخرين الذين أرادوا مساعدة القاعدة.

أبلغ سعيد صديقه شاه في شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٤ «بالأخبار المهمة»: كان على اتصالٍ مع أحد المسؤولين عن التجنيد من الشرق الأوسط، والذي كان يفتّش عن شخصٍ يستطيع تدريب مجموعة صغيرة من المقاتلين على القتال وجهاً لوجه وعلى الفنون القتالية. كان اسم ذلك الأخ هو علي، وكان أصلاً من كندا، وهو في واقع الأمر الممثل الشخصي لبن لادن في أميركا الشمالية.

قال شاه إنه مهتم بذلك وإن لديه رفيقاً مقرباً منه، وهو رفيق صابر (الذي يُعرف كذلك باسم «الدكتور»)، وهو طبيب طوارئ سبق له أن تدرب في جامعة كولومبيا، ويعيش في بوكا راتون، فلوريدا، وهو يود المشاركة بدوره. طلب شاه من صديقه سعيد بأن يقدمه مع صابر إلى علي «كحزمة واحدة» بحيث يمكن للرجلين أن يزودا القاعدة بخدمات الفنون القتالية والخدمات الطبية.

قال سعيد إنه سوف ينقل الرسالة، وأبلغ شاه في ما بعد بأن المسؤول عن التجنيد مستعد للقاء شاه وحده، وأن اللقاء سوف يتم في بلاتسبيرغ الواقعة في ريف نيويورك، وقرب الحدود الكندية. حذّر سعيد صديقه شاه من أن عليّاً هو جزء من خلية مشاركة في الجهاد، وأنه حذرٌ جداً من الناحية الأمنية.

استقل شاه وسعيد قطاراً في ٣ آذار/مارس من العام ٢٠٠٤ متوجهين من محطة بن في نيويورك إلى بلاتسبيرغ. التقيتهما في اليوم التالي. حاول شاه بهري عندما حدّثني عن تدريبه في الجوجيتسو، وقتال السكاكين والعصي، وقال إنه نال بركة لأنه

تعلم مع مجاهد سبق له أن حارب في ماليزيا في العام ١٩٦٩. عرض عليّ كذلك سبحات صلواته، وقال إنه من الممكن أن تُستخدم كسلاح لخنق شخصٍ ما.

أبلغت شاه بأن طلبه مشجّع، وذلك لأن عدداً كبيراً من الأخوة قد اعتُقل في أفغانستان، وهم الآن في غوانتانامو، ولهذا فنحن بحاجة إلى مدرّبين جدد. تحدث شاه عن قبول صابر كذلك، وقال عنه إنه «صديق مقرب جداً، جداً جداً»، وإن أحدهما يعرف الآخر منذ ما يزيد عن عشرين عاماً. قال كذلك إن صابراً كان تلميذاً في أحد صفوفه للفنون القتالية، وأن «معنوياته عالية». قلت له إنني سوف أتشاور مع الإخوة في ضوء توصيته.

تتطلب المهمة السرية تحضيراتٍ عاطفية ونفسية لأن المرء يتظاهر فيها بأنه شخص يختلف عن شخصه الحقيقي. يمرّ المرء كذلك بمشاعر متنوعة في أثناء تطوير العلاقة مع مَن يستهدفهم، أي إنهم يثقون بك، وهكذا تصبح صديقهم. يرى المرء كذلك الجانب الطيّب من شخصياتهم بالإضافة إلى الجانب الشرير منها، هذا في الوقت الذي يستخدم فيه ما يقولونه لوضعهم وراء قضبان السجن. يفعل المرء ذلك بطبيعة الحال من أجل حماية عموم الناس من الموت والدمار اللذين يريد أمثال هؤلاء الناس إلحاقهما بهم.

كان قناعي مع شاه هو أنني المسؤول عن التجنيد لمصلحة بن لادن، لكنني كنت أعكس المواقف المعتادة، وأحوّلها بحيث يعمل هو على كسب ثقتي. كان من غير المعتاد بالنسبة إلى الممثل الشخصي لبن لادن أن يحتاج إلى التأثير في أعضاء محتملين في القاعدة، لكن الخطة نجحت. جهد شاه لتأكيد مؤهلاته أمامي، وكان من الواضح أن وجودي جعله متوتراً، وذلك لأنه شعر بأنه يتعامل مع إرهابي مهمّ.

التقى سعيد شاه في شقته في نيويورك بتاريخ ١١ آذار/مارس لتسليمه رسالة مفادها أنني أرغب في الاجتماع «بالدكتور رفيق» في فلوريدا. التقيت شاه في ١ نيسان/أبريل في أورلاندو، فلوريدا. اعتذر شاه وقال إن صابراً اضطر لمغادرة البلاد

بسبب طارئ عائلي. (قال سعيد إنه سوف يعود في ١٢ نيسان/أبريل). أبلغت شاه بأنني تحدثت مع الأخوة بشأنه وأنني كفلته. قلت له كذلك إنني مستعد للمخاطرة ولقاء صديقه صابر لأنه أوصى به. قدت السيارة بصحبة شاه إلى الفندق الذي كان يمكث فيه، لكنني ضللت الطريق إلى المخرج الصحيح لأنني لم أكن معتاداً على تلك المنطقة، وهكذا اضطررت إلى العودة وتصحيح مساري. ابتسم شاه وقال لي: «أنا أعرف ما تفعله. إنك تحاول التأكد من أن أحداً لا يتبعنا».

قلت له: «إنني أقوم بما هو ضروري». (أبلغني فريق المراقبة في ما بعد بأنهم قلقوا لما حدث، وأنهم تشاوروا في ما إذا كان يجدر بهم التدخل، لكنهم أحجموا عن ذلك). وصلنا إلى فندق شاه ومشينا قليلاً، وما إن مررنا بفتاة صغيرة كانت فوق كتفي والدها ـ لا بد وأن عمرها يقل عن السنتين ـ حتى ابتسمت لشاه وما لبث أن بادلها الابتسامة. قلت له: «إنها تحبك».

قال مبتسماً: «أجل». صمت قليلاً بعد ذلك وما لبث أن تغيّرت ملامحه إلى الجدية، وقال: «يمكنني أن أحزّ عنقها إذا اضطرني الأمر إلى ذلك».

طلبت من شاه تصوير نموذج عن فنونه القتالية، وذلك كي تتمكن القاعدة من وضع منهج لتلك الفنون. قال إنه يريد التدريب في معسكرات أفغانستان للتعرف إلى «المواد الكيميائية»، ومعرفة كيفية استخدام «المتفجرات والأسلحة النارية». قال كذلك إنه درّب عدداً من الأخوة الذين ذهبوا إلى أفغانستان، بمن فيهم أحد الأشخاص الذي عُثر على رقمه في سيارته، وكانت السلطات تعرف أنه توجه إلى هناك.

قال شاه إنه يريد تأسيس مدرسة للفنون القتالية في نيويورك تكون مخصصة للمسلمين، لكنه لن يحصل على الترخيص لتلك المدرسة لأنها سَتُعدّ تمييزاً عنصرياً. أراد بدلاً من ذلك إنشاء نادٍ اجتماعي لأنه في هذه الحال سيتمكن من استخدام مستوى أعلى من التمييز».

ناقشنا قبل افتراقنا استخدام شيفرة معينة للتواصل في ما بيننا في المستقبل.

تلقيت سلسلة من المكالمات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني من شاه. كان أفراد من فرقتي الذين ينفذون العملية يكتبون رسائل البريد الإلكتروني بدلاً منّي، وذلك لأنني كنت منشغلاً بإدارة فرقتي، لكنهم كانوا يعرضون علي كل رسالة منها قبل إرسالها. اشتملت رسائل البريد الإلكتروني على أسئلة حول صابر. كتب شاه معرباً عن قلقه بشأن مدى «صراحة» رسائل البريد الإلكتروني، وبشأن المخاطر الأمنية. قلت له أن لا يقلق.

تابع شاه على امتداد فترة عملي السري العمل من أجل مساعدة القاعدة، وعثر على مراكز تدريب محتملة لإرهابيي القاعدة في الولايات المتحدة. شملت هذه المراكز مستودعاً في لونغ آيلاند، نيويورك. سافر شاه كذلك إلى فونيكس، أريزونا ليستكشف إمكانية العثور على مجنّدين محتملين هناك، وحصل في النهاية على قائمة بالأشخاص الذين التقاهم في أنحاء البلاد والمتعاطفين مع القضية.

اتصلت بشاه هاتفياً في ٢٠ آذار/مارس من العام ٢٠٠٥، واستخدمت في ذلك هاتفاً خلوياً والرمز القطري لليمن. أجاب على الهاتف ظناً منه أنني صابر – الذي كان في الشرق الأوسط في هذا الوقت – لكنه فوجئ عندما سمع صوتي. لم يعرف أنني موجود في الشرق الأوسط بدوري. قلت له إنني في جولة سفر وتحدثنا بالشيفرة التي اتفقنا عليها عن منهج التدريب وشريط الفيديو. قال لي إن دليل التدريب كاد يكتمل، وإنه ما زال يعمل على شريط الفيديو. أكّد لي أنه ما زال مهتماً بمشروع «العمل» وهو الرمز الذي اتفقنا عليه لانضمامه إلى القاعدة.

عاد صابر إلى الولايات المتحدة في ١ أيار/مايو من العام ٢٠٠٥، ومكث في شقة شاه الجديدة في برونكس. أبلغت شاه بأنني سوف أعود إلى الولايات المتحدة، وأنني سوف ألتقيهما معاً وهو الأمر الذي حدث فعلاً في ٢٠ أيار/مايو في شقة والدة شاه التي تقع في برونكس كذلك.

شهد شاه مجدداً بمؤهلات صابر وفي حضوره. أبلغني كذلك بأنهما طُردا من أحد المساجد في برونكس، حيث يعمل صابر كمساعد إمام، وذلك بعد أن أحضر صابر شاه لتعليم القتال المُدُني. قلت إنني «مدهوش» بشأن ما قاله لي حول صابر، وإنني أثق بتوصياته. أبلغت صابر: «يعتبر الشيخ أسامة الأطباء أهم مواردنا». قلت له كذلك إننا جاهزون لإدخاله مع شاه إلى المنظمة الإرهابية.

أمرت الرجلين بمتابعة تحضيراتهما. لم يكن شاه قد انتهى بعد من تحضير شريط الفيديو حول الفنون القتالية المخصّص لاستخدام القاعدة. طلبت منه محذّراً أن يرتدي قناعاً أثناء وقوفه أمام كاميرا الفيديو، وذلك تحسباً «لوقوع شريط الفيديو، لا سمح اللّه، في أيدي أحدهم». قلت لهما إنه قبل قبولهما كعضوين في القاعدة سيتعيّن عليهما إعطاء البيعة لبن لادن. وافقا على الفور، وقال لي شاه: «كنا ننتظر هذه اللحظة منذ زمنٍ بعيد».

ركعا وأمسكا بكلتا يدي ثم ردّدا من بعدي: «أبايع على السمع والطاعة في اليسر والعسر والمنشط والمكره وعلى الجهاد في سبيل اللّه وعلى حفظ أسرار القاعدة». عانقاني، وأتمّا بذلك عملية القبول في منظمة القاعدة. أدى الرجلان القَسَم ذاته الذي أقسم به محمد عطا، والخاطفون الآخرون الذين اشتركوا في هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. كنت أنظر في هذا الوقت إلى عضوين من أعضاء القاعدة.

غادرت برونكس عائداً إلى المكتب، ونزعت عني السلك الذي كنت أرتديه وسلّمت شارتي. كان ذلك آخر يوم لي في العمل. كنت أغادر مكتب التحقيقات الاتحادي متوجهاً إلى العمل في القِطّاع الخاص. تمنى لي الأصدقاء والزملاء أطيب التمنيات أثناء حفلٍ أقمناه في تلك الليلة.

قال لي صديقي الحميم، والذي أثق به كثيراً، كارلوس فرنانديز: «إن مغادرتك هي خسارة كبيرة لنا».

قلت له: «حسناً، إن القَسَم الذي أقسمته بحماية الولايات المتحدة من أعدائها

الخارجيين والداخليين لا ينتهي مع شيك المرتّب. سأظل أقوم بدوري، لكن فقط من زاوية مختلفة».

كان ذلك يوم الجمعة. ألقيَ القبض على شاه في اليوم التالي. سأله العميل الذي يستجوبه في حجرة التحقيق: «هل تعرف شخصاً يدعى علي؟»

«كلا. لا أعرف».

«ألم تلتقِ بشخصٍ يدعى علي، ولمراتٍ عدة؟»

«كلا».

مضى العميل يصفني: «إنه يبدو مثل...»

قال شاه: «كلا، لا أعرفه».

أدرك العميل أن شاه يعتقد بالفعل أنني عضو في القاعدة، وأنه كان يحاول التستر على هويتي. قال العميل وهو يعرض على شاه صورتي الرسمية لدى مكتب التحقيقات الاتحادي: «يُحتمل أنك سوف تتعرف إليه إذا عرضتُ عليك صورته».

أجاب شاه بعد إدراكه أن اللعبة انتهت: «أوه»، وما لبث أن اعترف بكل شيء.

اعترف شاه ومعظم مجموعته بأنهم مذنبون، لكن صابراً لم يفعل ذلك، وهكذا قدّمت شهادتي في المحكمة بعد مرور سنتين، أي في العام ٢٠٠٧. كانت تلك هي المرة الأولى التي أظهر فيها أمام المراسلين، وكانت ظهرت شائعات عدة تتعلق بهوية العميل السري المتخفي، وكانت كل هذه الشائعات مخطئة في هذا الشأن.

أنجزنا كل شيء يتعلق بهذه المهمة بحسب الأصول، لكن الدفاع لم يفعل الكثير غير أن طلب مني أن أقرأ له نصوص المراسلات التي تبادلتها مع شاه وصابر.

لكن صابراً أُدين نتيجة المحاكمة.

تذييل

نزعت وزارة العدل الأميركية في ١٦ نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٩، السرية عن مجموعة من المذكرات حول برنامج تقنيات الاستجواب المعززة، وهو البرنامج الذي أعدته وكالة الاستخبارات المركزية. تبع ذلك إعلان في وقتٍ سابق من ذلك الشهر صادرٌعن ليون بانيتا، وهو المدير الجديد لوكالة الاستخبارات المركزية. جاء في الإعلان أن المواقع السرية التابعة للوكالة قد أُغلقت. كتب بانيتا لموظفيه: «توقفت وكالة الاستخبارات المركزية عن إدارة مراكز الاعتقال أو المواقع السرية». وفي ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٩، أخبرني دافيد إيغليزياس، وهو مدعٍ في سلاح البحرية (والشخص الحقيقي الذي استندت إليه شخصية توم كروز في فيلم بضعة رجال طيبين)، بأن الجيش يعلّم في محاضراته للضباط الشبان JAG من القوات الخاصة ما أسماه «قاعدة علي صوفان»، والتي تتضمن أن الاستجوابات الذكية تُثمر أكثر من الاستجوابات الإكراهية، وأنه يتوجب على المستجوبين أن يتذكروا المرحلة النهائية للتحقيقات.

فصّلت مذكرات وزارة العدل التي نُزعت صفة السرية عنها، وبموضوعية، طرق الاستجواب بالإكراه التي أقرتها إدارة بوش، وهي التي تشمل التسبب بالشعور بالاختناق والغرق، وكذلك أوردت «نجاحات» هذا البرنامج كمبررٍ

لاستمراريتها. ظهر أبو زبيدة في هذه المذكرات بشكل بارز لأنه كان أول من خضع لذلك البرنامج.

تلقيت عدة مكالمات هاتفية بعد ساعات قليلة من الإفراج عن المذكرات من أصدقاء غاضبين في عالم الاستخبارات وهيئات تطبيق القوانين. قال لي أحد الأصدقاء: «هل هذا هو السبب الذي جعل الولايات المتحدة تخرق الدستور في تعاملها مع هؤلاء الإرهابيين؟ إن هذه المذكرات مليئة بالأكاذيب. يصعب عليّ التصديق أنهم يمتلكون الجرأة بحيث ينسبون هذه النجاحات إليهم. ألم يكترث أحد المحامين في وزارة العدل بالتدقيق في التواريخ؟»

شعرت بالغضب ذاته وبصعوبة تصديق ما يجري. تبيّن جلياً من المذكرات أن إدخال تقنيات الاستجواب المعززة كان مستنداً إلى الأكاذيب. أما البرهان على ذلك فيقبع في ملاحظاتي التي سبق لي أن قلت إنها محفوظة في خزائن مكتب التحقيقات الاتحادي. لا أعتقد أن من المفاجئ أن يعمد الذين روّجوا لتقنيات الاستجواب المعززة إلى بذل الجهود للإبقاء على صفة السرية لتلك المذكرات. تحفل مذكرات وزارة العدل بتشويه الحقائق بدءاً باستجواب أبي زبيدة، مروراً بالمعلومات التي أدت إلى إلقاء القبض على رمزي بن الشيبة ووصولاً إلى إلقاء القبض على خلاد.

تلقيت تساؤلاتٍ مستمرة من صحافيين ومن برامج تلفزيونية عن هذه المذكرات، وذلك لأن معارضتي لتلك التقنيات لم تكن سراً ـ وهذا ما بيّنه بوضوح تقرير المفتش العام لوزارة العدل، وهو التقرير الذي نُزعت عنه صفة السرية في وقتٍ سابق. كنت مقيداً في الفترة الممتدة من ٢٠٠٢ إلى ٢٠٠٩ بالاجتماعات المغلقة في مواقع سرية.

لم أعمد بالرغم من ذلك إلى التحدث علانية على الفور، وذلك لأنني لم أرغب في إعادة فتح صفحات فترة من حياتي كنت مسروراً بإغلاقها. اعتبرتُ كذلك أن زيف الادعاءات الواردة في المذكرات هو أمر في غاية الوضوح. لم يكن الأمر كذلك

مع الأسف، وذلك لأن المدافعين عن تقنيات الاستجواب المعززة قد أطلقوا حملة إعلامية خاطفة لا تهدف إلى الدفاع عن تلك التقنيات فقط، بل تدعو إلى إعادة تطبيقها.

ذكّرني أحد زملائي السابقين بقوله: «كنتَ دائماً تقول إن القَسَم الذي أقسمتَ به للدفاع عن الشعب الأميركي ضد أعدائه الخارجيين والداخليين لا ينتهي عند مغادرتك لمكتب التحقيقات الاتحادي. كان ذلك، في واقع الأمر، السبب الذي دفعك للموافقة على أن تكون الشاهد الرئيس لدى الحكومة في محاكمات غوانتانامو، وكان من واجبك مجدداً أن تقول الحقيقة. كان هناك خطر لولا ذلك بأن يقتنع الشعب الأميركي بأن تقنيات الاستجواب المعزّزة كانت ناجحة، ولهذا يتعيّن إعادة تطبيقها، لكن ذلك سيكون كارثياً».

اقترح أحد زملائي أن أتحدث مع صحافيين معيّنين، لكن زميلي وشريكي في تأليف هذا الكتاب، دانيال فريدمان نصحني بأن تكون أولى تعليقاتي العلنية هي كلماتي أنا، وبحسب شروطي، وبحيث لا تكون عرضةً للتشويه. كنت مستغرقاً بالتفكير في ما يجدر بي عمله عندما اتصلت بي صحيفة نيويورك تايمز، وطلبت مني كتابة مقالة تعكس وجهة نظري. لم أتردد أبداً في قبول ذلك العرض.

نشرت صحيفة نيويورك تايمز تلك المقالة في اليوم التالي، أي في يوم الأربعاء الواقع فيه ٢٢ نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٩. حملت المقالة عنوان «القرار الصعب». اجتذبت المقالة انتقادات من اليمين واليسار على حدٍ سواء. انزعج اليمين لأنني هاجمت تلك التقنيات، بينما انزعج اليسار لأنني وقفت ضد الملاحقة القانونية لمسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية المتورطين في ذلك البرنامج. أبلغت الأشخاص الذين شكّكوا في موقفي أسباب معارضتي ملاحقة عدد من ضباط وكالة الاستخبارات المركزية من الذين عملت معهم، والذين كانوا يعترضون بدورهم على تلك التقنيات. لجأ بعضهم إلى مغادرة موقع الاستجواب، وحتى أنهم تركوا الوكالة ذاتها احتجاجاً على تلك التقنيات. أما أولئك الذين استخدموا تقنيات الاستجواب

المعزّزة فقد فعلوا ذلك بناءً على أوامر تلقوها من رؤسائهم، وهم فعلوا ذلك مع دعم من محامي الإدارة الذين كتبوا آراءً قانونية تجيز استخدام تلك التقنيات. قلت كذلك إن على أي ملاحقات قانونية أن تبدأ من القمة، أي حيث انطلقت الأوامر، وأن لا تقتصر على بعض أكباش الفداء الموجودين في أسفل سلسلة المراكز. أعتقد أنه من المهم جداً أن نتذكر أن موظفي وكالة الاستخبارات المركزية قد اشتكوا من ذلك البرنامج أمام المفتش العام في الوكالة، وهو السبب الذي دفع أصلاً المفتش العام إلى البدء في تحقيقاته.

استُدعيت بسبب تلك المقالة للشهادة، وتحت القسم، أمام لجنة العدل في مجلس الشيوخ بشأن ما جرى. لم يوافق أي شخص من الذين أجازوا تقنيات الاستجواب المعززة على الظهور ضدي أمام اللجنة. يُحتمل أنهم لم يرغبوا في أن يحنثوا بقسمهم. أما أحد الشهود الآخرين من أمثال فيليب زيليكاو، فقد عارض كذلك تلك التقنيات أثناء وجوده في وزارة الخارجية.

وقفت [redacted] أمام لجنة [redacted] وشرحت الكيفية التي يجب أن تسير بها جلسات الاستجواب، وأسباب فشل تقنيات الاستجواب المعززة. قلت مستنتجاً: «على مدى السنوات السبع الأخيرة لم يكن من السهل معارضة هذه الطرق بسبب داعميها الأقوياء. وقفت في ذلك الوقت، وللسبب ذاته الذي جعلني أواجه النقاد الآن، ولأنني أقسمت على حماية هذه الأمة العظيمة. لم يكن بوسعي الجلوس بهدوء بينما كانت تتعرض سلامة بلادي للخطر، وكذلك موقفنا الأخلاقي الذي يتعرض للتدمير».

بثّ المدافعون عن البرنامج بعض الأكاذيب بشأن النجاحات المزعومة لتقنيات الاستجواب المعزّزة، بحيث إن عدداً كبيراً من الناس في واشنطن خُدعوا بها، وكان من بينهم عضو مجلس الشيوخ ليندسي غراهام، وهو أحد الأعضاء المحترمين في إحدى اللجان. ورد الحديث التالي خلال أحد اللقاءات:

السيناتور غراهام: والآن، وبشأن استجواب هذا المشتبه به، هل تعرف سيداً يدعى جون كيرياكو؟

السيد صوفان: «أنا؟»

السيناتور غراهام: أجل.

السيد صوفان: كلا. لا أعرفه.

السيناتور غراهام: حسناً. ظهر الرجل في مقابلة، وهو ضابط متقاعد في وكالة الاستخبارات المركزية. تحدث عن أبي زبيدة، هل هذا هو اسم ذلك الرجل؟

السيد صوفان: أجل.

السيناتور غراهام: هل تلفظت بالاسم بالطريقة الصحيحة؟ قال إنهم مارسوا به تقنية الاختناق والإحساس بالغرق، وما لبث أن انهار في غضون ٣٥ ثانية.

السيد صوفان: «هل هذا سؤال موجّه إليّ يا سيدي؟».

السيناتور غراهام: أجل.

السيد صوفان: حسناً. تراجع عن كلامه هذا، وقال إنه تلقى معلوماتٍ مغلوطة، [redacted].

السيناتور غراهام: حسناً. إذاً لقد....

السيد صوفان: حسناً. تراجع عن كلامه هذا، أجل يا سيدي. كانت تلك إحدى الأمور التي ذُكرت من قبل.

شجب الرئيس باراك أوباما علناً برنامج تقنيات الاستجواب المعززة، وقال إن تلك التقنيات التعسفية لن تُستخدم مجدداً. شكّل الرئيس كذلك لجنةً رئاسية لرفع توصيات بشأن المضي قُدُماً وتحسين برنامج الاستجواب عندنا، كما طُلب مني الإدلاء بإفادتي أمام اللجنة.

بدأت بالقول: «يُمكن للمرء إذا ما استخدم العسل الإمساك بعددٍ أكبر من الذباب مما لو استخدم الخل». مضيت أشرح أن المعرفة المجمّعة عن الموقوف وعن المنظمة، وعن خلفية الموقوف والمنظمة على حدٍ سواء هي من الأمور الضرورية لأي استجواب. شرحت للجنة كذلك أن التعذيب لا ينفع لأنه «يُنتج الإذعان في أفضل الحالات وليس التعاون، والتعاون هو ما يحتاجه المرء في عملية الاستجواب الناجحة والموثوقة».

سألني أحد أعضاء اللجنة: «لكن إذا علمت القاعدة بشأن طريقتك في الاستجواب، ألا يسمح لها ذلك بتدريب نشطائها على التحضير لهذه الطريقة؟»

أجبت مبتسماً: «يستحيل ذلك، لأنه لا توجد مطلقاً عمليتا استجواب متشابهتان».

«ولمَ لا؟»

«لا يوجد موقوفان متشابهان تماماً. وكما أن هناك طفولتين مختلفتين وتجربتين مختلفتين مع القاعدة وحتى فكرين مختلفين، كذلك لا توجد عمليتا استجواب متشابهتان تماماً. لا يتعلق نهج الاستجواب الحكيم بسلسلة من الخطوات، بل يتعلق بعرض ما تعرفه عن الموقوف عرضاً لا يكون لصالحه ويكون متفوّقاً على ذكائه».

«إذاً عندما يكون أمامك موقوف تريد أن تحمله على التعاون يتعيّن عليك أن تستخدم نهجاً مختلفاً؟»

«أجل. تمكنا مع أبي جندل، على سبيل المثال، من الإمساك به في عددٍ من أكاذيبه وتبجحاته. وبالنسبة إلى البهلول، وهو الذي كان مساعد بن لادن، ومسؤول الدعاية عنده، فقد استغللنا إخلاصه للقاعدة ومعارفه الدينية. أما الحسين خرشتو فقد كانت النقطة الهامة في الاستجواب هي رفض القاعدة دفع تكاليف العملية القيصرية اللازمة لزوجته. لكن بالنسبة إلى [redacted]، فقد كان الأمر المهمّ هو مشاعر طفولته تجاه شقيقه، وهو الأمر الذي غيّر موقفه.

«يمكنني أن أشرح ذلك بطريقة مختلفة إذا فكّرنا في المواعدة. إذا ظنّ المرء

أن هناك صيغة سحرية وخمس كلمات تؤمن له النجاح، فإنه لن يحصل على موعد. إن الملاحظة ذاتها التي دفعت بإحداهن إلى أن ترمي كأسها في وجهك، قد يكون تأثيرها في شخص آخر مختلفاً تماماً. يختلف كل شخص عن الآخر، وهكذا فإن من الطبيعي أن يحصل المرء على نجاحٍ أكبر إذا كان يعرف كل ما يعجب صديقته وكل ما تكرهه.

«إن كل موقوف هو رجل مختلف عن الآخر، وأنت تحتاج في كل مقابلة إلى تطبيق استراتيجية فريدة مستندة إلى المعرفة». أصابت ملاحظتي هذه الهدف المنشود.

خاتمة

أوردت صحيفة واشنطن بوست أن أبا أحمد الكويتي أبلغ صديقاً حميماً له: «عدت إلى الناس الذين كنت معهم من قبل». كان ذلك في ربيع العام ٢٠١٠. تعمّد أبو أحمد، وهو كويتي من أصلٍ باكستاني، أن يكون غامضاً في ردّه على استفسارات صديقه حول ما ينوي عمله، وهو امتلك سبباً وجيهاً لذلك: كان الرجل أحد الروابط الأساسية لأسامة بن لادن بالعالم الخارجي، أي كان يعمل كمبعوثٍ له. إن أي زلة لسانٍ من جانبه يُمكن أن تقود مسؤولي الاستخبارات إلى أخطر الإرهابيين المطلوبين في العالم.

«سهّل اللّه أمرك». كان ذلك هو الرد من الصديق، وكأنه فهم ما لم يقله أبو أحمد. لكن المحققين الأميركيين الذين كانوا يصغون إلى هذه المحادثة فهموا بدورهم، وذلك لأنهم كانوا يراقبون ذلك الصديق على أمل الإمساك بالكويتي. حصل المسؤولون أخيراً على رقم هاتفه الخَلَويّ.

أبلغنا الموقوفون في غوانتانامو في أوائل العام ٢٠٠٢ بآخر مرة رأوا فيها بن لادن: كان هارباً من سلسلة جبال تورا بورا، بينما كان جنود تحالف الشمال (الذين تدعمهم الولايات المتحدة) يتقدمون. لم يكن برفقته سوى حمزة الغامدي، وهو

سعودي الجنسية، ويوسف القناص، وهو كويتي الجنسية. عمد بن لادن قبل وصوله إلى تورا بورا إلى تغيير حرّاسه الشخصيين فانتقى مجموعة من تسعة مرافقين موثوقٍ بهم لمرافقته، وكان من بينهم ابنه عثمان، والمواطنان السعودي والكويتي.

علمنا في الوقت ذاته كذلك أن ناشطاً كويتياً (والذين علمنا في ما بعد أنه أبو أحمد الكويتي) كان يؤدّي دوراً محورياً مع بن لادن ومنظمة القاعدة في مرحلة ما بعد تورا بورا. وضعت وكالة الاستخبارات المركزية، وهيئات أخرى في مجتمع الاستخبارات الأميركي، بعض المعارف المحتملين للكويتي، وبعض الأماكن التي يُحتمل أنه سوف يزورها، تحت المراقبة وذلك على أمل العثور على أبي أحمد. أثمرت هذه الجهود في ربيع العام ٢٠١٠، كما أن تلك المحادثة المسجلة كشفت للمحققين رقم هاتفه الخلوي.

وُضع ذلك الرقم تحت المراقبة، كما أن تحقيقاً ـ استخُدمت فيه كل الأصول، والمصادر، والبحث عن المعطيات، وأعمال التحري، وأعمال الملاحقة قديمة الطراز التي قام بها نشطاء وكالة الاستخبارات المركزية والمراقبة الذكية التي تستخدم أحدث التقنيات عالية المستوى – أدى أخيراً إلى العثور على مجمعٍ سكني يحتل إيكراً(*) واحداً من الأرض في مدينة آبوت أباد الباكستانية.

تبعد تلك المدينة مسافة تقلّ عن أربعين ميلاً عن العاصمة الباكستانية إسلام أباد، وهي تحتضن أكاديمية كاكول العسكرية – وهي أكاديمية تدريبية عادة ما توصف بأنها النسخة الباكستانية لوست بوينت، أو ساند هيرست، أبرز الكليات العسكرية الأميركية والبريطانية. اعتاد كبار المسؤولين الباكستانيين، وكذلك كبار الزائرين الأجانب على زيارة هذه الأكاديمية. زار الجنرال الأميركي دافيد بترايوس، على سبيل المثال، هذه الكلية في شباط/فبراير من العام ٢٠١٠.

تُعتبر آبوت أباد للوهلة الأولى أحَدَ آخر الأماكن التي يتوقع أن يختبئ فيها زعيم

(١) الإيكر يساوي تقريباً أربعة آلاف متر مربّع.

القاعدة، لكن مع إمعان النظر فإن ذلك بالضبط هو ما جعلها مغرية بالنسبة إليه. كان بعض محلّلي الاستخبارات يتوقعون أن يلجأ قادة القاعدة إلى الاختباء في المناطق الريفية، إلا أن عدداً من كبار أعضاء القاعدة قد اعتُقلوا في مدنٍ كبرى: اعتُقل رمزي بن الشيبة، على سبيل المثال، في كراتشي، أما رئيسه خالد الشيخ محمد فقد اعتُقل في راولبندي.

كان المجمّع محاطاً بجدران يبلغ ارتفاعها اثني عشر قدماً وتعلوها الأسلاك الشائكة. لم يجهّز المجمّع بهاتف، ولم يكن متصلاً بشبكة الإنترنت، وهو الأمر الذي جعل من المستحيل على وكالة الأمن القومي الإصغاء إلى المحادثات الدائرة في الداخل. أما مسؤولو وكالة الاستخبارات المركزية الذين أقاموا قاعدة مراقبة في الجوار فقد شاهدوا الكويتي وهو يتنقل فترة تسعين دقيقة خارج المجمّع قبل أن يعمد حتى إلى وضع بطارية في هاتفه كي يجري مكالمة.

كان من الواضح أن شخصية مهمّة كانت توجد داخل المجمّع، لكن هل كانت تلك الشخصية هي بن لادن؟ راوحت التقديرات التي أُعطيت للرئيس أوباما بين ٤٠ و٨٠ بالمئة، كما قدّمت له خيارات مختلفة بشأن كيفية المضي قُدُماً. تضمَّنَ أحدُ الخيارات استخدام صواريخ لتدمير المجمّع وقتلِ ساكنيه – أي كما حدث في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠١ مع مخبأ أبي حفص المصري، وهو الذي كان حينها القائد العسكري في القاعدة. كانت إحدى سلبيات هذا الخيار هو صعوبة التأكد من وجود بن لادن بالفعل في المجمّع وصعوبة التأكد من مقتله.

أما الخيار الثاني فكان إرسال جنودٍ من القوات الخاصة الأميركية إلى المجمّع إما لقتل الموجودين فيه وإما لإلقاء القبض عليهم. أعاد هذا الخيار إلى الأذهان ذكرى عملية إسقاط مروحيّتي البلاك هوك.

وضعت خطط لكلا الخيارين: وُضعت قاذفتا قنابل من نوع B-2، اللتان تحملان قنبلتين تزنان ألفي طن في حالة جهوزية. يُضاف إلى ذلك أن نائب الأميرال البحري

وليام آيتش. ماك رافين، وهو على رأس قيادة العمليات الخاصة المشتركة JSOC، قد عيّن فريقاً من نخبة القوات البحرية (SEALs)، تابعاً للفرقة السادسة للتدرب على تنفيذ عملية محتملة. صادق الرئيس أوباما عند الساعة ٨:٢٠ من صباح يوم الجمعة ٢٩ نيسان/أبريل، ٢٠١١ على العملية البرية. قال آمراً: «إنه أمر بالتحرك للتنفيذ». ارتدى الرئيس بذلته الرسمية في المساء التالي وتوجه لحضور الغداء السنوي لمراسلي وسائل الإعلام في البيت الأبيض حيث ألقى خطابه من دون أن يذكر ما يجول في ذهنه بالفعل.

اعتُبرت الظروف مؤاتية للعملية في ٢ أيار/مايو، وهكذا أقلعت من جلال أباد في شرق أفغانستان طائرتان حوامتان من نوع بلاك هوك، وحملتا فريق القوات البحرية. تعطلت فوق جدران المجمّع طائرة بلاك هوك، ونفذت هبوطاً اضطرارياً. تمكّن الجنود الذين كانوا في داخل الطائرة من النجاة، لكن الطائرة الحوامة بقيت غير صالحة للاستخدام، وهكذا عمد جنود القوات البحرية إلى تدميرها.

استغرقت الغارة بأكملها أقل من أربعين دقيقة. قُتل في هذه الغارة بن لادن، وأحد أبنائه، وبعض مساعديه. كان أبو أحمد، مبعوث بن لادن، من بين القتلى. أخذ جنود القوات البحرية قبل مغادرتهم أقراص الحواسيب الصلبة وبعض الأدلة الحسية، وكذلك جثة بن لادن، ثم طاروا بالطائرة الحوامة التي بقيت صالحة.

أعلم البيت الأبيض بعد التأكُّد من أن الجثة تعود لبن لادن بالفعل، وسائل الإعلام بأن الرئيس أوباما سيدلي بتصريح شديد الأهمية في ذلك المساء. راجت على الفور الشائعات التي تتحدث عن مقتل بن لادن، وتجمعت حشود عفوية من الناس خارج البيت الأبيض، وفي منطقة الكارثة، وفي مواقع مهمّة أخرى للاحتفال بهذه الأخبار. سادت الأجواء مشاعر الغبطة والارتياح.

كنت في المنزل مع زوجتي هيثر نساعد ولدينا التوأم اللذين ولدا حديثاً على النوم عندما اتصل بي الزملاء القدامى ـ من الوكالات الحكومية الأميركية ومن وكالاتٍ

أخرى في العالم – كما أرسل بعضهم رسائل نصيّة ورسائل بالبريد الإلكتروني بهدف الاحتفال بهذه اللحظة التاريخية. أعاد بعضهم إلى الذاكرة واقعة العام ١٩٩٨، بينما ذكر آخرون الاستجوابات المهمّة التي جرت في العام ٢٠٠٢.

توجه الرئيس أوباما إلى نحو ٥٧ مليون أميركي كانوا يشاهدونه وهو يتكلم من فوق منصة في الغرفة الشرقية من البيت الأبيض بالقول: «يمكنني أن أبلغ الشعب الأميركي والعالم في هذه الليلة أن الولايات المتحدة قد نفذت عملية أدت إلى مقتل أسامة بن لادن، زعيم القاعدة والإرهابي الذي يتحمل مسؤولية مقتل آلاف الرجال والنساء، والأطفال الأبرياء».

أُقفلت هكذا التحقيقات المتعلقة ببن لادن والتي بدأت في العام ١٩٩٦، أي عندما فتح عميل مكتب التحقيقات الاتحادي الخاص دان كولمان دعوى قضائية بحقه. انتهت مع هذه العملية مرحلة من مراحل حياتي: كانت ملاحقة بن لادن هوايتي منذ أوائل التسعينيات من القرن الماضي، وما لبثت أن تحولت إلى مهمة عندما التحقت بمكتب التحقيقات الاتحادي في أواسط التسعينيات. استغرقت هذه المرحلة نحو عشرين عاماً من حياتي.

اعتبرت أنه من العدل أن يُقتل في عُقر داره في باكستان وعلى يد قواتٍ أميركية، الرجل الذي كان يشجع كثيرين على القيام بأعمال العنف عن طريق قوله إن أميركا كانت ضعيفة وتفرّ عندما تُهاجم. لم تكن أميركا هي التي تتراجع وتختبئ، بل إنَّ زعيم القاعدة هو الذي كان سجيناً في مبناه طوال السنوات الأخيرة من حياته، ولم يكن قادراً على التواصل مع العالم الخارجي إلا بواسطة المبعوثين الذين كانوا يحضرون إليه المعلومات بواسطة الأقراص الصغيرة thumb drives. أما شرائط الفيديو المعدة للتوزيع، والتي وُجدت في المبنى فقد أظهرته وهو يتمرن عليها، وكثيراً ما كان يُخطئ في عباراته.

لفّ الكفن جثة بن لادن ووُضعت في كيس مع أحجارٍ ثقيلة، ثم أُلقيت في يوم العملية في شمال بحر العرب.

بدأ في اليوم ذاته المدافعون عن تقنيات الاستجواب التعسفية بالزعم أن استخدام هذه التقنيات هو الذي أرشد المحققين إلى بن لادن. برزت ادعاءات زائفة أخرى بعد إلقاء القبض على أعضاء آخرين في القاعدة مثل خالد الشيخ محمد، وخلاد، وخوسيه باديلا. قال رئيس الوزراء البريطاني العظيم ونستون تشرشل ذات مرة إن «الكذبة تتمكن من قطع نصف المسافة حول العالم قبل أن تتمكن الحقيقة من ارتداء سروالها». كان ذلك صحيحاً في هذه الحالة كذلك.

علم الشعب الأميركي بعد وقتٍ قليل أن خالد الشيخ محمد قد تعرّض لعملية الإحساس بالاختناق والغرق في العام ٢٠٠٣، وعندما تعرّض رئيس العمليات في القاعدة أبو فرج الليبي للتقنيات التعسفية (لكن من دون الاختناق والإغراق) في العام ٢٠٠٥، فقد وجّه إليهما المستجوبون سؤالاً عن أبي أحمد. أنكر الرجلان معرفة هويته الحقيقية وقلّلا من أهمية دوره في القاعدة. كان هذا الإنكار الذي كان زائفاً بشكلٍ واضح «برهاناً» للمدافعين عن تقنيات الاستجواب الإكراهية بأن الكويتي كان شخصية فعّالة في القاعدة، وكان برهانهم على نجاح تقنيات الاستجواب الإكراهية.

سبق لنا أن علمنا في العام ٢٠٠٢ ـ بواسطة طرق الاستجواب التقليدية مع الموقوفين ـ أن الكويتي كان شخصية مهمّة في القاعدة. تُظهر واقعة كذب خالد الشيخ محمد وأبي فرج بشأن معرفتهما به فشل تقنيات الاستجواب الإكراهية. إن الاستجواب الناجح هو ذلك الذي يتعاون الموقوفون بنتيجته ولا يكذبون. يُحتمل أن يبدو ذلك أمراً مفروغاً منه، لكن ليس بالنسبة إلى المدافعين عن تقنيات الاستجواب الإكراهية على ما يبدو.

لم يقتصر الأمر على معرفة خالد الشيخ محمد بأبي أحمد، وهو الكويتي الذي تعهد العقل المدبر لهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بالرعاية. امتلك الرجلان خلفيات متشابهة، كما أن خالد الشيخ محمد أوكل إليه إدارة مركز ضيافة كبار نشطاء القاعدة في كراتشي باكستان: مرّ من خلال مركز الضيافة ذاك عدد من كبار نشطاء القاعدة المتورطين في هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، بمن فيهم الحنبلي،

وخلاد، ومصطفى الهوساوي، وعمار البلوشي. خضع أولئك كذلك إلى برنامج تقنيات الاستجواب الإكراهية، لكنهم لم يكشفوا معلومات قيّمة حول الكويتي. كان أبو أحمد الناشط المثالي عند خالد الشيخ محمد وبن لادن: كان عربياً ويتحدث اللغة المحلية كما يفهم عادات المجتمع ويختلط بسهولة مع الآخرين.

حصلنا على تفاصيل أخرى حول الكويتي من ناشطٍ باكستاني في القاعدة يدعى حسن غول الذي استجوبته وكالة الاستخبارات المركزية في تموز/يوليو من العام ٢٠٠٤. قالت عضو مجلس الشيوخ دايان فاينشتاين، وهي رئيسة لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، إن غول أعطى المعلومات التي يعرفها قبل تعريضه للتقنيات القاسية.

طُرح عليّ سؤال بعد مقتل بن لادن: لماذا طال الزمن كثيراً قبل الإيقاع به؟ حصلنا على أول إشارة مهمّة عنه في العام ٢٠٠٢، إذاً لماذا لم نوقع به إلا في العام ٢٠١١؟ يعود السبب إلى تهميش أدوار المستجوبين المحترفين، وعملاء الاستخبارات، والمحققين، فبدلاً من استخدام الطرق المجربة التي خضعت للاختبار مُنحت الثقة لتقنيات الاستجواب المعززة. أُخضع في تلك الفترة كبار موقوفي القاعدة الذين تحتجزهم الولايات المتحدة من أمثال خالد الشيخ محمد، والنشيري، وخلاد، إلى استجوابات على يد مستخدمي تقنيات الاستجواب المعززة، وهم الذين تشير معظم الاحتمالات إلى معرفتهم بأبي أحمد والمبعوثين الآخرين، وإلى أنهم كانوا على اتصالٍ ببن لادن بأنفسهم.

لم تتغيّر الأمور فعلياً إلا عندما أنهى ليون بانيتا، المدير الجديد لوكالة الاستخبارات المركزية برنامج الاستجوابات التعسفية، وأغلق المواقع السرية. شاءت الصدف أن يأتي موت بن لادن في النهاية بعد استئناف العمل بالطرق التقليدية للاستخبارات والتحقيقات. عاد المحترفون للإمساك بزمام الأمور، لكن ذلك حدث بعد أن فقدنا أعواماً مهمّة، ومعارف ومهارات في تلك الفترة الفاصلة.

كانت زوجة بن لادن اليمنية معه في مجمّعه السكني، حتى أنها كانت في الغرفة معه خلال اللحظات الأخيرة من حياته. كانت هي الزوجة ذاتها التي عرفها جيداً المعتقل رقم ٣٧ في غوانتانامو، وهو ناشط يمني في تنظيم القاعدة يدعى البتار. ساعد الرجل في إيصال مبلغ المهر الذي وصلت قيمته إلى خمسة آلاف دولار من بن لادن. نصح سليم حمدان زميله البتار بالتعاون معي، وهو وافق على ذلك التعاون، لكنه وضع شرطاً، وهو السماح له بالتحدث هاتفياً مع عائلته وذلك لطمأنتها عنه، وهو الأمر ذاته الذي حصل مع حمدان.

طلب قادة فريق التحقيقات الجنائية، ومكتب التحقيقات الاتحادي الإذن من الجنرال ميلر الذي كان رئيساً للقاعدة [الأميركية في غوانتانامو]، لكنه رفض منحه قائلاً إنه لا يستطيع إعطاء ذلك الإذن من دون موافقة من بول ولفوويتز، وهو نائب وزير الدفاع رمسفيلد. لم يأتِ ذلك الإذن أبداً إلا أننا ناشدنا مجدداً الحصول على ذلك الإذن، وقلنا له إنّ زوجة بن لادن اليمنية يُحتمل أن تقودنا إليه. لكن مناشدتنا ضاعت أدراج الرياح.

جاء ما سُمّي الربيع العربي في العام ٢٠١١ في أعقاب مقتل بن لادن، وهو الربيع الذي شهد قيام مواطِني بلدانٍ مثل مصر، وتونس، واليمن وليبيا، والأردن والجزائر وسوريا بتحدّي حكامهم. كنت في الشرق الأوسط خلال تلك الفترة، ولاحظت أن أكثر الأمور إدهاشاً والتي تميّز تلك الاحتجاجات هو غياب خطابات القاعدة عن ألسنة المتظاهرين.

تختلف القاعدة عن المجموعات الإسلامية المتطرفة الأخرى في أن قادتها يحثّون الناس على التركيز على الولايات المتحدة (العدو البعيد) بدلاً من التركيز على حكّام بلدانهم (العدو القريب). نجح بن لادن كثيراً في إقناع الجماعات الأخرى بالتحالف مع القاعدة، والتركيز على الولايات المتحدة ـ بزعم أن ذلك هو أفضل طريقة لقلب الأنظمة التي تعارضها تلك الجماعات. لكن الربيع العربي أظهر، وخلافاً لخطاب القاعدة، أن هؤلاء الحكام المكروهين يُمكن قلبهم سلمياً، ومن

دون مواجهة الولايات المتحدة. شهد الناس، في الواقع، الولايات المتحدة وهي تدعم جهودهم، وهو الأمر الذي يدحض مزاعم القاعدة. بدا واضحاً كذلك أن أولئك الحكام استخدموا تهديد القاعدة لتبرير نهج أنظمتهم القمعية أمام الدول الأخرى، ولتصفية الحسابات مع الدول الأخرى وأمام خصومهم.

عزّز ذلك ظاهرة الابتعاد عن القاعدة، وهي الظاهرة التي كانت سائدة خلال السنوات القليلة الماضية بين داعميها السابقين في العالم الإسلامي. تزايد سخط الناس من عمليات القتل من دون رحمة والهجمات الإرهابية التي نفذتها القاعدة ـ كان معظم ضحايا القاعدة من المسلمين ـ كما أنهم أدركوا أخيراً أن المنظمة لا تمتلك أي برنامجٍ سياسي، أو أي أفكار على المدى البعيد، وأنها تهدف إلى القتل فقط.

كان مقتل بن لادن ضربة أخرى تلقتها القاعدة. لم يقتصر الأمر فقط على أنه قائدها، لكنه جسّد إيمان أعضائها بأن صيغتهم الخاصة بهم من الإسلام هي الصحيحة، وأن الإرهاب هو السلاح المناسب، وأنهم سوف ينتصرون في النهاية، وهو الأمر الذي توقعه الحديث [المنسوب إلى النبي] عن الرايات السود. كانت شخصيته الجذابة أمراً ضرورياً لتجنيد المقاتلين ولجمع الأموال. عانت القاعدة بعد الرصاصة التي انطلقت من بندقية أحد أفراد فرقة SEAL's، من ضربة قاتلة وخسرت أعظم موردٍ لديها.

أعلنت القاعدة ـ القيادة العامة في يوم ١٦ حزيران/يونيو/يونيو من العام ٢٠١١ أن نائب بن لادن، أي أيمن الظواهري، هو الذي سوف يتولى مسؤولية التنظيم. (كان سيف العدل هو الزعيم المؤقت بعد مقتل بن لادن). جلب الظواهري معه مجموعة من المشاكل للمنظمة، وهو الذي يُعتبر شخصية تثير الانقسام مفتقداً جاذبية بن لادن وهيبته. وهكذا لن يكون قادراً على جذب المجنّدين والأموال، أو الإبقاء على ولاء الاعضاء، وهو الأمر الذي كان يفعله بن لادن. كان واقع كونه مصرياً نقطة في غير مصلحته، وذلك بالنظر إلى التنافس بين أعضاء القاعدة بين المصريين والأعضاء من دول الخليج العربية.

أضعف مقتل بن لادن وترقية الظواهري القاعدة، لكن هاتين الحقيقتين لم تقضيا عليها. يُذكر أن بعض أعضاء مجلس قيادة القاعدة ما زالوا أحراراً. يحتفظ كل واحد من هؤلاء بالإمرة على أتباعه، وهم يحاولون بين الحين والآخر شن عمليات للبرهنة على استمرارية أهمية القاعدة. يُحتمل كذلك أن تعود المجموعات الإقليمية التي سبق لها أن تحالفت معها إلى العودة للعمل باستقلالية، وذلك مع تراجع نفوذ القاعدة. يُسهم هذا الأمر، وبطرقٍ متعددة في جعل هذه المجموعات أكثر خطراً بسبب تزايد صعوبة مراقبتها، وبسبب اتساع مدى عملياتها. إن صدور إعلان الظواهري من القاعدة – القيادة العامة بدلاً من صدوره عن القاعدة فقط يشير إلى أن مثل تلك الانقسامات قد بدأت بالفعل.

إذا ما أردنا إلحاق الهزيمة الكاملة بالقاعدة، أو بالمجموعات الجديدة التي قد تظهر تالياً، فإننا بحاجة إلى أن ندرك أن العمليات العسكرية، والاستجوابات، والنجاحات في المعلومات الاستخبارية هي نصف المعركة فقط. أما النصف الآخر فيكمن في مجال الأفكار – أي مجابهة القناعات وطرق التجنيد التي يستخدمها المتطرفون. يمكننا الاستمرار في قتل الإرهابيين واعتقالهم، لكن إذا استمر مقاتلون جدد في الالتحاق بصفوف تلك الجماعات، فإن حربنا لن تنتهي أبداً.

إن ما أظهره الملك السعودي في «صندوق الشيطان»، يشبه ما نعرفه من تعاليم صن تزو في فن الحرب، فإن فهم المرء لخصومه، واستخدام تلك المعرفة لإضعافهم، هو العامل الأساس الذي يوصل إلى النصر النهائي. تكوّنت لديّ هواية جديدة منذ أن غادرت العمل الحكومي، وهي مكافحة الدعاية والخطابات التي تستخدمها القاعدة لإغراء الناس بالانضمام إليها.

تنويهات

هناك مئات من الرجال والنساء من الذين التقيتهم في مختلف مراحل حياتي، ومن الذين عملت معهم – سواء في مكتب التحقيقات الاتحادي، أو في الوكالات الحكومية الأخرى في داخل الولايات المتحدة وخارجها – وهم جميعاً يستحقون شكري لهم، لكن ضيق المجال، والقوانين الأمنية، ورغبة الناس في البقاء بعيدين عن الأنظار، وحدود ذاكرتي، تمنعني من تسمية الجميع مباشرة.

أبدأ بزوجتي هيثر، وهي شريكتي المثالية بكل ما في هذه الكلمة من معنى. أعرف أن عدداً قليلاً من الزوجات يتحملن غياب أزواجهن لمدة أسابيع، ومن دون أن يعرفن أمكنة وجودهم أو حتى متى يعودون، لكن هيثر هي شخصية فريدة من نوعها. رُزقنا ثلاثة صبيان صغار، وهم كونور، ودين، وديلون، وهم يجددون عزمي كل يوم بضحكاتهم وابتساماتهم وطيبتهم.

أشكر والدي لأنه غرس في أعماقي حماسه ذاته، وأخلاقياته في العمل، والالتزام بالقيام بما هو صائب. وأشكر والدتي، وشقيقي، وشقيقتي لمحبتهم التي غمرتني منذ أن أبصرت النور.

أشكر كذلك دانيال فريدمان، صديقي وشريكي في وضع هذا الكتاب، والذي

كانت مساعدته لي في تأليف الكتاب في غاية الفعالية. أما أخلاقيات عمله، وفكره الثاقب، وطبيعته الحيوية فكانت الأساس الذي قام عليه هذا المشروع. إنني شاكر جداً لعمله الشاق والهائل والالتزام الذي أظهره. أريد توجيه شكرٍ خاص لزوجته بيكي لتحمّلها الساعات الطوال التي أمضيتها مع زوجها في تأليف هذا الكتاب – ولأنهما كانا صديقين لِـ هيثر ولي أنا، وكنا بمثابة أسرة واحدة.

كنت محظوظاً للعمل مع، عدد من الرجال الاستثنائيين من هيئات تطبيق القوانين الأميركية، والجيش، ومن عالم الاستخبارات، ومن الدول الحليفة والتعلم منهم. أذكر من بينهم بعض موظفي مكتب التحقيقات الاتحادي، مثل كارلوس فيرنانديز الذي هو صديق كبير لي، والشخص الذي أثق به كثيراً، كما هو زميل عظيم؛ وكذلك بات دامورو نظراً إلى شخصيته الاستثنائية ودعمه الكبير لي؛ وكيني ماكسويل، الذين كان على الدوام رئيساً عظيماً وصديقاً موثوقاً. أذكر كذلك من هيئة التحقيقات الجنائية البحرية بوب ماكفادين، وهو أفضل شريك يمكن لأي شخص أن يجده إلى جانبه.

هناك كثيرون يستحقون الذكر، ومن بينهم مارك فالون، وستيف كوربيت، وكين ريور، ومايك جيلز، وهؤلاء من NCIS؛ والعقيد سكوت ديوك وفريقه المشترك؛ وتوم دونلون، ودون بوريللي وستيف بونغاردت، وديبي دوران، وستيفن غودين، وبوب هيرمان، وريان بلنكيت، وتوم نير، وبيل كوربيت، وجورج كروتش، وجو إينيس، ورسل فينشر، وآرون زيبلي، ومايك بوتش، وبريان جيتسون، وجيف «جني» رينجيل، وكيفن كروز، ودان كولمان، وكيفن دونوفان، وآندي آرينا، وماري غاليغان، وباري ماون، وجاك كلونان، وآندريه خوري، وجون آنتيشيف، ومايك آنتيشيف، وكريس رايمان، وشوك فرام، وآمي ليونز، ومارك وايت ورث، وجيري كوكوزو، وجيم مارجولين، وجو فاليكويت، وراي هولكومب، ودان فيشيه، وآبريل فيليبس، وآبي بيركنز، وهانك شو، وسكوت جيسي، وفرانك بيليغرينو، وجين كينان، وجو لاندرز، وكريس نيكولاس، وجون ليغوري، وجميعهم من مكتب التحقيقات الاتحادي. أشكر كذلك كاثي ماك غوان، وروزي ليبور، وباربرا كالاندرا (مساعدتي السابقة)، وآنيتا

وادل (التي تقاعدت وتعمل الآن مديرة لمكتبي)، ودينيس بايكر، وكثيرين آخرين في مكتب التحقيقات الاتحادي وفي الوكالات الأخرى الذين يدعمون العملاء الميدانيين، وهم الذين لولاهم لما حققنا النجاح.

عملت كذلك إلى جانب رجال ونساء لطفاء في وكالة الاستخبارات المركزية، لكن متطلبات عملهم تفرض عدم كشف أسمائهم. أذكر كذلك مسؤولين من وزارة الخارجية والسلك الدبلوماسي. أشكركم جميعاً.

أريد توجيه شكر خاص إلى جميع الأشخاص الذين عملت معهم في فريق مكافحة الإرهاب في نيويورك سواء داخل فريقي أم خارجه. أشكر روجر كوري على صداقته المتينة، وكذلك توم كوريغان (الذي رحل مع الأسف في تموز/يوليو من العام ٢٠١١)، وكيفن يورك، وكيفن بتلر، ولويس نابولي، وبريان دينيغان، ووain بارولا، وتوم وارد، وتيري ماك جي، وبوبي لوسادا من دائرة شرطة نيويورك. اشتمل فريقي على رجال ونساء من دائرة شرطة نيويورك، ومكتب التحقيقات الاتحادي، ومصلحة المرافئ، والأمن الداخلي. أقول لكم جميعاً إنني تشرفت بالعمل إلى جانبكم. أما أنتم الرجال الذين عملت معهم في اليمن، وفي أنحاء أخرى من العالم مع أفراد من الجيش الأميركي، سواء من الجنود، أو البحارة، أو من مشاة البحرية فأقول إنكم مصدر إلهام لي.

أريد كذلك توجيه الشكر إلى مايك كورتان من مكتب العلاقات العامة في مكتب التحقيقات الاتحادي، وذلك على مساعدته وإرشاداته، وكذلك أشكر سلفه جون ميلر الذي ساعدني في هذا السياق. كان جون، وبطرقٍ متعددة، مسؤولاً عن هذا الكتاب، وذاك لأنه كان يشجعني على الدوام على كتابته. إنني مدين بالشكر كذلك إلى مكتب مراجعة إعادة النشر في مكتب التحقيقات الاتحادي، وعلى الأخص زاك رايت ودينيس آرغال.

أعتقد أن كل مؤسسة تكون صالحة بقدر صلاح قادتها. وفي مكتب التحقيقات

الاتحادي أعتبر نفسي محظوظاً لأنني عملت تحت إشراف مديرَين، هما لويس فريه وروبرت مويلر. إن أمتنا ستستفيد كثيراً فيما لو أخذ القادة الآخرون دروساً من خبراتكما.

أما خارج نطاق مكتب التحقيقات الاتحادي، ووكالة الاستخبارات المركزية، والجيش، والوكالات الأخرى التي يربطها المرء مع مكافحة الإرهاب، أي المدّعون ـ سواء في المحاكم المدنية والعسكرية ـ فهم الذين عملوا معنا في الخطوط الأمامية من أجل التأكد من بقاء الذين نمسك بهم وراء قضبان السجون. كنت محظوظاً بالعمل إلى جانب عدد كبير من أفضل الرجالات في بلادنا، بمن فيهم دافيد كيلي، وبات فيتزجيرالد، وكين كاراس، والذي هو قاضٍ الآن. أشكر كذلك موظفي مكتب اللجان العسكرية، سواء من جهة الادعاء والدفاع، والذين يذكرون العالم بطبيعتنا وبطبيعة بلدنا. إننا ندين لكم بالامتنان.

كنت محظوظاً أثناء تأدية مهامي مع مكتب التحقيقات الاتحادي بالعمل إلى جانب مسؤولين بارزين من بلدانٍ أخرى والذين تعلمت منهم أموراً كثيرة كما أنشأت صداقات عظيمة معهم. أقدّم شكري لجون بون، وآلان فراي، وبيتر كلارك في المملكة المتحدة؛ وكذلك إلى جوسيب بترونزي وماسيمو دي بينيديتيس في إيطاليا من بين أشخاصٍ آخرين. أما صديقي الطيّب سعد خير من الأردن فلم يعد بيننا، لكنني تعلمت أموراً كثيرة منه.

أذكر من بين أصدقائي في سنغافورة الذين يستأهلون ذكراً خاصاً: سوزان سيم، الزميلة والصديقة التي قدمت لي مساعدة كبيرة في تأليف هذا الكتاب، وكذلك في مجالات أخرى؛ وكذلك أصدقائي من وكالات حكومية أخرى الذين يستحقون تقديري. لا يمكنني، مع الأسف، أن أذكر معظمهم فيما عدا رئيس الإنتربول [البوليس الدولي] خو بون هوي، لكن ندين بالكثير في الواقع إلى الذين يهتمون بالأمن في سنغافورة.

أريد أن أتحوّل الآن إلى تلك الصداقات التي طورتها منذ أن تركت العمل الحكومي. أريد التنويه بشكل خاص بالذين أعمل إلى جانبهم والذين ما زالوا في الخطوط الأمامية، وعلى الأخص محمد المسند، والذي أعتبره أكثر من مجرد صديق، وأكثر من أخ، وهو الذي يتقدم الجميع بخطواتٍ قليلة. أما الدبلوماسي الموهوب أوميج سنغ باثيا فهو صديق طيّب، والرجل الذي تعلمت منه الكثير.

هناك شخصٌ آخر يستحق الذكر وهو لورنس رايت نظراً لالتزامه بالتوصل إلى الحقيقة، وهو الالتزام الذي ظهر بقوة في كتابه البرج المرتقب، والذي يُعتبر درساً لكل صحافي طموح. أما باري ماكمانوس، وستيفن وايت، وفيليب زيليكاو، ومارك بريتشارد، وكارين غرينبيرغ، ودان بينجامين، وتيم آندروز، ومايك جاكوبسن، وأصدقاء آخرون فقد تعلّمت منهم الكثير. أوجّه شكري الجزيل كذلك إلى العمدة [رئيس البلدية] رودي جولياني، وهو الذي منحني وظيفتي الأولى بعد مغادرتي لمكتب التحقيقات، وكذلك إلى دان كونولي الذي يعمل في شركة الأخوة جولياني، وهو صديق حقيقي ونبيل.

أدين بالشكر كذلك إلى زملائي في مجموعة صوفان: مارك سميث، وأحمد خليل، وهايدي فينك، وساندي تشوي، وآنجي هتشيسون، وجون وادل، وبود آلدريدج، وجيم ماك جي، وراي ماي، وصديقي محمد حنزب، وكل المدرسين، ومعلّمي اللغة، والمترجمين، الذين يعملون معنا، وكذلك إلى كامل الفريق في أكاديمية قطر الدولية للدراسات الأمنية QIASS، وأقول لهم جميعاً إنني أعتز بصداقتكم. أما مايكل لوموناكو وتيم براون العاملان في بورتر هاوس الممتاز، فهما صديقان حنونان بالإضافة إلى كونهما مضيفَين ممتازين. أخص بالشكر كذلك سيّد رحمان، وليورا دانان، ويارد ويغدور، وسام تارولر- كوبر، وهم فريق أبحاثنا المقيم الذين ساعدونا كثيراً في هذا الكتاب.

لكن بالرغم من أنني أستطيع تقديم الشكر إلى معظم الذين أريد التنويه بهم، إلا أن بعضهم، للأسف، لم يعُد بيننا. أذكر منهم البحارة السبعة عشر الذين ماتوا

على متن يو. أس. أس كول، وهم أبطال بكل ما للكلمة من معنى، وهم الذين لن أنساهم أبداً، وكذلك يجب على أميركا أن لا تنساهم. أذكر كذلك ليني هاتون، وهو عميل مكتب التحقيقات الاتحادي البطل الذي مات في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر عندما هَرع نحو البرجين المحترقَين. أذكر أخيراً جون أونيل، رئيسي وصديقي ومرشدي، وهو الذي أدرك طبيعة الخطر أكثر من غيره. مات جون كذلك في البرجين التوأم. أهدي إليك هذا الكتاب يا جون أكثر من أي شخصٍ آخر.

أريد تقديم شكرٍ خاص إلى وكيلي آندرو وايلي الذي وجّهني خلال عملية تأليف الكتاب برمتها، وكذلك إلى الفريق العامل في وكالته. أشكر كذلك ستارلينغ لورنس، منقّح كتابي لدى نورتون وفريقه المؤلف من لويز بروكيت، ورواكيل سلزمان، وميلودي كونروي، وبيل روسين، ونانسي بالمكويست، ودون رفكين، وآنا أولر، وكل الآخرين وهم جميعاً قاموا بعملٍ مدهش، وأنا مدين بشكري العميق إليهم للثقة التي وضعوها في هذا المشروع ومتابعته حتى النهاية. أما جانيت بيرن التي عملت إلى جانب ستار بصفتها منقحة ثانية، فأقول لها إن مواهبها المذهلة وإصرارها المذهل هي التي حوّلت النص الأصلي إلى هذا الكتاب.

أريد أخيراً أن أشكر أبطال هذا البلد الذين ما زالوا حتى اليوم في الصفوف الأمامية، سواء في الجيش، أو مكتب التحقيقات الاتحادي، أو وكالة الاستخبارات المركزية، أو NCIS، وكذلك في الوكالات الأخرى، وهم الذين يخاطرون كل يوم بحياتهم من أجلنا. شكراً لكم جميعاً.

الشخصيات الرئيسة

نصير عباس: قائد المجموعة الإرهابية في جنوب شرق آسيا، الجماعة الإسلامية، التي عارضت خطط الحنبلي لربط المجموعة مع القاعدة. غادر نصير هذه المجموعة في وقتٍ لاحق، كما تحدثت معه في العام ٢٠١٠ في إندونيسيا.

عبد الله أحمد عبد الله (من أسمائه الحركية: صالح، [redacted]، وأبو محمد المصري): ترأس خلايا القاعدة في شرق أفريقيا بعد موت أبي عبيدة في ٢١ أيار/مايو من العام ١٩٩٦، وأُدين بسبب دوره في التخطيط لتفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨. دخل اسمه في قائمة أخطر المطلوبين لمكتب التحقيقات الاتحادي.

أبو عبد الرحمن المهاجر (الاسم الحركي لمحسن موسى متولّي عطوة): خبير المتفجرات لدى القاعدة وصانع القنابل الخبير. أُدين في العام ١٩٩٨ إثر تفجير السفارتين في شرق أفريقيا. قال مسؤولون باكستانيون إنه قُتل في العام ٢٠٠٦ نتيجة غارة جوية في شمال وزيرستان، وهي فرضية أكدها المسؤولون الأميركيون بعد إجراء فحص الحمض النووي (DNA).

أبو بكر بشير: شارك مع عبد الله سونغار في تأسيس الجماعة الإسلامية، وهي

مجموعة إرهابية في جنوب شرق آسيا. تسلّم قيادة المجموعة بعد مقتل سونغار في العام ١٩٩٩. دعم بشير علاقة الحنبلي بالقاعدة.

أبو حفص الموريتاني (الاسم الحركي لمحفوظ ولد الوليد): عضو مجلس الشورى، والشخص الوحيد في القاعدة الذي حصل على تدريب ديني، وكان يرأس لجنة الفتاوى بعد إلقاء القبض على أبي هاجر العراقي. تظهر بين الحين والآخر تقارير عن مقتله، لكن تلك التقارير لم تتأكد أبداً. يعتقد بعض المحللين أنه يعيش في إيران.

أبو حفص المصري: (الاسم الحركي لمحمد عاطف): القائد العسكري للقاعدة بعد مقتل أبي عبيدة في العام ١٩٩٦. قُتل في النهاية في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠١ إثر غارة جوية أميركية على مكان اختبائه. عثرنا بين حطام منزله على أدلة مهمّة، وهي التي أصبحت جزءاً من برنامج DocEx.

أبو هاجر العراقي (الاسم الحركي لممدوح محمد سالم): رجلٌ كردي حارب في جيش صدام حسين، وبعد ذلك قاتل إلى جانب بن لادن في أفغانستان، حيث أصبحا صديقَين حميمين. لم يكن العراقي رجل دين، لكنه حفظ القرآن، كما أن بن لادن عيّنه رئيس لجنة الفتاوى في القاعدة. ومن موقعه هذا أصدر فتاوى تبرر الأعمال التي تقوم بها القاعدة، بما في ذلك قتل المدنيين الأبرياء. ألقي القبض عليه في ألمانيا في شهر أيلول/سبتمبر من العام ١٩٩٨، وما لبث أن سُلّم إلى الولايات المتحدة حيث حوكم لمشاركته في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨.

أبو جندل: (حرفياً أبو الموت»، الاسم الحركي لناصر أحمد ناصر البحري): عضو المجموعة الشمالية الذي التحق بصفوف القاعدة في العام ١٩٩٦ بمساعدة من محمد بن عطاش؛ وما لبث أن ارتقى في صفوف المنظمة حتى أصبح الحارس الشخصي لبن لادن. شجّع زعيم القاعدة أبا جندل وسليم حمدان الذي كان سائق

بن لادن والرجل الذي يثق به كثيراً، على الزواج من شقيقتين. ألقت السلطات اليمنية القبض على أبي جندل بعد التفجير الذي طال يو. أس. أس كول في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر، ٢٠٠٠، لكن لم يُسمح لنا باستجوابه إلا بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وبعد أن ربطه ناشط آخر من القاعدة، وهو فهد القصع بأحد الخاطفين في هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وهو مروان الشِّحي. أما أنا فقد قمت باستجوابه مع العميل الخاص في NCIS روبرت ماكفادين. تعرّف أبو جندل إلى عددٍ من الخاطفين في هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كما قدّم لنا معلومات استخبارية قيّمة عن تركيبة القاعدة ونشطائها، وعملياتها. تُعتبر عملية الاستجواب تلك الأكثر نجاحاً في الحرب على القاعدة. يعيش أبو جندل هذه الأيام في اليمن، ويتمتع بكامل حريته.

أبو عبيدة البنشيري (الاسم الحركي لأمين علي الرشيدي): عضو في الجهاد الإسلامي المصرية التابعة للظواهري قبل انضمامه إلى القاعدة، وكان النائب الأول لبن لادن قبل أن يصبح القائد العسكري الأول للمنظمة. غرق البنشيري في حادث عبّارة في العام ١٩٩٦ في بحيرة فكتوريا.

أبو زبيدة (الاسم الكامل: زين العابدين محمد حسين أبو زبيدة. الاسم الحركي داوود): داعم مستقل للإرهاب، عمل كأمير من الخارج لمعسكر خالدان للتدريب، كما كان شريكاً لابن الشيخ الليبي. عرفنا بوجود «أبي زبيدة» لأول مرة أثناء عملية الألفية في الأردن. ألقي القبض على أبي زبيدة خلال تبادل إطلاق النار في آذار/مارس من العام ٢٠٠٢ ونُقل إلى مكان سري، حيث استجوبه [redacted]. تمكنا من الحصول منه على معلومات استخبارية قابلة للتنفيذ، بما في ذلك تعرّفه إلى خالد الشيخ محمد، وبوصفه العقل المدبر لهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. أخبرنا كذلك عن خوسيه باديلا، وعن مؤامرة القنبلة المزعومة التي تترك مخلفات مشعة التي قيل إن بنيام محمد يخطط لها. توقف أبو زبيدة عن الكلام عند تسلّم المتعاقدين مع وكالة الاستخبارات المركزية

مسؤولية استجوابه، وهم الذين استخدموا تقنيات الاستجواب التعسفية. فشلت تقنيات المتعاقدين بالرغم من أنهم حاولوا في المذكرات السرية التي رفعوها أن ينسبوا نجاحات [redacted] السابقة إلى أنفسهم. بقي أبو زبيدة محتجزاً في خليج غوانتانامو، كوبا.

سلمان العدني: أحد نشطاء القاعدة الذي كان مكلفاً بأن يكون أحد المهاجمين الانتحاريين في الهجوم على المدمرة الأميركية يو. أس. أس سوليفانز، وهو الهجوم الذي فشل لأن العدني وزميله الانتحاري طه الأهدل، أساءا تقدير حركة المد، وبعد أن علق قاربهما في الرمال. مات الرجل بعد أن قفز في أحد أنابيب الصرف الصحي في محاولة منه لإنقاذ صبي وقع فيه.

سيف العدل: أحد كبار نشطاء القاعدة وكان عضواً في مجلس الشورى، كما ترأس اللجنة الأمنية التابعة للقاعدة. عُيّن زعيماً مؤقتاً للقاعدة بعد مقتل بن لادن. بقي في ذلك المنصب حتى ١٦ حزيران/يونيو/يونيو من العام ٢٠١١، أي عندما أصبح أيمن الظواهري رسمياً زعيمها الجديد. بقي الرجل ضمن أخطر المطلوبين الإرهابيين لدى مكتب التحقيقات الاتحادي.

طه الأهدل: أحد نشطاء القاعدة الذي حاول ذات مرة مع سلمان العدني تنفيذ هجوم انتحاري على المدمرة الأميركية يو. أس. أس سوليفانز في شهر كانون الثاني/ يناير من العام ٢٠٠٠. قُتل الأهدل أثناء اشتراكه في القتال إلى جانب طالبان في أفغانستان.

آلفين (الاسم غير حقيقي): رئيس عمليات الاستخبارات المركزية في الأردن خلال عملية الألفية. احتل آلفين بعد ذلك منصب رئيس مركز مكافحة إرهاب المتطرفين السنّة في وكالة الاستخبارات المركزية.

حسين عنسي: رئيس مؤسسة الأمن السياسي PSO في عدن أثناء التحقيقات في الهجوم على المدمرة يو. أس. أس كول. بدا أنه يتعاطف مع القاعدة، وحاول

مراراً إحباط تحقيقاتنا. لكن بعد عملية فرار عضوين من القاعدة كانا متورطين في ذلك الهجوم، وهما فهد القصع، وجمال البدوي، في نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٣، ضغطنا على اليمنيين للتحقيق في تواطؤ العنسي في عملية الفرار. ألقي القبض على العنسي في النهاية، وخضع للاستجواب، وطُرد من وظيفته لكنه لم يُحاكَم أبداً.

جون أنتيشيف: عميل مكتب التحقيقات الاتحادي الخاص، وأحد أفراد I-49 (وشقيق مايك أنتيشيف) وهو الذي كان وكيل قضية case agent لعملية وقف الإرهاب Terrorstop، عدا اشتراكه في استجوابات مهمّة أخرى. استجوب جون بنجاح محمد صدّيق عودة ومحمد العوهلي خلال التحقيقات التي جرت بشأن تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا، كما انتزع من العوهلي رقم الهاتف العائد إلى أحمد الحداء ـ والذي كان بمثابة لوحة تحويل هاتفية للقاعدة.

مايك أنتيشيف: عميل مكتب التحقيقات الاتحادي الخاص وعضو فريق I-49 (وشقيق جون أنتيشيف) الذي ساعد في إدارة جمال الفضل («جونيور»).

آندي آرينا: عميل مساعد مسؤول عن مكتب نيويورك والذي عُيّن نائباً لبات دامورو في تحقيقات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. رفض آندي طلباً قدّمته إدارة بوش لربط العراق بالقاعدة.

محمد عطا: قائد خاطفي هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وهو الذي قاد طائرة الرحلة ١١ التابعة لشركة أميركان آيرلاينز، والتي صدمت البرج الشمالي من مركز التجارة العالمي. كان عضواً في خلية هامبورغ، كما مكث هناك مع منسق هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر رمزي بن الشّيبة، والخاطف مروان الشّحي.

عبد الله عزام: رجل دينٍ فلسطيني أثّر في عدد كبير من المسلمين، بمن فيهم بن لادن، وحثّهم على الانضمام إلى المجاهدين، ومحاربة الاتحاد السوفياتي في أفغانستان. أسّس مع بن لادن مكتب الخدمات، وهو المكتب الذي حوّل المال

والمجندين إلى أفغانستان. كان منافساً محتملاً لبن لادن على زعامة القاعدة، لكنه اغتيل في ٢٤ تشرين الثاني/يناير من العام ١٩٨٩. شكّ كثيرون في أن أيمن الظواهري هو الذي أمر بتنفيذ هذا الاغتيال، إلا أن ذلك لم يتأكد بعد.

جمال البدوي: أحد أعضاء القاعدة اليمنيين، الذي تورط في الهجوم على يو. أس. أس كول. كان صديقاً مقرباً من خلاد الذي أدخله في تلك العملية. استجوبتُ البدوي في اليمن مع كين ريور، عميل NCIS، وتمكّنت من الحصول على اعترافه، كما ساعدتُ في محاكمته أمام محكمة يمنية. تلقى البدوي حكماً بالإعدام، ثم «هرب» لكنه تلقى عفواً من الرئيس علي عبد اللّه صالح. بقي البدوي ضمن أخطر الإرهابيين المطلوبين لدى مكتب التحقيقات الاتحادي.

علي البهلول (الاسم الحركي لأنس المكي): عمل بوصفه مساعد بن لادن الشخصي، والمسؤول عن الدعاية عنده، وهو منصب احتله بعد إنتاجه شريط الفيديو احتفالاً بتفجير المدمرة يو. أس. أس كول. ألقي القبض عليه في العام ٢٠٠٢، مع مجموعة مؤلفة من ثلاثين من نشطاء القاعدة، والذين أطلق عليهم لقب «الثلاثين القذرين». تمكنت من الحصول على تعاونه واعترافه في خليج غوانتانامو، كوبا، كما كنت الشاهد الرئيس في محاكمته. حُكم عليه بالسجن مدى الحياة

عمّار البلوشي (الاسم الحركي لعبد العزيز علي): أحد نشطاء القاعدة الذي كان ابن شقيقة العقل المدبر لهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، أي خالد الشيخ محمد، وهو الذي ساعد الخاطفين بالمال والدعم اللوجستي. ألقي القبض عليه مع خلاد في باكستان في ٢٩ نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٣، وذلك بعد أن تعرّف إليه أحد ضباط الشرطة الأذكياء. يُحتجز البلوشي الآن في خليج غوانتانامو، كوبا.

معظّم بيج: متطرف بريطاني من أصلٍ باكستاني وكان يدير محلاً لبيع الكتب [مكتبة «الأنصار» في بيرمنغهام، كما ساعد في جمع أموال لمعسكر خالدان للتدريب.

هرب من إنجلترا إلى أفغانستان عندما حاولت السلطات البريطانية اعتقاله في البداية. نُقل إلى غوانتانامو بعد إلقاء القبض عليه في باكستان في العام ٢٠٠٢. أُطلق سراحه في العام ٢٠٠٥، وهو الآن رجلٌ حر في المملكة المتحدة.

مهند بن عطاش: الأخ الأكبر لخلاد، والبراء، [redacted]، ومعز بن عطاش. كان مساعداً مهمّاً لبن لادن، وأدّى دوراً أساسياً في تجنيد أعضاء في المجموعة الشمالية في العام ١٩٩٦. قُتل مهند في العام ١٩٩٧ عندما كان يحارب إلى جانب طالبان في مراد بيج، وهي المعركة ذاتها التي خسر فيه شقيقه خلاد إحدى ساقيه.

رمزي بن الشيبة: أحد نشطاء القاعدة اليمنيين والذي سكن في هامبورغ في غرفة واحدة مع محمد عطا الذي كان قائد الخاطفين في هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وكذلك مع خاطفٍ آخر هو مروان الشِّحي. كان من المقرر أن يكون أحد خاطفي هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، لكنه فشل في الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة. عمل بدلاً من ذلك كضابط ارتباط ما بين الخاطفين وخالد الشيخ محمد، العقل المدبر للحادي عشر من أيلول/سبتمبر. ألقي القبض عليه في ١١ أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٢، وذلك بعد أن تمكّن أحد زملائي في مكتب التحقيقات من انتزاع معلومات استخبارية من أحمد الدربي، وهي المعلومات التي ساعدتنا في القبض عليه. سُمح لـ [redacted] باستجوابه لمدة خمسٍ وأربعين دقيقة بعد وقتٍ قصير من إلقاء القبض عليه - لكن بالرغم من واقعٍ أنه تعاون مع التحقيق، [redacted]. بقي بن الشيبة محتجزاً في خليج غوانتانامو في كوبا.

أسامة بن لادن: مواطن سعودي من أصولٍ يمنية. أسّس تنظيم القاعدة في العام ١٩٨٨ بعد أن عمل في جمع التبرعات أثناء الجهاد الأفغاني الأول. عمل في تلك الفترة إلى جانب عبد الله عزام في تشغيل مكتب الخدمات، وهو المكتب

الذي كان يقوم بتحويل الأموال والخدمات إلى أفغانستان. عاد بن لادن إلى وطنه الأم، المملكة العربية السعودية، بعد أن أسّس القاعدة، وذلك في العام ١٩٩٠ وقبل أن ينقل منظمته إلى السودان (١٩٩١) ويعود مجدداً إلى أفغانستان (١٩٩٦). أعلن ولاءه في أفغانستان للملاّ عمر، زعيم طالبان. خطط بن لادن من أفغانستان هجماتٍ عديدة كان من بينها تفجير المدمرة الأميركية يو. أس. أس كول، والحادي عشر من أيلول/سبتمبر. قُتل في ٢ أيار/مايو، ٢٠١١، على يد فرقة SEALs التابعة للبحرية الأميركية، وذلك خلال غارة على مجمّعه السكني الذي عاش فيه في أبوت أباد، باكستان.

باربرا كاي. بودين: السفيرة الأميركية في اليمن من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٧، وحتى ٣٠ آب/أغسطس من العام ٢٠٠٢. شعر كثيرون في مكتب التحقيقات الاتحادي، والجيش الأميركي من الذين كانوا يحققون في تفجير المدمرة يو. أس. أس كول، بأنها تعيق التحقيقات.

ستيف بونغاردت: عميل مكتب التحقيقات الخاص، وأحد أعضاء فريق I-49، والذي كان شريكي في الإشراف على التحقيق في تفجير المدمرة يو. أس. أس كول. حاول ستيف تحدي رفض وكالة الاستخبارات المركزية إشراك مكتب التحقيقات الاتحادي في المعلومات في فترة ما قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر – وهي المعلومات التي لربما كانت أحبطت الهجمات – لكن كان يُطلب منه دائماً «عدم التدخل».

مايك بوتش: عميل مكتب التحقيقات الاتحادي الخاص المعيّن في التحقيق في هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، والذي أوكلت إليه مهمة تتبع رمزي بن الشيبة. [redacted]

جاك كلونان: عميل مكتب التحقيقات الاتحادي الخاص، وأحد أفراد فريق I-49 الذين عملت إلى جانبهم في قضايا عدة، بما في ذلك تجنيد الحسين خرشتو.

دانيال كولمان: عميل رفيع المستوى في مكتب التحقيقات وعضو في فريق I-49. كان هو الذي فتح قضية مكتب التحقيقات الاتحادي ضد بن لادن في العام ١٩٩٦، كما كان خبير مكتب التحقيقات في شؤون زعيم القاعدة. أدّى كولمان دوراً رئيساً في عدة تحقيقات رفيعة المستوى.

دينا كورسي: محللة لدى مكتب التحقيقات الاتحادي، وعملت مع وكالة الاستخبارات المركزية. التقت كورسي برفقة مسؤول في وكالة الاستخبارات المركزية في يوم ١١ حزيران/يونيو، ٢٠٠١، ستيف بونغاردت وأعضاء آخرين من فريق مكتب التحقيقات الذي يعمل على التحقيق في قضية المدمرة يو. أس. أس كول، وعرضت عليهم ثلاث صور. قالت لهم إن أحد الرجال في هذه الصور هو خالد المحضار. كان مسؤول وكالة الاستخبارات المركزية يعلم أشياء أكثر، لكنه لم يقل شيئاً. علمنا بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أن تلك الصور أُخذت في اجتماع قمة ماليزيا الذي عقدته القاعدة للتخطيط لهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. أما لو قال لنا مسؤول الاستخبارات المركزية ما يعلمه لكان من المحتمل أننا كنا سنتمكن من إحباط تلك الهجمات.

جورج كروتش: عميل مكتب التحقيقات الاتحادي الخاص، وهو عضو في فريق I-49، وكان عضواً في فريق التحقيق في قضية الهجوم على المدمرة كول. أجرينا معاً عدة جلسات استجواب في غوانتانامو بعد تحقيقات كول، بما في ذلك استجواب سليم حمدان، سائق بن لادن، والمؤتمن على أسراره، وذلك في العام ٢٠٠٢.

بات دامورو: كان نائب عميل خاص مسؤول عن مكافحة الإرهاب، وكان رئيسي أثناء بعض أهم القضايا التي عملت فيها ـ عملية الألفية في الأردن، وعملية

التحدي في المملكة المتحدة، وتفجير المدمرة يو. أس. أس كول، والتحقيقات المتعلقة بالحادي عشر من أيلول/سبتمبر ـ وكذلك خلال عمليات استجواب مهمّة في غوانتانامو وفي أمكنة أخرى. دعم دامورو بالكامل جهودي الهادفة إلى الاعتراض على إدخال تقنيات الاستجواب التعسفية.

أحمد الدربي (الاسم الحركي عبد العزيز الجنوبي): ناشط في القاعدة وكان صهر أحمد الحداء وصديقاً مقرباً وقريب أحد خاطفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر خالد المحضار. كان هو والمحضار في الصف القتالي ذاته في أفغانستان. تم اختيار المحضار للاشتراك في عملية الحادي عشر من أيلول/سبتمبر من ذلك الصف بالذات. ترقى الدربي في صفوف القاعدة ليصبح نائب عبد الرحيم النشيري. ألقيَ القبض عليه أخيراً في العام ٢٠٠٢ بينما كان يزور خليلته في أذربيجان. ساعدت المعلومات التي انتزعها منه أحد زملائي في مكتب التحقيقات في إلقاء القبض على رمزي بن الشيبة، و [redacted]، و [redacted]، ونشطاء آخرين في القاعدة في يوم ١١ أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٢. يقبع الدربي الآن في معتقل خليج غوانتانامو، كوبا.

توم دونلون: أحد كبار مسؤولي مكتب التحقيقات والمشرف على قضية case agent تفجير مركز التجارة العالمي في العام ١٩٩٣. كان مشرفاً على فرقة I-40 التي ركّزت على المتطرفين السنة عند التحاقي بمكتب التحقيقات الاتحادي، كما شجعني على كتابة مذكرات حول بن لادن والقاعدة وتوزيعها. لفتت إحدى هذه المذكرات نظر جون أونيل. كان دونلون في دورة مناوبة لمدة ثلاثين يوماً في اليمن، ويعمل بصفته مشرفاً على التحقيق في قضية يو. أس. أس كول، عندما تلقينا الأخبار عن هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

كيفن دونوفان: مسؤول رفيع في مكتب التحقيقات، وهو الذي كان في دورة مناوبة لمدة ثلاثين يوماً في اليمن للمشاركة في تحقيقات يو. أس. أس كول. رُقيّ في

وقتٍ لاحق ليكون مساعد مدير بالوكالة عن مكتب التحقيقات الاتحادي في نيويورك.

ديبي دوران: عميلة خاصة في مكتب التحقيقات الاتحادي، وهي سليلة عائلة عملت في مكتب التحقيقات. أدّت ديبي دوراً مهمّاً في عملياتٍ عدة. شملت هذه العمليات التحقيق في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا، وتجنيد الحسين خرشتو، وبرنامج DocEx.

اللواء مايكل إي. دونلافي: قائد الفريق المشترك ١٧٠ في غوانتانامو، والمسؤول عن الاستجوابات العسكرية منذ افتتاح تلك القاعدة وحتى ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر من العام ٢٠٠٢، أي عندما استُبدل في القيادة باللواء جيوفري ميلر. وجّه عدد من أفراد مكتب التحقيقات والجيش انتقادات كثيرة لقيادته وموقفه تجاه المعتقلين، وذلك بالرغم من أن بعض تعاملاتنا معه كانت إيجابية إجمالاً.

إد (ليس اسمه الحقيقي): واحد من المستجوِبين في وكالة الاستخبارات المركزية والذي التقيت به لأول مرة في اليمن أثناء التحقيقات في تفجير يو. أس. أس كول. عملنا معاً أثناء [redacted]، وتشاركنا في غوانتانامو مراتٍ قليلة. لم يكن مرتاحاً لتقنيات الاستجواب التعسفية التي كان المتعاقدون مع وكالة الاستخبارات المركزية يستخدمونها مع أبي زبيدة، وطالب بالحصول على أوامر خطية من رؤسائه تأمره بالعمل مع المتعاقدين.

جو إينيس: عميل خاص لدى مكتب التحقيقات حمل لقب «آلاباما جو» بسبب فخره بأصوله. انضم إلينا في اليمن أثناء التحقيقات في تفجير المدمرة يو. أس. أس. كول. أما مذكرة الشاهد الحسّي في قضية جون باديلا فقد جاءت استناداً إلى إقرارٍ أمامه مع القسم.

جمال الفضل: (الاسم الحركي أبو بكر سوداني): حمل لقب «جونيور» داخل دوائر الحكومة الأميركية، وكان من أوائل الذين التحقوا بالقاعدة، وعمل مساعداً

شخصيّاً لبن لادن قبل استسلامه للولايات المتحدة في العام ١٩٩٦، وذلك للإمساك به بسرقة مبلغ ١١٠,٠٠٠$ من القاعدة. كانت المعلومات التي أعطانا إياها ضرورية لفهمنا كيفية عمل القاعدة وتطورها حتى العام ١٩٩٦، وأصبح كذلك شاهداً رئيساً في المحاكمات التالية ضد أعضاء القاعدة. كان الفضل مشمولاً ببرنامج حماية الشهود الأميركي.

خالد الفواز: أحد كبار مساعدي بن لادن الذي كان يثق به كثيراً، والذي كان في البداية على رأس خلية القاعدة في نيروبي، لكن ما إن أصبحت الخلية عاملة حتى توجه إلى لندن لإدارة عمليات القاعدة هناك، وركّز على الأمور اللوجستية والعلاقات العامة. ساعدتُ في العام ١٩٩٩ على إقامة قضية ضد فواز، وأعضاء آخرين من القاعدة ـ الجهاد الإسلامي المصرية الذين كانوا يشكلون خلية في لندن. ربحنا تلك القضية، لكن فواز ما زال ينتظر تسليمه إلى الولايات المتحدة.

هارون فاضل (الاسم الحركي لفضل عبد اللّه محمد؛ وأكثر ما يُعرف باسم هارون؛ أما الاسم الحركي الآخر فهو يعقوب الدوسري): ناشط في القاعدة عمل بصفته مساعداً لوديع الحاج في نيروبي، وساعد في التحقيق في قضية غرق أبي زبيدة. ساعد كذلك في التخطيط لتفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا وتنفيذها في العام ١٩٩٨، كما كان يكتب تقارير يرفعها إلى قادة القاعدة. أدار عمليات القاعدة في القرن الأفريقي حتى وفاته في ١٠ حزيران/يونيو، ٢٠١١.

كارلوس فيرنانديز: عميل خاص لدى مكتب التحقيقات الاتحادي. عملتُ إلى جانبه في عملياتٍ عدة.

باتريك فيتزجيرالد: عمل بشكلٍ وثيق مع مكتب التحقيقات عندما كان مساعد المدعي العام الأميركي في المقاطعة الجنوبية لنيويورك. أدّى دوراً مركزياً في كسب تعاون عدة أعضاء من القاعدة بمن فيهم محمد العوهلي والحسين خرشتو، كما عملت معه عن قرب في عملياتٍ في لندن، وإيطاليا، واليمن. مثل الادعاء

في محاكمات عدد من الإرهابيين ومن ضمنهم عمر عبد الرحمن، وأعضاء القاعدة المتورطين في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨.

فرِد (ليس اسمه الحقيقي): مسؤول في وكالة الاستخبارات المركزية الذي أرسل برقياتٍ مغلوطة خلال عملية الألفية في الاردن، وهي البرقيات التي سُحبت في النهاية، وهو الذي حاول إحباط عملية استجواب جورج كروتش الناجحة لابن الشيخ الليبي. نوقشت بعض أخطائه الأخرى في تقرير المفتش العام لدى وكالة الاستخبارات المركزية المتعلق ببرنامج الاستجواب التعسفي في وكالة الاستخبارات المركزية.

لويس فرييه: مدير مكتب التحقيقات الاتحادي من أيلول/سبتمبر ١٩٩٣، وحتى حزيران/يونيو من العام ٢٠٠١. أدرك فرييه المشاكل التي عانينا منها خلال التحقيقات في تفجير كول، ولذلك سافر إلى اليمن للتحدث مع الرئيس علي عبد اللّه صالح، وهو الأمر الذي ساعدنا كثيراً.

ستيفن غودين: العميل الخاص لدى مكتب التحقيقات الاتحادي، والذي كان شريكي في [redacted] . [redacted] . ساعد أثناء التحقيقات في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨، في انتزاع اعتراف من محمد العوهلي، كما عمل في أعقاب الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بصفته ممثلاً لمكتب التحقيقات الاتحادي في اليمن.

أحمد الحداء: أحد أعضاء القاعدة اليمنيين، والذي كان ابنه [جعفر]، وصهراه أحمد الدربي وخالد المحضار (أحد خاطفي هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر) ينتمون جميعاً إلى القاعدة. اكتشفنا أثناء التحقيقات في تفجير السفارتين في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨ أن رقم هاتفه في اليمن كان لوحة تحويل هاتفية

فعلية للقاعدة. لم يسمح لنا اليمنيون باستجوابه إلا بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. أجريت أنا وبوب ماكفادين وأندريه خوري عملية الاستجواب.

وديع الحاج: عضو لبناني في القاعدة. هاجر إلى الولايات المتحدة وأصبح مواطناً فيها، وتأثر بعبد اللَّه عزام فانضم إلى المجاهدين. عمل مع بن لادن بوصفه مساعده بعد انتهاء الجهاد ضد السوفيات، كما حلّ في نيروبي مكان خالد الفواز (الذي أرسله بن لادن إلى لندن). ألقيَ القبض على الحاج في وقتٍ لاحق، وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة في أحد سجون الولايات المتحدة نظراً لدوره في تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨.

الحنبلي: الاسم الشائع لرضوان عصام الدين، وهو قائد مجموعة الجماعة الإسلامية، وهي المنظمة الإرهابية العاملة في جنوب شرق آسيا، وتشمل مسؤوليتها سنغافورة وماليزيا. تتلمذ الحنبلي على يد عبد اللَّه سونغار، وهو الذي أرسله في العام ١٩٩٦ للتدرب في أفغانستان، وهناك أنشأ علاقة مع خالد الشيخ محمد. قدّم الولاء [البيعة] لبن لادن عن طريق خالد الشيخ محمد، كما قام بدورٍ مهمّ في تعزيز العلاقات بين القاعدة والجماعة الإسلامية. ألقى الفرع الخاص [الاستخبارات] في تايلاندا القبض عليه في ١١ آب/أغسطس من العام ٢٠٠٣. يقبع الحنبلي الآن قيد الاعتقال في خليج غوانتانامو، كوبا.

سليم حمدان (الاسم الحركي صقر الجدوي): أحد أعضاء القاعدة الذين انضموا إليها كجزء من المجموعة الشمالية في العام ١٩٩٦، وهو زوج شقيقة زوجة أبي جندل، وعمل بصفته سائق بن لادن الذي يثق به كثيراً. استجوبتُه مع جورج كروتش في خليج غوانتانامو، كوبا، وانتزعت اعترافاته وتعاونه. صنّفت الإدارة الأميركية حمدان، ومن دون علمنا، أو علم المدعي العام الأميركي دافيد كيلي، على أنه مقاتل عدو ومنعته من التعاون معنا. كنتُ الشاهد الرئيس في محاكمته النهائية. أدين حمدان، لكن بسبب سوء إدارة بوش للقضية (تصنيفه على أنه

مقاتل عدو)، حُكم عليه بالسجن خمس سنوات ونصف السنة فقط. أطلق سراحه بعد أن أمضى أشهراً قليلة في السجن بالنظر إلى فترة اعتقاله. يعيش سليم حمدان الآن في اليمن حراً طليقاً.

مصطفى الهوساوي: الناشط المالي في القاعدة، والذي عمل مع ابن أخت خالد الشيخ محمد، عمار البلوشي، على المساعدة في تنسيق أسفار خاطفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ومدّهم بالمال. يقبع مصطفى معتقلاً الآن في خليج غوانتانامو، كوبا.

جون هيلجرسون: المفتش العام في وكالة الاستخبارات المركزية، وهو الذي حقق في برنامج الاستجوابات التعسفية الذي اعتمدته الوكالة، وذلك بعد تلقي شكاوى من مختصين في وكالة الاستخبارات المركزية الذين لم يرتاحوا إلى ما جرى، وانتقد تقريرهم البرنامج بشدة.

إدموند هل: السفير الأميركي في اليمن الذي حلّ مكان باربرا بودين، وبقي في منصبه من العام ٢٠٠١ وحتى ٢٠٠٤.

ابن الشيخ الليبي: إرهابي مستقل عمل بشكلٍ وثيقٍ مع القاعدة، وكان الأمير الداخلي لمعسكر تدريب خالدان، أي أنه كان شريكاً لأبي زبيدة. خضع للاستجواب بعد إلقاء القبض عليه على يد جورج كروتش، وزميل آخر له من مكتب التحقيقات الاتحادي، فقدّم معلومات استخبارية قابلة للتطبيق. أُبعد عن متناول يد مكتب التحقيقات، ثمّ سلّمته وكالة الاستخبارات المركزية إلى بلدٍ آخر حيث تعرّض للتعذيب، وأُجبر على الاعتراف بروابط مزعومة ما بين القاعدة وصدّام. استخدمت إدارة بوش «اعترافه» هذا لتبرير حربها مع العراق. نُقل في وقتٍ لاحقٍ إلى ليبيا حيث وضع في السجن ومات في ظروفٍ مشبوهة.

عبد الهادي العراقي: أحد القادة العسكريين في القاعدة. كان عضواً في مجلس الشورى، وعيّن بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر قائداً لكل العرب في

أفغانستان. قيل إنه اعتُقل في نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٧، لكن التاريخ الصحيح لاعتقاله يبقى غامضاً. يقبع العراقي الآن في سجن غوانتانامو، كوبا.

كينيث كاراس: عملنا معاً عندما كان مساعداً للمدعي العام الأميركي من المقاطعة الجنوبية لنيويورك، وحصل في المملكة المتحدة على إدانة أعضاء خلية القاعدة – الجهاد الإسلامي المصرية في لندن. يعمل الآن كقاضٍ اتحادي.

[redacted]

دافيد كيلي: عملنا معاً بشكلٍ وثيق في عمليات عدة بينما كان مساعداً للمدعي العام الأميركي من المقاطعة الجنوبية لنيويورك، وكان من بينها التحقيقات في الهجوم على المدمرة يو. أس. أس. كول، وكذلك أثناء تكوينه للقضية ضد سليم حمدان. شغل في ما بعد منصب المدعي العام الأميركي لمقاطعة نيويورك الجنوبية، لكنه ما زال يشرف شخصياً على قضية يو. أس. أس كول.

خلاد (الاسم الحركي لوليد بن عطاش؛ ومن بين الأسماء الحركية الأخرى: «سيلفر»، صالح سعيد محمد، سعيد بن صالح بن يوسف، توفيق محمد صالح بن راشد، وصالح بن سعيد بن يوسف): أحد كبار نشطاء القاعدة وينتمي إلى عائلة من أعضاء القاعدة بمن فيهم شقيقه الأكبر مهند، وأشقاؤه الأصغر منه البراء، [redacted]، ومعز. التحق بالقاعدة مع المجموعة الشمالية، وخسر إحدى ساقيه في العام ١٩٩٧، وذلك في معركة مراد بيج وهي المعركة التي قُتل فيها شقيقه مهند. ترقى في صفوف المنظمة حتى أصبح مساعداً كبيراً لبن

لادن. ساعد كذلك في التخطيط لهجمات رئيسة بما فيها تفجير يو. أس. أس كول والحادي عشر من أيلول/سبتمبر. منعنا رفض وكالة الاستخبارات الأميركية إعطاءنا المعلومات المطلوبة أثناء تحقيقات كول من متابعة محاكمته، وربما من منع وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. ترأس عمليات القاعدة في الخَليج العربي بعد إلقاء القبض في تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٢ على النشيري. ألقت الشرطة الباكستانية القبض عليه، لكن بالصدفة، في ٢٩ نيسان/أبريل، ٢٠٠٣، وذلك إلى جانب عمار البلوشي. [redacted]، لكن لم يُسمح لمكتب التحقيقات الاتحادي باستجوابه. يقبع خلاد الآن سجيناً في خليج غوانتانامو، كوبا.

حسن الخامري (الاسم الحركي يوسف الطائفي): عضو يمني في القاعدة، والذي كان أمير معسكر الفاروق للتدريب في أفغانستان إلى أن ضربته الصواريخ الأميركية رداً على تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا. كانت تلك التجربة، وبالإضافة إلى اعتقاله في اليمن خلال حادثة سرقة سيارات بيت هبرة، هي التي دفعته إلى أن يطلب من بن لادن تنفيذ عملية استشهادية. كان مهاجماً انتحارياً إلى جانب ابراهيم النبراس في تفجير يو. أس. أس كول، وذلك في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٠.

الحسين خرشتو (الاسم الحركي مزنغو): من أوائل أعضاء القاعدة، وعمل طياراً شخصياً لبن لادن وقام بمهمات لصالح المنظمة. تمكنت أنا وبات فتزجرالد، وجاك كلونان، وديبي دوران، من إقناعه في المغرب كي يكون شاهداً لصالح الحكومة الأميركية، وهكذا سافر معنا إلى الولايات المتحدة. حمل الحسين لقب «جو المغربي» وساعدنا على فهم القاعدة ـ أي أنه زودنا بالمعلومات حيث توقفت مع مغادرة جمال الفضل للقاعدة (توقفت معلوماته في العام ١٩٩٦ عند انشقاقه عن القاعدة) ـ وأصبح شاهد ادعاء رئيس في محاكمات أعضاء القاعدة. يستفيد الحسين الآن من برنامج حماية الشهود.

أندريه خوري: العميل الخاص لدى مكتب التحقيقات الاتحادي، والذي عملت

إلى جانبه في اليمن خلال التحقيقات في الهجوم على يو. أس. أس كول، وفي مهمات بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. قمنا معاً باستجواب أعضاء كثيرين من القاعدة بمن فيهم أحمد الحداء.

أنس الليبي (الاسم الحركي لنزيه عبد الحامد الرقيعي): ناشط كبير في القاعدة، وأحد الخبراء في الكمبيوتر. شملت أنشطته التخطيط لعمليات إرهابية بما في ذلك مراقبة السفارة الأميركية في نيروبي تحضيراً لتفجيرها في العام ١٩٩٨. تمكنا من تتبعه حتى مانشستر، إنجلترا، لكن أطلق سراحه بسبب عدم امتلاك أدلة فورية، وبسبب القوانين البريطانية بشأن احتجاز المشتبه بهم، ثم هرب بعد ذلك. عثر بين أغراضه في وقت لاحق على ما عُرف بعدئذٍ بدليل مانشستر ـ وهو دليل لمنظمة القاعدة مليء بالدروس التي يتعلمها النشطاء الإرهابيون. تُرجم هذا الدليل في وقتٍ لاحق إلى الإنجليزية، لكن المتعاقدين مع وكالة الاستخبارات المركزية أساءوا فهمه فاستُخدم من أجل تبرير استخدامهم لتقنيات الاستجواب التعسفية. جاءت هذه التقنيات في الواقع لمصلحة أساليب القاعدة كما هي ملخصة في الدليل.

معاوية المدني: ناشط في القاعدة سبق له أن عمل حارساً شخصياً لبن لادن، والذي أراد زعيم القاعدة أن يستخدمه كمهاجم انتحاري في الهجوم على يو. أس. أس كول (لم يُستخدم في نهاية المطاف). عثرتُ على شريط الفيديو الخاص باستشهاده في سياق برنامج DocEx. مات معاوية في ١٢ أيار/مايو من العام ٢٠٠٣، وذلك خلال هجومٍ للقاعدة على المجمعات السكنية في الرياض.

الرائد محمود (ليس اسمه الحقيقي): محقق يمني عملنا معه عن قرب في أثناء التحقيقات بالهجوم على يو. أس. أس كول وفي تحقيقات أخرى بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

أبو الخير المصري: عضو مجلس شورى الجهاد الإسلامي المصرية ومرافق مقرب من

أيمن الظواهري. انضم إلى مجلس شورى القاعدة بعد الدمج الرسمي للمنظمتين في شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠١.

الشيخ سعيد المصري: عضو مجلس شورى القاعدة والذي يأتي بعد مدني الطيب في اللجنة المالية، وهو الذي تولى مهامه بعد مغادرة الطيب للمجموعة. رفض إعطاء الحسين خرشتو مبلغ ٥٠٠$ التي احتاجها لدفع نفقات العملية القيصرية التي احتاجتها زوجته. قُتل في غارة شنتها طائرة أميركية من دون طيار في باكستان في أيار/مايو من العام ٢٠١٠.

أحمد شاه مسعود: قائد تحالف الشمال الذي أدّى دوراً رئيساً في إلحاق الهزيمة بالسوفيات، والذي كان يُعتبر الأمل الوحيد للقضاء على طالبان. اغتالته القاعدة في ٩ أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠١ - وذلك كهدية إلى طالبان، وفي سياق تعزيز العلاقات بين الجماعتين.

باري ماون: مساعد مدير بالوكالة لمكتب التحقيقات الاتحادي في نيويورك أثناء التحقيقات في قضية الهجوم على كول.

روبرت (بوب) ماكفادين: عميل خاص لدى هيئة التحقيقات الجنائية البحرية، والذي عمل شريكاً لي أثناء التحقيق في تفجير يو. أس. أس كول، وفي عدة تحقيقات لاحقة. كانت عملية استجواب أبي جندل من بين أنجح عمليات الاستجوابات التي تشاركنا فيها.

خالد المحضار (الاسم الحركي سنان المكي): أحد خاطفي هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وكان على متن الرحلة ٧٧ لشركة أميركان آيرلاينز، وهي الطائرة التي صدمت البنتاغون. كان صهر (زوج ابنة) أحمد الحداء وشقيق زوجة أحمد الدربي. عرّفته لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، والمفتش العام في وكالة الاستخبارات المركزية على أنه الحلقة الأضعف في خطة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. استنتج كلا الطرفين أنه لو قدمت وكالة الاستخبارات المركزية

المعلومات المتعلقة به مع مكتب التحقيقات الاتحادي، أي كما كان المطلوب بالطريقة القانونية، وبحسب ما طلبه مكتب التحقيقات الاتحادي، لربما كان بالإمكان تجنّب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

اللواء جيوفري ميلر: حلّ مكان اللواء مايكل إي. دونلافي في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر، ٢٠٠٢، وتسلّم مسؤولية إدارة غوانتانامو. رفض اللواء ميلر الإصغاء إلى المستجوِبين المحترفين في القاعدة [غوانتانامو] وسمح بدلاً من ذلك باستخدام تقنيات الاستجواب التعسفية. سافر في ٣١ آب/أغسطس، ٢٠٠٣ لتقديم الاستشارة إلى أولئك الذين يديرون سجن أبي غريب.

علي محمد: عميل مزدوج للقاعدة ولحركة الجهاد الإسلامي المصرية، خدم في الجيش الأميركي في سنوات الثمانينيات من القرن الماضي بينما كان في الوقت ذاته يدرّب الناشطين الإرهابيين ويساعد في التخطيط للهجمات. خدم محمد في الجيش المصري لمدة سبعة عشر عاماً قبل انضمامه إلى منظمة الجهاد الإسلامي المصرية. كان كذلك جزءاً من الخلية التي راقبت السفارة الأميركية في نيروبي تحضيراً لتفجيرها في ٧ آب/أغسطس، ١٩٩٨. ألقت الولايات المتحدة القبض عليه في شهر أيلول/سبتمبر بتهمة ارتباطه بعملية التفجير، واعترف بأنه مذنب في شهر أيار/مايو من العام ١٩٩٩. ينتظر علي محمد محاكمته.

بنيام محمد (الاسم الحركي طلحة): ناشط في القاعدة، خطط مع خوسيه باديلا لمهاجمة الولايات المتحدة بالقنبلة التي تترك مخلفات مشعة. كان يتنقل مستخدماً جواز سفرٍ مزيّفاً، وأُلقي القبض عليه في باكستان، وسُلّم إلى وكالة الاستخبارات المركزية ثم نُقل إلى غوانتانامو. لم يُخضع قط للمحاكمة، وهو يعيش الآن حراً في المملكة المتحدة.

خالد الشيخ محمد (لقبه: KSM؛ اسمه الحركي: مختار): العقل المخطط للحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وهو خال رمزي يوسف، مفجّر مركز التجارة العالمي

في العام ١٩٩٣، كما شاركه في التخطيط لعملية مانيلا آير (بوجينكا) التي أُحبطت. كان إرهابياً مستقلاً في البداية، لكنه انضم إلى القاعدة كي يستفيد من تنظيمها، ونشطائها، وتمويلها في التخطيط لهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. لم تعلم الولايات المتحدة أن خالد الشيخ محمد هو الذي يقف وراء هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وعضو في القاعدة، إلا بعد استجواب أبي زبيدة، وهو الاستجواب الذي أجراه [redacted] ألقيَ القبض عليه في باكستان في العام ٢٠٠٣، وأُخضع لبرنامج الاستجواب التعسّفي، لكن لم يتمكن مكتب التحقيقات الاتحادي من استجوابه، وهو موقوف الآن في خليج غوانتانامو، كوبا.

زكريا موسوي: ناشط في القاعدة، وهو الذي دخل إلى الولايات المتحدة في ٢٣ شباط/فبراير، ٢٠٠١، والتحق بمدارس تعليم قيادة الطائرات في أوكلاهوما ومينيسوتا. ألقي القبض عليه في ١٦ آب/أغسطس، ٢٠٠١، ووجّهت إليه تهمة خرق قوانين الهجرة بعد أن شكّ بأمره أحد مدربي الطيران وأبلغ عنه. أُدين بسبب دوره في هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة.

روبرت مويلر: تسلّم إدارة مكتب التحقيقات الاتحادي في ٤ أيلول/سبتمبر، ٢٠٠١، وهو الذي دعم قرار عملاء مكتب التحقيقات بعدم التورط في برنامج الاستجواب الإكراهي الذي اعتمدته وكالة الاستخبارات المركزية بالرغم من الضغط القوي الذي مارسته إدارة بوش.

حمود ناجي: رئيس الفريق الأمني للرئيس اليمني علي عبد الله صالح أثناء فترة التحقيقات التي أجريناها في تفجير المدمرة يو. أس. أس كول.

عبد الرحيم النشيري (الاسم الكامل: عبد الرحيم حسين محمد عبده النشيري؛ الأسماء الحركية: عبده حسين محمد، عبده، سعيد المنصوري، والملا بلال):

عضو رفيع في قسم العمليات الخاصة في القاعدة، وهو الذي كان المخطط الرئيس لتفجير يو. أس. أس كول في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر، ٢٠٠٠. ترقى في صفوف المنظمة بعد انضمامه إليها كجزءٍ من المجموعة الشمالية في العام ١٩٩٦ حتى أصبح رئيس العمليات في الخليج العربي. ألقي القبض عليه في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ٢٠٠٢، وخضع لبرنامج الاستجواب الإكراهي الذي تبنته وكالة الاستخبارات المركزية، لكن مكتب التحقيقات الاتحادي لم يتمكن من التحقيق معه في ذلك الوقت. يقبع النشيري الآن في معتقل خليج غوانتانامو، كوبا.

ابراهيم النبراس (الاسم الحركي لابراهيم الثور): ناشط يمني في القاعدة، وهو الذي نقل بمساعدة فهد القصع مبلغ ٣٦,٠٠٠$ من اليمن إلى خلاد في بانكوك – وهو المبلغ الذي يُعتقد أن خاطفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر خالد المحضار ونواف الحازمي قد استخدماه لشراء تذاكر السفر إلى الولايات المتحدة، وللإنفاق على مصاريفهما هناك. تحول النبراس بعد تسليمه المال إلى خلاد إلى مهاجم انتحاري إلى جانب حسن الخامري في تفجير يو. أس. أس كول.

الملا عمر: مؤسّس وزعيم طالبان الذي يتميز بانعزاله، والذي يطلق عليه أتباعه لقب أمير المؤمنين، أي أمير البلاد. أعطاه بن لادن البيعة، وهو منح القاعدة بدوره الملاذ والحماية.

جون أونيل: مسؤول مكتب التحقيقات الاتحادي المخضرم، والذي أصبح في ١ كانون الثاني/يناير من العام ١٩٩٧ العميل الخاص المسؤول عن قسم الأمن القومي في مكتب نيويورك التابع لمكتب التحقيقات. اختارني جون لأكون المسؤول عن عدة استجوابات هامة، وأصبح صديقي ومرشدي. ترك عمله في مكتب التحقيقات في ٢٢ آب/أغسطس، ٢٠٠١ للعمل في مركز التجارة العالمي حيث مات بسبب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

محمد راشد داود العوهلي (الأسماء الحركية: معاذ البلوشي وخالد سليم بن رشيد):

أحد ناشطي القاعدة الذين انضموا إلى هذه المنظمة في العام ١٩٩٦ كجزء من المجموعة الشمالية، وكان انضمامه بمساعدة مهند بن عطاش. تقرر أن يكون مهاجماً انتحارياً في تفجير السفارة الأميركية في نيروبي، لكنه لم يفجّر نفسه. خضع للاستجواب في وقتٍ لاحق على يد جون أنتيشيف وستيفن غودين بشكلٍ منفصل. اعترف بدوره وأُدين في وقتٍ لاحق، وهو الآن يقضي عقوبة بالسجن لمدى الحياة.

خوسيه باديلا (الاسم الحركي عبد الله المهاجر): عضو أميركي في القاعدة والذي أراد بالاشتراك مع بنيام محمد مهاجمة الولايات المتحدة بقنبلة تترك وراءها مخلفاتٍ مشعة. علم [redacted] بنواياه خلال [redacted] التحقيق مع أبي زبيدة، وما لبث فريقنا أن تتبعه في أنحاء العالم قبل إلقاء القبض عليه فور هبوطه في مطار أوهاير الدولي في شيكاغو. تعمدت إدارة بوش المبالغة في قدرات باديلا علناً. أُدين باديلا، وحُكم عليه بالسجن لسبعة عشر عاماً وأربعة أشهر.

فرانك بيليغرينو: عميل خاص لمكتب التحقيقات الاتحادي من ضمن فريق I-49، وهو الذي كان وكيل قضية case agent خالد الشيخ محمد، لكن وكالة الاستخبارات المركزية لم تسمح له باستجوابه.

محمد القحطاني: عضو القاعدة الذي حاول دخول الولايات المتحدة في ٤ آب/أغسطس من العام ٢٠٠١، لكن السلطات الأميركية المسؤولة عن الهجرة والتجنيس منعته من الدخول. ألقي القبض عليه في أفغانستان بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ونُقل إلى غوانتانامو حيث تم التعرف إليه بواسطة بصماته. أُبعد عن متناول يد مكتب التحقيقات، وأُخضع لتقنيات الاستجواب الإكراهية، لكنها لم تُفلح في انتزاع أي معلومة جديدة منه. يُحتجز القحطاني الآن في معتقل خليج غوانتانامو.

غالب القمش: رئيس مؤسسة الأمن السياسي في اليمن الذي عملنا معه خلال

تحقيقات يو. أس. أس كول وفي تحقيقات هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر وما بعدها.

ابراهيم القوصي (الاسم الكامل: ابراهيم أحمد محمود القوصي؛ الاسم الحركي أبو خُبيب السوداني): ناشط في القاعدة، رافق بن لادن منذ البداية، ثم عمل محاسباً للمنظمة. تزوج ابنة عبد اللّٰه تبارك. تمكنت من التعرّف إليه في غوانتانامو وكسبت تعاونه مع التحقيق، وانتزعتُ اعترافاته. أقرّ ابراهيم بأنه مذنب قبل محاكمته.

فهد القصع (الاسم الحركي أبو حذيفة العدني): عضو القاعدة في اليمن، تسلم مهمة تصوير عملية تفجير المدمرة كول. اعترف بدوره أمامنا أنا وروبرت ماكفادين. أخبرنا كذلك بكيفية تسليمه مع إبراهيم النبراس مبلغ ٣٦,٠٠٠$ إلى خلاد في ماليزيا. مرّرنا هذه المعلومات إلى وكالة الاستخبارات المركزية. سألنا الوكالة ما إذا كانت تعرف شيئاً عن تحركات خلاد في المنطقة، فأجابتنا بأنها لا تعرف شيئاً. اكتشفنا بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تعرف بأمر تحركات خلاد، وأنه التقى القصع ونبراس بعد الانتهاء من اجتماع قمة التخطيط لهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر الذي عقدته القاعدة في ماليزيا. يُحتمل أن خالد المحضار ونواف الحازمي، وهما خاطفان اشتركا في هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، قد استخدما مبلغ ٣٦,٠٠٠$ لشراء تذاكر سفر إلى الولايات المتحدة والإنفاق على مصاريفهما هناك. يعيش القصع الآن حراً في اليمن، لكنه يبقى ضمن قائمة أخطر الإرهابيين المطلوبين لدى مكتب التحقيقات الاتحادي.

عمر عبد الرحمن: يُعرف بلقب الشيخ الضرير (تسبب داء السكري الذي أصيب به في طفولته بفقدانه بصره)، وهو الذي قاد الجماعة الإسلامية، المنظمة المنافسة لمنظمة الجهاد الإسلامي المصرية بقيادة الظواهري. سُجن الشيخ عمر في مصر نظراً لعلاقته باغتيال السادات في العام ١٩٨١، لكنه أُبعد عن البلاد، وتمكن

من الوصول إلى الولايات المتحدة لقيادة عمليات عبد اللَّه عزام في الولايات المتحدة. تمكن عبد الرحمن من دخول الولايات المتحدة بعد أن أعطاه أحد مسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية تأشيرة دخول، بالرغم من وضع وزارة الخارجية الأميركية اسمه في قائمة الإرهابيين الموضوعين تحت المراقبة. ألقيَ القبض عليه في سياق عملية وقف الإرهاب التي نفذّها مكتب التحقيقات الاتحادي، وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة.

علي عبد اللَّه صالح: رئيس اليمن الذي أقام علاقة مع المقاتلين المجاهدين خلال الحرب الأهلية اليمنية. ساعده المجاهدون في تحقيق نصر اليمن الشمالي على اليمن الجنوبي الاشتراكي. كان ذلك بداية لعلاقة معقدة مع المتطرفين والقاعدة استمرت حتى هذه الأيام.

محمد صالح: عضو مجلس الشورى في منظمة الجهاد الإسلامي المصرية ورفيق مقرب من أيمن الظواهري، ما لبث أن أصبح عضواً في مجلس شورى القاعدة بعد الدمج الرسمي للمنظمتين في شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠١. أقامت القاعدة احتفالاً في منزله بمناسبة هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. قُتل محمد صالح بعد أن أصابه صاروخ أميركي.

مروان الشّحي: عضو خلية هامبورغ، وزميل السكن لقائد خاطفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر محمد عطا ورمزي بن الشيبة، كما كان أحد خاطفي الرحلة الرقم ١٧٥ التابعة ليونايتد آيرلاينز، وهي الطائرة التي صدمت البرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي. أدت اعترافات فهد القصع أمام روبرت ماكفادين، وهو العميل الخاص في NCIS وأمامي والتي قال فيها إن الشّحي قد أقام في إحدى المراحل في مركز الضيافة الذي يديره أبو جندل، إلى إقناع اليمنيين بالسماح لنا باستجواب أبو جندل.

[redacted]: كبير المحللين النفسيين لدى وكالة الاستخبارات المركزية والذي عمل [redacted] معه خلال استجواب أبي زبيدة [redacted]. تخلى عن استجواب

أبي زبيدة بعد أن أوضح له المتعاقدون مع وكالة الاستخبارات المركزية أنهم ينوون استخدام تقنيات الاستجواب التعسفية.

عبد اللّه سونغار: قائد دار الإسلام الذي أسّس، بالتعاون مع رجل الدين أبي بكر بشير، المجموعة الإرهابية في جنوب شرق آسيا والمسماة الجماعة الإسلامية. رتّب سونغار لأعضاء جماعته السفر إلى أفغانستان في أعوام الثمانينيات من القرن الماضي للتدرب، ولقتال السوفيات. كان الحنبلي أحد أبرز أتباعه. مات في العام ١٩٩٩.

عبد اللّه تبارك (الاسم الحركي أبو عاصم المغربي): صديق شخصي مقرب من بن لادن، وتعود صداقتهما إلى أيام قتالهما للسوفيات معاً. تبعه إلى السودان حيث طلب منه زعيم القاعدة ترؤس فرقة حرسه الشخصي بعد تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨، وهو والد زوجة ابراهيم القوصي. ألقي القبض عليه مع علي البهلول لكونهما مشاركين في جماعة «قنبلة المخلفات المشعة» بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ونُقل إلى خليج غوانتانامو في كوبا. تعرّفتُ إليه استناداً إلى الوصف الذي زوّدني به أبو جندل، وميّزته من بين جموع السجناء. مُنع مكتب التحقيقات الاتحادي، وتحت ظروفٍ مشبوهة، من استجوابه، ثم أُخلي سبيله بعد ذلك. يعيش عبد اللّه الآن بكل حرية في المغرب.

فرقان الطاجيكي (الاسم الحركي فواز الربيعي): ناشط يمني في القاعدة، ألقيَ القبض عليه لعلاقته بخطة سرقات السيارات في بيت هبرة، كما تورط في ما بعد في عمليات أخرى نفذتها القاعدة في اليمن. تمكن فرقان من الفرار من أحد سجون صنعاء مع أعضاء آخرين في القاعدة في شهر/فبراير شباط/فبراير من العام ٢٠٠٦، لكنه قُتل في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٦.

مدني الطيّب (يُعرف كذلك باسم أبي الفضل المكي): أول مسؤولٍ مالي في القاعدة.

فَقَدَ إحدى ساقيه خلال الجهاد ضد السوفيات، وكان مقرباً جداً من بن لادن. أمر جمال الفضل بمحاولة الحصول على اليورانيوم لمصلحة المنظمة. سافر في أعوام التسعينيات من القرن الماضي إلى أوروبا بمساعدة من خالد الفواز لمتابعة علاج ساقه. قيل في العام ١٩٩٧ إنّه انشقّ عن القاعدة، وهو الأمر الذي سبّب الرعب بين عدد من النشطاء، ومن بينهم هارون فضل. تعاون مدني الطيب مع السلطات السعودية التي قالت إنها أعطت المعلومات التي حصلت عليها منه إلى وكالة الاستخبارات المركزية، لكن هذه المعلومات لم تصل قط إلى مكتب التحقيقات الاتحادي. اعتقد الجيش الأميركي أنه موجود في معتقل غوانتانامو. يعيش الطيّب الآن في المملكة العربية السعودية.

جورج تينيت: مدير وكالة الاستخبارات المركزية من تموز/يوليو العام ١٩٩٧ وحتى تموز/يوليو من العام ٢٠٠٤. استُبعد المستجوبون المحترفون خلال إدارته عن وكالة الاستخبارات المركزية، ووُضع مكانهم المقاولون على رأس عمليات الاستجواب، وهكذا طُبقت التقنيات التعسفية في عمليات الاستجواب.

توم وارد: رجل تحرٍ في دائرة شرطة نيويورك، وعيّن في الفريق المشترك لمكافحة الإرهاب. انتقيته ليكون عضواً في فريقنا الذي تولى التحقيقات في تفجير يو. أس. أس كول، وتحقيقات ما بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

رمزي يوسف: العقل المخطط لتفجير مركز التجارة العالمي في العام ١٩٩٣، وهو ابن شقيقة خالد الشيخ محمد، كما اشترك معه في التخطيط لعملية مانيلا آير (بوجينكا) الفاشلة. يمضي رمزي يوسف الآن فترة سجن لمدى الحياة في أحد السجون الأميركية.

أيمن الظواهري: كان في البداية أحد قادة منظمة الجهاد الإسلامي المصرية، كما ساند دمج المنظمة مع القاعدة وأصبح بذلك نائب بن لادن. ساعد كذلك على إحاطة بن لادن بمواطنيه المصريين، فضمن بذلك هيمنة المصريين عليها والتأثير

في قراراتها. يُشتبه بوقوفه وراء اغتيال عبد اللّه عزام في العام ١٩٨٩. أعلنت القاعدة في ١٦ حزيران/يونيو، ٢٠١١ تعيينه قائداً للتنظيم بعد مقتل بن لادن.

آرون زيبلي: عميل خاص لدى مكتب التحقيقات الاتحادي، وهو يتمتع بخلفية قانونية ساعدته على تأدية دورٍ حاسمٍ في اعتقال خلفان خميس محمد، وهو ناشط متورط في تفجيرات السفارتينً في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨، كما انتزع اعترافاته. عُيّن بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ضمن فريق التحقيقات في هذه الهجمات، كما تتبع رمزي بن الشيبة مع مايك بوتش.

[redacted]